

المراجع الديني آية الله العظمى  
السيد محمد تقي المدرسي

# المنطق الإسلامي

أصوله و مناهجه

# المنطق الاسلامي

اصوله ومناهجه

المرجع الديني آية الله العظمى

مكتبة كتب الشيعة

السيد محمدتقي المدرسي



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

المنطق الاسلامي

المرجع الديني آية الله السيد محمد تقي المدرسي

الناشر: دار محمّي الحسين ﷺ

الطبعة الاولى - ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م / ٣٠٠٠ نسخة

السعر: ٢٤٠٠٠ ريال

مركز التوزيع: طهران - ناصر خسرو - زقاني حاج نايب - هاتف ٣٩٠٧١٨١

ISBN 964 - 7373 - 53 - 8

شابك ٨ - ٥٣ - ٧٣٧٣ - ٩٦٤







## مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم  
الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله

حين تفقد الأمة شخصيتها ، فليس بينها وبين نهايتها ، إلا خطوة واحدة .  
الإنسان يعمل من أجل ذاته وبقواه الذاتية ، وحين يفقد التحسس بذاته ، أو  
الثقة بها ، فبماذا ولماذا يعمل ؟

كذلك الأمة تعمل - كأمة - من أجل شخصيتها ، وبما لديها من طاقات مادية  
وروحية ، فإذا ضاعت الشخصية ، فبماذا ولماذا تعمل ؟

إن شخصية الأمة هي روحها الجماعية التي يستوحي منها كل فرد من أبنائها  
العزيمة والأمل . . .

حين يعشق الفلاح أرضه ، التي يحراثها ويداعبها حتى تخضر وتنتج ، فهو  
لا يحب التراب ، كمادة جامدة - بل كرمز للأمة التي عاشت ولا تزال عليها . . .  
وحين يتعامل العامل مع آلات مصنعه ، وينسجم معها كأنه في جوقة  
موسيقية . . . فإنه لا يتعامل مع الحديد . . . إنما مع البشر الذين سوف ينتفعون  
منها .

والجندي حين يحتضن بندقيته ويقلبها ويخف لعربته المسلحة ، ويقذف بنفسه في هوات الموت . . . فليس لأنه يعيش الموت ، أو يعبد النار التي في السلاح ، إنما لأنها رمز أمته التي يتحسس بروحها تجري في عروقه فتملؤها عزيمة وأملًا .

الرئيس الذي ينكب على أوراق مكتبه يضيع بينها ، كأنه السمكة تسبح في نهر الأفكار . . يشعل السيجارة بعد السيجارة ، ويعتصر مخه وقلبه حتى يتخذ قراراً صائباً ، يخدم به أمته .

إنه يحب هذه الأمة ويشعر أن ذاته تذوب في كيائها الموحد .

إن حبلاً قوياً يشد هؤلاء إلى بعضهم ، وروحاً واحدة تجمع قلوبهم وتضيئها بقنديل الأمل .

ولكن ، إذا ضاعت شخصية الأمة ، ولم يعد يشعر أبنائها بالروح الواحدة التي تجمعهم ، فإن كل واحد سيتخذ طريقاً مختلفاً ، وسيشعر الجميع بالضعف والعجز والهزيمة . . .

والسؤال : ما هي شخصية الأمة وبأي شيء تتكون ؟

الجواب : إن وحدة القيم والثقافة ، والاشتراك في الهدف والتاريخ ، هي حدود شخصية الأمة المتميزة . . .

فمن دون الثقافة الواحدة ذات القيم السامية والثابتة ، التي يؤمن بها الجميع إيماناً راسخاً يعيشهم على العطاء من أجلها والتضحية لها بكل شيء ، يسقط الجدار المعنوي لبناء الأمة .

ومن دون الهدف ، ذي التجربة التاريخية ، الذي يكون نقطة ارتكاز لنشاطات الأمة ، ينهار الجدار المادي لبناء الأمة .

وإننا ، كمسلمين ، نتعرض اليوم لتهديد حقيقي بضياع شخصيتنا

المتميّزة ، وربما لأول مرة في تاريخنا الممتد أربعة عشر قرناً .

إن المسلمين يبحثون اليوم عن هوية ، إنهم يبحثون - في فراغ - عن شيء يتشبّهون به ولكنهم لا يجدونه ، ولن يجدوه ما داموا بعيدين عن دينهم وتراثهم .

وإذا عادوا إلى الإسلام ، كدين وتاريخ ، فسوف يجدونه أكثر من مجرد هوية ، إنه الكثر الحقيقي الذي لا ينفد .

إنه المعدن الذي لم يستمر إلا قليلاً ، وإذا استمر أعطى الكثير بفضل غناه الروحي وقيمه الإنسانية ومناجحه الحكيمة .

والإسلام الذي نريده منطلق حضارة وإطار شخصية ، ليس إسلام المسلمين الذين حولوه إلى قشور فارغة ( مساجد بلا مصليين / صلاة بلا خشوع / خشوع بلا فهم و . . . و . . . ) .

أو إلى إرهاب فكري تمارسه الرجعية ضد التقدم والانطلاق .

أو إلى أفكار تبريرية تواكليه لتعاضدهم وعجزهم .

أو إلى سلاح سياسي يشهره المستغلون ضد المعدمين والمحرومين .

كلا

إنما هو الإسلام الذي أمر به القرآن ولخصته تجارب الأمة في قرون التقدم والانطلاق ؛

إسلام المناضلين من أجل فك الناس عن عبادة الناس إلى توحيد الله ؛

إسلام التطور والإصلاح . . .

إن ممارسات المسلمين في التاريخ - كممارسات المسلمين اليوم - ليست كل احتمالات الحضارة الإسلامية بل إن بعضها غطاء يخفي إشراق الإسلام الحقيقي .

إن الإسلام الحق ، يمكن أن يعطي الإنسانية حضارة روحية - مادية عظيمة المنفعة والروعة .

إن الحضارة الغربية ليست الشوط الأخير في تقدم الإنسان ، ولا النموذج الأسمى لحياته .

وعلينا أن نستخرج من « كنوز الإسلام » حضارة أسمى . . .

ولكن ، من الذي يجب أن يفعل لنا ذلك ؟

هناك طائفتان هما : رجال الدين حين يصبحون رجال علم ، ورجال العلم حين يصبحون رجال دين .

ولنا مع كل واحد منهما كلمة . . .

كلمة إلى رجال الدين :

معذرة يا رجال الدين الأفاضل ، إنها كلمة أعتبرها نقداً ذاتياً وأرجو أن تُقبل على هذا الأساس .

الإسلام الذي تشرفون به هو دين العلم ، والمجامع الدينية (الحوزات) هي التي خرّجت كبار علماء المسلمين في مختلف الاختصاصات .

فلماذا انكفأت المجامع العلمية على ذاتها ، ورأت أن مسؤوليتها تنحصر في إعادة صياغة أفكارها دون أي إنفتاحٍ على أفكار العالم من حولها ؟!

لماذا لم تُطعم الحوزات الدينية مناهجها بالجديد الجيد من مناهج العلوم الحديثة ، أو على الأقل ، لماذا لم تطور هي مناهجها بما يتناسب مع تقدم العصر والسرعة الهائلة فيه ؟!

الحدود الغامضة بين الأصالة والتقليد :

قد يُقال - بحق - : إن العملية ليست بهذه البساطة ، إذ التطوير يرتبط

ارتباطاً وثيقاً بالحدود الغامضة والدقيقة التي تفصل بين الأصالة والتقليد ؛ بين ما يجب أن يبقى وما يجب أن يطور .

وبالتالي ، بين القضايا المتعلقة بالقيم الثابتة ، التي لا يجوز التنازل عنها تحت ضغط أي ظرف من الظروف ، وبين التقاليد البالية التي لصقت بها في غفلة من الوعي ، أو القضايا التي كانت صالحة في يوم ثم أصبحت من مخلفات العصور الأولى . . .

وليس من حق كل من هب ودب ، أن يعين هذه الحدود الدقيقة . لأنه بحاجة إلى معرفة شاملة بالعصر ومتغيراته من جهة ، وبالدين - القيم الثابتة منه والمواضيع المتغيرة - من جهة أخرى .

ثم لحساسية هذه القضايا يختلف فيها الناس اختلافاً كبيراً . فالامر الذي هو في رأي أحد المفكرين ، من صميم الدين ، فإذا تغير أطبقت السماوات على الأرض ، إنه بالذات ، تقليد أعمى ، في رأي جماعة أخرى ، ويُخالف الدين ، والدين بريء منه .

مثلاً : محل المرأة ، هل هو البيت فقط ، أم رحاب الحياة كلها ؟  
فريق من الناس لا يكفون عن الصراخ بأن الله والقرآن ، والرسول (ص)، والمسلمون ، يقولون أن المرأة يجب ألا تخرج من حدود البيت .

بينما فريق آخر ، يقول بكل ثقة وقناعة : إن الإسلام يفرض على المرأة الإحتشام ، ثم يوجب عليها أن تساهم في بناء الحياة ابتداءً من البيت وانتهاءً بالاصلاح السياسي .

وهؤلاء وأولئك ، يقدمون معاً شواهد وأدلة عديدة ، وجذر المشكلة أن الدين اختلط عندنا بالتقاليد . والقرآن ( حمال ذو وجوه ) يفسر بالأهواء ، وفي هذا الجو . . . يتطرف الذين يريدون الإصلاح فيتجاوزون حدود الأصالة

ويتطرفون في التمرد على الماضي بخيره وشره ، بقيمه الصالحة وتقاليده البالية .  
ويكفرون بالتالي ، حتى بالشخصية المتميزة للأمة .

كل هذا القول صحيح ، ولكن السؤال هو : لماذا إذاً لا تنعقد مؤتمرات  
تُعالج هذه المشكلة بالذات ؟ ولماذا لا تُعطى لهذه المشكلة الأولوية . عوضاً عن  
القضايا الجانبية ؟ لماذا لا تُصرف من أجل حلها الطاقات الهائلة (النمادية  
والمعنوية) التي تُصرف في إعادة صياغة الأفكار الماضية بقوالب جديدة ، وحتى  
إعادة طباعتها بذات الأساليب ؟ ...

### الغلو في الدين حرام :

ويزعم فريق منهم أن السبيل الصحيح للمحافظة على الدين ، هو إضافة  
أشياء إلى الدين ، (احتياطاً) عليه . فمثلاً إنهم يقولون : لنحافظ على التقاليد  
التي كانت قديمة وبالية ، لكي لا يجرؤ أحدٌ على نقد القيم الصحيحة .

لكن يجب على هؤلاء أن يتنبهوا إلى أن الزيادة في الدين حرام لأنها نوعٌ من  
الغلو الممنوع . إن الغلو في الدين هو المسؤول المباشر عن تمرد طائفة كبيرة من  
الناس على الدين ، إذ أنهم يرون ، بالعقل والتجربة ، فساد مجموعة من الأحكام  
والتقاليد ، التي ألصقها الجاهلون بالدين ، فيزعمون أن الدين كله هكذا .  
ويقولون : الأفضل أن نكفر بالمجموع ، حتى لا يفرض علينا أحكام وتقاليد بالية  
أو مضرّة .

فمثلاً، حين يحرم أدعياء الدين دراسة العلم الحديث ، ويحرمون إلى جانبه  
تقليد الغرب في فنونه ، وأنظمتهم ... فإن طائفة من الناس يجدون أن قبولهم  
بالدين يحرمهم من نعم العلم ، فيفضلون الأخذ بتقاليد الغرب وفنونه ، ليتسنى  
لهم الأخذ بعلمه ...

وفي العالم المسيحي ، كان الغلو في الدين هو السبب المباشر لإنهاء  
سيطرة الكنيسة وتحول الناس إلى الإلحاد . وحين تراجعت الكنيسة ، تحت

ضغط الظروف ، عن إضافاتها اللا معقولة إلى الدين ، عاد العالم الغربي إلى المسيحية . من هنا غضب الله على طائفة من الناس لأنهم حرّموا ما أحلّ الله لهم . . . وقال :

﴿ قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لعلهم يعلمون ﴾ [ ٣٢ / الأعراف ] .

﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وإن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وإن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ [ ٣٢ - ٣٣ / الأعراف ] .

وقال :

﴿ قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرّم هذا ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم يربهم يعدلون ﴾ [ ١٥٠ / الأنعام ] .

وقال عن المشركين الذين حرّموا على أنفسهم ما أحلّ الله لهم . قال :

﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين ﴾ [ ١٤٠ / الأنعام ] .

إن التحريم بحاجة إلى نص كما الإيجاب ، ولا يجوز أن نضيف إلى الدين أشياء زائدة لتكون درعاً واقية للدين الصحيح فلرب زيادة نقيصة .

### الإسلام دين التطور :

وإذا لم يبين الله سبحانه في القرآن الكريم إلا أحكاماً قليلة ، وركز في بقية آياته على مجموعة قليلة من القيم التي أراد ترسيخها في ذهنية الأمة بشكل كامل . . . إنما فعل ذلك ليفتح أمام الأمة أبواب التطور . . .



والنبي محمد (ص) لم يكتب لنا أسفاراً مطولة في التشريع ، إنما بين أصول العلم والحكمة ، ورَسَخَ قيم القرآن بتشريعاته الرشيدة ، ثم وَجَّه الأمة إلى خلفائه المعصومين فقال : « إني تاركُ فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا » .

وخلفاء الرسول (ص) لم يؤلفوا كتباً مطولة في الأحكام الفقهية ، إنما قالوا : « علينا بالأصول ، وعليكم بالفروع » . ووجهوا الأمة من بعدهم إلى الفقهاء وقالوا : « وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا » .

كل ذلك لذات الهدف ، وهو : فتح أبواب التطور أمام الأمة .

وليس من الصحيح طرح النظريات العامة التي تسبح في فراغ كأنها كليات أبو البقا .

إذ إن طرح النظريات هكذا ، ومن دون تحويلها إلى برامج عملية لا بد أن يتم لواحد من عاملين :

١ - إما لأن النظرية ذاتها غير واقعية وتشبه نظريات المدينة الفاضلة للفارابي في كونها تصلح أن تكون آمنيات حلوة ولكن لا تصلح أن تكون خططاً للعمل وأنظمة للتطبيق .

٢ - إما لأن صاحب تلك النظريات لا يعرف كيف يجب أن تنفذ على متغيرات الحياة .

ويبدو أن أكثر الكتابات الدينية العامة هي من النوع الثاني .

وإذا كان صاحب النظرية ، والمفروض فيه أن يكون اختصاصياً في أمرها ، لا يعرف طريقة تنفيذها ، فكيف إذا ينتظر من الناس العاديين أن يعرفوها ؟!

لكن السؤال : هل نحن طورنا ، حسب مسؤوليتنا الدينية ، الأحكام وفق متغيرات العصر ؟

أم تمسكنا بالجانب الثابت من الشريعة وضخمناه إلى أبعد حد ممكن ،  
وأعدنا صياغته من جيلٍ إلى جيلٍ . . . أما المتغيرات فتركناها لإجتهادات  
الناس . . ؟

ما هو الاقتصاد الإسلامي ؟ وكيف ينبغي أن يتم توزيع الثروة ؟

كيف يجب أن ننمي ثروتنا القومية ؟ .

ما هي القوانين التي تنظم علاقة العامل برب العمل . . وهل يجب أن  
يُشارك العمال في الأرباح ؟ وكـم ولماذا . . وهل للعمال ضمان إجتماعي ؟

ما هو حكم الدين في الأراضي ؟ هل يجوز تقسيمها على الفلاحين إذا  
اقتضت الضرورة القصوى لاستقلال بلادنا الاقتصادي ، ومتى تكون حالة  
الضرورة . . وهل نحن الآن في تلك الحالة ؟

ما هي أنظمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . ما هي الوسائل  
السليمة التي يجب اتباعها اليوم ؟ هل يجوز الإصلاح السياسي المسلح ، أم  
يجب أن يكون مجرد عمل صامت ، أم عصيان مدني ؟ . . .

كيف يجب مقاومة الاحتلال ، ما هي عناصر النجاح فيها ؟

كيف يجب أن يُبنى المجتمع ؟ وكيف نوجد فيه الديناميكية ؟ كيف نجعله  
مجتمعاً متقدماً ؟ كيف نحافظ على القيم التي تسود عليه ؟

ما هي تفاصيل البرنامج الأخلاقي التي يجب أن يتقيد بها الإنسان المؤمن :  
هل هي المرونة أو التصلب ، ومتى المرونة ومتى التصلب . وهل هي الإنعزال أم  
الإنفتاح . ومتى هذا ومتى ذاك ؟

إن مئات الأسئلة العريضة حائرة اليوم وتتطلب أجوبة صحيحة وواقعية  
وواضحة . فأنى لنا بذلك .

إذا لم تصبح القضايا اليومية الملحة هي محور الدراسة ، ولم نعالجها

بشجاعة وحكمة ، والتضحية بكثير من التقاليد التي أصبحت عندنا ديناً ومعناً ومقدسات . . . فإن عقابنا سيكون عسيراً أمام الله . والتاريخ . . .

مسؤوليتنا ليست في إعادة الكتابة لمشاكل من قبلنا ، وإعادة الحل أو البحث عن مشاكل لا وجود لها .

ليس من الصحيح بيان الافتراضات إذا كان هكذا ف . . . هكذا ، وإن كان كذلك . . . فهكذا . . . علينا أن نعطي رأياً ثابتاً وواضحاً ومحددأ . . . ونقول :

لأن الأمر هكذا ، فالحكم هكذا وكفى . . . وهذا - بالطبع - بحاجة إلى علم واسع لا بالكتب بل بالحياة ، بكل تفاصيلها . . إن هذه وليست غيرها هي مسؤولية الفقيه .

والا . . . لكان يكفي أن نعيد طباعة كتاب فقهي قديم مرة كل عام ونطبعه . إننا لا نحتاج إلى نسخ أخرى للكتب الفقهية يا فقهاء القرن العشرين !

إن المغالاة في التحذر قد تسبب في إخراج الناس من الدين رأساً ، ولذلك تصبح في بعض الأوقات أشد ضرراً من اللامبالاة في الدين . لذلك كره الله عمل المارقين المغضوب عليهم كما لم يرض عن القاسطين الضالين .

إننا بحاجة إلى من يعرف السياسة ، ويعرف الدين ، ويعطينا رؤية دينية تجاه مشاكلنا السياسية .

بحاجة إلى من يعرف الاقتصاد . . . ويعرف بصائر الدين فيه . . . ووفق تلك البصائر يحل لنا قضايانا ومشاكلنا الاقتصادية .

وبحاجة إلى من يعرف الثقافة الحديثة وتياراتها ، في التربية وعلم النفس - بفروعه العديدة - والأدب والفن ثم يعطينا نتيجة بحوثه . . . آنئذ طالبونا بتطبيق الاسلام . . فمن بدله من بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه .

وبالطبع إذا لم تتغير مناهج الدراسة ، وإهتمامات الدارسين ، ومحاور

حلقات المناقشة في المجمع الدينية ، لا يستطيع رجال الدين القيام بهذه المهام  
الجسام . . .

لكن ، من يغير مناهج الدراسة ؟ . . نحن بانتظار ذلك الرجل الشجاع  
الحكيم .

### مسؤولية رجال العلم :

وأنتم يا رجال العلم ! لماذا لا تصبحون رجال دين أيضاً ! تستوحون من  
الدين روحه ورؤاه ، ومن الواقع علمه وخبرته ، وتقدمون للناس برامج واقعية  
دينية ؟!

صحيح أن دراستكم كانت في الجامعات الأجنبية ، وهي لا تؤهلکم للكتابة  
عن الدين ، وعن ثقافة الأمة الأصيلة .

وصحيح ، أنكم حين تعزمون على دراسة موضوع معين ستضع المكتبة  
الأجنبية امامكم كل ما تحتاجون إليه من دراسات ووثائق ومراجع و.و.

بينما لا توفر المكتبة الاسلامية لكم إلا القليل من الأفكار المشبوبة في مراجع  
قديمة ، ذات طباعة رديئة ، ولغة صعبة الفهم .

إلا أن رجل العلم ينبغي أن يكون مبدعاً . يخرج من الأرض الميتة زرعاً  
بجهوده التي لا تعرف الكلل . . .

وصحيح أنكم سوف تتعرضون لهجوم من أدياء الدين ، الذين يُمارسون  
الإرهاب الفكري . لكن يجب مقاومة هذا الإرهاب لأن الاستسلام للإرهاب  
جريمة لا تغتفر ، لأنه يشجع على المزيد منه . إن الله قال للرسول الأعظم  
- محمد صلى الله عليه وآله - :

﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾<sup>(١)</sup> .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٢٨ .

﴿ أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ <sup>(١)</sup> .

﴿ لا إكراه في الدين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

فكيف يأتي رجلٌ لا يعرف من الدين شيئاً كثيراً لينصب نفسه حاكماً على الدين ؟ ويشهر من الدين سلاحاً ضد كل من خالف آراءه ، أو بالأحرى خالف مصالحه الشخصية التي سرعان ما يجعلها ديناً .

إن هذا السلاح هو الذي كان عقبة في طريق تقدم المسلمين ، وهو الذي استشهد به خيرة أبناء الأمة . . . منذ عهد الإمام الحسين (ع) سبط رسول الله (ص) .

وعلى رجال العلم أن يقاوموا هذا السلاح في بلادنا كما حاربوه في أوروبا .  
يبقى سلاح التشهير بالدين . هناك طائفة من المتأثرين بالغرب سيرفعون أصواتهم ضد رجال العلم الذين يدافعون عن الدين ، ويتهمونهم بألف تهمة وتهمة .

طبعاً ليس ضمن تلك التهم تهمة التقليد للغرب ، وتسريب ثقافته الدخيلة إلى الأمة . . .

ولكن يجب أن نقول لهؤلاء . . . الذين لا تعجبهم عودة زميلٍ لهم إلى أصالته الدينية . . . نقول لهم كلمة عتاب واحدة هي :

### هل العقل في إجازة ؟

بالرغم من أن العلم الحديث قبل أن يكون نظرياً ، هو علم واقعي براعي الاختلافات الواسعة التي توجد في طبيعة الناس .

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٩٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٦ .

فإن هذه الطبقة من رجال العلم عندنا لا يكفون عن تقليد العالم الغربي ، أو العالم الشرقي - كل حسب دراسته - دون تفكير بالاختلافات الواسعة التي تجعل منا غير الغرب ، وغير الشرق . . .

فمثلاً ، يحدثوننا عن مشاكل الصناعة ، أو عن طريقة منع استغلال أصحاب المصانع للعمال ، بينما ليس لدينا صناعة بمعنى الكلمة . . . ويحدثوننا عن مشاكل الإنسان ذي البعد الواحد في العالم الصناعي . . . في الوقت الذي نعيش التطرف في التشتت حيث نحتاج إلى لملمة جوانبنا في إطارات محدودة .

في الغرب ترى العامل في المصنع يتحول شيئاً فشيئاً إلى جزء من المصنع حيث يتحول المصنع عنده بكبرة الهنود إلى آلهة تُعبد ؛ وبذلك تتحجم كل طاقاته ضمن هذا المصنع الصغير . . . ويطلع عليه «هربرت ماركوز» بكتابه «الإنسان ذو البعد الواحد» ينبهه إلى هذه الحالة المزرية التي انتهى إليها ، ويأمره بعدم الإفراط في التركيز .

أما هنا ، فنحن نعيش عالم التشتت المطلق حيث لا مصنع لدينا ، ولا تنظيم دقيق ولا هم يحزنون . . . فمن المضحك أن يأتي كاتب وينصحننا بعدم التركيز . . .

إننا نترجم ، من حيث نشعر أو لا نشعر ، ثقافة الغرب في عبارات عربية دون أن نحكم عقولنا فيما تنفع وما تضر ، كأن العقل في إجازة . . .

و حين ينعكس التقليد على الجوانب العملية . تكون أدهى وأغرب . . . ففي إحدى دول الخليج حيث يمتد الصيف أكثر من ٩ أشهر . . . وحيث يعتبر أهلها الشمس عدوهم رقم واحد . . .

كُلفت إحدى الشركات ببناء مدارس للأطفال . . . وحسب وصية المهندسين المتعلمين في بريطانيا . . . تم بناء المدارس . . .

بريطانيا . . . هي بلاد الضباب ، الشمس هناك محبوبة الجماهير

الأولى . . . هناك لا بد أن تُبنى البنايات بشكلٍ تستوعب نوافذها أكبر كمية ممكنة من أشعة الشمس .

وهكذا قلّد مهندسو هذه الشركة البريطانيين في تعرضهم للشمس . . .

فإذا بالمدارس تعكس على الطلاب الشمس وتمنعهم من الدراسة . . .

وفي بلد خليجي آخر ، حيث البرد الصحراوي القارص أيام الشتاء ، والحر والرطوبة أيام الصيف . . . وحيث لا ربيع ولا خريف . . .

هناك . . . يخصص المهندسون للشرفات مساحات كبيرة تقليداً للمناطق التي تتمتع بفصول طبيعية يُستفاد فيها من الشرفات .

ولقد رأيت مهندساً ، صمم فيلا لعائلة محافظة ، جعل جدران الطابق الأعلى منه من الزجاج . . . بيد أن هذه العائلة كانت تسدل الستائر من وراء الزجاج ليل نهار . . . محافظة على تقاليدها الدينية في التستر . . . حسناً فماذا نفع الزجاج ؟

وإذا تركت الهندسة إلى الطب رأيت شيئاً يشبه ذلك . . .

إن أبسط قواعد الطب هي معرفة أوضاع المريض الصحية . . . وحين تكون دراسة الطبيب في بلاد غريبة ، ثم لا يكملها بالتعرف على بلاده التي يريد أن يُمارس فيها مهنته ، فكيف ، يا ترى ، يقدر على معالجة المرضى ؟ . . .

وإذا تركنا الثقافة والطب والهندسة إلى التربية والاقتصاد والسياسة ، كانت مظاهر النشاط وعدم التناسب أكثر بروزاً وأشد غرابة .

كل ذلك يعود ، ببساطة ، إلى أن رجال العلم عندنا قليلاً ما يبدعون .

إن أخطر حالة تصيب الإنسان هي حالة فقدان الثقة بالذات . ورجال العلم أصيبوا بهذه الحالة مع الأسف . فهم انبهروا كلياً بمظاهر الحضارة الغربية ، وتركوا وراء ظهورهم كنوزاً لا تنفذ من إمكاناتهم الذاتية . . .

إن الحل الوحيد لهؤلاء هو ، من جهة ، العودة إلى التراث حيث يجدون فيه ما يعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم . . .

ثم ، من جهة أخرى ، مواجهة الواقع والتعامل معه مباشرة ، وليس من وراء حجب الكتب والدراسات .

### من أجل شخصيتنا الضائعة :

على رجال العلم أن يعملوا لإحياء شخصيتنا الضائعة ، بين تقليد المترمّتين للماضي ، وتقليد المتمردين للأجنبي .

عليهم أن يؤسسوا لنا حياة جديدة . . . تكون حياتنا نحن ، لا هي حياة من مضى من آبائنا ، ولا هي حياة الغرباء عنا . . .

ولا تكون كذلك إلا إذا راعينا في مقياسنا ثلاثة أشياء أساسية :

#### ١ - أصالة القيم :

ونعني بها ترسيخ الإيمان والحق والحرية والعدالة الإجتماعية . . .

وكل القيم التي أجمعت عليها نصوص ديننا وتجارب أمتنا ، وتُهدى إليها عقولنا . . .

إن القيم ذاتها مقبولة . أما طريقة تجسيد هذه القيم تاريخياً ، فهي غير ضرورية .

فمثلاً : إن الحرية ذاتها قيمة أساسية يجب الإهتمام بها ، أما الأساليب التي أمنت لنا الحرية ، فهي قد لا تكون نافعة اليوم . . . أو قد تكون ضارة إذ إن البشرية ابتدعت أساليب أفضل منها . . .

#### ٢ - واقعية التشريع :

والتشريع يجب أن يُستلهم من الواقع الراهن ، بما فيه من اختلاف



وتفاوت ، شريطة أن تكون القيم الأصلية هي المحتوى الحقيقي لهذه الواقعية . . .

علينا أن نتوخى تطبيق (العدل) ، ولكن كيف ؟ بالتشريع الذي يؤمن ، ضمن كل واقعة بالذات ، أكبر نسبة ممكنة من قيمة (العدل) .

إن دراسة الواقع ، ومتغيراته ، وحاجاته ، أهم من دراسة القيم ذاتها . . . إذ القيم واضحة ، والتعرف عليها ميسور ، إنما متغيرات الواقع غامضة وكثيرة . . .

### ٣ - مغزى التجارب الحديثة :

العلم الحديث خلاصة تجارب . . . وعلينا أن ننفتح عليها . لكن قبل ذلك علينا أن نميز بين قشور التجارب ولبابها ؛ بين المغزى الحقيقي للتجربة ، وبين الإطار الذي وضع فيه هذا المغزى . . .

إن هذه العملية الشاقة ، ذات الأبعاد الثلاثة ، هي المسؤولية الملقاة على كاهل رجال العلم اليوم .

### المنطق . . . وسيلة التقييم السليم

وبالطبع سيكون المنطق وسيلتنا إلى التقييم السليم ، سواء على صعيد القيم لفرزها عن تطبيقاتها الماضية ، ولفصلها بالتالي عما لصقت بها من تقاليد بالية . . .

أو على صعيد واقعية التشريع ، أو على صعيد الانفتاح على مغزى التجارب .

إذ من دون المنطق السليم ، كيف يتسنى لك استثمار عقلك ، وتوجيه تفكيرك ؟!

إننا نخسر كثيراً بتخلفنا الذي دام أكثر من اللازم ، وليس من المعقول الاستمرار فيه . ولكن ، كيف نفتح أبواب الحضارة على أنفسنا؟ .. في اعتقادي .. إن أية حضارة لا تبدأ إلا بتكامل عاملين : العقل والروح - الدماغ والقلب - الفكر والإرادة . وبالتالي العلم والإيمان ...

والمنطق ، هو وسيلة العقل ... وبالرغم من أنني أرى أن العقل يأتي متأخراً عن الروح .. لأنه لولا الروح . لولا الإرادة . لولا القلب الحي . والضمير اليقظ .. لولا الإيمان .. لا يتحرك العقل .. لأنه لا يجد حاجة في التحرك .

لكن الإيمان وحده لا يكفي . إنه كطائر بجناح واحد . كرجل يملك القوة ... يملك الرجل واليد والنشاط ، ولكنه لا يملك العين ... إنه بالطبع لا يستطيع أن يتحرك ...

وفي العالم الغربي تأخر العقل عن الروح . إلا أنه قام بدور بارز فلولا اندفاع «يكون» إلى هدم أصنام الماضي ، ثم مناهج «ديكارت» في تقييم العقل ، ثم مقولات «كانت» ...

ثم إكتشافات الرياضيين والمنطقيين وفي طليعتهم «لابيتس» .. لما استطاع الغرب وضع قنوات تستوعب اندفاعه ... ولما تمكن بالتالي من صنع الحضارة الحديثة ...

والمنطق يجب أن يدخل في كل حقل من حقول حياتنا ليوجهه إلى حيث المصلحة الأكيدة ...

فابتداءً من إدارة البيت ، وتربية الأولاد ، ومروراً باختيار العمل المناسب ، وانتهاءً بالإصلاح الاجتماعي ... يجب أن نستلهم من المنطق الطريقة الحكيمة ...

وحيث نحكم العقل والمنطق السليم ... يسهل علينا الاتحاد والتعاون ،

إذ ان كثيراً من الاختلافات تنشأ من الجهل بالمقياس السليم . . .

لهذه الأسباب اخترت هذه المرة الكتابة عن المنطق . .

ولقد أردت أن يكون الكتاب جامعاً ، لكافة ما يرتبط بتوخي الصحيح  
وتجنب الخطأ . . . ولكن السؤال : هل وفقت لذلك ؟ . . .

الواقع ، بالرغم من أنني قضيت سنيناً من عمري في كتابته ، لم أستطع  
تنفيذ المخطط الذي رسمته للكتاب . . . وبقيت أمامي أفكار وملاحظات كثيرة لم  
تجد طريقها إلى الكتاب . . . وإني أرجو الله تعالى أن يوفقني أو يوفق كاتباً غيري  
لإكمال المسيرة . . .

وعلى الله قصد السبيل

تقي المدرسي

بيروت ١٩٧٧/٧/٦

الموافق ٢٠ رجب ١٣٩٧ هـ

## المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه

- القسم الأول عن : تطور الفكر المنطقي .
- القسم الثاني عن : أصول المنطق الإسلامي
- القسم الثالث : كيف نتجنب الخطأ .
- القسم الرابع : كيف نختار المنهج السليم .
- القسم الخامس عن : مناهج الاستقراء .
- القسم السادس عن : مناهج العلوم الانسانية
- القسم السابع عن : مناهج القياس .



## بحوث تمهيدية

### السؤال الحائر :

السؤال الذي أفض مضجع المفكرين وكشف عن قصور الفكر منذ أن كان فكر وكان مفكرون . . .

السؤال الذي أثاره الفلاسفة والمتكلمون على أنفسهم ، وحاولوا محاولات شتى في سبيل معرفة جواب حاسم له فلم يفلحوا ، أو بالأحرى لم يحرزوا كل الفلاح . . .

السؤال يقول : « كيف يُجنب الخطأ » ، والذي يواجهه الفيلسوف قبل أن يواجه أي سؤال آخر . . . ففي عصر الاغريق حيث اختلف الفكر وتناقضت النظريات ، وتطرفت الفلاسفة ذات اليمين وذات الشمال . . . فرض هذا السؤال نفسه كأشد ضرورة تفرض ، فتصدى لها «أرسطو» ووضع منطقته المعروف والذي هيمن على فكر الإنسان أكثر من أربعة وعشرين قرناً .

وتبناه تابعو الأديان ، جاعلين منه قاعدة دينية لا تتزلزل ولا تميد حتى المسلمون تبنوه ولا يزالون .

ثم كانت الثورة التي فجرتها أوروبا في القرن السابع عشر الميلادي .

وأرادت أن تنسف كل قديم . . . وبصورة خاصة أفكار القدماء وطريقة تفكيرهم . . . وفي مقدمة كل ذلك المنطق الكلاسيكي الأرسطي .

وخاض عالم الفكر معركة الثورة على أرض فرنسا وبريطانيا ، فجعلت الأفكار في حيرة والمفكرين في إبداع .

وتمخضت المعركة عن ميلاد منطق جديد : منطق «ديكارت» .

وأسرعت الأحداث وخلفت في مسيرة الفكر منخفضات وتلالاً ؛ واشتبك الفكر في أكثر من معركة على أكثر من صعيد .

وبتقدم الحضارة ، وسرعة انكشاف الأسرار ، وزيادة إيمان العصري بفكره وازدراؤه بالقديم البعيد عن معطيات عصره . . .

وبتحليل النور ، وغزو الفضاء ، وفلق الذرة ، عُمّت فوضى فكرية أخرى ، تمخضت عن منطق آخر يدعى بالمنطق «الديالكتيكي» .

كل ذلك استجابة لضرورة السؤال ، الذي يفرض نفسه في ظروف الفوضى حيث تختلف الآراء وتتضارب : كيف نجد الصحيح وكيف نتجنب الخطأ ؟

والموضوع الذي بين يديك ، إجابة أخرى عن هذا السؤال . ولكنه يفترق في إجابته عن سائر الفلاسفة والمفكرين في إجاباتهم .

يفترق عنها بوجهين :

الأول : إن كاتبه لا يحاول أن يكون له إبداع في هذا المجال ، بقدر ما يبذل جهده لأن يكون مكتشفاً لإجابة موجودة بالفعل ، ولكنها في أضلع الكتب أو بين صدور نصوص ، عن جواب للإسلام - الدين الذي يُعالج كل مشاكل الإنسان الفكرية ومنها هذه المشكلة - جواب يختلف طبعاً عن جواب أرسطو وديكارت وهيجل ، جواب جديد رغم أنه نزل من السماء قبل أربعة عشر قرناً . . .

الثاني : يحتوي الموضوع على عرض موجز وواضح للأجوبة الأخرى التي قدمها كل من أرسطو وديكارت وهيجل ورواد الفلسفة القديمة والحديثة الآخرين .

وهنا نقطة ملفتة للنظر ؛ هي أن المنطق الذي سوف نستخرجه من الكتاب والسنة ، ونستدل عليه بآيات الكتاب وأحاديث السنة كما بالعقل . . .

هذا المنطق ربما وجد أكثر القراء الكرام كثيراً من بنوده في الآيات والروايات ، ولكن لم يتجهوا إلى واقعه ، وإن من الممكن الاستفادة منه في مجالات فكرية وعلمية . وبتعبير آخر لم يتوجهوا إلى أن هذا القرآن ليس فقط كتاباً مقدساً ، يجب أن يراعي الفرد نصوصه في الأحكام الشرعية ، أو يصغي إلى توجيهاته ، أو يتمتع بقصصه وحكمه . . . بل أكثر من كل ذلك . . .

كتاب علم وحكمة وضياء ونور يجب أن يُدرس بالتدبر والتفكير ، بل أن يُدرس بالتفسير والتأويل .

من هنا فإن «المنطق الإسلامي» كان موجوداً بالفعل في النصوص الشرعية .

لكن المسلمين لم يحاولوا طيلة هذه القرون المتמادية ، أن يفهموه أو يعرفوه ، زعماء منهم أن باستطاعتهم الإستغناء عنه بمنطق أرسطو ، وبما أن الاختلاف الذي مزق شمل المسلمين دلّ على عجز المنطق الأرسطي عن رفع الاختلاف وعن تحرّي الصحيح بين المختلفات ، وأيد ذلك انهيار المباني العلمية التي كان يحسبها علماء المسلمين حقائق مسلمة بفضل المنطق الأرسطي الذي بانهاره في العصر الحديث على يد الفلاسفة الجدد، أصبح المسلمون في زوبعة رهيبة ذهبت بضوء عقولهم . . . وخلفتهم غشاء تجري مع الناس ، دون أصالة واستقلال .

ويلاحظ ذلك بوضوح بين كتاب المسلمين ، الذين قد يتبعون منطق أرسطو



وقد يؤيدون أفكار ديكارت ، وفي نفس الوقت يمتدحون هيجل ويشيدون  
بماركس ، ولو أنهم عرفوا منطق القرآن لكان كفاهم عن كل ذلك .

## المنطق ... تعريف الكلمة وتعريف العلم

### ١ - تعريف الكلمة :

كلمة المنطق ، آتية من مادة النطق على صيغة (المفعل) اسم آلة ، فكما المنجل - والمُنخل - والمِصفاة و . . . و . . . هي أسماء للوسيلة التي يتم بها فعل القطع والنخل والتصفية كذلك المنطق اسم للوسيلة التي يتم بها النطق . والنطق يختلف عن التلفظ والتكلم في أنه لا يعني كل صوت صادر عن الحق ، إنما يعني ذلك اللفظ المنظم الذي يعبر عن مفهوم .

وقد كان الأدب العربي يستخدم المنطق في اللفظ الذي يعبر عن معنى منظم فمثلاً حين ألف «ابن السكيت» كتاباً عن البحوث اللغوية ، سماه بـ (إصلاح المنطق) لم يكن يعني بذلك إصلاح اللفظ ، بقدر ما كان يعني إصلاح الكلام الذي يعكس المعنى ليكون أفضل تعبيراً عنه .

ولقد استخدم الفلاسفة المسلمون هذه الكلمة (المنطق) ترجمة فيما يبدو لي لكلمة (الألة) أو (الأداة) « التي استخدمها أرسطو للدلالة على المنطق »<sup>(١)</sup> .

---

(١) علم الاجتماع والفلسفة ، الجزء الأول ، ص ٤٣ .

وعن طريق التوسع في الكلمة أخذت لفظة المنطق تتسع لمفهوم العقل أو الفهم أو ما أشبهه .

فحيث قال الفلاسفة المسلمون التابعون لنظريات الإغريق حين قالوا :  
الإنسان حيوان ناطق ، فإنما عنوا بهذه الكلمة (النطق) المعارف والعلوم ، وليست  
(خاصة) القدرة على التحدث .

ولذلك عبّروا عن العقل بـ (النفس الناطقة) لأنها مستكملة في جوهرها عقل  
بالفعل<sup>(١)</sup> .

فكان تعبيرهم بـ (الإنسان حيوان ناطق) دليلاً على أن مرادهم من النطق  
العقل ، وعلى أن كلمة المنطق ، تعني عندهم أداة العقل أو أداة العلم كما قال  
أرسطو .

(لوجي) :

أما كلمة (لوجي) التي تعبر عن المنطق في اللغات الأوروبية ، فإنها تعني  
أيضاً معنى كلمة المنطق ، ويبدو أن استعارة الكلمة من الأصل اليوناني :  
(Logie لوجي) يبدو موفقاً ، إذ إنها أخذت تتوسع لتعني مفهوم العقل أو  
العلم ، الذي يُعبر عنه المنطق أو الكلام .

وحيث إن كلمة (لوجي) ، أخذت معنى العلم استخدمت في التعبير عن  
كل عملية عقلية منتظمة فإذا بالكلمة تدخل في لفظ كل علم من العلوم ، فمثلاً :  
نقول بيولوجي لعلوم الحياة وفسولوجي لعلوم الاجتماع ، وفسولوجي لعلوم  
وظائف الأعضاء .

٢ - تعريف العلم :

ما هو المنطق ؟ قبل الإجابة على هذا السؤال الذي كثرت الإجابات عليه ،

---

(١) ميزان المطالب ، ص ٦٦ ، الجزء الثالث .

لا بد أن نعرف أن طبيعة أي علم تحددها الغاية منه ، قبل أن يحددها موضوعه ، فكلما كانت الغاية مختلفة بين دراسة وأخرى وبحثٍ وآخر ، فإن كل دراسة تتم بعلم خاص ، حتى وإن كان الموضوع واحداً ما دامت الغاية مختلفة .

فعلم النحو يشترك مع علم الصرف وعلم متن اللغة وعلم البلاغة و . و . و . في الموضوع ، إذ الكلمة العربية هي موضوع كل هذه العلوم ، إلا أن كل علم يختلف عن غيره في الغاية المتوخاة منه .

وغاية العلم والهدف المتوخى منه لا يفرق فقط بين العلم والآخر ، وإنما يجمع أيضاً بين موضوعات شتى كلها تخدم تلك الغاية .

فإذا سألنا أنفسنا : ما هي الرابطة بين الحديث عن المسند والمسنود إليه وبين الحديث عن النواسخ ( كان وأخواتها ، وإن وأخواتها ) في علم النحو ؟ لأجبنا على الفور أن الرابطة هي أن البحث في كلا الموضوعين يحقق هدفاً واحداً ، هو معرفة إعراب آخر الكلمة .

ولذلك فإن الباحثين كلاهما يدخلان في علم واحد ، هو علم النحو .

من هنا علينا قبل كل شيء أن نعرف الغاية ، التي نتوخاها من أي علم قبل أن نخوض في مسألة تعريفه ، إذ إن ذلك سوف يحدد بشكلٍ قاطع علاقة هذا العلم بسائر العلوم ، وعلاقة موضوعاته بعضها مع بعض .

وفي علم المنطق ، لا بد أن تختلف التعريفات انطلاقاً من اختلاف العلماء في مسألة تحديد الغاية من هذا العلم .

ولأننا تحدثنا في الفصل الماضي عن أن الغاية من المنطق هي تجنب الخطأ . . . فإننا نسمح لأنفسنا بالقول ( إن المنطق هو علم تجنب الخطأ ) أو هو علم البحث عن الصواب . أو علم البحث ، أو البحث في البحث ، أو البحث في وسيلة العلم ، أو أي تعبير آخر يعطينا نفس هذا المفهوم .

وهذا يعني أن الصلة بين الموضوعات التي يتحدث عنها المنطق هي صلة الاشتراك في تحقيق هذه الغاية ، وهي التخلص من الخطأ .

فابتداءً من معرفة الأخطاء الناشئة من التأثيرات النفسية على الفكر ، والتأثيرات الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والبيولوجية . . .

ومروراً بمعرفة الأخطاء الناشئة من (طبيعة المنهج) الخاطيء وطرق البحث غير السليمة . . .

وانتهاءً بمعرفة الأخطاء الآتية من صور الفكر والفجوات الناشئة بينها . . .

كل تلك الأمور تدخل في رأينا ضمن اختصاصات المنطق ، إذ إن هذه الموضوعات المتفرقة تشترك في البحث عن البحث ، وتساهم في كيفية تجنب الأخطاء .

بهذا المفهوم الشامل للمنطق ، يندمج علم المناهج بالمنطق ، إذ إن هذا العلم جانب من جوانب السعي وراء الصواب وتجنب الأخطاء<sup>(١)</sup> .

وهذا التعريف في المنطق يشمل ، بعد تهذيب وتعديل ، كثيراً من التعريفات الأخرى التي نسردها فيما يلي بإيجاز :

#### ١ - تعريف أرسطو :

قال أرسطو عن المنطق بأنه آلة العلم وموضوعه الحقيقي هو العلم نفسه أو صورة العلم<sup>(٢)</sup> . وابن سينا أحد شراح أرسطو المسلمين لم يتجاوز هذا التعريف حيث قال : المنطق هو الصناعة النظرية التي نعرفنا من أي الصور والمواد يكون الحد الصحيح الذي يسمى بالحقيقة حداً ، والقياس الصحيح الذي يسمى برهاناً<sup>(٣)</sup> .

---

(١) سوف نتحدث إن شاء الله عن المناهج .

(٢) و (٣) المنطق الصوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة . ل. علي سامي النشار ،

ص ٥ .

وقال الساوي ، إنه « قانون صناعي عاصم للذهن عن الزلل ، مميز لصواب الرأي عن الخطأ في العقائد بحيث تتوافق العقول السليمة على صحته . . . »<sup>(١)</sup> .

أما القديس توما الأكويني ، أحد تابعي أرسطو المسيحيين فقد قال عن المنطق : « أنه الفن الذي يقودنا بنظام وسهولة وبدون خطأ في عمليات العقل الاستدلالية »<sup>(٢)</sup> .

### نقد التعريف :

ترى أن هذا التعريف الأرسطي ناشئ من فلسفة أرسطو العامة ، التي تفترض أن العلم ينشأ من التصور . لذلك فإن المنطق هو معرفة الصور التي تؤدي إلى التصور . وبالتالي يغفل التعريف دور المنطق التجريبي ، لأنه يعرف بالأساس منطق أرسطو الشكلي فقط دون سائر أنواع المنطق .

ولكن التعريف لا يغفل بيان الغاية من المنطق ، وإدخاله في التعريف ، وهي التجنب من الخطأ ، بل لا يغفل التعريف في بعض عباراته ذكر الوسيلة التي تحقق هذه الغاية وهي تنظيم الاستدلال .

### ٢ - تعريف مناطقة بورت رويال :

بالرغم من أن مناطقة بورت رويال يُعتبرون من المحدثين ، إلا أن تعريفهم للمنطق لم يبعد عن حدود تعريف الأكويني السابق حيث قالوا ، بأنه هو الفن الذي يقود الفكر أحسن قيادة في معرفة الأشياء سواء أراد أن يتعلمها هو بنفسه ، أو أن يعلمها للآخرين .

وهناك تعريف آخر للمنطق هو أنه العلم الذي يبحث في النواحي العامة

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨ .

للفكر الصحيح ، وموضوعه هو بحث مميزات الحكم ، لا كظواهر نفسية ولكن كتعبير عن معارفنا ، ويبحث على الخصوص في تحقيق الشروط التي نستطيع بواسطتها الانتقال من أحكام معينة إلى أحكام أخرى تنتج عن تلك الأحكام الأولى<sup>(١)</sup> .

وتعريف رابيه بأنه علم العمليات التي بواسطتها يتكون العلم ، ويقول : « المنطق هو اتفاق شروط العقل مع ذاته واتفاق العقل مع الأشياء »<sup>(٢)</sup> .

هذه التعريفات ، هي الأخرى تستمد من التعريف الصوري أصولها حيث إنها :

أ - تهتم بصور الفكر وأشكال الاستدلال ، دون أن تهتم بما خلف الصور والأشكال من حقائق . فتناقضات المادة وأسباب الخطأ ، النفسية والاجتماعية وغيرهما ، لا تهتم هذا النوع من المنطق .

ب - تهتم بالشروط التي ينبغي توفرها في الفكر والتي يبحث عنها المنطق الشكلي ، وهي : الشروط المجردة والصورية ، والتي هي مرتبطة بأنواع القياس .

فالتعريف إذاً هو تعريف نوع واحد من المنطق ، هو المنطق الصوري .

### ٣ - تعريف ديوي :

وتعريف ديوي للمنطق يمثل وجهة نظر مفكر براجماتي ، وهو تعريف فضفاض إلا أنه قد يتلخص فيما يلي :

إن الصور المنطقية «نشأ» أصلاً خلال إجراءات البحث : ولو وضعنا هذا القول في عبارة مألوفة قلنا إن معنى فكرتنا هو أنه إذا كان البحث في البحث يؤدي بنا إلى معرفة الصور المنطقية ، فإن البحث الأول نفسه هو مجال «نشأة» تلك

---

(١) المصدر ، ص ١٢ .

(٢) المصدر ، ص ١٣ .

الصور التي يجيء البحث في البحث بعدئذ فيكشف عنها الغطاء<sup>(١)</sup> .

بتعبير آخر ، إن طرائق التفكير تنشأ في بداية أمرها حين يتعرض الإنسان فعلاً لمشكلات حقيقية يريد حلها فيحاول (استخدام) هذه الوسيلة أو تلك حتى تنحل المشكلة القائمة ، فإذا جاء مفكراً آخر بعد ذلك وركز فكره على تلك الطرائق ليفهمها كان بمثابة من يبحث في طرائق البحث الأولية ليلقي عليها الضوء ويجعلها موضوع معرفة ، أو بعبارة أخرى الصور المنطقية تنشأ في مجال العمل ثم يسلط عليها الضوء فتُعرَف<sup>(٢)</sup> .

وبعد أن تعرف تلك الطرائق نسميها بالمنطق . وعلى ذلك فكل طريق للبحث ، هو منطق بحد ذاته ، ومنهاج البحث لا يختلف عن المنطق في شيء .

وإن هناك بحوثاً متعددة في تنوعها شاملة في مداها قائمة بيننا بالفعل ولكل من شاء أن يضعها موضع الفحص ، فالبحث لأي علم من العلوم هو منه بمثابة دم الحياة ، ما دام كل شيء وكل صناعة وكل فكرة يخضع لما يقتضيه البحث ، واختصاراً فإن الغرض الذي أتقدم به إنما يمثل ما هو قائم بالفعل ( في شتى العلوم ) فلا عبرة بعد ذلك بالريسة التي قد يُحاط بها عند تطبيقه على مجال المنطق<sup>(٣)</sup> .

وهذا التعريف يشمل ما يلي :

١ - إنه يغفل متعمداً ذكر طرق الاستدلال الثابتة ، التي يكشف عنها المنطق في تعريف أرسطو ، إذ إن ديوي لا يعترف بطرق معينة سلفاً للاستدلال والبحث ، بل يعتقد أن هناك طرقاً لا تحصى للاستدلال ، وقيمة كل طريق تظهر بالنهاية عند الوصول إلى النتيجة .

---

(١) المنطق، نظرية البحث ، جون ديوي . ص ٥٨ .

(٢) المصدر في مقدمة الدكتور زكي نجيب محمود ، ص ٥٨ .

(٣) المصدر ، ص ٥٩ .



٢ - إنه يدمج مناهج البحث بالمنطق ، بل بالأحرى يدمج المنطق بمناهج البحث ، ويزعم أن مناهج البحث هي المطلوبة أساساً ، وإذا كانت هناك طرق عامة ومبادئ شاملة نسميها بالمنطق ، فإنها تابعة لمناهج البحث لا أكثر إذ تهمه النتيجة أكثر من المقدمات ، والهدف من البحث هو الوصول إلى الحقيقة حتى إذا كان من طرق غير ثابتة الصحة سلفاً .

### نقد التعريف :

إن أهم بند في تعريف المنطق هو غايته وهو التجنب من الخطأ ، وهو بند مغفول في التعريف السابق بينما هو في الواقع غاية علم المنطق . ثم إن إنكار البديهيات العقلية ، ذلك الإنكار الذي يعتمد عليه مبدأ براجماتزم ، غير صحيح بالرغم من أن المزيد من الاعتماد على البديهيات والإيمان بها إيماناً مطلقاً وبعيداً عن الواقع هو الآخر غير صحيح ، وعلى أي حال فإن هذه البديهيات بحاجة إلى أن ننظم علاقتها بين بعضها البعض ، وبينها وبين الواقع الخارجي ، وجزء هام من المنطق يوفي بهذه الحاجة وهو القسم الصوري منه وإغفال هذه الحاجة ومن ثم إغفال هذا الجانب من المنطق هو إغفال غير صحيح ، كما فعل ديوي .

### علم المناهج :

كلمة المنهج مترجمة من كلمة (Methode) وهي مشتقة من كلمة تعني في اللغتين اللاتينية ، البحث أو المعرفة .

وتعني اليوم ، طائفة من القواعد والأصول التي تهدف تعبيد طريق الباحث عن الحقيقة . وتفرق المناهج عن المنطق ، لدى من يفرق بينهما ، حيث المناهج تعني الجانب العملي منها . وعليه فإن المناهج هي مجال تطبيق نظرية البحث في المنطق .

وكل فرضية أو نظرية في المنطق ، توصي بمناهج تكون منسجمة معها ، ولذلك كانت هناك مناهج للاستدلال يوصي بها أصحاب المنطق الصوري ،

وأخرى يوصي بها صاحب المنطق العلمي .

ولكن هل المناهج هي هي في كل العلوم ولكل الناس ؟

بالطبع لا . . . فما دام المنهج هو السبيل إلى معرفة الحقيقة ، وما دامت الحقائق مختلفة والذين يسعون لكشفها مختلفون فإن المناهج تختلف من باحث لآخر .

إذ إنها آتية من داخل البحث ، فكل بحث يوصي بمناهج تخصه بالرغم من أنه يشترك مع سائر البحوث في المناهج العامة ، وهي التي تذكر في علم المناهج .

يقول كلود برنارد : « ولا بد للمجرب أن تختلف عمليات البرهان لديه إلى غير نهاية ، وفقاً للعلوم المختلفة . إن روح صاحب التاريخ الطبيعي ليست هي بعينها روح صاحب علم وظائف الأعضاء ، وروح الكيميائي ليست روح الفيزيائي ، والتعاليم النافعة هي وحدها الصادرة عن التفاصيل الخاصة بالممارسة التجريبية في علم معين بالذات »<sup>(١)</sup> .

وبما أننا عرفنا المنطق بأنه علم تجنب الأخطاء ، وبما أن المناهج وسيلة لتجنب الخطأ فإن المناهج عندنا جزء من المنطق ، وبهذه الرؤية سوف نعالج المناهج في فصول الكتاب .

### العلاقة بين الفلسفة والمنطق :

ما هي بداية مسيرة الفكر البشري ؟ هل هي الفلسفة أم المنطق ؟ . .

الواقع أن الفلسفة هي مجموعة بحوث فكرية ، تستهل بالبحث عن المعرفة ، مصادرهما وقيمتها . . . وهذا البحث هو أيضاً مستهل البحوث المنطقية . . فلولا معرفة مصدر المعرفة الصحيحة وقيمتها ، لما استطاع الإنسان

---

(١) مناهج البحث العلمي ، ص ٨ .

أن يخطو أية خطوة لا في حقل الفلسفة ولا في حقل المنطق .

وسواء أدرجنا هذا البحث ( البحث عن المعرفة ) في الفلسفة أو المنطق ، فإنه بداية مسيرة الفكر البشري ، أما غيره من بحوث الفلسفة فهي تأتي بعد بحوث المنطق . . إذ أنها تستهدف عصمة الإنسان من الخطأ . . في كل البحوث ، والبحوث الفلسفية منها بالطبع .

وجون ديوي ، يرى أن علاقة المنطق بالفلسفة ، كما علاقة المنطق بالبحث ذاته ، هي علاقة جدلية فكل تغيير في أحدهما ينعكس على الآخر ويقول :

« وعلى أية حال ، فالمنطق من حيث الأصول الأولية لمادته ، فرع مشتق من المذهب الفلسفي بحيث تجيء وجهات النظر المختلفة إلى موضوع دراسته معبرة في النهاية عن فلسفات مختلفة . ثم تعود النتائج التي ينتهي إليها المنطق فتتخذ أداة لتأييد الفلسفات التي ما كانت تلك النتائج إلا نتائجها . وما يطرأ على الذهن هو أن ذلك يؤدي إلى التنقص من شأن المنطق بجعله عاجزاً عن أن يكون مستقلاً بذاته ، ففي ظاهر الأمر قد يبدو من غير الملائم للنظرية المنطقية أن تتشكل تبعاً للمذهب الفلسفي واقعياً أو مثالياً . . عقلياً أو تجريبياً . . ثنائياً أو واحدياً . . ذرياً أو كلياً . . . عضوياً في منحاه الميتافيزيقي » .

ومع ذلك ، فحتى لا يفصح المؤلفون في المنطق عن ميولهم السابقة في اتجاهاتهم الفلسفية فالتحليل يكشف عن الرابطة « بين تلك الميول وما يذهبون إليه من نظرية منطقية . . . »<sup>(١)</sup> .

ثم يكمل ديوي نظريته عن جدلية العلاقة بين المنطق والبحث ذاته ، فيقول :

« إن الصور المنطقية "تنشأ" أصلاً خلال إجراءات البحث »<sup>(٢)</sup> .

---

(١) المنطق نظرية البحث ، ص ٥٦ .

(٢) المصدر ، ص ٥٨ .

والواقع أن عملية البحث تفيدنا وضوحاً في الرؤية بإعتبارها التصاقاً بالواقع وممارسة حيّة له . . إلا أن الرؤية الحقيقية لا تأتي مباشرة من الواقع إنما من العقل ، إذ العقل هو الذي يضع القواعد لمعرفة الواقع والمنطق هو من العقل فهو الذي يعطينا الرؤية . . . ولكن لا مجردة عن الواقع بل ملتصقة به .

وبذلك نعرف أن المنطق والبحث يكتملان ، لأن المنطق يعطينا الرؤية والبحث يبلورها .

وكذلك الفلسفة هي بحوث عقلية ، وواقعية في ذات اللحظة . إذ إن أي خطوة نخطوها في حقل الفلسفة نعتمد فيها على عكازتين ، على عقل هادٍ ، وعلى توجيه هذا العقل على الواقع ، وبالتالي على بصيرة ، وبصر لا غنى لأحدهما عن الآخر ، ومن هنا فإن الفلسفة ملتصقة بالمنطق ، كما إن المنطق محتاج إلى الفلسفة .



## فصول الكتاب ومنهج العلم

وفصول الكتاب تتوالى كما يلي :

### ١ - تطور الفكر المنطقي :

حيث يُعالج فيه ثلاثة مواضيع رئيسية هي :

أ - دور نشوء المنطق القديم وتكامله ثم إنحطاطه .

ب - المنطق الحديث : نشأته وتكامله ومذاهبه الحالية . وحاولنا في هذا الفصل إبعاد المنطق عن الفلسفة ، قدر الإمكان بالرغم من ارتباطهما العضوي .

ثم حاولنا التبسيط قدر الإمكان بلغة مفهومة نسبياً . وأخيراً ألقينا نظرات فاحصة ، على كل نوع من أنواع المنطق ، كما أبدينا ملاحظاتنا عليها .

ج - وفي نهاية هذا الفصل ألقينا نظرة على المنطق الحديث وعمما هي الأسئلة التي يُعالجها ، والاتجاهات المختلفة والتي تُعالج تلك الأسئلة . وأخيراً الصيغة التي انتهى إليها هذا المنطق .

### ٢ - أصول المنطق الإسلامي :

حيث يكمن أهم فصول الكتاب بالرغم من صفحاته المحدودة . . .

والسبب أن الكتاب وُضع لبيان المنطق الإسلامي ، قواعده ومناهجه ، وكل ما في الكتاب من بحوث منطقية ، هي بمثابة تمهيد لمعرفة المنطق الإسلامي .

لكن لماذا أوجزنا الحديث حول هذا المنطق في هذا الفصل ؟

الواقع ، أن طريقة معالجتنا لسائر بحوث المنطق إنما كانت ببيان رؤية الاسلام فيها ، وذكر نصوص من القرآن ومن السنة مرتبطة بها .

وهذه كفيلة بتوضيح المنطق الإسلامي في كل بحوث الكتاب . وإنما وضع هذا الفصل لوضع قواعد المنطق الإسلامي وبيان خلفياته .

### ٣ - كيف نتجنب الخطأ :

لأن جزءاً كبيراً من مشكلة المنطق هي مشكلة نفسية . آتية من عقد نفسية ، أو ضغوط إجتماعية أو تربوية ، أو حتى ضغوط آتية من تركيب الجهاز العصبي ، وبالتالي من العوامل المادية المؤثرة فيه . . .

لذلك خصصنا فصلاً من الكتاب حول هذا الموضوع بالذات .

نبحث في هذا الفصل عن تداخل المشكلة الفلسفية بالمشاكل النفسية المؤثرة ، ونبحث عن الغرائز : ما هي وهل هي متعددة أو واحدة ؟ وعن الجذور النفسية للخطأ وامتداداتها ، وعن وراثه الأفكار من الآباء ومعالجة مدى حرية الإنسان في رفض الأفكار الموروثة .

ثم بحثنا شيئاً عن حب التوافق المتجذر في الإنسان ، والذي يشكل خلفية المنطق الإجتماعي ، الذي آمن به طائفة من المفكرين .

ثم بحثنا شيئاً عن الأخلاق الذميمة ، ومدى تأثيرها على البحث العلمي .

### ٤ - كيف نختار المنهج السليم :

يعتبر هذا القسم تمهيداً للفصول القادمة . وهو الحديث عن الأخطاء الآتية

من منهج التفكير ، فاختيار المنهج الخاطيء ، أو المنهج الناقص ، يؤثر بصورة حاسمة على نتائج البحث ، ويقضي عليها سلفاً بالفشل .

وفي مبتدأ الفصل ، عالجت جذور الاختيار للمنهج والضغط النفسى التى تكمن وراء عملية الاختيار ، بينما فى نهاية الفصل بيّنا جانباً من تطبيقات الاختيار السيء ، وهو اختيار المنهج الخاطيء أو الناقص .

## ٥ - مناهج الاستقراء :

وقد تحدثنا عن هذا الفصل بإسهاب ، مما جعله أكبر فصول الكتاب حجماً ، ففي المقدمة تحدثنا عن طبيعة المنهج ، ثم تعريف الاستقراء ، ثم قواعد الاستقراء ، من الملاحظة ، والتجربة ، والقرص ، والنظرية وطرق التجربة ، وفكرة السبب ، وطبيعة القانون .

## ٦ - مناهج العلوم الإنسانية :

فى هذا القسم عالجت تطبيقات المنطق الإستقرائى فى علم الإجتماع ، وعلم التاريخ ، وقد استوعب البحث مجالاً واسعاً فى هذين العلمين ، وبيّنا فيه نظرات عديدة للإسلام فى مختلف أقسام هذين العلمين الهامّين .

## ٧ - مناهج القياس :

وقع هذا الفصل آخر الكتاب لأهميته المحدودة فى مجال التطبيق ، ويتناول المنطق القياسى : المنطق الشكلى الأرسطى ، مع إضافات العلم الحديث ، كما يتناول جوانب من المنطق الرمزي حيث ينتهى الكتاب بعون الله .

## منهج الكتاب

على ضوء النقاط التالية حدّدنا منهج الكتاب :

١ - ضرورة شمول المنطق واحتوائه على كافة أنواعه ومناهجه ، ليضع



عند القارئ عقلية نافذة تتجاوز التقسيمات المصطنعة ، وتصل إلى روح المنهج السليم للتفكير والبحث ، وقد يقع الشمول عندنا على حساب الوضوح والشرح ، وهذا أمرٌ وقعنا فيه أحياناً بالرغم من محاولاتنا الجادة لتجنبه .

٢ - ضرورة تطعيم البحوث المنطقية الحديثة برؤى إسلامية أصيلة ، إيماناً منا بأن هذه العملية تغني الفكر المنطقي الحديث ، بمعاني جديدة ونافعة تقدر (هذه المعاني) من دفع التناقض الظاهري ، بين أنواع المنطق ، وكشف القواعد العامة ، التي لا بد أن تحتكم إليها هذه الأنواع المختلفة من المنطق .

٣ - ضرورة الإيجاز غير المخل في كتاب يُقدّم ليكون تمهيداً لبحوث ودراسات . أكثر عمقاً واتساعاً .

وحسي من هذا الكتاب رجاء رضا الله تعالى ، وأن يطرح الكتاب أسئلة جديدة في مجال الفكر .

أصوله ومناهجه

المنطق الإسلامي

القسم الأول عن

# تطور البحث المنطقي

كلمة البدء

المنطق الاغريقي

المنطق الحديث

اتجاهات المنطق الحديث

آراء في المنطق



## كلمة البدء

في حديثنا عن تطور المنطق نلقي نظرة على ثلاثة أدوار من تطور الفكر المنطقي :

١ - دور نشوء المنطق القديم .

٢ - دور نضوج المنطق القديم .

٣ - دور المنطق الحديث ، منشأه وواقعه .

وقد وجدنا صعوبة كبيرة في فصل الفكر المنطقي عن الفكر الفلسفي ، في الوقت الذي كان الأول أم الثاني ، وبالتالي لا تتكامل النظرة العلمية بدون معرفتهما معاً .

لكن بالرغم من ذلك أجهدنا على إبعاد المنطق عن أمه الفلسفة ، لسبب بسيط هو أن حديثنا في هذا الكتاب يختص بالمنطق ، وحشر الفلسفة فيه يسبب التشويه والتعقيد .

ونتحدث عن سير الفكر المنطقي : من ثلاث زوايا :

١ - زاوية تاريخية ، تحدد مرحلة كل نوع من المنطق - الزمنية - وتعطينا

فكرة عن دورها الإيجابي في بناء صرح المعرفة .

٢ - زاوية فلسفية ، تبين القاعدة الفكرية التي ينطلق الفكر المنطقي منها ويعتمد عليها في صحتها .

٣ - زاوية الهدف ، تشرح الغاية التي استهدفها المنطق . . ذلك لأن كل منطق ، نابع من حقل إجتماعي يخلف عليه أثراً واضحاً . حتى قال دركايم وتابعوه : إن المنطق ليس سوى وجه المجتمع الذي يظهر فيه لذلك يكون من الضروري التلميح بالظروف الاجتماعية التي ترافق تكوين المنطق .

فالمجتمع الإغريقي في عهد سقراط ، وما نشأ فيه من أفكار متناقضة تعتمد على الجدول الفارغ لإثبات الآراء السياسية المتطرفة . هذا المجتمع كان ذا طابع بَيِّن في منطق سقراط ثم أفلاطون وأرسطو .

فشرح منطق سقراط دون معرفة الزاوية التاريخية منه يبدو ناقصاً بعض الشيء .

### البحث عن الأصول الفلسفية :

ولكن من الإجحاف بحق الفكر القول بأن المنطق ظاهرة إجتماعية تماماً ، كما ذهب إلى ذلك المنطق الإجتماعي . ذلك لأنه لا يدعنا نبحت عن نسبة الصحة فيه معتمدين على المقاييس العقلية الثابتة .

لذلك كان من الواجب البحث عن الأصول الفلسفية التي تفرع عنها الفكر المنطقي ، مثلاً نظرية المثل الأفلاطونية لا بد من معرفتها ولو إجمالاً حتى نستطيع فهم منطقهم بصورة أعمق ، ذلك بالرغم من أن طائفة من العلماء وضعوا أفكارهم المنطقية ثم التمسوا لها مبررات فلسفية ، حسبما يستطيع الباحث تلمس الهدفية في أفكارهم المنطقية بوضوح ، أي تلمس هدف محدد يتطلع نحو إثباته الفيلسوف منذ أن يبدأ بشرح أفكاره .

## معرفة الهدف :

ومعرفة هذا المنطق لا يمكن بدون معرفة الهدف منه ، لانه موظف أساساً في خدمة هذا الهدف .

وهذه هي زاوية الهدف ، التي لا بد أن ننظر إلى كل نوع من المنطق عبرها .

بيد أنه ليس من الضروري إقحام هذه الزوايا الثلاث في كل منطق ، حتى ولو لم يكن فيه وجه منها ، لانه بعيد عن الروح العلمية في البحث ، إنما نلتمسها ، فإن وجدناها أدرجناها، وإلا أعرضنا عنها .

ولا بد أن نسجل أخيراً هذه الملاحظة :

إن الحديث القادم يقتصر على بيان تاريخ المنطق ، فلا يشمل تفاصيل كل منطق ، لأنها إذا كانت مفيدة . . . ذكرناها عند بيان المنهج ، مع حذف المكررات ، وإلا أعرضنا عنها .

فإلى الدور الأول : للفكر المنطقي الذي يتمثل في المنطق الإغريقي بأبطاله الثلاثة : سقراط ، أفلاطون وأرسطو .



القسم الأول

عن تطور البحث المنطقي

البحث الأول عن :

# المنطق الإغريقي

كلمة البدء

أفلاطون وأرسطو

منطق أرسطو والمنطق الرمزي

المسلمون والمنطق الإغريقي





## كلمة البدء

يُلاحظ الباحث في تاريخ الإغريق السياسي والاجتماعي ، في الفترة التي ظهرت فيها الفلسفة الأفلاطونية - الإشرافية ، والمنطق الأرسطي الشكلي . . . يُلاحظ أنه كان يتسم بطابع الفوضى السياسية حيث ظهرت جماعات وصولية ، كان همها الوحيد بلوغ مصالحها الخاصة واستخدمت لذلك الديمقراطية المحدودة التي كانت تتمتع بها البلاد الإغريقية آنثذ . كما وظفت الفلسفة الرائجة في خدمة أهدافها الرخيصة .

وكانت الجماعة السوفسطائية من أبرز هذه الجماعات .

إسم السوفسطاء يعني العالم . وكانت هذه الجماعة تطلق على نفسها اسم الحكيم إدعاءً للثقافة ، وكانت تتخذ أسلوب الجدل الفارغ في سبيل دعم نظرياتها .

ولم تكن تعترف بمقاييس عقلية لذلك كانت تشكك في كل شيء .

وإذا اضطرها الأمر راحت تشكك حتى في وجود الأشياء وتأتي بالأدلة لدعم نظريتها التشكيكية . لذلك سميت كل طائفة مشككة بالسوفسطائية .

ونتج عن ذلك فوضى في الحقل السياسي وارتباك في الحقل الثقافي . مما

أثار حفيظة المفكرين - وكان في طليعتهم سقراط - لوضع أسس رصينة للسياسة والثقافة تنصدي للجماعات الوصلية .

فجاء سقراط بأسلوب الحوار . وجاء أفلاطون بطريق التحليل . وجاء أرسطو بمنطقه التركيبي ، ليكونوا تحدياً قوياً ضد الأفكار الوصلية والتي كانت في مقدمتها الأفكار السوفسطائية .

١ - سقراط (٤٦٩ - ٣٩٩ ق. م) :

بما أن السوفسطائيين كانوا يتلاعبون بالألفاظ كاية جماعة وصلية أخرى . . .

فإن سقراط بدأ عمله بفن الحوار ، أو حسب تعبير بعضهم ( فن توحيد المعاني ) ، وكان هذا الفن يعتمد على البحث دون ملل عن التعريف الحقيقي للأشياء ، أي التعريف الذي يعبر عن ماهية الشيء المعروف بغية سد الطريق أمام خصومه للتلاعب بلفظ عن طريق استخدامه في غير معناه الدقيق .

وهكذا كان سقراط واضع باب التعريف في المنطق القديم .

ولم يقتصر منطق سقراط في وضع التعاريف ، بل إنه - كما يُلاحظ في بعض أنواع حواراته - كان يريد البدء بما يعتقد به الخصم ، ثم ينطلق منه نحو أمور تترتب على قوله حتى يصل به ، عن طريق وجدانية ، إلى الأمر المطلوب .

لهذا نستطيع اعتبار سقراط من الذين اعتمدوا كلياً على الأسلوب الوجداني ، لمعرفة الأشياء .

ومهما يكن من أمر فإن منطقهم لم يتبلور حتى إلى درجة اعتباره منطقاً برأسه .

إنما نجح في هدفه الذي توخاه وهو إعادة الناس إلى أفكارهم . .  
وعطايتهم الثقة بوجودهم بعيداً عن فوضى السياسة وتشكيك الجدل .

## أفلاطون وأرسطو

٢ - أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق. م) :

واتخذ تلميذ سقراط طريق التحليل لمتابعة مسيرة أستاذه ولكنه اهتدى إلى جذر مشكلة التشكيك ، وهو عدم الإيمان بالمقاييس العقلية ، فحاول وضع فلسفة ترد الاعتبار للعقل ، وذلك عن طريق إيمانه بالمثل التي اشتهر بها .

يزعم أفلاطون أن الإنسان عاش بروحه المثالية قبل أن يعيش ببدنه ، في عالم المثل الذي كان يعيش فيه أيضاً صورة محدودة عن الأشياء . وهناك عرف مثال الإنسان ، مثل الأشياء . وبتعبير آخر ، علمت روح الإنسان ، روح الحقائق .

وبعد أن جاء إلى هذا العالم نسي الإنسان بعض ما عرفه من الحقائق ، وهو بحاجة إلى المنبهات الخارجية ، لكي يتذكرها . ولكنه إذا تذكرها فهو ليس بحاجة إلى مزيدٍ من الأدلة لتثبت صحة معارفه .

وهكذا استهدفت نظرية المثل الأفلاطونية وضع أسس ثابتة للفكر ، عن طريق إثبات عالم سابق عرف الإنسان فيه جميع الأشياء .

وبعد أن وُطد قدم العلم على أساس ثابت - بزعمه - مضى في طريق

التحليل الذي يوجز في إتخاذ إحدى القضايا ، وافترض أنها مسلّمة لا ريب فيها بشرط أن تكون القضية منطبقة على الموضوع المبحوث عنه ، ثم يستنبط منها النتائج . فإذا كانت النتائج صحيحة عرفت صحة القضية ، وإذا كانت فاسدة عرفت بطلان القضية . وهذه الطريقة كثيرة الاستعمال في الرياضة وتسمى بطريقة التنفيذ .

واستعار أفلاطون من الهندسة برهان الخلف ، والذي يحتل مكاناً بارزاً في المنطق .

ولم يزل هنا تطور لم يبلغه أفلاطون في منطق ، إذ انه يدع الحد الأوسط الذي نجده في المنطق الأرسطي ، وانه يدع الاختيار للطرف الثاني ، بينما يحاول أرسطو إسكاته بإلزامه بالنتيجة .

وحتى نبليغ أرسطو ، لم يزل المنطق الإغريقي في دور الطفولة ، إذ انه يكتمل على يد أرسطو .

### ٣- أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق. م) :

توجهت همه أرسطو إلى وضع أسس للفكر سليمة ، بحيث لا تستطيع السفسطة إحداث الفوضى في الأفكار . وفعلاً قام بوضع هذه الأسس بالطريقة التالية :

حدّد أشكالاً للتفكير تعتمد على إظهار الرابط بين فكرة وأخرى مشتقة منه .

فمثلاً : نحن نعلم أن زيداً واحداً من البشر ، فإذا عرفنا أن كل البشر يموتون ، فلا بد أن نعرف أن زيداً أيضاً يموت . هذا التفكير بسيط للغاية ، ولكن أرسطو يضعه في قالب معين يبرز الواسط بوجه خاص . كالمسيرة المحددة التي تجري خلالها الفكرة فيقول :

زيد بشر - وكل بشر يموت - فزيد يموت .

وتبعاً لوضع هذا الرابط ، والذي يسميه أرسطو بالحد الأوسط ، يختلف مدى قوة القلب في تناسبه مع النتيجة الصائبة .

لكن أرسطو لاحظ عجزاً في قدرة القوالب الفكرية عن إعطاء النتائج الضرورية دون تحديد دقيق للأشياء ، فأخذ يقسم الألفاظ ويحدد معانيها ، لعله يتوصل عن طريق هذا التحديد إلى التعريف الحقيقي للأشياء .

من هنا كان أرسطو أول من بين ضرورة التمييز بين الكليات الخمس ونعني بها : الجنس والنوع والفصل والخاصة ، والعرض العام .

### تعريف الجنس :

فإذا اعتبرنا الحيوان جنساً فالإنسان نوع من أنواعه ، والميزة التي تميزه عنه تمييزاً قاطعاً هي النطق ، وهي ما عبّر عنها أرسطو بـ (الفصل) . و (الخاصة) هي التي تميز الإنسان - مثلاً - عن الحيوان أيضاً ، ولكن ميزتها له ليس فصلاً كالنطق بل هي على سبيل المثال كالضحك وهو ما يدعوه أرسطو بالخاصة ، وأما العرض العام فهو لا يميز الإنسان عن سائر الحيوان كالمشي على القدمين .

وخرج أرسطو من هذا ، أن التعريف بالجنس والفصل هو التعريف الجامع المانع ، كتعريف الإنسان بأنه حيوان ناطق فهو ينطبق على الناس جميعاً وبذلك يكون جامعاً لأفراده ، وفي الوقت ذاته يمنع سائر الكائنات الحية عن الاشتراك معه في هذا التعريف ، وبذلك يسمى مانعاً .

ولم يعد أرسطو أن بين خصائص التعريف الصحيح ، والتي توجز في ضرورة إدخال الشيء في نوع معين وتمييز هذا النوع - عن سائر الأنواع - بصفة لا يشترك غيره فيها أبداً . ولكن ، كيف نعرف هذه الصفة ؟ كيف نعرف مثلاً أن الإنسان فقط ينطق وأن الخيل فقط تصهل ؟ هذا السؤال الذي يُعتبر جوهر المشكلة عند الإنسان لم يتعرض له منطق أرسطو ، لذلك أعتبر منطقاً شكلياً أو صورياً .

فلو أردنا تغيير الألفاظ ، من حيوان وإنسان وناطق . . . عن صيغتها الأصلية « الإنسان حيوان ناطق » إلى رموز ، فقلنا : ح = أ + ب ، لم يمنعنا عنه منطق أرسطو . إذ أنه يبين فقط العلاقات الدقيقة التي تربط بين حقيقة فرضية وأخرى ، تماماً كالرياضة التي لا تهتم بمحتويات الأشكال بقدر ما تهتم بذاتها .

وقد وضع أرسطو اسماً لمنطقه منتزعا من هذه الصفة التي فيه أي ؛ صفة الصورية . والإسم هو (لوجيك) والاشتقاق الأصلي لهذا الإسم يعني الكلام ، وسماه أيضاً بما يعني إله العلم وهو (أورجانون) .

وقد يكون لفظ (المنطق) بالعربي نابعا من ذات الصفة .

### المنطق بعد أرسطو :

نجد تعريف المنطق عند توماس الأكويني في العصور الوسطى بأنه : فن يكفل لعمليات العقل الإستدلالية قيادة منظمة ميسرة خالية من الخطأ . وهذا التعريف شاع في كثير من تابعي المنطق الأرسطي .

هذا التعريف يدل على وظيفة المنطق عند علماء القرون الوسطى وهو توجيه علاقة فكرية بأخرى ، من دون تخصيص ذات الفكرة ، وذلك في مقابل المنطق التركيبي الذي يعتني بمادة الفكرة ومصدر معرفتها .

ولم يكن هم المدرسين ، الذين اتبعوا منطق أرسطو ، فيما بعد ، سوى فهم هذا المنطق ، مع المبالغة في الإعتماد عليه حتى نتج من ذلك الاعتقاد أن الصور الفكرية التي وضعها أرسطو ، لكي تحدد علاقات الأفكار هي بذاتها أفكار تغنيهم عن العلم ، وكان مثلهم في ذلك مثل من يتخذ من الأشكال الهندسية بيتاً وهمياً ، اعتقاداً منه بأن هذه الأشكال وحدها تكفي عن المواد التي يجب أن تتشكل بها .

وإنما تطور منطق أرسطو بسببين : الأول : دخول أفكار إسلامية فيه ، حسبما سيأتي الحديث عنه إن شاء الله . . . الثاني : تبدله إلى منطق رمزي . فما

هو المنطق الرمزي ؟

## المنطق الرمزي :

منطق أرسطو كرّس ذاته للكشف عن علاقة فكرة بأخرى ، دون البحث عن مصادر هذه الفكرة ، فهو يقول مثلاً :

إذا كان الإنسان قادراً بذاته على بلوغ القمر ، فإن زيداً قادر على ذلك أيضاً ، وذلك لأن :

الإنسان قادر على بلوغ القمر . . وزيد إنسان والنتيجة أن زيداً قادر على ذلك . فالعلاقة بين الفكرة الكلية والفكرة الجزئية هي علاقة إيجابية يفرضها أن الجزئي - زيد - ضمن أفراد الكلي - إنسان .

## إيجاد الرمز لمعرفة العلاقة :

فالبحث عن العلاقة هو جوهر منطق أرسطو ، وهو أيضاً جوهر المنطق الرمزي ، الذي يتلخص في أنه ما دمنا لا نعتني في المنطق الأرسطي بمادة الفكر ومصدره الذي نبع منه ، بل نكرّس جهدنا لمعرفة علاقة فكرة بأخرى ، فالأفضل إيجاد رموز للأفكار لمعرفة العلاقة بينها ، دون ذكرها هي ، لأن النفس قد تتجه - إذا ذكرت الأفكار - إليها ، وتترك البحث عن علاقتها ببعضها . ففي المثل السابق ، ما دمنا لا نريد البحث حالياً عن صدق هذه الفكرة ( قدرة الإنسان على بلوغ القمر ) ، ولا عن صدق هذه الفكرة ( زيد من أفراد الإنسان ) . بل إنما نريد أن نعرف العلاقة بين هذه الفكرة وتلك ، فالأفضل إيجاد رمزين لهما لتركّز أفكارنا حول علاقتهما ببعضهما فنقول أ = ب و ح = أ . و ح = ب .

وهذا كما ترون ذات الصورة التي يشكلها المثال السابق ، والتي نجعل بعضها تحت بعض هكذا :

أ = ب «الإنسان» «قادر على صعود القمر» ح = ب «زيد» «إنسان» النتيجة



ح = ب «زيد» ، قادر على صعود القمر .

هنا يكون المنطق الرمزي ، هو الخطوة التالية في طريق الكشف عن علاقات الأفكار ببعضها .

فالمنطق الرياضي ليس جانباً آخر من المنطق يبين المنطق الأرسطي وإنما هو منطق صوري في ثوب جديد .

والفائدة الجديدة التي استطعنا تحقيقها من هذا المنطق تتلخص في أمرين :

١ - القدرة على تحديد العلاقة الدقيقة بين الأفكار ، والتي تنعقد حينما تتسابق الأفكار فتمكن آنثذ من تحويل الأفكار ، فوراً ، إلى رموز ثم تحديد العلاقات بينها ، ثم إعادة فض الرموز وتحويلها إلى الأفكار وأخذ النتيجة منها .

٢ - القدرة على معرفة علاقات جديدة بين الأفكار ، مما أفادتنا السرعة في اجتياز مراحل التفكير الدقيق .

والمعرفة الشاملة للمنطق الرمزي تعتمد على إلمام كافٍ بالجبر وقواعده العديدة .

والذي يعرف الجبر يعرف وجود فرص كبيرة للعقل في البحث عن أساليب جديدة لحل المشاكل الرياضية . وذات الفرص موجودة في المنطق الرمزي لإيجاد حلول جاهزة وسريعة للمشاكل الفكرية . وقد عمل الفلاسفة والعلماء في سبيل استثمار هذه الفرص وإيجاد الحلول المناسبة للمشاكل الفكرية . ولا ريب أنهم وفّقوا كثيراً في ذلك .

تقييم منطق أرسطو :

لقد تعرض منطق أرسطو لكثير من الهجمات ربما كانت تحاول مناهضة الإفراط في الثقة به خلال ألفي عام . لكن بعيداً عن روح التهجم أو الثقة ، يقيّم

هذا المنطق بأنه نظم مسيرة الفكر الإنساني في قبالة التطرف والفوضى والسفسطة . ولكنه من جهة أخرى ، قيّد هذا الفكر بتركيزه الكبير على الجانب الصوري منه ، أي أنه لم يحاول البحث عن مصدر الأفكار بمقدار ما كرّس بحوثه حول علاقة الأفكار ببعضها ، وكان مثله مثل من ييذل جهده في جمع الأعداد وتفريقها دون أن يفكر فيما وراء هذه الأعداد من حقائق تدل عليها .

فمنطق أرسطو الشكلي ، بإهتمامه بشكل التفكير وإغفاله عن البحث عن مادة التفكير وموضوعه ، سبّب تناسي دور السلبات البشرية التي تدعو إلى الضلالة ، كما تناسى دور العقل في تحدي هذه السلبات . ولذلك لم يوفق هذا المنطق في إعطاء الإنسان مزيداً من التقدم الفكري .

وبسبب من تأثير المنطق الأرسطي الشكلي ، والذي يبرز فيه جانب الإطلاق والعموم ، انطبع المفكرون في القرون الوسطى بطابع الإطلاق وسرعة انتزاع الكلّي من جزئيات صغيرة .

فكان يكفي الواحد منهم أن يلاحظ عدة أحداث جزئية .. حتى يحكم بكلّي يشمل ملايين من أمثال تلك الأحداث .

ثم تحول المفكرون إلى الاعتقاد بأن المنطق الأرسطي طريق الوصول إلى الحقائق ، غافلين عن أنه منهج للتفكير ... والتفكير هو الطريق .. فأخذوا يركّبون القياسات بعضها فوق بعض لعلهم يقفون عليها ليروا الحقائق جميعاً .

إن القوالب الفكرية تحولت عند هذا الفريق ، إلى أفكار استغنوا بها عن التجربة . بل زعموا أنها تغنيهم حتى عن عقولهم ... وهكذا لفهم الجمود .

وخلاصة القول ، أن منطق أرسطو بالرغم من تنظيم الفكر ، ابتلي بثلاثة نواقص :

- ١ - تناسي دور السلبيات البشرية في تضليل الفكر .
- ٢ - إطلاقية توجيهه . . . مما سبب في إيجاد طابع الإطلاق عند تابعيه .
- ٣ - تحول المنطق إلى أفكار بينما لم يكن سوى مناهج للتفكير .

## المسلمون والمنطق الغربي

لا ريب أن الإسلام جاء بروح علمية جديدة تفتحت عن مناهج متطورة للبحث ، ولكن المسلمين لم يستثمروا إلا قدراً ضئيلاً من إمكانات هذه الروح العلمية ، وبنفس المقدار ، اختلفت معارفهم عن معارف العصر الذي عايشوه .

بيد أن ذلك لا يعني أنهم سلموا تماماً من جمود القرون الوسطى الفكري والذي ظهر في المنطق بشكل بارز ، إنما يعني أنهم كانوا ، خصوصاً في بعض الفترات ، يستضيئون بنور القرآن ، وما يهدي إليه من روح البحث العلمي في مجال المنطق التركيبي .

وقد أثرت هذه الروح عميقة في كتب الفقه والرجال ، لأنها كانت من اختصاص أشد فئات المجتمع المسلم تحفظاً ، وفي كتب الرياضيات نوعاً ما لأنها لم تستطع التقدم إلا بالانفصال عن الفلسفة . وقليلاً ما أثرت في العلوم الطبيعية .

بينما كان أثر المنطق الصوري كبيراً في كتب الفلسفة ، لأنها كانت غريبة على الواقع الفكري للمسلمين ، وإنما اختص بها ، بادئ الأمر ، أولئك الذين آثروا الابتعاد عن التعاليم الدينية .

بل لم يحتضن الفلسفة أول الأمر سوى الأقليات الدينية في البلاد وسرّبوها

في الثقافة الإسلامية ، عن طريق العلوم المفيدة كالطب والهندسة والفلك .

وبالرغم من أن المناهج العلمية ، التي جاءت بها تعاليم السماء ، خصوصاً في حقل العلوم التجريبية ، لم تتبلور لدى المسلمين ، فإن المسلمين قد جمعوا هذه التعاليم وفرضوا دراستها على طلاب العلوم الدينية كجزء من مناهج دراستهم .

فهناك كتاب ألفه الشيخ عبد الباسط موسى بن محمد العلمي المتوفي في دمشق عام ٩٨١ هجرية ، وسماه « المعيد في أدب المفيد والمستفيد » عالج فيه أسلوب الرواية المعروفة للعلم وأساليبها وطرقها وشروطها .

وكتاب مماثل لا يزال يُدرّس في بعض الجامعات الدينية ألفه الشيخ زين الدين العاملي وسماه « منية المرید في آداب المفيد والمستفيد » .

ويوصي هذا الكتاب بأفضل التعاليم العلمية ، التي يظهر منها مدى تشبع المسلمين بروح المنطق الإسلامي بالرغم من عدم بلورته لديهم .

كما يوصي الكتاب الأول بطرق مفيدة للمناهج العلمية ، فمثلاً يقول : « إذا اشترى (المتعلم) كتاباً نظر أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه واعتبر صحته ، فإذا رأى فيه إلحاقاً أو إصلاحاً فإنه شاهد له بالصحة ، ولا يهتم بالمبالغة في حسن الخط ، وإنما يهتم بصحته وتصحيحه ، وعليه مقابلة الكتاب بأصل صحيح موثوق به ، فالمقابلة متعينة للكتاب العربي الذي يرام النفع به » .

ويرى كثير من مؤرخي الحضارة الغربية أنها وليدة الروح العلمية ، التي تسربت إلى الغرب من بعض مراكز إشعاع الفكر الإسلامي كالأندلس .

ويقول بعضهم في معرض حديث عن أولى محاولات الفكر الأوروبي لتحرر من شكيلات المنطق الأرسطي الجامد : « وترجع هذه المحاولة إلى القرن الثالث عشر الميلادي عندما نقل العرب الروح العلمية والرياضية إلى أوروبا ، وقد أراد روجر بيكون تحرير معاصريه من التفكير المدرسي والتأليف بين التفكير الرياضي والتجربة » .

## القسم الأول

### عن تطور البحث المنطقي

#### البحث الثاني عن :

# المنطق الحديث

كلمة البدء .

المذهب الديكارتي في المنطق .

اسبينوزا ولايبنتس .

لوك والقيمة الحسية .

كانت وبرمجة التفكير البشري .

فيخته .

شبلنك .

هيجل . . ونظريته المنطقية .



## كلمة البدء

لم يكن همّ المفكرين في أوروبا إلى القرن السادس عشر ، سوى إعادة تركيب المنطق الأرسطي وإعادة هضمه والتدبر فيه .

وكانت المعرفة محصورة لديهم بما تمليه عليهم السلطات الدينية والزمنية ، التي أحكمت قبضتها على الجماهير . وكان أعلم الناس عندهم أفهمهم لأفكار السابقين ، وأكثرهم حفظاً لنصوصها .

وكانت همّة العلماء مشدودة بخدمة التقاليد السائدة والأوضاع السياسية القائمة .

وكانت الكنيسة ، ترمي كل فكرة تحريرية بالإلحاد وبالمشابهة مع المسلمين ، الذين كانوا يشكّلون حسب زعم «الدهماء» أخطر عدو للغرب .

ولكن منذ القرن السادس عشر أخذ الوضع يتطور ، وتلاحقت التطورات الفكرية والسياسية في القرن السابع عشر ، ثم الثامن عشر ، حتى انفجرت في الحضارة الغربية الحديثة ، التي بالرغم من فراغها الروحي الكبير فإنها ذات إطار مادي ضخم .



## عوامل تطور المنطق :

ترى ما هي العوامل التي أدت إلى هذه التطورات ؟

هناك عدة عوامل ، سياسية وإجتماعية وفكرية ، لا يمكننا هنا تحديد الأهم منها فنكتفي بسردها لكي نستطيع فهم خلفية الأفكار المنطقية التي ظهرت في الغرب . هذه العوامل هي :

## بماذا عاد المنهزمون ؟

١ - من الناحية السياسية ؛ كانت الحروب الصليبية سبباً لإفراز حضاري كبير . إذ أراد الغرب من ورائها إعادة سيطرته على الشرق الإسلامي . لذلك فإن خسارة هذه الحرب سببت صدمة نفسية قوية عند الغرب أيقظته على واقعه المرّ ، وفرضت عليه إعادة النظر في كل مؤسساته المادية والمعنوية .

لقد عاد المنهزمون في الحروب الصليبية ، بتجربة واحدة هي أن المسلمين متقدمون عليهم حضارياً ، وبالمقابل فإنهم متأخرون حضارياً . فأخذوا يبحثون عن سرّ تقدم المسلمين وتأخرهم فأنتهوا إلى نتائج كبيرة ومتنوعة ، تلخصت في أن الحرية الفكرية والسياسية ضرورية لأي تقدم .

ولم تستطع السلطات الدينية والسياسية كبح هذا الشعور ، الذي أخذ يتنامى حتى أدى إلى واقع الحضارة الغربية الراهن .

صحيح أن مسيرة الغرب كانت مختلفة الاتجاه عن مسيرة المسلمين إذ كان الغرب متمحّضاً في المادية ، وكان المسلمون يستفيدون من الإمكانات الروحية أيضاً .

ولكن الغرب إنما تعلم السير من المسلمين بالرغم من أن المسلمين أنفسهم نسوا السير ، بعد أن علموا غيرهم بفعل الاكتساح المغولي ، والغزو

الصلبي ، وضعف الروح الدينية .

كان هذا عاملاً خطيراً في إيقاظ الغرب الفكري ، وهو عامل سياسي في طابعه العام .

### حين استقر الفاتحون :

٢ - كانت القبائل البدوية تزحف على أوروبا منذ القرن الثالث عشر ، فتحدث فيها هزات إجتماعية عنيفة . فلما استقرت هذه القبائل البدوية في القرن الرابع عشر ظهرت فرصة كبيرة لتحول إجتماعي ضخم وذلك :

أولاً : لأن طبيعة البدو لو تحضرت تستطيع القيام بإنجازات رائعة ذلك أنها قد تعودت على الحياة الخشنة القاسية فأصبحت قادرة على تحمّل القسوة الضرورية لبناء أية حضارة .

ثانياً : إن العناصر المغلوبة عسكرياً تفكر في أن تريح الحياة بالطرق السلمية . والهدوء الذي خيم على أوروبا بعد أمواج الغزو البدوي كان أفضل فرصة للعناصر المغلوبة للقيام بمبادرات عملية ، لاستعادة مراكزها . وهكذا كانت الأحوال الاجتماعية في أوروبا مستعدة في القرن الخامس عشر لتحول عظيم . . ظهر فعلاً في الأفكار الثورية التي انتهت بنشوء الحضارة الأوروبية الراهنة . وهذا هو العامل الإجتماعي .

### سقوط قسطنطينية :

٣ - كانت عاصمة الدولة البيزنطية (قسطنطينية) مجعماً لخيرة الفلاسفة المسيحيين واليهود . وبسقوطها بأيدي المسلمين ، نزح عنها جميع المفكرين المتواجدين فيها إلى البلاد الأوروبية ، والتقوا بزملائهم هناك ونشأت من التقائهم نهضة فكرية بطبيعة التلاقح الفكري الذي يأتي عادة بعد التقاء مدرستين فكريتين ببعضهما .

هذه هي العوامل الثلاثة الرئيسية التي يذكرها المؤرخون للنهضة العلمية في أوروبا . . .

وقد ابتدأت من أواسط القرن السادس عشر ، والتي برزت في منطق فرنسيس بيكون ، وريسه ديكارت . فبيكون كان يتمتع بآراء جريئة ، اعتمد على الإستقراء ودعا بإصرار إلى تكريس الجهود في العلوم الطبيعية ، وبُين أسس التجربة فيها ، وبذلك فتح الطريق إلى المنطق التركيبي . وديكارت جاء بفكرة تحويل المنطق إلى «علم رياضي» وقام بتطبيق منطقته على العلوم الطبيعية والفلسفة العليا ، وأحرز نجاحاً باهراً بالنسبة إلى عصره .

وتابع المفكرون مسيرة بيكون في تجارب العلوم الطبيعية ومسيرة ديكارت في الفلسفة والرياضيات ، وانتهوا بالمنطق الحديث بقسميه ( المنطق التركيبي والمنطق الصوري ) إلى الكمال . والآن لنعرف تفصيل هذه المسيرة .

بيكون :

فرنسيس بيكون ( ١٥٦٠ - ١٦٢٥ م ) ثار على الأوضاع القديمة في الثقافة بعنف ورمى السابقين بالجهل ، ونسب جهلهم إلى عاملين :

١ - إن مناهجهم لم تك توصلهم إلى نتائج عملية ( أو بالأحرى لم يكونوا يهدفون من وراء مناهجهم الوصول إلى نتائج عملية ) .

٢ - إن المنطق الذين كانوا يعتمدون عليه ، ويستقون منه أفكارهم كان المنطق الصوري الذي لا يفيد علماً جديداً ، إنما ترسيخاً للمعلومات السابقة وإلزاماً للخصم بهاء بل العلم الجديد ، ينشأ من القياس والتعقل ، وإستخراج الكليات من الجزئيات ، بعد الإستقراء فيها ، وتنويعها ، والتعقل فيها ، وبدون ذلك يظل الاستدلال عقيماً ، وبدون أساس ثابت .

## أخطاء الفلسفة القديمة :

وبعد أن بيّن يكون عقم الفلسفة القديمة ، شرع في بناء المنهج الصحيح للاستقراء . لكنه قال : لا يمكن الوصول إليه بدون معرفة أسباب الخطأ والتخلي عنها . فما هي إذاً أسباب الخطأ التي يسميها بـ"أصنام" لأنها تُتبع بغير فائدة . يقول بـ"أصنام" أنها أربعة أصنام :

١ - أصنام الطائفة (أو الفرع) وهي مقتضيات طبيعة الإنسان التي تشبه المرأة المنحرفة فتعكس الحقائق بغير صورتها الأصلية .

وعلى الإنسان التخلص من صنم طبيعته . . . حتى يستطيع نيل المعرفة الصحيحة .

٢ - أصنام الشخص (الفرد ذاته) وهي التي تفرضها طبيعة الميول الخاصة بكل واحد منا ، حيث تُسبب هذه الميول الشخصية انحرافات بعيدة في فكر الإنسان .

٣ - أصنام السوق : أي سوق المعرفة وهي الأفكار الخاطئة التي تتسرب إلى أذهاننا بسبب العبارات الغامضة ، فعلينا إذاً تنقية العبارات حتى نستطيع الوصول إلى الحقائق .

٤ - أصنام المعرض (معرض الأفكار القديمة) التي تحتوي أفكار الفلاسفة السابقين ، وتسبب ضغطاً شديداً على أذهاننا ، وبالتالي أخطاءاً جسيمة .



## المذهب الديكارتي في المنطق

رينيه ديكارت (١٦٥٦ - ١٦٩٥) تأخر عمره الثقافي عن يكون بربع قرن ، ولذلك اعتُبرت نشاطاته الفكرية من نصيب القرن السابع عشر .

ذهب ديكارت إلى مساواة الناس في العقل واختلافهم في مدى استثماره ، والسير به في الطريق الصحيح . لذلك رأى أن أفضل خدمة تسدى إلى العلم هي وضع منهج صحيح له ودعوة الناس إليه . فما هو هذا المنهج ؟

إذا كان مقدار العقل واحداً عند الناس جميعاً ، فلا بد أن يكون الذي يتبعه العقل ، ويسير فيه أيضاً واحداً . وبالتالي يجب ألا يكون هناك أي فرق بين العلوم المختلفة في المنهج . فأي منهج موحد يجب أن تسير فيه العلوم جميعاً إنه منهج الرياضيات الذي يبحث عن الكم ، لأنه منهج محدد وواضح . لذلك يجب بحث جميع العلوم حتى الطبيعيات في ضوء هذا المنهج . وهكذا أدخل ديكارت القياسات الكمية في العلوم الطبيعية ونحن اليوم نعرف ببساطة كيف نحول المرض والقوة والحرارة وما أشبه إلى أمورٍ مقاسة بالكم (درجة الحرارة) ، لكنه في ذلك اليوم كان أمراً جديداً بالمرة .

وشرح ديكارت طبيعة منهج الرياضيات ، وحاول سحبها إلى كل حقول العلم ، اعتقاداً منه بأنه هو ذلك المنهج الواحد الذي يصلح لهداية العقل فما هو

## منهج الرياضيات ؟

- افترض حلاً مسبقاً لمشكلتك ثم عدد النتائج التي قد تترتب على هذا الحل على افتراض صحته، ثم فتش عن هذه النتائج لترى هل هي موجودة فعلاً أم لا . مثلاً ، لو كانت المسألة العملية هي : هل الحديد يتمدد بالحرارة ؟ نفترض حلاً للمسألة بأنه « نعم الحديد يتمدد بالحرارة » فما هي أولى النتائج المترتبة على ذلك ؟ أولى النتائج أنه من تمدد الحديد لا بد أن تنعرج السكة الحديدية أو تنكسر أيام الحر لأنه حديد ممتد ، أو لا بد أن يكون بين قطع الحديد فيها فواصل تظهر أيام الشتاء وتختفي أيام الصيف ، فهذه هي النتيجة المترتبة على الحل المفترض ، ثم نلاحظ الواقع الخارجي فنرى صحة النتيجة خارجاً . فنعرف صحة الفرضية ، واقعاً هذا هو منهج الرياضيات الذي يقترحه ديكرت للعلوم .

يبدأ ديكرت هجومياً عنيفاً على المنطق الأرسطي الذي ينعته بالعقم ، بسبب أنه لا يزيدنا علماً جديداً . فيقول : « إن النتيجة في هذا المنطق ليست سوى صيغة أخرى للمقدمة ، فإن كانت المقدمة صحيحة فإن النتيجة معلومة بصورة آلية . وإن كانت إحدى المقدمات باطلة ، فإن المنطق ليس سوى وبال » . هكذا يكون منطق أرسطو عقيماً عند ديكرت .

## منهج ديكرت :

ثم يبين ديكرت منهجه المندرج إلى تحصيل العلم فيضعه في أربع قواعد رئيسية :

ألف - الاستقلال الفكري « يجب ألا أعتقد إلا بما يكون لدي واضحاً لا ريب فيه » .

هذا مفاد القاعدة الأولى لديكرت والتي يجزئها إلى أربعة بنود :

١ - بما أن العلم حضور للأشياء عند النفس ، فإن معرفة الإنسان بالأشياء تتم بصورة مباشرة ، مثل رؤية العين للأشياء . فليس العلم قائماً بصور عن الأشياء

في الذهن كما كان يتصور القدماء بل العلم إنما هو إحاطة كشف وشهود .

فكلما كان واضحاً عند النفس وضوحاً شديداً كان معلوماً ، حتى ولو لم يكن واضحاً عند القدماء . إذ إن اتباع الآخرين في العلم يشبه الأعمى الذي يقوده الناس .

إذاً البند الأول هو رفض أفكار السابقين إذا خالفت العلم .

٢ - يجب ألا أتسرع في الحكم بشيء .

٣ - كما أن أفكار القدماء تأسر قلب المتعلم حتى يكاد لا يبصر الحقائق ، كذلك أهواء النفس قد تأسر القلب ولا تدعه يكتشف الحقائق . لذلك يجب التخلص من الأهواء الداخلية .

٤ - وأخيراً أجعل وجداني حكماً على الأشياء ، بحيث لا أقبل أي شيء إلا إذا كان واضحاً ماثلاً أمام وجداني تماماً .

### التحليل :

بإيه - بما أن علم الإنسان أوضح بالبيئات منه بالمركبات ، فلا بد أن نلتزم بالقاعدة التالية : « تحليل الحقيقة إلى أكبر قدر ممكن من البيئات » .

وتأتي أهمية التحليل من الغموض الذي يكتشف عادة المسألة المركبة ، بسبب وضوح جزء منه ، وعدم وضوح جزء آخر بحيث يظل الفكر متردداً بينهما والتحليل ينقذه من هذا التردد ويضع لكل جزء من المسألة ما يناسبه . دون اختلاطه بالجزء الآخر .

### التدرج :

جيم - ولكن مشكلة التحليل أنه يعقد علينا ارتباط أي جزء بآخر ، وهنا لا بد أن نطبق القاعدة الثالثة عند ديكارت لحل هذه المشكلة ، فما هي القاعدة الثالثة « إنها ترتيب الفكر والتدرج في البحث عن الواقع الأبسط فالأبسط » .



## الاستقراء :

دال - وهنا نستقصي عن كل ما يكشف أي جزء من المسألة حتى نشبعه بحثاً وتنقياً فلا نتحول إلى الجزء الثاني إلا بعد أن تنتهي من الجزء الأول في البحث .  
المهم في منهج ديكارت أنه اختار الطريقة الرياضية وخصوصاً طريقة الجبر لمعرفة جميع العلوم . وكان في ذلك تسهيل جديد سبب اكتشافات علمية هائلة .  
ولكن بالرغم من ذلك ومن اكتشافات ديكارت العلمية التي تمت على ضوء منهجه الجديد لم يزل في منهج ديكارت العديد من النواقص هي كالتالية :

١ - لم يركز ديكارت في منهجه على دور التجربة في فهم الحقائق، مما صبح منهجه بالصيغة الصورية . واليوم يعد هذا المنهج من المناهج الصورية التي أضيفت إليها متعمات كثيرة وأكملتها .

## اختلاف المناهج في العلوم :

٢ - تبسيط العلوم يفيد في كثير من الأحيان ولكنه بالرغم من ذلك قد يوصلنا إلى طرق مسدودة . . . فمثلاً ، لو أردنا البحث عن حقيقة الوجود أو العدم ، لا نصل إلى نتيجة . . فليس الأمر كما ذكر ديكارت دائماً ، بأنه في سبيل البحث عن الحقائق لا بد من تبسيطها إلى آخر درجة ممكنة ، لأن العلم بالبسائط أسهل من العلم بالمركبات ، كلا فبعض البسائط ، العلم بها مستصعب .

نعم من الأفضل تبسيط المسائل إلى درجة يسهل علينا البحث عنها .

٣ - ثم إن العلوم في لحظة وحدتها في جهة تختلف في جهات عديدة وليس من الصحيح وضع منهج واحد لجميع العلوم ، كما يحاول ذلك ديكارت .  
ولقد تنبّه المتأخرون إلى مدى فرق العلوم عن بعضها . فوضعوا لكل واحد منها منهجاً بعد الإشارة إلى المنهج العام الذي يشمل جميع العلوم .

٤ - وهناك نواقص كثيرة في منهج ديكارت وسوف تتضح هذه النواقص من دراسة سائر فصول هذا الكتاب ، حيث بيّنا فيها أسباب الخطأ ومنهج البحث وأوضحنا ضرورة استيعاب كل ذلك في سبيل الوصول إلى الحقيقة ، لو أمكن الوصول إليها .



## المنهج الديكارتي في الفكر الأوروبي

كان تأثير ديكارت في الفكر الأوروبي كبيراً إلى درجة أنه خلّف تياراً فلسفياً سُمّي بـ «ديكارترزم» وانجرف في هذا التيار مفكرون كثيرون .

لكن لا يعني ذلك أن كل هذا التأثير كان من شخص ديكارت أو من فلسفته بل وكان أيضاً من عصره ، الذي تملّك تحت تأثير شروط معينة ، وحاول النهوض فالتف حول منهج بيكون وديكارت لأنه وجدتهما أنسب المناهج إلى نهضته المنشودة .

لذلك فقد أضاف كل فيلسوف جديداً إلى منهج ديكارت . قال أحدهم : « إن منطق ديكارت دهليز الحقيقة يجب أن نعبرها ولا نتوقف فيها » . وكان في طليعة هؤلاء مابرائش واسبينوزا .

مابرائش :

اعتقد مابرائش ( ١٦٠٨ - ١٧١٥ ) أن سبب خطأ الإنسان اندماج عقله بجسمه وابتلاؤه بما انطوى عليه الجسم من الخيال الفارغ ومن الرغبات النفسية .

السؤال : كيف تتسبب الحواس في حجب العقل عن الحقيقة ؟  
يجيب مابرائش عن هذا السؤال بالقول : إن الهدف الفطري من الحواس

يختلف عن الهدف الذي ينشده الإنسان ، ولذلك يتورط الإنسان في الخطأ ، ومثله أن يستخدم الإنسان المحراث في التكرير ، وذلك لأن الغاية المتوخاة من الحواس بالأصل هي إيجاد علاقة مناسبة بين الجسم والعالم المحيط به ، حتى يبقى الجسم مصنوعاً من الأخطار . . . بينما يستخدم البشر حواسه فيما هو وراء هذه الغاية ، وهو العلم بحقائق الأمور ، جهلاً بأنها إنما تنقل المظاهر الساذجة والآثار السطحية إلى ضمير الإنسان ، حتى يتجنبها لأنها هي غايته الطبيعية . فمثلاً إن حواسنا تشعر بالألم إزاء بعض الإثارات الخارجية ، فهل الألم هذا من آثار تلك الأمور الخارجية كما نتصور وكما نقول ظاهراً بأن الضرب مؤلم فتنسب الألم إلى الضرب ونجعله صفة من صفاته ؟ كلا إنما هو من مقتضيات ذواتنا نحن ، فهي التي تتأثر بالضرب ، ولا دخل له بصورة الحياة الخارجية ، ونحن إنما نعبر عن الضرب بأنه مؤلم لبيان نوعية العلاقة التي تربطه بأجسامنا .

### الصفات والرغبات النفسية :

التوهم سبب آخر من أسباب الخطأ البشري لأنه يجعلنا نزع صحة أفكار الآخرين ، فنتبعهم بينما هي باطلة وإنما تخيلنا خيلاً .

أما الرغبات النفسية فإنها تولد الحب والبغض في الإنسان ، وهما بدورهما يحجبان نور العقل ويوقعان الفرد في الخطأ . والصفات النفسية أشد أثراً في القلب من الرغبات النفسية ، لأن الصفة المنحرفة بذاتها تسبب الخطأ ، دون واسطة الحب والبغض .

وحتى طاقة الفهم «العقل» فإنها قد تتسبب في الخطأ ، ذلك لأنها بطبيعتها محدودة بينما يزعم الإنسان أنها قادرة على كشف الأشياء جميعاً .

وهذا الغرور سبب خطير من أسباب الخطأ البشري « عند ما برانش » .

ثم يبدأ ما برانش بتفصيل منهجه بعد أن يحدد أسباب الخطأ ويوصي الطالب

بتجنبها فيقول : يجب أن نطرح أية مسألة بصورة مبسطة والبحث عن الوسائط المشتركة .

وينبغي حذف الزوائد بل تلخص المعلومات بقدر الإمكان .

ولا بد أن نتدبر في نوعية ترتيب المعلومات مع بعضها بدقة تامة ، كما يجب مقابلة المعلومات المركبة مع بعضها لحذف المكررات عنها ، وكذلك حذف الأمور غير المفيدة . . ونكتفي بهذا القدر في تفصيل منطق مابرائش الذي يتشابه في كثير من الأمور مع منطق ديكارت . إلا أنه ينطوي أيضاً على بعض السلبيات .

١ - فالغموض يكتنف نظريته عن أسباب الخطأ لأنه لم يكن قادراً على بناء أسس كافية لمنطقه ، واليوم وبعد بحوث علم النفس المختلفة نستطيع أن نفقه مواقع الغموض في فلسفة المنهج عند مابرائش .

٢ - إنه عدّد أسباب الخطأ وجعل منها الفهم ( أو العقل ) ، بينما العقل لا يدعو الإنسان إلى أن يتصور كماله ، وشموله . إنما جهل الإنسان بمحدودية عقله ، وغروره بما لديه من وسيلة ناقصة ، هو الذي يجعله يحمل عقله فوق طاقته ويطلب منه ما هو عاجز عنه .

### ديكارت يدخل في الفكر الأوروبي :

وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر دخل منطق ديكارت في برنامج الفكر الأوروبي ، بعد أن أضيف إليه بعض العناصر المفيدة من منطق أرسطو ، وذلك عندما كتب عالمان يتبعان ديكارت هما ( بير نيكل وأنتون أرفو ) ، من فرنسا ، كتاباً في المنطق على ضوء فلسفة ديكارت ومنهجه ولا يزال الكتاب متداولاً في أوروبا ومرجعاً مفيداً هناك .



## معرفة العلم بالعلم

اسبينوزا ..

من هولندا هذه المرة ، جاء اسبينوزا الذي عاش بين ( ١٦٣٢ - ١٦٧٧ ) وأصبح من أكبر فلاسفة أوروبا في عصره ولخص رأيه في المنطق بالقول : لَمَّا رأيت طرق معرفة الأشياء توجز في أربعة : أفواه الناس ( كمعرفة كل شخص بيوم ميلاده ) أو بالتجربة المجملة ( كمعرفة الناس بأن النفط مما يحترق ) أو بمعرفة الرابطة بين الجزئيات والكمليات ( كما نعلم بالحرارة بعد العلم بوجود النار ) وهذا هو الطريق الثالث الذي بالرغم من أنه أفضل مما سبق فإن الطريق الرابع أفضل منه وهو : الوجدان الذاتي والشهود الشخصي ، وهو طريق لا يأتيه الخطأ لأنه منطبق مع المعلوم ، ويأتي بعلاقة مباشرة بين الفرد والمعلوم ، ولذلك فهو موجب لليقين ، وهو يتعلق بالبسائط والمبادئ الأولية ، وموارده قليلة جداً .

والعلم بالبسائط ( أي الطريق الوجداني ) واضح ومحدد وموافق مع المعلوم الخارجي ، ولسنا بحاجة إلى حجة تدل على صحته . ولهذا فلسنا بحاجة إلى البحث عن منهج صحيح للمعرفة .

إن المعرفة هي بذاتها دليل على صحتها . وعلى صحة الطريق المؤدي إليها ، لا العكس . . . وبالتالي العلم هو طريق العلم . العلم بالواقع طريق العلم



بذلك المنهج الذي يوصلنا إليه ، أي على ضوءه نستطيع معرفة المنهج المؤدي إليه وإلى غيره .

ثم يضيف قائلاً : إن طريق معرفة الحقيقة وتمييز الباطل عنها ، هو البحث أولاً عن حقيقة واضحة جداً ومتميزة تماماً عن الباطل . وكلما كانت الحقيقة واضحة أكثر وضوحاً ، وأشد تمييزاً عن الباطل ، كان أفضل لأن أساس العلم آنذا يكون أكثر رسوخاً ويكون العلم النابع منه أشمل إحاطة بالحياة . فما هو ذلك العلم الأول الذي يتعلق بأوسع الأشياء إحاطة وأسامها رتبة ؟ . . . إنه العلم بالله سبحانه . الذي يهدي إلى كل علم . لأننا على ضوءه نتعرف على المنهج الصحيح ونبلغ به جميع الأشياء .

### ملاحظات على منهج اسبينوزا :

واسبينوزا يتبع ديكرت في موجز أفكاره ، وإن كان يخالفه في تفاصيلها ويركز كثيراً على ضرورة إدخال المنهج الرياضي في كل العلوم . . لكن نظريته في المنهج تتعرض لعدة ملاحظات :

١ - إنه قسّم طرق العلم بالحقيقة إلى أربعة وجعل منها الوجدان كما جعل منها أقوال الناس . ومن حقنا أن نتساءل عن معنى العلم ؟ أليس هو وجدان الأشياء وكشفها والوصول مباشرة إليها ، كما يقول اسبينوزا ذاته . . . فإذا كان كذلك ، وهو كذلك ، فلا فرق بين أن يأتي هذا الوجدان عن طريق التفكير أو الاحساس أو العلم بالعلّة والمعلول ، بل إنما يأتي الوجدان بعد هذه الطرق أو بعد غيرها مما يسبب حالة العلم في النفس ، إذ الوجدان هو العلم ذاته . . . إذاً فليس من الصحيح جعل النتيجة من أقسام الطرق المؤدية إليها وجعلها أفضل منها .

٢ - بالرغم من أنه تفتّن إلى أن حقيقة العلم نور وكشف وظهور ، ولا يمكن البحث عن دليل يثبت صحة العلم بعد أن وجدنا العلم يقيناً . . . وبالرغم من أنه تفتّن أيضاً إلى حقيقة أخرى هامة ، وهي أن الطريق إلى معرفة المنهج الصحيح

للعلم هو العلم بحقيقة ما ، ثم البحث على ضوئها عن المنهج الصحيح ، إلا أنه لم يتفطن ، أو لم يذكر ، كيف نستطيع الوصول إلى منهج صحيح بعد العلم بحقيقة واضحة .

وقد كشفنا في موضع آخر من هذا الكتاب عن ذلك ، حين قلنا أن العلم بحقيقة ما ، يجعلنا نطمئن إلى صحة الطريقة التي سلكناها إليها ، فنستطيع سلوك ذات الطريقة للوصول إلى غيرها فمثلاً إنك تعلم يقيناً . . أن  $10 + 10$  يساوي ٣٠ ولكنك لا تعرف صحة طريقة الجمع المتبعة ، فنستخدمها كما هي معهودة فترى : أن هذه الطريقة فعلاً أدت إلى النتيجة الصحيحة ، فنعرف أنها ستؤدي إلى نتائج صحيحة أيضاً في غير هذا المجال .

وهذا بعض من منهج « معرفة العلم بالعلم » ، وستعرف طرقات أخرى لهذا المنهج بإذن الله .

### لايبنتس :

في بعض بلاد ألمانيا وُلِدَ لايبتنس عام (١٦٤٦) وتوفي عام (١٧١٦) ، وانتزع رأيه في المنطق من نظرياته في الفلسفة ، والتي اعتقد فيها أن معرفة الغاية من الكون أو من أجزائه ضرورية للوصول إلى حقيقته جنباً إلى جنب مع معرفة العلّة المباشرة له . وفي باب المعرفة قال : كما أن أصل امتناع التناقض قاعدة رصينة لمعرفة الأشياء ، كذلك أصل العلّة الغائية « الهدف من الأشياء » قاعدة أساسية .

واعتقد في المنطق أيضاً ، أن إدراك البشر للأشياء يكون نوعين : إدراك واضح وإدراك باطن . . وكما أن معلوماتنا أقل حجماً من المجهولات كذلك الإدراك الظاهر أقل من الإدراك الباطن ، بينما الفضيلة خاصة بالإدراك الظاهر . وذهب إلى القول بأن الإدراكات الظاهرة تأتي نتيجة مجموعة الإدراكات المستبطنة كما أن هدير الموج ناشئ من مجموعة أصوات صغيرة تنشأ من اصطدام قطرات

الماء بالساحل .

واعتقد أيضاً بوجود قوى ذهنية سابقة هي في الواقع أساس كل معرفة .

والملاحظ في نظريات لايبنتس ليس الغموض فقط ، وإنما أيضاً محاولات فاشلة للتوفيق بين نظريات متباعدة ، والمهم فيها أنه يركز على أهمية العقل الباطن ودوره في الإدراك . والواقع أن الإدراكات المستبطنة ، والتي نسميها اليوم بالعقل الباطن ، هي التي تشكل قوالبنا التفكيرية ، وتصوغ نوعية نظرتنا للأحداث والزوايا المختلفة التي نحكم منها على الأمور ، كل ذلك بالرغم من أن العقل الرشيد يستطيع التخلص من ضغط « العقل الباطن » ليتجرد في حكمه على الأشياء بموضوعية تامة ، ولولا هذه المقدرة في العقل لم يستطع احدنا الاعتماد أبداً على علمه .

## لوك وقيمة الحسبة

لوك :

بين عامي (١٦٣٢ - ١٧٠٤) جاء لوك بنظريته الحسبة ، وأسس بها مدرسة خاصة بنفسه تُعيد كل العلوم إلى مبدأ واحد هو الحس ، بالرغم من عدم إنكاره للعقل الذي يتصور أنه أيضاً ناشئ من الحس . . أو بالأحرى يجعل يوم بروزه متأخراً عن الحس . واعتقد لوك بثلاث قواعد هي :

ألف - قوى الإدراك ، حيث قال بوجود عدة قوى متدرجة عند الإنسان هي التي توفر له المعرفة ، وهي :

١ - قوة الإدراك ، وهي أولى مراحل المعرفة .

٢ - قوة الحفظ ، وهي المرحلة التالية إذ انها تذخر المعلومات الناتجة من الإدراك .

٣ - قوة التمييز ، وهي التي تفصل بين المعلومات المدخلة .

٤ - قوة التقسيم ، التي تبين نسبة المعلومات إلى بعضها .

٥ - قوة التركيب ، التي تكلف بجمع المعاني البسيطة وتركيبها .

٦ - قوة التجريد أو الإنتراع وهي مسؤولة عن استنباط معنى كلي من الخصائص الجزئية التي تلاحظها في منظر واحد .

### أهمية التقسيم :

باء - ويتميز فكر لوك بالتقسيم ، وذلك تبعاً لهدفه البعيد الذي أراد به برمجة العملية التفكيرية عند الإنسان .

فهو يقسم التصورات ويبسطها ، فيقول : إن التصور بسيط « منشأ حس واحد » ومركب « منشأ عدة أحاسيس » فتصور الحرارة بسيط بينما تصور الجسمية مركب لأنه إنما يأتي من تصور الحجم والوزن . . . . .

والتصور قد يكون مثبتاً ، يكشف عن وجود شيء ، وقد يكون منفيّاً يكشف عن عدمه . فالأول مثل تصور النور والحرارة . والثاني كما نتصور الظلام والبرودة .

ولكي يوضح فكرة التصور وبلورها يقول :

الفكرة التي يستوعبها الذهن بسبب التصور تدعى بـ (المفهوم) . . .

بينما ارتباط هذا التصور بمنشئه يسمى بـ (الخاصية) فمثلاً الحرارة ، مفهوم ذهني ولكنها من جانب آخر خاصية للنار .

وَيَقَسَّم التصور أيضاً فقد يكون تصور لذات شيء . وقد يكون تصوراً لحالة .

وقد يكون تصوراً لعلاقته بسائر الأشياء .

### دور اللغة :

جيم - يلعب التقسيم دوراً بارزاً في توصيح عمليات العقل عند لوك ، ولكنه ليس الأمر الوحيد الذي يكشف لنا عن هذه العمليات عنده . . . وذلك لأنه ربط

أيضاً بين فهم هذه العمليات العقلية وبين فقه اللغة ، لأنها تكشف بقدر عن التصورات ، وتكون مقياساً أميناً لمعرفة طبيعتها .

من هذه الزاوية دخل لوك في تحقيقاته العلمية ، التي أجراها في باب اللغة ، وأصبح من مؤسسي علم اللغات الحديث ، وكان بين استدلالاته اللغوية التي سحبها إلى المنطق ، قوله : بما أن تصوّر الإنسان يعتمد على الإحساس في البداية فإن الرجل البدائي يعبر عنه أولاً ، فالطفل مثال للفرد البدائي وهو لا يعبر أول ما ينطق إلا عن الأمور المحسوسة . كذلك الأمم المتوحشة ، مثال للجماعة البدائية .

فلا نجد في لغتهم تعابير تخص الأمور العقلية . وكلما تقدمت الأمة باتجاه الحضارة كلما زادت تعابير لغتها التي تكشف عن أمور عقلية .

بعد أن يضع لوك أسس تفكيره الثلاثة ( بيان قوى الإدراك وتقسيم الإدراك ، ثم علاقته باللغة المعربة عنه ) يعطف نظره إلى حقيقة العلم فيزعم أنها النسبة بين تصورين . . . أو إثبات الوجود لتصور واحد ثم يفصل فيقول : أساس علاقة التصور أربعة أقسام :

(١) الوحدة ، كما تقول :  $4 \times 4 = 16$  .

(٢) أو عدمهما ، كما تقول :  $4 \times 4 \neq 15$  .

(٣) المقارنة ، كالقول : الهواء بارد .

(٤) إثبات شيء لشيء ، مثل أن تقول : الله موجود .

ثم يقسم لوك العلم إلى ذاتي وتعقلي وحسي . فالذاتي ، هو معرفة نسبة التصورات الذاتية إلى بعضها معرفة مباشرة . والتعقلي ، هو المعرفة التي تحتاج إلى استدلال وتفكر مثل معرفة الباربي . والحسي ، هو المعرفة الناشئة من الإحساس ، وهو بالرغم من قلة قيمته الفلسفية لعدم إفادته اليقين فإنه ذات قيمة

عملية لأننا نعتمد على الحس في كل شؤوننا ، وفي العلوم الطبيعية التي مرد تصوراتها تكون في خارج الذهن ، فيوصي لوك فيها بالاستدلال بينما يكتفي في العلوم الفلسفية والأخلاقية بالتعقل لأن مواد تصورها في الذهن .

ويلاحظ من اتجاه لوك الفلسفي في المعرفة ، أنه كان ينوي وضع تقنية للتفكير المنطقي ، بمعنى أنه كان يهدف جعل العلم يسير في خط واضح وقوالب معروفة ، حتى نستطيع ملاحظة خطواته واحدة بعد أخرى ، ثم أخطائه وتصحيحها .

وجهود لوك أثمرت في القرن الثامن عشر ، إذ قام العلماء بتقنية العلم حسب ما سيأتي الحديث عنه بإذن الله .

والملاحظ عليه كذلك تطرفه الشديد باتجاه تقييم الحس الذي نتج منه أمران :

١ - تناسي دور العقل والسابقيات الفكرية ، التي يكشفها العقل ، في بناء صرح المعرفة ، وهذا مخالف للواقع المشهود الذي ذكرنا به في بحوث فلسفية منفردة<sup>(١)</sup> .

٢ - جعل المنهج العلمي خاضعاً للتجربة المادية ، تتشابه مع سائر التجارب التي تجري على المادة . وهذا مخالف للرأي العلمي السديد الذي يفصل بين أنواع التجربة حسب اختلاف المواد . ومن هنا قال جون ديوي عن لوك :

« إن كلمة (خبرة) حين استعملت عند بدء ظهورها استعمالاً يضفي عليها الوقار بولغ - بغير شك - في جانبها المتصل بالملاحظة ، كما نرى مثلاً عند ( بيكن ولوك ) ونستطيع أن نلتمس لهذه المبالغة تعليلاً سريعاً في كونها حدثت في

---

(١) راجع كتاب « الفكر الاسلامي » ، مواجهة حضارية للمؤلف .

الظروف التاريخية التي حدثت فيها ( أي أنها كانت من وحي الظروف الخارجية ) ذلك لأن الفكر الفلسفي كان قد تدهور حتى بلغ صورة استبيح معها الظن بأن اعتقاداتنا عن أمور الواقع يمكن ، بل ينبغي ، أن نحصلها بالتدليل العقلي وحده إلا إذا كانت مستندة إلى أقوال النقاد ، فتولدت عن معارضة هذه النظرة المتطرفة نظرة أخرى تساويها في قصر نفسها على جانب واحد ، وهي أن الإدراك الحسي وحده يمكن أن يقرر لنا على نحو مرضٍ ما عسانا نريد أن نعتقد عن أمور الواقع ، فأدت هذه الفكرة عند (بيكن) وبعد ذلك عند (لوك) إلى إهمال الدور الذي تؤديه الرياضة في البحث العلمي كما أدت عند لوك إلى تقسيم يوشك أن يكون فاصلاً بين معرفتنا لأموال الواقع ومعرفتنا لما يقوم بين أفكارنا من علاقات ، على أن هذه المعرفة الأخيرة - بناءً على مذهبه - تعود فترتكز في نهاية الأمر على الملاحظة الخالصة سواء كانت تلك الملاحظة داخلية أم خارجية نتج عن ذلك مذهب يردّ الخبرة إلى إحساسات هي المقومات التي تتألف منها كل ملاحظة كما يردّ الفكر إلى روابط خارجية تصل هذه المقومات على أن المفروض في الإحساسات وفي روابطها معاً أن تكون عقلية فقط أي أن تكون نفسية خالصة<sup>(١)</sup> .

وبالتالي فإن أساس نظرية لوك الحسّي مرفوض فلسفياً ، لأنه بدون وجود عقل يكشف عن صحة أو زيف الإحساس لا يمكننا أن نثق به ونستثمره في سبيل تحصيل العلم . وقد تنبّه لوك ذاته إلى هذه الملاحظة فجعل العلم الناشئ من الإحساس في الدرجة الثالثة من الأهمية بعد علم يحصل بالوجدان وعلم ينشأ من الاستدلال .

ولكن ، كل هذه الملاحظات لا تقلل من قيمة نظريات - لوك - ولا سيما التي تناولت خطوات التفكير ، إذ كانت تمهيداً مناسباً لبعض النظريات التي ظهرت في القرن الثامن عشر .

---

(١) المنطق نظرية البحث





## كانت ... وببرجة التفكير البشري

كانت :

وُلد عمانوئيل كانت وتوفي بين عامي (١٧٢٤ - ١٨٠٤) في مدينة المانية وكانت آراؤه في المنطق حديثة . . فهو يبدأ حديثه عن ذلك بالقول :

ما دام الفرد لم يجد شيئاً (بوجدانه) فإنه يستحيل عليه أن يشعر به . . .  
ولكن متى يجد البشر الأشياء . . ؟ إنما يجدها حيث يتأثر بها وطريق التأثير هو الإحساس .

إذاً يقول كانت ، الإحساس ينبئ وجدان البشر ولكنه لا يرى أن الإحساس ذاته الوجدان ، إذ يعود ويوضح أن التأثيرات الخارجية التي تفد على الذهن ، عن طريق الوجدان لا تعتبر وجداناً بدون وجود قوة في الذهن تنظم هذه التأثيرات وترتبها .

ويعتقد أن وسيلة تنظيم الذهن للتمييز بين حسّ وآخر ، وأثر وغيره هو تصوّر مفلطور عليه الذهن ألا وهو تصور الزمان والمكان فكلما دخل ساحة الذهن إحساس ، ألبسه الوجدان ثوباً من الزمان ( الذي ليس سوى تعاقب حدث بعد حدث ) أو من المكان الذي هو وجود شيء بعد شيء .

وكما لا ترى العين الهواء أو الماء إلا من خلال شيء آخر يوضعان فيه أو يختلطان به ، فكذلك لا يجد الإحساس شيئاً إلا من خلال صورته (الزمكانية) .  
ثم يذهب كانت في طريقه الجديد ، ليرى أن مجرد تصوّر الأشياء لا يُعدُّ علماً بالرغم من إضافة (الزمان) عليه من ذات النفس إذ العلم (أو الفهم على حد تعبيره) هو إيجاد علاقة بين شيء وآخر ، وهذا لا يتحقق بواسطة تصور شيء واحد .

ثم يحاول كانت برمجة التفكير فيعطف نظره إلى فهم التصورات وكيفية حدوثه فيقول : إن الفهم هو « فعالية الذهن في ربط الأشياء ببعضها ثم استنتاج الأحكام العامة الكلية منها » ، حسناً ولكن كيف يحدث ذلك ؟

يزعم كانت أن عملية الفهم بحاجة إلى مادة وهيئة ، ومادة الفهم هي التصورات ( المركبة بدورها من الإحساس الخارجي والزمان الداخلي ) أما هيئتها فهي الأمور التالية ، وهي عبارة عن علاقات تربط بين تصور وآخر . . . فتشكل منهما فكرة مفهومة . وهنا يحاول كانت حصر هذه العلاقة وتحديد دورها في صياغة التصورات ، فيقول : إن هذه العلاقة أو الهيئات هي أشبه شيء بقوالب فكرية يصب الذهن فيها ما لديه من تصورات ساذجة فيصوغ منها الفكرة . . . وهي التالية :

الكمية والكيفية والنسبة (الإضافة) والجهة ولكل واحدة من هذه الأربع ثلاثة أنواع حتى يصبح مجموعها اثني عشر قالباً ( أو على حدّ تعبيره الذي قلّد فيه تعابير الفلاسفة الأقدمين «مقولة» ) .

فما هي الأنواع الثلاثة التي تقسم المقولات الأربع ؟

١ - الكمية :

أ - كميّة ( كل شخص يموت ) .

ب - جزئية ( بعض الناس أغنياء ) .

ج - شخصية ( علي عالم ) .

٢ - الكيفية :

أ - إيجابية ( جعفر يذهب ) .

ب - سلبية ( لا يذهب جعفر ) .

ج - معدولة ( جعفر لا يذهب ) .

٣ - النسبة :

أ - حملية ، تقتضي حمل حكم على موضوع آخر ( إمام عادل ) .

ب - شرطية ، تقتضي ربط موضوع بموضوع ( إن تاب العبد غفر له الرب ) .

ج - منفصلة ، وتقتضي ربط ضد موضوع بموضوع آخر ( الأرض أو الشمس مركز العالم ) .

٤ - الجهة :

أ - احتمالية ، تقتضي إمكانية حمل الموضوع على الحكم ( المريض قد يشفى ) .

ب - حقيقية ، تقتضي ربط الموضوع بحكم ( الإنسان يموت ) .

ج - ضرورية ، تقتضي وجود علاقة ضرورية بين الموضوع وحكمه ( لا بد للكون من إله ) .

ويتشابه كانت مع أرسطو في وضع المقولات ، التي هي عبارة عن تعيين نوع علاقة التصور بقرينه . وبالتالي الرباط الذي يوصل بين التصورات

المختلفة . . . ويهدف كانت من ذلك ذات الهدف الذي ابتغاه أرسطو وهو برمجة الفكر كما سبق .

والسؤال ، الذي حاول كانت الإجابة عليه بعد ذلك ، هو كيف تتكون الفكرة ( أو المعرفة ) ولماذا تستعين النفس بقلبي الزمكان أو بالمقولات الاثنتي عشرة ؟

يقول كانت : قبل معرفة أي شيء لا بد أن تعي الذات نفسه ويجد أنه عالم في قبال معلوم محدد . . وبما أن النفس بحد ذاتها أول كل شيء ، وبما أنها واحدة منفردة فإنها لا تستطيع أن تجد شيئاً إلا إذا كان واحداً . . ومن هنا يوحّد الذهن بين التصورات المتناثرة التي تردها من كل جانب ، في قلبي الزمكان ثم في المقولات الماضية الذكر .

ويتساءل - كانت - عن الطريقة التي تبذل النفس بها مقولاتها الاثنتي عشرة ، ويجد الجواب جاهزاً إذ سبق عنده أن الزمان هو الشرط الأساسي لتصور أي شيء ، إذ النفس لا يمكنها تصور شيء بدون إضافة عنصر الوقت إليه . . . ( إذ التصور ذاته يقع في وقت محدّد ) وهذا الزمان بالذات هو السبب في إبداع النفس المقولات الاثنتي عشرة .

لكن كيف ؟

ذلك لأن تصور الزمان يجبرنا إلى قياس شيء بشيء ، ومعرفة الأول والثاني . ويكون هذا تصور للعدد . ثم قد نتصور كل الأزمنة المتوالية ، فنهتدي إلى مقولة الكلية ، ثم قد نتصور الزمان بدون أي حادث فتأتي مقولة السلب ، أو مع حادث فهي مقولة الإيجاب ، وهكذا يكون تصور الزمان . . . سبباً في إبداع المقولات .

ثم يمضي كانت ليحدّد أكثر فأكثر مناهجه المنطقية منطلقاً في ذلك من المقولات السابقة . فيقول : ينبثق من مقولة الكم وجود أجزاء لكل شيء يتصور

وبالتالي عدم صحة فكرة الجزء الذي لا يتجزأ . ويأتي من مقولة الكيف وجود درجات قوة لكل شيء مبتدئة من الصفر . وبالرغم من وجود هذه الدرجات ، فالقوة كل واحد ، أي ليست كل درجة نوعاً مختلفاً عن سابقتها وينشأ من مقولة الاضافة ( أو النسبة ) ضرورة ربط الأشياء ببعضها بأحد الوجوه الثلاثة : الاستمرار ، التوالي والمقارنة وكل واحد منها أساس دستور محدد في المنطق :

١ - الاستمرار ، يعني أن ذات المتغير دائم لا يفنى بالرغم من تطوّر صفاته .

٢ - التوالي ، يعني ارتباط الأمور المتغيرة ببعضها ارتباط العلة بالمعلول ، بحيث لا بدّ أن يأتي بعضها بعد بعض .

٣ - المقارنة ، تعني أن كل أمرين قارنا في الزمان لا بدّ أن يؤثر في بعضهما .

هذه هي الأسس التي تُبنى عليها علوم الطبيعة الحديثة . ومن الجهة ، المقولة الرابعة ، تنشأ قواعد ثلاث تعتبر أساس التجربة وهي :

١ - كل شيء يتوافق مع أصول الوجدان ، وأسس المقولات السابقة ، فهو ممكن الوقوع .

٢ - كل شيء يتوافق مع الشروط المادية للتجربة ( بحيث يمكن إحساسه ) فهو موجود وواقع .

٣ - وكل شيء وجوده موافق مع شروط التجربة المادية ، وعدمه مخالف لها . . فهو واجب الوجود ، وضروري التحقيق .

هذه خلاصة أفكار كانت المنهجية والتي بالرغم من وجود عناصر إيجابية كثيرة فيها . فهي تنطوي على أخطاء فلسفية كبيرة .



## أنطاكيا كانت

١ - النظرية النسبية التي تُعتبر أساس منهجه ، صحيحة علمياً ، إذا أردنا منها : أن العلم بكل الأشياء غير ممكن لنا وكذلك العلم بكنه الأشياء .

ولكن إذا أردنا التشكيك في صحة علمنا بظواهر بعض الأشياء ، فإن ذات العلم ينفي هذا النوع من التشكيك إذ أنه حين يكشف لنا عن شيء يعطينا اطمئناناً بالغ الشدّة به ، بحيث ينقطع التشكيك فيه .

٢ - من هنا كان خطأ كانت الكبير ، حين اعتبر الزمكان من متصورات النفس البشرية ومن إضافاتها النهائية التي تضيفها على الأشياء لا لأمرٍ إلا لتعرفها . . . ذلك أن الزمكان ، بدورهما حقائق يكشف عنهما العقل البشري . . . ويثق بوجودهما في الخارج كما يثق بوجود أي شيء آخر . . . وما هو الفرق بينهما وبين مواد التصورات وكيف جاز لكانت أن يعتقد أن تصور الحرارة من نتائج الخارج ولكن تصوّر مكانها وزمانها من نتائج الذهن .

هذا بالإضافة إلى أن الذهن البشري يتصوّر إلى جانب الزمكان أموراً أخرى كالشدّة والضعف والنوع والكيف ، فالذهن يتصور مكان وزمان الحرارة ويتصور أيضاً الفرق بين الحرارة والبرودة ، وبين الحرارة الشديدة والضعيفة . وهكذا كل ذلك بسبب نور العقل الوضّاء .



صحيح أن التصور الزمكاني شرط أساسي للإحساس ، إذ الإحساس مشروط بالتنظيم ؛ وهو مشروط بتصور الزمكان فهو ينشأ عن قدرة الذهن على الفهم قدرة قبلية . . ولكن ليس من الصحيح أن هذا التصور مجرد إضافة ذاتية يضيفها الذهن على الأشياء ، بل هو كشف قبلي يجده الذهن ويجد الأشياء به .

هناك اعتراضان وجَّها إلى منطق كانت ، أحدهما من زاوية علم ( اجتماع المعرفة ) والثاني من زاوية علم ( نفس المعرفة ) . وبالرغم من عدم صحة هذين الاعتراضين بصفة تامة ، فإن فيهما قيمة إعتراضية نسبية .

١ - فلقد أثار ( لهلم جيد ) و ( سالم ) و ( ماكس شيلي ) كثيراً من الاعتراضات التي ارتكزت على تهافت المقولات التي وضعها كانت ، من حيث أنها ليست إلا قائمة لمقولات الفكر الأوروبي التي تمخض عنها العصر الكانتي .

وذهب ( ورنر ستارك ) إلى أن آفة كانت من وجهة نظر ( ورنر ستارك ) أنه لم يكن واقعياً في نظريته إلى المعرفة إذ أحال المعرفة إلى ( تصورية تركيبية ) ونظر إلى العقل على أنه ( عقل خالص ) ، وإلى الإنسان على أنه ( كائن مجرد ) - بلا تاريخ .

على حين أننا لا نجد في زعم ( ورنر ستارك ) إنساناً مجرداً على الإطلاق كما يستحيل علينا أن نجد عقلاً خالصاً . فلا يوجد في الواقع إلا الإنسان المتحضر ، أو التاريخي الذي نشاهده وندرسه من خلال احتكاكه بالآخرين ، والذي يتأثر عقله بمختلف المعايير الاجتماعية وتُصاغ شخصيته في قالب ثقافي ، أو في صورة اجتماعية .

٢ - لقد ثبت في الفيزياء الحديثة أن في وسعنا اكتساب معرفة خارج إطار المبادئ الكانتيية ، وأن الذهن البشري ليس قائمة منحصرة من المقولات يكُدس العقل في داخلها كل التجارب ، بل أن مبادئ المعرفة تتغير بتغير مضمونها ويمكن تكييفها مع عالم أعقد بكثير من عالم ميكانيكا نيوتن .

ومهما كانت فلسفة كانت ومنهج ذات ملاحظات سلبية ، فإنها كانت خطوة  
تقدمية نحو برمجة الفكر البشري ، والكشف عن قواعده الداخلية ، وعلاقاته  
الاستنباطية .

وقد جاء على أثر كانت بعض الفلاسفة الذين أتبعوه نوعاً ما ويُعتبر فيخته في  
طلبة أتباعه .

فيخته :

بين عامي (١٧٦٢ - ١٨١٤) عاش فيخته ، وكان رومانظيقياً وحدوياً ومعتقد  
الفلسفة .

والذي يتميز به من فلسفة في المنطق هو أنه اعتبر التنبُّه إلى الذات بداية كل  
معرفة ، وذلك ممكن عنده ضمن سلسلة متدرجة من التنبيهات . . أولى حلقاتها  
تنبُّه الذات إلى الذات . . .

الحلقة الثانية تنبُّه الذات إلى نقيض الذات أو «مقابله» .

ثم الحلقة الأخيرة ، جمع الذات إلى ما يقابله « أو بالأحرى . . . ملاحظة  
علاقتهما ببعضهما » .

وفي شرح هذه النظرية اضطر فيخته إلى التمسك بأفكار مثالية . . . أبرزها  
وحدة العلم والمعلوم . . . وذلك حيث قال :

« إن ما يحدّد الذات ليس سوى الذات نفسه » .

ويتساءل : لماذا لا يمكن معرفة النفس بدون مقابلتها مع أشياء أخرى ؟

فأجاب : « لأن النفس كالماء لا تُرى إلا من خلال ظرف معين وتحديد النفس  
بالمقابلة يعتبر كالظرف الذي يحدد الماء . فيجعل رؤيته ممكنة » . فمجمال نظرية  
فيخته في منهج المعرفة ، أن حقيقة المعرفة هي استيقاظ الذات على نفسها ،  
وبسبب أن هذا الاستيقاظ لا يتم بغير تحديد النفس بالأشياء تحصل المقارنة ، ثم

تحصل المعرفة بالأشياء من خلال هذه المقارنة .

وبالرغم مما في فلسفة فيخته من مثالية واضحة ، فإن فيها عنصراً موجباً هو التالي :

إن النفس البشرية هي الوسيلة التي تُدرك بها الأشياء ، ولكنها لا تستطيع أن ترى شيئاً بدون تنويرها هي ، أو بالأحرى توعيتها على ذاتها ، ويقظتها لإمكاناتها الكامنة . . ويتم ذلك بمقارنة داخلية تتم بين النفس والخارج .

والنفس لا يمكن أن تكشف حقيقة ما ، دون أن تعتمد على مقاييسها المفطورة عليها ، ولكن من جهة أخرى لا يمكن أن تعتمد النفس على هذه المقاييس دون الإيمان بها والثقة بإمكانية استثمارها في سبيل التعرف على الأشياء . . وهذا الإيمان ، يأتي نتيجة وعي الذات لما فيه من إمكانات ، وثقته بالتالي بقدرة هذه الإمكانيات على تحقيق التطلعات .

إذاً وعي الذات بداية كل معرفة ، وفائدة الجدل ناشئة من قدرته على تنبؤ الفكر بذاته ، هذا بالإضافة إلى أن المقارنة التي تتم في الجدل تبين مراحل التفكير الثلاث . . مرحلة الرؤية المبسطة . حيث يبصر الإنسان - جانباً واحداً وجامداً من الأشياء - ثم مرحلة الرؤية المركبة - حيث يكشف الإنسان وجود جوانب جديدة للأشياء يعتقد بأنها متناقضة كلياً لرؤيته الأولى - ثم مرحلة الرؤية المحللة - حيث تتم المعرفة الناضجة نسبياً - وفيها نعرف امكانية جمع الرؤية الأولى مع الرؤية الثانية إذ أن كلأ منهما كان من زاوية مختلفة ومثال ذلك رجل يرى عموداً أحمر ، فيزعم أن الحمرة هي لون العمود بكل جوانبه ، ولكنه ما أن يدور حول العمود يرى أن لون سائر جوانبه أبيض .

وهنا ينشأ عنده تناقض بادىء الرأي ويقول :

كيف صار العمود كله أحمر وكله أبيض ؟ ولكنه ينتبه فجأة إلى إمكانية الجمع بالقول أن جانباً من العمود أحمر ، وجانباً أبيض .

وهكذا تميز الفكر البشري بأدوار ثلاثة :

١ - دور التفكير الحاد الإيجابي .

٢ - دور التفكير الحاد السلبي .

٣ - دور التفكير اللين المحلّل . وهو بالضبط دور المعرفة .

والجدل . . . إحدى الوسائل التي تنقلنا من دور لآخر إن استطعنا استخدامه ببراعة .

وقد رفض من جاء بعد فيخته الأسس المثالية التي بنى فلسفته عليها . بينما قبلوا بعض آرائه في المنهج ومن أولئك شبلك .

**شبلك :**

كان يعيش بين عامي (١٧٧٥ - ١٨٥٤) وكان يُعتبر من أتباع فيخته وأيضاً من أتباع كانت ، وكان قد تمسك منهما بفكرة واحدة هي :

إن معرفة الأشياء رهينة معرفة الذات . . . فبداية كل علم هو علم الإنسان بنفسه ، لأنه يكشف لنا كيف نقارن بينها وبين سائر الأشياء .

ولكن الذي تابع هذه الأفكار إلى نهايتها وترجمها إلى مناهج عملية ، كان هيجل .



## نظية هيجل

في ألمانيا كان يعيش بين سنتي (١٧٧٠ - ١٨٣١ م) . حاول جمع الفلاسفات القديمة إلى بعضها ، حتى يكاد يُرى في فلسفته من كل نظرية تاريخية أثر مبین .

ابتدأت محاولته التوفيقية من الفهم والعقل ، فالفهم الذي اعتبره «كانت» نهاية المعرفة ليس سوى بدايتها ، والعقل أو التعقل هو المرحلة الثانية . والفهم يعتمد على ثلاث قواعد عند هيجل :

١ - قاعدة الهوية .

٢ - قاعدة التناقض .

٣ - قاعدة الثالث المرفوع .

بينما التعقل يتجاوز هذه القواعد الثلاث ، ولا يتحدد بموجباتها ، إذ ان التعقل بوتقة تسع كل القواعد السابقة .

وقد استطاع هيجل بعد جهدٍ فلسفي التوصل إلى ما زعم أنه المرحلة الثانية للفهم وهو التعقل . وقال انه يتم بعد تعقل النفس لذاتها ثم تعقل ما يقابلها ثم الجمع بينهما ، وكل شيء يدور في هذا المحور أعرفه وأعرف ما يقابله ثم أعرف

النسبة بينه وبين ما يقابله ، فمعرفة الضوء غير ممكنة دون معرفة الظلمة ، من جهة ، ومعرفة العلاقة الموجودة بين الضوء وبين الظلام من جهة ثانية .

أو بالأحرى معرفة الحد بين الشيء وبين ما يقابله ، ونوعية النسبة بينهما .

فلا بد للمعرفة من توفيق المتقابلين وجمعهما ليس لمعرفة وجود التقابل بينهما ، كما كان هدف فلسفة أرسطو ، بل لمعرفة كنه كل واحد منهما ، وأن أي شيء هو في الواقع خليط منه ومن مقابله ومتناقضه ، لأن ما يقابله ويناقضه هو حده وإطاره ، وبالتالي طريق لفهمه .

والتطبيق المعروف عن هيجل في هذا الشأن ، هو في قضية « الوجود » ، التي هي أهم القضايا وأبسطها ، وهي بالتالي بداية المسير في موكب الفلسفة عند هيجل ، الذي قال فيها : « لا يمكن تصور العدم المطلق ولا الوجود المطلق إلا أنهما لدى التوفيق بينهما ينتج منهما وجود نسبي وعدم نسبي وهو الحق » .

إذ إن الوجود المطلق كذب ، كما أن العدم المطلق ادعاء كذب . وإنما الصحيح وجود نسبي وعدم نسبي . أو كما تصور هيجل الجمع بينهما ، وهو بالتالي جمع بين متناقضين .

ولا يعني هيجل بالجمع ما يرفضه منطق أرسطو « أو بالأحرى الصحيح من منطق أرسطو » .

ذلك لأن أرسطو رفض الجمع بين الوجود والعدم في بؤرة واحدة من كل النواحي ، وهذا مستحيل عقلاً ، وقد سبق وأن جعله هيجل مستحيلاً ، ولكن يعني بالجمع هنا ، معناه المطلق الشامل للتحقق في مكان ما وزمان ما ، تماماً كما مثل لذلك الوجود المطلق والعدم المطلق ، وفي تحققهما خارجاً ، وإنما اعتقد بتحقق الوجود في ظرف والعدم في ظرف آخر .

وبيني هيجل منطقته على فلسفته ، والتي في الواقع هي منطقته .

وإذا لم يخلف هيجل منهجاً للبحث بالصيغة المعروفة فقد خلف آراء فيها ، والتي منها :

١ - ان الأشياء لا بد أن تُعاد إلى أصولها البسيطة ، والتي بالرغم من عدم أهمية معرفتها لأنها بسيطة ومعروفة « وسهلة التناول » . بالرغم من ذلك فهي هامة ، لأنها أساس كل معرفة .

٢ - لا بد أن نضع كل شيء بازاء مناقضه ومقابله .

٣ - ثم نلاحظ النسبة بينهما بالجمع بينهما ، أو بالأحرى بمحاولة معرفة الشيء بنقيضه .

وبالتالي ، توجد في منطق هيجل ، فكرة موجبة يمكننا التركيز عليها والاستفادة منها . وهي :

إن غور العقل يختلف عن ظاهر الفهم ، إذ الفهم هو المكلف بتبسيط الحقائق ، وترتيبها ووضع الحدود النهائية والأبدية لها .

بينما العقل مكلف بكشف الأشياء والوصول إلى عمقها البعيد . والعلاقة بين الفهم والعقل كالعلاقة بين السكرتير والرئيس .

فالأول مسؤول عن تنظيم وترتيب المواد التي يجب على الرئيس إعطاء الرأي الحاسم فيها .

والفكر إذا جمّد على الفهم ابتلي بما ابتلى به منطق أرسطو وتابعيه . وإذا تجاوزته بلغ ما بلغه . العلم الحديث . والسؤال : ما هو غور العلم الذي يتجاوز ظاهر الفهم ؟

الجواب : إنه معرفة العلاقة الإيجابية بين الأشياء ، أي معرفة مدى تفاعل الأشياء مع بعضها . وهذا يمكن عند هيجل بالطباق . وهو عملية التوفيق بين الشيء ومقابله .



فهذه العملية ليست غاية في ذاتها ، إنما هي وسيلة لمعرفة النسبة بين الأشياء ، ولكن لا يُظن أننا نعود إلى منطق أرسطو حينما نركّز على ضرورة فهم النسبة بين الأشياء والصلة التي تربطها ببعضها ، لأن أرسطو ، كان يريد فصل الأشياء عن بعضها وبالتالي فهم العلاقة السلبية بينها .

بينما نحن نحاول معرفة الصلة الايجابية بينها ، وبالتالي معرفة مدى التفاعل الموجود بين أجزائها .

والمنهج الحديث بعد هيجل اخترع سبباً أخرى لمعرفة التفاعل منها : معرفة الشدة والضعف ، والتي تعيد الحقائق إلى مصدر واحد .

يقول الدكتور زكي نجيب محمود بهذا الشأن :

« قد كان العلم القديم قائماً على أساس الصفات الكيفية لا على أساس المقادير الكمية ، - مثال ذلك - أن يُقال عن العالم أنه مكوّن من العناصر الكيفية الأربعة : التراب والهواء والنار والماء . وهذه تتألّف من تركيبات من الأضداد الآتية : رطب ويابس . . . بارد وحار . . ثقيل وخفيف .

فلم يكّ يعنيهم بل لم يكّ يطوف ببالهم أن هذه الأضداد إنما هي أضداد من ناحية الكيف فقط . أما إذا أردنا أن نحددها بدرجاتها الكميّة فعندئذٍ لا يكون البارد مضاداً للحار بل يصبح هذان درجات متفاوتة من ظاهرة واحدة .

والذي يعني به هذا العلم هو درجة حرارية مقدارها كذا . . . فالمهم هو التفاوت الدرجي » .

ثم يضيف الدكتور قائلاً : « وتفرّع عن الاختلاف السابق اختلاف آخر بين العلم اليوناني والعلم الحديث . فإذا كانت الطبيعة عند اليونان مؤلّفة من كيفيات تختلف بعضها عن بعض ، فليس الحار هو البارد ، وليس الثقيل هو الخفيف ، وليس الرطب هو اليابس وهكذا .

إذن ، فالطبيعة قوامها أنواع متباينة لا يمتزج بعضها ببعض كأنما أقيمت بينها الحواجز التي لا تدع نوعاً منها ينساب في نوع آخر . وصميم المعرفة ، بناءً على ذلك ، أن نلّم بهذه الأنواع عن طريق تعريفاتها التي تحددها تحديداً فاصلاً حاسماً . وأما العلم الحديث فأساسه على النقيض من ذلك . . إذ إنه يحطم هذه الحواجز بين الأنواع المزعومة ليجد ما بينها من تجانس مردّها جميعاً إلى أساس واحد هو : المادة والحركة ، أو هو ما شئت غير ذلك من أسس تتألف من مدركات كمية وبهذا يرتد العالم إلى تجانس في الكيف واختلاف في الكم وحده .  
( مقدمة على « المنطق نظرية البحث » ص ١٩ - ٢١ ) .

هذه هي العناصر الإيجابية التي نستطيع استفادتها من فلسفة هيغل ، ولكن تطورت هذه العناصر إلى خرافات حينما أخذت سلاحاً سياسياً ، هاجم به الماركسيون الفكر الديني والخلقي .

لقد أراد هيغل أن يكون منطقُه بداية عصر علمي زاهر فأصبح لدى الماركسية نهاية هذا العصر .

لقد قال هيغل ذاته : « إن كل فلسفة كانت ولا زالت ضرورية ومن ثم فلم تمنح فلسفة منها ولكنها كلها محتواة بشكل إيجابي كعناصر .

لكننا يجب أن ننظر إلى المبدأ الخاص لهذه الفلسفات كشيء خاص .  
ويحقق هذا المبدأ خلال البوصلة الكلية للعالم .

وأشدّ الفلسفات حداثة إنما هي نتيجة كل الفلسفات السابقة . ومن ثم فلا توجد فلسفة تم دحضها .

إذ إن ما تمّ دحضه ليس مبدأ هذه الفلسفة بل مجرد أن هذا المبدأ يجب اعتباره نهائياً ومطلقاً بالطبع .

فإنما أراد هيغل من وراء فلسفته احتواء العناصر الإيجابية الموجودة في كل

فلسفة تم صياغتها بشكل لا يتعارض مع بعضها .

هذا كان العامل النفسي من وراء نظرية الجدل ، بينما استخدمت هذه النظرية بالضبط فيما يناقض هذا المبدأ ، فأصبحت من أسباب العنف الفكري .

القسم الأول  
عن تطور البحث المنطقي

البحث الثالث عن :

اتجاهات المنطق الحديث

- كلمة البدء .
- المنطق القياسي .
- المنطق التجريبي .
- المنطق الاجتماعي .



## كلمة البدء

في القرن العشرين توضحت إتجاهات المنطق المختلفة ، وأخذ العلم الحديث يستثمر كل هذه الإتجاهات في تطوير البحوث وتعميقها . وقبل أن نلقي نظرة إجمالية على هذه الإتجاهات يجدر بنا أن نعيد تاريخ المنطق ، والأهداف العلمية التي حاول الفلاسفة تحقيقها من وراء المنطق .

أسئلة تبحث عن جواب :

من أين تأتي المعرفة ؟ وكيف تتطور داخل القلب ؟ ومن أين يأتي الخطأ وكيف يمكن التحامي عنه ؟ ثلاثة أسئلة رئيسية تبحث الفلسفة عن أجوبة لها في المنطق .

ومن الطبيعي أن يكون السؤالان الآخران مندمجين مع بعضهما . وقد سبق في بحوثنا السابقة أن بينا كيف اختلفت الفلسفات في الإجابة على هذه الأسئلة . . . وإني أوجزها فيما يلي :

عن السؤال الأول :

فعن أول الأسئلة الذي قد يُعبّر عنه بـ « البحث عن مصادر المعرفة » أجابت مدارس :

أ - المدرسة المثالية : قالت إن مصدر كل معرفة ذات النفس . والوهم الذي تنطوي عليه وتدعى بمذهب بيرون والسوفسطائيين . وقد تسمى بمذهب « أصالة التصور » .

وقد عبّر عن هذه المدرسة زعيم السوفسطائيين اليوناني « بروتاجوراس » بالقول : إن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً تلك التي توجد على أنها موجودة ، وتلك التي لا توجد على أنها غير موجودة .

وأتبع هذه المدرسة كثيرون . . . وظهرت آثارها في المدرسة المشككة .

ب - مدرسة الشك ، قالت : دعنا لا نعتقد بأصالة الذات ، وأصالة التوهم في المعرفة . ولكننا لا ريب نستطيع الشك في صحة معارفنا بسبب أدلة أولئك الناس الذين يقولون بأصالة التوهم . وكان أبرز هؤلاء الشكاكين في القرون الأخيرة « هيوم » .

وعادت مدرسة الشك تنشط بعد ظهور الفيزياء الذرية ، التي أطاحت ببناء الفيزياء القديمة .

وكانت مدرسة الشك عاملاً قوياً لظهور مدرسة النسبية .

ج - المدرسة النسبية ، قالت : إن المعرفة هي الحقائق الخارجية لكن ممزوجة ببعض الإضافات الذاتية . وقد أيد هذه المدرسة كانت تأييداً قوياً ، لكنها تطورت من بعده حتى خرجت من حقل الفلسفة إلى حقل العلم . وأخذت النسبية اليوم - حسبما سيأتي الحديث عنها - معنى عدم إكمال العلم . . وعدم إطلاق مفاهيمه .

د - مدرسة الحس ، قالت : إن المعرفة حصيلة الإحساس بالأشياء الخارجية . بصورة ساذجة ، أو مركبة . وقد أيدت هذه المدرسة بنظريات لوك ،

وتلقى اليوم رواجاً عظيماً عند الفلاسفة المحدثين .

هـ - المدرسة العقلية ، وقالت : إن مصدر المعرفة هو العقل والحس معاً .

والقارئ الذي تابع تاريخ الفلسفة - معنا - يعرف أن الألفاظ المستخدمة هنا لا تعني كلها معنى واحداً عند جميع الفلاسفة ، وإنما أردنا بذلك إعطاء فكرة عامة عن جواب السؤال الأول : من أين تأتي المعرفة ؟ وقد اختلفت الإجابة عن هذا السؤال بما لا نظير له في سائر بحوث الفلسفة لأنه بداية كل مدرسة فلسفية ، ومنطلقها الأول .

### عن السؤال الثاني :

وأجابت عن السؤال الثاني عدة مدارس . وكلها تتصور المشكلة من زاويتها الخاصة ، ولكن يمكننا جمعها مع بعضها على مائدة الهدف المشترك الذي استهدفته جميع المدارس ، وهو :

البحث عن كيفية تصرف العقل البشري بما يزوده بها مصادر المعرفة المختلفة ، من حس وعقل وتوهم و... و... أو بالأحرى ، البحث عن طبيعة الاستدلال ، أو حسب تعبير بعضهم عن قوانين الفكر الداخلية التي تتحكم في معارفنا .

ولهذا البحث وجهان : فطرف منه ينتمي إلى الفلسفة حيث يهدف تعيين الوسيلة التي يستعين بها الذهن لكشف الحقائق . بينما الطرف الآخر ، ينتمي إلى منهج البحث حيث يعين الوسيلة التي ينبغي أن يستعين بها الفرد لتركيب القضايا وكشف الحقائق . والوجه الأول يبحث عن الواقع الموجود فعلاً ، بينما الوجه الثاني يبحث عن الواقع الذي ينبغي أن يوجد . ومن الطبيعي أن يكون الوجه التالي هو موضوع الجواب عن السؤال الثالث .

وأجابت عدة مدارس عن كيفية التعقل و«التفكير» فقال ديكارت : إن العقل



يتبع ذات القوانين التي تعكسها الرياضيات ، من تحليل وتركيب . . . بينما حاول كانت ربط العمليات العقلية بقوالب فكرية ، زعم أنها هي التي تُصعد التصورات الجزئية ، وتصنع منها حقائق عامة .

وقال لوك بالمراحل الأربع التي يتدرج عبرها الفكر حتى يصل إلى الحقائق : مرحلة الإدراك والحفظ ، فالتمييز ثم التقييم . وزعم - هيجل - وفيخته وآخرون ، أن الطريقة العقلية تتلخص في الجدل ، الذي ينتقل من الشيء إلى ما يقابله ، ثم جمعهما مع بعضهما<sup>(١)</sup> .

### عن السؤال الثالث :

والذي يختلف الفلاسفة في أسلوب طرحه . . . جاءت عدة إجابات عنه مختلفة وهي تلخص نهاية المسيرة الطويلة للمنطق ، والتي نجدها حتى اليوم تحاول ليس فقط البحث عن مصادر الخطأ ، بل وأيضاً وضع مناهج عملية لدورها . وليست الاجابات حتى الآن مكتملة ، إنما هي متطورة إلى الكمال جنباً إلى جنب مع تطور العلم الحديث ، وأيضاً بحوث الفلاسفة البدائية وهي تتنوع إلى إجابات نشرحها بإيجاز ، ونبين بإذن الله أصول أفكارها حول طريقة تجنب الخطأ .

والمدارس المنطقية الرئيسية التي تكفلت بالاجابة عن هذا السؤال ثلاث :

المنطق الاستنباطي والمنطق التجريبي والمنطق الاجتماعي ، بالرغم من وجود أنواع أخرى للمنطق ، كالمنطق الجدلي ، والوضعي ، والبرجماتي . إلا أن هذه الثلاثة أشبه شيء بآراء فلسفية ، منها بمناهج البحث . لذلك نؤخرها في استعراضنا الآن .

---

(١) راجع للمزيد من البحث للمؤلف في كتابه الفكر الاسلامي مواجهة حضارية ، وراجع هانز ريشنباخ في كتابه نشأة الفلسفة العلمية ، ص ١٥٨ .

## المنطق الاستنباطي

جوهر هذا المنطق أن خطأ الإنسان ناشئ من بلبلة العمليات الفكرية التي يجريها ، فإذا انتظمت انتهت أخطاؤه .

لكن ، كيف تنظم العملية الفكرية ؟

لا بد أن نضع قواعد للاستنباط تسير وفقها العملية الفكرية وتنتهي أخطاؤها .

هذا جوهر منطق الاستنباط أما الصورة التي أوضحت هذا الجوهر والتي تطورت من عصرٍ لعصر . فإنها لا تعرف إلا بتفصيل عدة نقاط :

ما هو الاستنباط ؟

الاستنباط توضيح للعلاقة القائمة بين صحة فكرة وأخرى . فالعلاقة الموجودة بين موت كل الناس ، وموت محمد (ص) التي يكشفها الاستنباط التالي :

كل الناس يموتون ؛ ومحمد من الناس ؛ فهو أيضاً يموت .

وبطبيعة الكلمة «الاستنباط» فهي دالة على أن النتيجة كانت موجودة سلفاً

في المقدمة ، وإنما وضّحها الاستنباط . فكما أن الماء لا بد أن يكون موجوداً في  
البشر قبل أن نستنبطه « أي نخرجه » ، كذلك المعرفة (بالنتيجة) ليست سوى صورة  
أخرى لمعرفتنا بالمقدمة لا غيرها ولا أكبر منها .

ويفترق الاستنباط في هذه الناحية عن الاستقراء فإنه لا يعطينا - عادة - معرفة  
جديدة لم تكن لنا قبلاً . فمثلاً القضية التالية :

هذه النار حارة ومحرقة . تلك النار حارة ومحرقة ، النار التي كانت أمس  
كانت أيضاً حارة ومحرقة ، إذاً كل نار حارة ومحرقة . إن هذه الصورة الاستدلالية  
تفترق عن الصورة الأولى في أنها انطوت على زيادة في المعارف ، هي التي قالت  
لنا إن كل نار حارة ومحرقة . لذلك نستطيع في الطريقة الاستقرائية التنبؤ  
بالمستقبل بالقول مثلاً في القضية السابقة : إذاً النار التي سوف توجد في  
المستقبل حارة ومحرقة ، دون أن نستطيع مثل ذلك في الطريقة الاستنباطية .

وحتى في القياسات المستخدمة في الرياضيات ، ليست النتيجة أعم من  
المقدمة حسبما زعم بعض الناقدين ، وقال : إن الرياضة - وهي تفكير قياسي  
استنباطي بمعنى الكلمة - تنتقل من الحالات الخاصة إلى حالات أشد منها  
عموماً .

ذلك لأن قياس الرياضيات نابغ من طبيعتها ، والتي هي لا تعدو أن تكون  
طبيعة مجردة وكلّية فمثلاً هذا المثلث حاد الزوايا وهي تساوي كذا .

فكل مثلث حاد الزوايا كذا . . .

حتى هذا المثل الذي يبدو انتقالاً من الجزئي إلى الكلي ، ليس سوى  
انتقال من الكلي إلى مثله ، إذ قولنا في البداية هذا المثلث ليس جزئياً ما دام في  
الرياضيات ، لأن المراد من هذا ليس طبيعة المثلث ، وما فيه من مواد كيميائية ،  
بل المراد منه مجرد شكله والشكل عام لا خاص .

وقد لخص « كلود برناد » فكرته عن العلاقة بين القياس والاستقراء ، في أن

للاستدلال صورتين إحداهما خاصة بالبحث ، وهي الاستدلال الاستقرائي ،  
والأخرى خاصة بالبرهنة ، وهي الاستدلال الاستنباطي وإن هاتين الصورتين  
تُستخدمان في كل العلوم سواء كانت علوماً رياضية أم تجريبية ، لأن هناك استيفاءً  
يجعلها الإنسان فيضطر إلى استخدام الاستقراء في الكشف عنها وأشياءاً يعتقد أنه  
يعلمها فيستعين بالقياس في عرضها على طريقة البرهان . ثم يقول : إن طريقة  
التفكير واحدة لدى كل من عالم الرياضة وعالم التاريخ الطبيعي ، فليس ثمة فارق  
بينهما عندما يتناولان الاهتداء إلى المبادئ التي يستخدمها كل منهما في  
الاستدلال .

إذاً الاستدلال القياسي لا بد منه حتى ولو اتجهنا ناحية الاستقراء . . .  
وذلك لأن الاستقراء آنئذٍ يكون من المحتويات التي يصوغها القياس ليستنبط منها  
معلومات أخرى .

ويعود السبب في الهجوم على القياس من قبل قسمٍ كبير من الفلاسفة إلى  
أولئك الذين تبَنوا فكرة القياس ، وأشادوا بها ، لا إلى القياس ذاته ذلك لأنهم  
استغنوا بالقلب عن المضمون ، واكتفوا ببعض أقسام القياس وزعموا بأن نتائجها  
عامة وجازمة ومطلقة مما أثار سخط العلماء جميعاً . نعم هاجم ديكارت القياس ،  
ولكنه عاد وأكدّه في صورة جديدة .

وقد واكب الاستدلال الاستنباطي التقدم العلمي وكانت له مراحل أربع :

١ - المرحلة الأولى : ابتدأت باقتباس أرسطو بعض المبادئ الرياضية في  
المنطق ، وظهر على شكل منطق الفئات ، وهو المنطق الذي يبين كيفية سحب  
علم الفئة إلى أفرادها . فيكون سقراط من فئة الناس ، له حكم الناس ، فإذا  
الإنسان فإن ( وبما أن سقراط إنسان فإن سقراط فإن ) . وقد سبق موضوع مستقل  
حول منطق أرسطو وما له وما عليه .

٢ - المرحلة الثانية : وبعد آلاف السنين ظهرت عدة تطورات في المنطق

الأرسطي على يد الفلاسفة المسلمين . ولكن طُمست معالمها مع الزمن . . . ثم ظهرت على شكل منطق العلاقات الذي تجاهله المنطق الأرسطي بالرغم من قرب صلته به ، وهو المنطق الذي يحدد الرابطة الثابتة بين حقيقة وأخرى . . . بالرغم من أنها ليست من نوع رابطة الفئة بأفرادها .

فمثلاً : إذا كان إبراهيم أباً لإسحق فإن علاقة الأبوة لا يمكن التعبير عنها في الصورة الاستدلالية ، التي اقترحها منطق أرسطو ، إنما هي بحاجة إلى صورة أخرى .

هكذا ، إذا كان إبراهيم أباً لإسحق كان إسحق ابناً لإبراهيم .

وقد تطور منطق العلاقات منذ اقترح ديكرت سحب منهج الرياضيات إلى العلوم ، وزعم بأنه ذلك المنهج السليم الذي يبلغ بالعقل إلى جميع العلوم . . . ويتميز المنطق الحديث بأنه حقق تطوره من ميدان الرياضيات . وليس من داخل الفلسفة نفسها .

٣ - المرحلة الثالثة : بدأ المنطق الاستنباطي يتطور إلى منطق رمزي وأول من اقترح ذلك بوضوح كان الرياضي ، الذي اهتم بالمنطق ، وهو ليبينس ، حسبما سبق الحديث عنه . وقد كانت النتائج ثورية لكن الاجراءات العلمية لم تساعد تطور المنطق الرمزي إلا بعده بقرن ونصف ، أي في القرن التاسع عشر .

ولو نظرنا إلى هذا القرن في تاريخ الفكر بدا هذا التطور طبعياً . إذ في هذا القرن طُبّق على مجال المنطق ، ما طُبّق على غيره من حقول المعرفة من البحث عن صيغة قابلة للتطبيق العملي وهي الصيغة التي أحرزت نجاحاً كبيراً في كل العلوم . وذلك بدوره جاء نتيجة طبيعية لتعمّد التفكير العلمي وازدياد دقته<sup>(١)</sup> .

وأهمية اكتشاف المنطق الرمزي ، نابعة من قدرته على تطوير جوهر المنطق

---

(١) نشأة الفلسفة العلمية ، ص ١٩٣ .

الصوري ، بالرغم من أنه اتجه ناحية أسلوب البيان فيه ، ذلك لأن جوهر المنطق الصوري لا يعدو البحث عن لغة سليمة للتفكير تسهل عملية الاستنباط وإدخال الرموز إلى هذا المجال . ولقد سهّل المنطق الرمزي هذه العملية ، إذ أن تشابك عدة حقائق مع بعضها يجعل من الصعب جداً استنباط الفكرة منها إذا أردنا التعبير عنها باللغة المعتادة بيد أنه لو بدلنا هذه اللغة إلى رموز استطعنا بسهولة معرفة ارتباطات هذه الرموز ، وبسهولة تمكنا من تطبيقها على الواقع الخارجي ، تماماً كالحساب الذي يصعب علينا فهمه لو أردنا التعبير عن ذات الأشياء بينما حين نجردها إلى أرقام يسهل ذلك .

من هنا ليس التدوين الرمزي أداة لحل المشكلات فحسب ، بل إنه أيضاً يفصح المعاني ويزيد من القدرة على ممارسة التفكير المنطقي<sup>(١)</sup> .

ولقد أتاح بناء المنطق الرمزي البحث في العلاقات بين المنطق والرياضة من زاوية جديدة ، هي زاوية توحيد العلمين مع بعضهما .

فلماذا يوجد لدينا علمان يبحثان واقعاً واحداً هو نواتج الفكر المجرد ؟ من هنا قام برتراند رسل والفرد نورث وايتهد بدراسة هذه المشكلة وخرجوا بنتيجة هامة : إن الرياضيات والمنطق هما بالتالي علم واحد . وإن الرياضة ليست سوى فرع من فروع المنطق ، وجهت فيه عناية خاصة للتطبيقات الكمية . بينما سائر الفروع لم تتلق هذه العناية قديماً<sup>(٢)</sup> .

لكن بما أن العلوم الحديثة تتجه اليوم إلى الجانب الكمي . تاركة الجانب الكيفي للبحوث القديمة ، فإن منهج البحث فيها يتجه هو الآخر إلى المنهج الكمي الذي هو من خصائص منهج الرياضيات . وبالتالي يكون منهج الرياضيات شاملاً للمنطق .

---

(١) ذات المصدر ، ص ١٩٤ .

(٢) ذات المصدر ، ص ١٩٥ .

٤ - المرحلة الرابعة : وبالتالي نجحت الفكرة القائلة بضرورة تحويل المنطق الصوري إلى منطق رياضي بعد إدخال مبادئ المنطق في الرياضيات . يقول كاروتشيد : إنني سأستخدم المنطق الرياضي لكي أعبر به بمجموعة المبادئ الخاصة ، بالبنية العقلية المتعلقة بالنظريات الرياضية<sup>(١)</sup> .

ويقول هيلبرت واكرمان إن المنطق الرياضي ، ويسمى كذلك بالمنطق الرمزي ، امتداد للمناهج الصورية الخاصة بالرياضيات إلى مجال المنطق<sup>(٢)</sup> . ومن هنا نعرف المنطق الرمزي هو بالذات المنطق الرياضي اللهم إلا في الفرع الذي يهتم به المنطق الرياضي ، وهو الرياضيات ولا يهتم به بالخصوص المنطق الرمزي ،

### المنهج التجريبي :

الفرق الكبير بين المنهج التجريبي والمنهج الاستنباطي ، يكمن في أن المنهج التجريبي ، يسعى من أجل بلوغ المزيد من المعرفة من خلال تنظيم الملاحظة ، وتنسيق المعارف الجزئية الناشئة منها .

والمنهج التجريبي مرّ بمراحل عديدة حتى صار بوضعه الحالي .

ولا ريب أن مخاض المنهج التجريبي كان عسيراً ، إذ استمر يحاول الظهور منذ عهد سقراط ، بل ومن قبله . إذ أن فلسفة اليونان « كثيراً ما كانت تشمل أجزاءاً نعلها اليوم متمية إلى مجال العلم التجريبي ، كالنظريات الخاصة بأصل الكون ، أو بطبيعة المادة ، ومن هذا القبيل مذاهب التجريبيين اليونانيين ، التي نجدها في الفترة السابقة على سقراط ، وكذلك في الفترة المتأخرة للفلسفة اليونانية » .

« ولقد كان أبرز هؤلاء الفلاسفة هو ديمقريطس (Democritus) وهو معاصر

---

(١) و (٢) المصدر نفسه .

لسقراط ، يعد أول من طرأت على ذهنه الفكرة القائلة ، إن الطبيعة تتألف من ذرات ، ومن هنا كان يحتل مكانه في تاريخ العلم ، فضلاً عن تاريخ الفلسفة . . . .<sup>(١)</sup> . ويمكن أن يعد الشكاك من بين الفلاسفة اليونانيين الذين كانوا يعتقدون أن المعرفة ، لا بد أن تكون يقينية على نحو مطلق ، وقد أدرك كارنيدس (Carneddes) في القرن التاسع ق. م . أن الاستنباط لا يمكنه تقديم مثل هذه المعرفة ، لأنه لا يقتصر على استخلاص نتائج من مقدمات معطاة ، ولا يستطيع إثبات صحة المقدمات ، كما أدرك أنه لا ضرورة للمعرفة المطلقة ، من أجل توجيه الإنسان في حياته اليومية . والواقع أن كارينادس بدفاعه عن الرأي الشائع ، وعن الاحتمال ، قد أرسى دعائم الموقف التجريبي في بيئة عقلية<sup>(٢)</sup> . كان اليقين الرياضي ، يعد فيها الصورة الوحيدة المقبولة للمعرفة . وقد استمر الاتجاه إلى التجربة ، عن طريق الشك في المعلومات العقلية المجردة ، في القرون التالية . وكلما كانت تقوم حضارة ترتفع أسهم الحركة التجريبية ولكن ظل الاتجاه العام في الفكر هو الاتجاه العقلي ، أما التجربة ، فقد كانت من خصائص أصحاب الحرف ، والصناعات ، وفي بعض الأوقات ، الأطباء ، وقد كان سكتس إيرامبيريكوس (Sextus Erampiricus) في حوالي العام ١٥٠ م رائداً لمدرسة الأطباء التجريبيين ، مع أنه كان شكاكاً .

وحين انبثقت الحضارة الاسلامية ، وجاءت معها بروح علمية جديدة ، واستخدمت العلم أداة لتطوير الحياة ، نشطت الحركة التجريبية ، وظهر في علماء المسلمين ، كثيرون اعتمدوا التجربة منهجاً أساسياً في المعرفة ، وأبرزهم كان جابر بن حيان في القرن الثاني للهجرة<sup>(٣)</sup> .

كذلك كان الحسن بن الهيثم ، تجريبياً اشتهر في الغرب بمؤلفاته في حقل

(١) نشأة الفلسفة العلمية ، ص ٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٧ .

(٣) راجع فصل المنطق الاسلامي من هذا الكتاب .



البصريات ، إلا أن أفول نجم المسلمين ، رافقه ضعف في حركة التجربة ، وانعطاف جديد إلى المناهج العقلية . وفي الغرب شهدت الفترة هذه جموداً حضارياً ، انعكس ، بالطبع ، على المدرسة التجريبية ، حيث كانت الفلسفة في القرون الوسطى ( اسم يطلق على هذه الفترة بالذات ) من اختصاص رجال اللاهوت ، الذين حصروا أنفسهم على المنهج المدرسي ، وأضافوا عليه طابعاً دينياً وأبعدوا المنهج التجريبي بالطبع عن واقع الحياة .

وفي بقعة الظلام المحيطة بالصور الوسطى ، ظهر بصيص نور متمثلاً في فلاسفة من أمثال : روجر بيكون ، الذي كان من الذين نقلوا روح التجربة العلمية ، من بلاد المسلمين إلى الغرب<sup>(١)</sup> . ويتر أوربولي ووليم الأوكامي و...

وبظهور العلم الحديث ، في حوالي عام ١٦٠٠ ، بدأ المذهب التجريبي يتخذ شكل نظرية فلسفية إيجابية ، قائمة على أسس متينة . يمكن أن تدخل في منافسة ناجحة مع المذهب العقلي<sup>(٢)</sup> .

وقد سبق أن تحدثنا بإسهاب عن مذاهب فرانسيس بيكن (١٦٥٠ - ١٦٢٦) وجون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) . وآخرين من الذين أسهموا في بناء المنهج التجريبي الحديث .

إن ذلك كان جانباً واحداً فقط من جوانب المنهج التجريبي . وهو الجانب النظري منه فقط ، وهناك جانب آخر للمنهج التجريبي ، هو الجانب العملي منه ، وهو ذلك الجانب الذي يعتمد على ( صنع ظاهرة ) ، من ظواهر الحياة ثم ملاحظتها ، ودراسة أسبابها وميزاتها وطرق التحكم فيها .

---

(١) راجع الفصل المتقدم .

(٢) نشأة الفلسفة العلمية ، ص ٧٨ .

ويفترق هذا الجانب عن ذلك في أمرين :

١ - إن صنع الظاهرة ، يخضع لشروط الباحث نفسه ، ويستطيع بذلك إبعاد كافة الملابسات التي قد تشوش الرؤية ، وتعمق دون فهم حقيقة الظاهرة ، والعوامل الأساسية المؤثرة في ظهورها .

بينما ملاحظة ظاهرة طبيعية لا تخضع لشروط الباحث ، وتتداخل فيها عوامل عديدة ، يصعب تمييز العامل الحاسم من بينها .

٢ - إن التجربة النظرية ، هي حصيلة العلوم النظرية التي لا تحتاج إلى جهد إضافي ، بينما التجربة العملية ، هي من نوع القيام بعمل تغيير في الحياة ، ويحتاج إلى جهد ، وإلى إيجاد شروط صعبة في الحياة ، ولذلك استطاع العلماء - اليونان - اكتشاف أهمية المنهج التجريبي ، نظرياً ، بينما لم يقدروا على إجراء أبسط التجارب العملية ، التي لو أنهم جربوها لكانوا اكتشفوا حقائق كثيرة .

فمثلاً : الفكرة القائلة أن الشمس والأرض والكواكب ، تتحرك حولنا لم تكن معروفة لليونانيين ، فقد اقترح أرسطوفوس الساموسي (Aristarchus of Samos) بصواب فكرة النظام المتمركز حول الشمس ، في حوالي عام ٢٠٠ ق . م ، ولكنه لم يتمكن من إقناع معاصريه بصواب رأيه ، ولم يكن في استطاعة الفلكيين اليونانيين أن يأخذوا برأي أرسطوفوس لأن علم الميكانيكا ، كان في ذلك الحين في حالة تأخر ، مثال ذلك أن بطليموس اعترض على أرسطوفوس بالقول : إن الأرض ، ينبغي أن تكون ساكنة ، لأنها لو لم تكن كذلك ، لما سقط الحجر ، الذي يقع على الأرض ، في خط رأسي ، ولظلت الطيور في الهواء ، متخلفة عن الأرض المتحركة ، وهبطت إلى جزء مختلف من سطح الأرض ، ولم تجر تجربة إثبات خطأ حجة بطليموس ، إلا في القرن السابع عشر ، عندما أجرى الأب جاسندي (Gassendi) ، وهو عالم وفيلسوف فرنسي كان معاصراً لديكارت وخصماً له ، أجرى تجربة على سفينة متحركة ، فأسقط حجراً من قمة الصاري

ورأى أنه وصل إلى أسفل الصاري تماماً . ولو كانت ميكانيكا بطليموس صحيحة لوجب أن يتخلف الحجر عن حركة السفينة ، وأن يصل إلى سطح السفينة ، عندما يقع في اتجاه مؤخرتها .

وهكذا أيد جاسندي ، قانون جاليلو ، الذي اكتشف قبل ذلك بوقت قصير ، والذي يقول : إن الحجر الهابط يحمل في ذاته حركة السفينة ، ويحتفظ بها وهو يسقط .

فلماذا لم يقنع بطليموس بتجربة جاسندي ؟ ذلك لأن فكرة التجربة العلمية متميزة من القياس والملاحظة المجردة ، وهي لم تكن مألوفة لليونانيين<sup>(١)</sup> . وهكذا عرفنا أن هذه التجربة البسيطة ، لو أجراها العلماء اليونانيون ، لكان علم الفلك الحديث قد تقدم أربعة آلاف سنة ، إن ذات التجربة التي قام بها جاليلو ، كان بالإمكان أن يقوم بها بطليموس لو أنه لم يكتف بمجرد ملاحظة الظواهر الكونية ، وصياغة النظريات العامة !

إلا أن الذي حدث فعلاً ، كان مختلفاً عما يتمناه الإنسان اليوم ، وهو أن البشرية بلغت مرحلتها المتقدمة ، من العلم منذ القرن الخامس عشر ، حيث دخل في الأوساط العلمية ، وليد جديد هو العلم التجريبي العملي . « حيث كان جاليلو (١٥٦٤ - ١٦٤١) أول من وجه التلسكوب الذي اخترعه صانع عدسات هولندي إلى السماء ، في إيطاليا . واخترع إيطالي آخر كان صديقاً لجاليلو ، هو توريشيلي (Torricelli) البارومتر ، وأثبت أن للهواء ضغطاً يقل بازدياد الارتفاع . وفي ألمانيا اخترع جوريك (Guericke) مضخة الهواء ، وأوضح أمام الجمهور الذي عقدت الدهشة لسانه ، قوة الضغط الجوي ، بأن تجمع بين نصفي كرة فراغ ما بينهما من الهواء ، ولم تستطع مجموعة من الخيول أن تفصل أحدهما عن الآخر » .

---

(١) المصدر ، ص ٩٤ .

واكتشف هارفي (Hervey) الدورة الدموية ، ووضع بويل القانون الذي يعرف باسمه ، والخاص بالعلاقة بين ضغط الغاز وحجمه<sup>(١)</sup> . وهكذا توالت الاكتشافات ، لتفتح نافذة جديدة على عالم المجهول ، هي نافذة التجربة العملية .

### الجمع بين التجربة والاستنباط :

في بداية عهد المنهج التجريبي كان الاتجاه السائد ، هو الاكتفاء به عن المنهج الاستنباطي . ولكن هيوم كان أول قائد حقيقي جاء في فورة الغرور التجريبي ، ليوجه انتقاداً حقيقياً إلى التجربة ، حيث ذهب هيوم إلى انتقاد خلاصته استحالة التدليل على مشروعية الاستدلال الاستقرائي . وقال : فما هو الدليل على إمكان الاعتماد على التجربة ؟ هل التجربة ذاتها ؟ إذاً تلك العملية تدور في حلقة مفرغة (التجربة ، دليل الصحة للتجربة ذاتها ، أليست هذه حلقة مفرغة؟) ولذلك لا يمكننا أن نعتمد على التجربة في معرفة المستقبل ، بالرغم من أننا نقدر على الحصول على علم محدود عن طريقها بالحاضر ، فنستطيع أن نعرف بالتجربة أن كل غراب هو أسود لأننا حين أحصينا الغربان ، رأيناها جميعاً سوداً ، أما هل نستطيع أن نعرف أن غراب الغد هو أسود أيضاً ؟ وبأي دليل ؟ يقول هيوم : « لعله مجرد عادة نفسية ، الاعتقاد بأن الشمس سوف تشرق غداً لأننا لم نتعود أنها لم تشرق . ولكن دون أن نقدر على إقامة دليل علمي قاطع ، إن الشمس تشرق أيضاً في الغد » .

ولقد أدخل هيوم التجربة المجردة ، في مآزق حقيقي ، وأجبرها على التماس حماية لها ، من المنطق العقلي ، وانتهى الأمر بالتجربة أن استفادت من الاستدلال الرياضي . وذلك أن هيوم ، زعم أنه إما أن يكون صاحب النزعة

---

(١) المصدر ، ص ٩٥ .

التجريبية تجريبياً كاملاً ، ولا يقبل من النتائج سوى القضايا التحليلية المستمدة من التجربة ، وعندئذ لا يستطيع القيام باستقراء ، ويتعين عليه أن يرفض أية قضية عن المستقبل . واما أن يقبل الاستدلال الاستقرائي ، وعندئذ يكون قد قبل مبدأ غير تحليلي ، لا يمكن استخلاصه من التجربة<sup>(١)</sup> . هذا المأزق دفع بالمنهج التجريبي ، للقبول بمبدأ تحليلي رياضي ، هو مبدأ الاحتمال ، الذي جمع بين النسق التجريبي والمنهج الرياضي ، وأكمل الواحد بالآخر . ومن الطبيعي أن نُرجع الفضل في ذلك إلى نيوتن الذي أدخل تلك التجربة العملية في بوتقة الفكر الرياضي ، واستطاع أن يستخلص منها نظرية ثابتة . والحق أن قصة نيوتن ، من أروع أمثلة المنهج العلمي الحديث ، فمعطيات الملاحظة هي نقطة بدء المنهج العلمي ، غير أنها لا تستنفذ هذا المنهج ، وإنما يكملها المنهج الرياضي ، الذي يتجاوز بكثير نطاق اقرار ما لوحظ بالفعل ، ثم تطبق على التفسير نتائج رياضية تظهر صراحة نتائج معينة توجد فيه بصورة ضمنية . وتختبر هذه النتائج الضمنية بملاحظات هي التي تترك لنا مصحة الاجابة بـ ( نعم ) أو ( لا ) . ويظل هذا المنهج إلى هذا الحد تجريبياً غير أن ما تؤكد الملاحظات صحته يزيد كثيراً على ما تقوله مباشرة ، فهي كسبت تفسيراً رياضياً محدداً ، أي نظرية يمكن استنباط الوقائع الملاحظة منها بطريقة رياضية<sup>(٢)</sup> . ولقد كان لرجل الرياضة الشهير ج . ف . ليبينس الفضل في معالجة المشاكل المنطقية من وجهة نظر رياضية . ولقد استطاع هذا الرياضي القدير أن يكشف كثيراً من الحقائق العلمية بمنطقه الرياضي ودون الاعتماد على التجربة . وزعم أن من الممكن رد كل علم إلى الرياضة آخر الأمر .

وبهذه الطريقة المتطرفة أثبت ليبينس<sup>(٣)</sup> صحة قول جاليلو : بأن الطبيعة قد

(١) المصدر ، ص ٨٤ - ٨٦ .

(٢) المصدر ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٣) المصدر ، ص ١٠١ .

كتبت بطريقة رياضية والمنطق التجريبي الحديث لا يعدو أن يكون قد كتب هو الآخر بلغة رياضية ، والمناهج العلمية المستخدمة فيه تجمع بين صراحة الرياضة وتواضع التجربة .



## المنطق الاجتماعي

ونعني به ، ذلك المذهب المنطقي الذي يرى الواقع الاجتماعي ، مصدراً أساسياً للفكر ، ولطريقة التفكير .

وهو يزعم أنه لا بد لنا لكي ندرس منهجاً معيناً للفكر أن ندرس سلفاً البيئة الاجتماعية لذلك الفكر ، إذ أنها أصل ذلك المنهج .

وفيما يلي سوف نبين تاريخ هذا المنطق منذ البداية<sup>(١)</sup> .

أشار أغلب الفلاسفة إلى أهمية حس التوافق مع الاجتماع في التأثير على الفرد ، إلا أن تلك الإشارة لم تتجاوز حدود الفلسفة ، فلم يكن (علماء) للاجتماع ولا (مذهباً) في المنطق ، أما الذي يمكن أن نبدأ به تاريخ علم الاجتماع ، والمذهب الاجتماعي ، في المنطق ، فهو أوجست كونت ، شيخ علماء الاجتماع الذي تناول (مسألة المنهج) ونقلنا نقلة هائلة من المنطق التجريبي ، إلى المنطق الوضعي (الاجتماعي) .

فقد هاجم كونت المنطق الصوري الذي أقامه الميتافيزيقيون ، إذ أنه

---

(١) فيما يلي نعتمد على كتاب علم الاجتماع والفلسفة ، تأليف الدكتور قباري محمد إسماعيل ، الجزء الثالث ، الصفحة ١٧١ - ٢٠٥ .



(عنده) منطق جدلي ، ينتهي قوة الجدل ، ولا يكشف عن شيء ، كما أن القياس الأرسطي ، إنما يفسر لنا ما نعلم ، دون أن يكشف ما نجهل .

ثم إن كونت انتقد أيضاً الاتجاه التجريبي الخالص ، كما يتمثل عند بيكون ، وحاول أن يصطنع لنفسه منطقاً وضعياً « تستند إليه فلسفته الوضعية » من جهة ، ويعبر عن نظريته السوسيولوجية العلمية من جهة أخرى ، ولكن كيف فعل ذلك ؟

كونت حين أثار مسألة المنهج في المنطق ، وفي علم الاجتماع ، إنما حاول أن يشرع لمناهج الفكر قانوناً عاماً ، يفسر تقدم الذكاء الإنساني ، ويعبر عن « تطور أشكال الفلسفات والمناهج المتتابعة خلال التاريخ » وكان هذا القانون يتلخص عنده بقانون الحالات الثلاث ، الذي اعتبره القانون المطلق لتطور الفكر والمنهج ، وهو القانون العام الذي يكشف عن الرابطة الأصلية بين المنطق وعلم الاجتماع .

فذهب كونت إلى أن منطق الانسان ( بمعنى فكره أو عقله ) إنما يتدرج مع تدرج المجتمع ، وتطوره من حالة ( غيبية أولية ) إلى حالة ( ميتافيزيقية ) انتقالية ، ومن ثم يصل العقل الإنساني ، في النهاية إلى مرحلة ( الروح الوضعية ) . إذاً فلإنسان ثلاث حالات ، ولمنطقه أيضاً ثلاث حالات : حالة الغيب المطلق ، حالة الغيب المحدد ، وحالة العلم .

ولما كان الأمر كذلك ، فإن كونت أرخ للمنطق الإنساني ، وجعل منه تاريخاً للفكر الاجتماعي ، وخلق للتاريخ منطقاً محتوماً يسير في حلقات ، ويمر بأطوارٍ وأحقاب ويسميتها في أغلب الأحيان «فلسفات» .

وتخضع هذه الحالات ، أو الفلسفات ، لقانون ديناميكي تطوري ، هو قانون الحالات الثلاث الأنفة الذكر ، الذي هو في نفس الوقت ، قانون التقدم ، الذي يرى أن ظهور الفلسفات في أنفسها ما هي إلا ( مراحل إجتماعية ) تحتمها

لذلك كانت الفلسفة الميتافيزيقية ، في رأي كونت ، ما هي إلا مرحلة تتسم بالضرورة والحتم . إذ تحتّمها ضرورة الانتقال من المنطق اللاهوتي الغيبي إلى «وضعية العلم» ، حيث يشاهد الفكر عالم «الحقيقة النسبية» تلك التي وجدناها عند كونت تنبثق من (الروح الوضعية) .

إلى هنا ينتهي إسهام كونت في المنطق الاجتماعي . فمجمّل نظرياته المنطقية يتلخص في :

١ - ان المجتمع يتطور في حالات ثلاث ، حالة الغيب ( حيث ينسب كل حادث إلى أمر غيبي ) ، وحالة الفلسفة شبه الغيبية ( حيث ينسب كل حادث إلى قوة خفية معينة فيه ) ، وحالة السبب ( حيث تنسب كل حادثة إلى سببها الظاهر ) .

٢ - فكر الفرد في كل مرحلة من هذه المراحل خاضع للحالة الاجتماعية ولا يمكن تحويله عنها .

أما بعد كونت فإن واحداً من كبار تلامذته ، وأعني به لوسيان ليفي بريل طلع علينا بقانون جديد للفكر ، حيث أثار مشكلة (قوانين الفكر) وبخاصة (قانون الذاتية) و(عدم التناقض) وحاول أن يشرع للعقل البدائي قانوناً يصدق على كل مظاهره ، ويفسر أحواله الغيبية . فاصطنع قانون المشاركة ، على اعتبار أنه القانون المميز للعقلية البدائية ، بمعنى أن البدائيين - فيما يذهب ليفي بريل - قد غفلوا عن مبدأ التناقض ، لأنهم لا يميزون بين الأشياء ، بل يخلطون بينها أشد الخلط ، بمعنى آخر بالنسبة للعقلية البدائية - فيما يقول ليفي بريل - لا يحتم التناقض بين الواحد والكثير ، وبين الذات والغير ، وإن تأكيد أحد الطرفين لا بد أن يوجب نفي الآخر ، إذ أن هذا التناقض المنطقي الواضح ، لا يهتم به العقل البدائي كثيراً .

وهناك مساهمة أخرى قام بها دوركايم حين وقف من المنطق موقفاً خاصاً . فقد ذهب دوركايم إلى أن المنابع الاجتماعية هي المصادر الأولية لمدرجاتنا وتصوراتنا المنطقية ، لأن الإنسان ليس منفرداً في مواجهته للطبيعة ، بل إن المجتمع يساعده على ذلك . فالمجتمع إذاً يقف حاجزاً بين الإنسان والعالم ، لذلك كانت عمليات الإدراك والتصور مشوبة بعناصر اجتماعية آتية من طبيعة الموقف الاجتماعي للإنسان ، حيث تتأثر العمليات المنطقية ، وتشكل نظرة الإنسان إلى العالم الطبيعي ، وبالتالي تصدر أحكامه وقضاياه من خلال نظرته إلى عالمه الاجتماعي ، فمن المجتمع قد وردت على الإنسان وسائل فهمه للطبيعة ، وأدوات إدراكه لها ، وبذلك تستمد الأحكام المنطقية أصولها ومصادرها من المجتمع ، بمعنى أن ( الاطارات المنطقية ) ليست إلا شكلاً من أشكال ( الاطارات الاجتماعية ) .

والمنطق الفردي ناشئ بالضرورة عن المنطق الجمعي ، ففكرة التناقض ، وهي من قواعد المنطق الرئيسية ، ليست في ذاتها اجتهداً عقلياً يقوم به الإنسان إنما تنشأ أصلاً عن ذلك التناقض الاجتماعي بين ما هو (مقدس) وما هو (غير مقدس) . وفي ضوء ذلك التمايز الديني ، استطاع الإنسان أن يميز بين الصواب والخطأ . بمعنى أن هذا التمايز المنطقي مرجعه إلى المجتمع ، وإنفاق الجماعة أو عدم اتفاقها ، وعند دوركايم لم تسلم فكرة الهوية أو الذاتية من النشأة الاجتماعية ، حيث يرد معنى الذاتية إلى فكرة الشخصية .

فمن المجتمع - في زعم دوركايم - صدرت نماذج التصنيف المنطقي ، وإستناداً إلى التنظيم البنائي للأشكال (المورفولوجية) الداخلة في البناء القبلي وتنبعث قوالب التنظيم المنطقي ، ولذلك ، يقول دوركايم : « إن الحدود والمراتب المنطقية ، هي في الحقيقة شكل آخر للحدود والمراتب الاجتماعية » . كما أن الروابط المنطقية التي تربط بين أفراد الجنس والنوع لا تفهم إلا في ضوء الروابط الاجتماعية التي تربط بين أفراد الاتحاد والعشيرة . ومن ثم كانت

الاتحادات أوائل الأجناس ، وكانت العشائر أوائل الأنواع ! وهكذا أنهى دوركايم ما بدأه كونت الذي قال : إن فكر الانسان يصنع قالب الاجتماع ، أما دوركايم فبُين كيفية ذلك ، فأرجع كل مقولات المنطق ، من الذاتية واستحالة التناقض والجنس والنوع ، و . . . و . . . إلى وقائع إجتماعية .

هذا تاريخ المنطق الاجتماعي ولنا عليه تعليق مقتضب هو :

إن المنطق الاجتماعي أصاب نصف الحقيقة أما نصفها الآخر ، فهو إن السبب الرئيسي الذي يكمن وراء التوافق بين الانسان الفرد ، فكره وسلوكه وبين محيطه الاجتماعي ، ليس حتمية التبعية كتبعية الشمس للسير في مجراها المرسوم ، إنما هو سبب إرادي خاضع لإرادة الفرد ذاته ، وهذه الإرادة تتردد بين أتباع المجتمع أو التوقف على ( هدي العقل ) الذي زود كل فرد به ، وعقل الانسان واحد ، وحكمه أيضاً واحد ، أنى اختلفت الظروف وتفرقت الأهواء .

من هنا اعترض بيتريم سوروكين على فكرة الأصل السوسولوجي ، لمقولات الفكر الانساني ، وهي أعم وأهم التصورات العامة في المنطق الاجتماعي ، فأنكر مزاعم دوركايم بصدد هذا الأصل ، الذي يثير الشك والريبة ، إذ أن المقولات المنطقية الرئيسية ، إنما هي واحدة بذاتها في عقول الفلاسفة ، ونجدها كما هي نفسها عند كونفوشيوس وأرسطو وكانت ونيوتن وباسكال ، فكيف نفسر عمومية تلك المقولات وثباتها في عقول الفلاسفة ، على الرغم من اختلاف شعوبهم وثقافتهم ؟!

ولو كان الانسان ابن مجتمعه ، لما كان يستطيع أن يساهم في تقدم هذا المجتمع ، ولما كان المجتمع يتقدم أبداً وكان الإنسان باقي على بدائيته القديمة ، لأنه ليست هناك قوة تتمكن أن تقدم هذا المجتمع ، إلا قوة أفراد الذين تعوزهم ، حسب هذا الفرض ، القدرة على التغيير والإصلاح .

إنما الصحيح أن الانسان يملك جانبين ، جانب الخضوع والاستسلام ،

وبهذا الجانب يتوافق مع مجتمعه وبيئته ، مع والديه وأسرته ، مع مدرّسه وأستاذه ، مع الدولة التي يعيش فيها . و .

والجانب الآخر : هو التحرر من قيود البيئة والانطلاق في رحاب الحياة ، فكراً وسلوكاً ، ولقد زوّد الإنسان بالشعور بالذاتية والاستقلال والحرية ، كما زوّد بالعقل القادر على فهم الصواب والخطأ ، والحق والباطل ، والنافع والضار ، والقادر أيضاً على وضع مقاييس لتقييم أفكار المجتمع وسلوكه بها .

بهذا الجانب يطور الفرد مجتمعه ، ويؤثر فيه ، وتتكاثر جهود الأفراد لتدفع بالمجتمع قدماً إلى الأمام .

وإذا كان الفرد ابناً لبيئته بالجانب الأول ، فإنه أبوها بالجانب الثاني .

وإذا كان الفرد يخضع لمجتمعه ، فليس عبثاً إنما بسبب القهر الاجتماعي ، المتمثل في أنواع من الضغوط ، والعقوبات والروادع ، التي يمارسها المجتمع تجاه الفرد ، وبقدر ضعف إرادة الفرد في مقاومة تلك الضغوط ، وبقدر قوة تلك الضغوط ، سيكون مدى خضوع الفرد واستسلامه لمجتمعه .

لهذا نجد المجتمعات ، التي تتسم بطابع العسكرية ، والتي تكثر فيها الروادع ، وتشتد العقوبات ، تمتلك قدرة قهرية أكبر على الأفراد ، بينما المجتمعات المائعة لا تمتلك تلك القدرة .

ومن جهة أخرى ، يقل مستوى الخضوع عند الشباب ، الذين يملكون قدراً أكبر من الشعور بالقوة ، ومن إرادة التحدي ، لأنهم يقاومون ضغوط المجتمع . ثم إن ضغوط المجتمع هي عمليات مزيجية من التربية وتقليد الآباء ، وحسن التوافق مع الناس ، والنظام الاقتصادي . و . مما سوف نتحدث عنها إن شاء الله ، ونبيّن أنها لا تعدو أن تكون ضغوطاً ، دون أن تكون عوامل حتمية .

## وكلمة أخيرة :

يبدو أن فلاسفة التاريخ ، الذين سعوا وراء معرفة السنن العامة لتطورات التاريخ ، من أمثال آرنولد توينبي ، ومالك بن نبي وابن خلدون ومن أشبهه ، هم في الواقع من المناطق الاجتماعية ، الذين تصوروا أن للتاريخ سنناً عامة ، تنعكس على حالة المجتمع ، وتنعكس تلك الحالة على الأفراد ، وإننا نجد الشبه الكبير بين مراحل كونت في الفكر ، وبين مراحل توينبي في الحضارة إذ أن الفكر لا ينفصل عن الحضارة ، وأن الحضارة تخلق بالطبع نوعاً من الفكر متناسب لها .

وعلينا أن نقيّم نظرية الدورات الحضارية ، أو نظرية التحدي والتحدي المعاكس ، في تفسير تحولات التاريخ . نقيّمها وفق رؤيتنا إلى المنطق الاجتماعي ، وإنه لا يعدو أن يوجد نوع من الضغوط على الفرد ، للفرد أن يتحداه ، وله أن يستجيب ويستسلم له .



## ١.١. في المنطق الحديث

يمكن أن نعتبر القرن التاسع عشر عصر الإيديولوجيات<sup>(١)</sup> وكذلك عصر المنطق والمناهج ، إذ يرتبط المنطق بالايديولوجية ارتباطاً وثيقاً .

وقد اتخذ المنطق الحديث ملامحه النهائية ، في نهاية هذا القرن ، وبداية القرن العشرين .

أبرز ملامح المنطق الحديث هي :

١ - تنوع المنطق ومناهج البحث حسب اختلاف وتنوع العلوم ، فهناك منطق قياسي يعتمد عليه علم الرياضيات ، وهناك منطق استقرائي تجريبي يعتمد عليه علماء الطبيعة ، وأخيراً هناك منطق اجتماعي يعتمد عليه علوم الانسان .

في كل فصيلة من العلم تختلف المناهج . فمثلاً هناك منهج للطب والتشريح ، ومنهج للجغولوجيين ، وعلم طبقات الأرض ومنهج لعلوم الفضاء و . . و .

وبالرغم من فوائد عديدة اكتسبها العلم من اختصاص المناهج ، إذ منحه

---

(١) راجع كتاب عصر الايديولوجيات لمؤلفه هنري آيكن ، المقدمة .



الاختصاص مزيداً من الدقة والتركيز .

بالرغم من ذلك ، فإن الافراط في تجزئة المنطق ، ومناهج البحث ، أفقدها المرونة والعمق الضروريين لفهم الحياة وللبحث الابداعي فيها<sup>(١)</sup> .

٢ - المنطق الحديث نسبي في اتجاهه العام ، لا نسبية فلسفية تشك في إمكانية العلم بالأشياء ، إنما نسبية علمية لا تؤمن إلا بقدر ما توصل إليه العلم بوجه خاص ، وهذه النسبية تنعكس على المنطق ، إذ المنطق لا يعدو أن يكون بحثاً في البحث ، أو دراسة لطرق العلم ، وإذا كان العلم يتطور من يوم لآخر ، فإن طرق دراسته هي الأخرى تتطور من يوم لآخر .

لذلك فإن المنطق الحديث لا يبقى منفصلاً عن العلم الحديث . بل ممتزجاً معه ، مرتبطاً عضواً به .

من هنا كان من أوليات الأسلوب العلمي الحديث للكتابة ، أن يذكر المؤلف منهجه في البحث في المقدمة ، إذ أنه سيكون منهجاً فريداً وخصاً ، بالكتابة عن الموضوع ذاته .

٣ - المنطق الحديث نشأ ونما في جو مادي ، لذلك فهو يكفر منذ البدء بالأفكار ما وراء المادية ، ولا يضع منهجاً لمعرفة تلك الحقائق ، ولا يعترف بذلك المنهج الذي يوصل المرء إلى معرفتها ، وحتى إثبات قيمة للمثل العليا ، أو قيمة للحدس الناشئ من التجربة ، يخضع حسب المنطق الحديث للطرق المادية . إن المنطق الحديث ، تبعاً لكل الأفكار الحديثة والمتشعبة بالروح المادية ،

---

(١) يقول الكسيس كاريل : من المستحيل أن يفهم العالم الأخصائي . الإنسان ككل ، طالما كان غارقاً إلى أذنيه في دراساته الخاصة ، تلك الدراسات التي تصرفه عما عداها ، في حين أن دراسة الإنسان ، وقد بين أهميتها لا يمكن أن تتم والحالة كما هي الآن ( الإنسان ذلك المجهول ، ص ٦٠ ) .

لا يضع منهجاً لمعرفة التفسير الفلسفي لمبدأ الوجود وغايته ، ومبدأ الإنسان ومصيره ، ولذلك فهو لا يستطيع الوفاء بكل حاجات البشر ، إذ إن الحياة الروحية ، تشكّل الجزء الأهم من حياة الإنسان ، ولا يمكن أن توجه الروح ، إن لم يوضع لها منهج واضح ، لمعرفة مبدأ الكون وغايته ومبدأ الإنسان ومصيره . ذلك أن هذه المعرفة هي التي تعطي الإنسان نظرة موضوعية شاملة إلى نفسه وإلى الحياة من حوله ، وبسبب هذه النظرة يتخبط الإنسان في تقييم ذاته ، وتقييم الوجود من حوله ، حتى لا يميز بين الصالح والضار ، والخير والشر .

فالذي يريد أن يعرف حقائق الكون جميعاً عن طريق التجربة العلمية ، حسب المصطلح الحديث لهذه الكلمة ، لا يمكن أن يعرف الجواب على السؤال التالي : ما هو الخير وما هو الشر ؟ وكيف ينبغي أن أنصرف في الحياة ؟ وكيف يتأثر سلوكي بالدعاية المضللة ؟ ثم كيف أبصر بنفسي الحقائق دون أن أقع في شرك الدعاية ؟ وهل عليّ أن أؤمن أصلاً بالله سبحانه ؟ أم كيف أستطيع أن أعرف ما إذا كانت هنالك حياة أخرى ؟

إن هذه الأسئلة ، لا يمكن أن يجيب عليها المنطق المادي ، الذي يحصر ذاته في إطار ما يمكن أن يُرى تحت المجهر . وحيث أن الخير لا يمكن قياسه ، وكذلك الشر ، والقيم لا يمكن تجربتها ، وكذلك الله واليوم الآخر فإن هذا المنطق بعيد عنها جميعاً . من هنا نستطيع أن ننعت المنطق الحديث ، وبكل أسف ، بأنه ( منطق ناقص ) .

٤ - المنطق الحديث ، يجهل في أكثر بحوثه دور ( الإنسان ككائن حر ) في المعرفة ، ولذلك فهو يتسم بالاحتمية إتساقاً يكاد يكون عاماً . فحين يبحث المنطق الحديث عن دور البيئة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في تكوين ذهنية الإنسان ، يبحث عنه تماماً ، كما يبحث عن دور الأوكسجين في تنقية الدم . إنه دور محتوم .

ونتيجة هذا الإيمان المطلق بالعوامل الخارجية ، وما يقابله من الكفر بقيمة

الإرادة البشرية ، تبقى طائفة كبيرة من الأخطاء دون علاج ، إذ انها آتية من إرادة الإنسان ذاتها ، تلك الإرادة التي سقطت من حساب المنهج الحديث .

من هنا كان جواب المنطق الحديث عن السؤال حول الطريقة التي يتخلص بها الإنسان من عامل الاقتصاد في تكوين ذهنيته . . . كان جواباً ناقصاً ، إذ كان يقول له يجب إصلاح الاقتصاد ، حتى لا يوقع البشر في الخطأ . حقاً إن هذه طريق إلا أنها غير ممكنة في بعض الظروف ، فلو لم تكن الإرادة البشرية قادرة على التحصن ضد عامل الاقتصاد لكننا أفقدنا الإنسان القدرة على تحصيل الحقيقة ، في مثل هذه الظروف .

بعد ذلك ينبغي التنبيه إلى أن المنطق الحديث ، بما فيه قواعد المنهج الديكارتى وتوصيات بيبكون ، لا يغفل تماماً دور الإرادة ، بل قد يعلق عليها بعض الأهمية .

٥ - بما أن المنطق الحديث يتسم بالانتقائية ، فإنه لا يملك بناءً فلسفياً رصيناً ومقتناً ، ولذلك فهو يعجز عن إعطاء مبررات كافية لكثير من توصياته ، بل ويعجز أيضاً عن إعطاء فلسفة كافية لها ، ذلك أن هذه الفلسفة ، لا تصح إلا إذا آمن المنطقي ، بوجهة نظر فلسفية شاملة ، حول المعرفة ، وعلم النفس . كما كانت لكل واحد من الفلاسفة ، الذين أبدعوا أقسام المنطق ، التي انتقي منها المنطق الحديث . ان المنطق الحديث ، أشبه إلى طبق فيه فاكهة شتى ، بينما أقسام المنطق قديماً كانت كثرة شجرة لم تقطف ، ولذلك نجد أن المنطق الحديث ، لا يعدم التناقض والتناحر ، بين أنواعه كما يفتقر إلى الأصول التي تعطيه العمق والاستمرار ، بينما المنطق القديم ، كان أصيلاً بما فيه الكفاية ، إذ انه كان ينبع من نظرات فلسفية وعلمية راسخة ، وكما سبق : فإن المنطق يرتبط بمعرفة حقائق كثيرة ، فيما بينها حقيقة النفس ، وحقيقة العلم ، وحقائق عن الإنسان (الفرد) والإنسان (الجماعة) ، وتطور حياة البشر و .

ولذلك كانت آراء الفلاسفة في المنطق متكاملة مع آرائهم في تلك الحقائق ، فكان منطق كل واحد منهم متكاملًا من ناحية بنائه الفكري .

إلا أن هذا التماسك زال عنه بخلط أقسام المنطق في المنطق الانتقائي الحديث ، فعاش كل قسم منه بعيداً عن جذوره الفلسفية ، وهذه هي سمة عصرنا ككل ، حيث يهتم بالفلسفة السطحية ، ويترك البحوث العميقة ، ويرتجل بنفي قيمتها في الحياة دون تفكير .

وكان نصيب المنطق وافرًا من السطحية التي آتسم العصر بها .

ونشأ من كل ذلك فراغات هائلة في هيكل المنطق الحديث نشير إلى بعضها عندما نذكر المنطق الاسلامي .



المنطق الإسلامي

أصوله ومناهجه

القسم الثاني عن :

# أصول المنطق الإسلامي

هل للإسلام منطق ؟

المسلمون والمنطق الإسلامي .

مميزات المنطق الإسلامي .

ركائز المنطق الإسلامي .

الثقة مفتاح العقل .

بين العلم والصوت .



## هل الإسلام منطق ؟

جاء الإسلام ببصيرة جديدة للإنسان ، ليس فقط في السلوك والتشريع ، والطقوس والعبادات ، وإنما قبل كل ذلك في التفكير والمعرفة ، وكشف حقائق الحياة ، وواقع الأحياء والأموات . . .

قال الله تعالى :

﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور ، وكتاب مبين \* يهدي به الله من أتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه . ويهديهم إلى صراط مستقيم . . ﴾ [ ١٥ - ١٦ / المائدة ] . .

فواحد إلى عشرين جزء من القرآن هو في التشريع بما يدعى بـ (الأحكام) أما الأجزاء التسعة عشر الأخرى فهي في مناهج الفكر وفلسفة الحياة وبناء الشخصية .

وإذا لاحظنا القرآن وجدنا أن موضوع العلم والمعرفة وما يتصل بهما قد بُحث في القرآن بقدر ما بُحث موضوع الإيمان بالله !! أو أقل قليلاً . . . والقرآن



جاء برؤى جديدة للحياة فسرت ما يخفي من ظواهر أو أحداث غابرة ، وبُين كثيراً من السنن الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحضارية ، وبالتالي جاء بفلسفة عامة للحياة . . . ولا يمكن أن تكون فلسفة من دون منطق . إذ المنطق هو المدخل إلى الفلسفة كما أن الفلسفة هي مدخل لفهم الحياة !

ولقد فجر الإسلام قدرات ( مجموعة بشرية هائلة ) ، وأعطاهم إمكانيات حضارية كبيرة ، كانت الحضارة العربية الإسلامية بعض مظاهرها . والحضارة لا تقوم إلا على ثقافة . والثقافة لا تُبنى إلا على أسس منطقية إذ لا يعقل أن ترتبط وتستند عناصر الثقافة إلى بعضها ، من دون وجود طريق واحد للتفكير وأسلوب واحد للملاحظة .

إن وجود ثقافة متميزة لدى المسلمين ، دليلٌ بسيط على وجود منطق متميز لهم . ولكن ، لماذا لم يعرف المسلمون هذا المنطق ؟

الجواب : لأنهم كانوا يُمارسون الثقافة ، وفلسفتها ، ومنطقها ، ممارسة عفوية وغير منطقية ، بل وغير واعية . إنهم يطبقون ما جاء في كتابهم العظيم (القرآن) دون أن يفكروا كثيراً إلى أي حقل في الحياة ، يرتبط هذا التعليم أو ذلك ، وربما مارسوا الزكاة طويلاً ، دون أن يعرفوها ركيزة اقتصادية ، ومارسوا النقد البناء ، دون أن يعرفوا أنه ركيزة منطقية . ويبقى سؤال آخر : لماذا لا يعرف المسلمون اليوم بوجود منطق متميز لهم ؟

الجواب لأحد عاملين :

١ - إما التعصب لمناهج فكرية تعودوا عليها كالمناهج الوضعية أو الديالكتيكي أو . أو . يعني المنطق الذي لا يتعدى المنطق المادي .

٢ - أو الجهل بلغة القرآن الكريم - المصدر الأساسي للفكر الإسلامي - وبالطبع يعتبر هذا العامل أخطر من العامل الأول . إن كلمات كثيرة تحورت معانيها منذ عهد الرسالة إلى الآن ، مما ألقى عليها ظلالاً من الغموض عند الفكر

المعاصر وأبعدها عن معانيها الحياتية ، وكنموذج نبين الأمثلة التالية :

أ - كلمة (البصيرة) استخدمت في القرآن الحكيم ( ٨ مرات ) فماذا يفهم منها الرجل العصري ؟ هل يفهم منها المعنى الرسالي الذي قصده القرآن وكان يفهمه الجيل الأول ؟ هل يفهم منها معنى الرؤية الكاملة للحياة الذي يوازي معنى الفلسفة في عُرفنا الراهن ؟ ولأن العرف لا يفهم اليوم من كلمة (البصيرة) معنى الفلسفة فإن الشك يساوره في وجود فلسفة في القرآن ، أو في تصريح القرآن في وجود مثل هذه الفلسفة فيه . يقول القرآن :

﴿ هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [ ٢٠٣ - الأعراف ] .  
﴿ بصائر للناس وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون ﴾ [ ٤٣ - القصص ]

ب - كلمة (الذكر) وما يتصل بها من كلمات : ( التذكر - ذكرى - تذكرة ) وما أشبه ، تكررت في القرآن أكثر من ( ٣٢٠ ) مرة ، فهل يفهم منها العرف الراهن ما يوازي نظرية المعرفة في الإسلام ؟ وهل يُفهم أن التركيز على هذه الكلمة يدل على أن الرؤية الإسلامية في معرفة الحقائق الفلسفية هي أن الإنسان عارفٌ بها - بالفطرة - ولكنه غافلٌ عنها أو محتجب بالهوى والنسيان عنها ؟

إن (العرف) اليوم قد يستهزئ بالذي يدعي أن القرآن قد نوّه بنظرية المعرفة ( ٣٢٠ ) مرة .

ج - نحن لا نفهم عادة من هذه الآيات :

﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ، وأنابوا إلى الله لهم البشري فبشر عباد ﴾ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ [ ١٧ - ١٨ / الزمر ] .

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علمٌ ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ... ﴾ [ ٣٦ / الإسراء ] .

﴿فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾ [ ٣٠ / محمد ] .

.. أقول نحن لا نعرف من هذه الآيات ، وآيات أخرى ، إنها تبين وجهة نظر الإسلام في مناهج المعرفة - كما سيأتي الحديث عنه - ولماذا لا نفهم ؟ إذ حاجز اللغة حاجز سميك يفصلنا عن فهم حقائق كثيرة في الإسلام ، وفي كتابه العظيم القرآن .

ومن بين تلك الحقائق ، وجود منطق خاص للإسلام ...

### المسلمون والمنطق الإسلامي :

وجود منطق إسلامي لا يعني أن الأمة الإسلامية أتت هذا المنطق (دائماً) ، كما أن وجود نظام إسلامي لا يعني بالضرورة أن المسلمين طبقوه بالكامل .

من جهة أخرى لا يعني ( المنطق الإسلامي ) ، كل منطق استخدمه المسلمون قديماً أو حديثاً ، كما لا يعني ( النظام الإسلامي ) كل نظام طبقه المسلمون قديماً أو حديثاً .

إنما المسلمون ، كأمة أخرى ، استخدموا ألواناً من المنطق ، كانت بين بعضها البعض تناقضاً ظاهراً ، كما كان بينها وبين المنطق الإسلامي هذا التناقض .

والواقع أن الأمة الإسلامية حصرت نفسها في البداية على المنطق الإسلامي ، والفكر الإسلامي والنظام الإسلامي .

لكن مع توسع الدولة ، وضعف العناصر الرسالية فيها ، استوردت الأمة المنطق ، والفكر ، والنظام ، من الخارج .

وحين ترجمت الكتب الفلسفية ، في بداية القرن الثاني للهجرة ، انتقل المنطق الأرسطي عبرها إلى الفكر الإسلامي ، فاحتضنه المسلمون دون انتقاء ،

وكانت النتيجة سيطرة هذا المنطق عليهم فترة طويلة من الوقت . وانتقاله عنهم إلى الغرب عن طريق الأندلس ، وبقاء الغرب تلميذاً عليه إلى القرن السادس عشر الميلادي ، بيد أن المحافظين على التعاليم الإسلامية ، لم يتأثروا بالمنطق الأرسطي . ونستطيع أن نستشهد على ذلك بما يلي :

أولاً : إن أول من جدد الفكر الغربي في المنهج كان روجر بيكون ، الذي كان متأثراً بالفكر الإسلامي . وهكذا نستطيع أن نجزم بأن طائفة من المسلمين رفضوا الإكتفاء بالمنطق الشكلي بل جاوزوه إلى المنطق التجريبي . إلا أنه سيكون مبالغة غير لطيفة لو قلنا أنه كان لهم منطق تجريبي بمعنى الكلمة . بل لم تكن لديهم إلا مجموعة غير متماسكة من التعاليم الدينية في البحث العلمي ، مضافة إليها هداية فطرتهم ، إلى عقم المنطق الشكلي عن العطاء في الحقول المختلفة .

ثانياً : إن كثيراً من العلوم الإسلامية لم تكن تنشأ لولا التمسك بهدي التعاليم الإسلامية في المنطق ، البعيدة جداً عن المنطق الشكلي . فمن ذلك : علم أصول الفقه ، والرجال ، والحديث ، والاستنباط . إن هذه العلوم تعتمد على منهج للبحث أشبه ما يكون لمنهج البحث الحديث ، بل وفي بعض هذه العلوم بلغ علماء المسلمين مبلغاً يفوق ما بلغته الأبحاث الحديثة .

وكان بإمكان المنطق الإسلامي أن يتبلور عبر مناهج واضحة ودقيقة ويفوق كل منطق آخر ، إلا أن سبات الفكر الإسلامي في القرون الأخيرة ، ذلك السبات الناشئ من سبات الأمة الإسلامية العميق في كافة الحقول الحضارية . . . هذا السبات منع من تبلور هذا المنطق ومع الأسف .

والآن ، بدأ المسلمون استيراد ألوان من المنطق ، ومناهج البحث من الغرب والشرق ، كما يستوردون أي شيء آخر . مما أفقدهم شخصيتهم الحضارية حتى أنهم لم يعودوا يؤمنون بوجود منطق خاص بهم !

## ميزات المنطق الاسلامي :

كل خصائص الفكر الإسلامي متوفرة في المنطق الإسلامي<sup>(١)</sup> وبذلك تكون هناك سمات بارزة في المنطق الإسلامي خاصة تعلوه على سائر أقسام المنطق<sup>(٢)</sup> وهي التالية :

الأرضية الصلبة :

عندما استعرضنا سمات المنطق الحديث رأينا كيف أن هذا المنطق لا يملك قاعدة فلسفية متكاملة . . . لأنه انبثق من اختيار غير ناضج لجملة أفكار متناقضة ولذلك فهو لا يعطي الإنسان منظراً واحداً يستكشف به ما بداخله ، وما حوله ، من عوالم كبيرة . ( بل يفيد فقط في رؤية أجزاء الكون بصورة منفصلة ) .

بينما المنطق الإسلامي يتمتع بالرؤيا الفلسفية الواضحة التي ترسو على أرضية صلبة لمناهج البحث فيه .

ولذلك لا تشذ مناهج المنطق عن قاعدتها ، قيد شعرة ، إنما يعطي الإنسان مرآة صافية لمعرفة العالمين جميعاً . . . .

الشمول :

من المعروف أن الفلاسفة اختلفوا في مصدر المعرفة ، هل هو الحس

- 
- (١) خصائص التصور الاسلامي ، انه رباني لا يتطور إنما تتطور البشرية من خلاله ، وانه متوازن يجمع بين جوانب النفس البشرية ، وانه ميزان لسائر التصورات .
- ويرى التصور الاسلامي في الحياة أنها مركبة ، من خطي ( الضعف والقوة ) خط الضعف ، هو خط الاستسلام والخضوع للمادة ، وخط القوة هو خط العبودية لله وحده والتحرر من كافة قيود المادة وأغلالها . ( راجع كتاب بحوث في القرآن الحكيم للمؤلف وكتاب خصائص التصور الاسلامي للأستاذ القطب ، ص ٤٩ ) . .
- (٢) للمقارنة راجع فصل آراء في المنطق .

وحده أم التفكير (العقل) فقط أم الارتياض الروحي فحسب ؟

أما المنطق الإسلامي فيرى في المواضيع الفلسفية ، والتي أهمها المنطق ومناهجه ، أنه لا يمكن أن يكون سوى القناعة الفكرية ، الخاصة بكل شخص ، والتي لا تدع مجالاً للشك أبداً . إلا أن السبيل إلى هذه القناعة يختلف فيتراى لنا اختلاف مصادر المعرفة إلى ثلاثة أنواع : العقل ، الوحي ، والتجارب الحسية .

**العقل :**

نعبر بالعقل عن البديهيات الفكرية التي لا يرتاب فيها أحدٌ ، كالإيمان بضرورة السبب لكل حادث ، واستحالة اجتماع الوجود والعدم في شيء .

إن قناعة ذاتية بفكرة واحدة لوضوحها وشدة الثقة بها ، كالقناعة بوجود (الذات) أو (أنا) تدعو هذه القناعة إلى الإيمان بأية فكرة متشابهة لها في الوضوح والثقة .

وكمثل أنني مقتنع بوجود ذاتي لأنها واضحة لديّ ومنكشفة أمامي تماماً ، فإذا وجدت بعد عملية تدبر وتفكير أن وجود الشمس ، يتصف بنفس الوضوح ، والانكشاف ، فإنني هنا أضطر إلى الثقة بوجودها . . . والاعتراف بها ، لأنهما يشتركان في الصفة التي أوجبت قناعتني بوجودهما وإنما نعني بالبديهيات العقلية ، تلك الأفكار التي تصبح واضحة لدى النفس ، بنفس الشدة ، التي تتضح البديهيات الأولية كوجود الذات مثلاً ، ولو لم تكن لهذه القناعة أسباب حسية واضحة ، إذ إن اعترافنا بالحس ذاته ، لم يكن إلا من جهة أنه يكسبنا ثقة تامة ، ووضوحاً كاملاً ، بالنسبة إلى الأشياء . . . فلو أوتينا بذات الثقة ، من سبيل آخر لا يسعنا إلا الاعتراف به ، ونعبر عن هذه البديهة عادة بالوجدان ، وتعبّر عنها اللغة العلمية بالحدس ، واللغة الدينية بالعقل .

**النص :**

من المؤكد أن بعض البديهيات لا يعرفها الإنسان ، إلا بعد تذكير

والفات ، مثلاً  $10 \times 10 = 220$  . ولكن هل يفقهها كل إنسان دون إلتفات ؟! هل يمكن أن يصح خبر ويكون باطلاً في لحظة ؟ كلا ، ولكن هل يفقه ذلك كل بشر ؟ إن علو معرفة الإنسان تكشف لنا أن هذه الحقيقة قد يصعب فهمها على بعض الناس البسطاء . إلا بعد إلتفات . بموازاة هذه الحقائق الواضحة ، جملة من الحقائق لا يفهمها البشر دون إلتفات وذلك مثل وجود الإرادة والعلم والهوى في ذات كل واحد منا . . . ونحن بحاجة إلى من ينبهنا إليها ويذكرنا بها وبعد تذكرنا بها تصبح واضحة تماماً كإلتفات رجل بما تحتويه يده ، التي شغل عنها ثم إنه يجدها بعد الإلتفات ، كحقيقة لا تحتاج إلى دليل . والنصوص الشرعية إلتفات تذكيرية تنبهنا إلى واقع أنفسنا ، وكذلك فهي ذات قيمة تذكيرية بالنسبة إلى المواضيع الفلسفية .

### التجارب :

تاريخ البشر حافل بمحاولات مخلصة لتبصر الواقع الفلسفي ، وإن كل العلوم اشتركت ولا تزال في موضوع ( معرفة الإنسان ) إلا أن مشكلة هذه التجارب : امتزاجها بعنصر الغرور البشري ، فكل من رأى ظاهرة تحمس لها ، كأنها الظاهرة الوحيدة في العالم ، ولئن صدقت هذه الحقيقة في كل مجال بشري ، فإن صدقها على حقل المنطق ، أوضح لأنه يتصل مباشرة بسلبيات البشر ، وتأثير بواقعه المادي . ومن هنا كان أرسطو يرى في منطق نهاية الخطأ ، لأنه زعم أن ظاهر اللعب بالألفاظ وما ينتج عنه من أخطاء فكرية ، هي كل أسباب الخطأ ، وزعم بكون ، وديكارت ، وهيجل ذات المبالغة ، كما انحصرت المناهج الوضعية والديالكتيكية في ذات البؤرة ، ولكن وجود هذا الخليط في تجارب البشرية لا يمنعا من الاهتداء بعناصرها الإيجابية ، إذا استطعنا الانفتاح الموضوعي أمامها ، وكانت لنا مقاييس فكرية دقيقة ، تميز خط السالب عن الموجب ، وحدودهما .

ولوجود رؤية واضحة متكاملة ، في المنطق الإسلامي ، فإنه يستفيد من

كافة التجارب المتصلة به ، بعيداً عن الجوانب السلبية فيها وهكذا يستفيد من المذاهب المنطقية : كالمذهب الحسي ، الذي آمن بالحس وكفر بالعقل والمذهب العقلي ، الذي عكس الآية ، والمذاهب النسبية ، التي تنبه كل واحد منها إلى جانب من الضعف في فكر الإنسان ولم يتنبه إلى غيره من المذاهب الاجتماعية والنفسية والاقتصادية و . و . التي ركز كل واحد منها نظره في حقل واحد من حقول الحياة وظن أنه هو مصدر المعرفة . وكذلك مصدر الخطأ عند الإنسان . ولكن المنطق الإسلامي يرى أن كل مصادر المعرفة هي مصادر صحيحة . والمعرفة الناشئة منها ممكن الإستفادة منها كما أن مصادر الخطأ هي الأخرى خطيرة وتهدد معرفة الإنسان ، وعلينا أن نستفيد من كل مصادر المعرفة ( الحس - العقل - الوحي ) ونتجنب من كل مصادر الخطأ ( النفس - المجتمع - التقليد - و . و . ) .

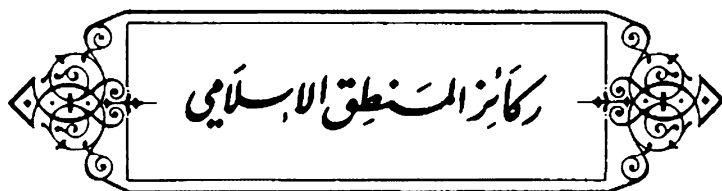
ولذلك تجد النصوص الإسلامية تنظر من علٍ إلى جميع أسباب الخطأ ، وتنبيه إليها ، دون الاقتصار على بعضها ، حسبما تفعله المناهج الأخرى .





القسم الثاني  
عن أصول المنطق الاسلامي

البحث الرابع عن :



- الدليل الى العقل . كيف يعرف العقل ؟
- الاختلاف في العقل . التنبيه سبيل العقل .
- قِيسَات من حديث الرسول حول العقل .



## أركان المنطق الإسلامي

هناك عدة ركائز ، يعتمد عليها المنطق الإسلامي ، هي : معرفة العقل ، والعلم ، والجهل ، والشهوات ، ومعرفة ما يتصل بهذه الحقائق من بحوث ، وهي - جميعاً - في الواقع ، بمثابة مفاتيح للفكر المنطقي والفلسفي في الإسلام .

وستتحدث فيما يلي عن هذه الركائز حيث نبدأ ببحوث عن العقل ، والشهوة ، والسبيل إلى معرفة العقل ، ثم العلم والهوى ، والمقياس الذي يميز العلم عن الهوى ، ورؤى الإسلام في علاقة العلم باليقين .

### ما هو العقل ؟

كثير من الألفاظ يطلقها الناس ، دون أن يعرفوا معانيها بوجه الدقة ، ويتفق الناس على تعليق فهم معانيها حتى يبلغوها ، ومن أبرز هذا النوع من الألفاظ ( الروح - العقل - النفس ) . والسبب : إذا حاولنا تفقد المعنى الصحيح للعقل ، كان علينا أن نحيط بالفلسفة إحاطة تامة ، وعلم البشرية لم يبلغ حتى الآن مدى يمكنه من هذه الإحاطة ، إلا أن كل ذلك لا يمنعنا من طرح تعريف تقريبي لكلمة العقل ، حتى تكون أقرب إلى أفهامنا حين نستعملها .

### تعريف العقل :

تعريف كلمة العقل ، من ناحية اللغة ، مشتقة من عقله بمعنى ربط وثاقه

ليحفظه عن الإفلات . وبهذه المناسبة يطلق العرب العقل على ما يحفظ الإنسان من موجبات الردى .

ويُقابل العقل عادة بالجهل ، والجنون ، ويقصد بالأول ، عدم القيام بما ينبغي القيام به لعدم معرفته أو لتغلب الشهوة . . . ويقصد بالجنون وجود خلل في أعصاب الفرد مما يدفعه غير قادر على العمل بما ينبغي عليه . وفي بعض الأحيان نستعمل لفظة الإرادة للدلالة على تلك الطاقة التي تجعلنا نقوم بما ينبغي لنا أن نقوم به ، ونطلق على كشف ما ينبغي لنا أن نقوم به بالمعرفة والعلم .

فاعقل إذاً هو ما يسببه نقوم بالعمل الصالح ، وجاء في تعريف العقل عن الإمام علي بن أبي طالب - ع - « العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان » .  
ما هي الشهوة ؟ :

تؤخذ كلمة الشهوة من الشهي والاشتها ، ويعني الحب الشديد . وكل حاجة يتحسسها الفرد ، ويرغب نفسياً في إتباعها ، هي « الشهوة » فحاجة الطعام ، واللباس ، والجنس ، والمأوى ، إنما هي شهوات .

ويُطلق على الشهوة لفظ الغريزة أيضاً . ولكن باعتبار آخر ذلك هو رسوخ نوع من الشعور بهذه الحاجة في النفس .

### المفارقة بين العقل والشهوات :

نفى البعض أي فرق بين العقل والشهوة ، زاعمين أن العقل نوعٌ من الشهوة الكامنة ، كما أن الشهوات هي العقل الظاهر ، فالحاجة إلى الجنس قد يتحسس بها الفرد فعلاً ، ويندفع نحوها عملاً ، فهو - آتئذ - حين شهوة ، وعقل ظاهر ، وقد يتحسس بها ، ويعلم أن طريق إشباعها وجود شرائع تنظم مسألة الجنس وشم وجود التزام عملي بهذه الشرائع ، والتي منها مثلاً التفاضلي الفعلي ، عن الأنثى المختصة بجارك فإذا أمسكت نفسك عنها فإنك مدفوعٌ بالشهوة ، ولكن بصورة غير مباشرة ، ومن هنا صح الإدعاء بأن العقل هو شهوة كامنة .

ولكن قال آخرون : إنَّ العقل حقيقة متميزة ، كلياً عن الشهوات ، فهو ،  
أولاً : يسير الشهوات وينظّم أمر اشباعها .

ثانياً : قد يوقف الانسان عنها إيقافاً تاماً ، وبذلك يعطي البشر حرية تفوق  
قوتها قوة كل ضغط وتعلو قدرتها قدرة كل شهوة .

ويقول هذا الفريق : إن وجود العقل ، هو الذي يعطينا القدرة على التمييز  
بين شهوة حاضرة وشهوة آتية ، وعلى اختيار الثانية إن كانت هي الأسمى ، ووضع  
شرائع في سبيل الوصول إليها ، ثم التقيّد بها .

إذ إنَّ العقل هو صمّام الضبط الذي لولاه لانفجرت الشهوات ، في  
اتجاهات عمياء . إنَّ الفرق ، يبدو بسيطاً بين الرأي الأول والثاني ، بيد أنه كبير  
وافاصل بين آراء مختلفة في كل حقول الفلسفة والعلم .

ولذلك ينبغي أن نبين الحقّ بين الرأيين ، كي يكون لنا القدرة على اختيار  
الحق ، في القضايا المنطقية التي نحاول بحثها بإذن الله .

### الدليل إلى العقل :

ويتبين لنا الحق ، إذا استطعنا إقامة الدليل الواقعي على ثبوت العقل ، إذ  
بدونه يبقى الرأي المنافي له قائماً بدون منازع ، فما هو إذاً مدى صحة الأدلة  
المقامة على ثبوت العقل ؟ على كل فرد أن يتفكر ليعرف بذاته ودون الإتكال على  
أقوال الآخرين ، ما إذا كانت الأدلة التالية وافية وسليمة أم لا ؟

١ - معرفة الحق ، والخير ، والقدرة على إقامتهما ، رغم مخالفتهما  
للشهووات والمصالح الخاصة . هذه المعرفة والقدرة ليست فقط مما يجدها كل  
فرد في نفسه بل ويعتقد بأنهما ثابتان لا ريب فيهما .

اذهب، أنى شئت ، وقابل من أردت ، فلن تجد إلا من يسر إليك بوجدانه  
لهذه الحقيقة التي تعرفه ، وتهديه إلى الحق من جهة ، وتعطيه القدرة على الإيمان

بهما من جهة أخرى .

٢ - لا ريب أن البشر قد يقوم بشيء يخالف مصالحه لمجرد زعمه بأنه حق وخير بحيث تعجز كل التفسيرات المصلحية لعمل شخص حتى يثبت بالطريق الاستقرائي . وجود ما هو فوق المصالح ليحدوه إلى القيام بهذا العمل .

٣ - نحن في بعض الأحيان نجد في أنفسنا تنازعا شديداً لا نستطيع أن ننكره كما لا نقدر على إتخاذ موقف محدد منه . فمثلاً : عندما تمنح لنا الفرصة في إنتهاب أموال فقير ، تجدنا نندفع نحوها بدافع الشهوات ولكن سرعان ما نتراجع عنها بوازع العقل ، ووجود هذا التناقض في أعمالنا ، أو التنازع في نفوسنا ، دليل على «الثائية» في قوانا النفسية ، وإن هناك عقلاً وشهوة .

٤ - وهب أننا لا نجد تنازعا في نفوسنا . لكن هل نجد من أنفسنا القدرة على الإمتناع من إشباع شهوة ما لحظة انفجارها ؟ أنا جائع . جالس على مائدة ، وليس من مانع ولا وازع من الأكل أبداً ، فهل أستطيع بإرادتي الإمتناع عن الأكل ، أم أنا مضطراً إليه . طبعاً أنا مختار في ذلك ولوجود (اختياري) وبعد تقدير ظروفي ومصالحي أقدم على أكل الطعام . صحيح أننا عندما تتوافر كل الدواعي والقيم على عمل لا نتردد في القيام به . ولكن في ذات الوقت لا نتردد - لحظة - في أن ما نقوم به ، إنما هو بإرادتنا التي نستطيع أن نمتنع ، كما نستطيع أن نقوم بالعمل .

٥ - بهذه الإرادة نتحمل نحن مسؤولية أعمالنا ، ولا نجد أنفسنا فقط مسؤولين ، بل ونحمل الآخرين المسؤولية بصورة كاملة ، وعلماء الدين ، والقانون ، و . و . لم يكونوا ينطقون بشيء لولا إيمانهم بوجود هذه المسؤولية .

**كيف يعرف العقل ؟**

هل يعقل أن يعرف العقل بغير العقل ؟ نحن نعرف الأشياء جميعاً بعقولنا ، والتي لو لم تكن سليمة لما عرفنا شيئاً . فهل هناك شيء فوق العقل نتعرف على

العقل به ؟ إن الإنسان ليذهب بعيداً في متاهات الضلال لوبحث عن شيء فوق العقل ، ليفهم العقل به ، إذ لا وجود لهذا الشيء ، وفي حالة وجوده ، يحتاج الإنسان إلى شيء آخر ، فوَقَهُ أيضاً ليعرفه به ، فهل يعقل هذا ؟ ثم هل من المعقول أن يكشف العقل لنا حقائق الأشياء ، ثم لا يكشف عن ذاته ؟ أوليس هذا يشبه القول بأن الشمس تضيء الدنيا ، ولكنها غير مضاءة ؟ إذاً فكيف تعطي الضوء وهي لا تملكه ؟ وإن قلنا ، كل شيء في العالم معروف بنور العقل ولكن العقل لا نور له ، وإذاً فهو غير معروف . أليس هذا تناقضاً ؟ إن أولئك الذين حاولوا التعرف على العقل بغير ذاته ضلُّوا عنه . إذ لم يجدوا فيما وراء شمس العقول ، إلا الظلام والضلال . بل إن مجرد محاولة التدليل على العقل نوع من التضليل الذاتي ، اللهم إلا إذا حاولنا معرفة العقل ، من خلال أنواره التي تسقط على الأشياء ، فتضيئها ، وتكشفها لنا ، بالضبط كما نتعرف على الشمس من خلال النور المنبعث منها في الفضاء .

وهذه المعرفة هي بدورها مرتبطة بالعقل ، فمن لا عقل له لا يفهم من الحقيقة شيئاً ، ويكون أشبه شيء برجل يريد أن يبصر عينه ، ليؤمن بوجودها ، فيأخذ مرآة ، وينظر من خلالها إلى عينه ، فهل يعني هذا أنه رأى عينه بغير عينه ؟ مثلاً ، رأى عينه بأنف أو بقم ؟ كلا إنما رآها بعينه ذاتها ولكن من خلال المرأة . ولو افترضنا أن الرجل أغمض عينه ليبصرهما بعضو آخر فيه ، أفلا تكون النتيجة أنه يبقى يفتش عن عينه إلى الأبد .

كذلك الذي يحاول - مستحيلاً - أن يجد عقله بغير عقله ، ويفتكر أنه يستغني عن عقله في رؤيته له .

والعلم ليس سوى جانب الكشف في العقل ، فالعقل يضيء الأشياء ، والأشياء تُضاء به و ( لحظة الإضاءة ) تُسمى علم<sup>(١)</sup> .

---

(١) يخوننا التعبير حين نريد أن نوضح علاقة العقل بالعلم ، وقد استخدمنا كلمة اللحظة لبيان



إذاً ليست هناك ثنائية في الحقيقة بين العقل والعلم ، إنما هو نور واحد .  
إذا تحدثنا عن لحظة كشفه عن الأشياء سميناه علماً . وإذا تحدثنا عنه كشيء  
موجود وثابت سميناه عقلاً .

إذاً . . . لماذا الاختلاف في العقل ؟ لماذا اختلاف الناس في العلم  
والعقل ؟ أوليس هذا النور الذي يضيء الأشياء جميعاً ، يجب أن يكون مضاءً  
بذاته ؟ وواضحاً مميزاً مشهوراً لا ريب فيه ؟ فلماذا الجهل به ؟ ولماذا الاختلاف  
فيه ؟ الجواب :

أولاً : هناك حقائق بسيطة واضحة يجهلها البشر ليس لشيء إنما لمزيد  
وضوحها . . . حتى الشمس التي تُضرب بها الأمثال لو لم تأفل ولم يكن لها ظلال  
لاختلف الناس فيها .

أولم يختلف البشر في أمر الوجود والقدرة ، وهي الحقائق التي انتشرت  
آياتها في الآفاق ؟

ثانياً : لأن العقل هو المصدر الوحيد للمعرفة ، ولأننا معه كلما كنّا واعين .  
ولأننا لا نستطيع أن نتصور أنفسنا بدون ، إذ كلما تصورنا أنفسنا تصورناها

هذه العلاقة وهي مشتقة من مفهوم الملاحظة . أي أننا نلاحظ هذا الجانب من جوانب  
عديدة من الشيء الواحد ونستخدم هذه الكلمة فيما إذا كان للشيء الواحد جوانب مختلفة  
ويملاحظة كل جانب يختلف التعبير عنه فمثلاً : الرجل الواحد ابن وأخ وزوج وأب وجد .  
وهو رجل واحد . ولكن هذه الألفاظ تعبر عن جوانب عديدة عنه كذلك العقل هو نور واحد  
ولكن لفظ العلم يعبر عن جانب واحد من عدة جوانبه وهو جانب الكشف . والتعابير  
المستخدمة مكان (لحظة) هي (لحاظ) و (حيث) و (من) الدالة على البعضية .  
والكلمة الأخيرة هي التي جاءت في الحديث عن الرسول (ص) حيث قال (ص) : ومن  
العقل العلم .

بينما تكثر كلمة لحاظ وحيث ، في تعابير الفلاسفة حيث يقولون مثلاً : العقل علم بلحاظ  
الكشف أو العلم : حيث الكشف من العقل أو ( حيث الكشف في الإنسان هو : علم ) .

بالعقل ، فإننا لا نبحث عنه ، إنما نبحث عن شيء آخر وراءه ، وهذا هو الذي  
 يعقدنا . ذلك أن القدرة على البحث في شيء ، بحاجة إلى شرطين : أن يكون  
 الشيء مجهولاً ، وأن يُعرف بالبحث . والعقل ليس مجهولاً حتى يحتاج الى دليل  
 لأننا حين نبحث فيه فلا بد أن نتصوره شيئاً مجهولاً ، وهذا في الواقع ليس عقلاً إذ  
 العقل لا يكون مجهولاً . دعنا نبحث عن الماء ، ونحن نسيج في البحر ، إننا لا  
 بد - آنئذ - أن نضلّ عنه ، إذ طبيعة البحث تقتضي الجهل بالشيء . . . ولأن الماء  
 ليس بمجهول ، فلا بد أن نخلق شيئاً مجهولاً ونسميه بالماء ونبحث عنه .

### التنبيه سبيل العقل :

إذا ارتاب شخص هل يملك عيناً أم هو أعمى ؟

فأمامك سبل عديدة لتعرفه بأنه بصير .

أولاً : أن تأمره بأن يغمض عينيه ويلاحظ هل تختلف حاله ولماذا ؟

ثانياً : أن تذكره بأنه حين يرى الأشياء ، فلا بد أن تكون رؤيته بوسيلة ،  
 والعين هي تلك الوسيلة .

ثالثاً : أن تضع في كفه مرآة صافية ، وتدعه ينظر من خلالها إلى عينيه .  
 هذه السبل لا تختلف عن بعضها في محتواها ، الذي هو تنبيه الشخص إلى  
 عينه وتذكيره بها . كذلك العقل ، السبيل إليه هو التذكير والتنبيه بأن :

١ - : نلاحظ أنفسنا في حالة افتقادنا له ، هل نختلف عما إذا كنا واجديه ؟  
 ففي حالة الغضب الشديد ، والشهوة العارمة ، في الطفولة والشيخوخة ، في النوم  
 والغفلة ، هل نختلف حالنا في هذه الحالات عن الحالات السوية ولماذا ؟  
 إن المزيد من التنبيه الذاتي للفرق بين الحالات ، يعطينا البصيرة بعقولنا ،  
 ويجعلها تكتشف ذاتها أكثر فأكثر .

٢ - : الالتفات إلى أن الأشياء لا تعرف بذاتها ، إنما هي بحاجة إلى وسيلة

تكشفها لنا وهذه الوسيلة هي العقول .

إن كل معلومة من معلوماتنا ، وكل فكرة من أفكارنا ، آية من آيات العقل ،  
وهدي يدلنا عليه ، إذ أننا لم نجد لها إلا بالعقل ، بذلك النور الذي لم يكن فينا  
حين كنّا صغاراً ، وحين نكون مخرفين من الكبر ، وحين يذهب الغضب بحلومنا  
و . و . وبالتالي حين نجهل شيئاً بأي سبب من الأسباب .

إلا أن مجرد العلم بالأشياء لا يكفي لكي نعرف عقولنا ، إذ أننا حين نعرف  
الأشياء لا نهتم بالوسيلة التي عرّفنا عليها ، إنما تستقطب الأشياء كل إهتمامنا ،  
كمثل الذي بصر الأشياء من حوله دون أن ينتبه إلى أن عينه هي التي كشفتها له ،  
وإنه بدونها لم يستطع أن يراها ، إنما يجب أن نلتفت إلى أننا من دون نور العقل ،  
لم يكن ممكناً لنا معرفة الأشياء ، وهناك تصبح كل فكرة معلومة ، وكل حقيقة  
مكشوفة ، دليلاً جديداً على عقولنا ، ليس هذا فقط ، وإنما أيضاً إثارة للعقل من  
أجل كشف ذاته والتنبه بحقيقته حتى يتميز أكثر فأكثر من هواجس الذات ، ونتائج  
الخيال ، هكذا تكون المعارف وسيلة للحصول على المزيد منها ولكن بطريق غير  
مباشر ، إذ المعارف تهدينا إلى العقل إذا لاحظناها على أساس أنه لم تكن معرفتنا  
بها ممكنة من دون العقل وبتركيز هذه الملاحظة يفتح العقل ، ويكشف ذاته  
ويتميز عن الهواجس الغريبة . وبذلك يهتدي الإنسان إلى مزيد من المعارف ،  
ومن هنا يتجه المنهج الاسلامي إلى العقل ، ويسعى نحو ترسيخ فهمه ، لكي  
يجعل منه نقطة انطلاق لفهم الحياة . وفيما يلي نثبت نصوصاً إسلامية بذلك :

١ - اعرفوا العقل وجنده ، والجهل وجنده ، تهتدوا . وإنما يدرك الحق  
بمعرفة العقل وجنده<sup>(١)</sup> .

٢ - كان ممن أعطي العقل من الخمسة والسبعين جنداً الخير ، وهو وزير  
العقل ، وجعل ضده الشر ، وهو وزير الجهل ، والإيمان وضده الكفر ،

---

(١) الكافي مستنداً عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام .

والتصديق وضده الجحود ، والرجاء وضده القنوط ، والعدل وضده الجور ،  
والرضا وضده السخط ، والشكر وضده الكفر . . . (١) .

يبين النص جنود العقل وجنود الجهل لكي يبين الإنسان إلى نور عقله تنبيهاً  
ذاتياً ، يجعله يميز في داخله هدى العقل عن تخبط الجهل ، والشهوات .

٣ - قال أبو عبد الله - ع - اعرفوا العقل وجنده ، والجهل وجنده تهتدوا .

ثم قال : وإنما يدرك الفوز بمعرفة العقل وجنوده ، ومجانبة الجهل  
وجنوده (٢) .

٤ - جاء شمعون بن لاوي بن يهوذا (٣) من حوار ي عيسى إلى النبي (ص)  
وسأله عن العقل : ما هو ؟ وكيف هو ؟ وما يتشعب منه ؟ وما لا يتشعب ؟ وصف  
لي طوائفه كلها . فقال رسول الله (ص) : إن العقل عقال من الجهل ، والنفس  
مثل أخبث الدواب فإن لم تعقل حارت ، فالعقل عقال من الجهل ، وإن الله خلق  
العقل فقال له أقبل فأقبل ، وقال له أدبر فأدبر ، فقال الله تبارك وتعالى : وعزتي  
وجلالتي ما خلقت خلقاً أعظم منك ، ولا أطوع منك ، بك أبدأ وبك أعيد ، لك  
الثواب ، وعليك العقاب . فتشعب من العقل الحلم ، ومن الحلم العلم ، ومن  
العلم الرشd ، ومن الرشd العفاف ، ومن العفاف الصيانة ، ومن الصيانة الحياء ،  
ومن الحياء الرزانة ، ومن الرزانة المداومة على الخير ، ومن المداومة على الخير  
كراهية الشر ، ومن كراهية الشر طاعة الناصح ، فهذه عشرة أصناف من أنواع  
الخير ، ولكل واحدة من هذه العشرة الأصناف عشرة أنواع ، فأما الحلم فمنه  
عنصر ركوب الجهل ، وصحبة الأبرار ، ورفع من الضعة ، ورفع من الخساسة ،  
وتشهي الخير . ويقرب صاحبه من معالي الدرجات ، والعفو ، والمهل ،

---

(١) البحار ، كتاب العقل . عن الإمام الصادق ، ص ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١١ .

(٣) يعني كان ينتهي نسبه إلى يهوذا . وليس يعني كان يهوذا جده مباشرة .

والمعاد ، والمعروف ، والصمت ، فهذا ما يتشعب للعاقل بحلمه . وأما العلم فيتشعب منه الغنى وإن كان فقيراً ، والجد وإن كان بخيلاً ، والمهابة وإن كان هيناً ، والسلامة وإن كان سقيماً ، والقرب وإن كان قصياً ، والحياء وإن كان صلفاً ، والرفعة وإن كان وضيعاً ، والشرف وإن كان رذلاً ، والحكمة والحظوة . فهذا ما يتشعب للعاقل بعلمه فطوى لمن عقل وعلم . وأما الرشد فيتشعب منه السداد ، والهدى ، والبر ، والتقوى ، والمقالة ، والقصد ، والاقتصاد ، والثواب ، والكرم ، والمعرفة بدين أمته . فهذا ما أصاب العاقل بالرشد ، فطوى لمن أقام به على منهاج الطريق . وأما العفاف فيتشعب منه الاستكانة ، والحظ ، والراحة ، والتفقه ، والخشوع ، والتذكر ، والتفكر ، والجد ، والسخاء . هذا ما يتشعب للعاقل بعفاه ، رضي بأمته وقسمه . وأما الصيانة فيتشعب منها الصلاح ، والتواضع ، والورع ، والإنابة ، والفهم ، والأدب ، والإحسان ، والتحبب ، واجتناب الشر ، فهذا ما أصاب العاقل بالصيانة ، فطوى لمن أكرمه مولاه بالصيانة .

وأما الحياء فيتشعب منه اللين ، والرأفة ، والمراقبة معه في السر والعلانية ، والسلامة ، واجتناب الشر ، والشماعة ، والسماحة ، والظفر ، وحسن الثناء على المرء في الناس ، فهذا ما أصاب العاقل بالحياء ، فطوى لمن قبل نصيحة الله وخاف فضيحته . وأما الرزاة فيتشعب منها اللطف ، والحزم ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وصدق اللسان ، وتحصين الفرج ، واستصلاح المال ، والاستعداد للعدو ، والنهي عن المنكر ، وترك السفه ، فهذا ما أصاب العاقل بالرزاة ، فطوى لمن قر ولمن لم تكن له خفة ولا جاهلية وعفى وصفح ، وأما المداومة على الخير فيتشعب منها ترك الفواحش ، والبعد عن الطيش ، والتخرج ، واليقين ، وحب النجاح ، وطاعة الرحمن ، وتعظيم البرهان واجتناب الشيطان ، والاجابة للعدل ، وقول الحق ، وهذا ما أصاب العاقل بمداومة الخير ، فطوى لمن أصابه ، وذكر قيامه واعتبر بالفناء .

وأما كراهية الشر ، فيتشعب منه الوقار ، والصبر والنصر والاستقامة على

المنهاج ، والمداومة على الرشاد ، والإيمان بالله ، والتعرف والاخلاص ، وترك ما لا يعنيه ، والمحافظة على ما ينفعه ، فهذا ما أصاب العاقل بالكرامية للشر ، فطوى لمن أقام الحق لله وتمسك بعرى سبيل الله .

وأما طاعة الناصح فيتشعب منه الزيادة في العمل ، وكمال اللب ، ومحمدة المعاقب ، والنجاح من اللوم ، والمودة والانسراح ، والانصاف والتقدم في الأمور ، والقوة على طاعة الله ، فطوى لمن سلم من مصارع الهوى . فهذه الخصال كلها تتشعب من العقل<sup>(١)</sup> .

قبسات من حديث الرسول عن العقل :

كل الأحاديث الدينية التي تناولت العقل - فيما بينها هذا الحديث - بينت واقع الاستقلال للعقل : الاستقلال عن الطبيعة وأهوائها وشهواتها ومتغيراتها .

وركزت الأحاديث الدينية على أن العقل هو أداة حرية الانسان ، عما حوله من ضغوط وقبود وأغلال ، ووسيلة تفوقه وتعاليه ، وسيادته على ما حوله من أشياء الكون ، وبالتالي سبب تفضيل الرحمن له ، على كثير مما خلق ، وتكريمه ، وتحميلة المسؤولية الكبرى .

ولقد اختلفت تعابير الروايات الدينية عن استقلالية العقل ، إلا أن التعبير الأكثر شيوعاً ، هو هذا التعبير ، الذي جاء في هذا الحديث : إن الله خلق العقل ، فقال له «أقبل» ، فأقبل ، وقال له : «أدبر» فأدبر ، فقال الله تبارك وتعالى : « وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعظم منك » .

وقد أراد الرسول أن يبين مدى استقلالية العقل ، في الخلق والنشء ، وأنه يُخاطب وأنه يُقبل ويُدبر و . و .

ثم إن أبرز ميزات العقل هي ( الطاعة لله ) حيث قال الله تعالى له : « ما

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١١٧ - ١١٩ .

خلقت خلقاً أعظم منك ولا أطوع منك » وجاء في حديث آخر « العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان » ولكن لماذا ؟ وكيف أن العقل أداة طاعة الله عند الإنسان ؟ الواقع أن الطاعة لله تعني : التسليم للقيم المجردة التي يأمر بها الله . والقيم هي البنت الشرعية للعقل ليس إلا . ثم إن الطاعة لله تعني : التحرر عن عبادة غير الله من أشياء أو أشخاص .

والعقل - بعدئذٍ - النقطة المركزية التي تبدأ منها وتنتهي إليها أحكام الله ، وبالتالي هو المقياس و (الميزان) المستقيم الذي يقيّم الأفعال به . ويتعبّر آخر ، العقل هو المحور الثابت في متغيرات الكون ، فالأجيال تتبع بعضها بعضاً ، وصيغ الحياة تختلف ، ومظاهر الأمور تتحول ويبقى الحكم هو الحكم ، والمقياس هو المقياس . لذلك جاء في هذا الحديث « بك أبدأ وبك أعيد ، لك الثواب ، وعليك العقاب » .

ثم إن العقل هو ميزان أحكام الله - أيضاً - وكما جاء في حديث آخر : العقل رسول باطن والرسول عقل ظاهر ، مما يعكس الوحدة الكاملة بين الأحكام العقلية والقيم الرسالية .

### العقل والشخصية المتكاملة :

لكي يستثير الحديث النبوي الشريف ، أكبر قدر ممكن من صفات العقل ، وسماته ، وميزاته ، لعلنا نتنبه - من خلالها - إلى العقل ذاته .

وأيضاً لكي يبين الحديث « الشخصية المتكاملة في منطق الاسلام » شرح الحديث لنا : أهم الصفات التي تميز بها العاقل وركز على الترابط الوثيق بين سجايا الخير ، ذلك الترابط الذي يبرز - بدوره - مفاهيم عميقة ، متصلة بطبيعة الشخصية الإنسانية .

وفيما يلي نقبس من هذه المفاهيم من الحديث الشريف :

## بين العقل والحلم :

إذا كان العقل عقلاً من الجهل ، وإذا كان أبرز مظاهر الجهل هو : التسرع والطيش والفوضى والانفلات ، مما يسميه العرب بـ (الجهل) فإن الحلم سيكون أبرز مظاهر العقل لذلك ترى العرب يسمون العقل بالحلم والعقول بالحلوم . فما هو الحلم ؟ ولماذا هو الابن الشرعي للعقل ؟

الحلم هو السيطرة على النفس ، والضغط والرزانة ، والحليم هو ذلك الفرد الذي لا تتلاعب به أحداث الحياة ( خيراً أو شراً ) ولا تستفزه أقوال الناس ( مدحاً أو ذماً ) ولا تدعوه أهواؤه وشهواته إلى الإسفاف . الرضا والغضب ، السرور والحزن ، الربح والخسارة . كل هذه تبقى عنده محدودة ضمن إطاراتها ، وموجهة إلى أهدافها بدقة .

لذلك ستكون نتائج الحلم المباشرة هي ، كما جاء في الحديث ، « ترك ركوب الجهل » وبالتالي ترك الطيش والانفلات و « صحة الأبرار » لطبيعة الانسجام بينه وبينهم ، ورفع من الضعة إذ لا يفقد عقله بسبب المتغيرات السارة أو المحزنة ، و « رفع من الخساسة » و « تشهي الخير » والطموح الذي « يقرب صاحبه من معالي الدرجات » و « العفو » و « المهل » والأناة التي تأتي للحليم نتيجة عدم تأثره بالأحداث ، و « المعروف » حيث لا يحمل قلب الحليم شيئاً من الحقد ، « والصمت » إلا من الخير بالطبع .

## بين الحلم والعلم :

هل تعلم أن أخطر أعداء العلم هو الغضب والشهوة ، حيث إنهما يوتران الأعصاب ، ويفقدان الإنسان أهم شروط التفكير السليم ، وهو الإطمئنان والهدوء ؟

هل تعلم أن القلب القلق ، لا يمكنه أن يتفرغ للفهم ، ولا يمكنه أن يركز



في شيء ، ولا يقدر على ربط الأفكار ببعضها ، لكي يصنع من مجموعها علماً ، ولا يستطيع أن يلاحظ ترابط أحداث الحياة ؟

إن الحلم ( وهو كما قلنا سلفاً الترفع عن متغيرات الحياة ) هو الأب الشرعي للعلم ، لأنه يوفر المجال المناسب للتفكر ، ومن ثم للتعلم .

والعلم - بدوره - يعطي صاحبه « غنى النفس ، وسخاءها » و « مهابة الجانب » و « سلامة الروح والجسد » و « الهيمنة على الأمور عن كتب » ، و « الرفعة » ، و « الشرف » ، و « الحكمة » ، و « الحظوة » ( فلا يعثر حظ ، مع علم ) كل ذلك كما جاء في حديث الرسول (ص) .

### بين العلم والرشد :

الرشد هو الجانب العملي من العلم . وهو التطور الإيجابي ، الذي يحدث للعالم فيجعل تصرفاته منظمة وحكيمة ، وذات أهداف واضحة ووسائل قريبة .

وبالطبع سيكون من نتائج الرشد « السداد » ( التوفيق والوصول إلى الهدف بسهولة ) و « الهدى » ( إلى الحق ) و « التقوى » ( لأنها تنشأ من العلم بمواقب الأمور ) و « المنالة » ، و « القصد » ( فلا تطرف ولا تفصير ) و « الاقتصاد » ( في المعيشة ) و « الثواب » ( عند الله ) و « الكرم والمعرفة بدين الله » ( لأن دين الله هو البرنامج الواضح للرشد أو للعلم العملي ) .

### بين الرشد والعفاف :

« حب الدنيا رأس كل خطيئة » والترف عن الدنيا رأس كل فضيلة ، لا يعني الترفع عدم امتلاك الدنيا ، وإنما عدم السماح للدنيا بامتلاك الإنسان ، والسيطرة الكاملة عليه ، والعفاف هو ذلك الترفع ، ذلك الزهد المرغوب ، ذلك الصوم الداخلي ، عن شهوات الدنيا .

وإذا كان الرشد هو العلم العملي فإن (خلاصة) معارف الإنسان ستهديه إلى

أنه : أكبر وأكرم من الدنيا ، وإن الدنيا ليست الشئ الكافي لنفسه ، فالعفاف هو أبرز صفات الرشد ، وتنبثق من العفاف «الاستكانة» و ( الخضوع لله وللحق ) و « الحظ والراحة والتفقه ، والخشوع والتذكر » ( لأنه لا يشغل باله بالهموم ، التي تستقطب اهتمام الناس ) و « التفكير والجود والسخاء » .

### بين العفاف والصيانة :

حين يعف الفرد ، ويرتفع عن شهوات الدنيا ، فإن النتيجة الطبيعية لعفافه ، ستكون صيانة نفسه ، وحفظها عن الأخطار ، فمثلاً لا يرتكب الإثم ، ولا يقترب إلى الجريمة ، ولا يقوم بعمل يضر دينه أو دنياه . ويشعب للعاقل بـ (الصيانة) « الإصلاح ، والتواضع » ( لأن التكبر يأتي نتيجة الشعور بالضعفة ، والضعيف الذي يصون نفسه ، لا يشعر بالنقص أو الضعة ) « والورع » ( عما يضر جسمه أو روحه ) « والإنابة والفهم ، والأدب والإحسان والتحبب » ( إلى الناس لكي يصون نفسه من أذاهم ) « والخير » ( إلى الناس حيث أن الإحسان إلى الناس نوعاً من التأمين الاجتماعي ) « واجتناب الشر » .

### بين الصيانة والحياء :

حين تحترم الناس تنتظر منهم الإحترام ، وحين يصون الإنسان نفسه عن الناس ، يفرض عليهم مهابته وبالتالي ، يرتبط معهم بعلاقات جيدة ، هذا هو الحياء .

والرجل الحيي ينتفع بحيائه عدة منافع هي : « اللين ، والرأفة ، والمراقبة لله في السر والعلانية ، والسلامة ، واجتناب الشر » ( لأن كثيراً من الشر يأتي من الصلابة ) « والبشاشة والسماحة والظفر<sup>(١)</sup> وحسن الشاء على المرء في الناس .

---

(١) جاء في الحديث ويتكرر كلمات مثل الحظ الخطوة والظفر ، وأنصور أن المعنى واحد وهو ما يسميه الناس بـ ( التوفيق ) أو بـ ( النصيب ) والبركة و . و . بفارق هو أن الناس ينسبون هذه الصفات إلى أمور غيبية غير معروفة ، وهذا الحديث يوضح ارتباطها بأخلاقيات يتخلق المرء بها بوعي وإرادة وليس عبثاً وبلا إرادة .

## بين الحياء والرزانة :

قد يتحرك الإنسان في المجتمع وفق رؤى وأهداف يخطط لها سلفاً ، وقد يتحرك وفق ما تمليه المؤثرات المرتجلة الآنية . والرجل الأول يسمى رزيناً ، وتأتي صفة الرزانة من الحياء لأن الحياء - بدوره - آتٍ من الصيانة والرشد ، وهي الصفات التي تجعل العاقل فوق مستوى الأحداث .

إن فريقاً من الناس لا يمكنهم ، تكوين علاقات اجتماعية صائبة ، إذ علاقاتهم آتية من مواقف مرتجلة ، وحالات نفسية غير منضبطة ، بينما العاقل الذي يحتمي بحجاب من الحياء ، ويحظى باحترام الناس ، يكون علاقاته وفق مبادئه وحكمته ، فتراه متصلاً مبدئياً ، ولكنه - في الوقت ذاته - لئّن هش بش يعطي من نفسه للناس الكثير ، ولكن لا يعطي من مبادئه شيئاً .

ويستفيد العاقل من (الرزانة) أموراً أبرزها : « اللطف والحزم ، وأداء الأمانة وترك الخيانة وصدق اللسان ، وتحصين الفرج ، واستصلاح المال ، والاستعداد للعدو ، والنهي عن المنكر ، وترك السفه » ( الأعمال غير المفيدة : اللغو ، قتل الفراغات بالتوافه ) .

## بين الرزانة والمداومة على الخير :

لأن علاقات العاقل (الرزين) ناشئة مبادئه ، وغير متأثرة بآراء المجتمع ، فإنه يتعمد على الخير ، وإذا كان الشر عادة ، والخير عادة ، فلماذا لا يتعمد الإنسان على الخير .

وما هو الخير ؟ « ترك الفواحش والتحرج » ، (التقوى) « والبعد من الطيش » ، إنها جميعاً خير وينتفع العاقل بمداومته على الخير «اليقين» ( لطبيعة تأثير العمل على الفكر ) « وحب النجاة وطاعة الرحمن ، وتعظيم البرهان » ( كل ما فيه حجة على الحق ) « واجتناب الشيطان ، والإجابة للعدل وقول الحق » .

## بين المداومة على الخير وكراهية الشر :

حين يتعود الإنسان على شيء ، يستوحش من تركه ، ومن الأعمال التي تتعارض معه ، ولذلك فإن العاقل يستوحش من عمل الشر ، وما أفضله من فضيلة .

ويصيب العاقل عدة حسنات من كراهيته للشر هي « الصبر والنصر والإستقامة على المناهج ( أي على الخطة المرسومة له من قبل الله أو من وحي رسله ) والمداومة على الرشاد ، والإيمان بالله والتعرف ، والإخلاص ، وترك ما لا يعبئ ، والمحافظة على ما ينفعه » .

## بين كراهية الشر وطاعة الناصح :

حين يتحذر الإنسان من شيء ويكرهه ، يبادر إلى الفرار منه ، إذا أخبر بوجوده ، فإذا كان ما يتحذر منه إنسان هو الشر فإنه يندفع - آلياً - إلى طاعة من ينصحه باجتنابه ، إن هذه الطاعة لا تكون مفروضة على العاقل من فوق ، بل مدفوع إليها من الداخل .

والنتائج الجيدة التي يستفيد منها العاقل بطاعة الناصح هي « زيادة في الفعل وكمال اللب ومحمدة العواقب » ( إذ إنه يجمع عقول الناس وعلومهم إلى نفسه ) « والنجاة من اللوم » ، والقبول ( من قبل ، إذ المشورة ، أو طاعة الناصح ، تجمع الناس حول العاقل ) ، « والمودة والإنشراح والإنصاف والتقدم في الأمور » ( المبادرة وسبق الزمن ، إذ هذا ما ينصحه الناصح عادة ) و « القوة على طاعة الله » ( إذ يلقي التشجيع عليها ) .

## سؤال أخير :

هذه هي الصفات التي تميز بها العاقل ، والمزيد من التدبر فيها ، وفيمن

يتصف بها ، يدعنا نسأل هذا السؤال الأخير : « هل هناك شيء أوضح من العقل  
أو أكثر سناءً ؟ وكيف كنا نفتش عن مقياس يميز بين العلم والجهل وهذا العقل  
موجود عندنا ؟ !

## الثقة مفتاح العقل

الناس سواسية في العقل ، فلكل نعمة أسبغها الله على البشر جميعاً ، إنما يختلف الناس في مدى استثمارهم لها ، ولكن لماذا يستثمر البعض عقولهم ويتركها آخرون ؟ هناك عوامل عديدة تنبع من عامل واحد أساسي هو « الشعور بالضعف » . إذ إن هذا الشعور يُفقد صاحبه الإيمان بذاته ، بقدراته ، بإمكانية مقاومته الضغوط من حوله . وحين يفقد الإنسان إيمانه بنفسه ، لا يبقى منه إلا قشرة خاوية ، ، إذ ما قيمة قدرة لا يعترف صاحبها بوجودها .

مثلاً ، ما قيمة ثروة يمتلكها شخصٌ دون أن يعرف أنها له ؟ وما قيمة سلطة لا يعترف صاحبها بها ؟ إن البشر مزود بنور العقل ، بالقدرة على كشف الحقائق ، بإمكانية النفاذ إلى خبايا الحياة ، ولكنه لا يتفجع بها من دون إيمان بوجودها .

لذلك ترى أن من تأخذهم هيبة البحث عن حقيقة معينة لا يستطيعون كشفها ، إذ إنهم حكموا على أنفسهم - سلفاً - بالعجز والفشل ، والذين تمتلكهم هيبة العلماء السابقين عليهم ، يستحيل عليهم فهم أي شيء جديد ، إذ إنهم لا يؤمنون بأي اكتشاف ذاتي يتوصلون إليه .

والأجيال التي تعبد جيلاً سابقاً ، وتعتقد أنه وصل إلى قمة العقل والمعرفة ، تبقى - هذه الأجيال - في أحوال الجهل لأنها تفقد الثقة بقدرتها على

فهم أي شيء لم يفهمه ذلك الجيل السابق<sup>(١)</sup> .

ولا تكفي الثقة بالعقل ، بل يجب أن يثق الإنسان بكامل قدراته ليستطيع استثمار عقله ذلك لأن ضغوط الحياة المادية تُفقد الإنسان استقلاله في التفكير والسلوك ، تُفقد حريته في القرار .

السلطة الطاغية التي تستعبد الناس بقوة الحديد والنار ، وتختار لهم سلوكاً معيناً تفرضه عليهم ، هذه السلطة تفقد الإنسان شعوره بالاستقلال والحرية وتجعله لا يفكر إلا في اختيار ما يرضي تلك السلطة .

والمجتمع المحافظ الذي يرمي المخالفين له بأنواع التهم وينبذهم عن نفسه ، هو الآخر يفرض على البشر نوعاً خاصاً من التفكير ، والسلوك ويفقده حرية القرار ، وبالتالي حرية التفكير والمعرفة .

كذلك النظام الإقتصادي الذي يسوق الناس إلى سبيل معينة ، ولا يسمح لهم بتجاوزها ، أمام ضغوط هذه الأغلال يتوقف الفكر ولا يُستثمر العقل .

ولكن ، هل تُفقد هذه الضغوط حرية الإنسان حقيقة ؟ هل تجعله لا يقدر أبداً على تغيير وضعه ؟ هل تسلبه امكانية التمرد والثورة والتضحية والإصلاح ؟ كلا إذ إن الله أكرم عباده بالحرية ، وأعطاهم القدرة الكافية للدفاع عنها . . فالشعب المضطهد يستطيع تحطيم عرش السلطة الطاغية ، والجيل التقدمي قادر على التمرد ضد جيل التخلف ، والمجتمع يتمكن من تغيير النظام الذي لا يناسبه ، وتطورات التاريخ شواهد على هذه الحقيقة .

أقول الإنسان قادر على المحافظة على حريته شريطة أمر واحد ، هو الإيمان بذاته ، الإيمان بأنه قادرٌ على التمرد ، والثورة والتضحية والإصلاح ، وله من الإمكانيات ما تحقق ذلك ، إذ القضية ليست قضية وجود إمكانيات ، إن

---

(١) في عدة مناسبات بيّنا العلاقة الوثيقة بين العلم والثقة .

طاقات الإنسان لا تحد ولا تنتهي إنما هي قضية الإيمان بهذه الطاقات والثقة بها ، كما أن القضية ليست في تطلع الإنسان إلى تحقيق الحرية والاستقلال ، إذ أن هذا التطلع هو أسمى فطرة رَكَّزها الله في طبيعة البشر ، لا تحد ولا تنتهي ولو بلغ الإنسان الثريا لـ (تَطْلُع) إلى نجمة أرفع . . . ولو أوتيَ ملك الدنيا لـ (تَطْلُع) إلى ملك الآخرة . . . ولو وهب خزائن الأرض لأمسك خشية الانفاق ، وحباً في المزيد ، وليس من بشر يتنازل عن حريته طوعاً ، ولكن يكره إكراهاً يسلبه إيمانه بذاته ، وثقته بقدرته على ممارسة حريته . فالقضية - إذاً - قضية ثقة ، ومن هنا كان الطغاة يسعون أبداً إلى إشعار ضحاياهم - من الشعوب - أنهم لا يقدرّون على مقاومتهم ، إذ بمجرد وجود هذا الشعور ، يستسلم الإنسان لواقعه الفاسد ، فكراً وسلوكاً .

ومفتاح الأمر آتِذْ ( في الثقة ) إذ أنها تدفع الإنسان إلى تفجير طاقاته ، واستغلالها في مقاومة ضغوط الطغاة .

وإذا تخلّص الإنسان من خشية الطغاة ، استعاد حريته ، واستثمر عقله ، وملك حياته واستقلّله .

### التوكل : ثقة لا تحد :

ويبقى السؤال الكبير : من أين نكتسب الثقة بالإيمان بالله ، والتوكل عليه . وكيف ؟ حين نؤمن بأنه ربّ السماوات والأرض ، ربّ العالمين ، بيده ملكوت السماوات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كلّهُ ، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، يعزّز من يشاء ويذلّ من يريده ، ينصر عباده بالغيب ، ينصر من ينصره ، ويحب من يحبه ، ويتوكل عليه ، ويعين من يستعين به .

وحين نعرف أن الله واسع لا تحد عطاه العطايا . حين نؤمن بالله إيماناً حقيقياً<sup>(١)</sup> ، ونعرف أن الله عليهم حكيم ، وليس بظلام للعبيد ، لا يمنع ولا يعطي

---

(١) يصف الإمام علي عليه السلام ربه فيقول : الحمد لله الذي لا يفره المنع ، ولا يكديه



اعتباطاً وعبثاً إنما بقدر مؤهلات الفرد ذاته ، قدر إيمانه وعقله وعمله الصالح ، حين ذاك ، تتفجر ينباع الخير في الإنسان . إذاً شروط التحرر والتقدم موجودة عند الإنسان ، فالتطلع فطرة راسخة عنده ، والوسيلة لتحقيق التطلعات موجودة عند الله ، والشرط الذي يحقق الوسيلة ، موجود عند الإنسان الإيمان والعمل ، من هنا نعلم أن التوكل على الله يعطينا الثقة بمواهبه فينا ، بنعمه علينا . وبالتالي بقدرتنا على مقاومة الضغوط أيّاً كان نوعها .

### ضغوط الجبت من هوى وشهوات

ضغوط الطاغوت ، من سلطة متجبرة ، أو مجتمع فاسد ، أو مصلحة آنية .

والقرآن الكريم - كتاب العقل والحرية - لا يأمر بالتوكل فحسب ، بل ويقصّ علينا عبراً من حياة المتوكلين على الله ، الذين قاوموا - بسلاح التوكل - ضغوط الجاهلية فانتصروا عليها . وبين القرآن - من خلال هذه القصص حقيقة أخرى ، هي أن الحرية وحدة لا تتجزأ ، فليس هناك حرية فكرية ، دون حرية سياسية ، ولا حرية علمية ، دون حرية اقتصادية ، ولا حرية دينية ، دون حرية اجتماعية .

وحين يُنال من حرية في حق ، فإنما يهبط مستوى الحرية في سائر الحقول أيضاً ، وحين أرادت رسالات الله الحرية للإنسان ، لم تجزئها إلى حرية دون حرية ، بل تحدثت عنها واحدة واحدة وسعت إلى ترسيخها في فطرة البشر جميعاً .

---

الإعطاء ، إذ كل معط متقص ، سواء ، المليء بفوائد النعم ، وعوائد المزيد ، وبجودة ضمن عيالة الخلق ، فانهج سبيل الطلب للراغبين إليه ، فليس بما سئل أجود منه بما لم يسأل . وما اختلف عليه دهر فتختلف منه الحال ، ولو وهب - ما تنفست عنه معادن الجبال ، وضحكت عنه أصداف البحار ، من فلز اللجين ، وسبائك العقبان ، ونضائد المرجان - لبعض عبيده ، لما أثر ذلك في جوده ، ولا أنفذ سعة ما عنده ، ولكان عنده من ذخائر الافضال ما لا ينفده مطالب السؤال ، ولا يخطر - لكرمه - على بال ، لأنه الجواد الذي لا تنقصه المواهب . البحار ، الجزء ٤ ، ص ٢٧٤ .

إنما جعلت رسالات الله ، حرية الفكر باباً لسائر الحريات ، وجعلت مفتاحه الثقة بالله والتوكل عليه .

نصوص اسلامية في التوكل :

دعنا نتلو القرآن لتتدبر في آيات التوكل .

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه ، لنخرجنك يا شعيب ، والذين آمنوا معك من قريتنا أو لنعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين ﴾ [ ٨٨ / الأعراف ] .

﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم ، بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها ، إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علماً ، على الله توكلنا ربنا افتتح بيننا ، وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين ﴾ [ ٨٨ - ٨٩ الأعراف ] .

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ [ ٩١ / الأعراف ] .

﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم ، أن يفتنهم وإن فرعون لعالٍ في الأرض ، وإنه لمن المسرفين ، وقال موسى يا قوم إن كنتم آمستم بالله . فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا على الله توكلنا ، ربنا لا نجعلنا فتنه للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ [ ٨٣ - ٨٦ / يونس ] .

ثم قال ربنا في نهاية القصة : ﴿ ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات ﴾ [ ٩٣ / يونس ]

إن عشرات العبر يقصّها علينا القرآن الحكيم ، من حياة المؤمنين الذين حافظوا على حريتهم ، ضد الطغاة وهي جميعاً تسير في خط واحد هو :

١ - الإيمان بالله ، والتوكل عليه ، والصبر على الشدائد .

٢ - مقاومة الطغاة بعنف .

٣ - الانتصار عليهم انتصاراً نهائياً .

ومن هذا المنطلق يأمرنا ربنا بالتوكل في عشرات الآيات ، ليزيل هاجس الخوف من فؤاد الإنسان ، ويطلق قواه لمقاومة الظالمين ، والمحافظة على حريته الكاملة ، وفيما يلي نثبت بعض الآيات .

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [ ٥١ / التوبة ] .

﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ [ ١٥٩ / آل عمران ] .

﴿ وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [ ١٠ / المجادلة ] .

﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ [ ١٥٩ / آل عمران ] .

﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله ﴾ [ ٤٨ / الأحزاب ] .

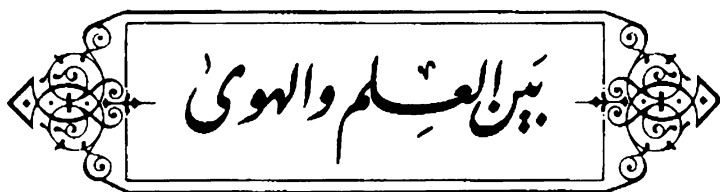
كلمة الخلاصة : لا يستثمر العقل إلا بالثقة ، والثقة بالذات ، والإيمان بالحرية ، وبالقدرة على المحافظة بها ، ولكن هذه الصفات لا توجد إلا بالتوكل على الله لأنه مفتاح الثقة ، وشرط لاستثمار الإنسان عقله<sup>(١)</sup> .

---

(١) يقول الإمام علي عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام : ( فليكن طلبك لذلك بتفهم وتعلم لا بتورط الشبهات وعلو الخصومات وابتداء قبل نظرك في ذلك بالاستعانة بالله عليك والرغبة إليه في توفيقك ) . ( البحار ، ج ٧٧ ، ص ٢٠٢ ) .

القسم الثاني  
عن أصول المنطق الاسلامي

البحث السابع عن الحقيقة :



- بين العلم والشهوات .
- الحق والعدل .
- الانسان بين الهوى والعلم . مفارقة الهوى عن العلم .
- شهوات الهوى .
- لا . . لاحتياجات الهوى .
- بين العلم والقطع .



## بين العلم والشهوات

العلم هو إحاطة الفكر البشري بالحقائق ، بحيث تظهر له وتنكشف أمامه بوضوح وتميز ، وهو قد يوافق الشهوات ، وقد يخالفها . ويتعبّر أفصح قد يعي الإنسان ما يحبه ، كعلمه بربح تجارته ، وقد يعلم ما يكرهه كعلمه بكسادها ، وسواءً خالف أو وافق العلم الشهوات ، فإنه مختلف عنها في مركز إشعاعها . إذ العلم من العقل ، والشهوات من القلب ، وتتأثر الشهوات بالظروف المتطورة ، دون العلم ، فحبك لصديقك قد يزول ، بينما علمك بوجوده يكون لا يزال موجوداً . وبالرغم من وضوح الفرق بين العلم والشهوات ، إلا أن مهبط النفس الواحد ، قد يسبب في تداخلهما بحيث يذهب العلم ضحية الشهوات ، فيستصعب على الإنسان تصديق ما يبغضه . فمثلاً : النبأ المفاجيء بموت صديق حميم لا يصدق المرء ويحاول - جهده - أن يؤوله بصورة أو بأخرى .

وهذه الحقيقة نسميها ( بالخداع الذاتي ومعنى خداع النفس أن يقدم الإنسان بمحض مشيئته ، بمنع تسرب الحقيقة إلى دماغه . ويتم ذلك - عادة - بالطرق التالية :

١ - إغلاق منافذ النفس المطلّة على الواقع الخارجي . . كأن يغض المرء عينه عن مطالعة كتب العلم . ويسد سمعه عن مداورة أحاديث المعرفة . وينأى

عن ملامسة حقائق الأشياء .

٢ - تركيز النظر في الباطل ، دون الحق ف «يستحوذ» الضلال على الفكر ولا يدع مجالاً لتسرب نور الحق إليه ، ذلك لأن للإنسان قلباً واحداً إذا توجه تلقاه الحق عمي عن الباطل ، وإن تولى صوب الباطل عمي عن الحق .

٣ - بسبب من مزيد التوجه إلى الباطل ، يتشبع الفكر بأدلة الباطل . وبراينه ، وتنسجم النفس بها ، حتى يبدو الحق في قبالها خالياً من الحجة وبعيداً عن الواقع ، ولذلك حين يسمع الفرد بعض الحجج الحق ، تبدو عنده واهية وسخيفة ، وبالتالي غير قابلة حتى لمجرد التفكير في صحتها .

### بين العلم والشهوات :

ليس من ريب في أن الدوافع النفسية قد تسير باتجاه الحقائق الواقعية ، فلا تحدث أية مشكلة ، وقد تسير باتجاه معاكس فتنشأ المشاكل .

فمثلاً الدافع الحيوي (البيولوجي) إلى الطعام ، والذي يتحول إلى دافع نفسي (سيكولوجي) مما نسميه (شهوة الطعام) ، هذا الدافع ، يسير باتجاه العلم ، بمكان الطعام ، وسبيل الوصول إليه ، وكيفية التهامه . و . و . لذلك لا نجد مشكلة نفسية في تعلم هذه الأمور أو تعليمها ، فحتى الطفل الرضيع يقدر على معرفة حقيقة هذه الأمور ببساطة وسرعة . ولكن العلم بحقيقة العدل في اختيار الطعام الحلال الطيب ، وكيفية بلوغه ، ونوعية تطبيقه ، يتعارض مع مجموعة دوافع (بيولوجية) وشهوات (سيكولوجية) فيصعب الوصول إليه ، إن العدل يفرض علينا الالتزام بحقوق الناس والتوازن في العمل بحقوقنا ، وذلك مما تخالفهما الشهوات العارمة التي تريد أن نفرط في إشباعها أيما إفراط .

### أهمية الحق والعدل :

لذلك يكون من المستصعب حقاً معرفة العدل ، ويختلف فيه الناس اختلافاً كثيراً . ولا ننسى أن الشهوات شيء والمصالح شيء آخر ، فليست المصلحة

دائماً تفرض علينا اتباع الشهوات حتى النهاية ، بل قد تكون المصلحة في كبحها ، أو تحديدها ، كالمبتلي بمرض السكر تفرض عليه شهوة الطعام تناول الحلويات بوفرة ، بينما تمنعه مصلحته من ذلك .

وليس من شيء أنفع للبشر من الحق والعدل وأقرب إلى مصالحه ، ولكن هل يعقل الإنسان ذلك ؟ أم أنه لو عقل هل يترك اتباع الشهوات ؟ كلا لأن الإنسان ابن الشهوات ، وقليل من الناس يرتفعون إلى مستوى مصالحهم ليقبسوا أمورهم بميزاتها ، ويسعون لتحقيقها ولو عارضت الشهوات العاجلة . ومن هذا القليل فريق كبير يخطيء في معرفة المصلحة الحقيقية له ، فيزعم أنها تتعارض مع الحق والعدل ، وبشكل من الأشكال ، ولذلك يصعب عليه هو الآخر أن يسعى في سبيل معرفة الحق والعدل ، وأن يجهد من أجل بلوغهما أو تطبيقهما ، وأقل منهم أولئك الذين استهدفوا مصالحهم ، لا شهواتهم ، وعرفوا تماماً أنها تركز حول الحق والعدل ، إن هؤلاء فقط يقدرون على متابعة بحوثهم الرامية إلى معرفة الحقيقة والوصول إليها ، لأنهم - فعلاً - مسلمون لها مقتنعون بجودها . والخلاصة أن الناس على ثلاثة :

١ - ابن الشهوات العاجلة .

٢ - ابن المصالح غير العارف بموضعها .

٣ - ابن المصالح العارف بأنها تتمثل في الحق . والأول والثاني يخطئان ، ويصيب الثالث الحقيقة لأنه لا يجد في البحث عنها أية صعوبة نفسية بل تدفعه إلى ذلك بواعث ودوافع كثيرة .

الإنسان بين العلم والهوى :

فكرة المنطق الإسلامي الأساسية ، التي تنفرع عنها رؤى الإسلام في المنطق ومناهج البحث ، تلخص في أن الهوى (الشهوات) - (الغضب) يمنع العلم ، ومخالفة الهوى ، وسيلة لمعرفة الحق ، وأن الإنسان لا يترك العلم والحق



إلا لإتباع الهوى . ولكي تتوضح هذه الفكرة لا بد أن نتحدث عن ثلاث حقائق :  
معنى الهوى ، والنصوص التي تحدثت عنه ، وعن الحالات التي يتبع الهوى  
فيها ، وأخيراً عن أن الهوى ليس حتماً ، وإن اتباعه أو عدم اتباعه ، يخضع لإرادة  
الإنسان الحرّة .

### مفارقة الهوى عن العلم :

الهوى يعني الحب ، وهوى النفس يعني : حبّ الذات وأهواء النفس  
هي : شهواتها ، طبائعها ، غرائزها ، ميولها الفطرية والتربوية .

والعلم هو معرفة الحق . والحق والشهوات قد يلتقيان في أمرٍ واحد كما إذا  
كانت المصلحة في اتباع الحق ، ولكنهما يفترقان كثيراً .

فليس كل إنسان يهوى الحق ، ويشتهي العمل به في كل وقت . إنما كثيراً  
مناً يهوى الباطل ، إننا نشتهي الخلود في الدنيا وليس حقاً ، إنما الموت - الذي لا  
نحبه ولا نشتهي - هو الحق .

والإسلام اعتبر الحق منطلقاً والهوى منطلقاً وأراد للإنسان أن يتبع الحق ،  
وينبذ الهوى ، إذا كان الهوى يخالف الحق . لأنه أيضاً يخالف العلم - آتئذٍ -  
وهكذا اعتبر الإسلام الهوى سبباً لتكذيب الأنبياء . ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا  
تهوى أنفسكم استكبرتم ﴾ [ ٨٧ / البقرة ] .

واتباع الظن ، والذي لا يعدو أن يكون أهواءاً - النفس - هو الذي أردى  
بالبشر فجعلهم كفاراً ومشركين .

﴿ إن يتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ [ ٢٣ / النجم ] .

والعدل كما الحق لا يمكن تطبيقه إلا بمخالفة الهوى .

﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ [ ١٣٥ / النساء ] . وحين بعث الله نبيه  
داود وجعله خليفة على الناس . أمره بمخالفة الهوى لأنها طريق العمل بالحق :

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ ٢٦ / ص ] .

ورسالة الرسول (ص) بنيت على الوحي لا الهوى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ [ ٣ - ٤ / النجم ] . ونهى الله عن الطاعة لمن يتبع هواه . لأنه يتبع الباطل ولأنه قد غفل وابتعد عن عقله : ﴿ وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْلَانَا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطُأً ﴾ [ ٢٨ / الكهف ] .  
والذي يتبع هواه فإنما هو مشرك . إذ أنه يعبد هواه .

﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [ ٤٣ / الفرقان ] .

وأهواء الناس ضلالات يجب مجانبتها .

﴿ قُلْ لَا أَتَّبِعْ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [ ٥٦ / الانعام ] والهوى يُخالف العلم ، ولا يمكن أن يجمع الانسان بين اتباع الهوى ، واتباع العلم ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [ ١٢٠ / البقرة ] .  
﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [ ٤٨ / المائدة ] .

واتباع الحق يصلح الأرض ، أما إتباع الهوى فإنه يفسد الأرض والسماء لأنه باطل . ﴿ وَلَوْ أَتَّبِعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [ ٧١ / المؤمنون ] .

والذين لم يستجيبوا للرسول ، فإنما كان بسبب واحد فقط ، هو اتباع أهواءهم إذ أنه السبب الوحيد لمخالفة العلم .

﴿ فَلِئِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [ ٥٠ / القصص ] .

أما ضلالة الناس ، كثير منهم ، فإنما هي بسبب اتباع الهوى ، وعدم العلم ، ﴿ وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [ ١١٩ الانعام ] .

وجاء في الحديث : أوصى الله لداود : « حذر وأنذر أصحابك عن حب الشهوات ، فإن المعلقة قلوبهم بشهوات الدنيا ، قلوبهم محجوبة عني . . » وجاء في رواية ماثورة : « وإذا حيرك أمرك لا تدري أيهما خير ، وأصوب ، فأنظر أيهما أقرب إلى هواك فخالقه ، فإن كثير الثواب في مخالفة هواك . . » وجاء في حديث آخر : « وأكثر الصواب في خلاف الهوى ، وإن الطمع مفتاح الذل واختلاس العقل والذهاب بالعلم . . » .

### شبهات الهوى :

إذن ، اتباع الهوى يعني : اتباع ما يحبه الإنسان ويشتهي . ولأن شهوات الإنسان تختلف ، فإن موارد اتباع الهوى تختلف هي الأخرى ، والسؤال : ما هي شهوات الإنسان ؟ وبالتالي ما هي أهواؤه ؟<sup>(١)</sup> : شهوة الخلود ، شهوة الراحة ، شهوة الأمن والسلامة ، وأخيراً شهوة الملك والسيطرة . . . هي جميعاً شهوة واحدة هي ( شهوة الحياة ) وهي أعمق شهوة في النفس البشرية ، لأنها صور لهوى النفس ، في أوضح وأصدق حالاتها . شهوة الطعام والمسكن واللباس . شهوة الأولاد وحس التكيف مع البيئة . حس التكيف مع المجتمع ، والاستسلام لضغوط السلطة ، كل هذه صور أخرى وإن كانت باهتة - أحياناً - عن شهوة الحياة .

---

(١) هنا يجب أن نضع ملحوظة ضرورية هي أن الهوى والحب هما حالتان للنفس البشرية تختلفان كثيراً .

فاللهوى هو حب الذات ، وحب أي شيء يخدم الذات مباشرة أو غير مباشرة فمثلاً : حب الحياة ، وحب الراحة ، وحب الأكلات الشهية ، وحب النساء ، وحب المال ، والسلطات ، إنما هي مرجعها جميعاً حب الذات ، إذ كلها تخدم الذات مباشرة ، أو غير مباشرة .

بينما الحب هو : الرغبة في الغير دون أن يرتبط بالذات ، فحب الخير وأهله وحب المبدأ ، وحب الوطن و . و . إنما هو الرغبة في كل أولئك دون أن يعتبر فيها حب الذات ، وهكذا يكون الحب عطاء والهوى أخذ .

إذ لا يخضع الفرد لتوجيه المجتمع ، إلا لأنه يخشى من عقوبته المتمثلة في متعة ضرورات حياته ، ولأنه يحب حياته فهو أيضاً يحب ما يحافظ عليها من ضرورات ، وما ترتبط به هذه الضرورات من التكيف مع البيئة أو مع المجتمع .

وحين يخضع الإنسان للمجتمع ، أو للبيئة ، أو للسلطة ، تخضع كل مناحي حياته معه وفي طبيعتها فكره . ولذلك فإنه يدفع بفكره باتجاه التوافق مع المجتمع والاستسلام لتوجيهاته ، وكذلك باتجاه الخضوع للسلطة<sup>(١)</sup> .

إذاً ، حب الذات ، أو بتعبير أفضل ( هوى النفس ) ، هو وراء كل أسباب الخطأ في الإنسان ، ابتداءً من الأسباب النفسية والتقاليد ، وانتهاءً بالأسباب الطبيعية ، مروراً بالأسباب الاجتماعية والاقتصادية - كما نتحدث عنها في المستقبل إن شاء الله - وبالرغم من أن صور الهوى تختلف من شهوة الخلد والملك وشهوة الراحة والأمن إلى شهوة الطعام والمساكن و . و .

بالرغم من ذلك ، فإنها تعود إلى أصل واحد هو حب الذات ، أو هوى النفس<sup>(٢)</sup> . وحين يفضح الإنسان ، مدى ارتباط هذه الشهوات ، وما ينبع منها من أفكار خاطئة ، مدى ارتباطها بالهوى ، تفقد الأخطاء خلفيتها وتنهار ، إذ لا يرتاب الإنسان في أن الفكرة الناشئة من حب الذات ، لا رصيد لها من الواقع إذ لا بد أن تنشأ الفكرة من الواقع الخارجي ذاته ، لا من مصلحة ذاتية مباشرة أو غير مباشرة .

وهكذا يسير المنطق الإسلامي ، طريقاً مستقيماً ، ومختلفاً عن سائر الطرق في إزالة أسباب الخطأ من حياة الإنسان ، ذلك الطريق هو التوجيه إلى السبب الرئيسي لكل الأخطاء ( هوى النفس ) وفضح علاقة كل الأفكار الخاطئة بهذا السبب .

---

(١) سوف نتحدث طويلاً عن أن من أهم أسباب الخطأ هو الخضوع للمجتمع أو للآباء أو التكيف مع البيئة .

(٢) لعل القرآن حين يقول هوى النفس يعني حب الذات ، وحين يقول أهواء النفس يعني : شهواتنا .

## لا لاحتِمِيات الهوى :

ويبقى سؤال : هل الإنسان مضطر لاتباع هواه ؟

بلا تردد كلا . . . هل الذي يشتهي طعاماً مكروه على أكله ، أم قادرٌ على نبذه ؟! وهل الذي يشتهي التمتع بامرأة جميلة ، تسلب منه حرية القرار ؟! بالطبع ، إن حرية الإنسان تبقى معه في كل الظروف مهما كانت شديدة الضغط ، وبما أن الحرية موجودة فإن قدرته على معرفة الحق موجودة هي الأخرى ، فإن الذي يتبع هواه ويكيف نفسه مع مجتمعه ثقافياً ، يستطيع أن يقف لحظة ويفكر : لماذا أنا أعتقد بهذه الأفكار لأنها صحيحة ؟ أم لأنها أفكار مجتمعي ؟ بالطبع إنه يخادع نفسه في البداية ، خشية التعرض لعقوبة المجتمع ، ولكن إذا استمر في التحدي ، وفكر جيداً استطاع أن يفهم الحقيقة ، حيث أنه راح يقارن بين هذه الأفكار ، وبين أمثالها من الأفكار كيف أنه يعتقد بتلك ويرفض هذه ؟! مع أننا جميعاً نشترك في القوة الاقتناعية ؟ إن العادة ، والاسترسال ، والخوف من التغيير ، والسلبية أمام ضغوط الشهوات ، هي التي تمنع الناس من إعادة النظر في كيانهم الثقافي ، وتقييمه من جديد ، وبالتالي رفض كل باطل فيه .

## بين العلم والقطع :

« إلى أن تبلغ نسبة الاحتمالات الإيجابية ٤٩ ٪ تكون القضية وهمية ، فإذا صعدت إلى ٥٠ ٪ صارت مشكوكة ، وإذا تجاوزتها صارت ظنية ، إلى أن تصل إلى ٩٩ ٪ وبعدها ، أي ١٠٠ ٪ ، تكون القضية قطعية ، وهي درجة الإطمئنان الكامل . وبالتالي العلم الحق » . هذه النظرية مرفوضة في المنطق الإسلامي الذي يرى أن صعود الاحتمالات إلى مستوى ١٠٠ ٪ ممكن في العلم والجهل معاً . . . أي فيما إذا كان اليقين صحيحاً أو باطلاً ، وعلى هذا فليس من الصحيح أن صعود الاحتمالات النفسية يكون دليلاً على اقترابنا من الحق ، وهبوطها دليلاً على العكس بل أن ما يوافق الحق علم وما يخالفه جهل وظن وإن صعدت نسبة

احتمالاته عند الشخص إلى ١٠٠٪<sup>(١)</sup> . . . ويقول المنطق الإسلامي إن النفس البشرية تتنازعها قوتا العقل والشهوات وتؤثر كل واحدة فيها ، وتعطي كل واحدة منها درجة الاطمئنان عندها بالنسبة إلى القضايا . فحبنا لشخص قد يدعونا إلى تصديق نبأ قدومه قبل أن نصدق نبأ مجيء من نبغضه . إذ الحب يساعد على صعود نسبة الإحتمالات .

فإذا افترضنا أن الحب كان شديداً ، فأثر على النفس في ازدياد نسبة الإحتمالات الإيجابية ، فهل يعني ذلك أننا توصلنا للحق ؟

إذاً ، هناك فرق في ازدياد الإحتمالات لتبلغ درجة ١٠٠ ٪ والذي يسمى بالقطع ، وبين العلم الذي - حتى إذا كانت نسبة احتمالاته أقل من المائة - فإنه يكشف عن الحقيقة لأنه يطابق أبداً الواقع الحق<sup>(٢)</sup> . . .

ويبقى السؤال التالي : حتى الآن كنا نتصور أن المقياس الذي يميز العلم عن الجهل هو وصول الإحتمالات الإيجابية إلى درجة المائة بالمائة وكما نقولون ليس هذا المقياس صحيحاً في المنطق الإسلامي فما هو المقياس الصحيح ؟

(١) يعبر القرآن الحكيم عن الاعتقاد بالأنكار الباطلة بالظن حين يقول : ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرادكم ﴿ (٢٢ - ٢٣ / فصلت) ﴿ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ (٣٢ / البقرة) ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ﴾ (٢٨ / المائدة) ﴿ وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ (٢٤ / البقرة) ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ (١٥٤ / آل عمران) .

(٢) يقول العلامة الوالد محمد كاظم المدرسي ، في كتابه المخطوط عن العلم : وظاهر أن اليقين ( وهو يقصد به القطع ) ليس يعلم بالذات ( إذ اليقين ليس سوى صورة راسخة في الذهن البشري والصورة ليست علماً ) فإن الصورة النفسية ، ولو فرض مطابقتها للواقع ، ليس حيث ذاتها الكشف ، بل طريق للمماثلة فليس برهان ومحجة بالذات ، ولا يجوز الإنكال عليه عقلاً لعدم امتنازية المطابق منه للواقع عن المخالف له .

الجواب : لا تصدر الفكرة إلا من واحدة من القوتين المتنازعتين في النفس ، أما العقل وأما الهوى ، ولا يمكن أن توجد فكرة من دون علة أو مصدر . فإذا كانت الفكرة ناشئة من العقل ، كانت علماً وإذا كانت من الهوى كانت ظناً ( وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ) ولكن كيف تتميز الفكرة الناشئة عن أحدهما ؟

أولاً : بالتأمل الذاتي ، الذي يعني توجيه سلسلة من الأسئلة الداخلية : كيف اعتنقت هذه الفكرة ؟ ولماذا ؟ وهل أرفضها في ظروف معينة مثلاً ؟ هل أرفض فكرة الرأسمالية إذا أصبحت عاملاً أم لا ؟ . . . وهل استسلمت للفكرة نتيجة ضغط معين ؟ أم اطمأنت بها من دون ضغط ؟ . . . إن لحظة واحدة من التأمل الذاتي كفيلة بفضح خلفيات الفكرة ومنشئها .

ثانياً : الفكرة وليدة الهوى ، متغيرة وفق متغيرات الهوى ، يخبو وهجها ، وتقل احتمالاتها إذا ضعف الهوى ، وتتغير كلية إذا تغير ، ثم تعود إذا عاد . فمثلاً الشعب الذي يعتنق الأفكار استجابة للسلطة ، رغبة أو رهبة ، تتغير أفكاره كلما تغيرت السلطة وتضعف أفكاره كلما ضعفت السلطة . والفرد الذي يستوحي أفكاره من واقع الطبيعة التي ينتمي إليها ، بروجوازية أو بوليتارية أو بيوقراطية ، تتغير أفكاره كلما تغير موقعه . فيوماً يكون مؤمناً بالرأسمالية ، ويوماً بالاشتراكية ، ويوماً بالحرية ، ويوماً بالدكتاتورية . و . و . عن هذه الحقيقة يقول القرآن الحكيم :

﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾<sup>(١)</sup> وأتبع هواه ، وكان أمره فُرطاً ﴿ [ ٢٨ / الكهف ] يبين القرآن أن اتباع الهوى يتسبب في فوضى أمور الإنسان ، لأنها لا ترسو - آتئذ - على قواعد ثابتة .

---

(١) تحدثنا - سابقاً - عن أن « ذكر الله » و « الثقة بالله » و « التوكل على الله » هي مفاتيح لفز العقل ووسيلة استثارته واستثماره .

ثالثاً : والفكرة ( ناشئة العقل والعلم ) تتميز بخصائص كالتالية :

أ - بأنها ثابتة جازمة لا تقبل الريب إذ إن ذاتها الكشف ومشاهدة الواقع ومباشرة وجدانه ، وكيف تجدُ النفس الواقع ثم تتشكك فيه ؟

ب - وهي شاملة لا تخصص ، فإذا كانت الرذيلة قبيحة عند العقل ، فلن يكون هناك فرق بين الناس الذين تصدر منهم الرذيلة ، أن يكونوا من الكبراء أو من المستضعفين ، من عرق أو آخر ، في عصر أو آخر .

ج - إن أحكام العقل تتفق عليها عقول الناس جميعاً .

فالعقل هو العقل عند أي إنسان كان ، ولذلك فهو حجة بين العباد - كما جاء في حديث مأنور - دعنا نذهب أتى شئنا فسوف لا نجد الفضيلة في الخيانة والنفاق ، وإيثار النفس على الآخرين كما لا نجد الرذيلة في التضحية والإباء والشجاعة والكرم .

رابعاً : لا تتطور أحكام العقل بتطور الأوضاع الاقتصادية أو الاجتماعية أو الفسيولوجية ، لأن أحكام العقل كاشفة عن الواقع كما تكشف المرأة عن الأشياء . فكما أن تطور الأشياء لا يغير من كشف المرأة ، بل تظل المرأة ثابتة ، كذلك تطور الحياة ، لا يعني أن العلم يتطور أيضاً .

وكلمة أخيرة ، النصوص الإسلامية تحدثت طويلاً عن العقل وجنوده ، والجهل وجنوده ، لكي يستوضح الإنسان رؤيته ، عما تجري داخل ذاته ، من تصارع العقل والهوى ، والعلم والشهوات ، وذلك لأن التنبه الذاتي إلى مصدر الفكر الصحيح الداعي إلى الخير والموضح للحق ، والرادع عن الطيش والباطل ، ثم إلى مصدر الفكر الباطل الداعي إلى الشر ، والجهل ، والطيش والضلal .

أقول التنبه الذاتي إلى مصدر كل واحد من الفكرتين سيعطينا مقياساً واضحاً للفرق بين العلم والجهل .

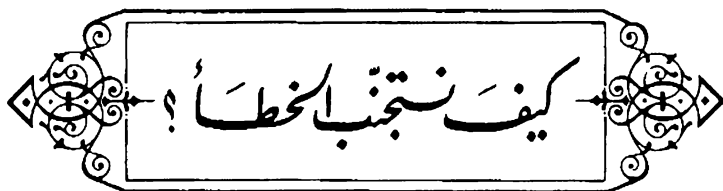




أصوله ومناهجه

المنطق الإسلامي

القسم الثالث من :



الموامل النفسية للخطأ .

وراثة الأفكار .

الانحرافات النفسية .

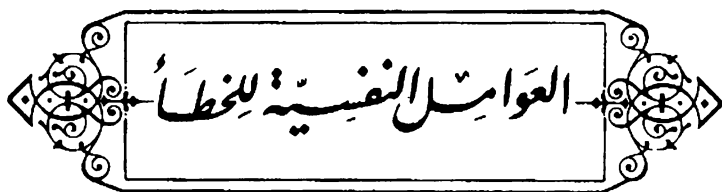
المامل الاقصادي .

الموامل المادية .



القسم الثالث :  
كيف نتجنب الخطأ؟

البحث الاول عن :



- كلمة البدء .
- بين الفراغ والهوى .
- الجدور النفسية للخطأ .



## كلية البد،

يتصور الرأي السائد في المنطق أن مشكلة الإنسان في العلم ، هي مشكلة عقلية محضه ، يمكن حلها بوضع قواعد لتنظيم عملية التفكير .

إلا أن الحقيقة هي أن المشكلة نفسية ، قبل أن تكون عقلية ، لذا نحن بحاجة إلى معالجة النفس البشرية ، قبل أن نضع قواعد لعقله ، وتنظيم فكره .

ذلك لأن النفس البشرية قد تستأثر بإرادة الإنسان وتوجهها إلى حيث تتحرك أهواؤها ، وهنالك تبقى قدرة الإنسان على التفكير معطلة رأساً ، ولا تغنيه القواعد الموضوعية لتنظيم التفكير<sup>(١)</sup> .

من هنا فإن علم النفس لا بد أن يدخل كطرف مباشر في المنطق كما يقول جون ديوي :

« إن علم النفس ذاته فرع خاص من فروع منهج البحث ، فهو بصفة عامة يتصل بنظرية البحث المنطقي ، بنفس العلاقة التي يتصل بها علم الطبيعة ، أو الكيمياء ، ولكن لما كان علم النفس أوثق إهتماماً من سائر العلوم الأخرى؛ بالمركز الرئيسي ، الذي يصدر عنه إجراء البحث انشاءً وتنفيذاً ، كان من الجائز

---

(١) في البحوث القادمة تدليل مبسط على هذه الحقيقة .

أن يضيف إلى النظرية المنطقية ، إضافات ليست في مقدور العلوم الأخرى ،  
شريطة أن يُستخدم أداة لخدمة المنطق ، لا أن يكون سيفاً له <sup>(١)</sup> .

وكما يقول هانز في حديث نقلناه سابقاً : « إن البحث عن نفسية الفلاسفة  
مشكلة تستحق من الانتباه ، أكثر مما يديه الكتاب من الذين يعرضون تاريخ  
الفلسفة » <sup>(٢)</sup> . وحين استعرضنا المنطق الإسلامي رأينا كيف بُه الإسلام إلى دور  
هو النفس في تضليل البشر ، إلا أن هذا الفصل يتناول علاقة النفس بالعقل ،  
بيان مفصل عن عوامل الخطأ النفسية ، من اتباع الآباء ، واتباع المجتمع و . و .

وقد أدخلنا في هذا الفصل الأخطاء الناشئة عن العوامل المادية ، لأنها في  
رأينا تعود بالتالي إلى عوامل نفسية كما نبين ذلك إن شاء الله . . .

وتحدثنا في مقدمة الفصل عن وحدة الغرائز ، وعن جذور الخطأ النفسي ،  
لأنها ضرورية لفهم البحوث القادمة في هذا الفصل .

وأتصور أن البحوث القادمة تستطيع أن تكون مدخلاً طبعياً للمنطق  
الإجتماعي إذ إن المنطق الإجتماعي يتحدث عن مدى التأثير الذي يخلفه  
المجتمع على الفرد ، ولكنه لا يتعمق إلى الكشف عن خلفيات هذا التأثير ، وعن  
التواز النفسية الكامنة خلفه وقد برزت - من هنا - فجوة بين علم النفس وبين  
المنطق الإجتماعي . ولكي نسد هذه الفجوة ، كان لا بد من بيان الجذور  
النفسية ، التي تكون وراء سعي الإنسان وراء التكيف مع مجتمعه ، وبالطبع  
المجتمع يبدأ من الأسرة ، والأسرة تبدأ بدورها من الأبوين ، وهنا كان لا بد لنا من  
حديث عن وراثه الأفكار . كما أن المناخ الطبيعي ، والعوامل المادية التي فيه ،  
ذات أثر بعيد على تكوينه الفرد ، ومن خلاله المجتمع ، ولذلك تحدثنا عنها أيضاً .

---

(١) المنطق نظرية البحث ، ص ١٠٧ .

(٢) نشأة الفلسفة العلمية .

## بين الفرائز والهوى :

لكل شيء من أشياء الكون جانبان : جانب جامع ، وجانب فارق .  
فالشجر والحجر يجتمعان في الوجود ويختلفان في أن الشجر ينمو والحجر لا  
ينمو . وكذلك الفرائز لها جانب يجمعها كلها ، وجوانب تفرقها عن بعضها ،  
فغريزة الجنس تجتمع مع غريزة الجوع في إعطائهما المتعة واللذة وتفرقان في أن  
الغريزة الأولى إفراز ، والثانية إحراز ، الأولى حاجة مؤقتة والثانية دائمة .

يبد أن السؤال الكبير الذي يرسم أمام الفلاسفة والعلماء معاً ، هو :  
البحث عن جذر كل غريزة في نفس الإنسان ، وهل أن لكل واحدة منها جذراً  
مختلفاً عن الأخرى ، أم أن الفرائز تلتقي عند جذر واحد ؟

مثلاً ، نحن نعلم أن لشهوة الطعام والشراب جذراً واحداً ، فهل أن نفس  
الجذر يكمن في شهوة الجنس وحب الأولاد ؟

إن النظر العميق يهدي إلى وحدة الفرائز السيكلوجية ، بمعنى أنها نابعة  
من جذر واحد هو حب الذات ، ورجاء الخير له والخشية عليه من الشر . بيد أن  
هذه الوحدة السيكلوجية لا تتنافى مع الاختلاف الفسيولوجي والبيولوجي لها ، بل  
نستطيع القول أن كافة الشهوات ، تعود إلى غريزة واحدة ، فهناك مثلاً ، حب  
السيطرة ، وطلب الشهوة والحياة من الناس ، واتباع العظماء ، واتباع الوالدين ،  
والأقربين . . .

إنها تعود إلى ذات الغريزة الواحدة ، إذ ما من عمل غريزي يقوم به البشر ،  
إلا بسبب اعتقاده بأنه يقوم ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، بأشباع إحدى غرائزه  
الأولية .

فمثلاً اتباع السلطان . قد يكون طمعاً في ماله مما يوفر بالتالي للفرد الطعام  
والجنس و . و . وقد يكون خوفاً من عقابه ، بمعنى أن عدم هذا الاتباع يقضي



عليه بالحرمان من الفرائز ، فاتباعه يوفر له ما كان يخشى أن يُحرَم منه . فرجاء البلوغ للشهوات لا يختلف كثيراً عن خوف حرمانها ، إنهما نابعان من مصدر واحد وهو حب الشهوات . وما من دافع نفسي يكمن وراء عمل بشري ، إلا ويعود - بعد حذف التفاصيل واستخلاص الجوهر من المظاهر - إلى الخوف والرجاء . الخوف من حرمانه مما يملك ، والرجاء في حصوله على ما لا يملك . فمثلاً الطفل يتبع والديه خوفاً من حرمانه ، إن عصاهما ، من رزقهما وحمايتهما ، ورجاءاً في المزيد من الرزق والحماية .

المرء يتبع جماعته خوف تفرده لدى انفصاله عنها ، وبالتالي حرمانه من منافع الجماعة ، ورجاء المزيد من ذلك .

الرجل يتبع نهج الصراع الطبقي ضد طبقة أخرى ، خوفاً من حرمانه من أكله وأمنه ، ورجاءاً في الحصول على المزيد من اشباع الجوع وتوفير الأمن . الإنسان يسعى للرئاسة ، لأنه يجدها أنسب الطرق لحماية ما عنده ، وحصول ما ليس عنده من الفرائز .

وحتى بعض الأعمال التي لا نجد فيها الخوف والرجاء في الظاهر ، نجدهما لدى البحث والتنقيب ، فمثلاً عبادة الأصنام ، البشر يتبع الأصنام لخوفه من عوامل الطبيعة ، ورجاءاً في المزيد من الشهوات<sup>(١)</sup> .

الإنسان المسلم يطيع الله خوفاً من سطواته التي تحرمه النعم ورجاء المزيد من بركاته .

وإذا جمعنا الخوف والرجاء في تعبير دقيق ، قلنا : « حب الذات » ولا نعني بحب الذات إلا حب الأشياء لها ، والخشية عليها من الأشياء .

---

(١) ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم يتصرون ﴾ ( ٧٤ / يس ) .

وإذا فتشنا اللغة لنجد تعبيراً أدق ، لما وجدناه إلا في كلمة « هوى النفس » .

لذلك كان الهوى ( هوى النفس ) هو الذي حملة القرآن الحكيم مسؤوليات الضلالة البشرية فقال الله سبحانه :

﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ [ ٢٣ / النجم ] .

﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ [ ١٣٥ / النساء ] .

﴿ فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ [ ٢٦ / ص ] .

﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ [ ٥٠ / القصص ]  
وفي الحديث عن الرسول :

« أما اتباع الهوى فيصد عن الحق وطول الأمل ينسي الآخرة »<sup>(١)</sup> .

وقد سبق أن تحدثنا طويلاً عن هذه الحقيقة .

وفيما يلي نتحدث بإذن الله عن مدى علاقة حب الذات ( هوى النفس ) ،  
بجذور الخطأ النفسية .

### الجذور النفسية للخطأ :

لا بد أن نشير مكرراً إلى ما تحدثنا عنه سابقاً ( في عرض الحديث عن ركائز المنطق الإسلامي ) من أن النفس البشرية تتنازعها طاقتا العقل والجهل .

وإن الجهل طاقة ذاتية نابعة من طبيعة وجودنا الناقص ، أما العقل فهو هبة

---

(١) منية المرید ، ص ٣٦ .

من الله القدير .

وإن كل ما في النفس من حنين إلى المادة ، وحب لها ، ناشئة من طبيعتها الذاتية .

والجذور النفسية التالية إن هي إلا مظاهر ، وانعكاسات لهذه الطبيعة ، وإن فصل هذه المظاهر عن بعضها يتم بهدف التوضيح ، ووضع النقاط على الحروف .

وسوف نستعرض في البداية جذر كل خطأ وبعده نبين نتائجه . والجذور التي سوف نستعرضها ثلاثة : الحب ، فقد الثقة والتسرع .

أ- الحب :

ما هو الحب ؟ إنه انجذاب النفس إلى شيء .

ويتدخل الحب في المعرفة سلبياً ، وله جذر ونتائج . أما الجذر فإنه يستقطب كل اهتمام النفس في بؤرة واحدة هي الحبيب ويحاول حمل صاحبه على صرف كل طاقاته فيه .

والتفكير طاقة لا تشذ عن سائر الطاقات النفسية المنجذبة بعنف نحو الحبيب .

والمعرفة بحاجة إلى التفكير كي تصبح متكاملة وواضحة ، إذ ستصبح كل مصادر المعرفة ، حتى الإحساس ، غير مفيدة «علماء» دون وعي وتفكير .

وإذ يصرف الحب فكر صاحبه نحو بؤرة الحب ، بعيداً عن الواقع الموضوعي ، لا تستطيع النفس أن تعي أو تفكر في الحقيقة حتى يفقهها فتقع في الخطأ .

وحينما نقول « يصرف الحب » لا نقصد حتمية الصرف هذا ، بل ليس إلا ضغط الجانب النفسي الذي يحدثه الحب على الإرادة ، وتبقى النهاية حاسمة ،

مقدرة الإنسان ، يختارها بحرية تامة ، وهناك إما يرضخ للحب أو يرفض الاستسلام .

التائج :

١ - حب الذات :

يتعصب البشر لأفكاره بدافع حب الذات ، ويجادل عنها ، ويستكبر دون معرفة ما يقابلها ودون الانفتاح على ما سواها .

ويتعصب أيضاً لكل فكرة تكسبه نفعاً ، أو تدفع عنه ضرراً ، ويتلون بها حسب الظروف ، وينغلق دون غيرها حتى ليعمي بصره . ويفتر بجهله ، ولا يذل نفسه ، حسب ظنه ، بالسؤال ، أو البحث عن الحقيقة ، أو التسليم لمن ينادي بها ، لمجرد الظن بأن في ذلك منقصة لذاته ، التي يحبها . وإلى هذه الغريزة ترجع عوامل الحسد والحقد والعناد النفسية .

٢ - أسلوب العرض :

قد يستهوي الفرد أسلوب عرض الفكرة ، فيحبها ويدافع عنها ، وينغلق دون ما سواها .

وتأتي ظاهرة التداعي في الحب لربط الأسلوب بالفكرة . ذلك أن أسلوب العرض لا علاقة له في الواقع بحقيقة الفكرة ، والفكرة لا جمال فيها أوقبح ، إلا بقدر ما فيها من نسبة الحقيقة ، إلا أن التفكير المنهجي فقط هو الذي يحس بهذه المفارقة .

أما النفس فإنها إذا أحببت شيئاً ، أحببت كل ما يلبسها لظاهرة التداعي في الحب . تلك الظاهرة التي لا تكشفها لنا تجارب العلم وحدها . بل ووجدان كل منا أيضاً ! فإننا نشعر بحب كل شيء يرتبط بما نجه .

ومن هذه الزاوية تدخل الدعاية في حقل الثقافة البشرية ، فتضيف عليها

طابعها الواضح الكبير .

### ٣ - حب الفكرة :

قد تحب فكرة لأنها لبست حلة قشبية من الأسلوب الجذاب . ففي طريق التداعي في النفس ( وإنها إذا استهوت شيئاً استهوت أيضاً كل ما يرتبط به ويتقارن معه ) تحب الفكرة على عين أسلوبها . إن هذه ظاهرة منتشرة ، وقد بحثناها في هذا الكتاب أكثر من مرة .

ولكن الظاهرة الأعجب منها - والأقل في ذات الوقت - هي : أن تحب فكرة لأنها تنسجم مع نفسية الفرد أو نفسية الأمة التي ينتمي إليها الفرد :

أ - أما عن الانسجام بين نفسية الفرد واستهوائه لفكرة معينة . فقد بين التحليل النفسي لبعض الفلاسفة أن هناك علاقة وثيقة بين « نفسية » الفيلسوف و « نوعية » فلسفته .

فمثلاً ، في موضوع « وحدة الوجود » قالت طائفة من الفلاسفة : إن كل شيء في الكون ، هو شيء واحد . بينما قالت طائفة أخرى : إن الأشياء هي متعددة ، وليست وحدة واحدة .

وعند التحليل النفسي ، كان ذلك الفيلسوف الذي يعتد بذاته ويفرط في الإيمان بها ، يرى العالم كأنه مظهر من مظاهر ذاته الواحدة . وبالتالي كان يتصور أن الأشياء جميعاً شيء واحد لا أكثر ( وحدة الوجود ) مثال نيتشه ، الذي قال : « كل شيء هو أنا » . بينما كان الفيلسوف ، الذي لا يغالي في الشعور بذاته ، يعتقد بوجود الأشياء منفصلة عن ذاته ، وبالتالي يؤمن بأن لكل شيء وجوداً خاصاً به وينفي - بذلك - وحدة الوجود .

ب - وقد تكون نفسية الفيلسوف أو المفكر أو الشاعر ، مرآة تعكس نفسية أمة بكاملها ، ويكون انتاجه الفكري صدى لتلك النفسية المنتشرة بين أبناء الأمة كلها .

من هنا ما يقوله الغربيون أن الفيلسوفين كانت Cant وهيجل Hegel يمثلان العقلية الألمانية . وإن ديكارت Descaarte وفولتير (Voltaire) يمثلان العقلية الفرنسية، وإن لوك (Locke) وبيرك (Burke) يمثلان العقلية البريطانية . وإن وليم جيمس (William James) وجون ديوي (John Dewey) يمثلان العقلية الأمريكية .

هذه الفروق الفلسفية بين هذه الأمم الأربع ، ليست في الواقع إلا صدى وإن<sup>(١)</sup> كان صدى رفيع المستوى لخصائص عقلية وخلقية تتغلغل بنسب متفاوتة ، في جميع الطبقات من هذه الأمم وتميز إحداها عن الأخرى .

فالمنطق الآلي والكمالي النظري الذي يتجلى في فلسفة ديكارت يتجانب في تراجيديات كورني (Cornei) وراسين (Racine) ، وفي الحماسة الملتهبة عند مفكري الثورة الفرنسية كما يظهر ، مرة أخرى ، في مشروعات السلم غير العملية ، وإن كانت كاملة من الوجهة المنطقية التي امتاز بها الساسة الفرنسيون في الفترة ما بين الحربين العالميتين .

أما فلسفة لوك (Locke) الانكليزي ، فهي مظهر الشخصية الانكليزية ، كما تظهر ( ذات الشخصية ) في وثيقة ( ماجناكارنا ) وكما تظهر في التشريعات الانكليزية المتميزة بصياغتها العملية الإجرائية .

ونرى فلسفة بيرك (Burke) تسعى إلى التوفيق بين ما تدعو إليه الأخلاق ، وبين ١٠ تقتضيه الظروف وتوجيه الملائمة السياسية ، وهذا الطابع طابع العبقري السياسية الانكليزية يتكرر بروزه في سياسة توازن القوى التي تمسكوا بها طويلاً وما زالوا عاكفين عليها<sup>(٢)</sup> .

---

(١) يستخدم صاحب النص كلمة العقل مكان الفكر حسب مفاهيمنا الدارجة في هذا الكتاب .  
(٢) ديمقراطية القومية العربية الدكتور محمد عبد الله العربي ، ص ٦٤ . ويتفصيل أكثر ، راجع كتاب الأسس النفسية لتطور الأمم ص ١٧٢ .

#### ٤ - حب الآباء :

إن حب الآباء يبعث الأبناء نحو تقليدهم ، وهو واحد من العوامل الأخرى التي تدفعهم نحوهم ، مثل احترامهم والخشية منهم على المصالح ، وترسب أفكارهم منذ الطفولة .

#### ٥ - حب البيئة :

البيئة الاجتماعية والثقافية ، تعتمد في تأثيرها على الحب أيضاً ، ذلك أن الإنسان يحب نظيره الإنسان بصورة فطرية ، ويحب لذلك أفكار أقرب الناس إليه ، فالأقرب ( الأصدقاء والأساتذة ) .

وليس الحب هنا إلا أضعف العوامل الباعثة على تقليد البيئة ، أما الأقوى تأثيراً فهو الخوف على المصالح ، ثم الإنفتاح على أفكارها الجاهزة واحترامها احتراماً يبعث على التقليد .

#### ٦ - حب السلف :

إن حب السابقين من العلماء والعظماء يبعث على اتباعهم والإنكسار عليهم ، دون بحث جديد في أفكارهم لتقييمها ونبد الأفكار الخاطئة منها .

#### ب - فقد الثقة :

فقد الثقة جذر آخر من جذور الخطأ ، ذلك أن الوعي شرط أساسي في المعرفة ، ونعني بالوعي « وجدان الذات » ، والذي يتسبب من المعرفة بكامل القوى النفسية ، ثم الثقة بها ، وأخيراً ضبطها في اتجاه محدد ، ذلك أن الإنسان الفاقد للثقة بنفسه لا يتمكن من التفكير ، أوروبما لا يفكر ، وإن كان قادراً عليه ، ثم لا يجزم بنتيجة تفكيره ، إذ يقول أبداً : أنا أقل قدراً من معرفة الحقيقة وهكذا يخطئ فكره وإن كان صواباً ، لأنه لا يعترف بإمكانية توصل هذا الفكر إلى الحقيقة .

وبتعبير آخر : إن الإنسان يسلك إلى المعرفة إما طريق الحس أو التعقل أو الإلهام ، والذي يفقد الثقة بنفسه ، يفقد الثقة بالحس ، وبالتعقل وبالإلهام وأخيراً لا يعترف بتلك المعرفة التي تأتيه من هذه الطرق ، ولذلك فهو لا يصل إلى الحقيقة ، وليس فقد الثقة بالذات ( أو بوجودان الذات ) يعني بالضرورة إنكار كل مصادر المعرفة ، فربما يكفر الإنسان بذاته عن طريق إنكاره لواحدة من قواه وطاقاته ، كالذي ينكر قدرة الإنسان على التعقل ، وربما يكفر بنفسه في جهة معرفة خاصة ، أو في مقابل شخص واحد ، قد عرف خلاف ما يعرفه ، وهكذا يبدو « وعي الذات » والثقة بما به من مقدرة على تحصيل المعرفة ، شرطاً أساسياً للعلم ، وبفقدتها تقع أخطاء فكرية كبيرة .

كما أن من يفقد القدرة على ضبط مصادر المعرفة ، وتوجيهها حسب إرادته ، يفقد تلك المعرفة الآتية منها أيضاً . من هنا كان « وعي الذات » الذي يستتبع الثقة بمقاييسها ، والقدرة على استخدام تلك المقاييس ، أول وأهم مقدمات المعرفة .

هذا هو الجذر أما النتائج :

## ١ - الانغلاق :

الانغلاق دون مصادر المعرفة ، الذي يشكل أضخم كارثة فكرية تصيب البشرية ، وهي من نتائج فقد البشرية الثقة بذاتها .

فالسوفسطائيون والشكاكون ، الذين قالوا إن المعرفة ( أو قدرة البشر عليها ) محال ، تخبطوا في ظلمات الجهل فإذا بهم لا يبصرون شيئاً ولا يعقلون .

والمثاليون الذين أنكروا الحس ، والماديون الذين أنكروا العقل وسابقياته ، وأولئك الذين أنكروا الإلهام كمصدر موثوق للمعرفة الجازمة . كلهم حجبوا عن الحقيقة ، بنسبة معينة ورفضوا الاعتراف بأنفسهم ، أو بقدرتهم على المعرفة بذات النسبة بينما كانوا في الحقيقة قادرين عليها .



## ٢ - الذوبان في الشخصية :

يقول بعض الفلاسفة ، إن تحطيم الماضي نوع من إثبات الذات ، والحقيقة أن البشر لا يتمكن من تحطيم ماضيه ، دون إثبات ذاته أولاً . . . . . ليتمكن من استخدام ذاته وما لديه ، من مقاييس في عملية التحطيم هذه .

فبسبب قوة شخصية علمية أو سياسية أو دينية ، فقد الأفراد ( بل حتى الأمم ) إيمانهم بأنفسهم ، إذ أنهم كانوا يترددون في الاعتراف بالحقيقة التي يصلون إليها ، إذا كانت مخالفة لما وصلت إليها تلك الشخصية .

إن السلبية والانهازمية أمام تيار أو أمة متقدمة ، كالانهازمية الفكرية التي يعاني منها المسلمون أمام تيار الشيوعية أو أمام الأمم المتقدمة في الغرب ، هي نتيجة واحدة من نتائج الانبهار ، وفقد الثقة بالنفس ، وهذه الحالة أشبه شيء بحالة الطفل حينما يطرح أفكاره البدائية لاستقبال أفكار والده ، أو من هم أكبر منه . وهي ذات الحالة التي تصيب التلامذة والبسطاء والسذج والأمم الجاهلية التي لا تفكر ذاتياً في الحقائق ، لعدم ثقتها بأنفسها ، وحتى لو فكرت فيها فإنها تطرح أفكارها لحساب أفكار تعظمها .

وكما سبق فإن للتقليد أسباباً أخرى ، إلا أن هذا سبب رئيسي ، للتقليد بآية صورة كانت من صوره .

## ج - التسرع :

لظاهرة التسرع ، والتي يعبر عنها بـ « حب النفس لسرعة الحكم » ، جذر نفسي واحد ، ونتائج شتى ، فالجذر هو « غريزة حب الراحة » إذ الحقيقة التي لا يرتاب فيها أحد ، هي أن التفكير عملية صعبة ومجهدّة ، وتركيزه أصعب وأشدّ جهداً ، وقلة المفكرين في العالم ناشئة عن الصعوبة البالغة التي يقتضيها التفكير المركز .

وحب الراحة هو الآخر حقيقة لا يرتاب فيها أحد ، فمن منا لا يحس بها ؟  
من هنا يتهرب البشر من التفكير المركز ، ويهوى التسرع لينفذ ذاته من هذه  
الصعوبة ، وهذا هو جذر التسرع .

أما النتائج فهي :

## ١ - الإنطلاق :

الانطلاق من قضايا خاصة ، ( بطروفيها وأسبابها ) إلى الحكم بالقضايا  
الكلية .

فمثلاً يرى الإنسان جانباً من المدينة خراباً فيحكم عليها بالخراب ، ويرى  
رجلاً يموت بحقن البنسلين فيحكم بأن كل من احتقن به يموت .

حقاً يستطيع الحدث الواضح أن يقفز من القضية الخاصة إلى ما هي أعم  
منها ، وذلك حينما « يعلم بوضوح » أن ليس هناك اختلاف في الظروف المحيطة  
بهذه القضية عن أشباهها ، فمثلاً حين يجرب مادة على حيوان فيرى أنها تميته بعد  
حقنه بها مباشرة ، ويكرر التجربة في ظروف مختلفة عدة مرات ، حتى يتيقن أن  
« سبب » الموت ليس إلا هذه المادة .

إلا أن الفرق واضح بين الحدس العلمي ، وبين التسرع الجاهلي ، ذلك  
أن التسرع إنما هو إدخال غرض نفسي في الحكم ، والحدس العلمي بعيد عنه إذ  
لا يكون إلا بعد اليقين بعدم وجود أي سبب لهذه الظاهرة ، سوى السبب هذا ،  
ولأنه يعلم بوضوح « أن السبب متى وجد ، جاءت الظاهرة » يعلم أنه كلما وجد ما  
وجد هنا كانت ذات النتيجة موجودة . خلاصة القول : أن التسرع لا يبلغ درجة  
العلم بوحدة الظروف ، في كل من المجرب وغيره ، والحدس يبلغها .

## ٢ - الأفكار الجاهزة :

ظاهرة الإيمان بالأفكار الجاهزة المستنبطة سابقاً ، دون تمحيص حتى

لمعرفة ما إذا كانت صحيحة أم باطلة ، وذلك خشية أن تصيب الفرد مشقة كبيرة في عملية التفكير من جديد حول تلك المواضيع<sup>(١)</sup> . ولا فرق في هذه النتيجة بين الخوف من التشكيك في أفكار تبناها الإنسان نفسه ، وبين ما تبناه العلماء قديماً أو حديثاً ، أو أملت الظروف الاجتماعية ، أو البيئة الثقافية ، ذلك لاشتراكها جميعاً في جذر الخطأ النفسي الذي يتلخص في حب الراحة ، والذي يدعو إلى تبني أفكار جاهزة .

وربما يكون حب الذات واحترام العلماء وراء هذه الظاهرة ( الإيمان بالأفكار الجاهزة ) .

إلا أنه لدى تحليل النفسيات يظهر ، أن هذا الجذر أصيل في النفس البشرية ، ساعدته الجذور الأخرى أم لا .

إن التقليد قد يوجد ، دون وجود علاقة عاطفية بين المقلد والمقلد بل بمجرد أن المقلد ضعيف النفسية ، وغير مستعد للبحث بنفسه حول القضية فيتبع غيره فيها .

---

(١) لقد توصل ديكارت الفيلسوف الألماني ، إلى ذات الملاحظة ، حينما قال عن نفسه : أنا أنساق من تلقاء نفسي ودون وعي مني إلى تيار آرائي القديمة . وأحاذر أن أصحو من غفوتي هذه خشية أن أجد اليقظة الشاقة التي تعقب هذه الرحلة الهادئة . ( رينيه ديكارت ) ، ص ٤١ .

القسم الثالث :  
كيف نتجنب الخطأ؟

البحث الثاني عن :

# وراثـة الأفكار

- كلمة البدء .
- التربية ووراثـة الأفكار .
- الوراثة وعوامل التأثير .
- بماذا يستمر تأثير الوالدين .
- الاسلام واتباع الآباء .



## هيئة الفكر

ضخامة الأفكار الموروثة من الأبوين ، لا تعادلها إلا ضخامة العوامل التي تضغط على الوليد باتباع والديه !

ومن الصعب أن نميز في كثير من الأحيان بين الانتقال المادي ، الذي تحمله الموروثات المنوية ، وبين الانتقال الحضاري الذي تقوم به التربية الواعية ، كما يستصعب علينا تمييز الاتباع الإرادي لأفكار الوالدين ، والاتباع القسري .

هنا حديثنا يتحدد الآن بالقسم التربوي من التأثير ، الذي يخلفه الوالدان على الوليد ، بينما نستعرض جانباً من التأثيرات الوراثية ، عند الحديث عن العوامل المادية ، بالرغم من أن العوامل المادية تساعد ، بقوة ، العوامل التربوية في نقل الأفكار إذ انها تعتبر - بالنسبة إليها - كالتربة الخصبة بالنسبة إلى البذرة .

فالوالد شديد الغضب ، لا بد أن ينقل إلى ابنه استعدادات مناسبة لشدة الغضب ، بفعل الجينات الموروثة للصفات ، وهذه الاستعدادات قد تموت بفعل تربية صالحة ، يتلقاها الطفل في روضة الأطفال مثلاً ، ولكن لو قام نفس الوالد بتربية ابنه فلا بد أنه سوف ينقل إليه سرعة غضبه من خلال سلوكه المنحرف أيضاً .

وأنثذ يلتقي الاستعداد الموروث ، بالتربية المقصودة ، فيكون التأثير مزدوجاً .

وهذا الأمر ، يدعونا إلى حساب القابلية عند الحديث عن تأثير تربية الوالدين .

وهذا هو العامل الفارق بين التربية عموماً ، وتربية الوالد خصوصاً ، فالرغم من أن كل تربية تؤثر في الطفل ، تأثيراً عميقاً شاملاً ، ولكن تربية الوالد - حيث تلتقي بنوع الصفات التي ورثها الوالد لابنه بيولوجياً - فإنها تكون أكثر تأثيراً .

وهناك عوامل فارقة أخرى نشير إليها :

١ - عامل الحب العميق ، الذي يكنه الوالد لولده مما يوجب تعميق صلته التربوية به ، وغالباً ما تنجح هذه الصفة في التأثير عليه لأن طبيعة الإنسان تقضي باتباع نصيحة من يحبه ويشفق عليه لأنه أمين يضع فيه كل ثقته .

٢ - الاحترام الكبير الذي يكنه الولد ، وربما ، طبيعياً لوالده .

وفيما وراء هذه العوامل المفرقة ، فإن عوامل تأثير التربية مشتركة بين الوالد وأي مرب آخر .

وهناك عدة سبل لمعرفة مدى تأثير الوالدين في الوليد ، فمثلاً :

- هناك دراسات قيّمة لتاريخ الأسر ، نستطيع من خلالها التعرف على مدى تأثير الأبوين .

- هناك دراسات كثيرة لعملية التنبئ ، وللأفراد المتنبئين ، نكتشف من خلالها مدى تأثير التربية البيئية في الوليد .

- وأخيراً هناك دراسات هامة ، لبعض مناحي التصرفات التي تؤثر على الوليد ، والتي نستنبط منها مدى تأثير أعمال الوالدين في الوليد .

## التربية ووراثة الأفكار :

تاريخ الأسر . التربي وأهمية التربية . التربية والتصرفات المؤثرة :

وها نحن نذكر بعض النماذج من هذه الدراسات ، لنعرف من خلالها خطورة توجيه الوالدين لطفلهما ، ثم نتحدث بإذن الله عن أهم العوامل النفسية ، التي تساعد على هذا التأثير وتعطيه صفة الاستمرار .

### تاريخ الأسر :

لقد اتبع سير فرانسيس جالتون ، طريقة البحث عن التشابه والاختلاف داخل الأسرة الواحدة ، عن طريق دراسة تاريخ الأسرة ، وكتب عنها في مؤلفه عن العبقريات الموروثة ، وأورد فيه تاريخ ٩٩٧ رجلاً من ٣٠٠ أسرة وأجريت بحوث مماثلة في بلاد أخرى وأسفرت عن النتائج ذاتها ، بوجه عام . .

وكلها تبين أن النبوغ يسري في الأسرة ، وكذلك فإن البحوث ، التي تناولت عائلات ضعاف العقول ، والمنحرفين ، والتي تمثلها أسرا ال : جوك (Jukes) والكاليكاك (Kallikaks) بينت أن صفات كالضعف في العقلية والإجرام ، تسري أيضاً في الأسر .

ولا ريب في أن هذه الدراسة لا تدل على أهمية الوراثة فقط بل وأيضاً أهمية التربية ، إذ إن الأسرة ليست مناخاً طبعياً لانتقال الأفكار بقدر ما هي تفاعل حيوي لهذه الأفكار عن طريق التربية الواعية وانتقال الاستعدادات والمؤهلات الطبيعية بالوراثة .

### التربي وأهمية التربية :

تأتي أهمية التربي في حديثنا من عاملين :

١ - إن الدراسات التي أجريت على التربي ، كانت دقيقة ومحددة ، إذإنها



خضعت لمنهج البحث الدقيق .

٢ - إن تأثير التبني لا يتداخل مع تأثير الوراثة ، بالرغم من أنه لا يتجرد عن سائر العوامل المساعدة ، التي سوف نبحث عن أنها تعطي التربية صفة الاستمرارية .

وأهم الدراسات التي تناولت التبني ، كانت تلك التي أجريت على الأطفال المحتضنين والتوائم المتماثلة ، الذين رُبُّوا في بيوتات مختلفة ، والتي تشير إلى درجة تأثير التشابه العائلي العادي بالتعرض لبيئات مختلفة متشابهة .

فالأطفال المتبنون يسجلون ارتفاعاً في نسبة الذكاء ، بعد التبني في أحد البيوت المناسبة ، وكلما كان الطفل أصغر في السن ، وكان المستوى الاجتماعي والإقتصادي للبيت الذي تبنَّاه عالياً ، كان ارتفاع نسبة الذكاء أكبر .

واتضح كذلك أن التشابه بين الأخوة ، الذين يعيشون في بيوت مختلفة ، أقل كثيراً منه بين الذين يعيشون معاً في نفس المنزل . ففي جماعة مكونة من ١٢٥ زوجاً من الأخوة تربي كل واحد في منزل مختلف ، وظل هذا الاختلاف مدداً تتراوح بين ٤ - ١٣ سنة ، عندما أجري عليهم اختبار ستانفورد بينيه ، فبيّن أن معامل الارتباط ، بين ذكاء الأخوة هو (٢٥) فقط ، على حين أنه يصل إلى حوالي ٥٠ بين الأخوة الذين يعيشون في نفس المنزل<sup>(١)</sup> .

وليس الذكاء كله مجموعة تفاعلات ، تجري بين الإنسان وبين بيئته الثقافية ، ولا يرتفع الذكاء إلا إذا تأثر الفرد بهذه البيئة ، تأثراً بالغاً .

لذلك نستنبط من ارتفاع نسبة الذكاء بالتبني ، ارتفاع نسبة التأثير الثقافي بها أيضاً .

• ودراسة التوائم المتماثلة - الذين فصلوا منذ الطفولة ونشأوا في بيوت

---

(١) ميادين علم النفس ، ج ٢ ، ص ٥٤١ .

حاضرة مختلفة - لتمدنا بكثير من الحقائق الهامة ، عن مشكلة الوراثة والبيئة .  
ففي بحثٍ متسع أجري على التوائم المتماثلة - الذين فصلوا منذ الطفولة المبكرة -  
دُرست حالة ١٩ زوجاً منهم ، واختلفت النتائج من زوج إلى آخر ، وقد أظهر  
التوائم اختلافات بيئية عندما كانت البيئات متباينة إلى حد كبير ، وكانت  
الاختلافات في جميع الصفات بما في ذلك النواحي الثقافية والمزاجية ، وحتى  
في الصفات الجسمية كالصحة العامة ، والقوة البدنية <sup>(١)</sup> .

كل هذا بالرغم من أن التوأمين المتماثلين يشتركان في أكثر العوامل  
الوراثية ، فالاختلاف بينهما لا يمكن أن يُنسب إلى الوراثة .

#### التربية والتصرفات المؤثرة :

إن تأثير طائفة من التصرفات يدل على مدى تفاعل الطفل مع بيئته الثقافية .  
فمثلاً :

« كلام البالغين كثيراً مع الطفل ، حتى قبل أن يستطيع الإجابة ، يبدو وكأنه  
يجعل نمو ذكاء الطفل يسرع في السنوات الأولى . وقد دلت الأبحاث الحديثة ،  
على أن أنواعاً خاصة من إتجاهات الوالدين ، لها آثار كبيرة في نمو الذكاء ،  
فالأطفال الذين يجدون من آبائهم ، قبولاً واحتراماً لشخصياتهم ، والذين يجدون  
تقديراً وتشجيعاً لمجهوداتهم دون إجبار أو تدقيق في مطالباتهم بها ، يتقدمون في  
مدى ثلاثة أعوام بما يعادل ثمانين نقاط في المتوسط في نسبة الذكاء - حسب  
مقياس ستانفورد بينيه - في حين يفقدها الأطفال الذين يشعرون بالإهمال قدراً  
قليلاً » <sup>(٢)</sup> .

« معرفة النتائج تسهل التعلم في كل الظروف ، ولكن أثرها يتناسب مع  
كونها أولاً سريعة ، وثانياً نوعية » .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) ميادين علم النفس ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

« فالشرط الأول هو السرعة الحقيقية ، إذ ان عشر ثوان بعد الإستجابة قد يعد وقتاً وقد يكون الأفضل منه عُشر الثانية »<sup>(١)</sup> .

من تلك الدراسات ، التي استعرضنا نماذج منها ، نستكشف خطورة دور الوالدين في توجيه أفكار الطفل . ويأتي دور المعلم مباشرة بعدهما . إذ إن الطفل سوف ينقل نظراته السابقة من أبويه إلى مربيه .

« من الواضح أن الطفل ينقل اتجاهه ، نحو مصدر السلطة الأبوي إلى الكبار الآخرين . فتلاميذ المدرسة ينظرون - ضمناً - إلى مركز المعلمة كشبيه بمركز الأم ، وإلى حدّ ما ينظرون إلى شخصها كشبيهة بشخصية الأم ، فلا مندوحة أن تصبح المعلمة بديلة للأم »<sup>(٢)</sup> .

وقد اعتقد بعض علماء النفس ، أن نظرة الإنسان إلى المجتمع تتحدد أيام الطفولة ، من خلال نظراته إلى الوالدين ، إذ إن المجتمع سيصبح أبوي الإنسان فيما بعد . من هنا بحث بعض علماء الاجتماع في نظم الأسرة كمنبع للنظم الاجتماعية .

وأساس ذلك هي عملية نقل النظرة ، التي عالجها كثير من البحوث النفسية والاجتماعية ، والتي قال عنها كهلر (Kohler) : « إنه لا يقل أهمية في أي عمر كان ، بشرط أن يكون نقلاً صامتاً لا يشعر به صاحبه ، ويعود السبب - في عملية النقل هذه - إلى أن الطفل إذا تعودّ على نوع خاص من النظرة ، سواء كانت نظرة حب أو كره ، احترام أو ازدراء ، فسوف تبقى عنده ذات النظرة ، حتى بالنسبة إلى غير صاحبها الأول ، لأن من الصعب عليه ترك عاداته واستبدالها بنظرة أخرى »<sup>(٣)</sup> .

---

(١) ميادين علم النفس ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

(٢) ميادين علم النفس ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(٣) راجع بحث العوامل المادية .

ومهما كان من أمر نقل السلطة فإن المعلم أقرب الناس إلى الوالدين في نظر الطفل لذلك يكون تأثيره أقوى من غيره ، ممن تنقل إليهم نظرة الأبوة .

إلا أن تأثير المعلم أخف من تأثير الوالدين ، لعدة عوامل أهمها :

١ - إن عوامل الوراثة ، التي سلّمنا تأثيرها في تفكير الطفل<sup>(١)</sup> مفقودة عند المعلم .

٢ - إن الحب الذي سنعرف أنه يعمل على ترسيخ أفكار الأب في الطفل لا يشمل المعلم ، إذ أنه يفقد حب التلميذ كلما كبر ووعى .

بعد أن ألقينا نظرة خاطفة على أبعاد تأثير الوالدين في الطفل ، يجدر أن نبحث عن العوامل النفسية لهذا التأثير ، وتأتي خطورة البحث عن هذه العوامل من سببين :

أولاً : إن التحكم في تفاصيل التربية لا يتم بدون معرفة العوامل النفسية التي تكمن وراءها .

ثانياً : إن التخلص من رواسب التربية بعد مرحلة الوعي لا يُستطاع ، إلا بمعرفة جذورها النفسية . وهذا هو السبب الأهم عند الباحث عن المنطق ، ومناهج البحث ، إذ إنه يفتش عن أسباب الخطأ ، تمهيداً للتخلص منها .

وعوامل التأثير كثيرة أهمها ثلاثة :

أ - الفراغ .

ب - الحب .

ج - الاحترام .

أ - فراغ نفس الطفل ، يؤلمه ربما أكثر مما يؤلم الفراغ قلب الكبير ، لذلك

---

(١) راجع بحث العوامل المادية .

فهو يفتش عن شيء يملأ به هذا الفراغ فإذا وجده عند أحد التهمه ، وإلا اخترع نفسه أو هاماً يتشبث بها .

والأسئلة المتنوعة ، التي يفيضها الطفل على من حوله ، دليل على مدى ضغط الفراغ على قلب الطفل ، ومن هنا تزداد قابلية الطفل للتأثر بالإيحاء ، وتزداد قابلية الإيحاء من الرابعة إلى الثامنة من العمر ، ولعل السبب يكمن في أن لغة الطفل تبدأ بالتكامل في تلك الفترة ، كما أن الطاعة والرضوخ لأراء الأبوين ، والأنا الأعلى (نظرية فرويد) تمهد لهم إطاعة أفراد وأفكار ، وإيحاءات أخرى . . ولا يبدأ الطفل بالتححرر من قيود الإيحاء إلا عندما تتكامل ذاته ، ويدرك أن الأبوين ليسا بعظمي القدرة والمعرفة ، كما توهم أثناء طفولته<sup>(١)</sup> .

وطبيعة الإنسان أنه لو ملأ فراغ قلبه بفكرة زعم أنها جزء من كيانه ، لا يستطيع التخلص منها ، إلا بالتجرد عن حبه لذاته ولو بمقدار .

لذلك لا يكون الفراغ عاملاً نفسياً باعثاً على بحث الطفل عن الفكرة أئى كان مصدرها ، لا يكون كذلك فحسب ، بل وأيضاً سبباً لترسيخ هذه الفكرة فيه بسبب حب الطفل لهذه الفكرة التي ملأ بها فراغه ، زاعماً أنها أصبحت جزءاً من كيانه فيدافع عنها كما يدافع عن كيانه .

ب - حب أي شخص يبعث الفرد نحو اتباعه والطفل لا ريب في حبه لأبويه ومربيه ، مما يدعو إلى تقمص شخصياتهم .

وقد اعتبر فريق من علماء النفس عامل الحب ، هو الحاسم في أمر التربية ، فأكد مورتن (Morton) على أن الاستمالة - لا الإكبار - هي أساس السلطة ، إذ أن أول سلطة كانت علينا هي سلطة الأم . وكما نعرف أنها أيضاً مصدر إشباع لحاجات الطفل وأول موضوع لحبه .

---

(١) غسل الدماغ ، د. فخري الدباغ ، ص ٤٨ .

إلا أن بعض الشواهد ، قد تدل على أهمية عامل الاحترام لأسباب يأتي ذكرها إن شاء الله .

ج - « تصب ركائز مشاعر الطفل وأحاسيسه من أول أيام الرضاع »<sup>(١)</sup> .

ومن بين أهم تلك الركائز حب الذات ، الذي يتشعب بدوره إلى فرعين :

١ - الرغبة .

٢ - الرهبة .

ورغم غموض كل مشاعر الطفل في أيامه الأولى ، فإن خوفه من الحياة ، وتشبهه في الوقت ذاته بها ، لا يمكن أن يُنْكرا ! ويظهر من بعض الدراسات ، أن السلوك الإنفعالي في الرضيع ، كباقي سلوكه ، غير متميز نسبياً ، ونعني بذلك أنه في الثلاثة أو الأربعة الأسابيع الأولى ، نجد نوعاً من أنواع الاستثارة العامة أو الهياج ، رداً على أي مثير قوي ، وتتميز هذه الاستثارة بحركات قوية ، ولكنها ناقصة التآزر ، يقوم بها جسم الصغير كله ، وتكون العلاقة بينه وبين المثير غير واضحة ، ويعاني الملاحظون - عادة - صعوبة في تسمية هذا الإنفعال ، ولكنهم جميعاً على وجه التقريب ، متفقون في عدّ هذا السلوك سلوكاً إنفعالياً . وهذا النهج البسيط ، بالرغم من أنه يستمر ظاهراً فإنه يُظهر بالتدريج نمطين جديدين من الإستجابة ، هما الإنقباض والإنشراح . ويبدأ الإنقباض في حوالي الأسبوع الرابع ، في حين يبدأ الإنشراح متأخراً بعض الشيء<sup>(٢)</sup> . والإنقباض يدل على وجود الرهبة والحزن والخوف عند الطفل ، كما يدل الإنشراح على وجود الرغبة والفرح والأمن عنده .

على أية حال فإن هذا الإنفعال أدل شيء على وجود إحساس قوي عند الطفل بحب الذات ، والذي يظهر بعد الأسابيع الأربعة الأولى من حياته ، بالتميز

(١) عقلة حقارت ( بالفارسية ) ، ص ٩ .

(٢) ميادين علم النفس ج ١ ، ص ١١٠ .

بين الرغبة والرغبة .

ونوع تصرف الكبار مع الطفل في أيامه الأولى تختلف آثاره على سلوك الطفل في المستقبل ، فمثلاً ، مقاومة الطفل لسلطة الكبار ، تنشأ من مقاومة الكبار لرغباته في أيامه الأولى .

من هنا نعرف أن الطفل ينطوي على حب الذات ، منذ ولادته ويستقم لنفسه حتى بعد حين .

« فمقاومة سلطة الوالد ، تماماً كالخضوع لها ، تبدأ مبكرة في الحضانة ، إن لم تكن في المهد ، إلا أن الدراسات المضبوطة للتطور المبكر لهذه المقاومة ما زالت ناقصة ، ولكن دراسات رست Rast وكايل Caille ورينولدنز Renolds تبين أن حضارتنا في بعض المظاهر قد بلغت قمته من حوالي السنة الثانية أو الثالثة من العمر وفي هذا الوقت يكون من المحتمل أن يقاوم الطفل حتى أقل اقتراح أو سؤال لفظي »<sup>(١)</sup> .

فهذه المقاومة إنما تكون بسبب انتقام الطفل لنفسه ، ولا يكون انتقاماً إلا إذا كان في النفس شعور قوي بحب الذات . وحب الذات بمظهره السلبي (الرغبة) والإيجابي (الرغبة) يدفع الطفل إلى السعي وراء ضمان السلامة والعيش لنفسه ، ولولا هذا السعي لم تكن التربية ممكنة ، إذ إن أفضل الوسائل التي يتبعها المربي : توجيه هذا السعي بما يؤمن الخط التربوي المنشود .

ويسبب شعور الطفل القوي بضعف نفسه ، ويسبب اعتقاده الراسخ بأن القوة موجودة عند الكبار ، إلى درجة يصعب عليه التصديق بعجزهم عن أي شيء يريد ، يجعله يكتنح احتراماً واسعاً لأقرب الكبار إليه ، واحتراماً مماثلاً لأفكارهم ونوع سلوكهم ، لزعمه أنها خير ضمان لسلامته وخلاصه .

---

(١) ميادين علم النفس ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

بصفة عامة ، يؤدي هذا الاحترام ، سواء كان في الصغير أو الكبير ، في الفرد أو في الجماعة ، لشخص أو لطائفة ، يؤدي إلى اتباع الجهة المحترمة .

فنحن مجبولون على تقليد من نحترمهم ، ونعتقد فيهم القوة والرفعة ، والشعب الضعيف مفطور على اتباع الرجل المقتدر المهيّب ، أو الأمة القوية الفاهرة في نظره .

والإنسان يتبع مجتمعه القوي ، أكثر مما إذا كان مجتمعه ضعيفاً مقهوراً وهكذا . .

فالطفل إذاً لا يشذ عن القانون العام ، في اتباع والديه ، لزعمة أنهما مقتدران قويان .

بل لا يشذ الطفل عن سائر الأحياء في هذا الاتباع حيث إن التصرف الإعتماذي الشبيه بتصرفنا ( نحن البشر ) موجود في القرود وباقي الثدييات ، ويبدو أن من المحتمل ألا تكون هذه الإستجابات ، مجرد نتيجة تدريب أو التقاليد ، بل لها أسس فطرية<sup>(١)</sup> .

إلا أن هناك فرق بين الطفل الصغير وبين الكبار في تقليدهم ، لمن يزعمون قوته ، هو أن نوع القوة يختلف عند الصغير والكبير . فالصغير يزعم أن القوة منحصرة في بعض المثيرات المادية التي يعرفها فقط ، بينما الكبير يعرف بالطبع أنواعاً عديدة من القوة .

كما أن هناك فرق كبير بين الطفل وسائر أقسام الحيوان ، ألا وهو طول مدة الطفولة مما يجعله أكثر خضوعاً للكبار ، وأقل اعتماداً على النفس من سائر الأحياء .

• إن وثيقة إعلان الإستقلال تقرر ( أن الإنسان يولد حراً ) غير أنه من الأصح

---

(١) ميادين علم النفس ، ج ١ ، ص ١٢٤ .



من الوجهة السلوكية ، أن نعرف أن الأطفال جميعاً ، يولدون خاضعين لأبائهم ، فمن واجب كل فرد أن يحقق حريته بمجهوده الشخصي<sup>(١)</sup> .

وهناك فرق آخر ، هو أن وليد الإنسان (الطفل) أكثر وعياً ، وأقل قدرة ، بينما وليد الحيوان أقل وعياً وأكثر قدرة ، لذلك يكون اتباع وليد الإنسان أقرب إلى اختيار واعٍ ( مع ما في هذه الكلمة من تسامح ) من وليد الحيوان ، ولذلك تكون التربية ذات أثرٍ بالغ في نمو الطفل البشري - دون صغار الحيوانات - .

إن استجابة الطفل تختلف من فرد لآخر ، لأنها استجابة واعية تقريباً . بينما استجابة وليد القرد ، مثلاً ، تتم بصورة شبه آلية ، ولا يُفَرَّق بين قردٍ وآخر .

من هنا صَحَّت النظرية التربوية القائلة : « إن مجرد تكرار عملية من قبل مربِّي الطفل ، ليس بذات أثرٍ كبير في تربية الطفل ، إن لم تكن هناك غاية يفقهها الطفل . يقول ثورنيك : « كل النظريات التربوية ، التي تعلق أهمية على الخبرة والنشاط ، لمجرد كونها خبرة أو نشاطاً ، دون اعتبار اتجاه هذه الخبرة أو النشاط ونتائجها ، هي نظريات أصبحنا نشك فيها أكثر من ذي قبل ، فالخبرة - التي لا تشمل إلا على مواجهة موقف من مواقف الحياة ، والاستجابة له - لا يمكن أن تصبح عاملاً فعالاً للخير والشر ، ما دام تكرار هذه الخبرة آلاف المرات لا يحدث أثراً يذكر<sup>(٢)</sup> . وعلى أي حال فإنه ما زال مقررّاً أن وجود المعنى يدعو إلى الانتاج<sup>(٣)</sup> .

« يميل الطفل دائماً إلى كل ما له معنى عنده أو أهمية لديه ، وما يبعث في نفسه المحاولة التي ترمي إلى غرض ، وهو دائماً يتعلم في مثل هذه الظروف<sup>(٤)</sup> .

(١) ميادين علم النفس ، ج ١ ، ص ١٣١ .

(٢) ميادين علم النفس ، ج ١ ، ص ١٣١ .

(٣) ميادين علم النفس ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

(٤) ميادين علم النفس ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

إذاً ، الوعي هو الميزة الأولى لصغير البشر ، والضعف ميزته الثانية .  
وباجتماع الوعي والضعف معاً ، تكون قابلية صغير الإنسان للتربية كبيرة ،  
بالقياس إلى قابلية صغار الحيوان . وهذا مما يدل - ببساطة - إلى وجود حب  
الذات في الطفل منذ عهد مبكر ، وهو وراء كثير من تصرفاته .

بماذا يستمر تأثير الوالدين ؟

ويستمر تأثير الوالدين الفكري في الطفل ، حتى بعد استقلاله التام ..  
ويعود ذلك إلى عدة أسباب :

١ - صعوبة اقتلاع الأفكار بعد رسوخها أيام الصبا ، ويبدو أن رسوخ بعض  
الأفكار يتناول في بعض الأحيان على التغيير ، إلا أن ذلك تناول ناشئ من غفلة  
الشخص ، واستنائه بإعادة النظر في سابقياته التي اكتسبها أيام الطفولة ، مما  
يدل على أن استمرار الوالدين ليس حتمياً ، بالإضافة إلى أن فريقاً من علماء  
النفس يذهب إلى أن الإنسان يمر عليه وقت ، يرتاب خلاله في سابقياته ، كالأيام  
الأولى من الشباب ، حيث تعصف به مشاعر استقلالية عنيفة ، تدعوه إلى التجرد  
عن أفكاره السابقة .

٢ - إن احترام الإنسان لوالديه يستمر بعد أيام طفولته ، ويكون هو السبب  
في نشوء حس التقليد لديه ، ويكون هو أيضاً السبب في استمراره بالرغم من أن  
احترام أحد لا يفرض عليه اتباعه فرضاً حتمياً .

إن التخلص من أفكار أحد يستتبع ، بالطبع ، تخطئة هذا الشخص ،  
وحب الآباء لا يدع الفرد يخطئ والدیه ، فالحب هذا مصدر استمرار اتباع  
الوالدين ، والملاحظ أن السبب لا يوجب حتمية الأتباع ، إذ إنها جميعاً ناشتات  
العواطف ، والغفلة ، والاحترام مما لا يذهب بقدرة الإنسان على التفكير الحر .  
الاسلام واتباع الآباء :

لقد ذكر الإسلام بدور تقليد الآباء في تحريف الفرد وإضلاله .

وأشار أيضاً إلى بعض التفاصيل التي ذكرنا بها آنفاً . ونختار بعض النماذج الهامة من هذه النصوص التي تُعتبر ، أيضاً تلخيص للحقائق الألفه الذكر :

عن تقليد الآباء قال الله سبحانه في القرآن الحكيم : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾ [ ١٠٤ / المائدة ] .

إن كلمة حسبنا في هذه الآية ذات دلالة بليغة ، على أن سبب اعتماد الناس على آباؤهم هو الإشباع الثقافي ، إذ إن أفكار الآباء تجعلهم مكتفين - في زعمهم - عن أتباع البحث . وقال الله تعالى :

﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ﴾ [ ٢٨ / الاعراف ] . وهنا يصعب على الكفار الاعتقاد بفسالة الآباء ، ربما بسبب حب الأبناء لهم ، واحترامهم إياهم .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير ، إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ [ ٢٣ / الزخرف ] .

في هذه الآية نلاحظ مدى رسوخ عادة أتباع الآباء في جميع الأمم المتخلفة . مما يدل على وجود جذور فطرية لهذا الاتباع ، وقال الله سبحانه : ﴿ وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألاست يربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ [ ١٧٢ - ١٧٣ / الاعراف ] .

نجد في هذه الآية : قضية فطرية بالغة الحجة ، كالإيمان بالله ، يحاول

الكفار إنكارها ، ثم إلقاء اللوم على آبائهم ، باعتبار أنهم ليسوا سوى ذرية من بعدهم ، وأنهم هم المبطلون ، وبالطبع ردهم القرآن ، بأن فطرة الإيمان بالله لا تدع للإنسان مجالاً لاتباع الآباء في الكفر بالله .. وجاءت الرواية التالية :

قال أبو الحسن عليه السلام : « إذا وعدتم الصبيان ففوا لهم ، فإنهم يرون أنكم الذين ترزقونهم ، إن الله عز وجل لا يغضب لشيء كغضبه للنساء والصبيان » (١) .

فاعتقاد الطفل أن والديه هما اللذان يرزقانه ، هو بعض الدواعي الموجبة لتقليده لهم إذ إن هذا الاعتقاد يحدث فيه الإحساس الكبير بالإحترام .

---

(١) الكافي ، ج ١ ، ص ٥٠ .



القسم الثالث :

كيف نتجنب الخطأ؟

البحث الثالث من :

# النوافق الاجتماعي

كلمة البدء .

عوامل تأثير الاجتماع .

الهوى جذر الفريضة الاجتماعية .

عملية غسل الدماغ .



## كلمة البدء

حين تحدثنا عن تطور الفكر المنطقي ، تحدثنا عن المنطق الإجتماعي ، وكان حديثاً تاريخياً . بينما نتحدث عنه التقييمه ومعرفة دوره في عملية تجنب الخطأ .

قلنا سابقاً إن المنطق الإجتماعي قد انتهى إلى تقرير أن المجتمع هو أساس المنطق ، وأن الأصول المنطقية إنما هي مستوحاة من تطور الحياة الإجتماعية ، وأنه لا وجود للأفكار القبلية بل المجتمع هو الذي يصنع قوالب للتفكير ويضعها في ذهن الأفراد فنحسبها أفكاراً قبلية . أما المقولات المنطقية فإنما هي مقولات إجتماعية .

يبقى أن نتساءل عن أمرين ونجيب عنهما في هذا الفصل . وهما :

١ - ما نسبة الحقيقة في المنطق الإجتماعي وما هي نسبة التطرف ؟

٢ - إذا كان المنطق الإجتماعي صحيحاً - وهو صحيح نسبياً - فلماذا وما هي الأدلة العلمية عليه ؟ وما هي الدواعي النفسية التي تكون وراء صحة هذا المنطق ؟



## لا للجمعية الاجتماعية :

للإجابة على السؤال الأول نكرر ما قلناه سابقاً<sup>(١)</sup> ، من أن المنطق الاجتماعي تجاهل دور الفرد ودور القيم السابقة التي يملكها الفرد ويستطيع أن يقيس بها الضغوط الاجتماعية ، وأن يتحداها إذا شاء .

إن دركنا ومن سبقه من المناطق الاجتماعية ، أرادوا تأكيد طبيعة الإنسان الاجتماعية ففعلوا عن الوجه الآخر للحقيقة ، وهو طبيعته القادرة على مقاومة ضغوط الاجتماع .

هنا يكمن الفرق بين دراستنا للمنطق الاجتماعي ودراسة الآخرين حيث إنهم يدرسون ويركزون على الجانب الحتمي ، ونحن ندرس الجانب الإرادي ( الذي يخضع للاختيار ) .

وينعكس هذا الفرق على المنهج ، حيث أننا ندرس المنطلقات النفسية ، التي تكمن وراء الاستسلام للمجتمع وعن طريقها نكتشف طبيعة وعوامل تأثير المجتمع على الفرد . ولهذا فنحن نقسم الدراسة ابتداءً من دراسة الحشد والتجمع ، مروراً بدراسة الانتماء والجماعة وانتهاءً بدراسة البيئة والمجتمع ، وذلك من أجل التعمق في العوامل الخلفية لتأثير المجتمع على الفرد .

أما منهج المناطق الآخرين ، فهو دراسة المظاهر العامة للجماعة ابتداءً من اللغة والمصطلحات وانتهاءً بدراسة المراحل التاريخية للأمم والجماعات .

ولدراستنا هدف محدد ، هو كشف العوامل الاجتماعية من أجل التحصن ضدها ، وليس من أجل الاعتذار عن الانحرافات بأن الناس هم مصدرها وليس الفرد . وكما يقول أحدهم :

---

(١) عند الحديث عن تطور الفكر المنطقي .

« صحيح أن المنطق علم معياري ، كما يقول بعضهم وصحيح أن البشر يشترك مع بعضه في أنه يمتلك مقاييس عامة لا يختلف فيها اثنان ؛ صحيح كل ذلك . لكن الأصح أن أفكار البشر لا تتكون مجردة عن الواقع الاجتماعي ، وهذا مفتاح طريقتنا للتجرد (في) الفكر ، وعدم التأثير بالخطأ من خلال الواقع الاجتماعي»<sup>(١)</sup> .

---

(١) علم الاجتماع والفلسفة ، ج ١ ، ص ٢١٧ .



## عوامل تأثير الاجتماع

عامل التجمع ( الحشد ) ، عامل الجماعة (الانتماء) ، عامل التجمع (الهيئة) ، مصدر قوة التجمع .

للإجابة على السؤال الثاني ، لا بد أن نعرف أننا نكتشف - من خلال دراستنا - عاملاً نفسياً نسميه بـ ( التوافق الإجتماعي ) هو المسؤول عن تأثير المجتمع على الفرد . فما هو هذا العامل وكيف نكتشفه ؟

لهذا العامل ثلاث درجات مرتبة على بعضها ، وهي :

١ - عامل التجمع (الحشد) .

٢ - عامل الجماعة (الانتماء) .

٣ - عامل المجتمع (البيئة) .

والسبب في تدرج هذه العوامل أنها تسير من مستويات التأثيرات المؤقتة المباشرة ، صاعدة إلى مستويات التأثير المستقرة غير المباشرة . وذلك ، لأنك في تجمع الحشد تستقبل منبهات قوية ، تؤثر فيك بصورة مباشرة ، مما يجعلك نحس بأنك واقع - فعلاً - تحت تأثير قوة خارجية ، تحاول توجيه أفكارك ، بيد أن هذا التأثير سيظل قوياً ما دمت في التجمع ، فإذا خرجت منه كنت أكثر قدرة على

تقييم ما سمعت ورفض ما شئت منه .

بعد الحشد يأتي مستوى الجماعة ، فإنك أكثر تأثراً بالتوجيهات الفكرية التي تلقاها من جماعتك ، التي تنتمي إليها بالقياس إلى جماعات غيرها ، ولكنها ليست - دائماً - توجيهات مباشرة . إذ قد يكون تأثيرك بنوع أفكارهم آتياً من اتخاذك أحدهم قدوة ، ولكنها أكثر استقراراً ، لأنك قد تبقى لفترة طويلة متأثراً بأفكار الجماعة .

والمجتمع أبداً متأثراً من الجماعة والحشد ، إلا أنه أبقى أثراً منهما .

وهكذا يتحتم - علينا - أن ندرس المجتمع ، ثم الجماعة ، ثم المجتمع ، لكي نتقل من ذات التأثير القوي المباشر ، إلى ذات التأثير المباشر المتدرج وبعيد المدى .. لأن معرفة العوامل المؤثرة ذات التأثير المباشر أيسر من غيره ، لأن التجربة يمكن أن تتحكم في التجمع لسهولة تكوينه وإمكان مراقبته ، ودراسة نتائجه . بينما لا يمكن للتجربة أن تتحكم في المجتمع لانتشار أفراده ، وتنوع المؤثرات فيه ، وببطء ظهور نتائجه .

والدافع إلى الدراسة أمران :

- معرفة قوة الشعور بالتوافق الاجتماعي في توجيه الفكر البشري .

- معرفة جذور هذا الشعور وأسبابه .

**التجمع (الحشد) :**

يفترض في التجمع توفر ثلاثة عناصر :

١ - التواجد في مكان واحد .

٢ - الهدف المشترك في هذا التواجد .

٣ - العقلية المشتركة التي توجههم إلى ذلك الهدف .

فمثلاً ، للتظاهرة مكان واحد وهدف مشترك وعقلية رائدة يسودها ، بينما لا نجد المكان الواحد في المستمعين إلى إذاعة ، ولا نجد الهدف المشترك في المزدحمين على رصيف ، ولا نجد العقلية الموجهة في المتواجدين لهدف- الشراء .

وبعد توافر هذه العناصر لا فرق - في بحثنا هذا - بين أن يكون هذا التجمع دينياً أو طبقياً ، أو مصلحياً . إذ انه رغم وجود فوارق كبيرة بين هذه الأقسام الثلاثة إلا أنها تتصل ببعضها ، فيما نحن الآن بصدد معرفته من قوة التأثير في أفرادها وكذلك لا فرق بين أن يكون للتجمع خطيب أم عدة خطباء أم يكون من نوع التظاهرة التي تقودها حماسة المشتركين أنفسهم .

وقد دلت التجارب على حقائق هامة في دراسة التجمع أهمها :

- إن للتجمع قوة لا تقهر ، وإن مصدرها هو الإحساس بضرورة ( التوافق الاجتماعي ) الذي يُعد من أهم الغرائز البشرية ، وقد يُضاف إليها قوة الغرائز المكبوتة التي يطلقها الحشد ، فتضاعف قوة الحشد آنئذٍ .  
والآن ، لندرس قوة التجمع (الحشد) .

قوة التجمع :

إن سلوك أبناء التجمع يظهر خواص جديدة ومختلفة تماماً عن سلوكهم منفردين ، إذ يختفي هنالك الشعور بالذات ويبرز الشعور بالجماعة ، حتى لا يعدو الشخص يفكر بأنه زيد أو عمر .

هكذا تتعطل ، بصورة مؤقتة ، قدرات الشخص الفردية ، وتحل محلها الغرائز المكبوتة .

وهذا يكشف لنا عن سبب قصور ابن التجمع في النواحي العقلية ، بينما يتقدم في قدراته التنفيذية التي لا تحتاج ذكاءاً .

ورجل التجمع يكون ذا صفات منها : أنه سريع التصديق ، كاسح الحكم ، متعصب الرأي ، متناقض العمل ، يظهر منه انعدام للقيم إذا وجه إلى الهدم ، وامتلاء تام بالضحية إذا وجه نحو البناء .

والقصة التالية ، التي وصفها لنا أولبورث ، تدل على مدى قوة الحشد ، وكيف أنها تعطل قدرات الفرد العقلية :

« قبض مجموعة من المضربين على نفر من العمال الذين خرجوا عن الإضراب ، وساروا بهم في شوارع المدينة ، وكلما تقدمت صفوف السير ازدادت حماسة المضربين ، عنفاً وضراوة ، حتى خاف قادة العمال من الموقف ، ونصحوا هذا النفر بالفرار فلما هربوا ، أخذت مؤخرة التجمع تطاردهم ، وحين مروا بالقادة ، الذين نصحوهم بالفرار أول مرة ، تحولوا هم أيضاً عن مواقفهم وتعقبوا العمال ، وأشبعوهم ضرباً »<sup>(١)</sup> .

إنه مثل رائع لتأثير التجمع ، وقدرته على سلب الفكر من الإنسان .

### مصدر قوة التجمع :

إن الإنسان حين التجمع لا يجد متسعاً من الوقت للتفكير ، إذ إن ورود الأفعال المتوالية الصادرة من أفراد التجمع ، والتوجيهات المستمرة النابعة من مركز التجمع ، كلها تشترك في سلب قدرة الفرد النقدية .

وكلما كان التجمع أكثر ظهوراً للفرد ، كان شعور الفرد بوجود التجمع أكبر أثراً فيه ، ولذلك كان تأثيره في تعطيل القدرة النقدية أقوى .

من هنا كان التلاصق الجسمي ، والحلبة الدائرية ، وإظهار ردود الأفعال بصوت مرتفع هو المقياس الذي نستطيع أن نزن به مدى قوة هذا الحشد أو ذاك ،

---

(١) مبادي علم النفس ، ج ١ ، ص ٣٠٥ .

حسب ما دلت عليه التجارب<sup>(١)</sup> .

إذ إن هذه المؤثرات الثلاث ، تضغط على النفس باتجاه الإيمان بوجود الجماعة بل - أكثر من ذلك - قد تجعل هذه المؤثرات الشخص يعتقد أن الذين يراهم من حوله هم فقط أهل الدنيا ، وحين يتعمق هذا الإيمان في النفس تتناقض بقدرها الثقة بالنفس عند الشخص ، حتى لا يعدو ، يفكر تفكيراً منفصلاً عن الآخرين .

ويزيد هذا الإيمان عمقاً في نفس الشخص ، وجود التوجيه المشترك إذ إن مجرد الإشتراك في تلقي التوجيه ، ولو للحظة واحدة - يجعلنا نشعر بعمق - أننا مندمجون مع الآخرين .

وهذا يفسر لنا السبب في تأثير الإيحاء في رجل التجمع ، إذ إنه باشتداد شعوره بوجود الآخرين ، وهبوط مستوى تفكيره النقدي ، يصبح مادة صالحة للإيحاء . إذ إن أفضل أوقات الإيحاء هو حين يهبط مستوى التفكير عند الشخص .

بل إن رجل التجمع يُصاب بحالة الإسقاط الشعوري ، إذ إنه ما أن يفعل قليلاً بتوجيه الفكرة ، حتى يترأى له أن انفعال الآخرين ، نابع من تسليمهم له ، واتباعهم لفكرته ، وهنا يزيد إيماناً بهم واندماجاً معهم .

### التوافق والحياة :

إن الشعور بوجود الآخرين ، لا يفعل شيئاً في الإنسان ، لولا وجود الشعور بضرورة ( التوافق مع الآخرين ) ، وتأصله في نفسه ، وهو الذي يكمن وراء قوة هذا الشعور - وبشدته وضعفه - وبه يتعلق مدى تأثيره في نسبة الشخص . فصاحب النفسية القوية ، - كبعض القادة - أو صاحب الضمير المتعود - كرجال

---

(١) ميادين علم النفس ، ج ١ ، ص ٢٩٤ .



المباحث - لا يتأثر بما يتأثر به الآخرون . وبالشعور بوجود الآخرين ، والإيمان بهم ، وتاصل هذا الإيمان ، وتعمقه ، والشعور بأنهم تابعون لنوع انفعاله عن طريق الإسقاط الشعوري . بهذه كلها تتاح الفرصة للغرائز المكبوتة أن تظهر . . تلك الغرائز التي كان يمنع عن ظهورها ، الحياء من الجماعة ، فالآن ذهب الحياء حيث يفعل الآخرون نفس ذلك العمل .

ذلك إن صراعاً دائماً يدور بين غرائز الإنسان ، وبين القيم الاجتماعية ، وموقف التجمع يعطينا القدرة على حل هذا الصراع على حساب القيم وباتجاه الغرائز ، لأنه ما أن يقف الجميع على صعيد واحد ، حتى يشعر كل فرد منهم أنه ، بالإضافة إلى الآخرين ، يشكلون المجتمع كله ، وهكذا يتحول المقياس الاجتماعي ، إلى هذا التجمع ، فإذا تراءى للفرد أن هذا التجمع بدأ يتحلل من قيم الاجتماع ، ضغطت عليه الغريزة ، للتحلل هو الآخر .

ويتبادل كل فرد التأثير ، بعملية الإسقاط الشعوري ، حين يزعم كل واحد أن الآخر تحلل فعلاً من القيم الاجتماعية ، كما أن الآخر يزعم بأن الأول هو البادىء .

لذلك لا نستطيع أن نحدد بوجه الدقة من الذي ابتدأ بالإنهيار ، إلا أن سرعة عدوى الإنهيار ، تدل على وجود قابلية في الأفراد له .

من هنا يشعر رجل التجمع بشجاعة أكبر وأمثل من شعوره بها إذا كان منفرداً . وبهذه الشجاعة يخترق حاجز القيم ، التي كان يحترمها سابقاً ، خوفاً أو طمعاً ، وهذه الشجاعة آتية من ذات المصدر الذي نبع منه الاحترام ، وهو الاجتماع . فالقيم فرضتها الحياة الاجتماعية ، وها هي الحياة الاجتماعية الممثلة في التجمع ، توجب عليه التحلل منها .

ومثله في ذلك مثل الطفل الذي كانت تعاقبه أمه على الاعتداء ، فأخذت أمه تشجعه ، مرة عليه . . لذا فإن قيامه بالاعتداء سيكون هذه المرة بشجاعة

كبيرة ، إذ إن المصدر الرادع أصبح هو الدافع له .

ونستطيع أن نشير إلى مراحل التحلل من القيم في رجل التجمع باختصار فيما يلي :

١ - يتصور الفرد أن المتواجدين معه هنا هم كل الاجتماع .

٢ - يترأى له أنهم في حالة تحلل من القيم بالإسقاط الشعوري .

٣ - يحسب أن التجمع يدفعه نحو التحلل .

٤ - فيكون لديه عاملان للتحلل ، عامل داخلي هو الغريزة ، وعامل خارجي هو ضرورة التوافق مع الآخرين .

إذاً ف قوة الحشد ناشئة من عامل « التوافق الاجتماعي » وقد نضيف إليه عامل الغريزة المكبوتة . التي كان التوافق الاجتماعي ، سبباً لصدها عن البروز قبلئذ .  
الانتماء :

ويأتي بعد التجمع ، دور الجماعة (الانتماء) وهو أكثر عقلانية من التجمع ، وأقل تأثيراً منه . وقد أظهرت الدراسات أن الجماعة أكثر تأثيراً على الفرد من المجتمع .

والجماعة تختلف عن التجمع في أنها بعيدة عن تلك الإثارة الكبيرة ، التي نجدها في التجمع . فأغلب التجمعات تملك في طياتها ، دفوعات ضخمة من الطاقات الكامنة ، التي تظهر بالتجمع ، بينما الجماعة ليست كذلك رغم وجود دوافع بشرية خلالها . والجماعة تبدأ من جماعة العمل ( وهم طائفة يجمعهم العمل المشترك في وقت محدد ) وتنتهي بجماعة الانتماء السياسي ، وبين ذلك جماعات كثيرة ، ونحن نختار جماعة العمل كعينة للدراسة لسبب أنها أقرب إلى التحديد ، وأبعد عن المؤثرات الخارجية .

ثم إننا إذا عرفنا أثر جماعة العمل على بعضهم ، فسوف نعرف - بطريقة

الأولوية - أثر سائر الجماعات ، الذين هم أكثر التصاقاً ببعضهم .

وربما نجد في الدراسات التالية ، ليس فقط مدى تأثير الجماعة على الفرد ، بل وأيضاً ، سبب هذا التأثير .

وسوف نصل إلى نتيجتين :

الأولى : أن ليس هناك إلا حساً واحداً لا أكثر ندعوه بحس ( التوافق الاجتماعي ) ، ولهذا الحس جانب إيجابي ، هو التنافس والمحاكاة ، وجانب سلبي هو الحياء .

الثانية : أن الإنسان - وهو مدفوع بإحساسه الاجتماعي - يفقد قوة بعض قدراته العقلية .

وقد تكون النتيجة واحدة ، بسبب أن الإنسان لا يملك إلا قلباً واحداً ، إذا استوى عليه شعور ، ينحسر عنه شعور آخر ، وهكذا إذا سيطر عليه الشعور بالتوافق الاجتماعي يفقد بعض قدراته النقدية . إن نتائج دراسة أولبورث تدل على أنه في حالة العمل مع جماعة يزيد الانتاج إذا كان النشاط من النوع الحركي ، ويقل إذا كان من النوع العقلي<sup>(١)</sup> .

وسرعة العمل مع الجماعة ، إنما هي بدافع التوافق الاجتماعي ، حيث يجد الفرد أن أصدقاءه يسرعون ، أو لا أقل يخشى أن يكونوا قد أسرعوا فهو كذلك يسرع ، لذلك إذا كان المعيار العام البطيء عاد السريع إليه ، بدل أن يعود الجميع إلى السرعة .

فقد أظهرت دراسات مود المبكرة أن هناك محاولة للوصول إلى مستوى الجماعة ، وفي بحوث (لورنز) حول عمال مصانع يعملون على نضد ، ظهر أن أسرع العمال أخذ يبطيء ولكن ليس إلى الحد الذي أسرع به أبطأ العمال ( بل إلى

---

(١) ميادين علم النفس ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

حد متوسط ) كما تبين نقص اتفاق جماعة جيدة وضعت لتعمل بين جماعتين من مستوى ضعيف .

من هنا نكتشف أن الدافع نحو محاكاة الجماعة، ليس بالضرورة ما نسميه بالتنافس ، رغم أنه دافع قوي ، بل ما هو أعم منه ، وأشمل ألا وهو حس «التوافق» الذي هو البحث للشعور بالتنافس ، أو أن التنافس لا يبطيء السريع بل الخوف من الانفراد ، والسعي نحو التوافق ، هو الذي يبطئه ، وقد ينسحب الفرد من مذهبه (الحق) تحت ضغط الشعور بالتوافق الاجتماعي . فقد استفتى باحث حول موضوع فذهب بعضهم إلى الحق ، وبعضهم إلى الباطل ، ثم تأمر على واحد منهم فبنوا على أن يذهب كل أفراد المجموعة ، إلى تبني الباطل ، عند صاحب الرأي الصحيح وهكذا تراجع هو الآخر عن رأيه تحت ضغط آراء الآخرين المصطنعة !

وفي تجربة الباحث آس آش (S, Asch) ، نجد شخصاً زعم أن جماعته يريدون اتباع منهج كان يزعمه منهجاً خاطئاً ، وظهرت عليه آثار التردد ، وكان يتحول عن رأيه خضوعاً لرأي جماعته ، بالرغم من أنه كان يعلم بخطئهم ولعل تغيير البيئة الاجتماعية ذا دلالة قوية على السبب في التأثير بها ، فلقد ثبت بالتجربة أن عضوية جماعة تعلمي على الفرد مواقف تبدو راسخة جداً في نفسية الفرد ، ولكن سرعان ما تتحول تلك المواقف إلى ما عاكسها ، وتكون بذات الشدة ، إذا تحول الفرد إلى عضوية جماعة آخرين . مما يدل على أن طبيعة الانتماء تعلمي المواقف دون التفكير في تلك المواقف ذاتها .

وإذا عدنا إلى التجارب العملية ، نجد أنه قد يكون مجرد حس التوافق الاجتماعي ، سبباً في تبني موقف خاص مما يدل على أنه شعور راسخ وأصيل .

فقد جرب د . شريف أثر الجماعة في غرفة مظلمة ، في طرفها نقطة ضوء

مركزة وثابتة ولكن العين تراها ، عادة ، متحركة يمنة ويسرة .

جاء شريف بطائفة من الناس منفردين ، وأمرهم بتحديد اتجاه تحرك الضوء ، فكانوا يزعمون أن للضوء اتجاهات مختلفة وحينما جمعهم ، أخذوا يزعمون جميعاً ، بأن الضوء يتحرك ذات اليمين مثلاً ، وبما أن الضوء كان ثابتاً في الأساس فإنما دل زعمهم على مدى تأثيرهم ببعضهم .

إن جميع هذه التجارب تتفق في نقطة واحدة هي أن للإنسان شعوراً أصيلاً بضرورة التوافق مع الآخرين ، في فكره وفي عمله .

## المجتمع :

لعلاقة الناس مع بعضهم أسباب :

١ - المصلحة .

٢ - الثقافة .

٣ - وتعم المصلحة علاقة القرابة كما أن وحدة التفاعل تتفق عادة مع وحدة المكان فأغلب الناس المتواجدين في مكان ، يتفاعلون ثقافياً بصورة شديدة أو خفيفة .

والمجتمع ناشئ علاقة مزدوجة من المصلحة والثقافة ، بينما الجماعة الطبقيّة ناشئة المصلحة ، والجماعة الدينيّة ناشئة الثقافة المشتركة .

فالمجتمع إذاً تركيب لكل عوامل التقارب بين بشرٍ وآخر ، - وبالرغم من شدة عامل هنا وضعفه هناك - فإن المجتمع يستحيل - عادة - تجرده عن كل العوامل ، فمجتمع الرسول (ص) في المدينة ، كان دينياً ، ولكن المصلحة المشتركة كانت ذات أثر فيه . بينما المجتمع الأميركي مادي ، إلا أن للثقافة الواحدة آثارها البعيدة فيه .

من هنا نستنبط أمرين :

١ - تأثير المجتمع على الإنسان أقوى عادة من تأثير الجماعة ، أو التجمع ، لأنه يحتوي على مختلف عوامل التأثير .

٢ - إن العوامل السابقة ، جميعاً ، ذات أثر في المجتمع أيضاً ، وهيبة المجتمع ناشئة هذه العوامل جميعاً .

وفي هذا العصر - عصر الفرد المفقود - أضحت تأثير المجتمع قوياً في الإنسان ، بحكم ازدياد وسائل الاتصال الجماهيرية .

لهذا كان للرأي العام فعالية لم تكن من ذي قبل .

وهيبة المجتمع ناشئة من الشعور الأصيل في الإنسان بضرورة التوافق الاجتماعي ، لخوف البشر من العزلة ، ولرجائه في التجمع<sup>(١)</sup> .

إن الإنسان خُلِقَ من ضعف ، فيخشى أبداً من كل شيء ، أولاً أقل يتهيب من كل شيء ، ويبحث أبداً عن نصير ، وهذا يبعثه نحو الالتحام بالآخرين .

وقد رأينا - سابقاً - كيف أن مجرد حضور آخرين يشجع الإنسان ، بل ويستهو به ، وقد يجرده من ذاته ، ولدى التدبر في ذلك عرفنا مدى إحساسه بضرورة توافقه معهم .

وما عمليات التوافق الاجتماعي الأربع - ( التعاون ، والتنافس ، والصراع ، والمصالحة ) - إلا بعض معطيات هذه الهيبة ، فحتى التنافس والصراع ، ناشئان من هيبة الاجتماع في روع الإنسان ، فلولا هذه الهيبة ، لم

---

(١) يقول دانييل كاتز في حديثه عن علم النفس الاجتماعي إن الانسان يؤثر حياة الجماعة على الحياة الفردية المنعزلة لأنه يشعر بعدم الاكتفاء الذاتي، اقتصادياً او سيكولوجياً ، فعن طريق التقمص يدخل الفرد في حياة زملائه وبذلك يستمتع بخبرة اكمل وأوفر تنتجها له أوجه نشاطه الخاصة .

يكن سبب للتنافس أو للصراع . وما محفزات النشاط الاجتماعي الخمسة إلا بعض مظاهر الهية فـ ( التيسير والكف والمحاكاة والايحاء والتقصص )<sup>(١)</sup> كل ذلك ناشئة الشعور ، بضرورة التفتيش عن قوة مماثلة في شخص أفراد آخرين .

فالإنسان الذي يجد أن نظيره يقوم بشيء ، لا يمكن إلا أن يتشجع به فمثلاً العداء الذي يتسابق مع آخرين يكون أسرع جرياً منه حينما يسابق الزمن لوحده ، حتى ولو استخدم كل المقاييس الزمنية الدقيقة .

لا لتغذيته بروح التنافس فحسب ، بل وأيضاً لعملية ( التيسير ) النابعة من تعبيد الغير لطريق العمل بأقدامه .

وقد دلت التجارب - الآفة الذكر - أن الناس يقومون بقدر أكبر من العمل إذا كانوا مجتمعين معاً . قد يكون السبب مجرد تعبيد الطريق . إن الماء يسرع في المجرى المهيأ سابقاً ، بتدفق مياه أخرى . والنشاط البشري يسير في المجرى الذي حفره الآخرون .

إن إقدام الأبطال على اختراق حواجز الهية يفيد الدهماء كثيراً ، إذ إنه ينزع منهم التهيب ، وهذا بالضبط هو عملية التيسير التي تقوم بها ليل نهار .

والكف مظهر بارز للهية ، فحياءاً من الناس ، يتلجلج الخطيب ، ويرتجف الممثل . وكل عمل يرتبط بالأعصاب لا بد أن ينتفض إن كان أمام الناس ، بسبب تهيب الإنسان منهم . وهكذا يؤدي الانفعال الزائد إلى هدم أنماط التفكير المتواصل ، لذلك كان لاعب كرة السلة يصيب أهدافه أثناء التمرين أكثر مما يصيبها عند الجمهور .

وحين يُلاحظ البشر أن آخرين يعملون شيئاً ، يرغب في تقليدهم ، ومحاكاة نشاطهم لأنه يجد في انفراده عنهم عزلة يخشى عواقبها .

---

(١) فيما يلي نتحدث عن كل واحدة من هذه العمليات .

وحين يجد الفرد أن الذي يقوم بعمل رجل قوي ، يشعر بضرورة اكتسابه لقوته تلك عن طريق محاكاة أموره . .

وهكذا تجدنا نحاول اقتفاء أثر أولئك الذين نحترمهم ونعجب بهم .

ومجرد الشعور بأهمية شخص ، بأنه عظيم في حقل واحد ، يجعل الفرد يعتقد بأنه عظيم في كل حقل ، ولذلك يرغب محاكاته في كل عمل .

وهية الجماعة ، تؤدي إلى افتقاد عنصر النقد لأعمالها وبالتالي تعطل هذه الطاقة في الفرد مما يهيء الجوأمام الإيحاء المباشر وغير المباشر .

### الهوى : جذر الغريزة الاجتماعية :

ويطرح هنا سؤال : أين يكمن جذر الغريزة الاجتماعية عند الإنسان ؟ إننا نعرفنا على وجود هذه الغريزة التي أسميناها بغريزة التوافق الاجتماعي ، وعرفنا بعدئذٍ ، أنها ناشئة خوف البشر ورجائه ، ولكن خوف البشر ورجاءه ، موضع سؤال هو الآخر إذ يبقى علينا أن نقول : لماذا أصلاً يخاف البشر ويرجو؟ وأي مقياس يحكم درجة خوفه ورجائه ؟ الجواب : بقدر تعشق الفرد لذاته ، يكون خوفه ورجاؤه قوياً . وبقدر تجرده عن ذاته ، يتضاءل لديه الخوف والرجاء ، ولسنا بحاجة إلى طرح معادلة علمية لإدراك هذه الصلة ، إذ يكفي أن نسأل : ماذا يخاف عليه الإنسان ؟ وماذا يرجو له ؟ إنما يخاف على نفسه ويرجو لها ، وهذه بالضبط ، هي الغريزة الأم التي سماها الدين بالهوى .

والذي يأمل تجنب الخطأ ، عليه أن يتحصن ضد غريزة الهوى ، وما تنشأ منها من غرائز ، كالخوف من مخالفة الناس ، والطمع في التوافق معهم .

إن وصايا الحكماء تكرست ضد غريزة الهوى ، وبالأخصوص ضد غريزة التوافق الاجتماعي ، لكي يتحصن المرء بعقله ضدها ، ويحبط مساعيها الرامية لإضلاله . . . قال الإمام موسى بن جعفر ، في وصيته الرشيدة لهشام ،



وهو يستلهم من آيات القرآن الحكيم : يا هشام ثم ذم الذين لا يعقلون فقال : ﴿ وإذا قيل لهم أتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ [ البقرة / ١٧٠ ] . . .

ثم ذم الكثرة فقال : وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ، وقال : أكثرهم لا يعقلون شيئاً . وأكثرهم لا يشعرون ، يا هشام ، ثم مدح الله تعالى القلة فقال ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ [ ١٣ / سبأ ] .

وقال : وقليل ما هم ، وما آمن معه إلا قليل<sup>(١)</sup> .

وقال الله سبحانه : ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ [ ٧٤ / المثر ] .

﴿ قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة ﴾ .

إن السلطة الظالمة هي مظهر الاجتماع المنحرف ، وعلى المؤمن أن يتمرد عليها أو يتخلص منها ، إن لم يستطع مقاومتها . . . لا شيء إلا لكي يتحصن ضد الانحراف الناشئ من ضلالة المجتمع .

ولقد استلهم روجر بيكون من الإسلام مدى تأثير غريزة التوافق الاجتماعي في انحراف الفكر . وحذر مما أسماه في منطق بـ « صنم السوق » وليس بخاف أن التعبير بالصنم مستوحى من أدب الإسلام أيضاً .

أما رينه ديكرات فقد اعترف في مقدمة منطق : عرفت بكثرة إسفاري ، أن فتى تربى في فرنسا ، يختلف عما إذا كان قد تربى في الصين فعلمت بذلك ما للمحيط والتربية من أثر في الفهم والإدراك .

نستخلص مما سبق :

---

(١) البحار ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

١ - أن المحيط الإجتماعي قد يحبذ الأفكار الضالة للإنسان .

٢ - لذا على المرء أن يتحصن ضد المحيط الإجتماعي ، لكي يهتدي إلى الحق .



## عملية غسل الدماغ

نظرة عامة إلى غسل الدماغ :

عملية غسل الدماغ وأسلحة التأثير :

وجدت من الضروري بيان جانب من عملية غسل الدماغ ملحقاً بهذا البحث لأسباب :

١ - ان المجتمع البشري ، يقوم بعملية غسل الدماغ ، بصور شتى على الفرد المتممي إليه . وحين تلقي نظرة على غسل الدماغ في السجون أو في المستشفيات ، تعرف مدى تعرضنا كأفراد لمثل هذه العملية في الشارع والبيت . ومن جانب آخر كلما ازددنا وعياً بحقيقة هذه العملية ، عرفنا المزيد من أبواب التأثير على أدمغتنا ، واستطعنا - بالتالي - حمايتها منها ، ومن دون ذلك ، نحسب أنفسنا أحراراً ، بينما نعيش في زنزانة تضعها لنا أجهزة الاعلام العديدة التي نراها من حولنا :

» . . . ساعة من التأمل والتفكير الرزين ، أزاحت من عيون الفرد الغربي حجباً كثيفة ، وكشفت له مدى وجود ( حرية الاختيار ) ، ومدى فقدانها لديه ، وساعة التأمل تلك برهنت أن ملبسه ، وطعامه ، وشرابه ، وسهراته ، والوان

حيطان منزله ، وأثائه ولعل كيفية اختياره لزوجته ، هي من ضمن عملية ( إقناع خفية ) سُلطت على دماغه (١) .

« وقد وصف ولیم زوايت وسائل الدعاية والهيمنة على الفكر ، بأنها قوة مؤذية علمية وغير أخلاقية ، وتكاليف الدعاية ترجع بالتالي إلى الناس ، وتحملهم أعباءها والنتيجة في الحاليتين ، استغلال فكري ومادي . فحبوب الأسبرين ، مثلاً ، تكلف الفرد المستهلك مبلغ ٤ بنسات انكليزية لكل ٢٥ حبة إذا لم يُعلن عنها ، أما الأسبرين المعلن عنه في الصحف ، والتلفاز ، فإنه يكلف شلناً وثمانية بنسات لكل ٢٥ حبة . . . » (٢) .

٢ - إن عملية غسل الدماغ قد أصبحت بذاتها موضوعة من موضوعات الدراسة لعلماء النفس والإجتماع ، وبما أننا نرى أن المنطق يتصل بالنفس ، وأن مشكلة الإنسان العقلية ، لا يمكن فصلها عن واقعه النفسي ، فنجد وجود علاقة بين غسل الدماغ والمنطق .

٣ - إن عملية غسل الدماغ ، هي استخدام متظم للدوافع البشرية التي تحدثنا عنها في هذا الفصل ، وذلك من أجل تغيير اتجاهه ، وتصلح هذه العملية أن تكون مثلاً لنوعية تأثير تلك الدوافع ، والدواعي ، في الإنسان ، ونحن إذ نسرّد جوانب من هذه العملية ، قد نشير في ذات الوقت ، إلى الدافع الخاص الذي استخدم في كل جانب ، ليكون دليلاً موضحاً لنوعية عمل هذا الدافع ومدى تأثيره .

### نظرة عامة إلى غسل الدماغ :

بعد أربعة أيام من أسره ، أذاع ضابط أميركي وقع في أيدي القوات الشيوعية الكورية ، أذاع بياناً من راديو (سيئول) دعا فيه الجنود الأميركيين إلى

(١) د. فخري الدباغ ، غسل الدماغ ، ص ٢٠٩ .

(٢) ذات المصدر ، ص ٢٣٩ .

توجيه بنادقهم إلى رؤسائهم ، الذين أتوا بهم إلى القتال من أجل احتكاراتهم الرأسمالية .

واندهش الجميع ، وزادت دهشتهم حين عاد أسرى الجنود الغربيون ، وأخذوا يدافعون عن الإشتراكية والشيوعية في أوطانهم ، وتورط بعضهم في مهام تجسسية لصالح المعسكر الإشتراكي .

هنا استخدم أحد الصحفيين الأميركيين تعبير ( غسل الدماغ ) للدلالة على مجموعة الأعمال التي قامت بها الأجهزة المعادية في محاولة لتغيير اتجاه الأسرى الغربيين .

فما كانت تلك الأعمال ؟<sup>(١)</sup> .

١ - كانوا يستقبلون الأسرى ، بابتسامة وبشاشة ، ويصافحهم الواحد تلو الآخر ( على نقيض توقع الأسرى ) .

٢ - بعدئذ يهنشوهم بأنهم هربوا من قيود الرأسمالية ، وتكرر عليهم كلمات : كن مقاتلاً من أجل السلام ، وطبعاً أنت تريد ذلك ، وكل إنسان نابه يريد ذلك .

٣ - ويطلب بعدئذ من كل أسير أن يوقع على تعهد ، ودعوى من أجل السلام ، إن قاوم وامتنع ، قيل له إن توقيعه مجرد تأكيد على رغبة عالمية لكل البشر المفكرين ، ويوقع غالبية الأسرى مخلصاً من الإزعاج .

٤ - يحاولون التعرف على جميع تصرفات الأسرى ، ويقدمون لهم استمارة معنونة باسم الصليب الأحمر ، ليزعم الأسير أن ما يكتبه ، يهم الصليب الأحمر ، وفي تلك الاستمارة يطلب من الفرد كتابة كافة المعلومات المفيدة عن نفسه ، وعن

---

(١) بتصرف وتلخيص من كتاب غسل الدماغ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٤ .

أقاربه ، وعن عمله ، وبلدته و . و . وتُستخدم المعلومات للكشف عن شخصية الأسير .

٥ - يوضع الأسرى في معتقلات تُدار من قبل « أمر المعتقل » الذي قلماً يراه أحد ، ويقوم بالتحقيق رجال يتحدثون الانكليزية بطلاقة .

والمحقق مزود بكافة الصلاحيات على الأسير لتنفيذ عملية غسل الدماغ عليه ، مثل فرض العقوبات عليه ، وتخفيضها ، وإبدال الأعمال .

٦ - يستغرق عمل الأسير ١٢ ساعة من الساعة ٧ صباحاً إلى ٧ مساءً وتدور المحاضرات والتعليمات والمناقشات ، من الساعة ٩ صباحاً حتى الظهر ، ومن ٣ بعد الظهر إلى ٤ مساءً ، ومن ييدي منهم استعداداً للمطالعة يُسمح له بالبقاء في مكتبة المعتقل ، إلى الساعة التاسعة مساءً ، وتكون المكتبة مليئة بالكتب الانكليزية ، المنتقاة التي تخدم هدفهم . المحاضرات تدور حول إثارة الحقد ضد أميركا ، والدور السلمي للدول الاشتراكية ، ويتم توزيع النشرات الاشتراكية ، ويطلب من الفرد تكرار قراءة النشرات ، وحفظ ما فيها ، ومن ييدي قلة اكرات بالمحاضرات ، تُعاد عليه في نهاية الليل . ومن يشاكس يحرض عليه أصدقاؤه .

٧ - وتؤدي المناقشة والجدال بين الزملاء ، تدريجياً إلى فقدان الثقة بينهم ، وإلى الريبة والحذر ، وإلى ظهور المخبرين على بعضهم البعض .

٨ - ويبحث المحققون ، الرعب في نفسية الفرد ، فيدخل أحدهم يحمل مسدساً ضخماً ، ومن ورائه مساعده ، ويأتي معه بملف كبير كتب عليه « سري للغاية » ويزعم أنه يحتوي على معلومات دقيقة عنه جاءت عن طريق مخبرين سريين .

٩ - تخضع علاقة الأسير بذويه للرقابة ، فلا تصل الرسائل المسرة إليه ، أما الرسائل المحزنة فتوصل بسرعة ، وإذا تأخرت الرسائل فينسب ذلك إلى ضرب

العدو لخطوط المواصلات ، ويُنسب إلى إهمال الأهل لينقطع الأسير نفسياً عنهم .

وكانت نتيجة هذه العملية أن ١٣٪ فقط من مجموع الأسرى ، هم الذين لم يتأثروا بالعملية ، وكانوا من الجنود الأتراك ، وكانت لخلفياتهم الدينية أكبر الأثر ، في مقاومتهم لغسل الدماغ .

أما البقية فقد انهاروا إن سريعاً أو ببطئاً وانقلبوا إلى دعاة للإشتركية في بلادهم .

### عملية غسل الدماغ وأسلحة التأثير :

ما هي الأسلحة التي تستخدمها عملية غسل الدماغ ، لغزو فكر الإنسان ؟ فيما يلي نجيب على هذا السؤال باقتضاب :

أ - استخدام العقاقير الطبية التي تشل مقاومة الأعصاب .

« وقد سبق أن عقاقير كمثل ( العقاقير المهلوسة ) تؤدي بصاحبها ، إلى حالة تصوفية ، حاملة ، بحيث تبدو الأشياء التافهة والدقيقة مسائل ضخمة جبارة أمام عقل الفرد »<sup>(١)</sup> .

ب - استخدام ضرورات العيش ، من طعام وراحة ، ونوم . فكل من تعرض لعملية غسل الدماغ ، جوع ورؤوس وأرق سهر ، ونصباً ، لتشل مقاومته النفسية ، وفي ذلك يذكر وليم جيمس ، بضع وقائع من التحول الديني ، بعد فترة عصبية من الارهاق النفسي ، والسهر والإعياء ، أو التسمم بالكحول ، الذي كاد أن يقتل ذلك الإنسان ، كذلك يؤيد العالم الفسلسفي الروسي (لويبا) بعد تجارب مختبرية ، تلك التحولات نحو الحقيقة والإيمان بعد فترات الضنك ، والتجارب القاسية ، ومن العلاجات التي تتبعها الكنيسة المسيحية ، لمن يصاب بالأفكار

---

(١) غسل الدماغ ، ص ١٧٤ .



الحصرية ، وهي الصلوات الطويلة والصوم إلى حد الذبول<sup>(١)</sup> .

وربما تعود حالة الاستسلام الفكري ، في أوقات شدة الإنسان ، تعود به إلى نسيان عاداته ، وأفكاره السابقة ، خصوصاً الباطلة منها ، كما حدث مثلاً لكلاّب بافلوف ( بعد حادث الفيضان الذي أصاب أقفاصهم ) .

والدين الإسلامي استفاد من حالة التوتر والإضطراب ، في توجيه الإنسان إلى الحير ، ونحن نعلم أن لصلاة الآيات<sup>(٢)</sup> وصلاة الاستسقاء ، وصلاة الميت ، آثاراً نفسية خيرة لأنها تقع في أوقات حرجة ، كما أن تشريع الصوم قد يكون بهدف ترويض النفس لتقبل بالفكر الصحيح . أما في الحرب الكورية ، فإن هذه الحالة استخدمت من أجل بث أفكار باطلة وذلك عن طريق تجويع الفرد وجعله يركز فكره في أمر واحد فقط هو السعي وراء الحصول على ضرورات العيش وحين أصبح كذلك أعطي الطعام وأعطى معه الفكرة . فتعلقت نفسه بالفكرة من خلال ارتباطها بالطعام إذ الطعام أصبح الحاجة الوحيدة له في تلك الحالة العصبية

ج - استخدمت حاسة التوافق الإجتماعي ، حيث كان الأسير يتعرض لنقد أصدقائه إذا قاوم تأثير المحاضرات ، وكان المحققون يلقون بالفرقة بين الأسرى ، لكي لا يثق بعضهم ببعض ، وأخذ كل واحد منهم يعاني من الوحدة ، ويشعر بفراغ حاسة التوافق في نفسه ، فإذا به يبحث عن أصدقاء . فأنثذ يعود إلى أعدائه ، فلعلهم يصيبحون أصدقاءه ، وهذا ما حدث بالضبط ، إذ أن الفرد يتجنب إحداث المشاكل مع مجتمعه ، بل يحاول أن يخلق لنفسه حالة من الوثام مع بيئته ، ليعيش في سلام .

« ويتجنب الفرد أيضاً المشاكل ويصبو إلى الهدوء بإيجاد شيء من التجانس مع جماعته ، وهي آلية أخرى من آليات فرويد دعاها بالمواءمة أو حب التوافق

---

(١) المصدر ، ص ١٧٨ .

(٢) وهي الصلاة التي يصليها المسلم عند الكسوف والخسوف أو الزلازل وما أشبه .

(Conformation) ومحاولة التجانس مع المجموعة تبدأ منذ أيام الطفولة ، ولولاها أصبحت الحياة مستحيلة<sup>(١)</sup> .

د - استخدمت غريزة الهروب من الفراغ . حيث لا يتحمل الإنسان الفراغ لفترة طويلة ، وقد رأينا كيف أن المحققين كانوا يمنعون وصول الرسائل من ذوي الأسرى إليهم ، ليجعلوهم في إطار الفراغ ، الذي لا يمكن تحمله .

وقد أجرى أحد علماء النفس تجربة على نفسه إذ دخل في حجرة معزولة عن كل صوت ، مكسية جدرانها بالجلد المحشوب بالاسفنج ، فلم يتحمل المكوث أكثر من دقائق ، وشرع يستغيث طالباً إخراجَه .

ويقول العالم الفلسفي هيب (Hibb) : إن أحد طلاب الجامعة الأصحاء ، تطوع أن يعزل نفسه عن الإحساسات الخارجية ، والأصوات لمدة أيام ، وقد وصف بعدئذٍ مشاعره قائلاً : إنه أصبح منشطاً إلى شخصين ، لا يدري أيهما هو ؟ الشخص ذو الهلوسات ، أم المخلوق المنهار المرتع ؟ وإنه أصبح عديم البصيرة ، قليل التمتع ، والتمحيص ، شديد الرغبة للإصغاء والاعتقاد ، بكل ما يقفز إلى فكره من سخافات<sup>(٢)</sup> .

هـ - استخدمت حالة الارتباك التي تصيب الإنسان عند الضوضاء والصخب ، حيث إنَّ مخَّ الإنسان ، يستطيع أن يتحمل درجة معينة من الضوضاء ، أما إذا زاد فإنه لا يمكنه تحمله ، كما لا يمكنه تحمل الفراغ ، وقد كانت عملية غسل الدماغ ، في الحادثة السابقة ، تركز على المحاضرات ، العديدة المتواصلة ، التي لا يستطيع الفكر من ملاحظتها ، فيضطر إلى الاستسلام لها .

---

(١) المصدر ، ص ٢٤٤ .

(٢) غسل الدماغ ، ص ٥٠ .

وللضوضاء والصخب والضجيج ذات التأثير المعاكس ، للصفاء الذهني ، والهدوء العقلي ، فكما أن الصمت والعزلة يهددان الدماغ ، فكذلك ارتفاع الصوت وضجيجيه يهدد المخ ويربكه ويزعجه ، فالدماغ الذي يعمل ينسق ذبذبات معينة تحدث في خلاياه تغيرات ضارة إذا ما تلقى ذبذبات صوتية قوية وحادة .

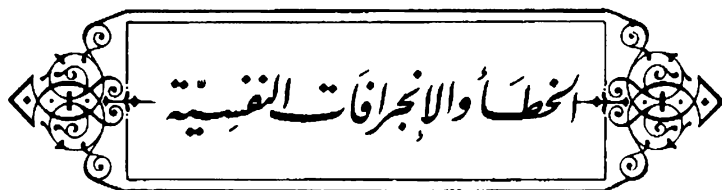
ومن التجارب المختبرية تبين أنه يمكن إحداث هياج وارتباك في الإنسان إذا وجهت إليه ، أصوات ذاتذبذبة خاصة ، فينقلب الإنسان العادي إلى فرد لا يقر له قرار ، ولا يستوي به مكان . والبوليس الأميركي في بحثه عن كيفية تفريق المظاهرات المتكررة ، اخترع صفارات هائلة الحجم ، يوجهها إلى المتظاهرين ، الذين سرعان ما يشعرون بالمخمول ، والتعب والانهيار<sup>(١)</sup> .

---

(١) المصدر ، ص ٢٤٦ .

القسم الثالث :

كيف نتجنب الخطأ؟



ما هي الغرائز ؟

- . بين الغرائز والصفات السيئة .
- . الإحساس بالضعف أو الضعة .
- . بين الرذائل والإحساس بالضعفة .
- . بين شذوذ النفس وخطأ التفكير .
- . الغرور العلمي .



## ما هي الغرائز

أول ما يفاجئنا عند الحديث عن أثر الغرائز في عقلية البشر هو السؤال التالي :

ما هي حقيقة الانحرافات النفسية ؟ وما هي حقيقة الكبر والحسد والغرور ؟  
ثم ما هي مصادرها ؟

ويتبع هذا السؤال استفهام آخر ، أشمل ، وأعمق منه ، هو : ما هي الغرائز البشرية ؟ وما هو دورها في خلق الشخصية المتميزة ؟

ذلك لأنه إذا عرفنا حقيقة الغرائز ، فبسهولة ، نستطيع : معرفة الانحرافات النفسية ، ثم دورها في إضلال البشر . . . فلنبحث أولاً عن حقيقة الغرائز .

نشأت لفظة (الغريزة) من معنى (الغرز) وهو دخول شيء في شيء آخر ، بصورة كاملة ، وراسخة كمثل غرز المسمار في الجدار .

وتعني هذه الكلمة : القوى الراسخة في طبيعة الإنسان رسوخاً لا يمكن انفصالها عنها .

وتساوي كلمة الغريزة ألفاظ : الطبيعة ، الفطرة ، البنية ، ولكن لفظة (الغريزة) أقواها دلالة ، على المعنى المقصود .

وقد بحث عن واقع الغريزة ، كل الفلاسفة ، منذ ظهور الفلسفة ، وبين الدين الإسلامي الكثير مما يرتبط بها .

والذي يهمنّا من ذلك كله الأمور التالية ، التي هي نتائج البحوث حول الغريزة :

١ - إن الكائن الحي بحاجة إلى الطاقات الآتية إليه من الطبيعة ، تماماً كحاجة أي جسم إلى الطبيعة ، التي تحتضنه ، ولكن بفارق واحد هو أن الجسم الحي يحس بهذه الحاجة ، ولذلك سمي الحيوان بأنه : نام حسّاس .

٢ - وهذا الإحساس ، ناشىء من عمليات الأعصاب الداخلية والخارجية ، التي تحمل إلى الدماغ ، كل التطورات الحيوية ، التي تطرأ على الجسم .

فمثلاً : الحاجة إلى الدفء ، يحس بها الإنسان من إحساس الأعصاب بالبرد ، ثم يحمل هذا الإحساس إلى الدماغ . والحاجة إلى الطعام ، تعرف من الأعصاب الداخلية ، التي تحمل هي الأخرى ، إلى الدماغ ، تأثيرات الأجهزة الهضمية وكذلك الحاجة إلى الجنس والنوم و . و .

٣ - وبوجود هذا الإحساس يوجد الألم ، الذي قد يكون خفيفاً ، فنسميه (بالرغبة) ، وقد يكون شديداً فنسميه (بالوجع) . وحقيقة الألم أنه نوع من الضغط البيولوجي ، على الإرادة البشرية ، لكي تتخذ تصميماً باتجاه تقليل ، أو رفع هذا الألم . كما يضغط الابن على والده الشفوق بتهينة حاجة له .

وخضوع الإرادة لنداء الألم ، يعني اتباع الإنسان لغريزته .

إذاً فللغريزة ثلاث مراحل : مرحلة الحاجة البيولوجية ، فمرحلة الإحساس الحيوي ، ثم مرحلة الضغط على النفس . ونستطيع أن نسمي المرحلة الأولى بالغريزة ، والثانية بالشهوة ، والثالثة بالهوى .

ويسمي بعض علماء الاجتماع المرحلة الأولى بـ ( قوس المروءة ) والثانية بـ

( قوس المركز ) والثالثة بـ ( قوس المصدر ) .

يقول الكسيس كاريل ان أكثر العواطف ناشئة من الغدد الداخلية ، ومن أعصاب سيماتيک ، ومن القلب ، وقليلاً ما تنشأ العواطف من الدماغ . إن الرغبة والشجاعة والحدق تدفعنا إلى تطبيق الخطط التي رسمها العقل للإنسان ، والخوف والغضب والعزلة والجراة والإقدام إنما هي تعمل بواسطة أعصاب سيماتيک في الغدد ، التي تحملنا بسبب من إفرازاتها ، على حالة العمل أو الدفاع أو الفرار أو الإقدام .

وإن غدد ( هيبوفيزوتيرويد ) والغدد الخبيثة وفوق الكلوى ، هي التي تمكنا من الوله والهيجان<sup>(١)</sup> .

من هنا نعرف أن الغرائز ، التي هي أصل العواطف ، إنما تنشأ من حاجات بيولوجية ، تشعر بها الأعصاب ، أو تفرزها الغدد الداخلية .

وتؤيد النصوص الإسلامية ارتباط الغرائز بالبنية الترابية للإنسان ، بذات القوة التي أيدتها النصوص العلمية وإليك بعضها :

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، انه قال ضمن حديث شرح خلاله كيفية خلق ابن آدم ، قال : فلزمه من ناحية الريح ، حب الحياة ، وطول الأمل ، والحرص ، ولزمه من ناحية البلغم ، حب الطعام ، والشراب ، واللين ، والرفق ، ولزمه من ناحية المرة : الغضب ، والسفه ، واليقظة ، والتجبر ، والتمرد ، والعجلة ، ولزمه من ناحية الدم ، حب النساء ، واللذات ، وركوب المحارم ، والشهوات<sup>(٢)</sup> .

يظهر لنا من هذا الحديث ، مدى ارتباط الغرائز البشرية ، بالعناصر

---

(١) راه ورسم زندكي .

(٢) بحار الأنوار ، ج ١٤ ، ص ٤٧٦ .



المادية ، التي تتفاعل فيه ، كالهواء والدم والماء والبلغم ، فهي بحاجة إلى امتداد خارجي بالطاقات المناسبة ، فيندفع الإنسان إلى تلك الطاقات ، وتتكون لديه الغريزة .

فالغريزة ، عند الإمام ، هي نزوع العناصر الطبيعية المتواجدة في الجسم ، إلى الطاقات المادية التي تمدّها بالبقاء .

وفي حديث آخر روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال : الحزم في القلب ، والرحمة والغلظة في الكبد ، والحياء في الرئة<sup>(١)</sup> .

ومن الواضح أن القلب والكبد والرئة ، هي المواقع التي تتواجد فيها عناصر الجسم ، كالدم والمرة ، والهواء والتي يربط بينها وبين الغرائز الحديث السابق . ويؤكد بعض الباحثين هذه الحقيقة إذ يعرف الغريزة بما يلي :

« إن الغريزة استعداد نفسي عضوي - هذا الاستعداد فطري أو موروث - وهو يحتم على حامله أن يدرك أو ينتبه إلى فئة معينة من الموضوعات وأن يعاني إثارة وجدانية ذات لوم معين إذا ما أدرك هذا النوع من الموضوعات كما يحتم عليه أن يقوم بفعل معين أو يعاني على الأقل دفعاً نحو القيام بهذا الفعل »<sup>(٢)</sup> .

٤ - المراحل الثلاثة : الحاجة ، الإحساس ، الألم ، تخضع في قوتها أو ضعفها لمقاييس :

أ - مقياس ذاتي ، تابع من مدى شدة المراحل نفسها . فشدة الحاجة إلى الجنس ، أو شدة الإحساس بهذه الحاجة ، أو شدة الألم الناشئ من هذا الإحساس ، هو الذي يحدد مدى غريزة الجنس في الفرد .

وباختلاف الناس في الحاجة إلى الجنس ، والإحساس بها ، والألم منها ،

---

(١) بحار الأنوار ، ج ١٤ ، ص ٤٧٧ .

(٢) عن كتاب راه ورسم زندكي ، ص ١٣٠ .

تختلف غرائزهم الجنسية .

ومن هنا نستطيع تحديد بعض ملامح شخصية الأفراد ، بمعرفة مقاييس غرائزهم ، من نواحي الحاجة والإحساس والألم ، فالشاب في المناخ الحار ، يختلف في شدة حاجته الجنسية عن الشيخ في المناخ البارد .

وصاحب الإحساس الشعاعي الرهيف ، يختلف عمن سواه في مدى إحساسه بحاجته إلى الجنس ، كما يختلف في مدى تألمه من هذه الناحية .

ب - مقياس إرادي ، بما أن ضغط الغريزة متوجه إلى الإرادة ، فنستطيع معرفة مدى تأثير الغريزة ، بمدى ضعف الإرادة كما نعرف مدى ضعفه ، بمدى قوة الإرادة في علاقة عكسية .

من هنا نرفض بشدة فكرة حتمية الخضوع للغرائز ، بل لا نعتبر الغرائز سوى أدوات ضاغطة على النفس ، باتجاه إشباعها .

٥ - حينما يصمم الانسان بإرادته على اتباع الغرائز ، يستخدم كل طاقاته في هذا الاتجاه ، ومنها طاقة الذكاء . فالذكاء كأية مقدرة بشرية أخرى وسيلة من وسائل إشباع الغرائز ، لا فرق فيها بين الذكاء الخارق أو الداني إلى ما يقترب من مستوى الغباء .

فبازدياد هذه الطاقة لا نضمن تخفيف حدة الغرائز ، بل بالعكس كما يظنه بعض الفلاسفة ، نجد نفاذ الذكاء قد يزيد ، من حجم الغرائز ، لأنه يزيد من إمكانيات إشباعها .

لذلك لم يكن من الصحيح ، افتراض تسامي حضارة البشر الروحية بازدياد نسب الذكاء فيهم ، بل قد يكون العكس هو الصحيح .

٦ - ويلعب الذكاء<sup>(١)</sup> دوراً خطيراً ، في بلورة إحساس الإنسان بالغرائز ،

---

(١) نعني بالذكاء جميع المقدرات العلمية بما فيها من فطنة وبصيرة وفهم وحفظ . . .

مما يفتح فجوة بينه ، وبين سائر الأحياء . . . لا تزال تتسع ، كلما اتسعت إمكانات البشر الحضارية .

غريزة الجنس عند الإنسان ، لا تختلف عنها عند الحيوان ، في أنها حاجة بيولوجية ، أو أنها جوعة فسيولوجية ، بل إنما تختلف في أنها حاجة سيكولوجية عند الإنسان ، دون الحيوان . إذ إن البشر قد بلور إحساسه بالجنس فوق مستوى الحاجة الحياتية المحدودة ، فهو أبدع الفن وتذوق الجمال ، وأنشد الأشعار و . و . وهو خلق وسائل جديدة لإشباع الجنس لديه ، بل أدخل الجنس في كثير من نشاطاته الأخرى .

والذكاء ، هو الذي بلور الإحساس بالغريزة عند الإنسان ، ما فرق بينه وبين سائر الأحياء ، وحينما شعر البشر بالآلم النابع من ضغط الحاجة الغريزية ( إلى الطعام ) راعه هذا الآلم . وأعمل ذكاء في القيام بما ينقذه منه في المستقبل ، وساعده على ذلك قدرته على حفظ أحاسيسه السابقة ( بالذكاء ) .

فمن جهة فُكر في ضمان دائم لإشباع غريزة الجوع ، بعد أن وجدها وتآلم منها ، ومن جهة ثانية حفظ في نفسه صورة من ذلك الآلم ، الذي كان قد أصابه عندما كان جائعاً ، فأبدع نظام التخزين للمواد الغذائية .

وكذلك فكر في وسيلة لضمان اشباع غريزة الجنس ، يساعده ، على ذلك شعوره بمدى تألمه من فراغه الجنسي ، فتزوج . وهكذا . . . فذكاء الانسان أمد الغرائز الطبيعية ، بإمكانية الإمتداد عبر الزمن ، وكان الذكاء يصب الزيت أبداً على منطقة الغرائز المشتعلة .

ونشأ من هذا الإمتداد الرجاء والخوف . رجاء ضمان لإشباع الغرائز ، وخوف عودة الآلم الذي يتذكره الإنسان أبداً .

إذاً تتلخص غرائز الإنسان في بؤرة واحدة هي الشعور بالآلم . ويبقى هذا

الشعور ، حتى بعد وجود الألم بفعل الذكاء ، وهذا فارق الإنسان عن سائر الأحياء .

### بين الفرائز والصفات السيئة :

تدفع الفرائز الإنسان نحو إشباعها وفي الحالات العادية يتخذ الإنسان السبل المستقيمة نحو تلبية غرائزه .

وفي هذه الحالات ، تقوم علاقة شرطية بين الفرائز ، وبين الوسائل المتبعة لإشباعها ، بحيث يندفع الفرد نحو تلك الوسائل بدافع تلك الفرائز . فمثلاً التاجر يندفع نحو محله بدافع غرائزه ، لأنها قد أشبعت بهذه الوسيلة .

والسبب في وجود هذه العلاقة ، ما يسميه بعضهم بالرد الفعلي الشرطي . . . والذي يتلخص في أن الإنسان يحب شيئاً أو يكرهه لمجرد علاقته بشيء آخر ، محبوب أو مكروه .

ولكن حين تصطدم الغريزة بمواقع خارجية تشذ عن سواء الصراط ، نتحدث في النفس الصفات السيئة .

فإشباع غريزة الجوع مثلاً قد يكون - في الحالات الاعتيادية - عملاً شريفاً يدر ربحاً مناسباً يغطي حاجة الفرد إلى الطعام .

فإذا افتقد الفرد هذا الطعام بسبب أو بآخر ، فمن جهة وجود الغريزة ، ومن جهة أخرى تذكر ألمها الذي يخافه الفرد . يدفعانه إلى عمل أي شيء ممكن ، لضمان إشباعها الآن وفي المستقبل . وهنا يختار الإنسان طريق الجريمة ، وفي المرة الأولى أو الثانية ، لا تنشأ عن الإنسان صفة نفسية منحرفة ، إنما ينشأ عنه إشباع غير مشروع لغريزة الجوع ، وذلك عن طريق السرقة ، ولكن بتكرار إحباط غريزة الجوع وعدم قدرة الفرد على إشباعها بطريقة شريفة .

وبتكرار ممارسة الجريمة لإشباع الغريزة ، تنشأ في النفس ، علاقة بين

غريزة الجوع وبين الجريمة لأنها تكون الوسيلة الوحيدة المتبعة لإشباعها ، وتكون دافع الغرائز باتجاه هذه الوسيلة هذه المرة .

وهنا يتحول الفرد من مجرد مجرم ، إلى ممارس للجريمة ومتعود عليها ، وتكون السرقة ليست مجرد حادث في حياته ، بل تكون أسس حياته أيضاً .

وما يُقال في غريزة الجوع يُقال في غريزة الجنس ، فالذي أحبطت فيه هذه الغريزة ، يحاول إشباعها بطرق شاذة ، ويتكرر الإحباط ، ثم الإشباع بطرق غير مشروعة ، تتكون في النفس علاقة بين الغريزة وبين الطرق الشاذة ، فيتسبب في أنه يندفع نحوها ، بكل ما في غريزة الجنس ، من قوة قاهرة .

### الاحساس بالضعف :

في ضوء المبادئ السابقة ، نستطيع ، بسهولة ، كشف حقيقة الصفات النفسية السيئة ، كالكبر والحسد ، والغرور ، بالرغم من أنها معقدة بعض الشيء ...

وأولى الحقائق التي ينبّه إليها الشرع والعلم ، ارتباط الكبر والحسد والغرور بما يدعى بـ ( عقدة الحقارة ) أو الشعور بالضعف ، أو الإحساس بالضعف ، أو الهلع .

لذلك يكون من الضروري البحث عن حقيقة الإحساس بالضعف ، لمعرفة هذه الصفات ومدى علاقتها بالضلالة البشرية .

قلنا آنفاً إنَّ الغرائز تبدأ بالإحساس بالحاجة ، وتنتهي بإيجاد الألم في النفس ، وهذا الألم يتبلور عند الإنسان بفعل الذكاء البشري ، حتى يصبح ممتداً في عمق الزمن ، بحيث يحس به الشخص حتى قبل أو بعد وجود الحاجة إلى الغرائز .

وهذا الألم بالذات يتحول إلى الشعور بالضعف ، فالإنسان حين يتذكر ألم

الغرائز يبحث عن وسيلة تخلصه من الألم مرة واحدة وإلى الأبد ، وهذه هي عقدة الإنسان الأولى .

فهو من جهة يعرف أن الحياة تقهره ، وهو من جهة ثانية يريد أن يتحدى الحياة ، فيبحث عن قوة خارجية يضيفها إلى نفسه .

والحرص على المال والسلطان الذي فطر عليه كل إنسان ، يأتي من هذا الشعور القوي بالضعف عنده . فإحساسه بضعفه ، واعتقاده بأن المال والسلطان قوة ، هو الذي يدفعه نحو الإزدياد منه حتى فوق مستوى حاجاته الطبيعية .

كما يأتي تثبيت الإنسان بالآلهة المزعومة من هذا الشعور العارم بضعفه ، وبضرورة إيجاد ضمان لنفسه لإشباع غرائزه وتخليصه من آلامها .

يقول القرآن الحكيم وهو يبين دور الشعور بالضعف في الحرص على المال والسلطان ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ . . . [ ٣ / الهُزْءَة ] .

كما يبين القرآن دور هذا الشعور في اتخاذ الآلهة ويقول :

﴿ وآتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾ . . . [ ٧٤ / يس ] .

ولا يعرف الشخص كم هي المساعي التي يجب أن يبذلها ، حتى يجد القوة التي تجبر الضعف ، الذي يحس به في نفسه . والعالم المحيط بالشخص ، في بدايات عمره ، ذو أثر فعال في تحديد هذه المساعي عنده ، فقد يعتقد الفرد - بسبب من موحيات أيام الطفولة - أن قدراً بسيطاً جداً من المساعي ، كافية لإيجاد ضمان لإشباع غرائزه ، وقد يعتقد العكس وهو أن عليه أن يبذل كل ما يملكه من طاقة ، حتى - بالكاد - يحصل على ضمان كافٍ لنفسه . وبين هذين الشعورين المتطرفين يستقيم بعض الناس ، ويعرفون ، تقريباً ، المقدار المناسب من الضمان .

أما سبب اختلاف عقائد الناس ، في هذا الشأن ، فهو نوع التربية ، التي تلقوها أيام الطفولة ، والتي تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

أ - التربية المتطرفة باتجاه سهولة إشباع الغرائز ، كتربية الطفل المدلل ، الذي يجد والديه يسرعان نحو إشباع رغباته كلما أشار إليهما بذلك ، إنه يحسب أن إيجاد ضمان لنفسه لا يحتاج إلى أكثر من عمل بسيط ، مشابه لما قام به أيام الطفولة .

ب - التربية المتطرفة ، باتجاه معاكس ، أي التربية التي لا تشبع غرائز الطفل إلا بعد جهدٍ بالغ ، كالطفل المحقر في المحيط العائلي ، فإنه ، بعكس الطفل المدلل ، يعتقد أن الغرائز الطبيعية ، بحاجة إلى تحدٍّ قوي للناس ، حتى يستطيع إشباعها .

والطفل المدلل إذا خرج عن دور الطفولة ، إلى مرحلة الشباب ، وواجه صعوبات الحياة ، وعرف أن إشباع غرائزه لن يكون بتلك السهولة التي يعهدها في دور الصغر ، يصاب آنئذٍ برد فعلٍ عنيف تجاه المجتمع ، فيعتقد أنه يعاديه حين لا يشبع رغباته بتلك الطريقة ، التي كان يتبعها والداه ، فهو لا يستطيع أن يكشف خطأ فهمه للحياة ، وأنها ليست بتلك اللينة التي زعمها ، بل يروح يتصور خطأ المجتمع تجاهه ، بصفة خاصة ، وهنا يصاب بعقدة حقارة تماماً كالذي تعرض في طفولته لإهانات بالغة لكرامته .

ج - التربية المعتدلة . التي تدع الطفل يواجه الحياة ، بما فيها من صعوبة ويسر ، وبساطة وتعقيد ، فإنها الطريقة الوحيدة ، التي تستطيع إبقاء الفرد خارج إطار الشعور بالضعف والاحساس بالحقارة البالغة .

بينما الذي تعرض لعقدة الحقارة ، إما بسبب تعرضه للإهانة ، والإخفاق ، في أيام الطفولة ، أو بسبب زعمه في البداية بسهولة الحياة ، ثم اصطدامه بصعوبتها وإصابته - تبعاً لذلك - برد فعلٍ عنيف . إن مثل هذا الشخص ، تتسم

نفسيته بأمرين :

١ - بتفضيل التحدي على الإنسجام مع الحياة ، لزعمه أن غرائزه لا تشبع إلا بالتحدي ، كما عهد ذلك أيام الطفولة ، أو عند إخفاقه في مواجهة الحياة .

٢ - باعتقاد عداوة الناس معه ، مما يدعوه إلى التحذر منهم من جهة ، والسعي نحو إحراز القوة في مواجهتهم من جهة ثانية ، ومقابلة عداوتهم بعداء مماثل من جهة ثالثة .

وهذه هي الجذور الخبيثة التي تفرع الصفات النفسية السيئة .

يقول هر . آ . أوراسترايت :

« قد يزعم الطفل في أدوار حياته الأولى ، أنه لا يستطيع بلوغ أمانيه إلا عن طريق إيذاء نفسه أو الآخرين » .

« فمثلاً يزعم بأنه يقدر على إخضاع ذويه لرغباته ، لو صاح بصوت عالٍ ، أو رفس برجله الأرض ، أو خمش رجله ووجهه وأدماه » .

« وعندما يشب الطفل على هذه الحالة ، فمن الممكن أن يظل حتى في دور الشباب ، بل إلى أن يبلغ سن الأربعين من عمره ، يظل يعتقد بأن وسيلة الحصول على أمانيه ، إنما هو الغضب ، والهياج ، وإيذاء الزوجة وضرب الأولاد ، وكييل السباب لمن دونه من الناس » .

« وفيما لو دخل هذا الطفل حقل السياسة ، فإنه ، بدلاً من استخدام الأساليب المنطقية المقنعة ، يحاول إحراز النجاح بأساليب عنيفة ضد مخالفيه والمعارضين له ، مشابهة تماماً ، لتلك الضربات والصرخات التي كان يستعملها في دور طفولته »<sup>(١)</sup> .

---

(١) عقل كامل ، ص ٢٣ .



من الدراسات الدقيقة والهامّة التي أُجريت على الطب النفسي للجريمة في دور الشباب هي دراسة « هلي وبرونز » حيث قام هذان العالمان بفحوص دقيقة وعميقة لحالة (١٠٥) زوجاً من الأطفال الذين ارتكبوا الجرائم ، كما فحصوا أحوال وأوضاع إخوانهم للمقارنة بينهم وبين المجرمين ، ابتغاء كشف العوامل المرتبطة بالوراثة والتربية .

ووصلنا بالتالي إلى النتيجة التالية : إن زهاء ٩١٪ من المجرمين الشباب ، كانوا يشكون من اختلالات عاطفية شديدة ، من ناحية الروابط الإجتماعية ، وذلك لإفتقارهم للعواطف الحنونة ، فهم كانوا يحسون من جهة بالخوف ، ويشكون ، من جهة أخرى من الاختلالات العاطفية ، المرتبطة بالأمور العاطفية . كانوا من جهة ، مصابين بالحسد والغيرة من إخوانهم ، ومن جهة أخرى كانوا يعانون من توتر شديد ، وعميق في عواطفهم ، وميل شديد نحو الانتقام لأنفسهم<sup>(١)</sup> .

### بين الرذائل والاحساس بالضعف :

وهناك علاقة وثيقة ، تربط بين الرذائل جميعاً ، وبين الإحساس بالضعف ، ارتباط السبب بالحادث ، وتشير هذه العلاقة في الخط التالي :

١ - بوجود الحاجة الحيوية إلى الفرائز ، وضغط الجسد ، على الإرادة باتجاه تحقيقها ، تبدأ مرحلة الألم .

٢ - وبذكاء الإنسان يبحث البشر ، عن ضمان دائم لرفع الألم ، تبدأ بذلك مرحلة الشعور بالضعف ، وإرادة التحدي له .

٣ - وبسبب سوء المحيط التربوي ، أو ندرة الإشباع ، يتقوى الشعور بالضعف ، وتتقوى إرادة التحدي له .

---

(١) روانشناسي إجتماعي ، ص ٤٤٧ .

٤ - وبجهل الإنسان ، وسوء تربيته ، يختار طرقاً ملتوية ، يجد أن شعوره بالضعف ، وإشباع شعوره ، بضرورة التحدي . . . وهكذا تنشأ العلاقة بين الغرائز وبين الرذائل بواسطة الإحساس بالضعف .

وقد سبق الحديث عن البنود الأول والثاني والثالث ، وبقي علينا تفصيل الحديث عن البند الأخير لنعرف السبب الذي يجعل الإنسان يعبر عن شعوره بالضعف ، بصفة سيئة ، مثل الكبر أو الحسد .

لمعرفة هذا السبب ، لا بد أن نعرف أن النفس البشرية ، تشبه فرداً جالساً في قلعة محصنة ، وأمامه طبق من الفواكه . في خارج القلعة تنتشر حقول الفواكه ، تعود ملكية بعضها إليه . وبعضها للناس الآخرين .

فحينما يجوع هذا الشخص يجد أمامه أحد الطرق التالية :

- أن يكتفي بالفواكه الموجودة فعلاً لديه ، يزعم أنها أفضل الفواكه
  - أن يخرج من القلعة إلى حقول الناس ويسرق من الفواكه ما يشبع بهجوعه .
  - أن يخرج إلى حقوله الخاصة ويستفيد من فواكهها الخاصة ، كذلك النفس ، تحتاج إلى القوة ( لتجبر بها ضعفها ) فتجد أمامها أحد الطرق التالية :
  - إما أن تكتفي بما لديها من القوة الداخلية ، بزعم أنها تكفيها في مصارعة الحياة ( وهذه حالة الإنسان المعجب بنفسه ) .
  - أن تحاول إحراز القوة بظلم الناس وغضبهم ( وهذه حالة المتجبر الظالم ) .
  - وأن تحاول تحقيق القوة بالطرق المشروعة ( وهذه هي الحالة المستوية للناس ) .
- ويشارك الإنسان الأول والثاني في :
- إنهما معاً يشعران بالضعف . ويحاولان تغطية هذا الضعف ، بغير الطريق الطبيعي .

- إنهما يعاديان الناس ويحتقرانهم ، فالذي يعجب بنفسه ويعتبرها أحسن من غيرها يحتقر الناس ، والذي يظلم الناس ويتجبر عليهم يعاديهم بالطبع .  
ومن هنا جاء في الحديث : ما من رجلٍ تكبر أو تجبر إلا لذلةٍ وجدها في نفسه<sup>(١)</sup> .

وبكلمة أخرى ، الذي يتكبر على الناس يظلمهم ، والذي يظلم الناس يتكبر عليهم . فالظلم هو الوجه الظاهر للتكبر ، والتكبر هو الوجه الباطن للظلم ، وكلاهما يعبران عن شعور بالضعة ، وإسقاط هذا الشعور على الناس ، والفرق أن المتكبر يغمط حقوق الناس المعنوية ، والظالم يسلب حقوق الناس المادية .

وجاء في حديثٍ آخر : ما من أحدٍ يتيه إلا من ذلةٍ يجدها في نفسه<sup>(٢)</sup> . . .  
فالتكبر ( إعجاب النفس بذاتها ) والتجبر ( ظلم النفس للآخرين ) ينشآن من منبعٍ واحد هو الشعور بالذلة . . . والإحساس بالضعة .

والغرور ، والإعجاب بالنفس ، وجهان من وجوه التكبر ، إذ أن التكبر هو محاولة النفس جبران ضعفها ، بالاعتقاد بالقوة . والغرور هو المبالغة بالإعتداد بالنفس وبصفاتها . كما أن الإعجاب بالنفس ، هو المبالغة في إحصاء حسنات الذات .

ولا فرق بين التكبر والغرور والعجب ، إلا في المواد المختلفة ، التي تظهر فيها هذه الحالة الشاذة ( التي يحاول الفرد فيها جبران ضعفه بالاعتقاد الباطل بالقوة ) .

فالتكبر هو إظهار هذه الحالة في صورة تحدّي قوى الناس ، والغرور هو الشعور النفسي بهذه الحالة ، والإعجاب هو ربط هذه الحالة بصفة من صفات

---

(١) الإمام الصادق عليه السلام ، الكافي ، ج ٣ ، ص ٣١٣ .

(٢) الإمام الصادق عليه السلام ، الكافي ، ج ٣ ، ص ٣١٣ .

النفس ، كأن يفتقر الإنسان بعلمه ، أو بماله ، أو برأيه .

والحسد هو وجه آخر للتكبر ، إذ أن المتكبر لا يريد أن يكون لغيره ما ليس له ، فيأمل لو خسر الناس أشياءهم وربحها .

والحسد أيضاً ناشئ من الشعور بالضيق لأن الحاسد يريد خسارة غيره ، وربحه ، جبراً لما يشعر به من ذلة . لذلك يرتبط الحسد بعدة صفات أخرى هي : الغيبة والتعلق والشماتة على المصيبة ، فكل هذه الصفات ناشئة الشعور بالضعف والهوان .

وجاء في الحديث المأثور عن أبي عبد الله عليه السلام : إن لقمان قال لابنه : للحاسد ثلاث علامات : يغتاب إذا غاب ويتملق إذا شهد ويشمت بالمصيبة<sup>(١)</sup> .

وهكذا تتسلل الصفات النفسية السيئة بعضها من بعض ، وتعود جميعها إلى أصل واحد ، هو هوان النفس ، وإحساسها بالضيق . ولقد عبّر عن هذه الحقيقة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حين قال : من كرمته عليه نفسه هانت شهواته<sup>(٢)</sup> .

وبكلمة أخرى : من هانت عليه نفسه فلا تأمن شره<sup>(٣)</sup> .

ويقول بعض علماء النفس ، إن كل مظهر من مظاهر حب التغلب والتسلط على الآخرين اشارة على الشعور بعدم الاستقرار الروحي .

والعلامة الأخرى من علامات عقدة الضيق ، ومركب النقص هي أن الفرد يعيش في عالم من الأحلام والخيال ، والذي يسمى في الإصطلاح العلمي بـ ( الفانتزي ) ويعني ذلك : الفرار من الواقعيات ، والتهرب من المشاكل

---

(١) البحار ، ج ١٤ . القسم الأخير ، ص ١٢٠ .

(٢) و (٣) المصدر نفسه .

والمسؤوليات ، واللجوء إلى ميادين الأحلام والأمال التي لا تتحقق .

بهذه كلها نعرف طبيعة الغرائز ، وكيفية تحولها من مسيرتها العادية إلى صفات رذيلة ، وأن جذر هذه الصفات هو الشعور بالضعة .

بقي علينا أن نعرف أن هذه الصفات ذات أثر خطير في تضليل الإنسان عن الحق ، وحجبه عن المعرفة ، وسوقه إلى حقول الجهالة والأساطير .

### بين شذوذ النفس وأخطاء التفكير :

والعلاقة وثيقة بين شذوذ النفس وأخطاء التفكير ، وذلك لأن الغريزة تدعو صاحبها لإشباعها .

وفي الحالة السوية يقوم الفرد بتحديد رغبات الغريزة ، في إطار توجيهات العقل ، والتربية الصالحة ، ولكن في الحالات الشاذة حيث يفقد الإنسان قدرته على رؤية الواقع بسبب من الأسباب التالية ، لا يستطيع العقل تحديد رغبة الغريزة الكارهة التي يدعو صاحبها ، لطاعتها ، بأي صورة كانت ، فلذلك ينسحب العقل ، ويترك المجال مفتوحاً أمام قيادة الغريزة الصماء ، والأسباب التي تجعل الفكر البشري ، عاجزاً عن مقاومة الغرائز الشاذة ، هي التالية :

١ - إن الفرد الذي يعادي الناس ويريد أن ينتقم منهم ، في مقابل احتقار الناس له وعداوتهم ضده ، حسب ظنه ، هذا الشخص لا يمكن أن يقبل كلام الآخرين ، لأنه سوف يحمله على أسوأ المحامل الممكنة . إن نصيحة الناس بالنسبة إليه مكر وخداع ، وإن تربية الآخرين مؤامرة ، وإن تعليم الناس له ما هو سوى شباك ومصيدة ، هكذا يتصور من يسيء الظن بالناس ، ويحسبهم أعداء له .

وبما أن طبيعة النفس التي تحس بالمهانة ، هي التي تسبب في الكبر والحسد والعجب ، وهي بالذات العلة في سوء الظن بالناس ، والشعور بأنهم

أعداء كاثودون . وبالتالي رفض أفكارهم ، بحملها على أسوأ المحامل . . . أقول بما أن طبيعة الصفات السيئة ، وطبيعة رفض أفكار الناس نابتان من مصدر واحد هو الشعور بالمهانة ، صح القول أن الصفات السيئة تهوي بأصحابها في الأخطاء الفكرية .

٢ - الذي يحتقر الناس انتقاماً منهم لنفسه المحترقة ، يريد أن يجبر هذا الإحتقار الذاتي بصنع حالة حول نفسه ، وفعلاً ينسج من الخيال هذه الهالة ، ويزعم بأنه أعلم وأعدل وأفضل من مشى على البسيطة . بما أنه يعلم يقيناً أن الذي صنعه لنفسه ، إن هو إلا خيال سخي ، ينشأ في نفسه نزاع حاد بين ضميره الغائب ، الذي يشعر بالمهانة . وبين ضميره الظاهر ، الذي يريد أن يجبر هذه المهانة بالإعتقاد بعظمة نفسه ، هذا النزاع يجعل الفرد حذراً بأشد ما يكون الحذر ، في سبيل المحافظة على تلك الهالة من تأنيب ضميره الغائب ، الذي يحاول تحطيم هذه الهالة المصطنعة وإظهار واقعه العريان . ويكون ، من نتيجة هذا النزاع الداخلي أمران : الأول : بسبب القلق والإضطراب يتحول جو النفس الهادئ المطمئن المهيئ للبحث والتفكير ، إلى جو مضطرب عاصف لا يدع النفس تستقر على أمر ، ولا يدع الفكر يركز نظره في قضية وكما نعرف أن التوتر من أخطر ما يهدد العلم البشري .

الثاني ، ويدفع الحذر بهكذا إنسان إلى رفض كل شيء خوفاً من ضرره بكيانه . فهو يرفض الإستماع إلى الناس خشية تحطيم هالة كبريائه ، وهو يرفض التبصر والتعلم خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى كشف أخطائه ، وبالتالي إهانة ذاته ، وهو يرفض كل اقتراح يوجه إليه ، حذراً من مساسه بشخصيته ، لذلك يجب تفسير رفض المتكبر والمعجب والمغرور ، بأنه ناشئ من تمزق داخلي يعاني منه ، أو بالأحرى من حرب أهلية تدور رحاها على صعيد نفسه ، ولكي يكسب هذا الفرد معركته ضد نفسه ، يحاول استقطاب الإحترام من الخارج ، وخوفاً من خسارته للمعركة هناك ، يحاول رفض الخضوع لفكرة أو واقع .

المتمرس بالجريمة يفترق عن سواه ، في أنه قد أصبح يرى أن الجريمة هي الصراط السوي ، وأن ترك الجريمة ليس سوى شذوذ ظاهر .

وقد سبق أن ردّ الفعل الشرطي ، بسبب ضغط الجريمة ، باتجاه منحرف ، في الذي تعود على إشباع غرائزه بالطرق الملتوية ، فبينما تدفع غريزة الجوع التاجر إلى الكسب الشريف ، تدفع ذات الغريزة السارق إلى الجريمة ، وكما أن اتباع الغريزة بطريق التكسب عمل محترم عند التاجر ، فكذلك إشباعها بطريق السرقة ، عند المجرم ، عمل معروف ، وهكذا تتحول الجريمة إلى شرف ، والمنكر إلى معروف ، وبهذا التحول تتحول كل مقاييس الفرد ، فهو لا يستطيع بعدئذٍ ، تصوّر الخير ، إلا من خلال تحقيقه للغرائز ، وهكذا سيكون سبباً خطيراً من أسباب الخطأ الفكري عند الإنسان ، إذ إنه يتنزع من الإنسان مشعل عقله ، ويدعه في ظلمات حالكة .

هذه الأسباب الثلاثة : العداوة مع الناس ، ومخافة الذلّ ، وتبديل المقاييس ، هي الأسباب الرئيسية التي تقف وراء تأثير الصفات النفسية المنحرفة ، في خطأ الفكر الإنساني ، لذلك نستطيع التأكيد بضرورة تصفية النفس من جميع الانحرافات ، حتى يستطيع العقل اكتشاف الحقائق بسهولة ، وإلا حجبت عواصف العواطف الهائجة ، مشعل العقل من الإشعاع .

وقد بيّنت آيات القرآن الحكيم مدى خطورة دور الهوى بصورة عامة والتكبر بصورة خاصة في ضلالة الإنسان فجاءت تقول : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ [ البقرة / ٨٧ ] . ﴿ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد ﴾ [ البقرة / ٢٠٦ ] .

﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ [ الأعراف / ١٤٦ ] . ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون

لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون أنه لا يحب المستكبرين ﴿  
[ ٢٢ - ٢٣ / النحل ] .

﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ [ ٣٥ / غافر ] .

وحملت آيات أخرى متماثلة على المتكبر والاستكبار مسؤولية الضلالة ، وهي بصورة عامة تهدينا إلى ضرورة نبذ التكبر إن أردنا المعرفة الصادقة . وقد أشارت الأحاديث إلى دور التكبر في ضلالة البشر فجاء في حديث مأثور عن أمير المؤمنين (ع) : ( من آفات العقل الكبير )<sup>(١)</sup> .

وجاء في حديث مروي عن الإمام الباقر ما يعبر عن تناقض الكبر والعلم ، بعبارات دقيقة محدّدة ويقول : « ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر ، إلا نقص من عقله مثل ما دخل من ذلك ، قل أو كثر »<sup>(٢)</sup> .

وجاء في حديث آخر : « إن العلم ذو فضائل كثيرة فأرأسه التواضع » .

وقد اعتبر النبي (ص) الكبر نوعاً من الجنون ، فجاء في حديث : أنه مرّ (ص) برجل مصروع ، وقد اجتمع عليه الناس ينظرون إليه ، فقال علامّ اجتمع هؤلاء ؟ ف قيل له : على مجنون يصرع ، فنظر إليه فقال : ما هذا بمجنون ، ألا أخبركم بالمجنون ، حق الجنون ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إنّ المجنون حق الجنون المتبختر في مشيه ، الناظر في عطفه ، المحرك جنبيه بمنكيه ، فذاك المجنون ، وهذا المبتيلى<sup>(٣)</sup> .

وقد أمرت التعاليم الإسلامية بالتواضع كجزء من منهج التعليم والتعلم ، فجاء في الحديث : تواضعوا لمن تتعلمون منه ، وتواضعوا لمن تعلمونه ، ولا

---

(١) غرر الحكم ، ص ٤٤٨ .

(٢) سفينة البحار ، للعلامة الشيخ عباس القمي ، ج ٣ ، ص ٤٦٠ .

(٣) معاني الأخبار ، ص ٢٣٧ .



تكونوا علماء جبارين ، فيذهب باطلكم بحكم . إن جعل التواضع ضرورة في كلتا عمليتي التعليم والتعلم لأمر عظيم ، إذ إن التواضع من المعلم يجعل حتى المتكبر يتقبل المعرفة .

وأمر النبي (ص) في حديث بالسؤال وإن سبب الدُّل هو عدم السؤال فقال : من لا يصبر على دُل التعلم ساعة ، يبقى في دُل الجهل أبداً .

وجاء في حديث عن الإمام الرضا (ع) : العلم خزائن ، ومفاتيحه السؤال . ويجعل الإمام الصادق (ع) الكبر مساوياً ، للجحود وكأنه معناه الوحيد ، فيقول أحد أصحابه سمعته يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لن يدخل الجنة عبدٌ في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار عبدٌ في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان . قلت : جعلت فداك إن الرجل ليلبس الثوب أو يركب الدابة فيكاد يعرف منه الكبر ، فقال : ليس بذاك ، إنما الكبر إنكار الحق والإيمان إقرار به<sup>(١)</sup> .

وتأييداً لذات الحقيقة يقول الإمام (ع) نقلاً عن رسول الله (ص) إن أعظم الكبر غمص الخلق وسفه الحق . وقد سبق أن أساس الكبر يكون في احتقار الناس والتهاون بهم ، وهو يسبب الخشية من الحق ، مخافة أن يكون في ظهوره تحطيماً لشخصيته .

واعتبر الإمام الصادق (ع) الكبر نوعاً من الإلحاد فقال : الكبر أدنى الإلحاد<sup>(٢)</sup> .

ويؤكد علماء النفس ذات الحقيقة فيقول شاويني : إن العنصر الأصيل للتناقضات هو التكبر . إن مشاهدات الشخص المتكبر خاطئة ، ومن الخطورة بمكان ، أن نفاجئة بالحقيقة ، رأساً وبدون مقدمات ، وربما كان ذلك سبباً لتركيز

(١) بحار الأنوار ، ج ١٥ ، ص ١٤ . ( الطبعة الأولى ) .

(٢) المصدر ، ص ١٢٥ .

عاداته البذيئة لأنه سوف لا يعترف بأنه يتحدث بالتناقضات ، ويسند كلامه بأدلة وتبريرات (ويقول) إن اللهجة الناتجة من المنطق الخاطيء ، واضحة عند الطفل المعقد ، وإن خطر هذه الحالة يكمن ، في أنه يستند إلى هذا المنطق الخاطيء دائماً ، ولا يرضى بالتنازل عنه ، ولذلك توجد في ذهنه صور مغلوبة تماماً عن الأشياء ، والموجودات كأنها قد نظرت إليها من خلال أشعة منكسرة<sup>(١)</sup> .

ولقد بحث العالمان سريو وكاب كرا هذه الأمور بصورة مفصلة تحت عنوان ( الهذيان في التفسير ) : هؤلاء المصابون لا يبدو عليهم الهذيان لأول وهلة ، لأنهم لم يفقدوا قدرتهم على الاستدلال ، وأن الذي يتحدث معهم يتصور أنهم مفكرون ، ومتعمقون في القضايا ، وبهذا السبب بعينه فقد كانت هذه الحالات تسمى في السابق بـ ( الجنون المعتدل ) . إن إصطلاح الجنون الجزئي يشير إلى هذه الظاهرة أيضاً<sup>(٢)</sup> .

إن الاختلال الأساسي ، الذي يوجه هذا الميل الروحي ، عبارة عن حالة نفسية ناشئة من التكبر ، بحيث تمنع المصاب من أن يكون حيادياً في حكمه ، فيتهم البعض بدون دليل ما ، بكونهم عقبة في سبيل تحقيق أهدافه ، هذا الإختلال الذي يختص بميزات معينة ، يشاهد في الحياة الإعتيادية ، خصوصاً في الحياة السياسية ، التي تجد فيها الأحقاد والأهواء ، والأغراض الشخصية الميدان الواسع لنشاطها<sup>(٣)</sup> .

ويشير الكسيس كاريل ، إلى اضطراب العواطف ومدى تأثيرها في ضعف رؤية العقل ، فيقول : العقل يبرز مراثيه ، فوق الشاشة الدائمة التغيير ( أي النفس المحتوية ) لحالاتنا المتأثرة لآلامنا ومباهجنا ، لحبنا وبغضنا ، ولكي

---

(١) ج ميدانيم ( فارسي ) تربية اطفال ودشوار ، ص ٣٣ . (٦) .

(٢) جه ميدانيم بيماريصاي روحي وعصبي ، ص ٣٣ .

(٣) جه ميدانيم بيماريصاي روحي وعصبي ، ص ٣٣ ، عن المصدر السابق .

ندرس هذه الناحية من أنفسنا ، فإننا نفصلها صناعياً عن الكل غير المنظور .

« وفي الحقيقة أن الشخص الذي يفكر ، ويلاحظ ، ويتأمل ، يكون في وقت واحد ، سعيداً أو تقيماً ، مضطرباً ، أو مطمئناً ، أو منقبض الصدر ، بواسطة شهواته ، وبغضاته ، ورغباته »<sup>(١)</sup> .

ويتشابه العجب بالرأي ، والغرور بالنفس ، مع الكبر ، في جذوره وفي فروعه وثماره ، فالعجب كالكبر ينشأ أيضاً من الشعور بالضعفة ، والغرور ، وكذلك رد فعل للإحساس بالمهانة كما سبق . والدين الإسلامي اعتبر العجب ، والغرور ، بعض أسباب الخطأ ، فجاء في القرآن : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ [ ٨ / فاطر ] .

وجاء في الحديث المأثور عن الإمام أمير المؤمنين : « إعجاب المرء بنفسه ، دليل على ضعف عقله »<sup>(٢)</sup> . وقال (ع) عن الغرور : كفى بالمرء غروراً أن يثق بكل ما تسول له نفسه<sup>(٣)</sup> . والغرور قسمان ، غرور ساذج ( تحدثنا عنه ) وغرور علمي .

### الغرور العلمي :

وراء حالة التسرع ، والتي تؤدي كثيراً إلى التعميم الوهمي والحكم غير السليم ، صفة نفسية فطرية هي الغرور ، فلنكي لا يعترف الإنسان بجهله يتقبل مذهباً فلسفياً أو نظرية علمية .

« إن البحث عن اليقين هو الذي يجعل الفيلسوف ، يتجاهل دور الملاحظة في المعرفة ، ولما كان يستهدف معرفة ذات اليقين المطلق ، فإنه لا يستطيع أن

---

(١) الانسان ذلك المجهول ، ص ١٠٤ ، عن الطفل ج ٢ ، ص ١٢٢ .

(٢) بحار الأنوار ، ج ١٧ ، ص ٧٩ ( الطبعة الأولى ) .

(٣) غرر الحكم ، ص ٥٥٨ .

يقبل نتائج الملاحظات ، ولما كانت الحجج المبنية على أساس احتمالات حجج زائفة ، في نظره ، فإنه يتحول إلى الرياضيات ، بوصفها المصدر المقبول الوحيد للحقيقة ، وهكذا فإن المثل الأعلى الذي ينتج إلى صيغ المعرفة بصيغة رياضية كاملة ، وإلى جعل الفيزياء من نفس نمط الهندسة والحساب ، ينشأ من الرغبة في الإهتمام ، إلى يقين مطلق ، في قوانين الطبيعة<sup>(١)</sup> .

« وعندما يتخلى الفيلسوف ، عن الملاحظة التجريبية ، بوصفها مصدراً للحقيقة ، لا تعود - بينه وبين النزعة الصدفية - إلا خطوة قصيرة ، فإذا كان في استطاعة العقل أن يخلق معرفة ، فإن بقية النواتج التي يخلقها الذهن البشري ، يمكن أن تعد ، بدورها ، جذيرة بأن تسمى معرفة »<sup>(٢)</sup> .

« إن البحث النفسي للفلاسفة مشكلة تستحق من الانتباه ، أكثر مما يبدية بها الكتاب ، الذين يعرضون تاريخ الفلسفة . وإن دراسة الموضوع لهي خليقة بأن تلقي على معنى المذاهب الفلسفية ، ضوءاً أعظم مما تلقيه عليها كل محاولات التحليل ، المنطقي لهذه المذاهب » .

« ففي استدلال ديكارت منطق هزيل ، غير أننا نستطيع أن نستخلص منه قدراً كبيراً من المعلومات النفسية ، ذلك لأن البحث عن اليقين ، هو الذي جعل هذا الرياضي الممتاز ينحرف في تيار هذا المنطق المتخبط . ويفسر علماء النفس السعي إلى اليقين ، بأنه الرغبة في العودة إلى العهود الأولى للطفولة ، وهي العهود التي لم يكن يعكرها الشك ، وكانت تسترشد بالثقة في حكمة الوالدين . وتقوى هذه الرغبة ، عادة ، بفضل التربية ، التي تعود الطفل على أن يرى في الشك خطيئته<sup>(٣)</sup> . ولكي يتخلص الباحث مما وقع فيه فلاسفة قديرون ،

---

(١) نشأة الفلسفة العلمية ، ص ٤٠ .

(٢) المصدر ، ص ٤١ .

(٣) المصدر ، ص ٤٣ - ٤٤ .

من قبله ، عليه ألا يبحث عن اليقين ، بحثاً طفولياً يغذيه الغرور ، وإنما يبحث عن العلم ، وما بين العلم واليقين ، هو الذي بين العقل والنفس . فالعلم هو غذاء العقل ، ووزيره ، بينما اليقين غذاء النفس ، وباعث الإطمئنان فيها . وحين يخلط الباحث بين نفسه وعقله ، تضعيع عنده مقاييس العلم .

## العمل الاقتصادي

من العوامل النفسية للخطأ ، العامل الاقتصادي بأبعاده الثلاثة : وسائل الإنتاج ، طريقة التوزيع ، المستوى العام .

أ - يؤثر الهيكل العام لاقتصاد أمة من الأمم تأثيراً شاملاً على طبيعة الأمة . فليس سواءاً الأمة التي تعتمد على الزراعة ، والتي تعتمد على الصناعة ، والثالثة التي تعتمد على التجارة .

مثلاً ، البلاد الزراعية ( لا سيما النهرية منها ) يضطر أبناؤها إلى الخضوع شبه التام للأنظمة السائدة ، لأنهم من دون النظام الدقيق لا يمكنهم الاستمرار في الزراعة ، وتقسيم المياه .

والبلاد الصناعية ستضطر إلى إضعاف الارتباط الطبيعي ، بين أبنائها الأسرة ، القرابة ، التجاور ، لحساب تقوية صلات العمل

كما أن الصناعة تولد مدناً جديدة على أسس صناعية ، كالمدين القريبة إلى الموارد الطبيعية . مما سيؤثر بالطبع على أخلاق أبناء الأمة .

كما أن فتح الأسواق للبضاعة المصنعة في البلاد الصناعية ستدفع بها إلى خوض حروب ذات آثار إيجابية أو سلبية على نفسية أبنائها .

والتجارة تؤثر على نفسية الأمة مباشرة عن طريق تعامل أبناء البلاد التجارية مع شعوب مختلفة . وكما تؤثر بصورة غير مباشرة عن طريق تكوين عقلية الربح والخسارة . ذات الأثر البعيد في علاقات الفرد مع مجتمعه .

ب - كما أن طريقة توزيع الثروة ، تؤثر تأثيراً عميقاً وشاملاً على نفسية الأمة وبالتالي على فكرها .

إن طبقات المحرومين هي التي التفتت ، قبل غيرها ، إلى حركات التحرر في التاريخ وكانت أنبل المناضلين من أجلها .

ولولا أن الحرمان أثر فيهم باتجاه الثورة ، لما استطاعت بلاغة أصحاب الحركات حشد تلك الجموع الغفيرة حول مبادئها .

كما أن دفاع الطبقات المنتفعة من وضع اجتماعي معين ، عن الجمود والرجعية ، لا يمكن تفسيره إلا على أسس اقتصادية .

والمجتمعات ذات التمايز الطبقي المحدود ، كانت أقوى أبداً من تلك التي انقسمت على ذاتها بالطبقية الحادة .

إن وسائل الإنتاج وطريقة التوزيع في الإقتصاد ، تشكل «مسلكية» اجتماعية تدفع بالإنسان إلى اختيارات باطلة . وعلى الفرد أن يفكر قبل اعتناق أي فكرة ، هل أنه مدفوع إليها بعامل إقتصادي ؟ .

إن تأثير الإقتصاد يبدأ واعياً ، ولكنه سرعان ما يغور في اللاوعي ، مما يصعب على الفرد تمييزه عن القيم العقلية الثابتة .

إن طائفة من كفار قريش في مكة كانوا يدافعون عن أصنامهم يدافع اقتصادي إلا أنهم لم يكونوا يشعرون أن طبيعة هذا الدافع اقتصادي ، بل كانوا يزعمون أنه ليس إلا الدفاع عن الحق والفضيلة ، (والآلهة المقدسة) .

ولكن لا يعني هذا أن الدافع الاقتصادي ذو آثار حتمية على البناء النفسي

للإنسان ، وأنه الوحيد الذي يوجه قطار التاريخ - كما فعل ماركس - لأنه ، أولاً :  
لا احتميات على فكر الإنسان ما دام هذا الفكر يتمتع بنور العقل .

وثانياً ، إن هناك عوامل أخرى تؤثر على مسيرة الإنسان بقوة . . . والتي  
شرحناها في هذا الفصل .

ج - والمستوى الاقتصادي العام لمجتمع معين يؤثر عليه إيجابياً ، إذ يسمح  
له بالانفتاح على الثقافات والآداب والفنون .

بيد أن لطفيان الثراء ، سلبيات قد تفوق سلبيات الفقر المدقع ، إذ إنه يؤدي  
إلى التجبر والإسراف .

هذه خلاصة العامل الاقتصادي الذي لم نشأ الإسهاب فيه لأنه يعكس  
حقيقة واضحة جداً . . . وقد ازداد وضوحاً في الفترة الأخيرة ، بفعل وسائل  
الاعلام الماركسي .

ولقد أشار الإسلام إلى هذا العامل في مناسبات عديدة ، فمثلاً حين بُين :  
أن الطبقات المحرومة (المستضعفين) هم كانوا أول الملتفين حول رسالات  
السماء .

وحين حذّر من الدنيا ، وما فيها من غرور ، وحذّر من الإسراف والتبذير ،  
والطغيان في النعم .

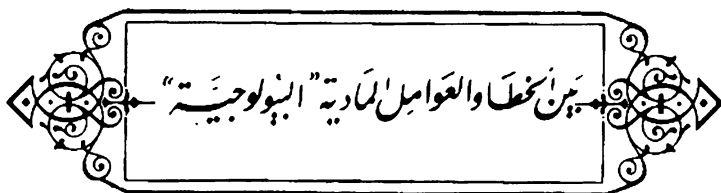
وحين بُين أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأن الناس عبيد الدنيا . . .  
و . و . نصوص كثيرة أخرى .





القسم الثالث :  
كيف نتجنب الخطأ؟

البحث الرابع عن العلاقة



- كلمة البدء .
- ما هي العوامل المادية .
- كيف تؤثر العوامل المادية .
- الغدة الدرقية وأثرها في الفكر .
- أثر المناخ الطبيعي على الفكر .
- أثر الوراثة على الفكر .
- الفوارق العرقية .
- أثر مرحلة الانجاب على الفكر .
- الغباء الطبيعي .
- النصوص الدينية والعوامل المادية .
- وضع الجسم أثناء البحث .



## كلمة البدء

لكي نحصي عوامل الخطأ لا بد أن نذكرُ بآثر (العوامل المادية ) في الفكر البشري ، لأنها قد تكون من أشدها وأكثرها ضغطاً عليه باتجاه الخطأ .

بيد أن العامل المادي للخطأ لا يكون إلا (دافعاً) للخطأ و (داعياً) إليه إذ لا ينتج عند صاحبه إلا ما يمكن أن نسميه بـ ( حب الفكرة ) وحب الفكرة إنما يعني (الميل) النفسي إليها مما يعطي صاحبها دفعاً باتجاهها لأنها تتلاءم مع نفسه ، فهناك مثلاً ، نفوس جبلت على الثورة والتحدي ، ولذلك تندفع هذه النفوس إلى الرفض والتمرد بأدنى مبرر ، لأنها (تميل) إليها و (تسجم) معها بينما نجد نفوساً أخرى (تميل) إلى الخنوع والاستسلام ، وتتمتع ببرودة الأعصاب ، وثقل الدم ، فهؤلاء بعكس أولئك تماماً يرفضون كل ثورة دون أن يسألوا أنفسهم لماذا .

ومن الناس من (تميل) نفوسهم إلى التشاؤم ، فلا يرون إلا الجوانب السلبية من الحياة ، لذلك تراهم ينسجمون مع الأفكار الأكثر تشاؤماً ، بينما الآخرون (يميلون) إلى التفاؤل وينسجمون مع الأفكار التي تؤيده ، وهكذا نرى بعض الناس (يميلون) إلى الإنطواء لانسجام أنفسهم معه بينما يحب غيرهم الانفتاح وهكذا ...

و يقول أرنست همنغواي في كتابه ( وداعاً أيها السلاح ) : إلا أن طبعي

الخاص يضطرني إلى الشك في أنه لن تكون هنالك أقلية ستشهد الحياة وهي تسير إلى نهايتها التي لا يمكن تجنبها فهل هو لا متمم لأنه خائب وسوداوي ؟<sup>(١)</sup> .  
« فهناك عدد من الرجال والنساء يخلقون ثواراً بطبعهم وسليقتهم »<sup>(٢)</sup> .

وهنا يطرح سؤال : لماذا يحب الإنسان فكرة ويرفض أخرى ؟

الجواب : لأن تركيبة الإنسان النفسية ( السيكولوجية ) أو العصبية ( الفسيولوجية ) أو الحياتية ( البيولوجية ) هي التي تنسجم مع هذه الفكرة أو تلك ، والعامل المادي الذي نتحدث عنه إنما هو جزء من تركيبة نفسية الإنسان .

لماذا نذكر بالعوامل المادية ؟

إن منهج الإنسان أت من نوعية تفكيره والتفكير - بدوره - خاضع للإرادة والإرادة ليست سوى مقاومة النفس لجاذبية الطبيعة ( إذا كانت الإرادة ايجابية ) أو هي استسلام الذات لضغوط الطبيعة ( إذا كانت الإرادة سلبية ) .

ولكن متى تقاوم الإرادة ومتى تستسلم ؟ عندما تكون الإرادة أقوى من جاذبية الطبيعة تقاوم ، ومتى كانت أضعف تنهار . من هنا نستطيع أن نحدد إتجاه السلوك البشري بمقارنة الإرادة بالطبيعة ، أيهما أقوى ، ولا يكفي أن نعرف مدى قوة الإرادة بل لا بد أن نعرف أيضاً مدى قوة الجاذبية في الطبيعة .

والعوامل المادية التي سوف تذكرها إنشاء الله ، هي بعض مظاهر الضغط التي تتعرض لها النفس البشرية وتجرب إرادتها في مقاومتها أو الاستسلام لها .

والهدف من ذكرها هو الإستعداد لها والتحصن ضدها إذ ليس سواء عند الإنسان ، الذي راح يتعرض لهجوم ، أن يعرف أو لا يعرف قواعد ومنطلقات الهجوم ، وكذلك الذي يعرف - سلفاً - أسباب الانحراف المادية وطبيعة (الميول)

---

(١) ولسن اللامتمي ، ص ١٥ .

(٢) يريان كروزيير الثائرون ، ص ٢٠ .

التي قد تضغط عليه باتجاه معين ، خصوصاً والعوامل المادية من أشد العوامل النفسية تأثيراً وفي نفس الوقت من أقلها ظهوراً . أقول : هذا الإنسان يختلف عما لا يعرف ذلك في أنه قادر على التحصن ضد الوقوع في الخطأ .

ما هي العوامل المادية :

بكلمة: العوامل المادية تعني ( البيئة الطبيعية ) سواء كان محور تأثيرها داخلياً ، كالمخدرات وأنواع المنبهات والأطعمة ؛ أو كان خارجياً كالحر والبرد والرطوبة واليبوسة . وسواء كان عرضياً وطارئاً كالضعف المرضي أو أصيلاً كمستوى الذكاء .

ونستطيع الحاق الفوارق العرقية بـ ( العوامل المادية ) بالرغم من اختلاف الناس حولها من منكر أو متطرف فيها .

كيف تؤثر العوامل المادية ؟

كيف يؤثر العامل المادي في توجيه البشر ودفعه إلى سبيل الخطأ ؟

معروف أن المنبهات الخارجية تتوجه في البدء ، نحو الأعصاب وعن طريقها تخلف آثارها على الفكر ، ولا بد أن نوع استجابة الأعصاب لهذه المنبهات يؤثر في نوع تلقي الدماغ لها ، فمثلاً طبيعة تركيب شبكة العين تؤثر في طريقة استقبالها للأضواء والظلال ، التي هي المنبهات الخارجية بحيث إنها لا تستقبل الأشعة ما فوق الحمراء ، ولا الظلال الباهتة وكذلك طبيعة تركيبة صماخ الأذن تؤثر في طريقة استقبالها للأمواج الصوتية بحيث إنها لا تستقبل الموجة التي تقل درجة التذبذب فيها عن عشرين في الثانية الواحدة ومثل ذلك سائر الأعصاب والأجهزة المستقبلية للمنبهات الخارجية . فهناك إذاً تأثير كبير على الفكر من طبيعة تركيبة الأعصاب تلك التي هي موضوع علم الفلسفة .

وبما أن العوامل المادية تؤثر في تركيبة الأعصاب وفي طريقة أدائها

لوظيفتها ، فهي تؤثر في الفكر بطريقة غير مباشرة ، ذلك أن اقتصاديات الجسم البشري لتنظم حول جهازين يكمل أحدهما الآخر :

- الجهاز الهضمي الدوري .

- الجهاز العصبي العضلي .

وتتحول الطاقات (الطعام) بواسطة الجهاز الهضمي إلى نوع من الوقود ، يسهل إيصاله إلى أنسجة الجهاز العصبي العضلي عن طريق الجهاز الدوري ، ثم يطلق مصدر التنبيه الخارجي ( ذبذبات الصوت ، مثلاً ) الوقود المختزن في الجهاز العصبي العضلي فتحدث الإستجابة . لذلك فرؤية الماء لا تدفع رجلاً إلى الشرب إلا حين يكون عطشاً ، كما لا بد من وجود حالة فسيولوجية خاصة قبل أن يدفع مجرد وجود رفيق الحيوان به إلى محاولة التقرب الجنسي <sup>(١)</sup> .

فالتنبيه الخارجي إنما يطلق الطاقات المختزنة ، أما ذات الطاقات فهي آتية من الجهاز الهضمي التي بالرغم من تعرضها لعملية التصفية والتكرير عدة مرات ، فإنها لم تزال تحمل بعض آثار الطعام ، التي راحت تؤثر في الأعصاب الخازنة للطاقات وبالتالي في طريقة عملها والتي تؤثر هي بدورها في الفكر .

ولهذا السبب يتأثر الجهاز العصبي بضعف الجهاز الهضمي ، وبالتالي بسائر مناحي الجسم إذ إن الوظيفة السيكلولوجية تنطوي دائماً على عدد من أجزاء الجسم ، حتى عملية بسيطة نسبياً - كروية ضوء أخضر - تتوقف في حدوثها على سلسلة كبيرة من الحوادث التي تقع في الشبكة والدماغ وعضلات العين <sup>(٢)</sup> .

ولعل التجارب التي أجريت على التعب تحمل الدلالة الكافية على ذلك ، إذ إن التعب يمتص الطاقات المختزنة في الأعصاب حتى لا تكاد تبقى فيها طاقة

---

(١) ميادين علم النفس ، ج ١ ، ص ٤٣٨ .

(٢) ميادين علم النفس ، ج ١ ، ص ٤٣٦ .

تصرف في التنبه ، ويقاس ذلك بطريقة القياس النفسي المشتملة على مثير واحد ، ذي تقديرات مختلفة ، في فترات العمل ويتدرج في القياس الذي يتكون - بقدر الإمكان - من عشر خطوات تصل من السرور والإرتياح في العمل إلى عدم السرور أو عدم الارتياح (بسبب ذلك المثير) ، وقد وجد أن المنحنى العادي الذي يمثل هذه الأحاسيس في حالة العمل العقلي المتكرر يهبط بسرعة وبعبء تناقصية ( كلما كثر العمل قلت الإستجابة ) من بداية العمل إلى نهايته<sup>(١)</sup> .

ولذات السبب يؤثر نوع الطعام في مدى استجابة الأعصاب للمنبهات ، فلقد قرر بعض الباحثين أنه « ليس هناك من شك في أن الشعور يتأثر بكمية الطعام وصفته »<sup>(٢)</sup> وإنه لكي تصاغ أرقى التجليات الروحية يكفي حرمان بلازما الدم من بعض المواد<sup>(٣)</sup> .

### الغدة الدرقية وأثرها في الفكر :

كما تؤثر بعض أعضاء الجسم في الفكر لذات السبب ، إذ انه لا يقوم بأداء دوره بالكامل مما يؤثر في طريقة أداء الأعصاب لمسؤوليتها ، وبالتالي يخلف أثره في التفكير مثلاً : « المفروض في هرمون الغدة الدرقية أن يتوافر في الدم بكمية معينة ، فإذا انخفضت نسبته عن ذلك قليلاً تغيرت الصورة العامة للشخص في كثير من جوانبها ، ففيما يتعلق بالنشاط الذهني وبالشخصية نجده ( أي الشخص ) يصبح كثير النسيان وتقل قدرته على التركيز والانتباه ، كما أنه يفقد القدرة على المبادأة والإقدام وحسم المشكلات ، وإلى ذلك من تغيرات تعود بالتالي على السلوك بآثارها السيئة »<sup>(٤)</sup> .

(١) ميادين علم النفس ، ج ٢ ، ص ٦٩١ .

(٢) الكيس كارل الانسان ذلك المجهول ، ص ٢٣٢ .

(٣) رآه ورسم زندكي ، ص ٢٦ .

(٤) مقدمة لعلم النفس الاجتماعي ، ص ٢٩ .



« وكما أن نقص إفرازات الغدة الدرقية يسبب هذه الاضطرابات الخطيرة ، كذلك تؤدي زيادة الإفرازات إلى اضطرابات لا تقل خطورة عن ذلك ، ف فيما يتعلق بالنشاط الذهني وبالشخصية يصل الأمر في بعض الحالات الحادة إلى درجة تفكك تيار التفكير والخلط والهذيان ، وحدث بعض الهلوسات ، وفي الحالات الأخف من ذلك قليلاً يعاني الشخص من الأرق والقلق والتوتر النفسي الشديد »<sup>(١)</sup> .

من هنا نستطيع الجزم بوجود ضغط سيكولوجي على الفرد من جانب غدته الدرقية ، وسائر الغدد الصماء ، بل إن آثار هذا الضغط الخطيرة حدث ببعض العلماء إلى اعتبار الغدد الصماء ( مؤثرات حتمية ) على فكر الإنسان وسلوكه ، فسمّاها تبعاً لذلك بـ ( غدد المصير ) .

« واضطرابات الغدة الدرقية قد تنشأ من الوراثة . وقد تنشأ من الحالات الانفعالية الحادة »<sup>(٢)</sup> .

### هل تتحول الفلسفة إلى فيزياء ؟

وهنا يطرح سؤال : هل يمكن تحويل الفلسفة إلى موضوع فيزيائي ؟

هناك طائفة من العلماء زعموا ذلك ، فقالوا : « ومن الناس من يعتقد أن الفلسفة لا يمكن تحويلها إلى فيزياء . . ولكن أدلتهم الجدلية غير مقنعة تماماً ، ومن المناسب أن نفرض أنهم مخطئون . فما ندعوه بأفكارنا يبدو معتمداً على شبكة من السبل في المص تشبه تلك السفرات التي تستند إلى الطرق المطروقة ، وسكك الحديد المعروفة . أما الطاقة المستعملة في التفكير فكأنها صادرة من أصل كيميائي ، ولنضرب لذلك مثلاً إن قلة الأيودين (Iodine) في الجسم تحوّل

---

(١) المصدر .

(٢) المصدر ، ص ٣٠ - ٣١ .

الانسان الذكي إلى معتوه غبي ، ولذا تبدو الظواهر العقلية مرتبطة بالكيان المادي<sup>(١)</sup> .

بيد أن هذا الزعم المتطرف لا يستند إلى أدلة مقنعة ، بالإضافة إلى أنه يتجاهل دور العقل والعلم والإرادة البشرية التي تؤثر في التفكير . ولكن بالرغم من ذلك سيكون هذا القول صحيحاً إذا حددناه في إطاره الصحيح ، وهو القول بأن التعرف إلى قوانين الحركة في المخ وطبيعة المواد الكيماوية في الغذاء ، سيلقي أضواءً كاشفة على خلفيات بعض الأفكار غير الصحيحة ، التي يستطيع العقل البشري - بما أوتي من علوم أولية وأحكام مسبقة - اكتشاف زيفها وأسباب ظهورها وعلّة اقتناع الإنسان بها ، بالرغم من أنها مجانية للحق والواقع .

### أثر المناخ الطبيعي على الفكر :

وإذا كان الطعام مؤثراً على الجهاز العصبي ، لأنه مصدر وقود له ، فإن كل ما يمتص هذا الوقود يؤثر بطريقة غير مباشرة على الأعصاب ، لأنها تمتص وقودها الضروري . ولعل تأثير المناخ الطبيعي ، في تكوين الشخصية نابع من هذا السبب ، فلذلك « كلما كان الماء أقل يصبح الدم أشد غلظة ، وبطبيعة تأثير الدم على الأعصاب تصبح هي أسرع تحركاً »<sup>(٢)</sup> . لذلك يكون سكان المنطقة الجرداء متميزين عادة بالتسرع وشدة الإثارة .

ومن جانب آخر ، « طبيعة التدهين في الجلد وترشح ( وافرازات ) الغدد التي تحدث في ظروف خاصة تشكل سمة بارزة للإنسان الأسود ، ( بسبب مناخه الحار اليابس ) بينما زيادة (عملية) التبخر التي تهدف تكييف الجسم مع المحيط الخارجي ( بما فيه من حرارة وبيوسة ) وحفظ التوازن بين حرارة الجسم

---

(١) برتراند رسل وآخرون ، المادية الجدلية والمثالية البرجوازية ، ص ١١ .

(٢) د. كاظم وديعي ، جغرافيا إنساني عمومي ، فارسي ، ص ٥٣ .

والخارج ، هذه الزيادة تخص الإنسان الأسود فقط»<sup>(١)</sup> .

لذلك قد يحدث المناخ مرضاً خاصاً على ساكنيه ، بسبب تأثيره على أعصابهم » فلقد تبين لعالم نفسي اسكندنافي يُدعى بوك (Book) أن بعض المناطق الشمالية من السويد تضم نسبة عالية جداً من شخصيات فصامية (شيزوفرنية) »<sup>(٢)</sup> .

### أثر الوراثة على الفكر :

وإذا كان هناك تأثير مباشر على الجهاز العصبي من الجهاز الهضمي ، بسبب أن الأول مصدر وقود للثاني ، فإن أهم آثار الجهاز الهضمي يمكن أن يبرز من خلال طبيعة استجابة الأعصاب للمنبهات الخارجية ، بسرعة أو ببطء ، بعمق أو بسطحية ، مما يخلّف أكبر الأثر في الفكر والسلوك ، بيد أن تركيبة الجهاز الهضمي قد تكون ناشئة من الوراثة ، وكذلك تركيبة الجهاز العصبي ، مما يؤثر بالطبع في التفكير . وقد يكون هذا السبب وراء وراثة الأخلاق والتي ازدادت الثقة بها بعد أن اكتشف العلم الجينة المورثة إذ » ازدادت معرفتنا بعوامل الوراثة بفضل العلم بـ ( الجينة المورثة ) (Gene) فالفرد يبدأ حياته في الحمل باتحاد خلية من كل الأبوين - بويضة الأنثى ، والحيوان المنوي للرجل - وتحتوي كل خلية على مئات الآلاف من الجزيئات الدقيقة جداً ، والتي تسمى بالمورثات ، وهي حاملة إحدى استعدادات الطبع»<sup>(٣)</sup> . .

لقد أكدت التجارب التي أُجريت على أسر متحدرة من أخوة مختلفين في الأب والأم ، مدى تعرض الأبناء لآثار الأبوة من الأب أو الأم ، رغم وحدة

---

(١) المصدر .

(٢) د. الدباغ ، غسل الدماغ ، ص ٩٢ .

(٣) ميادين علم النفس ، الجزء الثاني ، ص ٥٢٦ .

المؤثرات الأخرى ، كما « أكد بعض الباحثين أهمية الوراثة عند تفسير الظواهر المعروفة عن الأطفال المتبنين ، بالرغم من أنهم يعترفون بأن البيئة المنزلية المناسبة قد ترفع نسبة الذكاء بمقدار حوالي ٢٠ درجة ، وتخفضها البيئة غير المناسبة بمقدار حوالي ٢٠ درجة وهذا التأثير الكبير ، الذي يصل إذاً إلى ما يقرب من ٤٠ درجة ، لا يمكن إهماله »<sup>(١)</sup> .

إن تأثير الوراثة لا يكون من قناة واحدة بل من عدة قنوات ابتداءً من التأثير البيولوجي ( بسبب انتقال بنية الأب أو الأم إلى الوليد ) ومروراً بالتأثير الفسيولوجي ( وطبيعة تركيب الأعصاب ) وانتهاءً بالتأثير السيكلوجي ( بسبب الجينة المورثة ) . ولذلك قال بعض العلماء إنه « يحتمل أن يكون ٢٥ ٪ من حالات البلاء نتيجة الاختلالات الحادثة على نمو المخ طوال الحياة الجنسية ، أو عند الولادة أو في المرحلة الأولى من حياة الطفل . إن إتران الجهاز العصبي ، وسلامة التفكير يرتبطان إلى حد بعيد بتركيب المواد الغذائية في مراحل تكوّن المخ والتنوعات العصبية »<sup>(٢)</sup> .

« إننا مصنعون من مواد آباتنا وأمهاتنا الخلوية ، وتوقف في الماضي على حالة عضوية لا تحلل ، ونحمل في داخل أنفسنا قطعاً ضئيلة لا عداد لها من أجسام أسلافنا ، وما صفاتنا ونقائصنا إلا امتداداً لنقائصهم وصفاتهم »<sup>(٣)</sup> وليس هذا الكلام بعيداً عن التجربة ، إذ لاحظ كوار في إحصائياته الدقيقة التي أجراها على الأسر التي كان آباؤها أو أمهاتها مصابين بضعف العقل ؛ وجود (٤٧٠) ضعيفي العقل منهم ، و (٦) فقط سالمين<sup>(٤)</sup> .

« إن ولد السارق ، أو مصاص الدماء ، تكون قابليته على الإرادة الصحيحة

(١) المصدر .

(٢) د. ألكسيس كاريل ، رآه ورسم زندكي ( فارسي ) ص ١٥٨ .

(٣) د. كاريل ، الانسان ذلك المجهول ، ص ٢٠٣ .

(٤) ألكسيس كاريل ، رآه ورسم زندكي ، (فارسي) ، ص ٧٤ .

أقل من ولد المجنون»<sup>(١)</sup> .

## الفوارق العرقية :

وإذا تأكدت خطورة الوراثة ، فلا بد أن يكون هناك دور هام وخطير أيضاً للفوارق العرقية في توجيه الإنسان .

بيد أن دور الإرادة البشرية ، ودور التربية والبيئة الطبيعية الذي يختلف غالباً مع دور الوراثة ودور السلالة لا يجعلنا قادرين على إثبات خطورة الفوارق العرقية ، إذ ما من عينة نأخذها للتجربة إلا ونجد فيها المؤثرات الأخرى التي تتراحم تأثير السلالة ، ولذلك تبقى الحجة الوحيدة التي يمكننا الاعتماد عليها في ( تأثير السلالة والفوارق العرقية ) تبقى أدلة تأثير الوراثة والاستنتاج الفكري منها .

## أثر مرحلة الانجاب على الفكر :

وقد لا يكون الوالدان مصابين بضعف العقل أو أية عاهة أخرى ، إلا أنهما يورثان الوليد ذلك بسوء اختيارهم وسوء تصرفهم أثناء عملية الانجاب أو خلال فترة الحمل ، وذلك مثل اختيار الاوقات الشاذة لعملية الانجاب ، أو أكل الأطعمة الفاسدة أو القيام بالعملية أثناء حالات عصبية ، أو استمرار هذه الحالات عند الأم أثناء الحمل أو أيام الرضاع ، إذ لا ريب في تأثير ذلك السلبي على فكر الوليد لأنه يؤثر على بنية الوليد الهضمية والعصبية والمخية .

لذلك « كان سكر الزوج أو الزوجة ، حين الاتصال الجنسي بينهما ، يعتبر جريمة عظيمة لأن الأطفال الذين ينشأون في ظروف كهذه يشكون في الغالب من عوارض عصبية ونفسية غير قابلة للعلاج »<sup>(٢)</sup> .

« وإن قلة الذكاء واختلال القوة العاقلة تنشأ من المشروبات

---

(١) المصدر ، ص ١٥٦ .

(٢) المصدر ، ص ٩١ .

والمسكر» (١).

« وإن الاضطرابات العصبية للام توجه ضربات قاسية إلى مواهب الجنين قبل ولادته، إلى درجة أنها تحوله إلى موجود عصبي لا أكثر» (٢).

الغباء الطبيعي :

ومن العوامل المادية التي تؤثر في توجيه الفرد الغباء الطبيعي الناشئ من عمر الإنسان . إذ دلت تجارب علم النفس الارتقائي على أن للعمر تأثيراً إيجابياً على تفكير الفرد وقد لخص بعض علماء النفس هذه التجارب في الحقائق التالية :

- أهمية عوامل النضج في تحديد أنماط سلوك الطفل .

- ليس هناك دليل على أن التمرين المبكر يعمل على الإسراع بظهور أنماط من الاستجابة مثل تسلق السلم .

- يبدو أن موعد ظهور أنماط السلوك الحركي البسيطة محددة بنضوج الأنسجة العصبية .

- يبدو أن التعلم مشروط بعوامل النضج ، فآثاره لا تتعدى الحدود التي يرسمها النضج ، والنضج يعدل من آثار التعليم أو التدريب .

- شكل السلوك وموعد ظهوره متوقف على الأبنية العصبية الموجودة وهذه تحدد عوامل النضج» (٣) .

وفي بعض أدوار الحياة يصاب الفرد بشذوذ فكري معين ، ويكون من الصعب التغلب على هذا الشذوذ ، وذلك مثل ( دور المراهقة ) إذ لا ريب أن

---

(١) المصدر ص ٩١ .

(٢) ما وفرزندان ما (فارسي) ، ص ٢٧ .

(٣) مقدمة لعلم النفس الاجتماعي ، ص ٣٦ .

الفرد في هذا الدور يُصاب بنوع من الغباء نتيجة ضغط الشهوات الشديدة الانفجار .

### النصوص الدينية والعوامل المادية :

وقد ذُكرت النصوص الدينية بدور العوامل المادية في انحراف الفكر الإنساني ، وفيما يلي نختار طائفة قليلة منها بالرغم من أنها تبلغ المئات .

● بين الإسلام تأثير الطعام ، فجاء في الحديث عن الإمام الرضا (ع) وهو يعدد مضار شرب الدم : وسيء الخلق ، ويورث القسوة للقلب ، وقلة الرأفة والرحمة ، ولا يؤمن أن يقتل ولده والده<sup>(١)</sup> .

وجاء في الحديث عن الإمام الصادق (ع) وهو يوصي المتعلمين تجنب الأكل على الشبع : إياك أن تأكل ما لا تشتهي فإنه يورث الحماسة والبله ولا تأكل إلا عند الجوع<sup>(٢)</sup> .

● وأكد أهمية الوراثة وتأثيرها على نفسية الإنسان فجاء في الحديث عن الإمام علي (ع) : إذا كرم أصل الرجل كرم مغيبه ومحضره<sup>(٣)</sup> . وقال : حسن الأخلاق برهان كرم الأعراق<sup>(٤)</sup> . وقال : وهو يوصي الإنسان باختيار الزوجة الصالحة لكي يحصل منها على الأولاد الصالحين : أنظر في أي شيء تضع ولدك فإن العرق دساس<sup>(٥)</sup> .

وقال النبي (ص) : إياكم وتزوج الحمقاء فإن صحبتها بلاء وولدها

---

(١) بحار الأنوار ، ج ١٤ ، ص ٧٧٢ ، الطبعة الأولى .

(٢) بحار الأنوار ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .

(٣) و(٤) غرر الحكم ، ص ١٦٧ .

(٥) العرق - كما يبدو - يعطي ذات المعنى الذي يقصده العلم بـ ( الجينة ) المصدر المستطرف ، ج ٢ ، ص ٢١٨ .

ضباع<sup>(١)</sup> . وتعبير النبي (ص) بـ ( الضباع ) يبين الحقيقة التي بيتهها التجارب من أن أغلب أولاد الحمقاوات يصبحون حمقاء وضعفاء العقول .

● وأوضح تأثير طعام الوالدين - قبل وبعد وأثناء العملية الجنسية وفترة الحمل والرضاع - في الوليد سلوكه وعقله ( فقال الإمام الصادق (ع) وهويين تأثير شرب الخمر في الوليد ) : أيما امرأة أطاعت زوجها ، وهو شرب الخمر ، كان لها من الخطايا بعدد نجوم السماء وكل مولود يلد منه فهو نجس ولا يقبل الله منها صرفاً ولا عدلاً حتى يموت زوجها أو تخلع عن نفسها ،<sup>(٢)</sup> .

وقال النبي (ص) : اطعموا المرأة في شهرها الذي تلد فيه التمر فإن ولدها يكون حليماً تقياً<sup>(٣)</sup> .

● وبين تأثير السلالة في سلوك الشخص حين قال الإمام الصادق (ع) : يا هشام النبط ليس من العرب ولا من العجم فلا تتخذ منهم ولياً ولا نصيراً فإن لهم أصولاً تدعو إلى غير الوفاء<sup>(٤)</sup> .

● كما بين أثر الخلقة المشوهة في خلق الإنسان وسلوكه ( حيث جاء في الحديث ) : خمسة خلقوا نارين ، الطويل الذاهب ، والقصير القميء ، والأزرق بخضرة ، والزائد والناقص<sup>(٥)</sup> . وقال (ص) : عليكم بالوجوه الملاح والحدق السود فإن الله يستحي أن يعذب الوجه المليح بالنار<sup>(٦)</sup> .

● وأكد خطورة الزنا ومدى تأثيره في انحراف سلوك الوليد ( حيث جاء في

---

(١) الجعفریات ، ص ٩٢ .

(٢) لثالي الأخبار ، ص ٢٦٧ .

(٣) مكارم الأخلاق ، ص ٨٨ .

(٤) بحار الأنوار ، ج ٥ ، ص ٢٧٧ ، الطبعة الثانية .

(٥) المصدر السابق .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٨١ .



النص ) : لا خير في ولد الزنا ، ولا في شعره ولا في لحمه ولا في دمه ولا في شيء منه <sup>(١)</sup> .

● ويبين مدى تأثير الفكر في بعض الحالات الجسمية ( حيث جاء في الحديث ) : لا رأي لحاقن ولا حازق ( وهما من الذين تلح عليهم حاجة من حوائج الطبيعة ) <sup>(٢)</sup> .

### وضع الجسم أثناء البحث :

من العوامل المادية ذات التأثير السيء على التفكير ، وبالتالي على اختيار الموقف السليم ، عدم راحة الوضع الجسدي للباحث .

فوجود أية حاجة بيولوجية للإنسان ، تسبب في اختلال أجهزته العصبية ، وهذه بدورها تؤثر في طريقة تفكيره : الملابس الضيقة ، ( ولا سيما الحذاء الضيق ) ، الآلام الجسدية الخفيفة ، عسر الهضم ، الجوع والعطش ، البرد والحر ، تلوث الهواء ، الضوضاء ، انتظار أمر هام ، الإجابة على التليفون الذي يرن بغير موعد ، الأضواء المتحركة ، والأضواء الخافتة ، تحرك ظلال اليد على ورقة الكتابة أو على ورقة المطالعة ، الأرق والكرى ( حاجة النوم ) و . و .

كل هذه قد تسبب في أخطاء فكرية ، لأنها تعكس آثاراً سلبية على الأعصاب ، ومن ثم على التفكير . وعلى الباحث أن يتنبه لحالته الجسدية ألا تكون مزعجة خصوصاً حين يعالج موضوعاً صعباً .

والتفكير يستخدم المخ ، والمخ بدوره يستخدم أنقى وأفضل زخات الدم ، ولذلك يحتاج الإنسان إلى القوة الجسدية الكافية لعملية التفكير . وحالات الضعف الناشء من أي شيء ، هي من أسوأ حالات التفكير ، كذلك حالة الشبع

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨٥ .

(٢) بحار الأنوار ج ٢ ، ص ٦٠ .

والامتلاء حيث لم يستطع الجسد استيعاب الغذاء بشكل تام .

لذلك يجبذ ترك العمل الفكري حين تناول الغذاء ، أو بعده مباشرة ، كما يجبذ من جانب آخر التزود ببعض الاكلات الخفيفة ، أثناء التفكير وعملية البحث .

وبقدر ما يحتاج المخ إلى القوة يحتاج إلى الأوكسجين ، إذ « يتطلب العمل الذهني توفير كمية أكبر من الدم للمخ مما يزيد توتر الأوعية إلى حد بعيد ، وهذا طبيعي تماماً . ولا يسبب عادة أية مضاعفات . . »

« ويتضمن وضع الجلوس المتخذ عادة في العمل الذهني خاصة ، والجسم منحني نصف انحناء يولد ضغطاً معيناً على الصدر ، وبالتالي تكون تهوية الرئتين غير كافية ، وهذا الوضع يعوق تموين الجسم بالأوكسجين » .

« ولهذا السبب يجب مراعاة تغيير هذا الوضع من وقت لآخر ، ويكون من المفيد القيام ( كل ٩٠ دقيقة أو كل ساعتين ) والتمشية في الغرفة أو الاستلقاء على الكرسي ، ومد القدمين ، والزفير ببطء ثم أخذ نفس عميق (١) .

والعين هي بعد الرقبة ، العضو الحساس الذي ينعكس وضعه على المخ بشكل مباشر ، والعين هي أول عضو يحس بالتعب ، ولذلك يجب التلطف في الاستفادة من العين ، وذلك بإعطائها قدرًا من الراحة ، كلما شعرت بإرهاق وقد يكون نافعًا التعود على « غرغرة » النوم في سبات خفيفة ، لإعطاء العين ومن ورائها أعصاب المخ قدرًا من الراحة ، الذي راح يؤثر في فعالية العين والمخ .

وبالطبع وضع الضوء على يسار الكاتب ، وعدم تسليط الضوء على أوراق الدفتر ، أو الكتاب لكي لا تنعكس الأمواج الضوئية على العين . أقول بالطبع هذه من ضرورات القراءة والكتابة .

---

(١) العمل والمخ ، ص ١٣٥ .

« وأبسط قانون فسيولوجي مناسب ، هو أن يستعمل ( في حجرات القراءة ) مناخذ للقراءة مثل القوائم التي يستخدمها الموسيقيون بوضع الكتاب في وضع سليم ، بالنسبة للمحور البصري للعين »<sup>(١)</sup> .

هذه بعض العوامل المادية التي أكد المنطق الحديث على الإهتمام بها أثناء البحث ، والتي لم تفت علماء المسلمين الإشارة إليها أيضاً .

يقول الشهيد الثاني : « ( ينبغي ) ألا يشتغل بالدرس ، وبه ما يزعجه ، ويشوش فكره ، من مرضٍ ، أو جوع ، أو عطش ، أو مدافعة حدث ، أو شدة فرح ، أو غم أو غضب ، أو نعاس ، أو قلق ، أو برد ، أو حر ( مؤلمين ) حذراً من أن يقصر عن استيفاء المطلوب من البحث أو يفتي بغير الصواب . . . » .

ثم يضيف قائلاً :

« ألا يكون في مجلسه ما يؤذي الحاضر ، من دخان ، أو غبار ، أو صوت مزعج ، أو شمس موجبة للحر الشديد ، أو نحو ذلك ، مما يمنع من تأدية المطلوب ، بل لا بد أن يكون المكاد واسعاً مصنوعاً عن كل ما يشغل الفكر ويشوش النفس ليحصل فيه الغرض المطلوب »<sup>(٢)</sup> .

---

(١) المصدر ص ١٤٧ .

(٢) منية المرید فی آداب المفید والمستفید ، ص ٧٩ .

المنطق الإسلامي  
أصوله ومناهجه

القسم الرابع

كيف نختار المنهج السليم

- كلمة البدء .
- أخطاء المنهج .
- بين الذكاء والتفكير .
- ظروف الباحث .



## كلمة البدء

ستحدث طويلاً ومفصلاً عن المنهج العلمي الذي يأمر به الإسلام ويوحى باتباعه في البحث عن الحقائق ، وذلك في الفصل القادم . أما هذا الفصل فقد خصص لموضوع آخر ، هو الأخطاء الآتية من المنهج . وهو يفرق عن الفصل القادم في أنه يبحث بصورة مجملة كل ما تشترك فيه سائر المناهج ، بينما خصص الفصل الآتي يبحث التفاصيل . وإيضاً يبحث هذا الفصل فقط عن الأخطاء ، فهو يتسم بسمة الهدم بينما يركز الفصل القادم ، في الطرق العملية للمنهج ، مما يعطيه طابع البناء ، فإذا كان الفصل القادم يجب على هذا السؤال : ما هو الطريق ؟ فهذا الفصل يجب على سؤال آخر هو : ما هي أشواك الطريق ؟ ولكن ، لماذا لم يتداخل هذان الفصلان مع ما بينهما من ترابط كلي ؟

السبب ، هو منهج الكتاب الذي في يدينا بوجه عام ، حيث إن الكتاب ينقسم أساساً إلى فصلين يبحث الثاني منهما حول المنهج السليم للعلم ، بينما يبحث الفصل الأول ( وهو الفصل الذي لا نزال ندرج فيه ) يبحث عن عوامل الخطأ . والتي قسمناها بدورها إلى عوامل نفسية واجتماعية وطبيعية وأخيراً عوامل منهجية ، وهي التي نتناولها الآن بالدراسة . ولذلك فصلناها عن بحوث المنهج ، بالرغم من ارتباطها العضوي . والآن ما هي الأخطاء الآتية من المنهج ؟ إنها متنوعة وعديدة ولكن أبرزها ما يلي :



القسم الرابع :  
كيف نختار المنهج السليم

البحث الاول عن :

أخطاء المنهج

- تحويل المناهج لصالح النظرية .
- البحث بلا هدف .
- البحث عن حقيقة واضحة .
- البحث عن المستحيل .
- التطرف في الحذر .
- المنهج غير المناسب .
- عندما نكفر بمنهج .





## تحويل المناهج لصالح النظرية :

من المعقول أن يكون البحث طريقاً إلى النظرية ، ولكن من غير المعقول أن تكون النظرية طريقاً إلى البحث ، أي أن نبحت بعد أن نتقبل نظرية معينة وإنما نحاول اتباعها بالبحث ودعمها بحجج مقنعة . ولكن ، هذا الأمر غير المعقول هو الذي ورط كثيراً من الباحثين في أحوال الجهل ، وجعلهم يتخبطون خبط عشواء ، كيف كان ذلك ؟ ولماذا ؟ وهل أشارت النصوص الإسلامية إلى شيء من ذلك ؟ للإجابة على هذه الأسئلة نسجل النقاط الآتية :

١ - يجب أن يجعل الباحث نفسه تلميذاً في مدرسة التجربة والملاحظة ، فإذا نطقنا بشيء سكت يستمع إليهما ؟ . .

بهذه الطريقة فقط نضمن صحة معلوماتنا التي تتوافق ومقتضيات التجربة والملاحظة . ولكن التجربة ذاتها قد تتعرض للتحويل كما تتعرض الملاحظة للتحيز ، وذلك حينما تتركز تجارب الشخص أو ملاحظته على بعض الظواهر المنتقاة بدقة لهدف محدد مسبقاً ، في حين تهمل سائر الظواهر التي تتصل بالموضوع وتشكل جزءاً عضوياً منه ، ومن الطبيعي أن تدل الظواهر المجربة

والملاحظة على شيء ، ولكن هذا الشيء لا يمكن أن يمثل الحقيقة كما هي في الواقع . . بل قد تمثل جزءاً متواضعاً من الحقيقة ، أو حتى لا تمثل الحقيقة أبداً . والأمثلة التالية توضح هذه الحقيقة :

أ - مدى كفاءة شخص معين قد يكون موضوعاً للبحث حر ومنفلاً عن شروط مسبقة تفرض عليه ، فيجعل الباحث لنفسه قائمتين يسجل في إحديهما الصفات الحسنة للشخص ، بينما يسجل في الثانية صفاته السيئة ، ولأنه يجري في بحثه مطلقاً غير مقيد فإنه يسجل كل صفاته الحسنة والسيئة ، ثم يُقارن بين القائمتين ، ليرى أيهما الكبرى ؟ فيحكم بموجبها على الشخص هل أنه كفوء أم لا .

ولكن عندما يتم اختيار هذا الشخص على أنه فعلاً كفوء ويبحث الباحث لا لمعرفة مدى كفاءته بل لإثبات كفاءته . . هنا يختلف الوضع تماماً . إذ يتم البحث تحت ضغط قيود معينة . هنا لا يمكن تهئية قائمتين بل قائمة واحدة فقط ، وهذه القائمة تحتوي على أفضل صفات الشخص ، وربما بصورة مبالغ فيها . هذا مثال واحد ضربناه لبيان مدى تأثير الهدف من البحث في تحوير مجراه منذ البداية . ومن المعلوم أن تحوير المجرى سيؤثر في النتيجة إذ ستكون النتيجة مطابقة للبحث ولكنها لن تكون صحيحة .

ب - وعندما يتم اختيار نظرية معينة في الفلك ، مؤداها : أن الشمس تدور حول الأرض ، فإن كل البحوث الفلكية سوف تؤيد هذه النظرية إذ سوف يتغافل الباحثون عن أية ظاهرة تدل على خلافها ، فلا يلاحظون سوى الحقائق التي تدعم نظريتهم المختارة سلفاً . وهكذا كانت المشاكل الفلكية الظاهرة غير قادرة على فتح نافذة من العلم على قلوب أولئك الذين اعتقدوا بدوران الشمس حول الأرض .

ج - والذين اختاروا لأنفسهم مذاهب فلسفية أو دينية أو سياسية معينة ، هؤلاء كانت جميع ملاحظاتهم وتجاربهم تؤيد مذاهبهم الخاطئة في أكثر

الأحيان ، لماذا ؟ لأنهم لم يكونوا يلاحظون ولا يجربون سوى الظواهر ، التي تتحول بهم بإتجاه إثبات مذهبهم ، وبالتالي أنهم حوروا مناهج البحث فأدى بهم البحث إلى نتائج خاطئة انتقاماً منهم وجزاءً وفقاً لتحويلهم إياها !

٢ - والسبب الذي يدعو الإنسان إلى تحويل المناهج ، هو اختيار نظرية معينة قبل البحث ، أو استهداف دعمها ، لعوامل نفسية أو اجتماعية أو طبيعية ، أو حتى لمجرد التخلص من قلق الجهل والتردد ، بل قد يكون وضع الفروض التي هي ضرورة باللغة للبحث قد يكون وضعها ، سبباً من أسباب تحويل المنهج ، ولهذا فقد حذر كثير من العلماء من مغبة الإفراط في وضع الفروض ، أو المغالاة في التقيد بها .

وقال أحدهم : «إن المجرب يوجه أسئلته إلى الطبيعة ، ولكن بمجرد أن تتكلم الطبيعة ، يجب عليه أن يلزم الصمت وأن يلاحظ ما تجيب به ، وأن يسمعها حتى النهاية ، وأن يخضع في جميع الحالات لما تمليه عليه » يقولون : « إنه يجب على المجرب أن يقهر الطبيعة حتى تكشف له عن أسرارها » ولا ريب في ذلك لكن يجب عليه أن لا يجيب مطلقاً بدلاً منها ، أو يسمع أجوبتها سماعاً ناقصاً ، ألا يأخذ من التجربة سوى النتائج التي تثبت صدق فرضه ، أو تكون مناسبة له فالمجرب الذي يصر على فكرته السابقة ولا يلاحظ نتائج التجربة إلا من وجهة نظره الخاصة يتردى في الخطأ لأنه يهمل ضرورة ملاحظة الأشياء التي لم يتوقعها ، ويقوم حينئذ بملاحظة ناقصة ، فيجب عليه ألا يحرص على أفكاره السابقة إلا على اعتبار أنها وسيلة يتطلب بها جواباً من الطبيعة ، ويجب عليه أن يخضع فكرته للطبيعة ، وأن يكون على استعداد لتركها أو تعديلها أو تغييرها ، تبعاً لما ترشده إليه ملاحظة الظاهرة التي أثارها<sup>(١)</sup> .

---

(١) كلود برنارد ، مقدمة لدراسة الطب التجريبي القسم الأول ، الفصل الأول ، الفقرة السادسة ، عن د. قاسم المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ١١٣ .

وقال أحد الباحثين : لقد أتبعت طيلة سنوات عديدة قاعدة ذهبية ، وهي أنني كنت أدون كل واقعة تنشر وكل ملاحظة جديدة وكل فكرة مضادة لرأيي ، وكنت أدونها في الحال ودون إهمال لأنني علمت بالتجربة أن مثل هذه الوقائع والأفكار أقل بقاءً في الذاكرة من الوقائع والأفكار التي تشهد لي بصدق فرضي<sup>(١)</sup> . وليس من الصحيح أن يفكر الباحث في قيمة الجهود التي بذلها في تكوين رأيه العلمي ، إنما عليه أن يعشق الحقيقة ( دون أن يعشق ذاته ) ، وينبغي أن يتخلى عن رأيه مهما كان الوقت الذي صرفه على تكوينه طويلاً . حيث أن المهم ما يشاهده الباحث وعليه ألا يصبح مخزناً للحقائق ، بل عليه أن يبحث عن الحقائق التي تحكم الواقع وهكذا يكون اختيار نتيجة معينة قبل البحث ، عاملاً قوياً لتحويل المنهج ، والسير به ، بعيداً عن خط الكشف عن الحقيقة .

ولكن متى يستقيم المنهج ؟

حينما يدخل الباحث في حرم التجربة مطهراً من دنس الغايات الرخيصة ، ويستهدف العلم للعلم . لا لأية مصلحة ذاتية ، أو غاية مادية ، فهذا هو بالضبط روح البحث التي تحرك جسد المناهج وتحافظ عليه من الآفات ولقد نفخ الإسلام في روع الأمة هذه الروح ، حينما جعل العلم سلماً يرتقي عليه المؤمن إلى رحاب الله ، ولكن لا يتحقق ذلك إلا بالإخلاص لله في تحصيل العلم حتى يكون لله وحده لا لأية غاية أخرى كبيرة أو صغيرة ، وقد استخدمت النصوص الدينية ثلاث وسائل متشابهة ، تؤدي إلى تربية الإخلاص للعلم في نفوس الباحثين وهي كما يلي :

● الوسيلة الأولى : بيان أن العلم عبادة . ومعروف كيف يجب أن يخلص المؤمن في عبادته لله سبحانه . . كما أن الإسلام ، يعطي بذلك للعلم قيمة ذاتية تعلو به عن الوصولية الرخيصة ، فما دامت العبادة هي أشرف شيء عند المؤمن

(١) المصدر السابق .

فكيف يضحي بأشرف العبادات ، وهو التعليم في سبيل غاية مادية فانية ؟!  
إن النصوص التالية نبذة يسيرة من أحاديث الإسلام المؤكدة أن العلم عبادة .

قال رسول الله (ص) : « فضل العلم أحب إلى الله من فضل العبادة » .  
وقال : « أفضل العبادة الفقه »<sup>(١)</sup> .

وقال (ص) : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا به ، وإنه ليستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ، في ليلة البدر »<sup>(٢)</sup> .

وقال أمير المؤمنين (ع) : تعلموا العلم ، فإن تعلمه حسنة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه - لمن لا يعلمه - صدقة<sup>(٣)</sup> .

● الوسيلة الثانية : الأمر بالإخلاص في طلب العلم ، ولعن أولئك الذين يجعلون العلم مطية لهم إلى أغراضهم الذاتية ، نستمتع الآن إلى بعض النصوص بهذا الشأن .

قال رسول الله (ص) : « لا تعلموا العلم لتماروا به السفهاء أو ليصرف به وجوه الناس ، وتجادلوا به العلماء ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم ، وابتغوا بقولكم ما عند الله فإنه يدوم ويبقى ، وينفد ما سواه ، وكونوا يئابغ الحكمة »<sup>(٤)</sup> .

وقال (ص) : « من طلب العلم لأربع دخل النار ، لياهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو ليصرف به وجوه الناس إليه أو يأخذ به من الأمراء »<sup>(٥)</sup> .

---

(١) و(٢) و(٣) بحار الأنوار ، ج ١ ، ص ١٦٤ - ١٦٦ - ١٦٧ .

(٤) المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

وقال علي أمير المؤمنين (ع) : «لأن حملة العلم ، حملوه بحقه لأحبههم الله وملائكته وأهل طاعته من خلقه ولكنهم حملوه بطلب الدنيا ، فمقتهم الله ، وهانوا على الناس» (١) .

وقال الإمام الصادق (ع) : الخشية ميراث العلم ، والعلم شعاع المعرفة وقلب الإيمان ، ومن حرم الخشية ، لا يكون عالماً ، وإن شق الشعر في متشابهاة العلم ، قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [ ٢٨ / فاطر ] وحد العلماء ثمانية أشياء : الطمع والبخل والرياء والعصبية ، وحب المدح والخوض فيما لم يصلوا إلى حقيقته والتكلف في تزيين الكلام بزوائد الألفاظ وقلة الحياء من الله والافتخار وترك العمل بما عملوا (٢) .

● الوسيلة الثالثة : إلفات النظر إلى مدى ارتباط العلم بالإخلاص ، حيث يكاد لا يقدر الوصولي إلى علم أبداً .

لاحظوا النصوص التالية كيف تربط بين العلم والإخلاص ؟

قال (ع) : «العلم نور يقذفه الله في قلوب من يشاء» وهل يقذف الله العلم في قلب رجل يمتن العلم ويجعله مطية إلى مصالحه الآنية ؟ وفي كلمة أخرى يعبر النص عن العلم ، الذي لا يقرنه الإخلاص ، بالعلم المؤقت الذي لا يدوم ، فيقول : من كان فعله لقوله موافقاً فهو ناجٍ ومن لم يكن فعله لقوله موافقاً إنما ذلك مستودع . ( بحار الأنوار ج ٢ ، ص ٢٦ ) يعني بالمستودع العلم غير الأصيل الذي لا يدوم .

وفي حديث ثالث يربط الإسلام بين العلم والعمل ، ويوصي بأن يكون العلم طريقاً إلى العمل ، ويكون الهدف من العلم ليس إلا اتباعه وطاعته والسير وراء نوره وهذا غاية الإخلاص في العلم وهو بالتالي : الوسيلة الوحيدة للحصول على العلم والاستفادة من ضيائه .

---

(١) و (٢) بحار الأنوار ، ج ٢ ، ص ٣٧ - ٥٢ .

لنستمع إلى بعض النصوص في ذلك . قال الله سبحانه : ﴿ أتأمرون  
الناس بالبر وتسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون ﴾  
[ ٤٤ / البقرة ] .

وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ ﴿ كبر مقتاً عند الله  
أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ [ ٢ - ٣ / الصف ] ، وقال عيسى (ع) : رأيت حجراً  
مكتوباً عليه : قلبي فقلبيته فإذا على باطنه : من لا يعمل بما يعلم مشوم عليه طلب  
ما لا يعلم ، ومردود عليه ما علم<sup>(١)</sup> . إن أول مقت يصبه الله سبحانه على رؤوس  
الذين يقولون ما لا يفعلون هو سلب العلم منهم وتشويه العلم عليهم ، وبالتالي رد  
علمهم إلى أنفسهم دون قدرتهم على الاستفادة منه .

وقال الإمام الصادق (ع) : من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه ،  
وأنطق بها لسانه وبصره عيوب الدنيا وداءها ودواءها وأخرجه الله من الدنيا سالماً  
إلى دار السلام<sup>(٢)</sup> .

وقال النبي (ص) : إن العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل<sup>(٣)</sup> .  
ليس العلم هو الكشف الواضح عن الواقع الخارجي ؟ أوليس التفاعل مع هذا  
الواقع والدخول فيه هو أفضل وسيلة لكشفه وتعميق الوعي به ، وبالتالي ازدياد  
العلم به ؟ إذا فالعلم والعمل لا يختلفان . . . والذي يعمل بما يعلم يتعلم ما يريد  
أن يعمل به ، وبالتالي يتعلم ما لا يعلم فهو يسير أبداً من مجهول إلى معلوم طريقاً  
سويّاً ، لأنه كلما دخل ساحة العمل ، وجد أمامه جوانب غامضة من الحياة ، فقاده  
إحساسه بضرورة الاطلاع على تلك الجوانب ، قاده إلى المزيد من البحث  
المنهجي للتعلم ، بينما الذي لا يعمل بعلمه لا يعرف قيمة العلم حتى يبحث عنه

---

(١) بحار الأنوار ، ج ٢ ، ص ٣٢ .

(٢) المصدر ، ص ٣٣ .

(٣) المصدر ، ص ٣٣ .



ولا يتحسس بمواقع الجهل من علمه ، ويستبد به غرور شامل بأنه يعرف كل شيء ، وهذا الغرور يدفعه طبيعياً إلى تشويه العلم وخلطه بألف أسطورة وأسطورة . يقول عن ذلك الإمام علي (ع) : « لا تجعلوا علمكم جهلاً وبقينكم شكاً ، إذا علمتم فأعملوا وإذا تيقنتم فأقدموا »<sup>(١)</sup> . ويقول الإمام الصادق (ع) : « تعلموا ما شئتم أن تتعلموا فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا به »<sup>(٢)</sup> .

وقال أيضاً : العلم مقرون إلى العمل فمن علم عمل ، ومن عمل علم<sup>(٣)</sup> . وقال أيضاً : من عمل ما علم ، أوتي علم ما لا يعلم . إن هذه النصوص جميعاً تهدي إلى ذات العلاقة التفاعلية المتينة بين العلم والعمل وأنه كلما كان الربط بينهما شديداً كلما كان العلم واضحاً ودقيقاً .

وهذا بالطبع هو الإخلاص العلمي الذي امرتنا به الأحاديث السابقة ، والذي يشكل جانباً هاماً من منهج الإسلام في المعرفة

والسؤال هنا : كيف نعرف أننا مخلصون فعلاً في طلب العلم وناجحون في تحصيله أم لا ؟ هل هناك معالم تهدينا إلى حقيقة أنفسنا في طلب العلم ، حتى لا نتورط في فورة الغرور بأنفسنا ، والاعتقاد خطأً بأننا مخلصون بينما لا نكون كذلك ؟

يجيب النبي (ص) على هذا السؤال ، ويضع لنا طائفة من الصفات التي يمكننا أن نكشف بها مدى الإخلاص في أنفسنا للعلم ، وبالتالي نعرف نسبة النجاح المتوقعة في ذلك وفي طبيعة هذه الصفات يأتي الشعور بالتواضع ، في النفس وأمام الناس ، ثم المزيد من حب العمل ، والاجتهاد فيه . . .

يقول النبي (ص) : « من طلب العلم لم يصب منه باباً إلا ازداد في نفسه

(١) بحار الأنوار ، ج ٢ ، ص ٣٨ .

(٢) المصدر ، ص ٣٧ .

(٣) المصدر ، ص ٤٠ .

ذلاً ، وفي الناس تواضعاً ومنه خوفاً ، وفي الدين اجتهاداً ، وذلك الذي ينتفع بالعلم ، فليتعلم . ومن طلب العلم للدنيا ، والمنزلة عند الناس ، والحظوة عند السلطان لم يصب منه باباً إلا ازداد في نفسه عظمة وعلى الناس استطالة ، وبالله اغتراراً ، ومن الدين جفاءً ، فذلك الذي لا ينتفع بالعلم فليسكت وليمسك عن الحجة على نفسه ، والندامة والخزي يوم القيامة<sup>(١)</sup> .

بهذه الوسائل الثلاث ( رفع العلم إلى مستوى العبادة ، والأمر بالإخلاص في العلم وربط العلم بالإخلاص وجوداً وآنساً ) يهدف الإسلام تربية الروح العلمية في الإنسان ، وتحصينه من الخطأ الناجم من تحوير المنهج العلمي ، بسبب استباق البحث بتحديد نتيجته سلفاً ، وبالتالي جعل البحث في خدمة النظرية ، التي اتبعت قبل البدء بالبحث .

هذه واحدة من الأخطاء الآتية من المنهج . . . والثاني :

### البحث بلا هدف :

قيل قديماً ، حسن السؤال نصف الجواب ، وهذا يعني أن علينا أن نحدد بالضبط ( الهدف العلمي الذي نرمي الوصول إليه بالبحث ) فماذا نريد أن نعرف ؟ وما هو المجهول الذي نحاول كشفه ؟ ذلك لأنه بدون هذا التحديد ، فإن البحث سوف لا يستمر ، للأسباب التالية :

١ - بدون معرفة هدف محدد للبحث قبل البدء ، كيف نستطيع أن نجتمع المواد المتناسبة مع البحث ؟ مثلاً ، لو لم نعرف أننا نبحث عن حكم الزاني في الفقه ، كيف يمكننا التفتيش عن آية الزنا في القرآن ؟ ولو لم نعرف في علم الفيزياء ، أننا باحثون عن امتداد المعدن بالحرارة كيف يمكننا جمع تجارب خاصة بحرارة المعدن ؟! وكذلك كلما كان الإطار المحدد للبحث معيناً سلفاً ، كلما استطعنا جمع مواد أكثر التصاقاً بموضوع البحث ، وأشد دلالة عليه ، وبالتالي :

---

(١) المصدر ، ص ٣٥ .

لا يذهب جزء من تفكيرنا عبثاً في الجمع والتحقيق ، والتأمل في تجارب لا تمت للبحث بصلة .

٢ - لأن الإنسان لا يفكر عادةً إلا إذا وجد حاجة ماسة إلى هذا التفكير ، فإن لا هدفية البحث ، يجعل الإنسان لا يشعر بالحاجة إلى التفكير ، وبالتالي يجعله لا يفكر ، وبالعكس لو كان للبحث هدف فإن النفس تشعر بضرورة كشفه ، وتستغل طاقة التفكير في هذا الهدف حتى تحققه .

٣ - والتفكير يشبه الماء ينتشر في كل اتجاه لو لم يكن ظرف يحتويه ، ولذلك فكلما كان أكثر تركيزاً ، كلما كان أشد نفعاً ، والهدف العلمي للبحث يصبح بمثابة ظرف يحتوي شتات التفكير ، وإطار يجعله أكثر تركيزاً وأكثر نفعاً .  
من هنا كان من الأخطاء المنهجية خطيرة ، هو البحث عن « لا شيء » ، وبغير هدف علمي محدد .

وكما يكون تحديد الهدف لمجمل البحث ضرورياً ، فهو ضروري أيضاً لوجبات البحث ، فكل جلسة بحث يجب أن يكون لها هدف جزئي ، يريد الفرد تحقيقه خلالها ، وعادة يذهب جزء من الجهد والوقت لكثير من الباحثين في تحديد مسار البحث ، بعد جلوسهم على الطاولة ، وبالتالي لا يبدؤون البحث الحقيقي ، إلا بعد أن يُصاب مخّهم وأعصابهم بإرهاق كبير ، ولكي يتفادوا هذا العبث ، عليهم أن يفكروا قبل الجلوس فيما يريدون أن يعرفوه بالقبض خلال الجلسة « لا تجلس - أبداً - إلى العمل ، دون خطة محددة ، و(دون) تحديد كمية معينة من العمل لإنجازها ، راقب مقدار العمل ( الذي عملته ) عن طريق كتابة المذكرات واستخدام التقويم اليومي »<sup>(١)</sup> .

ولهذا التحديد فوائدها منهجية أخرى ، أهمها : تحضير أدوات البحث اللازمة قبل الشروع حتى لا يُفاجأ الباحث أنه يحتاج إلى قاموس ، أو كتاب ، أو

---

(١) العمل والمخ ، ص ١٤٠ .

معدن ، أو ما أشبه من أدوات البحث والتجربة ، وبينما يقوم ليحضر هذه الأدوات ، تنقطع سلسلة بحثه ، ويتشتت تفكيره ، وبدون تحديد مسبق لهدف البحث الجزئي ، كيف يمكن تهيئة الوسائل المناسبة له .

ومرة أخرى نكرر الحكمة القديمة ( حسن السؤال نصف الجواب ) فإذا كنت بارعاً في توجيه السؤال إلى الحياة ، فلن تعدم منها الجواب الصحيح . بينما السؤال غير المحدد يضع الحياة في حيرة ، ويضع التفكير في فوضى شاملة ، فإذا سألنا ، مثلاً ، الحياة مسألة بسيطة هي : ما لون النصب التذكاري الذي نجده أماناً في الساحة ؟ فسوف لا يكون الجواب سليماً ، لأنه لو قيل لنا : إن هذا النصب أحمر ، فقد يكون جانب من النصب أخضر والعكس بالعكس ، وقد يكون هناك اختلاف في لون النصب من الليل إلى النهار ، ومن اليوم هذا إلى غد وثم أن لفظة ( النصب التذكاري ) غير محددة ، فهل المراد منه الجانب العلوي . أو تشتمل حتى القاعدة التي استوى النصب عليها ؟ وهكذا لا يكون الجواب صحيحاً مطلقاً ، لأن السؤال لم يكن علمياً محدداً . أما السؤال العلمي فيحدد أولاً : المقصود من لفظة النصب التذكاري ثم يحدد الظروف التي تتصل بهذا النصب ، والتي تؤثر بشكل أو بآخر في لونه ، وتحدد أيضاً المعنى المقصود من اللون ، حتى يكون الجواب سليماً ، وبالطبع ، هذا مثل مبسط جداً . إذ إن المشاكل العلمية ، ليست من نوع السؤال ، ( عن لون نصب تذكاري ) ، إنما هي معقدة ومتشابكة . وتحديد السؤال فيها ، يحتاج إلى وقت كبير ، وجهد كبير أيضاً . ولكي نفهم طبيعة هذا الوقت والجهد ، ونفهم بالتالي ، كيف نتحصن ضد الأخطاء المنهجية ، الآتية من عدم تحديد المشكلة بالضبط ، قبل البحث لكي نفهم هذا وذاك لا بد أن ندرس جانباً من المنطق الذرائعي (براجماتزم)<sup>(١)</sup> . . . ليس لأن نظرياته المنطقية صائبة كلياً بل لأنها أفضل

---

(١) نعتد هنا على كتاب جون ديوي المسمى بـ ( المنطق نظرية البحث ) ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود . طباعة دار المعارف بمصر .

نظريات ، تشرح هذا الجانب الخاص من المنطق ، وهو جانب تحديد المشكلة .

وفي البداية ، يجب أن نعرف : حين ندرس موضوعاً ليس لنا شيء واحد ندرسه ، إنما مجموعة أشياء معاً هي التي ندرسها ، أو بالأحرى شيء واحد من مجموعة أشياء يتصل بها ويتفاعل معها . فإذا نظرت إلى المنضدة أمامك وحاولت دراستها ، فإن هناك عدة أشياء تقفز طبيعياً إلى صعيد الدراسة ، أشياء ترتبط بالمنضدة ، وأشياء ترتبط بك ، فأما بالنسبة إلى المنضدة ، هناك الأرض التي تقف عليها ، والستارة التي تظللها ، والأدوات التي تبعثرت عليها ، والضوء الذي سُلط عليها ، ومالك المنضدة ، ومدعيها ، والاختلافات الناشئة حولها ، كل هذه تقفز إلى ذهنك حين تدرس المنضدة ، وهي جميعاً الإطار الذي تستقر بداخله المنضدة ولا تستطيع أن تجردها عنه . وبالنسبة إليك فإن المنضدة قد تعنيك من ناحية خشبها ، أو صنعها ، إذا كنت نجاراً ، أو من جهة صورها ونقوشها إذا كنت فناناً ، أو حتى من طرف مالكة ومدعيها إذا كنت حاكماً ، وإذا كانت لا تعنيك المنضدة إلا من زاوية الآثار الصغيرة ، التي تركت عليها كنت شرطياً تبحث عن جريمة ، وهكذا تختلف نظرتك إلى المنضدة لأنك أساساً تختلف ، من نجار ، أو فنان ، أو حاكم ، أو شرطي . ومن هنا فعندما تشير إلى المنضدة وتقول « هذا » فلا يمكن أن تعني : شيئاً واحداً في كل الحالات ، بل لا بد أن تعني في كل حالة شيئاً مختلفاً ، حسب ظروفك الشخصية . وقد جُرّب أحد العلماء هذه الحقيقة ، فوجه سؤالاً إلى مجموعة أطفال ، فسمع أجوبة مختلفة ، السؤال هو : ما هذا ؟ وأشار إلى المنضدة فأجاب كل منهم بجواب ، قال أحدهم : « خشبة » . وقال الآخر : « صورة » وقال الثالث : « ستارة » . وقال الآخر : « منضدة » . . . والدراسة العلمية السليمة ، هي التي تحدد سلفاً العناصر المشتركة في صنع موقف نريد دراسته ، والحالات النفسية التي تختلف الدراسة ، حسب اختلافها ، ففي المثل السابق ، تضع الدراسة السليمة نصب عينها هذا السؤال : ما هي المنضدة ؟ وكيف أريد أن أدرسها ؟ ويعدّذ يتحرك نحو الحل .

يقول جون ديوي : كيف نحكم ضبط المشكلة الحقيقية عند تكونها احكاماً يكفل للأبحاث التالية أن تسيّر نحو حل لها ؟ أي كيف نحدد المشكلة ؟

أولى خطوات الإجابة على هذا السؤال هي : أن نعلم بأن الموقف ، إن كان غير متعين على الإطلاق ، كان محالاً علينا أن نحوله إلى مشكلة ذات مقومات محددة المعالم . إذاً ، فالخطوة الأولى ، هي أن نستخرج من الموقف القائم تلك المقومات ، التي تكون مقررة للأوضاع ، من حيث هي مقدمات ، فمثلاً لودق صوت ينذر بشوب نار في قاعة مزدحمة ، كان هناك عندئذ أشياء كثيرة غير متعينة ، مما يتصل بأنواع النشاط التي يجوز أن تنتج نتيجة مناسبة للموقف ، فقد يجوز أن يؤدي الأمر بأحد الحاضرين إلى النجاة ، كما يجوز له أن يداس ، ويختنق ، ومع ذلك فللنار ما يميزها من الخصائص المعروفة ، فهي مثلاً معلومة المكان والمماشي وأبواب الخروج معلومة الأوضاع ، وما دامت هذه الأشياء مقررة ومحددة بالقياس إلى الوجود الخارجي ، كانت الخطوة الأولى بعدئذ في إقامة المشكلة : هي أن نضع تلك الأشياء في إطار المشاهدة وضعاً معلوماً ، وسيكون إلى جانبها عوامل أخرى هي من المقومات المشاهدة أيضاً ، على رغم أنها ليست كالسابقة من حيث ثباتها الزمني والمكاني ، مثال ذلك سلوك وحركات سائر الأفراد الحاضرين . وكل هذه الظروف المشاهدة مأخوذة معاً تكون وقائع الحالة وحين تكون عناصر المشكلة ، لأنها هي الظروف التي لا بد أن نحسب حسابها ، أو أن نأخذها بعين الاعتبار في أي حلٍ يطرق ببالنا مما يتصل بالمشكلة القائمة .

وبتحديدنا للظروف الواقعية التي نجم عنها في نطاق المشاهدة يعرض لنا حل ممكن للمشكلة التي نكون بصدها . ويسمي جون ديوي الوقائع التي تشارك في تحديد المشكلة بوقائع إجرائية . ثم يفسر ذلك بالقول : ثم ماذا نعي بقولنا عن الوقائع إنها إجرائية ؟ نعني من الناحية السلبية ، أنها ليست مكتفية بذاتها ، ولا هي كاملة في ذاتها ، بل إنها لتختار وتوصف . كما رأينا ابتغاء غرض مقصود

ألا وهو وضع المشكلة المتضمنة ، على نحو يجعل مادتها تدل على معنى له علاقة بفرض الإشكال القائم من جهة ، ويعين على اختيار قيمته وسلامته من جهة أخرى . ففي البحث ، ذي الخطة المدبرة ، تختار الوقائع وترتب لغرض صريح ، وهو أن تؤدي هذه المهمة ، فليست هي مجرد نتائج عن إجراءات المشاهدة ، التي نجريها بواسطة أعضاء الحس في أجسامنا ، وما يساعدها من أدوات صناعية ، بل هي : وقائع بصفاتها الخاصة ، وبأنواعها الخاصة ، التي قصد بها أن ترتبط إحداها بالأخرى ، ارتباطات معينة تتطلبها ، بغية الوصول إلى نهاية معينة ، ولذلك قررنا أن نسقط منها ما نجده غير مرتبط بغيره في تلك النهاية المقصودة .

وليس الإطار ، الذي نحدّد ضمنه مشكلتنا في البحث ، هو الإطار الصغير ، الذي يحتوي على المشكلة الفعلية التي ندرسها ، وإنما ، بالإضافة إلى هذا الإطار ، يجب أن يكون إطاراً عاماً ، يحتوي على سلسلة المشاكل جميعاً في وحدة تمنح الدراسة شيئاً من التماسك والتفاعل والتحديد . بهذا المعنى يخلق لنا جو أوسع للبحث ، نستطيع أن نربط من خلاله المشاهدات المتباعدة نوعاً ما ببعضها ، في ذلك يقول ديوي : كلما فضّ وجهاً من وجوه المشكلة خلق له سيراً معيناً في العمل ، قام وجه آخر على صورة شيء جديد أو حادثة جديدة ، فلولم تكن الحلقات المتشابهة منطقية تحت موقف شامل ، له من الطابع الكيفي ما يتغلغل في تلك الحلقات كلها ، ويمسكها معاً ، لكان نشاط العامل في صناعته ، قفزات وانتقالات تخلو من المعنى<sup>(١)</sup> . « يجب أن يكسب اختيار الموضوع ، ذي المغزى العلمي الإجتماعي ، عن عضوي الجسارة والاستعداد لعمل بعض التضحيات للوصول إلى الهدف ، ويجب أن يكون متدرجاً حيث يجب تعلم ألف باء العلم قبل أن نحاول الوصول إلى القمة<sup>(٢)</sup> » .

(١) المنطق: نظرية البحث ، ص ٢٠٦ .

(٢) العمل والمخ ، ص ١٤١ .

والتعاليم الإسلامية أوصت بتحديد المشكلة ، فقال النبي (ص) : التودد إلى الناس نصف العقل ، وحسن السؤال نصف العلم ، والتقدير في النفقة نصف العيش<sup>(١)</sup> . وفي حديث سُئل أحد الأئمة (ع) سؤال عن الصيد في الحج ، فأخذ (ع) يقسم السؤال إلى عدة أسئلة ، تجاوزت العشرات حتى أعطى الجواب ، وهذه هي الطريقة العلمية السليمة التي تعتمد على تحديد المشكلة ، قبل البحث عن حلها .

### البحث عن حقيقة واضحة :

قديمًا قالوا : من جرب المجرب حلت به الندامة . وكانوا يعنون بهذه الحكمة : أن على الانسان أن يستفيد من تجارب غيره ، ويبدأ من حيث انتهوا سواءً في الحياة العملية أو في البحث العلمي .

ولكن السابقين ، هم أول من نسي هذه الحكمة ، إذ كان منطقهم ينطوي على إعادة المعلومات مما حدا بكثير من المناطق الجدد ، توجيه أعنف اللوم عليهم ، باعتبار أن هذا التكرار الممل كان السبب في تجميد معلوماتهم في حلقة دائرية ، لا تتحرك إلا لتعود إلى مواقعها من جديد ، وبدون أي مكسب علمي يذكر . فمثلاً المنطق الأرسطي يعطي « الشكل الأول » من القياس أهمية بالغة ، وهذا الشكل ينطوي على خطأ تكرار المعلوم ، وإعادة بيانه بصيغة أخرى ، إذ أنه يتركب من صغرى وكبرى ، أي من فكرة كلية ، وفكرة جزئية نابعة منها ، ويقول مثلاً : زيد إنسان - وكل إنسان فانٍ - فزيد فانٍ ، إلى هنا يبدو المنهج سليماً ، ولكن تبدأ المشكلة من أن علمنا بالفكرة الكلية ، قد يكون آتياً من علمنا بالفكرة الجزئية فمن طريق معرفتنا - مثلاً - بفناء زيد ، وعمر ، وخالد ، ومحمد ، وعلي ، وكل إنسان ، عرفنا بأن كل إنسان فانٍ ، فكيف نعود ونحاول إثبات فناء زيد عن طريق فناء كل إنسان ؟!

(١) المصدر ، ص ٢٢٧ .



« وان قيمة الاستنباط ، لترجع إلى كونه فارغاً ، ذلك لأن كون الإستنباط لا يضيف أي شيء إلى المقدمات ، هو ذاته السبب الذي يتيح على الدوام تطبيقه دون خوف من أن يؤدي إلى الإخفاق وبعبارة أدق فليست الحجة بأقل يقيناً من المقدمة ، فالوظيفة المنطقية للإستنباط ، هي نقل الحقيقة من القضايا المعطاة إلى قضايا أخرى »<sup>(١)</sup> .

وهذا يعني أن علمنا بالكلّي إذا كان آتياً « من الاستقراء التام » فإن علمنا بالجزئي سابق عليه ، فلا يكون تابعاً له . وحتى لو لم يكن علمنا بالكلّي آتياً من علمنا بالجزئي ، فإن « مجرد علمنا بالكلّي » منطوق على العلم بالجزئي ، إذ ليس الكلّي أكثر من مجموعات جزئية فماذا نريد من القول : بأن كل إنسان « كذا » ؟ السنا نريد من كلمة « كل إنسان » زيداً وعمراً وفلاناً وفلاناً فماذا يفيدنا إذا تكرار النتيجة ، ( فزيد فان ) ١٩ ولا نريد أن ننكر ، بهذا القول ، فضل هذا النوع من القياس ، في توضيح الأفكار وارتباطاتها ببعضها ، ولكننا نريد أن نؤكد على أن المبالغة في استخدام هذا النوع من القياس ، يوقعنا في تجربة المجربات وإعادة المعلومات ، والتي تؤدي بدورها إلى تجميد الفكر وسلب المبادرة منه ، لذلك يقول د . محمود قاسم : إن ترديد القياس لبعض الحقائق التي سبق اكتسابها ، هو السبب في عقمه وجموده ، فالمنطق الشكلي ، الذي أنشأه الميتافيزيقيون ، ينمي قوة الجدل على وجه الخصوص ، أي أنه ينمي استعداداً للبرهنة ، دون الكشف عن شيء ما ، وهو استعداد أكثر ضرراً منه نفعاً . وقد قال ديكرت ما يشبه ذلك في حديثه عن القياس الذي يستخدمه المرء لكي يفسر للآخرين الأشياء التي يعلمونها ، بدلاً من أن يكشف لهم عن تلك التي يجهلونها ( كتاب أوجيست كنت الترجمة العربية ص ١٠٢ )<sup>(٢)</sup> .

وهذه الحقيقة تعني أمرين آخرين أيضاً : هما :

(١) نشأة الفلسفة العلمية ، هانز ، ص ٤٥ .

(٢) المنطق ومناهج البحث ، ص ٤٦ .

١ - علينا أن نتمتع بالشجاعة الكافية للبحث عن المجهول ، ذلك لأن طائفة من الباحثين لا يملكون هذه الشجاعة ، فيدورون في حلقة المعلومات الموجودة ، ويحرمون أنفسهم متعة الاكتشاف الجديد ، وقد حذرتنا بعض النصوص الإسلامية عن الجبن في اختراق المجهول ، والإيمان به ، وجاء في حديث الإمام علي عليه السلام : « الناس أعداء ما جهلوا » وجاء في آية قرآنية كريمة : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ [ ٣٩ / يونس ] .

٢ - وعلينا أن نبدأ البحث بالإطلاع على نتائج كل البحوث السابقة ، حتى لا نكرر دراسات الآخرين ، فلا نضل بعد التعب إلا لما وصلوا إليه ، فيكون بحثنا عقيماً . صحيح أنه قد توجب علينا الأمانة إعادة النظر في صحة أقوال الآخرين ، ولكن لا يعني ذلك الإستمرار في هذه العملية وجعلها عادة سلوكية في حياتنا العملية والعلمية .

فلكي لا نجعل بحثك عقيماً - كما فعل طائفة من الباحثين - اجمع حولك كل ما كتب أو قيل في موضوعك ، وادرسها بدقة ، واهضمها بترو ، ثم ابدأ بحثك بكل ثقة وشجاعة في اختراق المجهول .

والإسلام أوصى باتباع العلم وعدم التردد فيه فقال علي عليه السلام : « لا تجعلوا علمكم جهلاً ويقينكم شكاً إذا علمتم فاعملوا وإذا تيقنتم فأقدموا » .

إن تكرار صياغة المعلومات يلهينا عن البحث عن معلومات جديدة ، ويبلد شعورنا بفعل اللا إهتمام الذي نصاب به .

أيضاً يجعلنا نتردد ونشك حتى في تلك المعلومات السابقة ، لأن ازدياد الموضوع قد يؤدي إلى الغموض ، وعلينا أن لا نتبع منهجاً يعتمد على تكرار المعلومات أو تجربة المسلمات ، بل منهجاً يدفعنا إلى اختراق المجهول والبحث عن حقائق لم تعرف بعد . . .

## البحث عن المنحيل ؟ :

إذا صح القول الشائع ( إذا أردت ألا تُطاع فأمر بما لا يُستطاع ) إذا صح هذا القول في الاجتماعيات ، فإنه أكثر صحة في المنهج العلمي . إذ إن كثيراً من الناس ، يقعون في سلسلة من الأخطاء نتيجة بحثهم عما لا يمكن فهمه . وكثيرون يحاولون معرفة أشياء بعيدة جداً عن مستوى عقولهم فيغطون في بؤرة الجهل ، إذ يتخيلون نظريات - بينها وبين الحقيقة - مسافة بعيدة جداً ، وقد يكون هذا الفريق من الناس واحداً من أربعة .

١ - فإما أن يكون المستوى العلمي الشخصي - الذي يتمتع به - بعيداً عن مستوى ما يحاول اكتشافه ، فطالب في المتوسطة مثلاً ، يسعى لفهم أبعاد نظرية انشتاين النسبية وبراهينها النظرية ! وبديهي أن يسبب له هذا التكلف ، أخطاء كبيرة ، وقد حذرنا بعض التعاليم الإسلامية عن هذا التكلف فجاء في القرآن الكريم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها ، والله غفورٌ حلِيم ، قد سألها قوم من قبلكم ، ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ [ ١٠١ - ١٠٢ / المائدة ] .

إن السؤال عما هو فوق مستوى الفرد ، سيؤدي به إلى الكفر ، لأنه لا يمكنه أن يهضم الجواب السليم لسؤاله ، فخير له أن يترك السؤال مرة واحدة ، كما جاء في الآية الكريمة .

٢ - وقد تكون الموضوعة التي يحاول الباحث دراستها ، أبعد ما تكون عن مستوى العلم البشري كله ، فيأتي شخص مثلاً ، ويحاول - قبل أوانه - أن يفهم طبيعة الكائنات التي تعيش في آخر مجرة كونية في الفضاء . ألا يُصاب هذا الشخص بالجنون أو يفرق في بحر من النظريات الوهمية البعيدة ؟ .

والنصوص الإسلامية أوصتنا : أن لا نتكلف علم ما لم نؤت علمه . والتي

من بينها - بالطبع - البحث عن كنه الخالق وعن أموره الذاتية . ذلك البحث الذي أشغل بال الفلاسفة لفترة طويلة من الوقت ، واستنفد المزيد من الطاقة وأوصلهم بالتالي إلى أنواع من الضلالة الفكرية والسلوكية ، ولو أنهم كانوا يعرفون : أن طبيعة هذا البحث عاصية الفهم لكانوا يولون اهتمامهم إلى أشياء أكثر فائدة لهم وأقل ضرراً . ولقد أنقذ الإسلام الفكر البشري إذ وجه اهتمامه كلياً إلى المخلوق ، وجعل « فهم هذا المخلوق » أفضل وسيلة لمعرفة الخالق ، وجاء في القرآن الكريم : ﴿ يتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانه ففنا عذاب النار ﴾ <sup>(١)</sup> [ آل عمران ] .

﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ [ آل عمران ] .

وفي الأحاديث جاء هذا التوجيه بكلمات صريحة وعنيفة مثلاً : « من تفكر في ذات الله تزندق » .

ويؤكد حديث كريم ضرورة الكف عن السؤال الافتراضي - الذي يتخيل المرء حالة معينة غير موجودة - ثم يحاول الإجابة عليها ، لأن هذا النوع من البحث ، يؤدي - حتماً - إلى التورط في سلسلة أفكار مثالية مفترضة .

يقول الحديث : « لا تسأل عما لم يكن ففي الذي قد كان لك شغل ... » <sup>(٢)</sup>

إن الحالات المشككة التي تعيش في الواقع ، الآن كثيرة ، وكافية لإثارة اهتمام الإنسان ، فلماذا البحث عن مشاكل لا وجود لها ؟ وفي حديث آخر « إياكم وأصحاب الخصومات ، والكذابين ، فإنهم تركوا ما أمروا بعلمه ، حتى تكلفوا

---

(١) في هذه الآية يوضح القرآن : مدى ضرورة التفكير في السموات والأرض ، كوسيلة قريبة إلى معرفة الله سبحانه .

(٢) بحار الأنوار ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

٣ - وقد تكون وسائل الدراسات العلمية - التي من المفروض أن تتقدم على الموضوعات المبحوثة - لم تكتمل بعد ، فيجب أن نبدأ بتكميل تلك الدراسات ، ثم نسعى لفهم الموضوعات ، دون أن نفترس من فوق الحلقات المفقودة ، ونحاول الوصول - مرة واحدة - إليها . فمثلاً علم الطب لم يكشف بوجه الدقة - أسباب مرض السرطان - فإذا حاول باحث أن يتناسى هذا العجز ، ويصل إلى فهم علاج السرطان ، قبل توصل العلم إلى أسباب ظهوره كان عليه أن ينتظر الفشل بكل اطمئنان . لأن الدراسات التمهيدية - التي من المفروض أن تكون طريقاً إلى معرفة علاج السرطان ، وهي الدراسات التي تبحث عن أسبابه ولما تكتمل . وهكذا يجب أن لا نستعجل في فهم الطبيعة فنصاب بالخطأ .

٤ - وأخيراً نجد بعض الباحثين يفترضون « قدرتهم على حل المشكلة » قبل أن تكتمل لديهم الدراسات الخاصة بها . فيعتمدون على قدر أقل من التجارب والبحوث مما ينبغي ، وذلك نتيجة افتراض خاطيء آخر . هو : أن المشكلة - لديهم - قد أصبحت على أبواب الحل .

لذلك ينبغي عدم الاستعجال ومحاولة حل المشكلة قبل أن تتم قناعة الباحث بأنها قد نضجت وأن لنا قطفها .

كل هذه البنود الأربع تقع في إطار واحد هو البحث عن المستحيل ، سواء كان مستحيلاً بالنسبة إلى مستوى الإنسان أو المستوى الغلمي في الإنسان في مرحلة معينة أو في مستوى البحث العلمي بالنسبة إلى مراحل المتتالية .  
الحذر من الخطأ :

قد يكون الحذر من الخطأ نابعاً من الإيمان بالحق ، وبضرورة البحث

عنه ، بين ما يكتنفه من الباطل ، وهو بذلك صفة حسنة يجب التحلي بها ولكن قد يكون الحذر من الخطأ ناشئاً من عدم الثقة بالعقل ، وبقدرته على اكتشاف الحق ، وهذه صفة سيئة يجب التجنب عنها ، بكل شكل ممكن ، ذلك لأن هذا النوع من الحذر لا يزيد بالتعلم إلا قوة ورسوخاً في النفس ، ويؤدي بالتالي إلى المزيد من الجهل والشك والتردد .. ذلك لأن الحذر الشديد من الخطأ ، يفقد الإنسان الإيمان بما يحصل له من العلوم . لأنه ما من علم يأتيه إلا ويشك في صحته ، حذراً من أن يكون باطلاً ، ويستمر في الشك ، حتى يصبح مثالياً سفسطائياً ، أو شكاكاً بيرونياً . . . بينما الإيمان بالعلوم الثابتة ، يكون منطلقاً لتحصيل علوم جديدة ، ويعطينا القدرة على الإستمرار في البحث والتنقيب . يقول الدكتور قاسم : فربما كانت شدة الحذر من الخطأ ، سبباً في تقييد العقل وجموده ، وفي صرفه عن فهم الظواهر<sup>(١)</sup> .

والسؤال : متى يجب الحذر ومتى يجب التجنب عنه ؟

لا يمكن الإجابة عليه من قبل الإنسان ذاته . فمتى وثقت النفس بشيء واطمأنت ، يجب عدم التردد فيه بعدئذٍ ، وكما يقول الإمام علي عليه السلام : لا تشكوا فترتابوا ولا ترتابوا فتكفروا .

إن الشك المصطنع ، كاليقين المصطنع ، يسبب التشويش على العقل . إنما يجب أن ندع العقل بحريته ، فمتى اطمأن آمن ، ومتى شك سعى إلى اليقين . أما إذا تدخلنا ، فوضعنا ، هنا يقيناً ، وهناك شكاً ، حسب مشتبهات أنفسنا ! أو اجتهداتنا الضحلة ، فسوف نفقد المقاييس ، ونرتكب الأخطاء .

### القصد بين التركيب والتحليل :

حينما نريد أن نبحث عن الحقيقة ، يجب أن نجعل أنفسنا تلاميذاً صغاراً

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ٢٧٤ .

لها ، ونطوّر أفكارنا وفق طبيعة الحقيقة التي نحاول فهمها . ولأن حقائق الحياة هي مزيج من التركيب والتحليل ، بمعنى أنها في ذات الوقت التي هي واحدة ، من ناحية التركيب ، فإنها أيضاً متنوعة ، بسبب أنها مختلفة ، بعض أجزائها عن بعض ، ( للجزئيات التي تشترك في تكوين الحقيقة ) ولأن الحقائق التي نريد كشفها من الحياة كذلك ، فإن البحث عنها ، يجب أن يراعى فيه أيضاً هذا المزيج من التركيب والتحليل . أما لو طغى التحليل أو التركيب ، على البحث ، فإنه سيكون بحثاً غير سليم ، ويورط صاحبه في أخطاء . ذلك لأن الحياة ليست بحيث نستطيع تركيز الانتباه - بشدة بالغة - إلى جزئياتها ، دون أن نولي أي اهتمام إلى طبيعة التركيب فيها ، ومعرفة أن كل شيء فيها إنما يعيش في جومعين يؤثر فيه كما يتأثر به وليست الحياة - من جهة ثانية - كتلة واحدة ، ذات صبغة واحدة ، دون أن يكون لأجزائها أي سمة خاصة وأي تأثير منفرد . ولأن طائفة من الباحثين ركزوا انتباههم إلى جانب التجزؤ من الحياة أهملوا سمات كثيرة ليست هي إلا نتيجة التركيب . ولأن طائفة أخرى عكسوا ، فإنهم نسوا أي دور للجزئيات ، وأصدروا « أحكاماً كلية كاسحة » . وكلاهما أخطأ ، والذي أصاب : هو الذي راعى القصد بين التركيب والتحليل ، ولم يمل نفسياً إلى أي جانب ، على حساب الجانب الثاني ، يقول الدكتور قاسم : « فإن الغلو في التحليل ينتهي بالمرء إلى نسيان : أن الظواهر الطبيعية ، ليست من البساطة إلى الحد الذي يتصوره ، ولأن الغلو في التركيب ، يؤدي إلى وضع فروض سريعة تقدم على أساس الملاحظات الخاطئة ، والآراء الوهمية »<sup>(١)</sup> .

وفي ما يلي نعرض مثلاً على هذه التجزئة يذكره جون ديوي بقوله : وإنه لجدير بالذكر أن الإستطراد في النزعة نحو التجزئة ، التي كان يزعمها « المذهب التجريبي » التقليدي قد أدى - عند تطبيق تلك النزعة نحو التجزئة على المجال الاجتماعي - إلى فردية ذرية فككت كل الروابط الداخلية التي تربط الأفراد في

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ٢٧٤ .

مجتمع واحد ، ولم تدرك سوى المصلحة الشخصية ، تسير الأمور الاقتصادية ، والقرس ، يسير الشؤون السياسية ، لكي يتماسك أفراد الناس في جماعة واحدة . وإنا لنرى في المجال الاجتماعي ، بوضوح : كيف أن المذهب التجريبي المقتصر على جانب واحد من الحقيقة ، يستثير قيام مذهب عقلي ، يقتصر هو الآخر على جانب واحد من الحقيقة ، ويزوده بحججه الرئيسية ، ذلك أن رد الفعل المنطقي للفردية الذرية ، هو قيام نظريات عضوية في الدولة ، تطوي العلاقات الرئيسية الإنسانية كافة ، تحت محور السياسة ، ولقد هيأت هذه الفلسفة أساساً يقوم عليه ، إحياء السلطة المستبدة ، وخلقت الأسس النظرية ، التي تستند إليها ، الدول المستبدة الحديثة ، على أن اشتباك النظريات الديمقراطية في الدولة ، كما قد عرفت تلك النظريات في التاريخ بالذرية الفردية القديمة - قد كانت من جهة أخرى مصدراً رئيسياً - لما أخذ يتزايد من ضعف المجتمعات الحرة ، قومية كانت تلك المجتمعات ، أو محلية <sup>(١)</sup> .

هذا مثل واحد لنتيجة الحكم الجزئي الموغل في التحليل ، في علم الاجتماع ، ولا ريب أن الحكم المقابل له ، الموغل في التركيب ، كان رد فعل لهذا الحكم ، وهو الذي أنتج خطأ كبيراً آخر هو الحكم الجماعي الديكتاتوري . يبقى أن نعرف نتيجة هذا التحليل المفرط في سائر العلوم ، يقول عن ذلك الكسيس كاريل - وهو يعرض المشكلة من جانب آخر - إن الإفراط في تخصص الأطباء ، يسبب ضرراً أكثر ، ذلك لأن الطب قد قسم الإنسان المريض إلى أجزاء صغيرة ، لكل جزء منها ، أخصائي فحينما يبدأ أحد الأطباء حياته العلمية بالتخصص في دراسة عضو صغير في الجسم ، فإن معلوماته عن بقية أجزاء الجسم ، تصبح أولية ، حتى يصبح عاجزاً عن فهم هذه الأجزاء ، بما فيها العضو الذي تخصص فيه ، وهذا ما يحدث أيضاً بالنسبة إلى المعلمين ، ورجال الدين ، والإقتصاديين ، وعلماء الاجتماع الذين لم يحماوا أنفسهم مشقة توسيع دائرة

(١) المنطق نظرية البحث ، ص ٧٨٤ - ٧٨٥ .



معلوماتهم العامة عن الإنسان ، قبل أن يختاروا موضوعاً معيناً ، يتخصصون فيه ، وهكذا كلما ازداد سمو الاختصاصي في فنه ، كلما ازدادات خطورته (١) .

### المنهج المناسب وقابة عن الخطأ :

ليس سواء البحث عن علم النفس ، وعلم الطبيعة .. وليس سواء المناهج المتبعة في علم الدين ، والفقه وعلم الجيولوجيا . والخطأ في اختيار المنهج المناسب لطبيعة البحث ، هو التسوية بين كل الموضوعات ، في مناهج البحث ، واستخدام وسائل بعيدة عن طبيعة كل موضوع ، ذلك لأن الوسيلة غير المناسبة ستؤدي - بالطبع - إلى نتيجة غير صحيحة ، ولقد تنبه العلماء - حديثاً - إلى الفرق بين الموضوعات في مناهج البحث ، فأخذوا يضعون لكل علم ، منهجاً يخصه ويتناسب معه ، ونجحوا بذلك ، في تجنب أخطاء كبيرة . . . ولكن لا يزال فريق منهم يحاول - اليوم - أن يعرف بعض الموضوعات ، بما هو بعيد عنها من المناهج ، فمثلاً يحاول إخضاع علم النفس ، لمنهج علم الطبيعة ، وإخضاع علم الدين ، لمنهج علم الكيمياء ، وينكر من الدين ما لا تؤيده البحوث التجريبية ، علماً بأن التجربة وسيلة واحدة وليست وحيدة لبحث . فهناك البرهان ، والكشف الإيماني و . و .

وقد ينشأ الخطأ في اختيار المنهج ، من الخطأ في اختيار عينة التجربة ( في الطبيعيات ) . أو وسيلة الاختيار ( في الفيزياء ) أو مرجع البحث ( في الاجتماعيات والتاريخ ) . وما أشبه مما هو خطأ جزئي في المنهج ، ولكنه يؤدي إلى بعض الخطأ في النتائج . ولم يتقدم العلم الحديث - خصوصاً في بعض الجوانب الجديدة للعلم مثل ( العلوم البشرية ) - إلا بعد أن وجد الباحثون ، طرائق جديدة للبحث عنها . وفيما يلي نضرب مثلاً واحداً لضرورة اختيار المنهج المناسب للعلم ، وهذا المثل ، منتزع من علم الاجتماع ، الذي لم تكتمل

---

(١) الانسان ذلك المجهول ، ص ٦١ .

ملاحمه الرئيسية إلا بعد أن وجد طريقاً جديداً للبحث على يد فيكو - وابنه العلمي - أوجست كونت ، بالإشتراك معاً ( رغم أنهما يتتمان إلى قرنين مختلفين فالأول من القرن السابع عشر والثامن عشر . بينما الثاني من علماء القرن التاسع عشر ) .

فيكو : وجّه نقداً لاذعاً إلى المنهج السائد في عصره ، وهو منهج تحليل المعاني ، الذي ابتكره ديكرت ، فإن أنصار هذا المنهج - كما يرى فيكو - يريدون معرفة كل شيء في أقرب زمن ، وبأقل عناء ، ويتخيلون أن معرفة الحاضر وحده وتحليل أفكارهم عنه ، يكفيان في تحديد طبيعة الماضي ، ثم يقول : « المنهج الوحيد الذي يصلح في دراسة الظواهر الاجتماعية : هو المنهج الاستقرائي ، ولكن بشكل مكيف حسب حاجات علم الاجتماع ، وهو الذي يتبدى بدراسة علم اللغة ، لدراسة الوثائق التي تركتها الشعوب القديمة ، ثم المقارنة بينها لإستنباط القوانين » .

ويوصي أوجست كونت : باتباع منهج جديد في علم الاجتماع ، ذلك لأن موضوعه أكثر تعقيداً من موضوعات سائر العلوم ، فله - إذاً - أساليبه الخاصة ، إلى جانب الأساليب المنهجية التي يمكن أن يقتبسها من العلوم الأخرى ، وإذاً فمن الضروري ، أن يتلمذ عالم الاجتماع على مدرسة هذه العلوم ، ولكن بعد أن يكيف المنهج حسب حاجاته . فمثلاً الثقافة الرياضية ضرورة له ، لأنها تعود على الدقة ، وعدم الاستسلام للآراء الغامضة ، ومع ذلك فلن يستطيع عالم الاجتماع استخدام المعادلات والأعداد للتعبير عن الظواهر الاجتماعية ، لأن طبيعتها لا تسمح بتطبيق الرياضيات عليها .

كذلك يجب عليه أن يستعين بأساليب المنهج الطبيعي ، وأهمها الملاحظة ، غير أن استخدام هذا الأسلوب ، غير ممكن بسهولة في علم الاجتماع إذ إن الباحث يعيش وسط الظواهر الاجتماعية التي يريد أن يدرسها وإذاً فهو يتأثر بها وعليه يجب أن يتلافى هذا النقص ، بمقارنة الظاهرة الموجودة ،

بظاهرة أخرى ، بشرط أن تخضع هذه المقارنة ، لفكرة أو نظرية عامة .

كل هذا ، دليل واحد على أن تكييف المنهج ، ضروري جداً ، في فهم العلم المراد بحثه . . يقول عن ذلك جون ديوي : البحث لأي علم من العلوم ، هو منه بمثابة دم الحياة ، وما ينفك منه وكل فن وكل صناعة ، وكل مهنة ، يخضع لما يقتضيه البحث<sup>(١)</sup> .

### عندما نكفر بمنهج ؟

عندما نكفر بمنهج معين ، ماذا نتظر أن يحدث ؟ إن النتيجة الطبيعية لذلك هي : أن ينتقم هذا المنهج منا ويسد علينا باباً جديداً للعلم . المدرسيون قديماً ، كفروا بحق منهج الاستقراء ، وغالوا بالمقابل ، في شأن القياس ، وحرموا أنفسهم - بذلك - علوماً كثيرة ، كانت تأتيمهم من باب الإستقراء .

وبين المناطق الجدد نجد (روجيه) هو الآخر ، حطّ من شأن الإستقراء ، إلى حدّ أن وصفه بأنه منافٍ للقواعد المنطقية ، وأنه ليس جديراً بأن يسمى تفكيراً<sup>(٢)</sup> . وكانت النتيجة الطبيعية ، أن عقم التفكير البشري نتيجة اعتقاله في بيت القياس (دون أن يفسح له المجال بالإنطلاق في رحاب التجربة) . ومن جهة أخرى وقع طائفة كبيرة من الباحثين في أخطاء متنوعة ، نتيجة استهانتهم بالقياس ، واعتمادهم الكلي على الإستقراء ، ذلك لأن هذا الأخير لا يمكنه لوحده أن يفيدنا لأن مجرد تسجيل الحقائق الجزئية المبعثرة ، التي نصل إليها لا يكفي في نشأة العلم ، وفي تدعيمه ، « فالمعرفة العلمية الحقّة هي التي تعمل على الاقتصاد في المجهود والتفكير ، ولو كانت هذه المعرفة قاصرة على ملاحظة كل ظاهرة على حدة ، دون البحث عن الصلة التي يمكن أن توجد بينها وبين ظواهر أخرى ، سبقت لنا معرفتها ، لوجب على كل جيل أن يستأنف الجهود التي

(١) المنطق نظرية البحث ، ص ٥٩ .

(٢) المنطق ومناهج البحث ، ص ٥٣ .

بذلتها الأجيال الماضية»<sup>(١)</sup> . وقد رأينا - سابقاً - كيف أن التحليل المفرط أوقع بعض الباحثين في أخطاء . ومن المعلوم أن هذا النوع من التحليل ، كان آتياً من الاعتماد الكلي على التجربة ، بعيداً عن القياس . والماديون الذين أنكروا العقل ، حرموا أنفسهم من الإيمان بحقائق كثيرة ، أهمها بالطبع : الإيمان بخالق الكون ، وبرسلة وكتبه ، وتعاليمه ، والشكاكون بأنواعهم سدّوا عن أنفسهم أبواباً مشرعة من المعرفة ، وهكذا يجب على الباحث ألا يتعصب لمنهج معين ، فتنتقم منه سائر المناهج بحرمانه من معارفها ، وقد جاء في حديث كريم عن الإمام الصادق عليه السلام : « أبى الله أن يجري الأشياء إلا بالأسباب فجعل لكل شيء سبباً ، وجعل لكل سبب شرحاً ، وجعل لكل شرح مفتاحاً ، وجعل لكل مفتاح علماً ، وجعل لكل علم باباً ناطقاً »<sup>(٢)</sup> . هذا الحديث يذكرنا بأن اختلاف سنن الحياة ينعكس حتماً على ، طبيعة دراستها ، فيسبب اختلاف المناهج المؤدية إليها .

ولا يقتصر خطأ الباحث في الإيمان أو عدم الإيمان رأساً بمنهج معين بل وأيضاً بمقدار استخدامه لهذا المنهج أو ذاك . . . فمن الباحثين من أولع بالقياس وأكثر في استخدامه ، وبالرغم من إيمانه بمنهج الاستقراء ، لا يوليه الإهتمام ، لرغبته النفسية في القياس .

ومن الباحثين من يحبّ الاستقراء ، ويفضّله عملياً على القياس .  
ومنه من يناصر المنطق الوضعي ، أو الديالكتيكي ، أو الديكارتي ، أو الأرسطي ، أو الوسيلي ، بينما الصحيح هو المناصرة للعلم فقط ، واستخدام كل هذه المناهج ، في سبيل الوصول إلى العلم .

وداخل كل منطق ، يجب أيضاً عدم التمييز بين مناهجه حتى يقدر الفرد على الاستفادة الكلية من العلم .

(١) المنطق ومناهج البحث ، ص ٥٨ .

(٢) بحار الأنوار ، ج ٢ ، ص ١٦٨ .



## بين الذكاء والتفكير

ما هو الذكاء ؟  
الذكاء وحده لا يغني :

الذكاء هنا يعني : الانتباه الفكري الفطري ، الذي لا يسبقه تفكير منهجي منتظم بينما يعني التفكير : السعي الواعي نحو الهدف المحدد ، وبطريقة معينة ، لكشف الحقائق . والناس يختلفون في الذكاء ، كما يختلفون في القدرة على التفكير وتأتي أختناء كبيرة من هذا الاختلاف إذ اعتماد البعض كلياً على الذكاء الفطري يردبهم في أحضان الخطأ وعدم اعتماد طائفة كلياً عليه هو الذي يورطهم في الخطأ ولذلك وجب تحديد علاقة الذكاء بالتفكير وبيان نسبة الضرورة لكل واحد منهما . وأساساً هذا البحث محاولة للإجابة على عدة أسئلة هي : ما هو الذكاء وما هي الحاجة إليه وما هي علاقته بالفكر والدور الذي يلعبه في مسرح البحث ؟

### ١ - الذكاء ما هو ؟

هل حدث لك يوماً أن كنت تفكر في مشكلة شخصية لفترة طويلة من الوقت ، وتناسيت المشكلة رأساً ، وذات لحظة - حين كنت مشغولاً بسقي الحديقة ، أو مراقبة الشارع - فإذا بك تحس وكأن رجلاً يهمس في أذنك ،

ويعطيك حلاً لمشكلتك بكل برود وسخاء ؟ إذا حدث لك ذلك فإنه نتيجة الذكاء الفطري . . . وإذا لم يحدث ، فهل استعصت عليك كلمة حين التحدث إلى صديقك كاسم شخص ، أو عنوان محل ، وكلما ضغطت على فكرك ، لم تذكرها ، ولكن بعد أن تابعت الحديث قفز إلى ذهنك ذلك الاسم بكل سهولة ؟ إنه الذكاء ، ذلك الذكاء الذي يسميه بعضنا إلهاماً ووحياً علمياً ولسنا الآن بصدد إثبات أنه فعلاً نوع من الإلهام ولكنه ثابت ولا ريب<sup>(١)</sup> فيه ، وهو الذي كشف لنا حقائق كثيرة في لحظات قيمة تأتي وتذهب كالبرق الخاطف وقصة المكتشف الفذ أرخميدس ( العالم الفيزيائي الذي عاش في سيراكيوز حوالي عام ٢٥٠ قبل الميلاد ) هي قصة مشهورة ، لقد وجه إليه ملك عصره ( هيرو ) سؤالاً صعباً<sup>(٢)</sup> . وصنع الرجل إذ لم يكن يعرف شيئاً عن التحليل الكيميائي ، وذات يوم كان يستلقي في الحمام يستمتع فيه إذ قفزت إلى ذهنه فكرة الكثافة النوعية فصنع مرة أخرى لهذه الفكرة الهامة وأخذ يركض في شوارع المدينة عارياً وهو يقول : وجدتها وجدتها . إن الذكاء الفطري هو ذلك النوع الذي يخفق في القلب بدون إرادة فعلية من صاحبها فيكشف للباحث بعض المناطق المظلمة في لحظات . وأكثر الباحثين الكبار يتمتعون بهذا النور ، يقول برتراند رسل : وفي كل العمل الخلاق الذي قمت به كان في أول الأمر مشكلة أي لغز لا يثير الإرتياح ثم يأتي بعد

---

(١) الذكاء (Intelligence) قال عنه ابن سينا في ( النجاة ٨٧ ) قوة استعداد للحدس . وفي المعجم الفلسفي هو حدة الذهن وهو أمر مطلق بالقياس إلى الشخص إذ لا تتغير نسبة العمر لكنه أمر نسبي بالقياس إلى أشخاص آخرين ( يوسف مراد ) مبادئ علم النفس العام / ٢٩٩ ، في مقابلة غريزة ، ص ١٠٠ .

(٢) أعطى الملك كمية من الذهب صائفاً ليصنع له التاج وبعد أن جاء بالتاج شك الملك في أن الصائغ قد يكون قد خلط الذهب بالنحاس وحول الأمر إلى أرخميدس وبرق في فكر هذا الأخير كشف علمي عظيم نتيجة هذه المشكلة هو أن وزن الذهب يختلف عن وزن النحاس وأخذ التاج ووضعه في اناء طافع بالماء وجمع الماء المزاح ثم وضع قطعة من الذهب يعادل وزنها وزن الذهب الموجود في التاج في ذات الاناء وجمع أيضاً الماء المزاح ، ثم قارن بين كلا النتيجتين . قوة استعداد

ذلك التركيز الاختياري الذي يقتضي مجهوداً عظيماً وبعد فترة من التفكير وأخيراً الحل يأتي ومعه خطة كاملة لكتاب. والمرحلة الأخيرة تأتي عادة فجأة وتبدو كأنها اللحظة المهمة لإنجازها<sup>(١)</sup>. والتفسير العلمي الذي يرضيه البعض هو أن الأفكار تختلج وتتفاعل في منطقة اللاوعي وبعد فترة يتم خلالها نضج الفكرة تقفز الفكرة إلى منطقة الوعي... لذلك ينبغي للإنسان أن يدع لفكره فترات استراحة، يتم خلالها «عملية النضج الداخلي» وتستوي الأفكار، بحرية ودون استعجال.

ويجدر هنا أن ننقل قصة العالم والفسيولوجي العظيم بجامعة هارفارد الدكتور والتر. ب. كانون في كتابه المسمى طريقة باحث، يقول: لقد كان لي منذ سني شبابي المعونة الموهوبة من الإلهام المفاجيء غير المتوقع وكان ذلك كثير الحدوث وهو يستطرد فيقول إنه وهو تلميذ صغير كان يذهب للنوم وفي رأسه مسائل غير محلولة فإذا به عندما يستيقظ في الصباح يجد الطريقة المناسبة للحل أمامه مباشرة وبسرعة يصل إلى الإجابة ثم يضيف وكمسألة روتينية اعتدت منذ أمد طويل أن أعول على عمليات اللاوعي الباطنية لكي تخدمني فتعلم هذه الطريقة في فجر حياته كان من حسن حظي (لمن ترهقه الحياة ص ١٨٤).

وقد يكون الذكاء ليس من نوع التفاعل الداخلي «لفكرة غامضة ومحاولة تقييمها في منطقة اللاوعي» بل يكون الذكاء، من نوع الملاحظة الحادة التي تكشف في لحظة أشياء كثيرة من الحياة، فمثلاً: قد تكون أنت واقفاً على هضبة تراقب واحة خضراء، ومرة واحدة، ترى حالة في الأشجار الجديدة، وتستلفت هذه الحالة انتباهك، وتستمر في متابعة ظروف هذه الحالة، حتى تنكشف لك نظرية علمية هامة، كما حدث لمكتشف الجاذبية حيث أنه جلب انتباهه سقوط تفاحة من الشجرة، وسأل نفسه: كيف تسقط هذه التفاحة، أليس لأنها تنجذب

---

(١) لمن ترهقهم الحياة هارولد فينك، ص ١٩٩.



إلى الأرض ؟ واستمر يفكر ، حتى وصل إلى الحقيقة .

من هنا ينبغي للباحث أن يطلق العنان لنظراته حتى تسرح في جنبات الحياة ، وتلتقط الملاحظات العامة من هنا وهناك ، وكثير من الباحثين يحبسون نظراتهم ، في غرف مغلقة ، ويخسرون حقائق كبيرة من الحياة ومن هنا جاء في الحديث : « طوبى لمن كان نظره عبثاً » .

وقد يكون الذكاء أشبه شيء بالتنبؤ العلمي الغاية منه صياغة نظرية أقرب ما تكون إلى التجارب المشهودة . . . كذلك التنبؤ الذي قفز إلى ذهن باسستور ، حين كان يُمارس تجاربه على الأمراض ، إذ تخيل في البدء : أن يكون المرض ناتجاً من جرثومة صغيرة ، وبعد أن تابع بحثه رأى صحته .

يقول في ذلك كلود برنارد : إن الأفكار التجريبية يمكن أن تولد إما لمناسبة ظاهرة نلاحظها ، وإما على أثر محاولة تجريبية ، وأما كنتيجة متممة لنظرية ، سبق التسليم بها<sup>(١)</sup> . وهكذا يعطينا الذكاء قدرة على البحث ، بكشفه عن نظرية معينة ، وفي الوقت ذاته قد يكفينا مؤونة الاستمرار في بحث عقيم ، إذ قد يكشف لنا الذكاء : تناقضاً في النظرية ، بحيث لا يجدي معه الإستمرار في البحث عن صحتها ، أو خطئها . يقول في ذلك د . محمود قاسم : يجب أن يكون الفرض خلواً من التناقض ، أي أنه يتحتم على الباحث - قبل الشروع في التحقق من صدق أحد الفروض ، بالملاحظة والتجربة - أن يبدأ بنقده وتمحيصه ، فإذا تبين له خطأه ، كفى نفسه مؤونة البحث ، وخاصة إذا كان إجراء التجارب ، يتطلب نفقات باهظة وآلات جديدة ، وبعد هذا بمثابة تجربة عقلية تهدف إلى الإقتصاد في المجهود الفكري<sup>(٢)</sup> . . . وما يسميه الدكتور قاسم بالتجربة العقلية ندعوه بالذكاء . ومن هنا كان يُقال : إن العالم بحاجة إلى خيال خصب لكي يساعده

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ١٨٧ .

(٢) المصدر ، ص ١٧٩ .

على وضع نظرية في الحال تكون تمهيداً للبحوث القادمة وإطاراً للتركيز الفكري ، وموضوعاً مشجعاً للاستمرار في التجربة ، ولشد ما فقد الباحث قدرته على الإستمرار لعدم قدرته على تخيل نظريات ، من شأنها أن تكون إطاراً لبحوثه . ذلك لأن البحوث لو لم تكن لها إطارات محددة لما استطاعت أن تستمر .

بهذه الحقائق ألقينا ضوءاً على طبيعة الذكاء ، ومدى الحاجة إليه ، بقي أن نعرف علاقته بالفكر .

٢ - ما هي علاقة الذكاء بالتفكير ؟ وما هو دوره الذي يلعبه في مسرح البحث ؟

أولاً : عملية الذكاء هي - في الواقع - عملية فكرية وتتبع ذات المناهج والسبل ، التي يتبعها الفكر ، حتى يصل إلى النتائج ، ولكن بفارق السرعة ، فالتفكير عملية بطيئة ، بينما الذكاء عملية سريعة ، وأي فرق - بين . . . السرعة والبطء - نجده بين الذكاء والتفكير ، فالسرعة تستغرق زمناً قليلاً ولكن احتمالات السقوط فيها كبيرة وبالعكس تماماً البطء ! أما كيف أن المناهج واحدة فإنه لو وجه إليك هذا السؤال  $(2 \times 2 \times 10 \times 15 = 9)$  فإنك قد تحل المشكلة بالذكاء فتقول - لما يسمى في العرف بالبداهة - ٦٠٠ ولكن قد لا تملك هذه البداهة ، وتفكر - بضعة ثوانٍ - حتى تقول ٦٠٠ ولا فرق فإنه حتى في البداهة فإنك تستخدم عمليتي ضرب وجمع حتى تعطي النتيجة ولكن بسرعة هائلة .

ثانياً : ولأن العملية سريعة فإن الإنسان لا يتنبه - عادة - إلى الوسائط ، ولا يفكر في كل عملية ضرب أو جمع . . . معينة إنما تتم عادة هذه العمليات في مستوى دون الوعي . ولذلك قد يحدث حين تريد أن تحل مشكلة بالذكاء ، أنك تطرح المشكلة على فكرك ، ثم توجه انتباهك إلى موضوع آخر ، وتبقى فترة من

الوقت ، ريثما يتم حل المشكلة - هناك داخل اللاوعي - ثم يأتيك الحل جاهزاً بعد فترة .

ثالثاً : الذكاء أشبه بعملية عسكرية خاطفة ، يقذف الفرد كل قواه الفكرية في المسرح ، مرة واحدة بينما التفكير . . . عملية محددة يستخدم الفرد بعض معلوماته السابقة فيها . . . ولذلك فإن مستوى الذكاء : هو مستوى الفرد عموماً . بينما التفكير لا يدل على ذلك ، والذكاء لهذا ذات فائدة شمولية ، يجمع شتات المعلومات إلى بعضها ، ويكون منها إطاراً واحداً ، ويستخدم في الكشف عن أشياء جديدة ، وبالطبع ليس التفكير كذلك . بهذه الفروق الثلاث ، يتميز التفكير عن الذكاء بينما يشتركان في غير ذلك من أمور . والتي من أهمها الاعتماد على المعلومات السابقة والمناهج مشتركة بينهما ! ولذلك كان الاستغناء عن أحدهما بالآخر ، أكبر خطأ منهجي ، قد يرتكبه الباحث ، إذ إن الاستغناء عن الذكاء ، يورط الإنسان في جزئية التفكير ، وجموده ، وعدم القدرة على اكتشاف أشياء جديدة ، بينما الاستغناء عن التفكير ، يورط الإنسان في خطأ التسرع . ولا بد أن يكون التعامل بين جناحي البحث - التفكير والذكاء - مستمراً في كافة مراحل البحث ، ففي كل مرحلة ، يقوم الإنسان أولاً بعملية سريعة تعتمد على الذكاء ، وتكون بمثابة جولة استطلاعية خاطفة في ربوع الموضوع ثم يقوم باكتشاف كل جزء منه ، على مهل وتؤدة . يقول ألكسيس كاريل : « ينتمي العلماء إلى نوعين مختلفين (المنطقي ، وسريع الإدراك ونعني به الذكي ) و يدين العلم بتقدمه إلى هذين النوعين من العقل معاً ، فالعقل الحسابي - رغم كونه تركيباً منطقياً بحثاً - فإنه يستعمل سرعة الإدراك أيضاً ، ويوجد - بين الحسابين - علماء سريعا الإدراك ، ومنطقيون ، ومحللون ، وعلماء هندسة ، فقد كان يوميت وويرسترلس ، من العلماء سريعَي الإدراك أما ريمان ، وبرتراند ، فكان من المنطقيين ، ولقد تمت اكتشافات سرعة الإدراك دائماً بواسطة المنطق ، وسرعة الإدراك وسيلة قوية ولكنها خطيرة ، لاكتساب المعرفة في الحياة العادية ، مثلما هي في العلم ، إذ إنه يكاد يصعب - أحياناً - التفرقة بينها ، وبين الوهم . وأولئك

الذين يعتمدون عليها اعتماداً كلياً ، يتعرضون لارتكاب الأخطاء ، فهي أبعد من أن تكون موضع الثقة التامة»<sup>(١)</sup> . ويقول في ذلك «ماكس فيبر» : يجب أن نخطر فكرة ما في ذهن شخص معين ، وينبغي لها أن تكون فكرة صحيحة ، إذا شاء المرء إنجاز أي شيء يستحق الذكر ، ومثل هذا الحدث ، لا يمكن الوصول إليه بتكلف ، أو انتزاعه عنوة ، فهو عديم الصلة والعلاقة بأي حساب رزين . ولا شك في أن الحساب - هو أيضاً - شرط مسبق لا يستغني عنه ، ويضيف قائلاً : إنها لحماقة صبيانية حين نعتقد : بأن عالم الرياضيات يتوصل إلى أية نتائج ، ذات قيمة ، من الناحية العلمية ، بمجرد جلوسه خلف مكتبه ، مستخدماً المسطرة والأدوات الحاسبة ، أو غير ذلك من الوسائل الآلية<sup>(٢)</sup> .

### الذكاء وحده لا يغني :

إذا كان البحث بدون الذكاء بحث أعرج ، فإن البحث بالذكاء وحده بحث أعمى .

هذه الحقيقة غابت عن تفكير طائفة من الباحثين فوقعوا في عدة أخطاء أهمها :

أ - إغماض العين عن فجوات النظرية .

ب - التساهل في استخدام الوسائل العلمية .

كيف وقعوا في هذه الأخطاء ؟ وماذا علينا أن نعمل لتفادي مثل هذه الأخطاء ؟ هذا هو موضوع هذا البحث الذي ينقسم إلى نقاط :

١ - من يعتمد على الذكاء في حياته العلمية ، يترك في نظرياته عدة فجوات علمية دون سد . إذ إنه ، كمن يكتب كتاباً ثم لا يعود ليصححه فهو يمضي في

(١) الانسان ذلك المجهول ، ص ١٤٦ .

(٢) صفة العلم ، ص ٢٤ - ٢٦ .

بحته - قدماً - دون أن يعيد النظر ليرى هل : إن ما توصل إليه في البداية كل الحقيقة ، وبدون خلطها بالباطل أم لا ؟ فقد يكون حكمه مطلقاً ، وبحاجة إلى التقييد في بعض الجوانب ، وقد يكون حكمه كلياً بالنسبة إلى كل الأزمنة ، وبحاجة إلى التحديد ببعضها دون آخر ، وهكذا لذلك كنا بحاجة إلى إعادة نظر فيما يكشفه الذكاء ، حتى نردم الفجوات العلمية التي هي بحاجة إلى دقة وإمعان في النظر ، وهذا يحدو بالباحث إلى النظرة الجانبية ، التي لا تسمح له ملاحظة كل جنبات الموضوع ، ويغضض تبعاً لهذا نظره حتى لا يرى سوى الشواهد الايجابية - التي تدعم وجهة نظره - دون تلك الوجهات التي تخالفها ، ومن ذلك عدم الاستماع إلى الانتقادات الموجهة إلى نظريته . وقد كان أحد العلماء يقول : منذ بداية عهدي العلمي تعودت على أن أسجل كل الانتقادات ، الموجهة إلى نظرياتي ، لعلمي أن الانتقاد لا يبقى عادة في ذهن الإنسان ، بخلاف التسليم والرضا .

٢ - التساهل في استخدام الوسائل العلمية : أنواع مختلفة تبدأ من التساهل في الكتابة ، وتنتهي بترك الأجهزة العلمية الحديثة ، مثل التلسكوب ، المايكروسكوب ، وسائل اختبار أخرى ، فايلات كشوف ، قوائم ، وما أشبه ! وذلك خطأ لما يلي :

أ - ذلك أن الإعتماد الكلي على الذكاء يستهلك قسماً كبيراً من قوى الفرد العقلية ، ولا يدعه يستثمرها في العمل الفكري البناء ، بينما نحن بحاجة إلى كل ذرة من الطاقة ، لصرفها في التفكير المركز .

ب - إن الاعتماد على الذكاء يورط الإنسان في بعض الأخطاء ، التي تبدو صغيرة ، ولكنها - حين تتجمع - تفتح ثغرة ، في البناء العقلي ، أما الذين يتخيلون أنهم قادرون على حفظ ونقل كل النصوص التاريخية بدون تغيير ، ويعتمدون على هذه الطاقة في كل بحوثهم يتورطون في أخطاء لا تنتهي .

ج - إن الوسائل الحديثة ، قد فتحت أمام الانسان آفاقاً واسعة ، والذين يسدون على أنفسهم : هذه الأفاق ولا يستثمرونها ، يضاعفون التعب على أنفسهم عبثاً . ويرى كلود برنارد : كلما ظهرت وسيلة جديدة أكيدة في التحليل التجريبي ، رأينا العلم يتقدم في المسائل التي يمكن أن تطبق عليها هذه الوسيلة ، وعلى عكس ذلك نرى أن المنهج الرديء والأساليب المعيبة ، قد تفضي إلى أخطاء جسيمة جداً ، وتؤدي إلى تأخر العلم ، ومن الواجب أن يعيش المرء في المعامل ، ويحيا فيها ، حتى يشعر - شعوراً واضحاً - بأهمية جميع تفاصيل أساليب البحث ، التي كثيراً ما يجهلها ويزدري بها<sup>(١)</sup> ، وتابع القول : إنني أعتقد ، أن الكشف عن أداة جديدة للملاحظة والتجربة في العلوم - التجريبية الناشئة - أكثر فائدة من عدة أبحاث مذهبية أو فلسفية<sup>(٢)</sup> .

والحقيقة أن الأبحاث الفلسفية ضرورية ولكن لا يمكنها أن تثمر لو لم تكن مغروسة في أرض خصبة ، من الأفكار العلمية ، وهذه بدورها لا بد أن تعتمد على الأدوات والوسائل العلمية الدقيقة . ونحن نعرف كيف كانت الطرق التجريبية الحديثة - سواء في العلوم الطبيعية ، والفيزيائية ، أو في العلوم البشرية ، والإجتماعية - عجالات سارت بالعلم أميالاً عديدة ، وقد أوصت التعاليم الإسلامية باستخدام الكتابة - التي كانت - آنئذٍ ، وسيلة علمية شائعة ، وجاءت النصوص تترى بهذا الشأن ، قال أبو عبد الله عليه السلام : اكتب ، وبث علمك في إخوانك ، فإن متَّ فورث كتبك بنيك ، فإنه يأتي على الناس زمان هرج ، ما يأنسون فيه ، إلا بكتبهم<sup>(٣)</sup> .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : قيدوا العلم . قيل : وما تقيد به ؟ قال : كتابته<sup>(٤)</sup> .

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ١١٠ .

(٢) بحار الأنوار ، ج ٢ ، ص ١٥٠ .

(٣) و(٤) المصدر ، ص ١٥٢ .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : استعن يمينك وأوماً بيده (أي خط). وكلمة الإستعانة هنا ذات مدلول مباشر ، في ضرورة استخدام كل وسيلة علمية ممكنة في المنهج الإسلامي . وقال الإمام الصادق عليه السلام : القلب يتكل على الكتابة<sup>(١)</sup> . هذا الحديث يذكرنا بحالة نفسية معينة هي أننا في حالة الاعتماد على الذكاء في تذكر شيء نبقى أبدأ مهتمين بذلك الشيء ، وقلقين من خوف نسيانه ، ويستهلك ذلك منا المزيد من الجهد والأعصاب ، بينما لو اعتمدنا على الكتابة زال عنا هذا الهم ، وتحررنا من القلق . وقال الإمام أيضاً : اكتبوا فإنكم لا تحفظون إلا بالكتاب<sup>(٢)</sup> .

### لكي لا نخدعك ألفاظك :

لا تمارس خداع الناس ، فتبتلي بخداع الذات ، هذه الحقيقة البسيطة لا يعرفها كثير من الباحثين ، فيقعون في سلسلة أخطاء ، فالذي يريد أن يخاصم الآخرين ، يتجه تفكيره ، كلياً ، إلى المجادلة لإهتمامه التام بها ، ويدع التفكير في البحث عن الحقيقة ، وهذه النفسية ليست فقط لا تبحث عن الواقع بل : ولا تستطيع ذلك إن أرادته لأنها تفترض ذاتها ، في موقع محق أبدأ ، وتحاول : أن تجد السلاح الذي تدافع به عن ذاتها المحقة ولذلك فهي لا تفترض في يوم أنها جاهلة . ومثل هذه النفسية ، لا تستطيع أن تعرف شيئاً ، إذ الإعتراف بالجهل ، هو الخطوة الأولى نحو إزالته .

قديماً كان المنطق الأرسطي تحدياً لواقع فاسد ، عاشته البلاد الإغريقية ، وقتئذٍ . وتغير ذلك الواقع وبقي منطق أرسطو محتفظاً بطابعه الجدلي الذي يحاول أبدأ مجادلة الخصم وإسكاته وكان ذلك من أخطر العوامل التي أدت إلى جمود هذا المنطق ، وساهم في جمود الفكر البشري ، أكثر من ٢٥ قرناً ، وقد لاحظ

(١) المصدر ، ص ١٩ .

(٢) المصدر ، ص ١٥٢ .

أكثر المناطق الجدد هذا النقص في منطق أرسطو ، وعبروا عن ملاحظتهم ،  
 بعبارات مختلفة في العنف والصراحة . والإسلام حذّر بدوره من هذا الفخ الذي  
 ينصبه غرور الإنسان لذاته ، ورأى أن طلب العلم للجدل يساوي الجهل تماماً  
 فجاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام : « خذوا العلم ما بدا لكم وإياكم  
 أن تطلبوا الخصال أربع : لتباهوا به العلماء ، أو لتماروا به السفهاء ، أو تراؤوا به في  
 المجالس ، أو تصرفوا وجوه الناس إليكم للترؤس »<sup>(١)</sup> .

ويقسم - في حديث آخر - العلماء إلى ثلاثة أصناف ، ويحذّر ممن يطلب  
 العلم للمراء ، ويدعوه بأنه يطلب العلم للعقل ، فيقول عليه السلام : طلبه هذا  
 العلم ، على ثلاثة أصناف ، ألا فأعرفوهم بصفاتهم ، وأعيانهم ، صنف منهم  
 يتعلمون للمراء والجهل ، وصنف منهم للاستطالة والختل<sup>(٢)</sup> ، وصنف منهم  
 يتعلمون للفقہ والعقل ، فأما صاحب السراء والجهل تراه مؤذياً ممارياً للرجال في  
 أندية المقال ، قد تسربل بالتخشع ، وتخلي عن الورع فدق الله من هذا حيزومه  
 وقطع خيشومه<sup>(٣)</sup> . وأما صاحب الاستطالة والختل فإنه يستطيل على أشباهه ، من  
 أشكاله ويتواضع للأغنياء من دونهم فهو لحلوائهم هاضم ، ولدينه حاطم .  
 فأعصى الله من هذا بصره وقطع من آثار العلماء أثره . وأما صاحب الفقه والعقل ،  
 تراه ذا كآبة وحزن قد قام الليل في حنسه ، وقد انحنى في برسه خائفاً وجللاً ،  
 من كل أحد إلا من كل ثقة من إخوانه فجمع الله من هذا أركانه وأعطاه يوم القيامة  
 أمانه<sup>(٤)</sup> . بهذه الكلمات الصاعقة يحذّرنا الإمام علي عليه السلام من طلب العلم  
 للجدل والجهل والاستطالة والتكبر .

وتربط بعض التعاليم بين الجدل والشك بصراحة . فقال : إياك والخصومة

(١) بحار الأنوار ، ج ٢ ، ص ٣١ .

(٢) تظاهر بالخشوع أمام الناس كذباً ونفاقاً .

(٣) حطم ظهره بهذه الفعل ، وقطع أنفه .

(٤) بحار الأنوار ، ج ٢ ، ص ٣١ .



فإنها تورث الشك وتحبط العمل وتردي بصاحبها ، وعسى أن يتكلم بشيء فلا يغفر له<sup>(١)</sup> .

وربط حديث آخر بين الجدل وبين ضلال الأمة فقال كما جاء ( عن الإمام علي عليه السلام ) : ما ضل قوم إلا أوثقوا الجدل<sup>(٢)</sup> . والجدل فوق ذلك يغطي مواضع الخطأ في نظرية الباحث ، وقد يكون الباحث شاكاً في بعض ما يرتبط بنظرية جديدة له ، ولكنه حين يصوغ هذه النظرية في عبارات متماسكة ، تغطي العبارات الأدبية ، المختلفة المعاني ، موضع الشك من النظرية ويبدو وكأنه مقتنع بنظرية متماسكة فعلاً كل ذلك ناشئ من الخلط بين ما نصوصه للناس من نظريات ، وبين ما نؤمن به منها ، حيث إنه قد تستخدم للناس عبارات مؤكدة ولكن لا يجوز لك أن تخذع بهذه العبارات نفسك . وفي التاريخ العلمي كثير من الباحثين ، أصبحوا أسراء التعبير المتماسك الرائع ، الذي كانوا يملكونه ، فابتعدوا عن روح العلم والمعرفة ، وكما يقول هانز : « إن نهاية العلم تأتي عندما نعمل على إرضاء رغبتنا في المعرفة ، بتقديم تفسير وهمي ، وعندما نخلط بين التشبيه والعمومية ، ونستخدم مجازات بدلاً من تصورات محددة بدقة ، ولذلك فإن نظرية المثل عند أفلاطون - شأنها شأن بقية النظريات الكمولوجية في عصره ، ليست علماً ، وإنما هي شعر ذي نتاج للخيال ، لا للتحليل المنطقي . . . » .

« إن التشبيه الشعري لا يكثرث بالمنطق ، ففي الأساطير اليونانية ، أثير السؤال عن سبب عدم سقوط الأرض في المكان اللانهائي ؟ وكان الجواب هو : أن عملاقاً - يسمى أطلس - يحمل الكرة الأرضية على كتفه . . . » .

« وإنه ليليدوان الفيلسوف عندما يصادف أسئلة ، يعجز عن الإجابة عليها ، يشعر بإغراء لا يقاوم لكي يقدم إلينا أجوبة مجازية بدلاً من التفسير<sup>(٣)</sup> .

---

(١) و (٢) المصدر ، ص ١٣٤ .

(٣) نشأة الفلسفة العلمية ص ٣٣ - ٣٤ .

ولقد حذر الإسلام - بشدة - من اللعب بالألفاظ ، وإخفاء الجهل بغطائها ...

وأمر بالمقابل بالإقتصاد في استخدام اللفظ ورعاية الدقة في التعبير .  
وتربط التعاليم الإسلامية - من جهة - بين كثرة الكلام والجهل والكفر وبين الصمت والفقه والإيمان - من جهة أخرى - ففي القرآن مثلاً نجد الآية الكريمة : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾ [ ٥٨ / الزخرف ] .

فالصفة المائزة التي تتصف بها الفئة الكافرة هي ممارسة الخصومة بشدة وبكثرة . وجاء في الحديث ذات المحتوى فعن الإمام الرضا عليه السلام : ( من علامات الفقه : العلم ، والحلم ، والصمت ، إن الصمت باب من أبواب الحكمة )<sup>(١)</sup> . وعن الإمام الصادق عليه السلام : ( النوم ، راحة الجسد ، والنطق ، راحة للروح والسكوت راحة للعقل )<sup>(٢)</sup> . وعن الإمام علي عليه السلام : ( من كثر كلامه كثر خطاه )<sup>(٣)</sup> ...

وتشير هذه الأحاديث إلى عامل آخر للخطأ المنهجي ، هو الاشتغال بصياغة الكلام ، عن التفكير في الحياة ، ذلك لأن المجهود الفكري والعصبي الذي يبذله الباحث في صياغة الأحاديث ، يقلل من قدرته على التفكير الدائم والمنهجي فيوقعه في أخطاء كبيرة ، فخيرٌ للإنسان أن يوفر على عقله هذا المجهود ، ويدع الثروة جانباً ، فلكي لا تتدعك الألفاظ قلل من استخدامها ما استطعت . الكلام كالملاح ، في المنهج العلمي ، كثيره مفسدة ، وقليله ضرورة ، ومن الباحثين من ابتلي بالعي والغموض ، في التعبير وجره ذلك الخلط بين المفاهيم . ويبقى السؤال : ما هي علاقة الكلام بالفكر ؟ نجيب على هذا

---

(١) وسائل الشيعة ج ٥ ص ٥٣٧ .

(٢) المصدر ، ص ٥٣٠ .

(٣) المصدر ، ص ٥٣١ .

## السؤال فيما يلي :

يرى بعض العلماء أن الكلام تفكير ناطق ، والتفكير كلام خافت<sup>(١)</sup> . يريد بذلك بيان مدى ارتباط الواحد بالآخر ويعبر عن هذه الحقيقة ، الحكمة الماثورة التي تقول : البيان روح العلم . بيد أن هذا التعبير بحاجة إلى مزيد من توضيح إذ ما هي الصلة بين الكلام والتفكير المنهجي ، غير صلة الإطار بالمحتوى ، والظرف بالمظروف : وبالتالي القشر باللب ؟ في الواقع ، الصلة أعمق من ذلك ، إذ إن الإنسان كل لا يتجزأ وعليه ، فإن أي جانب منه ، يؤثر في الجوانب الأخرى بصورة مباشرة . فمثلاً : من يملك فكرة واضحة ومحددة ، يملك أيضاً التعبير الواضح المحدد ، كما أن من يملك تعبيراً واضحاً عن شيء ، فلا بد أن يملك في ضميره ، فكرة واضحة عنه أيضاً . وهذا يفسر لنا طبيعة المنطق الاجتماعي اللغوي « الأنثروبولوجي الثقافي » حيث إنه يبحث في أعماق اللغة ليعرف بالضبط كيف يفكر أهل هذه اللغة ؟ يعتقد فرانز بواس : أن أية لغة حديثة إنما تتطلب في ذاتها إلقاء أضوائها على الكثير من العناصر الصورية . بالاستفادة إلى الاشتقاق اللفظي ، والتصنيف النحوي<sup>(٢)</sup> . ومن هنا نستطيع أن نحدد تلك العلاقة الوثيقة ، التي تربط « عالم الفكر » ، « بعالم اللغة » . فإن علو كعبة الفكر ( في رأي بواس ) إنما يستفيد من اللغة كما أن سمو الثقافة ، وارتقاء الحضارة ، يعود على تلك اللغة ، بالثراء ، ولذلك كان الإحتكاك الثقافي ، عاملاً أساسياً ، في تطور اللغة ونموها ، إذ إن اللغة الهندية الحديثة ، باحتكاكها بالثقافات الأوروبية ، قد أفادت إلى حد كبير ، مما جعلها تصبح على درجة كبيرة من التجريد ! وكمثل على علاقة الفكر باللفظ ( والفكرة بالتعبير ) يعطينا بواس توضيحاً طريفاً فيقول : إذا قلنا مثلاً : إن العين هي عضو الإبصار فقد لا يمكن للبدائي الهندي أن يكون فكرة لكلمة العين بل يحاول أن يحدد أن المقصود - بهذه

---

(١) لمن ترهقهم الحياة ، ص ٢١٥ .

(٢) علم الاجتماع والفلسفة ، ج ١ ، ص ١١١ .

الكلمة - هو عين إنسان ، أو عين حيوان ، كما لا يستطيع البدائي الهندي أن يكون فكرة مجردة عن العين لتكون ممثلة لكل فئة من العيون ، ولكنه يخصص ( بدلاً من أن يعمم ) باستعمال تعبير كالاتي : هذه العين التي هنا . . . كما لا يستطيع البدائي الهندي أن يعبر بلفظة وحيدة عن فكرة العضو ، فنجده يحاول أن يخصصها بعبارة أداة الإبصار ، وبذلك قد تأخذ الجملة الصيغة التالية : إن عين شخص ما هي أداة الإبصار<sup>(١)</sup> .

### الخطأ اللفظي :

ولقد كان لهذا العامل ، أهميته القصوى في الماضي ، حيث كانت العلوم ، تعتمد على النقل ، بشكل رئيسي ، وكان النقل - بدوره - غامضاً ومعقداً ، وحيث إن الكتاب ، كانوا ينسجون ، حول أدبهم ، غلالة من جمال التعبير ، لكي يخفوا - وراءها - جهلهم بكثير من المواضيع .

ولقد كان أرسطو ، واضح المنطق القديم . أكثر الفلاسفة القدماء اهتماماً بهذا العامل ، فوضع جانباً من منطقته لتفادي خطأ الاشتباه في الألفاظ .

وتضخم الجانب اللفظي ، في هذا المنطق ، إلى أبعد مدى ممكن ، في القرون الوسطى - حيث كان تعريف اللفظ ( الحد والرسم ) هو أهم شيء يدرسه الطلاب ، ويشير جدل العلماء . . . ومن خلال نظرة عامة إلى كتب القدماء يمكننا أن نعرف كيف أن الحديث حول التعاريف - يشمل جانباً كبيراً من كل كتاب من كتبهم تقريباً .

وقد اضطر العلماء ، إلى وضع قواعد اللغة ، لتفادي الأخطاء الناشئة ، من الألفاظ المتشابهة .

كما أن المنطق القديم احتوى على فصلٍ عن المغالطة والجدل . لهذا السبب .

---

(١) المصدر ، ص ١٠٩ .

## الأخطاء اللفظية في العلوم الحديثة

ولقد تجنب العلم الحديث ، كثيراً من الأخطاء اللفظية ، وذلك ، لاعتماده على التجربة ، وتعدد المصادر ، والدقة في التعبير<sup>(١)</sup> ، والركون إلى المصطلحات الدقيقة نسبياً ، وإيجاد نظام متكامل للرموز العلمية ، والتي في طبيعتها بالطبع ، المنطق الرمزي .

إلا أن المتشابهات اللفظية ، لا تزال تلعب دوراً هاماً ، في انحراف الإنسان . وقد تسبب الأخطاء اللفظية ، في رسم سلوك شاذٍ لفرد أو لمجتمع أو حتى لدولة كبيرة .

وينشأ ذلك من عوامل أهمها اثنان :

### ١ - العامل الطبيعي :

الذي يسميه البعض بعامل (التسوية) ويعني أن بعض الناس يتخذون موقفاً معيناً تجاه شيء معين لمجرد أنه يتشابه لفظياً ، مع شيء آخر . مثلاً : يتخذ موقفاً من شخص اسمه (باقر) لأن اسم ابنه باقر أو يكره كل رجل اسمه خالد ، لأن رجلاً اسمه خالد كان قد أساء إليه .

« ولقد سمى الفريد كورز ييكسي ، مؤسس علم تطور المعنى العام ، مثل هذا النوع من الإستجابة المكهرية : ” استجابة التسوية في الهوية ” . »

وقد استعمل كلمة التسوية هذه لمعنى خاص فقد عني : أن أشخاصاً تملكهم ، مثل هذا الشكل الثابت ، من التجارب ، ليسوون (أي يطابقون) بين جميع أنواع الحدوث ، لكلمة ما ، أورمز . ويرون فيها شيئاً واحداً ، لا يتغير ،

---

(١) لقد أصرُّ بافلوف على أن آراء العالم يجب أن تكون محددة وأن يتم التعبير عنها في سهولة ويسر ( العمل والمخ ) ص ١٤٢ .

فهم يسوون ، بين مختلف الحالات ، التي تقع تحت ذلك الاسم ذاته ، على أنه شيء واحد .

وهكذا فإذا كان لأحدهم « استجابة تسوية » تحمل صفة العداء « للنساء السائقات » فإنه يرى جميع النساء اللواتي يسقن السيارات ، وكأنهن متساويات ، من حيث عدم لياقتهن ، أو عدم كفاءتهن .

« وعُلِّل ذلك بقوله : إذا كنّا نعامل جميع الحالات ، التي تقع تحت ذات الطبقة أو الصنف كأنه شيء واحد ، في الوقت الذي تكون الفروق بينها ، شيئاً هاماً ، فإن هذا ، يعني أن هناك خللاً ما ، في عاداتنا السيمائية لأن يحدث الإستجابة «التسوية» . لأن الإنسان ، بحاجة إلى التشابه ، بين الأفراد ، حتى يسحب تجاربه الماضية ، على الحياة المعاصرة ، ولذات السبب ، قد يغفل الإنسان ، دور الفردية في تجاربه ، فيقوم بسحب التشابه ، إلى أكثر من مداه ، لعدم الفرق بين الحالات البدائية ، التي كنّا نعيشها ، وحالاتنا الراهنة ، التي ، تميزت بالدقة ، والعلمانية »<sup>(١)</sup> .

وفق هذه النظرية تكون مشكلة بعض الناس ، أنهم يرتبطون بالألفاظ ، أكثر مما يرتبطون بالحقائق ، التي تكمن ورائها ، فإذا بهم يسترسلون - آلياً - مع مطابقات هذه الألفاظ . ويعممون أحكاماً جزئية على قضايا لمجرد دلالة اللفظ عليها .

وهذه نظرية بدائية ، يجب التخلص منها ، لتضادي الوقوع في أخطاء كبيرة .

« إن جزءاً من التسوية ، في الهوية عندنا ( نحن البشر ) هو مجرد نوع من الآلية ، ورثناها من حاجتنا للبقاء ، في ظروف سابقة ، وأكثر بدائية من ظروف

---

(١) س . أ . هايكاوا الأستاذ لفنون اللغة في جامعة سان فرانسيسكو ، في كتاب مغامرات العقل ، ص ٣٧٧ .

حياتنا اليوم .

وليس هناك من شك في أن الكثير من « استجابة التسوية » ، يمكن تتبعها ، وإرجاعها إلى جروح الطفولة ، كما يقول المحللون النفسيون « (١) » .

## ٢ - العامل الاعلامي :

إن أي فرد يعيش اليوم ، في خضم الحضارة الحديثة يعرف أن ٩٥ ٪ من تصرفاته السلوكية ومواقفه الاجتماعية ، وأفكاره السياسية ، والدينية ... مستوحاة من الأجهزة الإعلامية ، التي تتقاذفه يميناً ويساراً .

وحسبما يقول أحد الصحفيين الكبار : حتى لون شعر زوجته ، يختاره إنسان اليوم ، استجابة لإعلان معين .

وأكثر ما يستخدمه أصحاب الإعلان ، هو بالطبع الوسائل النفسية ، وفي طليعتها عملية تداعي المعاني النفسية ، التي تعني ربط القضية المعلن عنها ، بما يحبه الإنسان ، في الإعلان الإيجابي ، أو بما يكره في الدعاية المضادة .

فمثلاً : حين يطلق أحد الصهاينة كلمة « معاداة السامية » ضد عربي أو متعاطف مع العرب ، فإن هذا يُعتبر إعلانياً خبيثاً ، خصوصاً بين أوساط الأوروبيين ، إذ إنهم يعرفون جميعاً أن النازية كانت تعادي السامية ، وبطريقة تداعي المعاني ، تربط هذه الكلمة ، بين النازية والعرب . والرباط ليس إلا الكلمة فقط .

وفي بلادنا نجد استخداماً إعلامياً واسعاً ، لكلمات : الرجعية ، التخلف ، الدكتاتورية ، الفاشية ، وما أشبه ، مما يقصد منها إملاء موقف معين على الناس ، من خلال عملية تداعي المعاني ، وتعميم اللفظ فقط .

---

(١) المصدر ، ص ٣٧٨ .

وقد يكون كثير من تلك المواقف خاطئة ، وقد ينساق الناس ، إليها .  
والسبب هو الغفلة ، وعدم التدقيق في استخدام اللفظ أو في فهمه .

من هنا كان واجب الإنسان تغادي خطأ التعامل مع الألفاظ والحروف ،  
والسعي أبداً إلى جعل الألفاظ جسراً إلى الحقائق والتفكير في تلك الحقائق  
فقط .

والإسلام حذر من استخدام الألفاظ الغامضة ، أو التعامل معها . وجاء في  
آية كريمة :

﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في  
قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم  
تأويله ، إلا الله والراسخون في العلم ﴾ [ ٧ / آل عمران ] .

## ظروف الباحث

بحث أحد الفقهاء المسلمين ، موضوعاً دينياً ، فاقنن بوجهة نظر ، ولكنه  
- بعد فترة - عاد وأخذ يدرس ذات الموضوع ، فسئل : لماذا تعيد دراسة  
الموضوع ؟ أجاب : لأنني سابقاً كنت مبتلاً - عملياً - بالموضوع ، فخشيت أن  
أكون قد تأثرت بظروفي ، لدى بحثي فيه . . . . . والآن حين تغيرت ظروفي عدت  
أبحث عن الموضوع .

والحقيقة ، أن ظروف الباحث ، ذات تأثير كبير ، في بحثه ، ولذلك كان  
عليه ، أن يعرف - سلفاً - طبيعة هذه الظروف ، ومدى إمكانية التأثير ، على  
دراسته .

وأساساً الظروف ، تتنوع إلى ظروف نفسية ، وفسيولوجية وجسدية ، قد  
يمكن أن تؤثر في البحث تأثيراً سلبياً . . . . .

١ - وفي البداية ، لا بد أن يدرس الباحث ، نفسه قبل الشروع ، في دراسة



موضوعه ، ويوجه هذه الأسئلة إلى ذاته :

أ - هل أنا الآن أعيش في حالة حب طافح ، أو غضب عارم ، مهما كان موضوع حيي وغضبي ، وطبيعته ، جنسياً أو دينياً أو إنسانياً أو غير ذلك . . .

ب - هل يوجد فيّ عطف شديد ، نحو جهة معينة في موضوع بحثي ، فهل أنا أحمل فكرة مسبقة تدعوني إلى نفي موضوعي أو إثباته ، أو تنحيته ، إلى جانب معين .

إذا كان كذلك فعليه أن يدع البحث جانباً حتى يصفي نفسه من آثار هذا الحب - أو لا أقل - يعرف مدى قدرته على تغيير مسيرة بحثه ، في صالح الخطأ والباطل .

٢ - ثم يقوم بدراسة أعصابه ، هل هي الآن سليمة ، وذلك بتوجيه هذه الأسئلة .

أ - هل إنني أعاني الآن من توتر عصبي ، ناتج من مرض ، أو أرق ، أو ضعف طبيعي ، أو انتظار موعد هام .

ب - هل إن أعصاب جوارحي سليمة الآن ، فهل ترى عيني مشاهداتي التجريبية بوضوح ، أم أن سواد الليل - مثلاً - يؤثر في رؤيتي ؟ .

ج - وهل إنني قد بدأت أرهق فكرياً ، نتيجة متابعة البحث أم لا ، إذ يحدث أن الفرد يتلع وجبة دسمة في مجلس واحد فيصاب بالتخمة - لا أعني وجبة أكل - بل وجبة بحث - وتخمة - ليست في معدته ، بل في فكره وشبكة أعصابه ، التي لا تستطيع أن تستجيب أبداً لطلبات الباحث فتتقم منه بتصدير المنتجو الفكري ، هزلاً ومهزوزاً ، ومثقلاً بالأخطاء الكبيرة .

د - يجب أن يهيء الباحث لنفسه الحالة الجسدية المساعدة للبحث ، ف « الاضاعة الجيدة » والتهوية المستمرة والتمارين القصيرة - خلال العمل - وأنواع

النشاط البدني المنتظم ، الذي يتضمن الرياضة ، وتمارين الصباح الرياضية ، والصمت أثناء العمل ، وتمضية أيام العيد والإجازات و (تنظيم) فترات تناول الغداء ، بصورة رشيدة كل هذه الإجراءات البسيطة تنفع العمل الفكري<sup>(١)</sup> .

٣ - وأخيراً : ينبغي أن يلاحظ الباحث حالته الجسدية وقت الدراسة فهل الإضاءة والدفء والهواء والمجلس ولون الغرفة و . . . متناسبة مع حاجاتي ورغباتي ؟

أو أشعر الآن بجوع أو فمماً أو حاجة إلى البراز أم لا ؟

### نشأت الفكر :

وقد تكون هناك أسباب أخرى ، للنشأت تؤثر في البحث وهي باختصار :

١ - عدم التركيز السابق : إذ إن الباحث بحاجة إلى قدر كبير من التركيز المسبق ، الذي يساعده على البحث . . . العلم يتطلب تركيزاً ذاتياً ومستمراً ، على موضوع الدراسة ، وعندما سُئل نيوتن كيف توصل إلى اكتشافاته العظيمة ، أجاب قائلاً : بالتفكير طوال الوقت ، وتكرار التجربة ، حتى لو كانت ناجحة<sup>(٢)</sup> .

هناك سبب فسيولوجي يفيد العمل ، ويفيد المخ تدريباً على العمل ، وذلك مثل الأعمال التمهيدية التي يقوم بها الشخص قبل العمل<sup>(٣)</sup> .

وقد كان بعض كبار علماء المسلمين ، يتوضأ قبل البحث ، فيصلي لربه ركعتين ، ثم يدخل «محراب» بحثه . بإيمان وتركيز .

٢ - يجب أن يعد الباحث : كل شيء من حوله بطريقة تناسب بحثه ، ولا تؤدي إلى تشوش فكره «اعمل بقاعدة» «ضع على يمينك ، كل ما تتناوله بيدك

---

(١) العمل والمخ ، ص ١٤٢ .

(٢) المصدر ، ص ١٤٢ .

(٣) المصدر ، ص ١٣٢ .

اليمنى ، وعلى يسارك ، كلما يختص باليد اليسرى » .

و (على الباحث) ألا يسمح للعمليات غير المجدية ، مثل البحث عن أدوات وضعت في غير موضعها ، أو انتظار بعض القطع ، أن تربط السلوك النفسي القائم لأن كل ذلك يعرقل طريقة العمل السليم للمخ<sup>(١)</sup> .

٣ - عدم تنظيم مكتبة الباحث ، يؤثر سلباً على نشاطاته العلمية ، ولذلك ، يوصي كبار الباحثين ، بأن يخصص الباحث جزءاً من وقته لتنظيم مكتبته وسجلاته ، ويقول المؤلف الروسي بضرورة الاحتفاظ بسجلات خاصة عن نشاط الشخص ( أعمال مكتبة ، عمل إجتماعي ، دراسات عمل أدبي ، شؤون خاصة ) ووضع برامج يومية ، وتنظيم المذكرات . والملفات الشخصية .

فكل ذلك يكتسب خلال عمل طويل .

وينبغي عند أخذ المذكرات ألا يهمل الشخص الإشارة في الحال إلى المصدر الذي استقاها منه وإلا فسيجد نفسه غارقاً في متاهة من الملاحظات ويعرض نفسه لإتهامات لا مبرر لها على الإطلاق بسرقة أفكار الآخرين<sup>(٢)</sup> .

استخدم قصاصات من الورق عليها ملاحظات مكتوبة بأقلام ملونة لتحديد الصفحات في الكتب التي تقرأها<sup>(٣)</sup> .

من أجل دراسة ناجحة ينبغي أن يكون لدى الشخص بطاقات للفهرس مثل تلك التي تستعمل في المكتبات . . . وصندوق للبطاقات وأقلام ملونة وسوداء وممحاة وصمغ ومقص وفي بعض الأحيان آلة تصوير لعمل نسخ من النصوص الضرورية والصور والرسوم التوضيحية<sup>(٤)</sup> .

---

(١) المصدر ، ص ١٣٢ .

(٢) المصدر ، ص ١٤٦ .

(٣) و (٤) المصدر ، ص ١٤٧ .

المَطْلُوعُ الْإِسْلَامِي  
أَصُولُهُ وَمَنَاجِحُهُ

القسم الخامس عن :

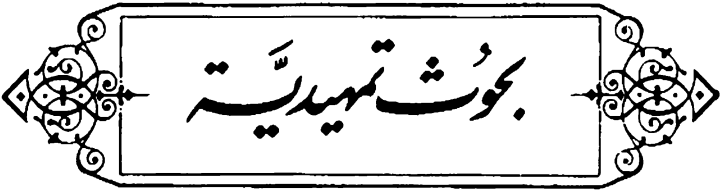


- بحوث تمهيدية .
- الملاحظة .
- الفرض .
- التجربة .
- القانون .



القِسْمُ الرَّابِعُ  
عَنْ مَنَاجِجِ الاسْتِقْلَالِ

الْبَحْثُ الْأَوَّلُ



- كلمتان في البدء .
- تعاريف أولية .
- تقسيمات مناهج الاستقراء .
- مراحل التفكير .
- ما هو الاستقراء .
- الاستقراء بين الذوق والعقل .



## كلمتان في البدء :

أ- في حديث سابق استعرضنا الفروق التي تميز المنطق القياسي عن المنطق الاستقرائي والتي كان أهمها : أن منطق الاستقراء يتجه إلى التجربة على العناصر الخارجية ، بينما يتجه منطق القياس إلى البحث عن علاقة الأفكار ببعضها ، وبالتالي يستهدف تنظيم هذه العلاقة . وكان حديثنا السابق يستعرض الجوانب النظرية، من منطقي الاستقراء والقياس ، مما يمهّد لنا الطريق إلى معرفة الجوانب التطبيقية العملية منها ، وفي هذا القسم والأقسام التالية نستعرض المناهج المقترحة في كل من منطقي الاستقراء والقياس ، ويتميز هذا القسم بما يلي :

١ - يبحث عن المناهج القابلة للتطبيق الخارجي ، بعيداً عن جذرها الفلسفي أو النظري .

٢ - ويكون البحث مفصلاً ، وقد يكون من المفيد أن نقول إن حديثنا في هذا الكتاب عموماً ، يتناول الرؤية الإسلامية في المنطق ، ولا ريب أن للإسلام رؤيته الخاصة بالنسبة إلى المناهج التفصيلية ، بالرغم من عدم وجود تفاصيل في النصوص بشأنها ، ولسبب واضح هو أن الإسلام لا يقترح - إلا قليلاً - المناهج التي تتعرض للتطوير بين يوم وآخر ، وذلك وفقاً لحاجة الناس . إنما يلقي بالرؤى



العامه ، ويأمرنا بالتفريع فيقول : علينا بالأصول وعليكم التفريع .

ب - علاقة حديثنا الآن في مناهج البحث ، بأحاديثنا السابقة ، حول عوامل الخطأ ، علاقة متينة ، تشبه علاقة الأم بوليدها لأننا اذا اكتشفنا الأسباب المؤدية إلى الخطأ ، عرفنا بالضبط الطرق المؤدية إلى الصواب ، باعتبارها انحرافاً عن عوامل الخطأ وتجنباً لها . . . والسؤال : إذا فما هي حاجتنا إلى البحث عن مناهج البحث ؟ في الواقع الحاجة هي : التفتيش عن صيغة عملية ، وتطبيقية لمعلوماتنا السابقة عن عوامل الخطأ ، حتى نستطيع استثمارها على أرض الواقع عندما نريد البحث عن شيء مجهول ، وهو أشبه ما يكون ، برسم خريطة موضحة ، تأتي كتطبيق عملي واضح لمعلوماتنا عن طبيعة الأرض ، وعن الطرق والحفر التي انزعت فيها ، وهي بالتالي ليست سوى صيغة عملية لذات المعلومات السابقة التي نملكها عن طبيعة الأرض .

ومناهج البحث ، كذلك خريطة لأرض البحث ، توضح لنا السبل التي يجب أن نتبعها ، حتى نكتشف الحقيقة ، والباحث لو لم يجد أمامه خريطة المناهج فإن احتمالات نجاحه ضئيلة ، بالرغم من أن المناهج ليست سوى جسد ميت ، لا يعني شيئاً ، بدون روح البحث ، التي يجب أن يستفيد بها الباحث ، من أحاديثنا السابقة .

### تعاريف أولية :

فهمنا بطبيعة المناهج ، هي الخطوة الأولى في طريق استثمارنا لها إذ إن فهمك لكل شيء ، هو بداية قدرتك على التعامل معه ، فما هي طبيعة هذه المناهج ؟ وبالضبط ما هي طبيعة العمل الفكري ؟ وما هو الموضوع والمحمول والرابطة والحكم والقضية ؟ ولا يعني فهمنا لطبيعة هذه الأمور ، تقديم طائفة من التعاريف المحددة لهذه الكلمات فقط ، إذ لا يستفيد من مناهج البحث من يتعامل مع الكلمات ، والمصطلحات ، بل من يتفاعل مع الحقائق ، التي تعبر عنها هذه

الكلمات ، فعلينا أبدأ البحث عن حقيقة هذه الألفاظ التي سنجدها بكثرة في أحاديثنا القادمة عن المناهج .

### العمل الفكري :

ما هو العمل الفكري ؟ نحمل هذا السؤال إلى الفرد البسيط الذي يفكر في أعماله العادية ، وتتبع خطاه ، ونتعرف على مراحل عمله .  
أما لماذا نفعل هكذا ؟ فلأن المنطق هو - أساساً - بحث في كيفية التفكير ، وهو يأتي بعد ما يقوم الإنسان الفطري بالتفكير لا قبله .

فكل الموضوع ، متكون من خبرات سابقة ، تحدده لنا ، وبالإستعانة بهذا التحديد ، نستطيع أن نسعى لفهم المزيد من الحقائق ، كما أنه كلما عدنا إلى الخبرات السابقة ، وجعلناها أكثر غنى ، وأوسع مدى ، كلما استطعنا أن نجعل نسبة الصدق في حكمنا في البحث ، أكثر وأفضل

### المحمول :

المحمول ، (الحكم) لو سألت صديقك هل هذا حلو ؟ فإن صديقك يجب أن يطرح عليك سؤالين ، ويطلب منك الإجابة الصحيحة عليهما ، حتى يبدأ هو بالإجابة ، الأول : ما هو مقصودك بهذا ؟ وما هو مقصودك بحلو ؟ صحيح أننا - في العرف - متفقون مع بعضنا ، حول عدة أمور ، من ضمنها تحديد مفهوم كلمة (هذا) وكلمة (حلو) ولكن البحوث العلمية ، بعيدة جداً عن هذا الاتفاق ، إذ هي لا تقبل المساومة والمهادنة أبداً . إذاً علينا أن نحدد : المفهوم من قولنا (الحلو) وهو (الحكم) كما علينا أن نحدد مفهوم كلمة هذا ( وهو الموضوع ) ولا يحدد المفهوم من (حلو) إلا بعدة خبرات أو بحوث سابقة ، فمثلاً أننا كنا قد تذوقنا عدة أشياء ، فأحدثت في أنفسنا نوعاً خاصاً من الإحساس ، سمينا الإحساس بالحلاء وسمينا الشيء بأنه (حلو) تبعاً لهذا الإحساس ، فقولنا هذا (حلو) يعني - بالضبط - أنه يولد ذلك الإحساس في أنفسنا وهذا هو التحديد بالخبرة السابقة .

## الرابطة :

ولا يغنينا تحديد الموضوع والمحمول في البحث ، لو لم نحدد أيضاً ، عصب البحث وهو كما نعلم (الرابطة) التي توصل الموضوع بالحكم ، وهو أيضاً ، الموقع الحقيقي للتساؤل . وقد نسميه بؤرة التعقيد ، التي نحاول اقتحامها .. ذلك لأنه بدون هذا التحديد ، يبقى الباحث في فوضى ، لا يدري كيف يفكر ، وحول أي شيء يفكر ، وقد سبق الحديث<sup>(١)</sup> عن أن تحديد السؤال ، ينطوي على نصف الجواب ، ولا نعيد ما سبق إلا أن علينا أن نعرف : كيف نخلق - عملياً - مشكلتنا في البحث ؟ ولنفترض « الموقف اللامتعين » الذي يقلق بالنا ، هو معرفة ما إذا كان (الحديد) يتمدد بالحرارة أم لا ؟ هنا يمكن تصور المشكلة بعدة صور .

أ - يمكن تصور الموقف بأنه غامض ، إلى درجة لا يمكننا معرفته ، فما هو الحديد ؟ وما هي طبيعة الامتداد ؟ وما هي حقيقة الحرارة ؟ لا نعرف كل هذا إذا لا نستطيع أن نعرف شيئاً من هذا الموقف اللامتعين .

ب - ويمكن أن نصور الموقف بأنه أبسط من أن نبحت فيه ، إذ إن الأبواب الحديدية نراها تختلف صيفاً وشتاءً في سهولة الحركة ، وهو دليل على أن الامتداد يأتي نتيجة الحرارة وهكذا ... تنتفي الحاجة إلى البحث أيضاً .

ج - ويمكن أن نصور الموقف ، بصورة وسطى ، كأن نقول : ليس علينا الآن أن نعرف حقيقة الحديد ، والتمدد ، والحرارة ، يكفي أن نعرفها - جـدلاً - بتعريف مفهوم ، ولكن لا يكفيها - من جهة أخرى - أن نتعرف على اختلاف الأبواب الحديدية ، صيفاً - عنها - شتاءً إن ذلك قد يكون نتيجة الرطوبة ، أو حتى إذا لم تكن كذلك لا نعرف - بذلك - مقدار التمدد بالحرارة ، ومقدار الحرارة

---

(١) عند الحديث عن « كيف نختار المنهج السليم » .

المحتاج إليها له ، وهذا التصور الأخير هو الذي يخلق لنا ( المشكلة الفعلية ) فلا هي متعمقة ، بقدر يغلبنا اليأس من التغلب عليه ، ولا هي مبسطة بقدر يلهينا عنه ، لذلك ينبغي أن يكون تصور المشكلة ، بحيث تنطوي على حل مرتقب لها ، بعد البحث ، والسعي ، وراء هذا الهدف . يقول في ذلك جون ديوي : إن العبارة التي نصف بها موقفاً مشكلاً وصفاً ، يصوره على هيئة مشكلة ، لا يكون لها معنى ، إلا إذا كانت المشكلة المصورة بها ، بحكم حدود العبارة نفسها ، تشير إلى حل ممكن . فكما أن المشكلة إذا ما أحسن عرضها ، كانت بسبب هذا العرض الحسن ، نفسه ، في طريقها إلى الحل ، فكذلك تحديدنا لمشكلة حقيقية ، هو نفسه بحث في طريق السير ، وحينما تلمع في ذهن الباحث مشكلة ، وحلها المحتمل قد حدث لهذا الباحث بالفعل قبل ذلك أن اكتشف معرفة وتم له هضمها<sup>(١)</sup> . ويجب أن يكون تصوير المشكلة ، آتياً من عناصر الموقف ، بحيث يمنعنا من التوغل ، في بحوث بعيدة عن الحالة الواقعية ، التي تعيش في الخارج ، إذ إننا آتئذٍ نبدأ سيرنا في عمل ميت ، لا يمكنه أن يساعدنا أبداً ، أما لو انتزعنا المشكلة من الواقع الخارجي نفسه ، كان هذا الواقع ذاته ، مصعداً ممتازاً لنا . من هنا كان علينا - قبل أن نطرح السؤال - أن نجتمع أكبر كمية ممكنة ، من الخبرات والمعلومات ، حول الموقف اللامتعين ، الذي نريد بحثه ، ثم نجلس نفكر - بضعة دقائق - حتى تختمر المشكلة عندنا ، ويتحدد السؤال ، ونبدأ بالبحث . إن المشكلة ، مثل الثمرة ، التي نقطفها من شجرة الموقف ، لو استعجلنا بقطفها ، لم نستطع هضمها بعدئذٍ .

الخلاصة اتبع القواعد التالية :

١ - لاحظ الموقف اللامتعين واجمع أكبر كمية ممكنة من المعلومات حوله ( وبذلك تتحدد الرابطة ) .

(١) المنطق ونظرية البحث ، ص ٢٠٥ .

٢ - حدّد موضوع السؤال وعلاقته بالمشكلة .

٣ - حدّد المحمول وعلاقته بالمشكلة .

### تقسيمات مناهج الاستقراء :

ومناهج الإستقراء عديدة ، وتقسمها مختلف إذ نجد لكل باحث طريقة خاصة لتقسيم المناهج ، حسب رؤيته إلى المناطق ، ويهدف تحقيق السهولة الكافية في استخدام المناهج ، وهذا هو الذي جعل مناهج البحث ليست بالشكل الواحد في كل الكتب المنطقية ، إنما تتنوع إلى مجموعات كل مؤلف قد اختار مجموعة معينة ، يقول الدكتور أحمد بدر : يعتمد المشتغلون بمناهج البحث ، على تصنيفات محددة لمناهج البحث ، وربما يرجع ذلك إلى تبني بعضهم لمناهج نموذجية رئيسية ، واعتبار المناهج الأخرى جزئية ومتفرعة ، كما قد يعتبر هؤلاء أو غيرهم : بعض المناهج مجرد أدوات وأنواع للبحث ، وليست مناهج<sup>(١)</sup> . ثم يذكر الدكتور أحمد بعض تصنيفات المناهج نختار منها واحدة ونعلق عليها<sup>(٢)</sup> .

تصنيف هويتني (Whitney) يعتقد هذا الباحث : أن الانسان يتدرج ، في معرفته كالتالي :

١ - المنهج الوضعي : حيث إن الإنسان يبدأ يلاحظ الظواهر المحيطة به ككل ، وبذلك يجتاز مرحلة المنهج الوضعي وهنا يحتاج إلى مناهج تساعد على الملاحظة ، وهي عدة أمور :

أ - المسح ، ويعني توصيف الظروف المحيطة بالظواهر .

ب - دراسة الحالة أي حالة الظواهر السابقة .

---

(١) أصول البحث العلمي ومناهجه ، ص ٢٢١ .

(٢) المصدر ، ص ٢٢١ - ٢٣٠ .

ج - تحليل الوظائف والنشاطات ، أي ملاحظة نشاط كل ظاهرة ، وسر ومدى ارتباطها بالعوامل المسببة لها . حتى يعرف أن هذه الظاهرة مرتبطة بأي عامل بالضبط .

د - ملاحظة الظواهر ، ووصفها باستمرار لمعرفة تطورها ، ودرجة زيادتها ونقصانها .

هـ - بحث الوثائق المرتبطة بالظواهر ( ويسمىها البحث المكتبي أو الوثائقي ) هذه كلها تعتبر مرحلة أولية بالنسبة إلى البحث ، وهي تساعد الفرد على الملاحظة الدقيقة وتُعينه على المرحلة الثانية .

٢ - المنهج التاريخي : حيث يقوم الفرد بدراسة تاريخ مشكلته ، وتحديد الحقائق السابقة ، وتحليلها والاستفادة منها .

٣ - المنهج التجريبي : وبعدئذ يبدأ بالتجربة ، الحلقة الأصيلة والأساسية في المنهج .

٤ - المنهج الفلسفي : ولكن لا تكفي التجربة بدون وضعها وفق رؤية عامة ، وفلسفة تفسر وتعمم نتائج التجربة . وهذه الرؤية تفيد في التنبؤ بالمستقبل ، وهي المرحلة التالية .

٥ - البحث التنبؤي : حيث لا ينتج الباحث إلا إذا استطاع أن يتنبأ ، وتصح نبوءته ، حيث يتمكن هناك فقط من الإبداع وهي المرحلة الأخيرة ولكن في بعض العلوم لا يمكن أن يتنبأ المرء صحيحاً ، إلا إذا عرف (الإنسان) معرفة تامة . وهذه هي المرحلة التالية .

٦ - البحث الاجتماعي : حيث يبقى منهج علم الإقتصاد ناقصاً ، إذا لم يعتمد على معرفة الإنسان ، ولذلك يعتبر هذا المنهج ضرورياً .

٧ - البحث الإبداعي : حيث يصبح هذا المنهج قمة البحث العلمي فلا بد

من وضع مناهج له .

إن نظرية هويتني سليمة من ناحية وناقصة من ناحية أخرى ، فهي - من ناحية الشمول وبيان جميع ضرورات المنهج - سليمة ولكن - من ناحية بيان الأولويات - غير سليمة ، وذلك للملاحظات التالية :

١ - في المنهج الوضعي : نحن بحاجة إلى التجربة وأصولها ، كما نحن بحاجة إلى الاستدلال وطرقه ، وبحاجة أيضاً إلى دراسة الحالة السابقة للشيء ، وهي دراسة تاريخية في واقعها ، وهي ما توجد في المناهج الأخرى .

٢ - المنهج التاريخي أكثره منهج استدلالي أو تجريبي فلا بد من إلحاقه بأحدهما .

٣ - والبحث الفلسفي هو في واقعه بحث استدلالي إذ لا فائدة في بحث فلسفي ، غير معتمد على الاستدلال وأصوله الصحيحة ، وهناك تصنيفات أخرى للمناهج ، ولكن المختار أن نفصل بين مناهج رئيسية ، وغيرها ، والمناهج الرئيسية هي - المنهج الاستقرائي - والمنهج الاستدلالي ، أما غيرها فهي متفرعة عنها كالتالية :

أ - بعضها مناهج مساعدة ، فمثلاً المنهج العلمي - سواء الاستقرائي والاستدلالي - بحاجة إلى الاستفادة من المكتبة ، والوثائق ، التي فيها ( وهذا يسمى بالمنهج المكتبي ) كما أنه بحاجة إلى ترتيب المعلومات فيها ضمن بيانات واضحة ( وهذا يسمى بالمنهج الوضعي ) وبحاجة إلى التحليل والتركيب . كما أن المنهج الاستقرائي - خاصة - بحاجة إلى مساعدة طرق المسح ، والإحصاء ، ودراسة الوثائق ، وما أشبه ، مما يجعل لكل واحد منها منهجاً خاصاً يضع له قواعد خاصة تسهل للباحث استخدامه وهذه المناهج المساعدة نسميها نحن بالمناهج الرديفة ونستعرضها - إنشاء الله - في القسم التالي .

ب - وبعضها الآخر : مناهج مختصة ببعض المواضيع ، باعتبارها جديدة ،

ومحتاجة إلى طريقة خاصة لإستخدام منهجي الإستقراء والإستدلال مع البعض ، واستخدامهما ، بطريقة خاصة . مما يستوجب إفراد منهج خاص بالتاريخ . وذات الحقيقة تصدق في علم الإجتماع ، والعلوم الإنسانية جميعاً ، إذ إنها - كذلك - بحاجة إلى استخدام « منهجي الإستدلال والإستقراء » بطريقة خاصة ، وذلك لبداية هذه العلوم ، وعدم بلورة مواضيعها ، كما هي الحالة في العلوم الطبيعية ، ولذلك نحن بحاجة إلى فصول خاصة بها ومن هنا فإني أقترح أن نصف مناهج البحث كما يلي :

١ - المنهج الإستقرائي .

٢ - المناهج الرديفة ( الملحقه به ) .

٣ - المنهج الاستدلالي .

٤ - المنهج التاريخي .

٥ - المنهج الإجتماعي .

مراحل التفكير :

يمر الفكر البشري بثلاث مراحل في كشفه للأشياء وهي :

١ - مرحلة الملاحظة العامة : حيث يستقبل الفكر عن طريق الحواس إثارة

الأشياء الواقعية ، فتبصر العين ، وتسمع الأذن ، وتلمس اليدين ، ويتذوق اللسان ، وتتجمع هذه الإثارات كلها في الدماغ . وهناك يقوم العقل بعمليات معقدة لكشف هذه الإثارات فيميز ما بينها من أوجه شبه ، أو خلاف ، وزيادة ونقصان ، وتقدير وتأخير ، وهكذا وبعدئذ يقرر العقل - وهذا أهم شيء في هذه المرحلة - يقرر طبيعة الموضوع الذي يجب أن يلاحظه الفرد ويبحث عنه وطبيعة الإثارات والتجارب الضرورية لمعرفةا . فمثلاً تدخل في الغرفة فتستقبل عينك صورة الكتب المتراسة في المكتبة ، وتلمس يداك أحجامها ، وعقلك يقرر :



طبيعة الكتاب الذي ينبغي الحصول عليه ، والعلامات التي تكشف عن هذا الكتاب فيقرر العقل مثلاً : عليك أن تبحث عن كتاب في موضوع التاريخ ، وعلامته هي : إنه كتاب ضخم مجلد ذو طباعة أنيقة . لماذا ؟ لأن كتب التاريخ عادة كبيرة وجيدة الطبع !! هذه هي مرحلة الملاحظة ، وفيها يحدد العقل : الموضوع والوسيلة الكاشفة له .

٢ - مرحلة الافتراض والنظرية : في مرحلة الملاحظة تتكدس الأفكار على بعضها ، كما تتكدس الأحجار المكومة ، ويبدأ العقل في المرحلة التالية ، بتقسيم الأحجار ، وترتيبها ، وبناء بعضها على بعض ، وهي مرحلة الافتراض ، حيث يبحث العقل عن إيجاد علاقة بين الحوادث المتفرقة ، وإذا اكتملت هذه العلاقة ، صارت نظرية . فالنظرية هي المرحلة المتقدمة من الافتراض والخلق المتكامل له . إذاً في المرحلة الثانية يتم بناء الأفكار على بعضها ، وربطها في وحدة تسمى بالفرضية ثم النظرية .

٣ - مرحلة البرهان : بعد أن يتم ربط الحوادث ببعضها ، ومعرفة العلاقة المفترضة بينها ، يعوزنا الدليل على صحة هذا الافتراض ، فنبحث عن برهان فلا نجد ، إلا في حصيلة التجارب التي نجريها على الموضوع وهذه آخر مراحل المنطق الإستقرائي ، وأولى مرحلة من مراحل القياس ، وهي الرابطة بين منطقي الإستقراء والقياس ، إذ في منطق الإستقراء أيضاً نحتاج إلى إثبات عقلي ، وهو وظيفة منطق القياس .

كان هذا فهرساً موجزاً عن مراحل الفكر ، بالنسبة إلى الإستقراء ويبقى التفصيل ، والذي نبدأ ببيان أقسام الإستقراء .

ما هو الاستقراء :

ما هو الإستقراء المنطقي ؟ ببساطة : هو البحث عن علاقة الظواهر التي تحدث ببعضها . ذلك لأن الاستقراء هو القيام بتجميع الظواهر إلى بعضها ، وهذا

## التجميع على نوعين :

أ - تجميع قشري أفقي : لا يقصد منه سوى « زيادة عدد إلى عدد » و « تركيب شيء فوق شيء » ليسهل التعبير عنها جميعاً . تماماً كما يستصعب علينا أن نقول : واحد واحد واحد . فنجمعها ونقول : ثلاثة . كذلك تجمع الظواهر إلى بعضها فنضع عليها اسماً واحداً . نسميها جميعاً باسمه فمثلاً : عندما نستقرئ البصل فنعرف أن كل بصل أبيض . لم نصف بالإستقراء علماً جديداً إلى معلوماتنا ، إن الذي فعلناه كان ليس أكثر من جمع البصل إلى بعضه ، والتعبير عنها جميعاً بكلمة واحدة ، بدلاً من التعبير عن كل واحد بتعبير مختلف . ويندرج تحت هذا النوع من الإستقراء : الإستقراء الشكلي ، وهو الذي يجمع كل المعلومات الممكنة ويعبر عنها بلفظ واحد ، وبالرغم من أنه يعطينا صورة استدلالية ، ولكنها لا تعطينا القدرة على التنبؤ بالمستقبل ، والذي هو الهدف من الاستقراء أساساً كما يأتي ، فمثلاً إذا عرفنا أن أنواع الحصان ثلاثة : أ - ب - ج - ثم عن طريق الإستقراء عرفنا : بأن كل هذه الأنواع - أبيض - حصل عندنا استقراء ، ولكنه شكلي إذ ليس هناك نوع رابع نتنبأ بلونه ، قياساً على هذه الأنواع الثلاثة ، فلم يضيف الإستقراء علماً جديداً لنا ، وصيغة هذا الإستدلال الشكلي هي ما يلي : أ - ب - ج - كل أنواع الحصان .

( أ - ب - ج - أبيض . فكل أنواع الحصان أبيض ) والإستقراء الشكلي يوجد بكثرة في علوم تعتمد على العد والتسجيل ؟ مما يعتمد على القواعد العامة ، وذلك مثل علوم الأحياء والنبات وعلم الفلك القديم والعقل الإلكتروني ، هو الآخر يعتمد على إستقراءات شكلية . حيث لا يستطيع كشف الظواهر إنما إعادة المعلومات وتركيبها . ويستفاد من هذا الإستقراء أيضاً في المراحل الأولى للبحث ولكنه كما يقول (مل) : لا يقودنا في طريق العلم إلا قليلاً ، ومن الممكن أن نقبله بصفة مؤقتة ، إذا كانت تعوزنا وسيلة أخرى أفضل منه وأكثر قوة وضماناً وكل استقراء حقيقي ، يسبقه استقراء شكلي ، إذ لا بد أن

يبدأ الإنسان بتجميع الظواهر عددياً ، لكي يفكر فيها كيفياً ، بهدف التعرف على قوانينها ، وعلاقاتها ببعضها (١) .

ب - الإستقراء الحقيقي : وهو ما ينطبق عليه تعريفنا المتقدم للإستقراء : وهو معرفة العلاقة الخفية التي تربط ظاهرة بأخرى ، وعن طريق معرفتها يتم بالطبع التنبؤ بأنه كلما وجدت إحدى الظاهرتين ، كانت الأخرى موجودة أيضاً .  
وبتعبير آخر : الإستقراء التام هو الانتقال من عدد محصور من القضايا إلى قاعدة عامة ، يمكن إعادة تطبيقها على عدد لا يحصى من القضايا المشابهة لكي يتم التنبؤ بالمستقبل ، ويتم بالتالي تحقيق الهدف من العلم - أي علم - وهو كشف المستقبل والإهتمام إليه ، ومثال ذلك اننا نعرف القانون التالي - من بعض التجارب - المعدودة التي تم الحصول عليها عن طريق الإستقراء ، والقانون هو : « الكثافة = الكتلة على الحجم أو ث = ك على ح » هل إننا استقرأنا جميع أنواع وأفراد الكثافة والكتلة والحجم ، وعرفنا بأن لها علاقة مطردة ، فعبّرنا عنها بالقانون المتقدم ؟! كلا ، إذأ : الإستقراء الحقيقي ، يتم على التعميم ، والانتقال من حالة جزئية ، إلى حالة كلية ، وذلك عن طريق معرفة العلاقة الرابطة ، بين شيءٍ وشيءٍ آخر . وهذه ميزة الإستقراء الحديث ، عن الإستقراء الأرسطي القديم ، الذي كان أشبه شيئاً بتكديس الملاحظات على بعضها ، دون معرفة العلاقة بينها . ولكن هذا الإستقراء ينطوي على خطر التعميم الكلي إذا تسرع الباحث فيه ، وأفرط في الإعتماد عليه ، وهذه مشكلة نتعرض لها إنشاء الله ، في فصلٍ قادم .

### الاستقراء بين الذوق والعقل :

« يذهب سائح إلى قرية فيجد متعة كبيرة وحين يعود يوصي أصدقاءه بالسياحة في هذه القرية ، فإنهم - حسب ظنه - سيجدون ذات المتعة ، عجباً هل

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ٦٣ .

سيكون مصيباً في حكمه ، أم خاطئاً ؟ لا يفكر السائح في ذلك ما دام الموضوع لا يتجاوز حدود الذوق ، وإذا أراد أن يصدر حكماً عقلياً في الموضوع - كأن يكون خبيراً في السياحة ، يبحث عن أفضل منطقة سياحية في الاقليم - فلا بد أن لا يتسرع في حكمه بل يبحث بمنهجية أكثر ، ويجمع أدلة أقوى ، ترى ما الفرق بين الحالة الأولى والثانية ؟ الفرق أن السائح يعبر عن نظريته الغامضة التي كونها بذوقه ، بينما الخبير يعبر عن نظريته الواضحة التي يكونها بعقله ، والفرق بين العاطفة والعقل هو الفرق بين الحالتين وبالتالي هو الفرق بين الاستقراء الذوقي الذي قد يسمى أيضاً بالفطري ، والاستقراء العلمي .

والهدف من الاستقراء الذوقي غالباً ، هو تكييف البيئة مع الإنسان أي تذليل الأشياء لخدمة الإنسان ، ففي المثل السابق ، السائح يحاول معرفة أفضل مكان للاستجمام بينما الخبير يتجاوز ذلك إلى محاولة إيجاد أفضل مكان للاستجمام .

والإنسان في حياته اليومية بحاجة ملحة إلى الاستقراء الذوقي حتى يكيف نفسه مع بيئته ، فهو بهذه الطريقة يعرف أصدقاءه وأعداءه ويميز الطيبات من الخبائث ، وبهذه الطريقة يعرف كيف يكلم الناس ؟ وكيف يثير فيهم ما يريد أن يثيره من الحب أو البغض ؟

فالاستقراء الفكري ضرورة حيوية ، لأن حياة المرء ليست إلا سلسلة من المواقف أو المشكلات التي تتطلب حلولاً عاجلة ، حقاً تختلف هذه المشكلات ، التي تتطلب حلولاً عاجلة ، باختلاف بيئة الإنسان ، وسنّه ، وعمله ، وهي تتطلب من صاحبها ، وتلح عليه : أن يجد لها حلاً ، وقد يصرفه هذا الإلحاح - كما رأينا عن المقارنة الدقيقة بين مختلف المواقف التي تشبه موقفاً فيصدر حكماً خاطئاً<sup>(١)</sup> .

---

(١) المنطق ومناهج البحث ، ص ٧١ .

## الاستفراء الفطري كيف ولماذا ؟

جون ديوي يفصل القول في الذوق الفطري تاريخياً . وقد يلقي ذلك ضوءاً على كيفية الاستفادة منه ، فيقول (بتلخيص) : في عهد اليونان كانوا يقسمون العلوم نوعين ، الأول : العلوم السامية ، التي يشتغل بها الحكماء والفلاسفة ، الثاني : العلوم الدانية ، التي يقوم بها أهل الحرف والسوق ، ولم يكن النوع الثاني جديراً عندهم باسم العلم فكانوا يسمونه صناعة ، أو فناً ، أو حيلة ، لأنه كان يعالج المواقف المشككة ، وهي متغيرة ، والعلم إنما عندهم ما يعالج المبادئ العامة ، التي لا تتغير ، بلى حين ترتفع هذه الصناعات عن مستوى معالجة المواقف الخاصة المتغيرة ، ويعني بالمبادئ المطلقة ، كانت جديرة باسم العلم . ثم بدأ العلم الحديث ، يربط بين العلم والعمل ، ويرى : أن العلم الذي يعالج المواقف المشككة ويساعدنا على حلها عملياً ، هو العلم الوحيد الجدير باسم (العلم)<sup>(١)</sup> ويستنتج ديوي من كل ذلك ، أن الذوق والعلم وجهان لعملة واحدة ، وأنه في يومنا هذا أصبح الذوق ، أكثر علمية كما أصبح العلم أقرب إلى الذوق ( أي إلى الفائدة العلمية ) ومن هنا تتم الاستفادة من الذوق الفطري ، علمياً حين نجعله طريقاً إلى إيجاد مشككة ، وبالتالي طريقاً إلى التفكير العلمي لحلها .

ويكون الذوق بذلك ، المرحلة المتقدمة من العلم المرتجل ، فهي مرحلة التحسس بالموقف المشكك<sup>(٢)</sup> والذي يؤدي إلى الحل الذي يتطور بدوره إلى حل علمي .

فالإنسان يبدأ بتذوق الأشياء ، قبل أن يبدأ بفهمها ، وشيئاً فشيئاً ، يتحول الذوق إلى التفكير ، ويتحول الاختيار الساذج ، إلى الإبداع والإبتكار ، وهذا

---

(١) أنظر ص ١٥٦ - ١٦١ ، من كتاب المنطق ونظرية البحث لجون ديوي .

(٢) أنظر القسم الثالث كيف نختار المنهج السليم من هذا الكتاب . . .

التحول يحدث كلما زادت معلومات الإنسان الدقيقة ، ونظراته الواضحة . وأبسط مثال لذلك نجده في السياسة ، فقديمًا كان السياسيون ، يختارون آراءهم بالذوق ، وحسب الحاجة العملية الملحة . فعندما كانت تواجه السياسي مشكلة كان يترك برأسه إلى الأرض ، ويستعرض شريط الأحداث التي ترتبط بموضوعه ( طبعاً كانت تتم معرفة ارتباط الأحداث بموضوعه ، واختيارها لها ، بالبداية ، أي بالذوق الفطري . أيضاً ) وبعد لحظات تفكير سريع ، وغامض ، كان يرفع رأسه ويتخذ قراراً . ولكن اختلف الوضع ، في الدول المتقدمة اليوم ، حيث لا يتم الاختيار ذوقياً ، وإنما علمياً ، حيث يجتمع الخبراء ، ويستعرضون صورة الأحداث التي يختارونها بدقة ، وبمقاييس علمية ثم يأخذون بتقييمها معاً تقييماً منهجياً ، وربما استعانوا بالعقول الاليكترونية ثم يقررون ما شاؤوا ، ماذا اختلف من القديم إلى الحديث ؟ وهل كانت السياسة في القديم ذوقاً ، وأصبحت علماً ؟ إنما اختلفت طريقة التفكير في مرحلته . فبينما كان مستوى التفكير قديماً متدنياً ، ومرتبلاً ، ومتسرعاً ، أصبح اليوم مستوى رفيعاً ومتقدماً وسامياً . وبؤرة الفرق كانت التفكير الغامض ففي القديم كان التفكير يتم بسرعة وفي منطقة اللاوعي ، حيث يتم اختيار الأحداث ، وتقييمها بسرعة ، وبحيث لا يستطيع صاحبها متابعة سيرها ، وكان أسرع الناس بديهة هو أكثرهم علماً ، إذ أن القضية كانت ترتبط بسرعة البديهة ، وكانت وصية الحكماء تقول : إذا أردت اختيار أمر صعب ، فتم عليه ، إذ أن النوم - لا اليقظة - كان كفيلاً بتشغيل منطقة اللاوعي في الفكر البشري ومجموع هذه الأمور سمي ذوقاً . أما اليوم فإن التفكير يتقدم خطوة خطوة ، وفي الطريق المستقيم الظاهر الصريح ؟ والسؤال الأخير : هل انتهى دور الذوق في حياة الإنسان ؟ والجواب : بالطبع لا ، إذ أولاً : لا يمكننا أن نختار كل شيء في حياتنا بالتفكير المنهجي الواضح ، لتباطؤ هذا التفكير ، ولسرعة الحياة ، والحاج المواقف إلى قرارات مستمرة . وثانياً : لم يزل العلم غير قادر على لملمة جوانب المواضيع كلها حتى يتم البحث بمنهجية تامة في كل مراحل التفكير السابقة على القرار ولذلك يحسم المرء كثيراً من الأمور المرتبطة بقراره ،

بصورة بديهية ذوقية .

ذلك لأن أية ظاهرة نريد دراستها ، وتقييمها ، بحاجة إلى معرفة ظواهر محيطية بها ، ودراستها هي الأخرى تحتاج إلى معرفة ظواهر أخرى مرتبطة بكل واحدة منها ، وهكذا تتسلسل حتى يضيع الفرد ، ويتصل حدود البحث إلى مناطق المجهول ، التي لا يحسمها سوى الحدث أو ( الذوق الفطري ) فمثلاً في السياسة ، يصل التعقيد ، والتشابك بين الأحداث حداً يستحيل على العقول الآلية فضها ، ويبقى على الخبير الاعتماد على ذوقه ، وحده واجتهاده ، الذي قد يخطئ ، وقد يصيب. ولذلك ترى الخبراء يختلفون بدورهم في القضايا السياسية الهامة .

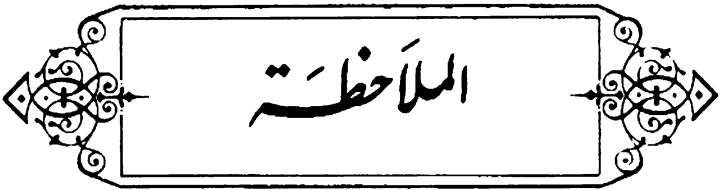
وما دام الإنسان لم يصل بعلمه إلى مستوى الكمال ، يبقى بحاجة إلى الذوق الفطري ، بل إن الذوق الفطري ، يتقدم كل كشف علمي ، لأن العلم يمر بمرحلة (الحدس) التي تساعد على وضع النظرية ، والذي سوف نتحدث عنه قريباً إنشاء الله ، وما الحدس إلا نوع من الذوق الفطري . . ومن هنا لم يكن الاهتمام بالحدس ، والذي هو المرحلة المتقدمة من الذوق الفطري من الوجهة السيكلوجية التي تتوصل إليها من مجالات التطبيق . وإذا كان الحدس هو وصول إلى حلول (صحيحة) أو تقاربية للمشكلات ، تحت ظروف قلة المعلومات ، ( أو الحرمان منها بالطبع ) فإن ذلك لا يعني أن هذه القدرة ليست لها أهمية حين تتوفر المعلومات ، ويتيسر تبادلها فإن عصرنا الحاضر ، يتميز في بعض المجالات بوفرة في المعلومات ، إلى حد الانفجار ، الذي لا يمكن للإنسان أن يحيط بها ، مهما أوتي من وقت وجهد ، وإمكانات . ولذلك فهو مضطر إلى اللجوء إلى (الملخصات) التي مهما بلغت دقتها لا توفر المعلومات الكافية فهو مضطر إلى العمل في ظروف نقصان المعلومات الأولية والأصيلة ويزداد الاعتماد على المصادر الثانوية ، أما في الدول النامية فإن المشكلة أشد حدة<sup>(١)</sup> .

---

(١) د. سيد أحمد عثمان ود. فزاد عبد اللطيف في كتاب التفكير ، ص ٧٥ .

القسم الرابع  
عن مناهج الاستِقرار

البحث الثاني



- ما هي الملاحظة ؟ .
- الملاحظة الفجة .
- الملاحظة العلمية .
- الملاحظة بين الكم والكيف .
- الاسلام والملاحظة .





## ما هي الملاحظة ؟

ذات صباح ربيعي ، تجلس على شاطئ البحر ، وتلاحظ الأمواج الحريرية التي تداعب الصخور ، وهناك تجد رجلين أحدهما صياد سمك والثاني خبير . أما الصياد فيبحث عن الأسماك فيما وراء الأمواج ، أما الخبير فلا يهمه السمك فقط . بل يلاحظ تحركاته ليكشف طبيعة الحياة عند الأسماك ، أنتم الثلاثة تبصرون بأعينكم . شيئاً ، ولكن بينكم فروق كبيرة .

١ - فأنت تبصر لمجرد المتعة ، فالنظر - بحد ذاته - هدف تنشده ، ولذلك لا نسميك (ملاحظاً) بل (متفرجاً) والصياد يهدف من وراء بصره الكشف عن مواقع السمك . إن نظرة (عبرية) ومتعمقة إلى الأمواج لا تعنيه بقدر ما تكشف عما ورائها من أسماك ، ولكنه - مع ذلك - لا ينوع ملاحظاته كثيراً حول السمك ، بل يصيدها متى وجدها .

٢ - أما الخبير فإنه يبصر ، ويهدف شيئاً ، وهدفه ليس السمك ، كظاهرة منفصلة عن مظاهر الحياة الأخرى ، بل كظاهرة مرتبطة بأية ظاهرة أخرى قد يكشفها الخبير . فهو إذ يراقب الموج والسمك ، يرصد تحركات الريح وتيارات الماء والمد والجزر ، ليعرف ما إذا كانت تلك الظواهر ، ترتبط بظاهرة تواجد

السّمك مثلاً في الساحل فجأة ، أم لا ؟<sup>(١)</sup> .

إن صياد السمك ، مثل لصاحب الملاحظة الفجة ، بينما الخبير ، مثل لصاحب الملاحظة العلمية ، والفرق بينهما كالفرق بين الذوق الفطري ، والاستقراء العلمي ، إذ يهدف الأول تحقيق حاجة عملية ، بينما الثاني يحاول الكشف العلمي وتبصيل أكثر :

١ - الملاحظة الفجة : هي كل ملاحظة سريعة يقوم بها الإنسان في ظروف الحياة العادية ، ويمكن التمثيل لهذا النوع بملاحظة الرجل العامي ، الذي يوجه نظره إلى مختلف الأطوار التي يمر بها القمر ، فيرى أنه يبدأ هلالاً ، ثم ينمو - شيئاً فشيئاً - حتى يكتمل بدرأ ، ثم يتطرق إليه النقصان بالتدريج ، فيصير هلالاً مرة أخرى .<sup>(٢)</sup> .

وتسمى هذه الملاحظة فجة لأنها : « ليست العبرة بتسجيل الملاحظات وتكديسها ، بل بالقدرة على تنسيقها ، وربطها ، وتأويلها تأويلاً صحيحاً ، والاستفادة منها ، في الكشف عن بعض الحقائق العامة . ويرجع قصور الملاحظة الفجة في الكشف عن هذه الحقائق إلى أن الرجل العادي يرى أن الظاهرة التي يلاحظها منفصلة . . تماماً ، عما عداها من الظواهر . أمّا العالم فيرى أن الظاهرة التي يدرسها لا بد أن تكون على صلة ببعض الظواهر الأخرى ولذا فهو على استعداد دائماً للتطرق من ملاحظة إلى أخرى<sup>(٣)</sup> . والملاحظة العابرة تساهم في دفع عجلة العلم إلى الأمام لأنها حرة طليقة لا ترتبط بهدف محدد مسبقاً ولذلك قد تصل إلى معرفة بعض العلاقات التي تعجز الملاحظة العلمية بسبب من توقعها في قمم الهدف المحدد ، تعجز عن الوصول إليها . فمثلاً الشراء الذين أهدوا

---

(١) د . سيد أحمد عثمان ود . فؤاد عبد اللطيف ، كتاب (التفكير) ، ص ٧٥ .

(٢) المنطق ومناهج البحث ، ص ١٠٣ .

(٣) المصدر ، ص ١٠٤ .

سطح القمر لحبيبانهم كانت ملاحظاتهم أقرب إلى الحقيقة من ملاحظة الفلكيين القدماء الذين كُونوا فكرة مسبقة عن القمر . وكثير من العظماء اكتشفوا بالملاحظة العابرة حقائق كبيرة أو لا أقل تنبأوا بتلك الحقائق ، عن طريق الملاحظة العابرة . فمثلاً : (جاليلو) لاحظ - ذات مرة - أن سقوط الأجسام ليس سواء ، وهدته ملاحظته العابرة إلى التجربة التي أدت بالتالي إلى كشف قانونه الشهير في سقوط الأجسام ويُقال ، ان نيوتن اهتدى إلى التفكير حول الجاذبية من ملاحظة تفاحة سقطت من على شجرة . وهكذا ، إن المنهج السليم هو المنهج الذي يفسح أكبر مجال لحرية التفكير<sup>(١)</sup> .

ولكن من الخطأ الفظيع الاكتفاء بالملاحظة العابرة ، لأنها الخطوة الأولى فقط في طريق ذات مئة خطوة والملاحظة العابرة أخيراً كالاستقراء الفطري . وكالخيال والحدس تفيدنا في وضع الإطار العام للفرضية وما سبق في الاستقراء الفطري وما سيأتي بإذن الله في الحدس - يلقي ضوءاً على دور الملاحظة الفجة في البحث .

### الملاحظة العلمية :

يجب أن تتوافر ثلاثة عناصر في الملاحظة العلمية :

١ - الهدف المسبق : ففي قصة الخبير الأنفة الذكر رأينا كيف أنه يهدف كشف حقيقة غامضة ومحددة ، وهذا العنصر يجعل الملاحظة العلمية ، الخطوة الثانية الي تلحق الملاحظة الفجة ، إذ ان التأكد ، من صحتها يتطلب الملاحظة المكررة ، لتلك الفكرة ، التي استوحاها الفرد من ملاحظته الأولى . وقد يتسبب ذلك في التدخل في سير الطبيعة للكشف عنها .

٢ - الدقة ولأن الملاحظة العلمية هادفة ، فإنها دقيقة إذ هي تتركز : حول

---

(١) المصدر ، ص ١٦٣ .

قضية واحدة تقريباً ، تفصلها عما يحيط بها من قضايا فرعية ، غير ذات أهمية علمية .

ولذلك هذه الملاحظة ، فهي بحاجة إلى صبر وأناة فتوزع إلى خطوات ومراحل .

٣- بعد الاستيعاب لوجود الهدف المسبق والدقة ، تأتي الملاحظة العلمية ، متممة للكشوفات السابقة ، ومستوعبة لها . فهي تبدأ من حيث انتهى العلم ، وقد تستخدم الأدوات العلمية الدقيقة ، التي توصل إليها تقدم العلم سابقاً . ويمكن التمثيل للملاحظات العلمية بتلك الملاحظات التي يقوم بها علماء الفلك ، عندما يرصدون النجوم ، والكواكب ، وأوقات ظهورها ، واختفائها . فهذه الملاحظات علمية ، لأنها دقيقة ، ولأنها تهدف إلى غرض واضح هو معرفة عدد هذه الأجرام السماوية ، وأبعادها وحركاتها<sup>(١)</sup> .

### الملاحظة بين الكم والكيف :

ترتبط الملاحظة لأية ظاهرة بطبيعة الظاهرة ، والهدف من معرفتها . فقد تكون الظاهرة مثلاً مرتبطة بعلم الرياضيات ، والهندسة ، وما أشبه . فهناك نلاحظ الجانب العددي والقياسي من الظاهرة . وقد ترتبط بعلم الاجتماع والنفس فهناك نحاول معرفة الجانب الكيفي منها . . . والواقع أن الكم ليس سوى العناصر الذاتية للشيء ، وكلما تقدم العلم ، كلما حاول إرجاع الأشياء إلى (أعداد) حسبما عرفنا ذلك في فصول سابقة ، بينما الكيف هو معرفة الوجه الخارجي للشيء ، وطبيعة نسبته إلى الحقائق الأخرى ، فمثلاً : لو أردنا أن نعبر عن طبيعة حرارة الجسم عند الحمي ، فقد نقول : إن درجة الحرارة هي (٣٨) ( وهذا تعبير عن عنصر ذاتي في الحرارة وهو طبعاً تعبير كمي ) بينما قد نقول : إن الحرارة خفيفة بالنسبة إلى حرارة النار ! إذاً : التعبير الكمي هو التعبير الذاتي المتطور بينما

---

(١) المصدر ، ص ١٠٧ .

التعبير الكيفي هو التعبير الخارجي المتخلف ، والفرق بينهما لا يعدو التعبير ،  
والحقيقة واحدة .

وكلمة أخيرة عن الملاحظة العلمية أنها قد تغني عن التجربة ، وذلك فيما  
يخص الظواهر التي لا يمكن التدخل في مسيرها. والتجربة - أساساً - هي التدخل  
في مسيرة الطبيعة لمعرفةا ، وذلك مثل الظواهر الفلكية ، والسياسية ،  
والاقتصادية ، بل في كل علم الظواهر ، لا يمكن إخضاعها للتجربة ، وأنداك ،  
تحل الملاحظة العلمية مقام التجربة ، في كل الشروط التي ستأتي إنشاء الله .

**الاسلام والملاحظة :**

في بداية الحديث عن الملاحظة ، استخدمنا تعبيراً ، نرى أنه خير دليل  
على طبيعة الملاحظة السليمة . كان التعبير هو (عبرة) واللفظة هذه ، استخدمت  
بكثرة في النصوص الدينية ، التي بالرغم من أنها جاءت في مواضيع مختلفة فإنها  
تعني حقيقة واحدة هي (العبرة) على زورق الظواهر ، إلى شاطئ الحقائق حيث  
إن الأفكار ، قد تتجمد على الظواهر ، وقد تفتش عن دلالاتها ، وخلفياتها ،  
وعلاقاتها ببعضها ، وهناك يتم الفكر العبري ، ( أي العبري ) . وأكثر ما يصح  
هذا الأمر في التاريخ ، فقد نسمعها كظواهر الماضي ، على أنها ملهيات ، وقد  
ندرسها للعبور منها ، إلى السنن التي ورائها وفي هذه الحالة يصبح التاريخ ،  
عبرة ، ومن هنا قال الله في كتابه : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾  
[ ١١١ / يوسف ] . وقال : ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين  
فأعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ [ ٢ / الحشر ] . وهكذا جاءت الكلمة تعبيراً عن  
الملاحظة في السنة . قال الإمام الصادق (ع) : اعتبروا بما مضى من الدنيا .  
وكانت أكثر عبادة أبي ذر : التفكير والاعتبار . أما الإمام علي (ع) فيأمر باستخدام

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ١١١ .

(٢) سورة الحشر ، الآية : ٢ .

الملاحظة في حل المشاكل الاجتماعية فيقول : « إن الأمور إذا اشتبهت اعتبروا آخرها بأولها » . وتؤكد لنا نصوص كثيرة مدى الارتباط بين (العبرة) والعلم فيقول الإمام علي (ع) : « من اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم » .

القسم الرابع  
عن مناهج الاستقراء

البحث الثالث عن



- ما هو الفرض؟
- الهدف من الفرض .
- حقيقة الفرض .
- الفرض تاريخياً .
- وظيفة الفروض .
- الصياغة العلمية للفروض .
- الفرض وبصيرة التناسب .
- بين النظرية والفرض .





## ما هو الفرض ؟

توجد بين المشاهدة التجريبية ، والملاحظة العامة ، وبين الوصول إلى الحقيقة فجوة يجب سدّها بالفروض التي تقوم بدور الجسر بين الحقيقة والتجربة . والفرض : هو بمثابة الصورة الهندسية ، التي يضعها البناء ، قبل البدء بالتمجير ، فهو صورة غير حقيقية للنظرية ، التي تأتي من بعده ، وتمهد لمعرفة القانون .

ذلك لأن الباحث يبدأ بجمع الملاحظات ، والمشاهدات التجريبية ، فإذا اجتمعت عنده ، لا يعرف بالضبط ، طبيعة العلاقة بينها ، فيفترض نوعاً من العلاقة ، ويحاول التثبت من صحتها ، وكمثل لهذه الطريقة نستعرض قصة ( كلود برنارد ) التالية . . ذات يوم قدم إليه بعض الأرناب ، فلما وضعها على المنضدة ، أخذت تبُول (فلاحظ) كلود أن بولها كان صافياً حامضياً ، مع أنه (يعلم) من قبل أن بول الأرناب ، عكر قلوي ، باعتبارها آكلة الأعشاب ، ولأنه كان يعلم سابقاً أن بول الحيوانات آكلة اللحوم هي صافية حامضة ، فقد (افترض) أن تكون الأرناب جائعة منذ وقت ، وأنها قد بدأت تتغذى من أنسجتها الداخلية ، فأصبحت - عملياً - آكلة اللحم ، وأصبح بولها صافياً حامضاً ، فلما جرب

(فرضيته) ، رأى أنها صحيحة ، إذ ما أن أشبعها أكلأ ، حتى عاد بولها عكراً قلوياً ، فلما جوعها مرة أخرى ، عاد بولها حامضاً صافياً ، وهكذا ثبت عنده (القانون) المعروف : «إن جميع الحيوانات الصائمة ، تتغذى من أنسجتها ، فيصبح بولها حامضاً صافياً»<sup>(١)</sup> . . ، في هذه القصة نجد : أن ملاحظات كلود ، ومعلوماته السابقة ، دفعته إلى (فرض) لم يلبث أن أصبح حقيقة ، بفعل المزيد من التجربة .

من هنا نستطيع تعريف الفرض : بأنه التنبؤ بحقائق الأشياء ، بحيث لو برهننا عليه ، أصبح قانوناً . فهو بديل مؤقت للقانون ، وظيفته تمهيد الطريق إلى القانون ، فكل فرض لا يمكن أن نبرهن عليه ، ليس بفرض ، وكل فرض يخالفه البرهان ليس بفرض ، وكل فرض لا يحتاج إلى البرهان ليس بفرض ، بالرغم من أن كثيراً من المناطق السابقة ، خلطوا بين المعنى الحديث للفرض ، وهذه المعاني الثلاث .

### الهدف من الفرض :

ما هو الهدف من الفرض ؟ ليس الهدف منه إغناء الباحث عن القانون ، بل دفعه إلى البحث عنه ، فهو مساهمة في البحث ، عن خلفيات الظواهر ، وذلك بوضع قانون مؤقت لها ، حتى يكتشف القانون الحقيقي . ذلك أن الظواهر المتفرقة تضيع في زحمة الفكر ، فيصنع الفكر ظرفاً لها ، يجمعها بصفة مؤقتة ، إلى أن يأتي القانون فيوحدها ، وليست للتجارب أية فائدة لو لم يتم بناء هيكل لحفظها ، والهيكل هو الفرض . يقول هنري بوانكاريه :

للمرء أن يجري مائة تجربة ، وله أن يجري ألف تجربه ، ( ولكنها لا تفيد بدون الفرض ) فإن إنتاج عالم واحد ممتاز ، كباستير - مثلاً - يكفي في إسدال ستار النسيان ، على هذه التجارب ، فما التجربة الجيدة إذا ؟ إنها التجربة التي

---

(١) المصدر ، ص ١١٣ ، عن (كلود برنارد) .

نطلعنا على شيء آخر ، سوى الظواهر المتفرقة ، وهي التي تتيح لنا : التكهّن  
بالمستقبل ، وتسمح لنا بالتعميم<sup>(١)</sup> .

### حقيقة الفرض :

ما هي حقيقة الفرض ؟ هل هو من نسج الخيال . بل هل للخيال أي دور  
فيه ؟

في المقدمة ، يجب أن نعرف ما هو الخيال ؟ الخيال : هو تصورات غير  
حقيقية عن الحياة ، يضعها الإنسان عن سابق تصميم ومعرفة ، مثلاً : الشاعر  
العبري لا يجهل أن حبيبته ليست بشمس ، ولا بقمر ، ولا حتى بمصباح ،  
ولكنه يتخيلها كذلك ، وينشد أشعاره في ذلك . فالخيال هو نوعٌ من الكذب  
الابيض ، الذي لا يقصد منه الاغواء ، وفي مقابل الخيال يوجد (الحدس) وهو :  
نوع من التفكير الذي تختلط فيه الأدلة بالحقائق ، لسرعته الخاطفة ، وليس  
الحدس خيالاً ، لأنه ليس مسبوقاً بتعمد الابتعاد عن الحقيقة . فالرجل الذي يلقى  
عليه لغز فيحدس - فوراً - بجوابه ، لا يصمم على تصور بديل عن الحقيقة .  
ولكنه يبحث عن الحقيقة ذاتها ، بوسيلة مختلفة عن التفكير المنهجي .

ويمكن تعريف الحدس : بأنه إطلاق أجنحة الفكر بالترفرف على جنبات  
الحياة ، بحثاً عن الحقيقة ، ولذلك تجد المرء - حينما يحاول الحدس - يجمع  
ذهنه ، ولا يدع تشرد عنه ، حقيقة قريبة أو بعيدة ، مرتبطة بصله ما بموضوعه .

١ - ويعرف سانكس الحدس في بحثٍ مبكر له نشر عام ( ١٩٢٨ م ) بأنه  
عملية معرفية مباشرة قبل أن تكون منطقية وبيدائية وغير تحليلية<sup>(٢)</sup> وهذا يدل على  
أن الحدس بحث عن الحقيقة ولكن بطريقة غير منطقية وغير تحليلية أي تركيبيّة  
كما سيأتي وافترض سانكس أن الحدس عند الأطفال وضعاف العقول أقوى منه

(١) المصدر ، ص ١٣٦ .

(٢) التفكير ، ص ٧٢ .

عند غيرهم وجاء بتجارب تدل على صحة افتراضه والواقع أنه لودل على شيء فإنه يدل على مرحلة ما قبل المنطقية للحدس إذ إن الأطفال تعودوا على استخدام الحدس - بمعجزهم عن المنطق - فتمت فيهم القدرة عليه من هنا لو نما غيرهم في نفسه لسبب أو آخر هذه القدرة كان أقوى منهم فيها .

ويعتمد الحدس على المعلومات السابقة بالإضافة إلى حدة الذهن ، أما المعلومات السابقة فيجب مضمها بشكل جيد . كما يجب كثرة النظر فيها ككل ، حتى تصبح وكأنها كتلة واحدة ، يمكن استعراضها بسرعة ، أنى أرادها الذهن .

٢ - وفي هذا المجال يرى يونج أن الحدس كالإحساس يدرك لا شعورياً وبطريقة غير نقدية ولكنه يدرك الاحتمالات والمبادئ والتضمينات ككل على حساب التفاصيل<sup>(١)</sup>

وأما حدة الذهن فهي هبة الله ، ويمكن تنميتها عن طريق الثقة بالعقل ، وعدم التردد - طويلاً - في البت في الأمور .

٣ - وارتباط الحدس بالثقة يفسر لنا عدة ظواهر ارتباط الحدس بالصفات الشخصية العالية إذ إن مجموعة الأفراد التي تتميز بالتفكير الحدسي تتميز عموماً بأنها أعلى في صفات السيطرة والمسؤولية والإتزان الإنفعالي والاجتماعي كما يقيسها بروفيل الشخصية لجردون<sup>(٢)</sup> .

٤ - كما يفسر لنا السبب في أن أصحاب الابتكار يتميزون بقدر كبير من الإستقلالية ، وعدم مسايرة المجتمع ، إذ إنه من صور الدافعية الأخرى للسلوك الابتكاري تفضيل الاستجابات الجديدة والميل إلى إصدارها ، وتفضيل التعقد على البساطة والميل إلى الاستقلال ، والبعد عن الإمثال ونقصان المسايرة

---

(١) المصدر ، ص ٦٩ .

(٢) المصدر ، ص ٨٩ .

الاجتماعية والميل إلى المخاطرة ، والتسامح مع الغموض<sup>(١)</sup> . وهذه هي صفات الثقة بالنفس التي تولد الحدس ، وإنه لماذا ترتبط الثقة بالحدس ؟ .

وارتباط الحدس بالمعلومات السابقة ، يفسر لنا السبب في أن حدس العالم يختلف عن حدس الجاهل مع أنهما حدس ؟ بالتالي كما يفسر لنا السبب في أن هناك ارتباطاً بين الحدس وبين قوة الحواس ، فالعقري عموماً يتفوق على الشخص العادي ، في ثروته من المعلومات المختزنة ، ويصدق هذا على الفنون صدقه على العلوم ، فقد برهن آجنيو على أن الذاكرة السمعية ، تلعب دوراً في غاية الأهمية في الابتكار الموسيقي ، وبالمثل برهن ماير على أهمية الذاكرة البصرية في الفن التشكيلي<sup>(٢)</sup> .

ثم لأن الحقيقة كالمطائر ، إذا لم تحبسها فرت ، فكثير من الناس تأنيهم الحقائق ، ولكنهم ، وربما لعدم الثقة بأنفسهم ، لا يعتنون بها حتى تذهب .

من هنا ، يجب أن يكون الباحث حراً جسوراً في اتباع آرائه ، وألا يقف أمام بعض المخاوف الصبائية ، كأن يخشى مناقضة أفكاره ، للنظريات التي سبق تقريرها . ومن النادر أن تتقدم العلوم ، دون وجود نصيب من الجرأة والحرية فيها . وقد تحدثنا من قبل حول الذوق الفطري ، وما الحدس إلا نوع منه ، كما ذكرنا آنفاً .

ويرتبط الحدس بالابتكار عن طريق الفرض ، حيث إن الفرض ابن للحدث وأب للابتكار ، فبدون الفرض لا يمكن ، عادة ، الوصول إلى تقدم علمي كافٍ ، كما أنه بدون الحدس لا يمكن الوصول إلى فروض مفيدة . ويؤكد هذا الارتباط - بين الابتكار والحدس - أن التفكير الإبتكاري يتميز بحدوث ما يسمى : التخمر . (الكمسون ، أو الحضانة) وهي مرحلة من النشاط غير الظاهر ، توصف

(١) المصدر ، ص ٨٩ .

(٢) المصدر ، ص ١٤٢ .

أحياناً أنها لحظة ما يحدث قبيل الإستنباط ، وتتميز هذه الفترة بحالة من تشتت الانتباه وتوزعه ، وعدم تركيزه على موضوع بالذات ، وعادة ما يحدث أثناءها أو في نهايتها ، تقدم نحو الحل ، ويفضل أبو حطب أن يطلق على هذه الظاهرة ( التفكير الحدسي )<sup>(١)</sup> .

وظاهرة التخمر هي الوسيلة الأساسية في الحدس فهي رابطة بين المعلومات السابقة والحدس ، إذ إن رصيد المعلومات لدى الفرد يلعب دوراً هاماً في تفكيره الابتكاري ، وشرط المعلومات هذا شرط ضروري<sup>(٢)</sup> .

الفرض تاريخياً :

لم يتفق العلماء جميعاً على ضرورة الفروض ، إنما تدرجوا عبر التاريخ في إعطاء أهمية لها ، حتى جاء العصر الحديث ليضع الفرض في مقامه حيث الآن ، ولكن لماذا هذا الاختلاف في الفروض ؟ كما يبدو ، لم يتفق العلماء في معنى واحد للفرض ، ولا في هدف محدد ، فقصده كل منهم معنى مختلفاً عن الآخر فعارضه فيه ، بينما هو في الواقع متفق معه ، وإنما الاختلاف في التعبير .

ولذلك قبل أن نستعرض تاريخ الفرض ، لا بد أن نبين بعض المعاني التي أريدت منه وهي :

١ - الفرض بالمعنى الرياضي : ويعني الحقيقة التي لا تحتاج إلى دليل ، لأنها مسلمة وتوضع أساساً لإستنباط قضايا فرعية ، مثال ذلك قولهم أن الكمين المساويين لكم ثالث متساويان . وقد استخدم القدماء الفرض في هذا المعنى ، وعليه يدل جذر اللفظ باللغة اللاتينية (Hypothese) ، ولم يخالف أحد من العلماء

---

(١) المصدر ، ص ٩٠ .

(٢) المصدر ، ص ١٨٩ .

في أهمية هذا المفهوم من الفرض ، وضرورته البحثية في علم الرياضيات .

٢- الفرض بالمعنى الفلسفي : والذي يعني المفاهيم العامة التي نسلم بها من غير دليل ، لتكون وسيلة لفهم قضايا جزئية ، وبهذا المعنى استخدمه المدرسيون ، في العصور الوسطى ، وفي مبدأ عصر النهضة ، بل يبدو أن ديكارت كان يستخدم الفرض هكذا أيضاً ، وهذا المفهوم من الفرض قد يكون باطلاً ، ولكنه يؤدي إلى الحق في زعم المدرسين لهذا كانوا يقولون أن الفرض هو الفن الذي يستتج الحق من الباطل ، ويقول ديكارت : سأفرض هنا بعض الفروض ، التي أعتقد أنها خاطئة ، وليس خطأها يمانع من أن يكون ما يستنبط منها صحيحاً . وهذا النوع من الفروض هي التي قامت قيامة العصر الحديث لنفيها بل لتسفيه أصحابها ، فقد قال نيوتن : « لقد تقدمت حتى الآن في تفسير الظواهر المساوية ، وظواهر المد والجزائية ، ولكن لم أحدد ، بعد ، سبب هذه الجاذبية ، ولم أستطع أن أستنبط من الظواهر أسباب خواص الثقل ، ولم أتخيل فروضاً لأن كل ما لا يستنبط من الظواهر يسمى (فرضاً) وليس للفروض مكان في الفلسفة التجريبية سواء كانت فروضاً ميتافيزيقية ، أم خاصة بالصفات الخفية أم ميكانيكية » .

٣- الفرض بالمعنى البحثي: ويقصد به الحدس بحقيقة الأشياء وعرف بأنه التكهّن الذي يضعه الباحث لمعرفة الصلة بين الأشياء . وأول من قال بهذا المعنى هو بيبكون حيث أوصى الباحث بأن يبدأ بملاحظة الظواهر العامة التي لا يتطرق إليها الشك ، حتى إذا كوّن لنفسه عنها فكرة ، وجب عليه استخدام التجارب الخاصة للتأكد من صحتها ، وهذا المفهوم من الفرض هو المفهوم السائد اليوم ، ولكن الهدف منه غير واضح تماماً ، وربما يكون ذلك سبباً في بعض الاختلاف ، حول أهميته ، فما هو الهدف ؟

أ- ليس الهدف من الفرض ، وكما سبق مكرراً ، أن يصبح مقام البحث ، أو مقام النظرية ، وهذا هو الذي حاربه فريق من العلماء .



ب - وليس الهدف منه أن نعتمد على أفكار ميتافيزيقية في تفسير الحوادث .

ج - إنما يهدف إلى ما يلي :

١ - « لأنه لا قيمة للتجارب ، إذا تكدست فوق بعضها ، مهما كانت كثيرة العدد ، مثال ذلك المشاهدات الجوية التي تملأ جداول ( من الذهن ) لا نهاية لها ، فإن هذه الملاحظات لا تصبح ملاحظات مفيدة إلا إذا دلها العقل في أثناء جمعها »<sup>(١)</sup> . فأول هدف يحققه الفرض هو تجميع الملاحظات إلى بعضها حتى تتفاعل .

٢ - ولأن الظواهر يجب أن تتفاعل فلا بد أن تتجمع في وحدات ، والفرض يحقق هذه الغاية إذ يجمع الظواهر في وحدات .

٣ - وحين الجمع بين الظواهر ، تبدو فجوات يجب على الفرض أن يسدها مؤقتاً ، لكي يقوم بدراستها متى سنحت الفرصة له .

٤ - ثم إن هذه الفجوات ، تبقى كأسئلة حائرة ، حتى بعد أن نفترض حلولاً مؤقتة عنها (لأن هذه الحلول مؤقتة) ، فإن الهدف الرابع من الفرض ، هو دفع الإنسان إلى البحث عن أجوبة صحيحة لهذه الأسئلة . ذلك لأن الفكر من طبيعته ألا يبحث عن شيء بدون أن يلح عليه بالجواب .

**وظيفة الفروض :**

كما سبق آنفاً وظيفة الفروض في النقاط الأربع الماضية ، ولكننا لم نزل بحاجة إلى مزيد من التفصيل لنعرف :

أولاً : لو أن أعداء الفروض فكروا بعمق في الوظائف ، التي حددناها للفروض ، لما قاومها أحد منهم لا أقل بهذه الشدة .

---

(١) «كونت» عن المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ١٥٢ .

ثانياً : يجب التفرقة بين فرض نستخدمه عوضاً عن البحث ، وفرض نستخدمه مقدمة للبحث . « هؤلاء الذين يستنكرون استخدام الفروض والأفكار السابقة في المنهج التجريبي ، يخطئون عندما يخلطون بين اختراع التجربة ، وبين مشاهدة نتائجها » ، ومن الحق أن نقول : « إنه لا بد من ملاحظة نتائج التجربة بعقل مجرد من الفروض والأفكار السابقة ، لكن يجب الحذر من تحريم استخدام هذه الفروض ، والأفكار السابقة ، فعلى العكس عندما يكون الأمر بصدد القيام بتجربة ما ، وبصدد تخيل (واكتشاف) الوسائل التي تستخدم في الملاحظة ، فعلى العكس من ذلك ، يجب على المرء أن يدع خياله حراً . إن الفكرة السابقة أساس لكل استدلال ولكل اختراع »<sup>(١)</sup> .

ثالثاً : إن الفرض يكشف لنا عن الوسائل العلمية ، التي قد تنفعنا في اكتشاف الحقيقة ، والغريب أنه قد لا تنفع هذه الوسيلة في الكشف عن الحقيقة المطلوبة ، بل عن حقيقة أخرى لا تقل أهمية من تلك .

رابعاً : إن العالم الباحث لا يمكنه أن يصبح خلواً تماماً من أي فرض ، حتى ولو قال ذلك ، إذ إن الفرض هو طبيعة ملازمة للفرد ووظيفة وضع الفروض ، هو طرد الفروض المتوغلة في عالم الخيال ، والاقتصار على الفروض العلمية التي سيأتي تعريفها . يقول هنري بوانكاريه : « يُقال في كثير من الأحيان : من الواجب أن يجرب المرء دون أن تكون لديه فكرة سابقة ، لكن ذلك ليس ممكناً ، وليس معناه فحسب أن تصبح التجربة عقيمة ، بل معناه أيضاً أن المرء يعجز عن التجرد من الفكرة السابقة ولو أراد ذلك »<sup>(٢)</sup> .

خامساً : ليست الفروض الصحيحة ، هي التي تفودنا دائماً إلى الحقيقة ، إذ حتى الفروض الكاذبة نافعة أيضاً ، فعلى العالم أن يضع فرضاً يبدو له باديء

---

(١) المنطق ومناهج البحث ، ص ١٦٥ .

(٢) المصدر ، ص ١٦٦ .

الرأي أنه خاطيء ، يضعه ليتأكد من خطئه ، وحينئذ تبدوله أحياناً صحة فرضه مع تعديل بسيط ، أو يهتدي - بسببه - إلى حقيقة علمية جديدة ، وقد قدم كلود برنارد مثلاً ، بين فيه كيف أرشدته بعض الفروض الفاسدة ، إلى حقائق علمية كبرى ، فهو أراد أن يعلم ما الذي يحدث لمختلف المواد الغذائية في أثناء عملية الهضم وقد وجه اهتمامه بصفة خاصة إلى مادة السكر لأنها معروفة التركيب ، وإمكان تتبعها في أثناء الهضم ، فأجرى بعض التجارب الخاصة ، بأن حقن دم حيوانات معينة بمحاليل من السكر ، ولاحظ أن السكر المحقون يظهر في البول ، مهما قلّت كميته ، وأدرك أن العصارة المعوية ، تحول السكر وتغيره فتجعله قابلاً للتمثيل ، أي للإستهلاك في الدم ، ثم أراد تحديد العضو الذي يتحول فيه السكر إلى الدم ، (فترض) أولاً أن هذا العضو هو (الرئة) ، لأن علماء عصره كانوا يقولون : بأن استهلاك السكر يتم في أثناء ظاهرة الاحتراق ، أي في أثناء عملية التنفس لكن لم تلبث أن برهنت له بعض تجاربه على خطأ هذا الرأي . ومع أن هذه التجارب لم تكشف له عن العضو الذي يستهلك فيه السكر فإنها كشفت له عن ظاهرة جديدة ، وهي أن دم كل حيوان يحتوي على السكر ، ولو مُنِع عنه الأكل مدة معينة من الزمن ، وكانت هذه الظاهرة مجهولة لدى علماء عصره ، بسبب آرائهم التي أولوها من الثقة أكثر مما تستحق ، فأقلع كلود عن جميع الفروض التي تتصل باستهلاك السكر ، واحتفظ بتلك الظاهرة الجديدة ، واتخذها مادة لبحوث وكشوف عديدة ، فأجرى تجارب جديدة أثبتت له صدق ملاحظاته ، وأرشدته إلى أن الكبد هو العضو الذي يتكون فيه السكر . وهكذا أدى به الفرض الباطل إلى نظرية صحيحة ، لأنه أثبت له بطلان فكرة ، وهداه إلى فكرة جديدة تماماً .

## أنواع الفروض

في أحاديث سابقة تبين لنا أن الفروض أنواع هي :

١ - الفروض العملية : هدفها افتراض حل للمشكلة العملية القائمة ،

ومثاله أن الباحث الجنائي يزور منطقة الجريمة ، فيحدد الظروف المحيطة بها ، ويفترض عدة فروض لفاعل الجريمة ، ثم يبدأ بتحقيقها عن طريق الكلب البوليسي ، أو البصمات أو ما أشبه ، وهذا النوع من الفروض ، لا تتسم كثيراً بشروط وضع الفرض ، ولا بفوائده ، بالرغم من إمكان إدراجها في الفروض العلمية .

٢ - الفروض الفلسفية : وهي الفروض العامة التي تعالج مشاكل علمية ذات طابع عام أيضاً ، وهذه بدورها نوعان :

- الأفكار الفلسفية ، التي يمكن التدليل عليها من تجارب علمية أو براهين عقلية ، وهذا نوع من الفروض العلمية الآتية .

- الأفكار الفلسفية ، التي لا يمكن التدليل عليها ، وهذا النوع لا يُعني عن الحق شيئاً ، بل يبقى عقبة في طريق فهم الحقيقة ، ومثاله الافتراضات الفلسفية حول الكون ، حيث كان قدماء المصريين ، يفترضون أن الكون صندوق كبير سقفه السماء ، وقاعه الأرض ، وفي السقف يوجد نهر كبير ، منه يسيل النيل ، وأن الشمس موضوعة في زورق يجري في هذا النهر .

وهذا النوع من الفروض الفلسفية ، ليست فروضاً بالمعنى السابق للفرض ، إذ الفرض هو الذي يمهّد لمعرفة الحقيقة ، والفروض الفلسفية توضع في مكان الحقيقة وبدلاً عنها !

٣ - الفروض العلمية : والفروض العلمية هي التي تعتمد على المعلومات السابقة ، وتحاول الكشف عن معلومات جديدة وذلك بوضع فروض مؤقتة ، يمكن معرفة صدقها ، ولا بد أن تجمع الشروط التالية :

١ - يجب أن يُستوحى الفرض العلمي من كل المعلومات السابقة ، حتى يكون فرضاً ناضجاً ، وسوف تُحذف عدة فروض منذ البدء لأنها لا تستوفي هذا الشرط . فلا يمكن الافتراض بأن الشمس تنكسف بسبب السحب الكثيفة في

أعماق السماء ، لأن العلم قد أثبت - سلفاً - بطلان هذا الفرض . من هنا يقول كلود برنارد : « إن الأفكار التجريبية (الفروض) يمكن أن تولد إما لمناسبة ظاهرة نلاحظها ، وإما على أثر محاولة تجريبية ، وإما كنتيجة متممة لنظرية سبق التسليم بها ، ومن الواجب أن نلاحظ هنا أن الفكرة التجريبية ليست تعسفية ولا خيالية محضة فيجب أن تركز دائماً إلى الحقيقة المشاهدة أي إلى الطبيعة »<sup>(١)</sup> .

بلى قد تكون فروض تعتمد على مقاييس عقلية واضحة دون الاعتماد على المشاهدة والتجربة ، وعلمنا أن نفكر مرتين قبل أن نأخذ بها .

٢ - أن لا يكون واضح الخطأ ، وهذا الشرط تابع في الحقيقة للشرط السابق ، ذلك لأن الذي يستمد فروضه من التجارب والعلوم السابقة ، يتبين له خطأ بعض الفروض سلفاً ، إنما يجب أن نضيف هنا ، أن هناك نوعاً من التفكير يسمى بالتجربة العقلية ، وهو يعني الافتراض عقلياً ، ثم ترتيب الآثار المترتبة على الفرضية ، حتى إذا رأى المفكر صحة تلك الآثار أو بطلانها ، لم يحتج إلى التجربة ، وإذا لم يعرف توسل بالتجربة لمعرفة ما . مثلاً ، إذا شاهد أحد وجود دخان كثيف في منطقتة ، استعرض في فكره عدة فروض في مصدر الدخان : إنه ناشئ عن حريق ، أو من مصنع ، أو من شيء آخر ، ثم يقوم الفكر بالبحث عن آثار الحريق فإن لم يجدها ، أو وجدها ، عرف مدى صحة فرضه الأول وإلا قام بالبحث ، ليعرف طبيعة هذا الفرض ، وهكذا في غيره .

من هنا فإن الواجب على من يضع فرضاً أن يختبره عقلياً ، فإذا بقي لديه الشك في صحته توسل بالتجربة العملية ، ولكن عليه أن لا يبقى في نفسه الشك لمجرد ( هوية الشك ) ، وبالعكس لا يتوسل باليقين للتخلص من صعوبة التجربة ، ولقد كانت افتراضات في السابق ، ثبت بطلانها ، كالفرضية القائلة بأن كل عضو يصنع كمية من الدم ، خاصة به ، أو أن القلب هو الذي يصنع دم

---

(١) المصدر ، ص ١٧٨ .

الجسم ، إذ إن هذه الفروض أصبحت اليوم معروفة الخطأ ، فيجب ألا يُعاد إليها . كذلك يجب الاطلاع ، أولاً على جميع المعلومات المتصلة بموضوع بحثه ، ثم يبدأ في وضع الفروض ، لكي لا يعالج فرضاً باطلاً بالمرة .

ويشمل هذا الشرط ، ضرورة التعرف على نسبة الصحة في الفروض ، فإذا وجد فرضاً بعيداً جداً عن الحقائق العلمية ، فالأفضل أن يتركه . ولكن قد توجد مفارقة معينة ، هي أن بعض الفروض تبدو بعيدة ، ليس لأنها بعيدة فعلاً ، بل لأنها مخالفة للرأي السائد لدى علماء العصر ، وهنا من الخطأ جداً حذفها ، أو حتى الاستهانة بها ، فمثلاً : ظل الناس يعتقدون ، إلى عهد قريب ، أن حرية الفرد هي العامل الأساسي الوحيد في تصحيح مسار الظواهر الاقتصادية والاجتماعية . ولما رأى بعض العلماء ، أن الظواهر تخضع لقوانين شبيهة بالقوانين الطبيعية لقي (فرضه) مقاومة عنيفة من مبدأ الأمر ، ثم أخذت هذه المقاومة في الضعف ، عندما كشف الباحثون عن بعض القوانين الاقتصادية والاجتماعية<sup>(١)</sup> .

### الصياغة العلمية للفروض :

لأن الهدف الأساس من الفروض ، هو تسهيل البحث ، فإن الفرض الغامض ، وغير المحدد ، لا يمكنه أن يحقق هذا الهدف . من هنا وجب تحديد الفروض ، في صيغ واضحة ، ومميزة ، يمكن التحقق من صدقها . والتردد الذي يبدو في بعض الفروض هو العامل في إسقاطه ، إذ إنه يصبح مثل كلمات الدبلوماسيين ، يحتمل عدة أوجه ، بعضها صحيح ، وبعضها باطل ، وهذا يشكل أكبر خطر على العلم .

### الاقتصاد في وضع الفروض :

لا يمكن للفرد أن يتحقق من صحة فرضين في آن واحد ، ولذلك يجب أن يقتصد في وضع الفروض ، وأن يتدرج في التثبت من مدى صحتها فرضاً فرضاً ،

---

(١) المصدر ، ص ١٨٢ .

لأنه لو لم يفعل ذلك وجد نفسه عاجزاً عن البحث عنها .

وعلى الباحث أن ينوع الفروض في أنواع ، ويدمج الواحد بالآخر ، ليتمكن بالتالي من إجراء بحوث أولية فيها ، فإذا بلغ مفترق الطرق قسّم الفرض المندمج ، إلى فروض عديدة ، وهكذا . . . وقد قام كبلر بدراسة عدة فروض ، حتى وصل إلى نظريته الصحيحة ، في أن مدار الكواكب هو بشكل بيضاوي ، ولكنه لم يدرس فرضاً إلا بعد التأكد من بطلان الفرض السابق .

وبقيت لنا في الفروض كلمتان : الأولى ، في مدى تأثير الفروض ببصيرة التناسب ، والثانية ، في البحث عن مجموعة فروض متناسقة والتي تسمى بالنظرية .

### الفروض وبصيرة التناسب :

منذ بداية المنهج العلمي وحتى نهايته ، أي منذ الملاحظة مروراً بالفرض وانتهاءً بالتجربة ، تقف كل المناهج حائرة في أنه كيف يتم فهم السبب وربط الظاهرة به . فمثلاً في باب الفرض وكيفية وضعه ، يقول كلود برنارد : « إننا لا نستطيع أن نضع قواعد للإختراع في العلم ، ولا أن نعلم القواعد التي يمكن أن تراعى في إنشاء الفروض ، بحيث نأتي بفروض جيدة لأن هذه المسألة فردية خالصة »<sup>(١)</sup> .

ويقول الدكتور البدوي : « فنحن هنا بإزاء ما يمكن أن يسمى باسم (التوسم) أي اكتشاف العلة الحقيقية ، بطريقة لا تسير على أساس البرهان المنطقي ، أو تبدأ من الظواهر مباشرة ، وهذا التوسم يتم بمرانٍ طويل ، وبإعداد يختص بالنظام التحليلي لكل عالم على حدة »<sup>(٢)</sup> . وهذا القول صحيح نسبياً ، إذ أن وضع الفروض ، نابع من الحدس القوي ، وهو لا يخضع لنظم دقيقة ،

---

(١) و (٢) عبد الرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي ، ص ١٤٨ .

ولكن لا يعني هذا عدم وجود أية فكرة عن طبيعة الحدس ، وعن طريقته في وضع الفروض ، أو حتى في معرفة القوانين العلمية ، إنما يعني إهمال المنهج الحديث لهذا الجانب ، وهو إهمال مضر جداً إذ أنه مرتبط بأهم حلقة في سلسلة المنهج التجريبي ، وهي البصيرة الذاتية ، التي بدونها لا تنفع الأساليب ، أنى كثرت وتنوعت ، فما هي طريقة الفرض الصحيح وما هي العوامل الذاتية التي تؤثر فيه ؟

أولاً : سبق الحديث عن الذوق الفطري ، والحدس السليم ، وهناك قلنا أن الحدس السليم ، يعتمد على عاملين أساسيين ، أولهما هضم المعلومات السابقة بشكل جيد ودمجها إلى بعضها ، وكثرة النظر فيها ، وفي الصلة بين بعضها والبعض الآخر ، والثاني الثقة بالعقل ، والجرأة في النظر ، وهذان الأمران يرتبطان بالفرض أيضاً .

ثانياً : من القواعد الأساسية في الفكر البشري ، قاعدة التشابه أو التناسب . فهذه القاعدة يكشف الإنسان كثيراً من الأسرار . وهذه القاعدة تعني أن الشيء يتفاعل مع أي شيء آخر ، يعطيه ويأخذ منه ، ضمن محور التناسب ، فالكبير يعطي كثيراً ويأخذ كثيراً والصغير بالعكس ، والحر يولد الحرارة والبارد البرودة ، وهكذا . . . والذي يوجد في زمان معين ، لا بد أن يتفاعل مع ما يتناسب معه ، فهذه القاعدة مثلاً نعرف أن هذه الحرارة وليدة هذه النار لأنها تتناسب في حجمها وقوتها ، وزمانها و . . . وأشياء أخرى مع النار . وإذا رأينا ريشة سقطت في البحر ، لا نفكر أبداً في أن تكون هي العلة في إحداث أمواج البحر ، إذ أن الظاهرتين لا تتناسبان . وليس التناسب في أشياء معينة فقط ، إنما بصيرة الإنسان مزودة بقدرة على معرفة التشابه ، بين ظاهرتين ، وبالتالي ، معرفة ارتباطهما ببعضهما . وبصيرة التناسب هذه هي حجر الزاوية في الكشف عن السنن الكونية ، وهي قد تهدينا بشكل غامض ، فتولد فروضاً وقد تهدينا بصورة جازمة ، فتولد التعميم والقانون العلمي ، وعلى الفرد أن ينمي في نفسه هذه البصيرة ليستطيع وضع فروض جيدة . فقبل (اختراع) الفرض ، يوجه اهتماماً



مركزاً إلى ما يشاهده في الخارج ، ويفكر كثيراً في ارتباطها ببعضها ، وعلاقاتها الداخلية ، وبعد تركيز تام تتفتح بصيرته ، ويضع فرضاً ، وغالباً يكون فرضه صحيحاً .

من هنا لا يكون وضع الفروض نابعاً من الإلهام وحده ، بل مرتبطاً بالتركيز في المعلومات ، من زاوية علاقاتها ببعضها ، والبصيرة هذه مركبة من عدة عناصر ، إليك بعضها :

١ - إن كل شيء مرتبط بسنة فطرية لا يحيد عنها ، وهذا يدعونا إلى البحث عن تلك السنة ، والقانون المرتبط بها ، وتدعى بالجبرية العلمية .

٢ - إن هناك تماثلاً كاملاً بين سنن الحياة ، ففي المجرة مثلاً ، تتحكم ذات السنن ، التي تسود الذرة . وكما قال الإمام علي عليه السلام : « إن خالق النحلة هو خالق النحلة » ، وهذا ينفعنا في الإستلهام ، مما نعرف من سنن الحياة لاكتشاف ما لا نعرف .

٣ - إن هناك اتصالاً زمنياً ومكانياً بين الظواهر المتفاعلة ، إذ إن الحياة لا تعرف الطفرة ، فلا يدع الماء ، مثلاً ، الشاطئ المجاور له ليبلل تراب الصحراء البعيدة . وهذا الاتصال يفسر لنا كثيراً من أنواع التناسب ، في ظواهر الكون . فمثلاً حينما نريد أن نعرف كيفية حدوث ظاهرة من الظواهر الضوئية . يجب أن نبحث عن الخط الموصل بين سبب الضوء والشيء المضاء به .

هذه بعض القواعد التي تستلهم البصيرة ، منها وضع الفروض ، وهناك بالطبع قواعد أخرى أشرنا إلى بعضها سابقاً .

### بين النظرية والفرض :

لم يبحث المناطق هنا عن النظرية ، ولكن يبدو البحث عنها ضرورياً لأنها مرحلة متقدمة من الفروض ، إذ - بعد أن يتكون عند الباحث مجموعة من الفروض

التي يضعها لتفسير المشاهدات - يأتي دور النظرية ، وعلينا أن نلقي ضوءاً عليها لأنها تخدم المنهج التجريبي كثيراً<sup>(١)</sup> ويشمل حديثنا بالترتيب : تعريفها وتركيبها ووظائفها .

#### أ - تعريف النظرية :

الفرض ، كما سبق ، هو صياغة علاقة مفسرة لعدة ملاحظات متنوعة والنظرية تقوم بذات الدور ، إلا أن موضوعها هو الفروض . من هنا كانت حقيقة النظرية ( مجموعة من المتواضعات<sup>(٢)</sup> خلقها صاحب النظرية ) . وهذا يعني أن صاحب النظرية يبدعها ، كما يبدع صاحب الفرض فرضه ، إلا أنه ( يجب أن تتضمن النظرية مجموعة من الفروض ، ذات الصلة بموضوعها ، يرتبط بعضها ببعض الآخر ارتباطاً منظماً ، كما يجب أن تتضمن مجموعة من التعريفات التجريبية ) .

#### ب - تركيبة النظرية :

وهذا التعريف أو التفسير يسمح لنا بمعرفة تركيبة النظرية الداخلية ، وهي :  
- لا يمكن أبداع نظرية ، قبل وجود فروض مفسرة لمشاهدات أو تجارب ،  
إذ إن موضوع النظرية هو الفروض ، فهي تفسير لهذه الفروض لا أكثر .

- وجمع الفروض إلى بعضها لا يكفي في وضع النظرية ، بل لا بد من ( إيجاد ) علاقة تفسيرية بينها . وهذه العلاقة هي من صنع واضع النظرية ، وليست مدلولة للتجارب مباشرة ، وإلا سميت قانون علمي لها نظرية فـ ( يجب أن

---

(١) اعتمدنا في هذا الفصل على مقدمة كتاب نظريات الشخصية للمؤلفين ك - هول . وج . لندزي - ص ٢٣ - ٢٩ ، وما وضعنا بين قوسين في هذا الفصل فهو منقول عن هذا المصدر .

(٢) أي مجموعة فروض أخذت على شكل مسلمات ، كأنها حقائق فعلاً وبتعبير آخر مجموعة أفكار أخذت على أنها مسلمات .

تكون هناك قواعد للتفاعل المنظم بين الفروض ، ويجب لكي يتوفر للنظرية التناسق المنطقي ، ولكي تسمح بعملية الاشتقاق ، أن تكون هذه العلاقات الداخلية واضحة . وبدون هذا التحديد النوعي يصبح من الصعب ، أو المستحيل ، استخلاص نتائج تجريبية من النظرية ( وكمثل على نوعية العلاقة التي يجب توفرها في النظرية بين فرضين ، أو عدة فروض ، نقول : ( إن المرء يستطيع أن يفترض أن ازدياد القلق ، سيؤدي إلى انخفاض الأداء الحركي ، ويمكن - بالإضافة إلى ذلك - أن يفترض أن ازدياد تقدير الذات ، سيؤدي إلى تحسن في الأداء الحركي ) . هذان فرضان ولكنهما لا يشكلان نظرية إذ إننا ( إذا لم نعرف شيئاً أكثر من ذلك ، فإن العلاقة بين هذين الفرضين ، ستكون - كما هو واضح - غير محددة ، إذ إننا نحتاج إلى معرفة شيء عن العلاقة بين القلق وتقدير الذات ، قبل أن نستطيع القيام بأي تنبؤ بما يمكن أن يحدث ، في ظل ظروف يدخل فيها المتغيران ( القلق وتقدير الذات ) من هنا يمكننا أن نقرر ( أن الصياغة الكافية للفروض النظرية ، يجب أن تزود مستخدم النظرية ، بتحديد واضح للعلاقة بين هذين الفرضين ) .

- لأن الهدف من النظرية هو كالمهدف من الفرض ، تمهيد السبيل إلى مزيد من البحث ، فإن الوضوح هو أمر هام في وضع النظرية ، لذلك يجب أن تشمل النظرية ، على تعريفات واضحة جداً ( وكثيراً ما تسمى هذه التعريفات ، بالتعريفات الاجرائية ) في مقابل التعريفات النهائية ( إذ إنها تحاول أن تحدد العمليات التي يمكن بها قياس المتغيرات ) ( وإذا كانت النظرية ستسهم في نهاية الأمر في علم تجريبي ، فلا بد أن تتوفر لها طريقة للترجمة التجريبية ) .

### ج - وظائف النظرية :

وليست هذه التي سنذكرها فقط وظائف النظرية ، وإنما هي أيضاً شروط النظرية ، إذ النظرية التي لا تؤدي هذه الوظائف ، ليست نظرية أبداً .

وهي ، أولاً ، كما الفرض إذ تقوم النظرية بتسليط الأنوار على مناطق مظلمة من الموضوع ، وتوجه الإنسان إلى ملاحظة علاقات لم تُلاحظ من قبل .

( إن جوهر أي علم ، يكمن في اكتشاف علاقات تجريبية ثابتة بين الوقائع ، والمتغيرات ، ووظيفة النظرية أن تدفع خطي هذه العملية بطريقة منظمة ) .

و ( في الحالة التالية ، تسمح النظرية باشتقاق فروض نوعية قابلة للاختبار ، وهذه بدورها تؤدي إلى دراسات تجريبية نوعية ) . ومن هنا نعرف أن أهم صفة تتسم بها النظرية هي توجيه الباحث إلى مسار البحث والسماح له بمزيد من التجربة ، ولذلك من هنا فلا بد أن تكون النظرية ممكنة التجربة أو الاستدلال ، ولا تكون كالنظريات الفلسفية ، التي لا يمكن قياسها أو تقييمها .

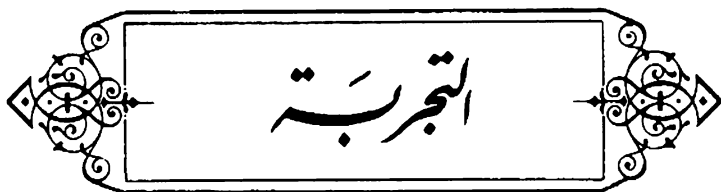
ثانياً ، لأن النظرية هي مرحلة معينة من البحث ، فلا بد أن تكون هناك تجارب سابقة عليها ، وتجارب لاحقة . بالنسبة إلى التجارب اللاحقة ، لا بد أن تكون النظرية هادية إليها ، مثيرة للدواعي إلى الثبت عنها ، وبالنسبة إلى التجارب الماضية يجب أن تكون جامعة لها ، ومستوحاة منها ( إن النظرية وسيلة لتنظيم وتكامل كل ما هو معروف عن مجموعة متصلة من الوقائع ، فالنظرية الكافية للسلوك الذهني يجب أن تكون قادرة على تنظيم كل ما هو معروف عن الفصام وغيره ، في أشكال الذهن ، في إطار مفهوم ومنطقي . كما أن نظرية التعلم الكافية يجب أن تتضمن بطريقة متناسقة جميع النتائج الموثوق بها ، والتي تتناول عملية التعلم . إن النظريات تبدأ دائماً ، بذلك الذي تمت ملاحظته وتقريره ) .

ثالثاً ، لأن النظرية تقوم بجمع الوقائع ، إلى بعضها في علاقة متبادلة ، فإنها تنظم هذه الوقائع في خطوط معينة ، وهذا التنظيم ينفع الباحث في القدرة على الملاحظة ، إذ لو كانت المشاهدات ، أو الفروض ، غير منتظمة ، احتار الباحث بينها وتعقد بسببها ( بينما تسمح النظرية للملاحظ القيام بالتجربة ، من

التعقيد الطبيعي بطريقة ، تتسم بالكفاية ، والتنظيم ) . من هنا ، لا تكون النظرية نافعة ، إلا إذا كانت ذات وضوح كامل ، خصوصاً فيما يتصل بالفروض ، التي يجب التجربة فيها . وكلمة أخيرة ، النظرية تتسم بطابع إجرائي ، بمعنى أنها ليست صادقة أو كاذبة ، بل نافعة أو غير نافعة ، وبقدر ما تفيدنا النظرية في فتح مجالات جديدة للبحث ، تكون نافعة ( إن النظرية ، إما أن تكون مفيدة فقط ، أو غير مفيدة فقط ويتحدد ذلك أساساً كما سوف نرى طبقاً لمدى كفاءة النظرية ، في توليد التنبؤات ، أو القضايا المتعلقة بالوقائع الهامة . والتي يثبت التحقق منها ) .

القسم الرابع  
عن مناهج الاستقراء

البحث الرابع عن :



- كلمة البدء .
- التجربة والعقل .
- أسس التجربة .
- بين التجربة والملاحظة .
- التجربة بين التحديد والارتجال .
- التجربة السلبية .
- التجربة الموضوعية .
- مفارقات التجربة .
- طرق التجربة .
- لوائح يكون ومناهج مل .
- منهج الاتفاق .
- منهج الاختلاف .
- طريقة التلازم في التغير .
- طريقة البواقي .



## كلمة في البدء

بعد وضع الفرضية علينا أن نبحث عن الوسيلة ، التي نتحقق بها من صحتها ، وقبل أن نستعرض هذه الوسيلة يجب ان نعرف .

أولاً : إن أقرب وسيلة للتحقق من فرض ، هو إفساد كل الفروض المحتملة المضادة له ، بحيث يبقى الفرض هو السيد الوحيد في الموقف . ولكن هذا الأسلوب لا يمكن اتباعه في كل الحالات ، لصعوبة إثبات بطلان الفروض الممكنة جميعاً .

ثانياً : لا ينفعنا في إثبات فرض ، دلالة بعض الظواهر عليه ، إذ قد توجد ذات الظواهر في فرض آخر مضاد له ، بل يزيد عليه ، مثلاً : هل يكفي وجود تشابه بين شخصين ، على بيان أن أحدهما والد الآخر ؟ لا ، لأنه قد يوجد تشابه أكثر ، بين أحدهما وشخص ثالث ، وهكذا . تكون العبرة ، بالحالات المضادة للفرض ( إذ ان حالة سلبية واحدة تكفي في البرهنة ، على فساده - الفرض - في الوقت الذي تعجز فيه حالات ايجابية عديدة ، عن إثبات صدقه )<sup>(١)</sup> .

اللهم إلا إذا كانت الآثار واضحة الدلالة ، بشكل لا يقبل الشك .

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ١٨٦ .



ثالثاً : ولهذه الجهة ، فعلى الفرد أن يثير ، في نفسه الشك ، في دلالة الظواهر بحجة إمكانية وجود دلالة ثانية لذات الظواهر ، لتدل على فرض مختلف عن فرضه .

رابعاً : الحديث القادم يبحث عن طريقة تحقيق الفروض عن طريق التجربة الخارجية ، أما طرق تحقيقها بالسبل العقلية فالحديث عنها مرتبط بالمنطق القياسي الذي بحثناه في فصل آخر من هذا الكتاب .

### التجربة والعقل :

وضع المناطق مناهج للاستقراء ، وعلينا أن نلقي نظرة عامة عليها ، قبل أن نخوض في التفاصيل ، ذلك لكي نعرف مدى قيمة هذه المناهج فنكون أفضل استخداماً لها . وفي البدء نعيد إلى الذهن : أن التجربة ذاتها معتمدة على العقل ، وهي لا أكثر من مجرد ( إثارة للبصيرة العقلية ) ولذلك تصبح كل المناهج التالية خالية من القيمة الأساسية لها ، بل وعقيمة أيضاً إذا لم يتزود الفرد بتبصر عقلي وانفتاح ذهني ، مثلاً : طريقة البواقي هل نستطيع الاعتماد عليها كلياً ، ودون الاعتماد على العقل ؟ بالتأكيد لا ، كما سيأتي إنما يجب الاعتماد على بصيرة التناسب العقلي ، وإنما بطريقة البواقي نقوم باستجلاء هذه البصيرة ، وإثارتها .

إذاً الاعتماد الأعمى على هذه المناهج خاطئ ، إنما يجب أن نجعلها وسائل لإستارة العقل فقط . بعد هذه المقدمة يأتي السؤال ما هي التجربة ؟ وما هي أسسها ؟

### أسس التجربة :

التجربة ، كما نعلم ، تدخل بشري في ظروف وقوع الظاهرة ، وهذا التدخل ، يتم عن طريق تغيير في هذه الظروف ، ثم ملاحظة التطورات ، بوعي

كامل ، فأساس التجربة - إذأ - هو تطوير الظروف وتغييرها . والتغيير يتم بعدة طرق :

- تغيير مصدر الظاهرة من مصدر إلى مصدر آخر ، وذلك مثل أن نبحث عن الحرارة فننوع مصادر الحرارة من الشمس ، إلى النار ، إلى حرارة الكائن الحي ، وهكذا . . . وهناك نعرف الصفات العامة للحرارة التي لا ترتبط بتنوع مصادرها ، ويدعى هذا بـ ( قائمة الحضور ) أي حضور الظاهرة بحضور مصادرها .

- تغيير في مصدر الظاهرة ، من مصدر إلى عكس المصدر ، أي ملاحظة الظاهرة في حالة وجود ذلك المصدر ، وعدم وجوده ، مثل ملاحظة الحرارة في حالة عدم وجود الشمس ، أو عدم وجود النار ، وهكذا . . . وهذا يدعى بـ ( قائمة الغياب ) .

- تغيير المصدر من ناحية الشدة أو الضعف ، مثل : قياس الحرارة مع استمرار النار ، أو مع شدتها ، أو مع ضعفها ، أو ما أشبه ، مما يمكن تغييره في مصدر الحرارة ، ثم قياس مدى الاختلاف الذي ينشأ في الظاهرة ، مع هذه التطورات وهذا يدعى بـ ( قياس المتغيرات ) .

- التغيير في محل المصدر ، مثل قياس حرارة الشمس في أعلى الجبل ، أو في أسفل الوادي ، وهكذا مما يمكن تغييرها بسببه .

- تغيير أي ظرف آخر متصل بالمصدر ، أو متصل بالظاهرة ، ثم ملاحظة ما إذا كانت الظاهرة مرتبطة بالمصدر ، أم لا ومشاهدة نوعية هذا الارتباط ، ومدى قوته وضعفه . من هنا نعرف أن تنوع الظاهرة ، ومشاهدات التغييرات التي تطرأ عليها بسبب هذا التنوع ، هو أساس التجربة . ومن هنا نجد أن كبار العلماء حينما أرادوا أن يتأكدوا من صحة ما افترضوه من صلة العلية بين مقدمات ونتيجة ، حاولوا أن ينوعوا التجارب . كما نصح بذلك ببيكون من قبل . فكانوا يستخدمون مواداً مختلفة ، حتى لا يكون لهذه الأمور العرضية دخل في إحداث الظاهرة ،

فجاليلو في بحثه لقانون سقوط الأجسام ، قد استخدم أجساماً من الحديد والنحاس والعاج الخ . ونيوتن في تجاربه على البندول قد استخدم أنواعاً مختلفة من البندولات ، من الفضة ، والنحاس ، والمعدن ، وكل هذا من أجل أن لا تكون الظاهرة قد حدثت لأسباب عرضية أخرى تتعلق بالمادة .

### بين التجربة والملاحظة :

بين التجربة والملاحظة فرق بسيط ، هو أن الملاحظة ترُقّب لظاهرة طبيعية ، بينما التجربة ترُقّب لظاهرة يصنعها الإنسان . وهذا الفرق هو الذي يجعل التجربة أقرب إلى النتيجة العلمية ، وذلك لأنها تتميز بعدة سمات :

- لأن التجربة ، هي (صنع) الظاهرة ، ولأن الباحث لا يصنع ظاهرة ، إلا لهدف علمي مجرد ، هو الكشف عن شيء معين ، فإن التجربة تتم على عينات قريبة جداً إلى موضوع البحث ، فالملاحظ ، مثلاً ، يراقب بدقة البرق ، والمجرب يصنع الشرارة الكهربائية والملاحظ لا يستطيع أن يرى البرق وحده ، ودون أن يدوخه صوت الرعد ، كما لا يمكنه أن يمدد وقت البرق ولا أن يراه ، في وقت يتناسب مع ظروفه وحالاته ، بينما المجرب يستطيع أن يصنع الشرارة وحدها وبدون إزعاج الرعد ، وأن يمددها ويوقتها بزم يتناسب معه ، وتحديد الهدف ، أهم ميزة للتجربة ، ولذلك تكون التجربة التي لا هدف لها أشبه شيء بالملاحظة .

- الملاحظة مراقبة فورية للظاهرة المركبة ، من دون نفوذ إلى عناصرها الذاتية الداخلية ، فهي لا تستطيع تحديد هذه العناصر بالدقة ، ولا مدى تأثير كل واحد منها في صنع الظاهرة ، فمثلاً لا يستطيع المرء بملاحظة حالة الثورة في البلد أن يعرف مدى تأثير العامل الإقتصادي فيها ، أو أي عامل آخر ، إنما يستطيع أن يفهم صفات الثورة الخارجية .

بينما التجربة تحلل كل ظاهرة ( مما يمكن تحليلها ) إلى عناصرها الذاتية ،

وكانها دراسة من الداخل للظاهرة ، وبعدئذ تعرف على نسبة كل عنصر في تكوين الظاهرة ، فمثلاً : يستطيع المجرب تحليل الماء إلى عنصريه ، وتحديد نسبة كل عنصر إلى العنصر الثاني ، وذلك كمقدمة لمعرفة خواص كل عنصر منهما . وبكلمة ، التجربة دراسة من الداخل لعناصر الظاهرة وتحديد نسبها وصفاتها .

- وكما تستطيع التجربة تحليل الظاهرة تستطيع تركيبها ، ولكن ليس بالشكل الطبيعي ، وذلك بهدف الوصول إلى عناصر جديدة بالمرة . من طريق التجربة ، استطاع الإنسان أن يؤلف بين النحاس والقصدير والرصاص ، ليصنع معدناً جديداً هو (البرونز) ، واستطاع الإنسان أن يصنع ملايين التركيبات الكيميائية ، ذات الآثار المتنوعة .

- والوقت الذي تختاره للتجربة ، هو الوقت الذي يناسبك ، بينما وقت الملاحظة يناسب الطبيعة ، لأنها هي التي تصنع الظاهرة ، كما أن المدة التي تستغرقها الظاهرة ، والمكان ، وسائر السمات ، لا يمكن التحكم فيها في الملاحظة بعكس التجربة ، مما يجعل الفرق بينهما كبيراً في النتائج ، إذ أن الملاحظات تسبب في تدخل الأوضاع الشخصية للباحث في نتائج ملاحظته ، بعكس التجربة ، وبذلك : ( نتائج الملاحظة تختلف باختلاف الملاحظين لأنهم ليسوا سواءً في قوة حواسهم ، وسرعة خاطرهم ، وفي القدرة على فهم ما يلاحظون ، أو تأويله تأويلاً علمياً صحيحاً ) .

ولكن مع ذلك تحتفظ الملاحظة ، بقيمتها البحثية في أمرين ، الأول : أن التجربة لا يمكن حصولها في بعض العلوم كالسياسة والفلك والاقتصاد ، الثاني : أن دراسة الظاهرة الطبيعية دراسة حية ميدانية ، ولذلك فهي توحي إلينا بروح الطبيعة ، والتي تحمل أكثر من مجرد فهم لنقطة واحدة ، بل فهماً شاملاً لمسيرتها العامة ، وبذلك يحتاج الباحث القدير إلى الملاحظة ، لشمولها وحيويتها ، ويحتاج إلى التجربة لموضوعيتها ودقتها ، وهما بالتالي كجناحي طائر .

## التجربة بين التحديد والارتجال :

إذا لم تكن لديك فرضية سابقة ، تريد التعرف على مدى صحتها ، كانت تجربتك ارتجالية لأنها لا تهدف تحقيق ، أي شيء معين . فالتجربة المرتجلة هي تدخل في الطبيعة ، لرؤية آثارها أنى كانت ، وهذه التجربة تفيدنا في مرحلة ما قبل البحث ، حيث نحتاج إلى وجدان رأس الخيط ، في عملية البحث . ( فبالجربة نخلق اضطراباً في الطبيعة ، قد يوحى إلينا بفكرة جديدة ، ويهدي خطانا بالتالي إلى الحقيقة ! وكثيراً ما تستخدم هذه التجربة في علم وظائف الأعضاء ، وعلم الطب وعلوم الحياة بصفة عامة . فمثلاً قد نقطع بعض الأعصاب من معدة حيوان ، لرؤية التغيرات التي تترتب على ذلك في وظيفة الهضم ، وللمقارنة بين عملية الهضم في حالة طبيعية ، وبينها في حالة غير طبيعية )<sup>(١)</sup> . ومن هنا نعرف أن التجربة المرتجلة ، ضرورية لمرحلة سابقة على مرحلة التجربة المحددة ، إذ إن الأولى تعطينا فكرة غامضة عن الموقف ، والثانية تقوم بشرح غموضها واستيضاحها . من هنا كانت التجربة المحددة سلفاً أفضل من غيرها ، وقد قال أحد العلماء : لا ريب في أن التجربة المرتجلة تستخدم في كثير من الأحيان كما لو كانت ضربة مسير في عالم المجهول ، لكن من الواجب ألا توجه هذه الضربة ، إلا بناءً على فكرة سابقة توجه العالم في بحثه ، كذلك يجب على المرء ألا يجرب أبداً جرياً وراء الصدفة ، أي لرؤية ما قد يترتب على التجربة ، إذ في ذلك القضاء على التفكير التجريبي<sup>(٢)</sup> .

## التجربة السلبية :

الحالات الإستثنائية ، التي توجد في الطبيعة ، ذات قيمة علمية كبيرة ، إذ إنها تبين لنا طبيعة العوامل التي قد يؤثر الواحد منها إيجابياً أو سلبياً في الظواهر .

---

(١) المصدر ، ص ١١٨ .

(٢) المصدر ، ص ١١٥ .

فحالة الثورة في بحوث الإجتماع ، وحالة المرض في الجسم ، وحالة الوباء في البيئة ، حالات استثنائية نفيدها الباحثين كثيراً ، ولكن بشرط سلامة الطريق المستخدم لدراستها ، وهي :

- مراقبة حدوث الظاهرة الإستثنائية ، والخط البياني لتضاعدها والأعراض التي تصاحبها .

- مراقبة جميع الظواهر المحيطة بها ، والتي قد تؤثر بشكل من الأشكال في الظاهرة .

- دراسة المناطق أو الأوقات التي تخلو من هذه الظاهرة الشاذة ، وتسجيل السمات البارزة فيها ، والتي قد يمكن أن تكون مانعة عنها . ومثال هذه التجربة : أن الطبيب يلاحظ انتشار مرض الوباء في قطر من الأقطار ، وهذه ظاهرة شاذة يمكن الاستفادة منها ، ولكن كيف يتم ذلك ؟ في البداية يجب مراقبة حدوث الظاهرة وتسجيلها ، والخط البياني لأعراضها ، وبعد هذه المراقبة لا بد من فحص بعض المرضى والظروف المحيطة بهم ، والتي تساعدنا على البند الثاني ، وهو مراقبة الظواهر المحيطة بالظاهرة من ظروف صحية<sup>(١)</sup> ( كنقص في بعض المواد الغذائية ) أو أوضاع جوية . وهنا يتم ربط الظاهرة ، ببعض الظواهر فمثلاً بين الوباء وبين اشتداد الحرارة أو الرطوبة ، ولكن الخبير الباحث لا يقتصر على تسجيل هذه الظواهر ، بل يدرس المواقع التي لا وباء فيها ، وقيس درجة حرارتها ، وحالة أهلها الصحية ، وما أشبه . وهذا البند الثالث هو الذي يلحق هذا البحث بالتجربة ، بالرغم من أنها تشبه الملاحظة ، والسبب هو أن الانتقال من محل إلى آخر ، ودراسة أناس مختلفين ، يشبه تدخلاً في الطبيعة ، وظاهرة الوباء حالة شاذة في مجال الصحة وتشبه ظاهرة الثورات في المجتمعات ، التي تدرستها بذات المراحل الثلاث الماضية ، ومثلها ظاهرة العقد النفسية في علم

---

(١) المصدر ، ص ١٣١ .

النفس ، والتي يعالجها فرعٌ خاص في هذا العلم يسمى بعلم النفس التحليلي .  
التجربة الموضوعية :

كيف تكون التجربة موضوعية حتى تكون سليمة ومنتجة ؟ بالضبط عندما تكون خالية من عوامل الخطأ النفسية ، والإجتماعية والمصلحية والمنهجية والمادية . فالتجربة التي يقوم بها الفرد في ظروف نفسية شاذة ، والتجربة التي تتم لإثبات نظرية مختارة سلفاً ، والتجربة التي يتبني الشخص من ورائها أهدافاً مصلحية كالشهرة والثروة مثلاً ، والتجربة التي لا تكتمل فيها الشروط المنهجية ، أو المادية ( كالوسائل العلمية ) هل يمكن أن تكون هذه الأنواع من التجارب ناجحة ؟

وبالتالي ، لا تكون التجربة موضوعية ، ومفيدة ، إلا إذا استعرض الباحث جميع الظروف ، والظواهر المحيطة بتجربته ، وأحصاها إحصاءاً ، إذ قد تكون هناك ظاهرة تخفى عليه ، وتكون ذات قيمة علمية في بحثه . ويجب أن يحصر انتباهه في تسجيل النتائج التي تؤدي إليها تجربته ، ويحدد الظروف التي يجري خلالها تجربته ، حتى لا تكون ذات أثر عكسي عليها ، ويجب أن يجمع بين دقة الملاحظة ووفرة المعلومات ، إذ لا تغني الواحدة عن الأخرى . ( ويجب على الباحث أن يعرف كيف يروض هواه ، وهذه المرونة جزء جوهري من حسن السياسة في العلم كذلك . يجب عليه أن يتصف ، إلى جانب ذلك ، بقليلٍ من الإعتزاز بالنفس ، وكثيرٍ من الإحتقار للغرور<sup>(١)</sup> .

ويجب أن يكون عنده حسن الإستماع إلى الطبيعة حين تتكلم ، ذلك لأن المجرب يوجه أسئلته إلى الطبيعة ، ولكن بمجرد أن تتكلم الطبيعة ، يجب عليه أن يلزم الصمت ، وأن يلاحظ ما تجيب به ، وأن يسمعها في النهاية ، وأن يخضع في جميع الحالات لما تمليه عليه . يقولون : يجب على المجرب أن يقهر

---

(١) المصدر ، ص ١٣٢ . عن (رينيه لوريش) .

الطبيعة حتى تكشف له عن أسرارها لا ريب في ذلك ، لكن يجب عليه أن لا يجيب مطلقاً بدلاً عنها .

### مفارقات التجربة :

وإذا كان أساس التجربة مبنياً على معرفة التغيرات التي تطرأ على الظاهرة ، بسبب تغيرات في ظروفها المحيطة بها ، فإن هناك مواقع للإلتباس ، تنشأ في التجربة ( ونسميها بالمفارقات ) وهي تنشأ من عدة أمور :

١ - من الجمود الفكري ، الذي سبق وسيأتي بعض الحديث عنه ، والذي يعني أن نستعيز عن التفكير والبصيرة العقلية بالمناهج ، إذ إن هناك سنناً عقلية ( بصائر قلبية ) ، أو بتعبير آخر ، مناهج يعتمد عليها العقل ، يجب أن لا نستخف بها في بحثنا عن الدقة ، فيكون مثلنا مثل ذلك الذي يهتم بالأنهر ، ولا يهتم بالعيون ، وإنما كان اهتمامه بالأنهر لأنها تحمل إليه مياه العين . كذلك المناهج ، إنما هي نتيجة استثارة العقل ، وهي استنباط لبعض قوانين العقل ، في معرفة الأشياء ، ولا يجوز لنا الجمود عليها ، ونسيان عقولنا ، إنما يجب أن نستفيد منها في إغناء عقولنا وإذكاء نورها ، وبصيرتها ، وبذلك تكون المناهج ذات روح وذات نفع كبير .

٢ - إن الظاهرة الواحدة قد تكون وليدة عدة مصادر ، فتكون حرارة اليد ، مثلاً ، وليدة نور الشمس ، وحرارة المدفأة ، وحرارة الدم ، وهنا حين يتغير مصدره ، كما إذا غابت الشمس مثلاً ، تبقى الحرارة موجودة ، فلا يجوز لنا إذاً أن نحكم مطلقاً على أنه إذا فقدت الشمس ، وبقيت الحرارة ، فإن ذلك يدل على أن الشمس لم تكن مصدرًا للحرارة .

أو قد يكون هناك مصدر واحد سبباً للظاهرة ، ولكننا ، حين نعدمه ، يأتي مصدر آخر ، فيجلس مكانه . ظاهرة التكلم مثلاً ، مصدرها في المنح هو (بروكا) ولكن من آيات الله إنه حين نزيل (بروكا) تقوم سائر خلايا المنح مقام



(بروكا) ، مما جعل العلماء في حيرة لفترة من الوقت ، إذ لا يمكن الاعتماد كلياً على قائمة الحضور والغياب ، ومعالجة هذه المفارقة ممكنة بملاحظة درجة الحرارة شدة وضعفاً ، ومن ملاحظة سائر الظروف المحيطة بحذر ووعي . فمثلاً طبيعي أنه إذا فقدت الشمس ثقل حرارة اليد في المثل الأول ، إلا إذا ارتفعت حرارة الجسم فجأة ، وهذا إذا حدث يمكن مراقبته ومعرفته بالقياس إلى سائر الأعضاء مثلاً . وفي المثل الثاني ، يمكن تمييز حالة الإنسان الذي لم يقطع منه العضو (بروكا) ، وحال غيره في قدرته التامة على الكلام ، أو عدم قدرته التامة ، وبالتالي نستطيع معرفة مدى تأثير الظاهرة على كافة الظروف المحيطة بها ، بالقياس إلى بصيرة تناسب ، التي زوّد العقل بها .

وعندما نتحدث عن مناهج البحث ، عندها نعرف أن أكثر تلك المناهج ، قد تعرضت لنقد العلماء ، بسبب تشابك العلل والأسباب ، ولكن عن طريق الانتباه الشديد ، يمكن رفع هذا الإعتراض ، وحل التشابك ، ومعرفة الأسباب الحقيقية للظاهرة .

٣- لا تنفع التجربة في الأغلب في مجال التعرف على العلاقة السببية بين الشيء والآخر ، وإنما فقط في معرفة ( وجود علاقة ) سواء كانت سببية أو غير سببية ، ذلك لأن أكثر المناهج التجريبية قد جاءت على أساس العلم الحديث ، الذي لا يهتم كثيراً بوجود علاقة سببية ، بل وجود علاقة ما ( كما سبق في بداية الكتاب ) .

ومن هنا فلا يحق لنا أن نسمى وراء فهم السببية من اتباع هذه المناهج .  
بعد هذه المفارقات لا بد أن نلقي ضوءاً على جوهر مناهج البحث التجريبية .

طرق التجربة :

الطرق التي نسمى عادة ( التجريبية ) ثلاثة :

١ - طريقة القياس ، وهي التي تساعد على فهم الظاهرة بالقياس الاستدلالي ، وهذه الطريقة نوعان : نوع يعتمد كلياً على القياس ، وهذا يدخل ضمن المناهج القياسية ، ( في مقابل المناهج التجريبية ) ، ونوع لا يعتمد كلياً على الاستدلال ، بل على المزيج منه ، ومن التجربة ، وهذا ما يأتي الحديث عنه إن شاء الله هنا .

٢ - طريقة الإستقراء ، وهي الطريقة التي سوف نتحدث عنها في البداية ، وهي من صميم المناهج التجريبية .

٣ - طريقة التحليل والتركيب ، وهي طريقة تدخل الإنسان في ظروف الطبيعة بهدف تطويرها ، لما يخدم البحث ، وهي الطريقة الثانية التي نتحدث عنها إن شاء الله .

### الطرق الاستقرائية :

لقد قرر المناطق السابقون طريقة الإستقراء ، إلا أن أول من صاغها في أساليب واضحة كان بيكون ، الذي كان يستهدف من أساليبه تحقيق هذا الهدف : حذف كل ما ليس بسبب ، ليبقى السبب بلا منافس . ولهذا فهو يوصي باستعراض الفروض ومحاولة البرهنة على عدم صحة كل واحد منها ، إما بالاستدلال العقلي ، أو بالتجربة ، وحينئذ يبقى الفرض الصحيح . والسؤال : كيف يتم حذف الفروض غير الصحيحة وإبقاء الفرض الصحيح ؟ الجواب بأمرين : الأول ، بأن نأتي ببرهان ضد كل فرض ، فإذا ثبت البرهان ، سقط الفرض غير الصحيح ، وهذا ما يسمى عندهم بـ ( البرهان الضد ) وفيه يقول الدكتور بدوي<sup>(١)</sup> : « نستبعد من الفروض ما لا يتفق يقيناً مع الحقائق المسلّم بها من قبل ، أو القوانين الثابتة ، ويتصل بهذا المنهج السلبي ما يسميه كلود برنارد باسم منهج برهان الضد ويتصل به أيضاً ما يسمى باسم ( التجريب على بياض ) وذلك

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي ، ص ١٥٦ .

بامتحان الأجهزة في الأحوال العادية ، أو الأوزان بحسب المعايير النموذجية ، كإمتحان الترمومتر في درجة حرارة منتظمة ، أو البارومتر في مستوى سطح البحر ، أو الميزان بوضع ثقلين متساويين ، نموذجين في كلتا الكفتين .

ووظيفة هذا الجانب السلبي من تحقيق الفروض ، هو إسقاط الفروض الباطلة ، وبأية طريقة ممكنة .

الثاني : إثبات صحة فرض ، وذلك عن طريق تنويع التجربة عليه فمثلاً : إذا كان الفرض هو أن الكائن الحي يبعث بحرارة لا بد من تجربة هذا الفرض في الشتاء والصيف ، وفي مختلف أجزاء الكائن الحي ، ومختلف أنواعه حتى يتم إثبات الفرض يقيناً . هذه روح التجارب ، أما وسائلها فهي التالية :

لوائح يكون ومناهج مل :

هناك لوائح يكون ومناهج مل ، وهما يختلفان في أن مل أقرب إلى الطرق العلمية الحديثة من يكون ، لذلك نفضل الحديث مباشرة عن مناهج مل مع الإشارة العابرة إلى لوائح يكون في الأثناء .

منهج الاتفاق :

ويدعوه بكون بقائمة الحضور ، ويعني حضور الظاهرة بأي سبب كان ، ويدعي بكون بقنص الظاهرة في الأحوال المتفرقة ، وتسجيلها في قائمة واحدة ، ليطلع بذلك على المصدر الحقيقي المشترك ، بين المواقع المختلفة . والمثل الذي جاء به بكون هو تسجيله لـ (٢٨) ظاهرة حرارة من مصادر مختلفة ، من حرارة الشمس ، وحرارة الكائن الحي ، وحرارة النار ، وحرارة الاحتكاك . و . و . ولا بد من تسجيل الظاهرة دون الإعتماد على مجرد المشابهة ، أو المعلومات المشوهة ، وتميز هذه المرحلة بتنويع مصادر الظاهرة ، وبذلك نتاح لنا فرصة ملاحظة الظاهرة ، في أحوال متفرقة جداً . ويسمى مل هذه الطريقة بـ ( منهج الاتفاق ) ويقول : علينا أن نلاحظ جميع الأحوال المولدة لظاهرة ما ، لنعرف فيما إذا كان هنالك ، عامل واحد ، يظل باستمرار موجوداً مع الموارد

المختلفة ، وحيثُ نعرف أن هذا العامل ، هو السبب المباشر لتلك الظاهرة . ( ويأتي مل ) بمثل الندى الذي نلاحظه على الزجاج ، أو على لوحة معدنية ، في أحوال مختلفة ، عندما تنفخ عليها ، وعندما يكون طرف منها أبعد من الطرف الآخر ، وفي الليل ، وعندما تستخرج اللوحة من بئر ، وهكذا أن ظاهرة (الندى) نلاحظها في أحوال مختلفة مولدة لها ، ثم نفتش عن ذلك العامل الواحد ، الذي يستمر مع هذه الظاهرة في كل هذه الأحوال ( وهو اختلاف درجة الحرارة بين الزجاج ، أو اللوحة ، وبين الوسط الخارجي ) ونعتقد أن هذا العامل هو فعلاً ، السبب لتوليد هذه الظاهرة . والتعبير العلمي لهذا المنهج هو : إذا كان أمامنا تواجد لظاهرة واحدة في أوضاع مختلفة ، ورأينا أن كل شيء يتنوع في الأوضاع ، سوى شيء واحد ، نعرف أنه هو السبب .

مثال ذلك إذا عرفنا أنه توجد ظاهرة في الأحوال التالية ( أ ب ج ) ( أ د هـ ) ( أ و ز ) عرفنا أن (أ) هو سبب الظاهرة لأن غيره تغير طبعاً . هذا فيما إذا لم يكن هناك ما يتناسب والظاهرة ، أي ما يمكن أن يكون سبباً للظاهرة ، والبرهان العقلي على صحة هذه الطريقة ، هو أن هذه الظاهرة بحاجة إلى علّة ، ولا يوجد ما يمكن أن يكون علّة ، إلا هذا العامل الموجود باستمرار ، لأن غيره يتخلف ، والعلّة لا تتخلف ، فهذا هو السبب والعلّة ، وانتقدت هذه الطريقة بعدة أمور<sup>(١)</sup> .

من الضروري في هذه الطريقة أن يلاحظ الباحث جميع الظروف المحيطة بالظاهرة ، حتى لا يشذ عن قلمه أي شيء ، يمكن أن يكون هو السبب المباشر لوجود الظاهرة . وهذا صعب جداً ، بل يكاد يكون مستحيلًا ، لأن الطبيعة معقدة إلى أكبر حد ، وهي تحتوي على مجموعة هائلة من الأسباب ، والمسببات المتشابهة المتداخلة ، فلا يكفي مثلاً ، أن نقارن بين حالتين أو ثلاث حالات توجد فيها الظاهرة ، حتى نكشف عن السبب في وجودها . ولكن هذا الانتقاد غير

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ١٩٦ .

صحيح ، إذ أنه يكاد يكون تحذيراً ولفت نظر للباحث ، بأن لا يتسرع في الحكم ، إذا وجد بعض الحالات ، فوجد عاملاً واحداً ، مستمراً ، إذ قد يكون هناك عامل آخر ، خفي على المشاهد ، ويكون هو السبب في إيجاد الظاهرة .

هذا بالإضافة إلى أن العقل يقوم بدوره ليحدد لنا إطار الإمكان ، الذي يحتمل أن يوجد - خلاله - السبب ، وهذا التحديد ، ضروري هو الآخر ، فليس من المعقول أن يكون السبب في حرارة اليد مثلاً ، وجود نار في داخل الجسم ، بقدر ما يمكن أن يكون السبب فيها ، وجود الحركة والإحتكاك . كما ليس من المحتمل ، عقلاً ، أن يكون السبب هو يوم الجمعة الذي أجرينا فيه التجارب على الكائن الحي والإحتكاك . . . . . وبتعبير آخر ، حين يقوم العقل بحذف بعض الفروض ، وتقوم التجربة بحذف الباقية إلا واحداً ، حينئذ نحصل على معرفة يقينية بالسبب .

كان هذا نقداً لمنهج الاتفاق ، والنقد الآخر يقول ليس من الضروري أن يكون الظرف الوحيد ، المشترك ، سبباً في وجود الظاهرة ، لأن هذا الإتفاق قد يكون وليد الصدفة ، أو يرجع إلى أن كلا من الظرف المشترك ، والظاهرة المراد تفسيرها ، نتيجة لسبب واحد ، أو عائداً إلى وجود ظرف خفي ، يكون سبباً في وجود أحد الأمرين<sup>(١)</sup> . ولكن هذا النقد أشبه بتحديد دور منهج الإتفاق ، إذ إن هذا المنهج إنما يصح ، فيما لو عرفنا جميع الظروف المحيطة ، وعرفنا - بالعقل أو التجربة - أن العامل الوحيد المستمر ، هو هذا العامل ، فنعرف ، بوجود الملازمة ، وهناك قد يهدينا العقل ، بأن الأول سبب للثاني ، أو العكس ، ذلك أمر آخر .

يضاف إلى هذا ، أن احتمال وجود ظاهرة خفية تنفيها بالبحث الدقيق عنها ثم إن منهج الإتفاق يعتمد على سائر المناهج أيضاً ، وعلينا أن لا تقتصر عليه .

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٩٦ .

ويشترط في هذا المنهج أمور : الأول ، تحديد جميع الظروف المحيطة بالظاهرة . الثاني ، تنوع الملاحظة قدر الإمكان . الثالث ، الاستفادة من بصيرة التناسب في فهم السبب . وهذه الشروط هي خلاصة ما قلناه آنفاً حول هذا المنهج .

### منهج الاختلاف :

ويسميه بـ (قائمة الغياب) ، ويريد منا أن نضع في مقابل كل حالة ، من حالات الحضور ، حالة من حالات الغياب مثلاً : الحرارة ( التي رتب بـ يكون قائمة لحالات الحضور فيها فأضفها إلى ٢٨ حالة ) توجد مع وجود الشمس ، وهذه حالة حضور ولكنها لا توجد مع غياب الشمس ، وهذه حالة غياب مثل حالة الكسوف ، أو في الليل . وفي المقارنة بين هاتين الحالتين نجد أن جميع الظروف المؤثرة واحدة ، لا ظرفاً واحداً ، وهو طلوع الشمس ، أو غيابها . فهناك اختلاف في شيء واحد ، هو الذي سبب غياب الظاهرة ، من هنا يسمي (مل) هذه الطريقة بـ ( منهج الاختلاف ) أي اختلاف حالتين في شيء واحد ، بعد إتفاقيتهما في كل شيء آخر ، وهذا المنهج يدعى ( بالبرهان العكسي ) وهو يتفق مع ( معادلة التفاضل الرياضية ) ، وقد أشاد به كلود برنارد ، واعتقد بأنه التجربة الحقيقية ، التي دعا إليها بـ يكون ، إذ بـ يكون أراد بقائمتي (الغياب) و (الحضور) عملية واحدة ، وجعل من قائمة الحضور تمهيداً لقائمة الغياب .

ويقدر - هذا المنهج - حسب تعبير مل ، إذا اتفقت مجموعتان : من الأحداث في كل الوجوه إلا وجهاً واحداً فتغيرت النتيجة ، ويقدر من مجرد اختلاف هذا الوجه ، بأن ثمة صلة عليّة ، بين هذا الوجه ، وبين الظاهرة الناتجة . فإذا كانت لدينا مجموعة ( ك ل م ن ) تنتج ظاهرة ما ، ومجموعة أخرى ( ك ل م هـ ) ثم نتج عن ذلك اختلاف في النتيجة ، في حالة أخرى ، فإنه يوجد بين ( ن ) و ( هـ ) صلة عليّة<sup>(١)</sup> . وهذا المنهج دقيق لأنه نستطيع أن نحذف عاملاً

---

(١) مناهج البحث العلمي ، ص ١٦٦ .

في مجموعة عوامل لنلاحظ فيما إذا كانت الظاهرة تبقى أم لا . فإذا ذهبت الظاهرة أيضاً عرفنا أن هذا العامل هو المؤثر . ولكنه منهج يخص - في هذا الجانب - بعض العلوم ، التي يستطيع أن يتحكم فيها الإنسان ، كالطب والفيزياء ، وما أشبه . وفعلاً استفادت مثل هذه العلوم كثيراً من هذا المنهج ، وقد استخدمها باستير في كشفه عن الميكروب ، حيث إنه حينما افترض أن ظاهرة التعفن ، ترجع إلى وجود حيوانات دقيقة ميكروسكوبية ، تنطرق إلى السوائل والأجسام ، فتغذى بها ، وتتكاثر عليها . ثم أراد البرهنة على هذا الرأي ، والرد على من سخروا منه ، أخذ أنبوبتين ووضع في كل منهما كمية واحدة من محلول السكر ، وعقمهما في ماء تزيد درجة حرارته على ١٠٠ سنتيجراد ، ثم أغلق فوهة إحداهما وترك الأخرى مفتوحة ، بعد أن اتخذ جميع ضروب الحبيطة حتى تتفق جميع الظروف ، في كلتا الحالتين ، باستثناء ظرف وحيد ، وهو إن إحدى الأنبوبتين تبقى معرضة للهواء ، والأخرى غير معرضة له ، وبعد أن ترك الأنبوبتين ، مدة معينة من الزمن أعاد فحص السائل ، في كل واحدة منهما ، فوجد أن التعفن تطرق إلى سائل الأنبوبة المفتوحة ، وإن السائل في الأنبوبة الأخرى ظل سليماً ، فكانت هذه التجربة حاسمة ، لأنها برهنت بحالتين متناقضتين ، على صحة فرضه القائِل بأن الجراثيم هي سبب التعفن<sup>(١)</sup> . إن باستير استفاد من منهج الاختلاف ، إذ أن وجود (ظاهرة) التعفن ارتبط بوجود عامل التعرض للهواء ، وحيث لم يوجد (عامل) التعرض للهواء ، ما وجدت ظاهرة التعفن .

ويشترط في هذه الطريقة تنوع التجارب إلى أكبر عدد ممكن ، حتى لا يأتي احتمال وجود عامل خفي ، يرتفع عند ارتفاع العامل الأساسي (صدفة) كما يشترط استخدام العقل لاستبعاد العوامل العرضية ، غير ذات الوزن العلمي .

ويجب أن نحاول ربط هذا المنهج بالمنهج السابق ، بمعنى جعل قائمة

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث العلمي ، ص ١٩٩ .

الحضور ، وأخرى للغياب ، واستخدام منهج الاتفاق ثم الاختلاف معاً ، لأن المنهج الأول يفيد تنوعاً للملاحظة . بينما الثاني يفيد دقة فيها ، والدقة والتنوع كلاهما ضروريان .

### طريقة التلازم في التغيير :

وهي الطريقة التي سماها ليكون بقائمة التدرج ، ويمكن تحديد هذه الطريقة بأنها :

( إذا لاحظنا ظاهرة تتغير كلما تغيرت ظاهرة أخرى ، في حين تبقى سائر الظواهر المحيطة الممكنة التأثير فيها ، غير متغيرة ، نعرف أن هناك علاقة سببية ، من نوع ما ، بين هذه الظاهرة وتلك ) .

ومثل هذه الطريقة : لورأينا أن ظاهرة نرمرز إليها بـ (س) ، مرّت بحالات نقص وتماز وزيادة ، نرمرز إليها بـ (س) و (س) و (س) ثم فتشنا ، عن الظواهر المحيطة ، فلم نلاحظ أية ظواهر أخرى تغيرت هكذا ، إلا ظاهرة (ص) ، حيث انها هي الأخرى مرّت في نفس الحالات فكانت (ص) و (ص) و (ص) نعرف أن هناك علاقة بين (ص) و (س) .

ومن هنا إذا رأينا ، أنه كلما ارتفع القمر في السماء كلما ارتفع مدّ البحر ، وكلما مال القمر إلى المغرب كلما هبط الماء في البحر ، نعرف بوجود علاقة بين ماء البحر والقمر ، علماً بأننا لاحظنا سائر الظواهر المحيطة بماء البحر ، وتغيراته فلم نجدها تتناسب مع تغيراتها . فلاحظنا الشمس ، ولم نجد علاقة بين ارتفاع الشمس وارتفاع ماء البحر . ولاحظنا الهواء ، فلم نجد علاقة بين هبوب الرياح وارتفاع المد ، فعرفنا أن الظاهرة الوحيدة ، التي تتناسب تغيراتها مع تغيرات البحر هو القمر . وهذه الطريقة تتناسب مع طريقة الاختلاف ، حيث ان طريقة الاختلاف هي حذف الظواهر غير المرتبطة بالحدث ، حتى نعرف الظاهرة



المرتبطة به . وهذه الطريقة هي حذف الظواهر التي لا تتناسب تحولاتها مع تحولات الحدث لنعرف الظاهرة التي تتناسب تحولاتها مع تحولات الحدث .  
فطريقة التغير النسبي نوع من طريقة الاختلاف ، ولذلك تشتركان في كثير من الشروط . ويعتمد العلم الحديث على هذه الطريقة كثيراً وذلك لعدة أسباب :

أولاً : لأنها دقيقة ، حيث لا تكشف فقط عن وجود علاقة بين ظاهرة وأخرى ، بل عن مقدار هذه العلاقة ونسبتها .

ثانياً : لأن العلم الحديث ، لا يهتم كثيراً بمعرفة السبب والمسبب ، بقدر ما يهتم بمعرفة العلاقة بين حدث وآخر ، لكي يتم توظيفها عملياً في الحياة ، وطريقة التغير النسبي أفضل طريقة لمعرفة العلاقات .

ثالثاً : لأن هذه الطريقة أيسر معرفة ، وأسهل كشفاً ، إذ من السهل أن تقارن حدثاً بحدث ، وتلاحظ ارتباط تغيراتهما ببعض ، بينما من الصعب أن تحذف ظاهرة ، أو عدة ظاهرات ، للتعرف على السبب الحقيقي ، كما في الطرق الماضية . من هنا استخدم باستير هذه الطريقة في الكشف عن الميكروب ، فأخذ ثلاث مجموعات من أنابيب الاختبار ، كل مجموعة منها عشرون أنبوبة ، وملاها بسائل معين ، ثم عقم هذه الأنابيب في ماء تزيد درجة حرارته على (١٠٠°) وأغلق فوهاتهما جميعاً ، ثم فتح هذه المجموعات ، في أماكن تختلف درجة نقاء الهواء فيها ، فوق قمة جليدية فوق هضبة ، في الريف ، بالترتيب ، فتبين له أن نسبة التعفن في المجموعة ، التي فتحها في القمة كانت ١ من ٢٠ أنبوبة ، وكانت هذه النسبة في الهضاب ٥ من ٢٠ ، بينما بلغت نسبة التعفن في المجموعة ، التي فتحها في الريف ، حيث تقل درجة النقاء فيها ٨ من ٢٠ ، فعرف أن هناك علاقة مطردة ، بين درجة تلوث الهواء ، وسرعة تلوث المياه ، واكتشف أن هذه العلاقة مرتبطة بالجراثيم ، التي تكثر في الأجواء الملوثة ، وتؤثر في تعفن المياه . ولأنه من الصعب ضبط تغير الظواهر في الذاكرة ، يجدر على الباحث أن يستخدم الرسم البياني ، والجدول ، حيث

يساعدانه على ضبط التغييرات ، ومدى نسبة ارتباطهما بالظواهر المحيطة<sup>(١)</sup> .

### طريقة البواقي :

وهذه الطريقة اكتشفها مل دون بيكون ، وهي طريقة تستخدم في أحد مجالين :

١ - فيما إذا امتلكننا علماً متقدماً جداً ، وعرفنا ظواهر عديدة ، كل ظاهرة منها تسبب حدثاً ، وبقيت ظاهرة واحدة لا نعرف أثرها ، ومن جانب آخر بقي أثر واحد لا نعرف سببه ، فلا بد أن نعرف أثرها ، عن طريق البواقي ، إن هذه الظاهرة هي المسببة لهذا الأثر .

ولكن هذا ليس إلا نوعاً من طريقة الاختلاف ، إذا لم نجد ظاهرة تفسر هذا السبب ، إلا هذه الظاهرة ، وذلك حيث نعرف أن الظواهر الأخرى ليست سبباً لها بالتأكيد .

٢ - فيما إذا لاحظنا تفسيراً لكل الظواهر ، إلا ظاهرة واحدة ، هنالك قد تهدينا طريقة البواقي إلى تفسير لها بالقياس إلى تفسير سائر الظواهر ، ومثال ذلك : لما طبق الفلكيون القوانين الفلكية التي تحدّد موقع أي كوكب ، في أي وقتٍ لاحظوا انحرافاً في مدار الكوكب (يورانوس) بحيث لا يتفق هذا الانحراف ، مع نظرية الجاذبية . وظاهرة الانحراف هذه لم تفسر بالطبع ، بنظرية الجاذبية ، وبقي علينا تفسيرها لسببٍ آخر ، لهذا وضع لوفريه هذا الفرض حيث قال : لا بد من وجود كوكب آخر ، في هذا البعد ، هو الذي يسبب إنحراف مدار (يورانوس) وحدّد موقع هذا الكوكب ، وكتلته ومداره بطريقة رياضية اعتماداً على طريقة البواقي .

وفعلأً وفق أحد علماء الفلك بعدئذٍ للكشف عن كوكب (نبتون) ، وبذات

---

(١) المنطق الحديث ، ص ٢٠٦ .

الخصائص التي قالها لوفرييه سابقاً . إن طريقة البواقي ، هنا ، كشفت لنا عن هذا الكوكب ، بسبب وجود ظاهرة مباشرة واحدة ، لم تفسّر ، حينما فسّرت كل الظواهر الأخرى ، وهي كانت ظاهرة الانحراف ، في مدار كوكب (يورانوس) .

وتبدو هذه الطريقة أنها تخلق لنا فروضاً ، أكثر مما تحدد لنا نظريات علمية ، ولكن من حيث العموم نتمكن من القول : إن هذه الطريقة قد تكشف عن حقائق ، فيما كانت الظواهر المحيطة واضحة التفسير ، كما في حال كوكب نبتون .

القسم الرابع  
عَنْ مَنَهِجِ الاسْتِقْلَالِ

البحث الخامس عن :

الْقَانُون

- التجربة وضمان الاطراد .
- نظرية السُّنة الإلهية .
- بين السبب والقانون .
- القانون .
- القوانين الوظيفية .
- القوانين المقترنة .
- صياغة القوانين .



## التجربة وضمان الاطراد :

هل يكفي أن نعرف عدداً من الظواهر ، دون العلم بأنها سوف تطرد في  
عني الزمان والمكان معاً ؟ بمعنى أنها تتكرر كلما تكررت ذات الظروف  
الموضوعية ، التي رافقت ظهورها لأول مرة ؟

طبعاً ، لا ، لهذا أخذ العلم يبحث عن ضمان الاطراد في التجربة .  
وقد وضع هذا البحث في صيغته الأساسية في العصر الحديث المؤلف  
لاشيليه .

وقبل أن نتابع هذا البحث ينبغي أن نعرف عدة مصطلحات ، وآراء حولها ،  
لكي لا نضيع في زحمة النظريات المختلفة ، تلك المصطلحات هي :

١ - العلة : وهي تعني أن يتسبب شيء في إيجاد شيء آخر ، كما خلق الله  
الكون ، وكما يخلق الإنسان الإرادة النفسية ، وبالطبع لا بد من أن تكون العلة  
قبل المعلوم ، والمعلوم متابعاً وملازماً لها . كما لا بد أن يكون بين العلة  
والمعلوم علاقة ، وأن تكون هذه العلاقة علاقة ضرورية .

٢ - السبب : وهو يعني أن يشترك شيء في التأثير على شيء آخر تأثيراً ما ،

سواء أكان لوحده أو مع شروط أخرى ، وسواء أتاثر المؤثر بدوره أم لا تماماً كما تحرق النار ، ولكنها لا توجد الإحراق بدون شروط أخرى مثل أن يكون الشيء المحترق يابساً . وكما يقرع الجرس حيث أن ملامسة لسان الجرس لحافيه لا يحدث صوتاً إن لم يكن هناك هواء يشترك في بث الصوت وانتشاره . وقد عُرِف مل السبب بأنه :

المجموعة الكاملة لكل الشروط الإيجابية والسلبية ، وكل أنواع الظروف ، التي متى تحققت ترتبت عليها النتيجة ، بصفة مطردة ، والسبب لا يعني مجرد تتابع ظاهرة وأخرى ، أو وجود علاقة دائمة بينهما ، بل يعني ، أيضاً ، التأثير في الشيء بشكل من الأشكال ، كما أثر النار في الحرارة والقرع في الصوت ، ولكن دون أن نقول أن النار توجد الحرارة والقرع يوجد الصوت ، إذ ربما الإيجاد بفعل عدة عوامل ، داخلية وخارجية ، ليست النار أو القرع سوى واحد منها .

٣ - العلاقة المطردة : وتسمى أيضاً ، القانون . وهو يعني أن ظاهرة متصلة في وجودها مع ظاهرة أخرى ، دون أن نعرف أياً منهما يؤثر في الأخرى ، ولماذا هذا التأثير ؟ فمثلاً هناك قانون كيميائي يقول : إن حجم الغاز يتناسب مع ضغطه إذا ظلت درجة حرارته ثابتة .

وإذا لم تكن العلاقة دائمة لا نستطيع أن نسميها قانوناً بل صدفة ، ومن الضروري وجود نوع من التابع ، أو التلازم ، في القانون بين ظاهرتين .

٤ - التابع : ويعني أن يكون حدث آتياً بعد حدث آخر ، سواء أأثر فيه أم لا ، كما يأتي الليل بعد النهار ، دون أن يكون ليل أي تأثير في النهار .

هذه هي المراحل العلمية الأربع ، التي يتدرج الفكر البشري عبرها ، حتى يصل إلى معرفة شاملة . ذلك لأن الملاحظة الأولية ، تكشف للإنسان عن وجود تتابع بين ظاهرة وأخرى ، وحين يكون هذا التابع كاشفاً عن وجود علاقة تأثيرية ضرورية ومطرودة بينهما ، يكشف الإنسان عن القانون ، وحين يعرف أسباب التأثير

المبادل ، أو من جانب واحد ، يكتشف الإنسان السبب ، وحين يعرف حقيقة الظاهرة ، والسبب الوحيد الذي يوجد لها ويخلقها خلقاً ، يصل العلم إلى نهايته ، حيث يعرف العلة . وإلى أن يصل العلم إلى هذا المستوى ، بالجهد البشري لا بد أن يقطع ألوف الأميال .

هذا ، ولكن البشر مغرور لا يعترف بسهولة أنه جاهل بشيء ، لذلك يقفز مرة واحدة ، على السلم ليصل إلى مستوى العلم بالعلل .

ولكنه بعد تجارب مريرة ، يكتشف خطأه ، فيهبط إلى مستوى السبب ، ثم قد يصطدم بحقائق لم يكن يتخيلها ، فيهبط إلى مستوى القول بالقانون ، أو حتى بمجرد التابع ، ولو لم يكن الإنسان مغروراً ، كان يصعد السلم من درجته الأولى ، فيلاحظ التابع ، ويلاحظ أن بعض الظواهر المتابعة ذات تأثير متبادل ، أو ذات تأثير من جانب واحد ، فيؤمن بالقانون والعلاقة الضرورية ، وبعدئذ يلاحظ أن للقانون سبباً ، بمعنى أن هناك علة من تأثير هذه الظاهرة في تلك ، وليس العكس ، فكان يقول بالسبب ، حتى يصل في أعلى السلم إلى جميع العوامل المؤثرة في إيجاد شيء فينتهي بالعلة ، بينما ابتدا الإنسان القديم بالعلة لغروره .

إن الإنسان القديم - كالإنسان البدائي اليوم - كان يزعم أنه يعرف الحقائق كلها ، وكان يجلس في كوخه ، أو في كهفه ، وربما يستخدم مادة مخدرة ، فإذا دار رأسه ، أخذ يفلسف لنفسه ، ويعدد علل الأشياء (الحقيقية) «فهؤلاء يعتقدون أن هناك قوى خفية تنتج الظواهر ، وتحديثها ، وهم يرون أن العالم ، الذي يقع تحت حواسهم ، يرتبط ارتباطاً شديداً بعالم القوى الغيبية ، وأن هذه القوى تؤثر في الظواهر الطبيعية تأثيراً مستمراً، فالعقلية البدائية لا تكفي بما توقفها عليه التجارب والملاحظات المألوفة ، بل تتجاوز نطاق الواقع دائماً ، وتتخيل علاقات بين النتائج ، التي تقع تحت الحواس ، وبين أحد الأسباب الخفية » .



« المهم عند الرجل البدائي ، أن يخلص نفسه من صعوبة الفراغ والجهل ، فهو يريد أن يدعي معرفة السبب أيّاً كان نوعه ، وهو يربط بين أية ظاهرتين ، تشغلان ذهنه في وقت واحد ، فمثلاً حسب ما يقول ( ليفي بريل ) :  
ها هو ذا أحد أهالي جزائر هرييد الجديدة ، يسير في طريقه فيرى ثعباناً يسقط عليه من شجرة ، وفي صبيحة أحد أيام الأسبوع التالي ، يعلم أن ابنه مات في استراليا ، ولما كانت هاتان الحادثتان تشغلان تفكيره في نفس الوقت ، فإنه لا يستطيع أن يتصور أحدهما مستقلة عن الأخرى<sup>(١)</sup> والإنسان القديم كالإنسان البدائي كان يتخيل وجود علل غيبية للأشياء ، دون الإعراف بما لها من أسباب ظاهرة ، « فإذا رجعنا مثلاً إلى فلسفة افلاطون » وجدنا أنها تفسّر وجود الكائنات في العالم الحسيّ ، بأنها ظلال وأشباح للكائنات العقلية أو المعاني التي توجد في عالم المثل .

وقد ذهب أرسطو إلى رأي غريب في تعليل سقوط الأجسام نحو الأرض ، فقال : إن الأجسام تنقسم إلى نوعين : خفيفة وثقيلة ، وإن الخفة هي السبب في صعود الأجسام في الفضاء ، وإن الثقل قوة كامنة في الجسم . وفي العصور الوسطى لم يتحرر تفكير « المدرسين » من الإيمان بوجود قوى خفية ، تنتج الظواهر وتسببها في الوجود<sup>(٢)</sup> . وكان هذا التفكير وراء شبهات فلاسفة الاغريق والتابعين لهم في المسائل الدينية ، التي تقوم على أساس إمكانية (اختراق) سنن الحياة ، والعمل بدون علّة ثابتة وبالتالي إنكار المعجزات التي كان نوعها . والفكر القديم ينطوي على تناقض كبير فيما يخص موضوع العلّة والمعلول حيث يبقى حائراً في تفسير حدوث الأشياء وتطورها واختلافها ، مع أنها جميعاً ناتجة من علّة واحدة وثابتة وغير متطورة . وإن العلّة والمعلول لا بد أن يكونا من نوع واحد ، وهكذا إلى آخر هذه المسائل ، التي تورطوا فيها بسبب غرورهم في الاعتقاد بفهم

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ٢٢٢ .

(٢) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ٢٢٤ .

علاقات الكون وزعمهم بأنهم استطاعوا كشف العلة فيها . هذا دون أن تتطرق في وسم الفكر القديم كله بهذه السمة إذ يوجد في الفكر القديم ومضات نور حدثت من هذا الغرور المتطرف ، واعترفت بالجهل في مسألة العلاقات وعادت إلى فكرة السبب . بل وجد في القديم من نادى بطرح فكرة السبب ، وأخذ بفكرة علاقة الضرورة (القانون) . ولا ريب أن الرسائل الإلهية قد ساهمت في هذا الإتجاه وفي الحد من غرور الإنسان بفهمه للحياة .

### نظرية السنّة الإلهية :

العلماء المسلمون ، الذين لم يتأثروا بالثقافة الاغريقية ، أجمعوا على أن العلاقة التي تربط بين الظاهرة والأخرى إنما هي علاقة السنّة الإلهية ( وهي تعني نوعاً معتدلاً من القانون ) ولا يدعون العلم بما وراء هذه السنّة إلا حسب ما تكشفه لهم التجارب القطعية . وفي القرآن الحكيم ، توجيهات عديدة إلى فكرة السنّة وقد جاء في آية كريمة :

﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ [ ٤٣ / فاطر ] .

وفكرة السنّة تميز :

أولاً : بضمان الإستمرار حيث إن الخالق الزم الكون على المسير في هذا الطريق ، ولن ينحرف الكون عن هذا المسير ، كما تقول الآية : إنك لن تجد لسنة الله لا تغيير مطلقاً ولا تغييراً نسبياً ، أي لا تبديلاً ولا تحويلاً .

وبهذه الفكرة يخرج العلم من الإيمان بالصدفة التي تتنافى كلياً مع أسس العلم ، كما نضمن انتشار الظاهرة في عمقي الزمان والمكان .

ثانياً : إنها تخلصنا من العقيدة بفكرة العلية ، التي تعني أن الظاهرة تسبب الأخرى ، وفكرة السبب التي تعني أن مجموعة ظواهر تسبب ظاهرة أخرى ، وتقربنا إلى فكرة القانون الذي سيأتي إنشاء الله الحديث عنه . وبذلك يطلق فكر

الإنسان حتى يبحث عن العلاقات بحرية أكثر وينظرات صائبة .

ثالثاً : تهدينا فكرة السنّة إلى حقيقة العقلانية في علاقات الكون ، بمعنى أن هناك نظاماً عاماً تسيّر ظواهر الكون جميعاً وفقه ، وأن طبائع الأشياء ومقاديرها وعلاقاتها كلها محكومة لذلك الهدف الكبير ، الذي يسيّر الكون إليه . وهذه العقلانية التي يسميها البعض بفكرة وحدة الجمال ، مثل مذهب بلدوين (Baldwine) المسمّى بـ (Pancalisme) ويدعوها لاشيلية بمبدأ (الغائية) ، التي وضعها في مقابل مبدأ (الفاعلية) . كما يدعوها كلود برنارد بالصورة الموجهة (Idée directrice) ، هذه العقلانية ليست فكرة تجريبية بل عقلية ، كمبدأ الضرورة والإطلاق في العلاقات الكونية . ولذلك فهي تفتح الطريق إلى التجربة لمعرفة الصورة الصحيحة للأشياء ، وهي ضرورية لمعرفة الكون كفكرة الإطلاق تماماً لأنه ، كما يقول لاشيلية : « لا نستطيع أن نساير مبدأ العلل الفاعلية ، أي مبدأ الجبرية إلى نهايته بل لا بد أن يتدخل دائماً مبدأ النظام ، كي يعدل من شطحات المبدأ الأول ، حتى ندرك الحقيقة الخارجية للادراك السليم »<sup>(١)</sup> .

ثم إن فكرة العقلانية لا تختلف عن فكرة الضرورة ، في إنها معاً فكرتان عقليتان وغير تجريبيتين .

والسؤال : ما هو الدليل على فكرة السنّة ؟ قبل الإجابة على هذا السؤال ، دعنا نستمر مع تاريخ الفكر البشري في موضوع السبب ، بعد أن أوضحنا أن الإنسان بدل أن يتدرج من بداية السلم أراد أن يقفز من أعلاه ، ويتعبّر آخر بدل أن يسعى إلى معرفة التابع والقانون والسبب ثم العلة سعى للعكس مما سبّب له كارثة علمية . . . والرسالات الإلهية شرعت لتهدي الإنسان إلى خطئه ، وكانت فكرة السنّة التي اعتنقها العلماء المسلمون الذين لم يتأثروا بالثقافة الغربية ، ولكن الغرب ، ظل طوال العصور الوسطى متشبهاً بفكرة العلة .

---

(١) مناهج البحث العلمي ، الدكتور عبد الرحمن بدوي ، ص ١٧٥ .

ولم تكن طلائع الفلسفة الحديثة أسعد حظاً في فهم السببية العلمية ، فمثلاً يفسر ديكارت الحركات الإرادية ، لدى الإنسان والحيوان ، بوجود ما يطلق عليه اسم الأرواح والعقول الحيوانية ، التي تنتقل مع الدم إلى مختلف أنحاء الجسم فتؤثر في الأعضاء بالحركة . ويرجع الفضل إلى (بيكون) الذي نصح بالإقلاع عن البحث في الأسباب الفلسفية أو اللاهوتية وحض على معرفة الشروط الطبيعية التي تسبق الظاهرة .

كذلك ساهم هيوم - الفيلسوف الانكليزي - في تطوير معنى السببية وفي التمهيد لنشأة فكرة علمية من السبب<sup>(١)</sup> .

وأعاد هيوم الإنسان إلى درجة التابع ، وكان بداية صعود الإنسان على السلم في صورة واقعية بدل صعوده سابقاً بطريقة خيالية .

قال هيوم : إن ما يبدو لنا من وجود علاقة ضرورية بين الحوادث ، يمكن تفسيره بأننا نلاحظ تتابع حادثتين في عدة حالات خاصة ، فيغلب على ظننا أنه تتابع ضروري ، وأن إحداهما توجد الأخرى ، مع أن الفكرة الجوهرية في العلاقة السببية ليست هي انتاج إحدى الظواهر لظاهرة أخرى ، على نحو ضروري ، وإنما هي فكرة التابع الزمني فقط بمعنى أننا إذا ألفنا أن الظاهرة (ب) تتبع دائماً الظاهر (أ) قلنا إن (أ) هي السبب في وجود (ب)<sup>(٢)</sup> ، إلا أن (مل) جاء بعد هيوم ليحدد من تطرف هيوم ، الذي أنكر العلاقة السببية مرة واحدة ، فقال مل : إن الطرق الاستقرائية تؤدي إلى الكشف عن قضايا عامة ضرورية ، وهي العلاقات السببية بين الظواهر . وعرف السبب بأنه المجموعة الكاملة لجميع الشروط الإيجابية والسلبية وكل أنواع الظروف التي متى تحققت ترتبت عليها النتيجة بصفة مطردة .

وحيث أن مل يعترف بأنه من المستحيل تقريباً أن يهتدي الباحث إلى جميع

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ٢٢٨ .

(٢) المصدر ، ص ٢٢٨ .

هذه الظروف ، التي تحدث الظاهرة ، فإن ذلك يعني أن السبب الكامل لا يمكن معرفته اللهم إلا إذا كانت الظاهرة - حسب رأي مل - مما يمكن إيجادها صناعياً ، ولكن يؤخذ على مل أنه حتى هذه الظاهرة لا يمكن أن نعرف السبب الكامل فيها ، لأن الظاهرة الواحدة تشترك في صنعها كل الظواهر المحيطة بها ، التي لا يمكن حصرها أو معرفة مدى تأثيرها ولا يشكل عمل الإنسان إلا جزءاً بسيطاً جداً منها . فخذ مثلاً ظاهرة الزراعة ، نحن نستطيع أن نعرف أنه متى دفنا البذرة في التراب وسقيناها وتعمدها بالرعاية وكانت الظروف صالحة فإنها تنبت ، ولكن لا نقدر أن نعرف ما هي الظروف المؤثرة في الزراعة بالضبط ؟ وكيف تكون صالحة ؟ ولو عرفنا ألف ظرف بقي ألف آخر لا نعرف عنه شيئاً . لذلك لا يمكن التبحر بأننا نستطيع أن نحيط علماً بكل الظروف المحيطة بالظاهرة والشروط المؤثرة فيها والاسباب المؤدية إليها ، إنما نتمكن من تنمية معارفنا بالشروط شرطاً شرطاً ، وسبباً سبباً ، وبصورة دائمة ، دون أن نزعج أن قافلة العلم ستصل في يوم إلى منتهى .

### بين السبب والقانون :

إلا أن ما سبق لا يعني أننا نستعيز كلياً عن السبب بفكرة القانون ، والتي يميزها عن فكرة السبب .

أن القانون هو الجواب في الجوانب الخارجية للظاهرة ، بينما السبب هو البحث عن الجوانب الداخلية منها . فالقانون يقول : إن ظاهرة المد ترتبط بعلاقة مطردة مع صعود القمر . وهذه العلاقة هي علاقة خارجية ، إذ لا تعني سوى وجود ارتباط بين ظاهرة وأخرى ، بينما فكرة السبب تسعى لتحليل هذه العلاقة والإجابة عن هذا السؤال : لماذا المد يرتبط بالقمر ؟ والجواب لأن القمر له جاذبية ، وللبحر إمكانية الانجذاب ، وهذا هو السبب في جذب القمر لمياه البحر ، وهذا الكشف بين لنا قوة داخلية في القمر ، وقوة داخلية في البحر . والفائدة التي قد نستفيد منها من هكذا كشف هي أن نبداً نعمم السبب على أماكن ثانية فنستفيد من

معرفتنا بجاذبية القمر في جذب القمر للأرض أو للنجم المذيل وهكذا ، وقد قسّم لالاند القوانين بأنواع ستة وهي :

١ - الطبائع وتركيبات الأشياء ، مثل : تركيب الجزئي أو تركيب الذرة ، أو تركيب أي عنصر كيميائي ، وهذا أشبه شيء بالسبب .

٢ - الإضافات الثابتة الموجودة بين صفين أو سلسلتين من الظواهر المعينة بالنسبة إلى بعضها تبعاً ، للدالة (ص) و (س) وذلك مثل الجاذبية وانكسار الضوء وما أشبه .

٣ - مقادير عددية ثابتة ، مثل سرعة الضوء ، وطول الموجة .

٤ - اطرادات ، بحيث توجد ظاهرة مع وجود ظاهرة أخرى ، دون أن نعرف بالدقة ، صلة عليّة بينهما ، كما نجد مثلاً أن الاجترار يتبعه كون الظلف مشقوقاً .

٥ - أحداث دورية ينظر فيها إلى أوجه ثابتة في تطورها ، بالنسبة إلى مجاميع مشابهة ، كما يظهر ، مثلاً ، في ظاهرة التيار ، أو ردود الفعل الكيميائية ، أو ظواهر الهدم والبناء بالنسبة إلى الخلايا .

٦ - علاقات الانجاء ، كما في القانون الثاني من قوانين علم القوى الحرارية المعروف بقانون (كارنو) ، وقانون نقصان الطاقة ، حيث يوجد هناك إتجاه نحو النقصان أبداً في تطور الظواهر ، ومثل قانون التطور الدارويني<sup>(١)</sup> .  
والسؤال الآن : هل بإمكاننا أن نتخلص من فكرة السبب كلياً ؟

( أوجيست كنت ) يقول : نعم ، ويضيف : فما دام القانون يفسر الظواهر فمن العبث أن نتطلب من العلم أكثر من ذلك ، فمن البديهي أننا لا نستطيع الوقوف بدقة على ذلك التأثير المتبادل بين النجوم ، وعلى نقل الأجسام الأرضية ، وأن أية محاولة في هذا الصدد ستكون بالضرورة محاولة عبثية وغير

---

(١) راجع مناهج البحث العلمي ، ص ١٧١ .

مجدية تماماً ، وأن العقول التي لا تربطها صلة بالدراسات العلمية ، هي وحدها التي تستطيع أن تشغل نفسها اليوم بمثل هذا الأمر<sup>(١)</sup> .

ولكن الواقع أن القانون هو خطوة في معرفة السبب ، وأن العلم يمكن أن يخطو إلى الامام ليصل إلى معرفة السبب ، والعلم الحديث لا يبحث فقط عن الظواهر كيف ترتبط ببعضها ، دون أن يبحث أيضاً عن أنها لماذا ترتبط ببعضها ؟ وما نجده في علم الكيمياء ، وعلم التاريخ وعلم الاقتصاد والإجتماع من البحث عن خلفيات الظواهر ، أفضل دليل على الصبغة العامة للعلم الحديث وأنها هي فهم الأسباب لا الظواهر فقط .

صحيح أن علم الفلك ، حديث الظهور نسبياً ، والذي يفتقر إلى تجارب كثيرة أخرى ، حتى يتمكن من الوصول إلى معرفة ظواهر الفلك والعلاقات الضرورية فيها . هذا العلم لا يتمكن من معرفة الأسباب الكامنة وراء هذه القوانين بسرعة . إلا أن علم التاريخ أو علم الإجتماع أو علم النفس ، يتمكن لا أقل من معرفة بعض الأسباب الداخلية التي تسبب هذه الظواهر .

أما بحث العلم عن القوانين فليس بحثاً نهائياً ، بل هو بحث مؤقت حتى يمهد له الطريق إلى معرفة الأسباب بل - بعكس ما يقول كنت - إن الذي تربطه صلة وثيقة بالعلوم الحديثة يعلم أن هناك صلة قرى بين القانون والسبب ، بحيث يكاد يخفي الفارق بينهما ، وأن الطريق يسير من السبب إلى القانون ، ومن القانون إلى السبب ، بصورة أمواج علمية متداخلة فلا يكاد العلم يكتشف قانوناً حتى يبحث عن سببه ، وإذا عرف السبب كشف له السبب عن قانون آخر وهكذا .

بعد هذا الاستعراض يبقى السؤال الأهم وهو : ما هو ضمان الاستقراء ؟ وكيف ثبت أن الظاهرة التجريبية التي وقعت مرة سوف تقع كل مرة في كل زمان

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ٢٣٣ .

ومكان ؟ لقد سعى منطقة كثيرون للوصول إلى ضمان كافٍ يستندون إليه باطمئنان في هذا المجال ، وفيما يلي بعض هذه المساعي :

١ - أول من سعى إلى ضمان الاستقراء بتحليل قضية العلية بطريقة عملية هو (لاشيليه) حيث انتهى إلى تقرير مبدئين :

أ - في كل سلسلة من الأحداث لا بد أن يعين وجود ظاهرة وجود ظاهرة أخرى .

ب - وجود ظاهرة في نظام معين لا يتعين تعييناً حقيقياً إلا بالنسبة إلى نظام الكون .

ويقصد من المبدأ الأول أن الظواهر الكونية مترابطة ، بحيث يستحيل أن تبدو ظاهرة دون أن تسبقها ظاهرة أخرى ودون أن تلحقها ظواهر ثانية ، وبهذا يكون الكون عبارة عن سلسلة من الظواهر المترابطة ولكن لا تبقى هذه الظواهر مترابطة بشكل سلسلة طويلة وبلا هدف ، بل يكون الترابط بشكل دائري ، يحده من كل جهة النظام العام ، الذي جعل للكون كله . وهذا هو معنى المبدأ الثاني ، الذي بدونه لا يمكن أن نحصل على العلم الحقيقي ، وإذا أردنا أن نضرب لظواهر الكون مثلاً لقلنا نفترض جسم إنسان وفيه ما لا تحصى من الخلايا وكل خلية نفترض أنها ظاهرة تحدث ، وتعين بظاهرة أخرى ، التي هي هنا عبارة عن خلية ثانية ( هذا هو المبدأ الأول ) ولكن ، هل تستمر الخلايا في التكاثر إلى ما لا نهاية ؟ طبعاً لا ، بل سوف تتحدد الخلايا بقدرة الجسم على تحملها وبما في الجسم من ضوابط وقوانين عامة . تسبب في (تحديد) تسلسل الظواهر وهذا هو المبدأ الثاني عند (لاشيليه) الذي يقول :

هذا المبدأ هو مبدأ الغائية ، والغائية هنا ليست بالمعنى المفهوم عادة من أن مجموعة أشياء تتجه نحو غاية نهائية ، وإنما يقصد به أن ثمة نظاماً يقتضي ترابط الأشياء على نحو ضروري ، من شأنه أن يجعل الجزء الواحد يتوقف في تركيبه



وطبيعته على الجزء الآخر ، وبتعبير آخر : إذا كانت الظواهر نظاماً فإن هذا النظام تقود فيه فكرة الكل فكرة الأجزاء ، وطبيعة الكل تحدد وجود الأجزاء<sup>(١)</sup> . ولكن لاشييه لم يبين لنا - بعد هذا الكلام كله - ما الدليل على صحة هذه الافتراضات ولماذا يجب علينا أن نعتقد أن الظواهر تعين بعضها وإنها تخضع لقانون عام ؟ وهل أننا اكتشفنا هذه الحقيقة بالتجربة أم بالعقل وكيف ؟

٢ - يبقى أن نسأل : ما هو نظر الإسلام كمنهج للمعرفة في هذا المضمار؟<sup>(٢)</sup> .

قبل كل شيء يذكر الإسلام البشر بعقله ليتخذ مصباحاً يكشف به غيب الحياة - تماماً كما أن كل شيء في البيت المظلم ينكشف بالمصباح ، والمصباح ذاته لا يعرف إلا بنفسه بعد الإلتفات إليه - فإن الإسلام يعتبر العقل أول ما يعرف ، بيد أن معرفته لن تكون إلا بذاته إذ كيف يتسنى للإنسان أن يكشف العقل وهو لا يملكه ؟ بل كيف يكون العقل كاشفاً للبشر عن كل شيء ، ولا يكون كاشفاً عن ذاته ؟ هكذا يبدأ الإسلام معالجة أعقد مشكلة عند البشر من زاوية جديدة وبمنهج جديد ، وذلك حين يأمر الإنسان ألا يحاول معرفة العقل إلا بذات العقل ، إذ إنه سينحرف عن الطريق السليم لو أراد معرفته بالتوصيف أو بتصورات غريبة عنه ، فليس العقل بعيداً عن الإنسان حتى يسعى الفرد إلى معرفته بشيء غريب ، بل هو أقرب إلى الفهم من أي شيء آخر ، لأنه هو الذي يكشف الأشياء الآخر .

إن الكشف الذاتي الذي يتصف به العقل ، نابع من أن كل شيء ظاهر بسببه ، فكل ما هو منكشف للبشر وظاهر له آية من آيات وجوده . ومن هنا كان على الإنسان الغافل عن عقله أن يستثير في ذاته أكبر كمية ممكنة من معارفه ليجد أنه لا

---

(١) مناهج البحث العلمي ، ص ١٧٤ .

(٢) يقتبس ذلك من كتاب الفكر الاسلامي مواجهة حضارية (للمؤلف) الفصل الأول ، عن المعرفة والتصورات البشرية .

يحيط بها علماً لولا وجود (نور) لديه يكشفها وهو العقل ، فالالتفات إلى آثار العقل ، التي هي تلك المعارف التي يكشفها العقل للإنسان هذا الالتفات هو أقرب وسيلة لمعرفة .

وإذا استيقظ العقل في ذات الإنسان كان من أبرز صفاته الإيمان بذاته ، والثقة التامة بما يكشفه من حقائق .

خلاصة القول ، أن الإسلام ينطلق من منهجه من قاعدتين :

١ - التذكرة بأن معرفة العقل هي بداية معرفة معارف الإنسان الأخرى .

٢ - التوجيه بأن معرفة العقل لا تتم إلا بالعقل نفسه ، وذلك عن طريق إثارة ومقارنة بعضها ببعض .

وحين يتعرف الإنسان على العقل ، يستطيع أن يميز العلم الصحيح عن الخيال الفارغ ، فالعقل يحكم باستحالة التناقض والتضاد ، وقبح الشر والظلم ، وبصحة الأشياء التي يحس بها الإنسان ، وأخيراً يستطيع أن يرد كل حادثة إلى سببها . كما يتأكد العقل من أي هاجس في النفس أنه حق أم باطل ، بعد أن يعيده إلى مصدره .

والإسلام أولى جانب الحس أهمية مناسبة حيث دعا إلى النظر في آيات الباري والسير في أرض الله ، ولكنه أولى العقل أكثر اهتمامه ، لأنه موجه الحس ولنفترض أننا أبعدنا العقل لحظة واحدة من مجال الحس لنرى كيف تتخطى في الضلالات حتى لا نستطيع كشف أية حقيقة ، مهما كانت ضئيلة ، بواسطة الحس وحده ، بل إن نكران العقل يدعونا إلى التشكيك في وجود أية حقيقة وراء الحس ، بل قد ينتهي بنا إلى الشك في أن الحس شيء نابع من الأعصاب ذاتها . بمعنى أن العين لا تبصر الحقائق الخارجية إنما هي تصنع حقائق وتبصرها ، فإن لم يكن لدينا نور يحكم بأن مصدر الإحساس لا بد أن يكون حقيقة خارجية - لأنه لا يمكن وجود سبب له - لو لم يكن هذا النور موجوداً لدينا فإن أية حجة لا تقدر

على اثبات الحقائق وراء الإحساس .

وصرح العلم ، الذي نفتخر به اليوم ، يقوم على أساس التجربة ، والتجربة تقوم على قاعدتين : الحس والعقل . إن الحيوان لا يمكنه أن يكتشف من تجاربه علماً ، مع أنه يحس ربما أشد وأقوى . فالكلب ذو سمع شديد والصقر ذو بصر نافذ ، لكنهما يفتقران إلى التجارب لأنهما يحسان فقط دون أن يعقلا (حسهما) .

ثم إننا لا نملك في أي قانون من قوانيننا العلمية ، التجربة الشاملة التي تحصي جميع أفراد الظاهرة ، دعنا نفترض قانون التجاذب الذي بشر به نيوتن ، هل جرّب مكتشفه كل تجارب الكون ؟ كلا ، فهذا مستحيل ، إن ما فعله لم يتعد إجراء التجربة على بضعة حوادث حتى حصلت له القناعة التامة بأن أية حادثة أخرى ، لا تعدو أن تكون مثل تلك التي جرّبها .

وهذه القناعة من أين حصل عليها ؟ من أين استطاع قياس ما يأتي بما مضى ؟ أفليس لحكم عقله بالمعادلة التالية :

إن التجربة الماضية دلت بطريق الحس على وجود تجاذب بين جسم وجسم مخصوصين ، وإن هذا التجاذب ليس صدفة وإنما هو بسبب وجود علة في الأجسام ، وحسب عدة ملاحظات على أنواع من الأجسام عرفنا وجود هذه العلة فيها ، فدل على أن كل الأجسام ذات قوة تتجاذب بها .

ترى ، كم من حكم عقلي اشترك على إعطائنا هذا القانون العلمي ؟ ومع أننا لا نرتاب في هذه الأحكام فإن أحداً منا لا يدّعي أنه قد جرّبها هي الأخرى ، وأنه لولا التجربة لم يكن يعترف بها .

خلاصة القول : أن الإسلام - حين يذكرنا بالعقل ، ويوجه الفرد إلى نوره وهده ، يؤمن العقل بذاته ، وبما يكشفه لنا وفي طبيعته الإيمان بمبدأ ثبات الظواهر ، والذي يفيدنا في فكرة (السنة) الإسلامية . إن أبسط دليل على صحة فكرة السنة هو الضرورة العقلية التي تنسم بها هذه الفكرة ، وهذه الضرورة هي من

مكتشفات العقل ، والعقل ذاته ثقة وإيمان لا يمكن الشك فيه ، والدليل على ذلك ، هو ذاته ليس أكثر . من هنا نعرف أن نظرية راسل في فكرة القانون هي نظرية غير صحيحة .

يقول راسل :

إن فكرة الضرورة فكرة عقلية إنسانية ، ومن ثم فإن القول بوجودها في العلاقات السببية أو غيرها ، معناه أن الإنسان يخلع على الطبيعة إرادة شبيهة بإرادته .

وادعى راسل أنه يمثل الفكرة العلمية المعاصرة ، واعتمد على عدة أمثلة عجيبة لينكر وجود العلاقات السببية بين الأشياء الطبيعية ، فهو يريد منا ألا نستنبط مثلاً من جر الحصان للعربة ، أو رفع الإنسان لأحد الأثقال بيديه ، دليلاً على وجود قوى في الطبيعة ، لأن مثل هذه الأفعال هي التي دفعت بالناس قديماً وحديثاً إلى القول ، بوجود قوى مؤثرة في الطبيعة ، وإذن لا سبيل إلى فهم الطبيعة - في ظنه - إلا إذا جردناها من تلك الفكرة الإنسانية لأن الطبيعة ليست - حسب خبرتنا الحسية - سوى حوادث تتعاقب أو تتعارض دون أية ضرورة<sup>(١)</sup> . وهنا ينبغي أن نقف قليلاً لتساءل :

١ - ما هي الضرورة عند راسل وأنصاره ، تلك التي ينكرها ، هل معناها : أن الكرة التي تندحرج أمام ضربة اللاعب ، ليس الضرب علّة مطلقة في دحرجتها ، نقول «نعم» ولكن أليس هناك واقع فرض حدوث هذه الظاهرة بحيث إنه لو تكرر لتكررت ؟! إذا قال راسل : لا ، فنحن نعارضه ، وإن قال : نعم ، فنحن معه . وفعلاً هو يؤمن بذلك حين يقول : إن الأمر في الطبيعة ليس فوضى ، مع أنه وصف العلاقة السببية بأنها علاقة اطراد<sup>(٢)</sup> .

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ٢٥٧ .

(٢) المصدر ، ص ٢٥٧ .

فإذا كانت علاقة اطراد فإن هناك ضرورة في هذا الإطراد ، وهذا ما يجب أن نؤكد عليه من أن هناك شيئاً يفرض هذا الإطراد .

٢ - ثم إن العقل يؤمن بالضرورة ، ولذلك يثق ثقة كاملة لا ريب فيها بحدوث ظاهرة عندما تحدث الظواهر ذات العلاقة السببية بها ، مثل ظهور الاحتراق لدى ظهور النار وموجبات الحريق .

إن راسل أراد أن يتوغل في فهم الضرورات ، التي يؤمن بها العقل فتعقد عبثاً وكان من الأفضل له أن يهتدي بنور العقل مباشرة ودون اللف والدوران .

### القانون :

قبلئذ فرّقنا بين القانون والسبب ، وكان القانون هو التعبير عن العلاقات الخارجية للأشياء ، بينما السبب هو التعبير عن القوى الداخلية فيها .

وعلينا الآن أن نلقي نظرة خاطفة على أنواع القوانين . . في البدء ينقسم القانون إلى :

أ - قوانين رياضية ، وهي التي تعبر عن طبيعة العلاقة دون أن تكون متجسدة في الأشياء ، كالقوانين الحسابية والهندسية .

ب - قوانين طبيعية ، وهي التي تعبر عن علاقات الأشياء الواقعية ببعضها .

أما عن القوانين الرياضية فالحديث مرهون بالفصل الخاص به من هذا الكتاب .

بينما القوانين الطبيعية تنقسم بدورها إلى :

- الربط بين ظاهرتين تسبق الواحدة الثانية وتنعكس تغيرات الأولى على الأخرى ، كما يؤثر الماء في ذوبان السكر .

- الربط بين ظاهرتين تتبادلان التأثير بينهما ، فكل منهما تؤثر في الثانية

كالتفاعلات الكيميائية بين المواد .

- الربط بين ظاهرتين تقتربان في الوجود دون أن تؤثر إحداهما على الأخرى كاقتران السواد في البشرة بتجعيد الشعر مع أن كلتي الظاهرتين متأثرتان ليس ببعضهما ، بل كل واحدة بعامل ثالث . والقسم الأول من القوانين هو القسم الذي يدور عنه حديث السبب عادة إذ نسمي الظاهرة المؤثرة بالسبب ، والظاهرة الثانية بالمسبب . وقد تقدم في الفصل السابق حديث مطول عنه ويسمى هذا النوع بالقوانين السببية . بقي القسمان الآخران وهما : القوانين المقترنة والقوانين الوظيفية .

### القوانين الوظيفية :

التعريف العلمي لهذا القانون : هو كل ترابط بين ظاهرتين توجدان في آن واحد وتتغيران تغييراً نسبياً<sup>(١)</sup> . والفرق بين هذه القوانين والقوانين السببية أن القوانين السببية تهتم بالخواص الداخلية للأشياء ، بينما هذه القوانين تحاول تجريد العلاقة أنى أمكن لتصبح أقرب إلى العلاقات الرياضية .

فإذا كانت هناك ظاهرتان (أ) و(س) وكلما تغيرت (أ) تغيرت (س) عرفنا أن هناك علاقة عضوية بين (أ) و(س) .

وقد بدأت العلوم الطبيعية تهتم بالعلاقات الوظيفية لأنها أكثر دقة من العلاقة السببية ، حيث إنها يمكن أن تتحول إلى رسم عددي كمي ، وهذا هو الإتجاه السائد حالياً في العلوم المتقدمة ، التي تحولت من الكيف إلى الكم .

ولكن السؤال هو : هل تستطيع العلوم جميعاً أن تتجه إتجهاً كمياً ؟ مثلاً ، المعارف فوق العلمية (الفلسفي) أو العلوم الإنسانية أو حتى علم الحياة ، لا تتمكن حالياً أن تبلغ دقة العلوم الطبيعية في الاستغناء عن الكيف والإحالة إلى الكم والعدد .

---

(١) المنطق ومناهج البحث ، ص ٢٤٥ .

ويرجع ذلك إلى شدة تعقيد الظواهر الحيوية والإنسانية ، وإلى عجز الباحث عن التفرقة بوضوح بين العوامل المؤثرة حقيقة وبين العوامل غير المؤثرة ، هذا إلى أنه من العسير عليه أن يعزل إحدى الظواهر بطريق التجربة كما يفعل عالم الطبيعة<sup>(١)</sup> . من هنا فالأفضل أن نكتفي في مجال العلوم الإنسانية ، وما أشبه بالكيف والترابط السببي بشكل غامض .

### القوانين المقترنة :

وتعبر هذه القوانين عن ظاهرتين تقتربان في الوجود دون أن تكون إحداها مؤثرة في الأخرى ، مثل قولنا : كل زنجي مجعد الشعر ، وهذه العلاقة تكتشف عادة قبل اكتشاف سائر القوانين ، إذ يعرف الإنسان أولاً اقتران ظاهرتين في الوجود ثم تتطور المعرفة المحدودة عنده إلى العلم بوجود علاقة عنصرية بينهما ، ثم تتطور المعرفة إلى العلم بالسبب مثلاً :

نحن نشاهد أولاً اقتران صعود القمر إلى السماء بصعود الماء في البحر ، ثم تتطور المعرفة حتى نعلم أن صعود القمر هو السبب في مد البحر ، ثم تتطور المعرفة إلى العلم بأن الجاذبية القمرية هي السبب في مد مياه البحر ، ففي الحالة الأولى لاحظنا الاقتران في الوجود وفي الحالة الثانية علمنا الارتباط العضوي . وأخيراً عرفنا الارتباط السببي فهذه القوانين تعد مراحل للفكر البشري . وحيث إن العلوم مختلفة من ناحية وصولها أو عدم وصولها إلى بعض هذه المراحل فلذلك انقسمت العلوم في القوانين .

### صياغة القوانين :

يتجه العلم الحديث إلى التدقيق في صياغة القوانين والتعبير عنها ، ذلك لأن كثيراً من الأخطاء العلمية كانت ناشئة من التعبير عن المعلومات ، فكانت المعلومات القليلة تعبر عنها بما يوهم أنها معلومات كثيرة .

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث .

فمثلاً ، يعلم الواحد منا وجود علاقة بين عشرة من الناس وبين البياض ولكنه يعبر عن هذه العلاقة بأكثر من حجمها فيقول : كل إنسان أبيض ، ويرجع الفضل في هذا التعميم إلى ضعف قدرة الفرد على التعبير . إذ إنه حين يسأل كيف عبرت عن عشرة بالكل يقول : أليس معنى الكل (عشرة) ؟ .

لذلك وجب أن نهتم في جعل صيغة القوانين مطابقة لحجم معارفنا عنها حتى لا تدخل في التعبير أكثر مما نعلمه يقيناً ، وحين نجد في كثير من الكتب العلمية الحديثة أو القديمة تدقيقات في (معنى) الألفاظ ، خصوصاً تلك الألفاظ المستخدمة في العلوم الطبيعية فإنه إتجاه صحيح ، الهدف منه الدقة في التعبير عن القوانين . كما أن الدعوة الحديثة التي أخذت تنصحننا إلى ترويض العلوم جميعها - أي جعلها تتبع لغة الرموز تماماً كما تفعل الرياضيات - هذه الفكرة إنما نشأت بسبب الصعوبات التي يجدها الباحثون في التعبير عن القوانين ، حيث إن الألفاظ قد تخون ولا تقدر على (ضبط) المعلومات بالدقة الكافية . من هنا وجب على الباحث أن يكون دقيقاً في صياغة القوانين ، التي يتوصل إليها حتى لا تعبر إلا عن مقدار المعلومات وحدودها بالضبط ويمكن ذلك باتباع التعاليم التالية :

● لا بد من اتضاح الفكرة وبلورتها في الذهن ، بحيث يستشعر الباحث نفسه بحدود فكرته وأبعادها ، ويتم هذا النضج عادة عندما يقدر الباحث توضيح الفكرة بدون عناء للآخرين ، إذ قد يزعم الفرد أن معرفته بمواضيع ، ناضجة ولكنه يكتشف غير ذلك فور ما يسعى لشرح الموضوع للآخرين .

● اعتماد الأرقام والبيانات والنسب في التعبير عن الحقيقة ، حيث إنها تضع الباحث على مقربة من الواقع . فمثلاً ، لو قلنا : ثلاثة من كل عشرة من أهل الكويت هم من أصل سعودي كنا أقرب إلى التعبير عن الحقيقة ، لو رسمنا خطأ قصيراً وإلى جانبه خط طويل للبيان عن نسبة السعوديين في أهل الكويت . وهذا بدوره أضبط مما لو قلنا أقل من نصف أهل الكويت من أصل سعودي . وهو كذلك أضبط من القول أن بعض أهل الكويت من أصل سعودي .



● اعتماد الأرقام والبيانات والنسب في التعبير عن الحقيقة ، للفجوة الموجودة بين ما تدل عليه الأرقام ( أو الإحصائية ) وبين الواقع ، فمثلاً إذا أردنا التذليل على أن بعض أهل الكويت من أصل عربي خالص دون بعضهم الآخر ، فأوردنا إحصائية عن أهل النازحين من السعودية وقلنا أن ٣٠٪ من السعودية يوهمننا بأن الآخرين أي ٧٠٪ هم من أصل فارسي ، بينما الحقيقة أن الإحصاء إنما يكشف عن جانب من الحقيقة ، ولذلك يجب تنبيه القارئ عن علاقة الإحصاء أو النسب ، بجوهر القانون .

● وفي الأمور التي لا تخضع للأرقام ( كالقضايا الاجتماعية والنفسية والمعارف الفلسفية ) . لا بد من اعتماد التعابير الواضحة والتدقيق فيها ونبذ التعابير الأدبية الفضفاضة كالمصطلحات العلمية الغامضة . ومن هنا فإن دراسة الرياضيات واللغة ، ضرورتان لفهم القوانين العلمية والتعبير عنها .

والتركيب وهو نوعان :

أ - التركيب العقلي :

وتعريفه أن تربط بين فكرتين لتكشف فكرة ثالثة . كما تربط بين (فكرة) أن الإنسان عاقل و (فكرة) أن العاقل قادر على الاختراع لتكشف أن : الإنسان قادر على الاختراع ( وهذه فكرة ثالثة ) .

وهذا التركيب بؤرة القياس المباشر وغير المباشر ، الذي نتحدث عنهما في فصل القياس .

يبد أن التركيب العقلي يعني أيضاً افتراض خطة تركيب مادي قبل البدء به إذ ما من تركيب مادي في الواقع إلا ويسبقه تركيب عقلي ، بمعنى أن الإنسان يفكر في تركيب الأجزاء إلى بعضها ثم يبدأ بذلك .

ب - التركيب المادي :

والهدف من التركيب المادي قد يكون معرفة الخصائص التي تنطوي عليها

العناصر وهذه من أنواع التجربة الفجة ، بينما قد تكون الغاية من التركيب المادي اثبات نظرية سابقة . كما إذا أردنا التحقق من فكرة أن الماء مركب من عنصري الأوكسجين والهيدروجين . هنالك أمامنا طريقتان للتثبت ، الأولى : تحليل قدر من الماء إلى عنصرين ، والثانية : تركيب العنصرين حتى يتحولان إلى ماء وهذا النوع هو التركيب المادي .

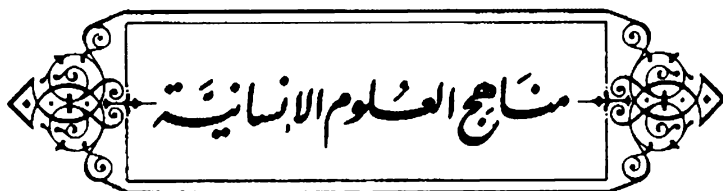
ويمكن التمثيل له أيضاً بالتأليف بين معادن مختلفة بنسب معينة من النحاس والرصاص والقصدير . وهذا النوع من التركيب التجريبي هام جداً باعتباره وسيلة إلى الإختراع ، وهناك علاقة متبادلة بين التحليل والتركيب بمعنى أن كليهما يؤدي وظيفة الآخر ، ولذلك يجب ألا ننظر إليهما كما لو كانا عمليتين تختلف إحدهما عن الأخرى تماماً ، بل على اعتبار أنهما مظهران لعملية واحدة بعينها ، وهي تمثل التفكير الإنساني في جملته ، حقاً قد يغلب أحد هذين المظهرين على الآخر ، ولكن ليس من الممكن أن يستقل أحدهما عن الآخر تماماً ، فلا بد للتحليل من التركيب والعكس بالعكس . فإن الغلو في التحليل ينتهي بالمرء إلى نسيان أن الظواهر الطبيعية ليست من البساطة إلى الحد الذي يتصوره ، ولأن الغلو في التركيب يؤدي إلى وضع فروض سريعة تقوم على أساس الملاحظات الخاطئة والآراء الوهمية .

وقد استفادت العلوم الحديثة ، من عمليتي التحليل والتركيب ، في كافة الحقول ، وذلك بعد أن وضع قواعد خاصة بكل علم فيها وسوف نتحدث طويلاً عنهما .



المنطق الإسلامي  
أصوله ومناهجه

القسم الخامس عن

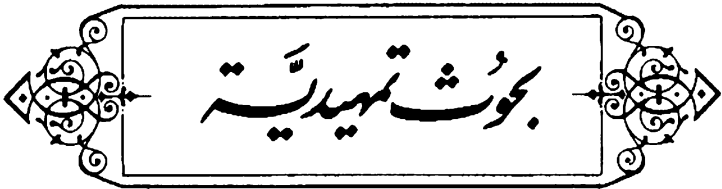


بحوث تمهيدية .  
تفصيل المناهج الاجتماعية .



القسم الخامس  
عن مناهج العلوم الانسانية

المناهج الاجتماعية  
البحث الاول



لماذا تميزت هذه المناهج ؟  
ما هو علم الاجتماع ؟  
ما هي مناهج علم الاجتماع ؟  
دراكيم والمنهج الاجتماعي .  
مناهج دراكيم الاجتماعية .  
المقارنة - التغيرات المتساقطة - طريقة البواقي .



أولاً : لماذا تميزت هذه المناهج ؟

لعدة أسباب هي التالية :

١ - الإنسان يختلف عن الطبيعة المحيطة به ، والمنهاج الذي يدرس حياة الإنسان ينبغي أن يختلف هو الآخر عن مناهج دراسة الطبيعة . فالإنسان مادة حيّة عاقلة ذات إرادة وتحدّ ، ولا يخضع للدراسة بسهولة إذ هناك عوامل عديدة تدخل في هذه المواقف الاجتماعية والسلوكية ، هذه العوامل تشمل الجوانب الجغرافية والثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والبيولوجية وغيرها ، وهذه تتداخل مع بعضها تداخلاً عضوياً ديناميكياً بحيث يصبح من العسير فصل أجزاء الموقف عن بعضها والتحكم فيها أو عزلها<sup>(١)</sup> .

٢ - إن الذي يدرس الإنسان هو إنسان مثله ، يخضع لذات العوامل التي يخضع موضوعه لها ، مما تؤثر على دراسته تأثيراً سلبياً كبيراً . وحسب تعبير بعضهم ، فإن العلماء الاجتماعيين يهدفون إلى تحقيق غاية غريبة ، فهم يريدون أن يكونوا موضوعيين في مجال يمثل الجانب الذاتي من الحياة<sup>(٢)</sup> .

٣ - الإنسان لا يزال عنصراً مجهولاً بالقياس إلى الطبيعة ، وبالنسبة إلى

---

(١) و (٢) أصول البحث العلمي ومناهجه ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ .



الحاجة إلى التعرف عليه . ففي نفس الوقت الذي تزداد الحاجة إلى معرفة الإنسان مع ازدياد مشاكله ، يزداد الموضوع غموضاً . ولذلك فإن المصطلحات المستخدمة في العلوم الاجتماعية لينة مطاطة مرنة (Soft - Flexible) ، أما في العلوم والتكنولوجيا فيطلق على مصطلحاتها أنها صلبة (Hard) ، للدلالة على الدقة في المقارنة بين المفاهيم<sup>(١)</sup> .

٤ - ولأن العلوم الاجتماعية جديدة ، فإن الكمية المتوفرة من المعلومات قليلة فيها ، ولذلك فهي لا تستطيع أن تقارن بين مجموعة من الظواهر ومجموعة نظرية لها تعطينا رؤية واضحة للحياة ، بعكس الظواهر الطبيعية التي أصبحت اليوم وبسبب كثرة الموضوعات خاضعة للمقارنة ، وبالتالي تغيرات كمية محددة ، وهذه النقاط الأربع هي التي جعلت مناهج العلوم الاجتماعية مختلفة في كثير من التفاصيل وفي بعض الأصول مع سائر العلوم الطبيعية .

العلوم الاجتماعية ما هي :

العلوم الاجتماعية تشمل علم الإنسان (Anthropology) والاقتصاد، وعلم السياسة ، وعلم الاجتماع ، ومعظم علم النفس . ولكن لأن علم الاجتماع أم لسائر العلوم تاريخياً وعلمياً ، ولأن سائر العلوم الاجتماعية منبعثة منه تقريباً فسوف نتحدث قليلاً عنه للمحافظة على التسلسل التاريخي للبحث .

ثانياً : علم الاجتماع ما هو ؟

يسمى الباحثون إلى التعرف على عثة جوانب من الاجتماع ، ويمكن أن نسمي جميعها بـ ( علم الاجتماع ) والجوانب هي :

١ - التعرف على السنن والقوانين العامة التي تحكم حياة المجتمعات ، من حيث وجودها وتماسكها ونموها وتطورها وإنهيارها . وقد حاول ابن خلدون

---

(١) أصول البحث العلمي ومناهجه ، ص ٣٠٨ .

التعرف على هذه الناحية الهامة من حياة الإنسان في مقدمته على التاريخ ، واستطاع أن يكتشف شيئاً كثيراً مما يسميها بـ ( السنن الاجتماعية ) . كما أن نظريات كونت في تطور المجتمعات ، من دينية إلى فلسفية إلى علمية ، ساعد على فهم هذه السنن . ولكن الأفضل أن ندعو هذه المناهج بـ ( علم التاريخ ) وقد سمَّاه البعض بعلم الحضارة ، وهي تسمية عادلة .

٢ - التعرف على الخطوط العامة للنظم السليمة التي لا بد أن تسود المجتمعات .

وقد كانت محاولات رواد علم الاجتماع السابقون ، من أمثال أفلاطون وأرسطو ، مركزة للتعرف على هذه الناحية ، ولذلك ناقشوا أنواعاً من الدول الديمقراطية والأرستقراطية ، والملكية ، وتحدثوا عنها وعمَّوا في كل واحدة منها من خيرٍ وشرٍ . والأفضل أن نلحق هذا البحث إلى علم السياسة .

٣ - السعي وراء معرفة حالة المجتمعات الراهنة وما فيها من عوامل القوة وأسباب الضعف ، وذلك للكشف عن مشاكلها والبحث عن حلول متناسبة لها . وهذا البحث هو الذي لا بدُّ أن نسميه بحق علم الاجتماع ، والذي يتميز عن غيره من العلوم بما يلي :

● موضوع علم الاجتماع ليس الفرد كفرد وإنما مجموعة أفراد . . والظواهر التي تدرس في هذا العلم ليست ماضية حتى نسميها بالتاريخ ، كما أنها لا تهدف معرفة النفسية التي يعيشها أبناء المجتمع ، لأن دراسة النفسية هذه مرتبطة بعلم النفس الاجتماعي الذي يتنازل لعلم الاجتماع عن دراسة المشاكل المادية ( مشكلة التخلف العقلي ، التفكك العاطفي ، الفقر ، المرض ، وأسبابها ) كما يتنازل علم الاجتماع بدوره لعلم النفس الاجتماعي عن دراسة خلفيات السلوك السائد في أبناء المجتمع ، ولكن بالرغم من هذا التنازل المتبادل يبقى علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي مرتبطين ببعضهما لفترة طويلة لزيادة

المعونة المتبادلة بينهما ، مما أدى إلى بعضهم (تارد) ، إلى عدم التفريق بين العلمين<sup>(١)</sup> .

● ووسيلة علم الاجتماع المفضلة في التعرف على موضوعه هي العودة إلى الظواهر والأحداث الاجتماعية الراهنة ، ومحاولة تفسيرها بما يتناسب مع المناهج العلمية العامة .

ولذلك أصبح علم الاجتماع يختلف في الموضوع والوسيلة عن غيره من العلوم خصوصاً علم النفس الاجتماعي .

ثالثاً : ما هي مناهج علم الاجتماع ؟

كان دوركايم من رواد علم الاجتماع الحديث ، وقد اختار لبحوثه مناهج تصلح بعد تغيير مناسب للعلوم الاجتماعية ، إلا أن هناك مناهج أقرب من غيرها إلى هذه العلوم ، مثل مناهج المسح . وفيما يلي نبين بعض المناهج العامة بعد تكيفها بما يتناسب مع العلوم البشرية ثم نستعرض مناهج المسح .

دوركايم والمنهج الاجتماعي :

كان دوركايم من رواد علم الاجتماع الحديث ، وقد اختار لبحوثه برنامجاً من أربع نقاط هي بمثابة أسس الفكر الاجتماعي ، يجب :

أولاً : ( أن نلاحظ الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء ) وتهدف هذه القاعدة إلى ضرورة التخلص من طريقة تحليل المعاني الشائعة والأفكار غير الممحصنة ، لأن المعاني العامة التي يتداولها الناس بصدد الظواهر الاجتماعية نشأت بطريقة غير علمية . ولذا فهي لا تعبر تعبيراً صادقاً عن حقيقة هذه الظواهر<sup>(١)</sup> .

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ٤١٧ .

(٢) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ٤٢٤ .

ثانياً : من الواجب ( أن يتحرر عالم الاجتماع بصفة مطردة من كل فكرة سابقة )<sup>(١)</sup> . وكانت هذه هي نفس القاعدة التي أوجبها ديكرت على نفسه عندما أخذ يشك في صدق الآراء ، التي سبق أن تلقاها عن الآخرين .

ثالثاً : يجب ( أن ينحصر موضوع البحث في طائفة خاصة من الظواهر التي سبق تعريفها ببعض الخواص الخارجية المشتركة بينها ) ومن الضروري أن ينصب البحث على جميع الظواهر التي تتوفر فيها شروط هذا التعريف<sup>(٢)</sup> .

ولذلك لا يجوز أن نهمل جانباً من الجوانب الاجتماعية ونقتصر على جوانب ثانية ، حيث إن طبيعة الظواهر الاجتماعية إنها متصلة ببعضها فإذا أهملنا جانباً ، كانت النتائج التي توصلنا إليها ناقصة هي الأخرى .

رابعاً : يجب على عالم الاجتماع ، لدى شروعه في طائفة خاصة من الظواهر الاجتماعية ( أن يبذل جهده في ملاحظة هذه الظواهر من الناحية التي تبدو فيها مستقلة من مظاهرها الفردية ) ولذلك لا يجوز طرح نفسية الباحث على المشاكل ، وذلك بدراسة المشاكل التي يعيشها الباحث نفسه وبالطريقة التي يعيشها .

وبالتالي يجب على الباحث في العلوم الإنسانية أن يجهد نفسه كثيراً حتى يصبح مجرداً عن موضوع بحثه لأنه بشر وجزء من هذا الموضوع . ولذلك يستصعب عليه أن يبقى بعيداً عنه ، وعن تبادل التأثير معه .

#### مناهج دوركايم - منهج المقارنة :

واعتمد دوركايم على منهج المقارنة للكشف عن القوانين الاجتماعية ، ذلك لأن المقارنة بين ظاهرتين ، أو بين موضوعين ، تكشف كثيراً من العوامل

---

(١) المصدر ص ٤٢٤ .

(٢) المصدر ، ص ٤٢٥ .

المؤثرة فيهما . لذلك فرّق دوركايم بين ظاهرة سليمة وظاهرة مرضية في المجتمعات .

وُيراد بالأولى كل ظاهرة توجد في سائر المجتمعات الشبيهة بالمجتمع ، الذي ندرسها فيه ، بشرط أن يكون وجودها في هذه المجتمعات كلها في مرحلة محددة من مراحل تطورها<sup>(١)</sup> .

أما الثانية فهي نقيضة للأولى ، وقواعد التفرقة ثلاث :

١ - تعد الظاهرة الاجتماعية سليمة بالنسبة إلى نموذج اجتماعي معيّن ، وفي مرحلة معينة من مراحل تطوره ، إذا تحقق وجودها في أغلب المجتمعات المتحدة معه في النوع ، وإذا لوحظت هذه المجتمعات في نفس المرحلة المقبلة في أثناء تطورها هي الأخرى<sup>(٢)</sup> .

٢ - ويمكن التحقق من صدق نتائج القاعدة السابقة ببيان أن عموم الظاهرة في نموذج اجتماعي معيّن ، يقوم على أساس من طبيعة الشروط العامة التي تخضع لها الحياة الاجتماعية في هذا النموذج نفسه .

٣ - وهذا التحقق ضروري إذا وجدت هذه الظاهرة في بعض أنواع المجتمعات التي لم تنته بعد من جميع مراحل تطورها<sup>(٣)</sup> .

### منهج التغييرات المتساوقة :

ويعتمد هذا المنهج على صلة التغيير في ظاهرة معينة ، بالتغيير في ظاهرة ثانية ، فكلما زادت تلك زادت هذه وكلما قلّت تلك قلّت هذه .

---

(١) المصدر ، ص ٤٢٥ .

(٢) المصدر ، ص ٤٢٦ .

(٣) المصدر ، ص ٤٢٨ .

وقد اعتمد دوركايم على هذه الطريقة كثيراً ، وعُبر عنها تعبيراً بليغاً حين قال :

يكفي أن يلاحظ عالم الاجتماع أن ظاهرتين تتغيران تغيراً نسبياً في عدة حالات ، لكي يجزم بأنه (يوجد) أمام أحد القوانين الاجتماعية<sup>(١)</sup> .

وبعد ما دوركايم أفضل الطرق ، لأنه يكفي أن يقارن الباحث بين التغيرات التي تطرأ على ظاهرتين بصورة مطردة ، لكي يحكم بوجود علاقة بينهما ، ولأن هذه الطريقة توفقنا على وجود صلة وثيقة بين الظاهرتين نظراً لأن تطور كل منهما راجع إلى طبيعة صفاتها الذاتية<sup>(٢)</sup> .

والواقع أن بساطة هذه الطريقة ، وسهولة معرفتها ، هي التي جعلت هذه الطريقة أفضل الطرق عند دوركايم وآخرين ، وهي أشبه بطريقة الملاحظة ، بينما المناهج الاجتماعية الأخرى ، فيها الكثير من عناصر التجربة ، ويجب أن نعلم أن الظواهر الاجتماعية لا تتطور دائماً ، مثني مثني ، حتى تصح ملاحظة تغيرات ظاهرتين فقط ، بل يجب ملاحظة كافة الظواهر المحيطة ذات التأثير المباشر في الظاهرة موضوعة الدراسة ، حتى تصح مراقبة كل صلة بينها وبين التغير في تلك الظواهر ، ثم إنه كلما تقدّم علم الاجتماع ، كلما قلّ اعتماده على هذه الطريقة ، لأنها أقرب إلى الملاحظة منها إلى التجربة ، وكثر اعتماده على سائر الطرق ، خصوصاً الخاضعة للتجربة المباشرة .

### طريقة البواقي :

وتعني : أنه بعد معرفة سلسلة من الظواهر التي تسببت عن سلسلة مقابلة من العوامل ، ومعرفة صلة كل ظاهرة بعامل ، حتى إذا بقيت ظاهرة واحدة ، وعامل واحد ، نعرف أن هذه الظاهرة مسببة من ذلك العامل .

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ٤٣٢ .

(٢) المصدر ، ص ٤٣١ .

وفي حقل الاجتماع لوحدنا خمس ظواهر إجتماعية ، وعرفنا ارتباط أربع منها بعوامل إجتماعية ، وبقيت ظاهرة واحدة ، كما بقي هناك عامل واحد ، فلا بد أن نربط بين هذا العامل وتلك الظاهرة .

وقد اعتمد مورس وهو تلميذ دوركايم على هذه الطريقة واعتبرها أفضل المناهج وقال :

إن علماء الاجتماع يتجهون مباشرة إلى أوجه الشبه التي تكشف عنها طريقة التفسير النسبي ، لأنهم لا يبحثون إلا عن العناصر المشتركة ، أي العناصر المبتذلة ، في حين يجب البحث عن الفروق المميزة للمجتمعات والبيئات المختلفة ، وهذه الفروق هي التي يمكن الإهتمام بها إلى معرفة القوانين . وقد انتقد دوركايم هذا المنهج ، وقال : أما طريقة البواقي ، فهي غير صالحة لأنها لا تستخدم إلا في العلوم التجريبية ، التي قطعت شوطاً كبيراً في تقدمها ، أي في العلوم التي تمّ الكشف فيها عن عدد كبير من القوانين ، بحيث أصبح من الممكن الكشف عن قوانين الظواهر التي بقيت بدون تغيير حتى الآن<sup>(١)</sup> .

والواقع أن طريقة البواقي هي أصعب الطرق حتى في العلوم الطبيعية وما أشبه ، لأنها تتطلب معرفة شاملة بالظواهر وبالعوامل المؤثرة فيها بشكل إحصائي ، إلا أنها طريقة جيدة ، ويسمح لنا تقدم علم الاجتماع الحديث ، باستخدامها في بعض المجالات .

فهذه هي الطرق الجوهرية الأربع للتجربة ، والتي لا تعدو المناهج الإجتماعية الأخرى ، التي سوف نتحدث عنها ، لا تعدو أن تكون في جوهرها واحدة من هذه الطرق أو أكثر ، إلا أنها تتميز بأنها أقرب إلى علم الاجتماع ، وأكثر تكيفاً مع موضوعاته .

---

(١) المصدر ، ص ٤٧٠ .

القسم الخامس  
عن مناهج العلوم الانسانية

المناهج الاجتماعية  
البحث الثاني

تفصيل المناهج الاجتماعية

كلمة البدء .

المسح ( أقسام من المسح ) .

الإحصاء ( تجميع البيانات الإحصائية - أدوات تجميع

البيانات - الملاحظة - المقابلة - عبوب الملاحظة - تجهيز البيانات الإحصائية - تحليل

البيانات الإحصائية - حساب الاحتمالات في الإحصاء - العينة )

الوثائق الشخصية ( المقابلة الشخصية - الوثائق ) .

دراسة الحالة .





## كلمة البدء :

إذا ابتغيينا معرفة واقع مستشفى معين ، كم خطوة في الدراسة يجب أن نخطوها ؟

١ - نشرع بدراسة صفات هذا المستشفى ، و(مسح) الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المرتبطة به<sup>(١)</sup> . لتتعرف على درجة المستشفى بين المستشفيات ، ومستوى الأفراد فيه - من ناحية الغنى والفقر - ومستوى الأطباء المشرفين عليه وهكذا .

٢ - ندعم معارفنا عن ظروف المستشفى وطبيعته ، بالإحصاءات : كم سريراً فيه ؟ وكم رجلاً غنياً ؟ وكم فرداً فقيراً ؟ وكم يصرف فيه شهرياً ؟ وهكذا . . . إذ إن الإحصاء يجعلنا أقرب إلى الحقيقة .

٣ - نتصل بأفراد المستشفى ، ونسألهم مباشرة ، عن مستواهم الاجتماعي ، وعن السبب الذي دعاهم لاختيار هذا المستشفى ، وعن آرائهم في المستشفى .

---

(١) أصول البحث العلمي ومناهجه ، ص ٢٧٩ ، للدكتور أحمد بدر . . .

وللمزيد من المعرفة نراجع سجلات المستشفى ، لنعرف مقدار التقدم في العلاج ، بالنسبة إلى علاج كل فرد ، مما يساعدنا - بالطبع - في التعرف على وضع المستشفى ( مما يُعتبر جميعاً وثائق شخصية ) .

٤ - ولا يفوتنا البحث عن (تاريخ) الوضع في المستشفى ، وإذا لم يكن له تاريخ طويل ، فلا بأس بمراقبة وضع المستشفى خلال فترة معينة لنعرف طبيعة المتغيرات فيه . إن هناك احتمالات للخطأ يمكن أن ندرأها عن طريقة دراسة الحالة السابقة ، فمثلاً : قد نلاحظ أن المستشفى تجاري ، ومع ذلك يزدحم بالمرضى ، فنكون رايأ معيناً فيه هو حسن إدارة المستشفى لهم ، ولكن يتبين ، بدراسة التاريخ ، أن المستشفى كان أفضل وضعاً سابقاً ، الناس أقل إقبالاً ، وكان السبب قلة الدعاية عنه ، أما الآن فتغير الوضع بسبب صرف مبالغ طائلة ، مثلاً ، على الاعلام .

٥ - بعد أن تجمع الأوصاف الكيفية (المسح) والكمية (الإحصاء) ودراسة الأحوال الخاصة والداخلية ( الوثائق الشخصية ) والأوضاع السابقة (التاريخ) نلقي عليها جميعاً نظرة واحدة لـ (دراسة الحالة) ، من حيث العموم ولمعرفة روابط البيانات ببعضها ، واستنباط فكرة عامة عنها .

هذه هي المراحل الخمس لدراسة أي موضوع إجتماعي ، وهي تتصل ببعضها ، وقد لا يمكن الاستغناء عنها أو عن واحدة منها في أغلب الدراسات الهامة . وهكذا فعل أغلب المهتمين بالدراسات الاجتماعية . وإليك بعض الأمثلة الواقعية التي تلقي ضوءاً على طبيعة المناهج الإجتماعية الحديثة :

١ - المصلح المعروف فريدريك ليلاي (Frederic Leplay) : أنفق حوالي ربع قرن من حياته في التعرف على حياة الطبقات الفقيرة ، وملاحظة طرائق حياتهم .

وكان يأمل أن تكشف دراساته العناصر الأولية والضرورية ، التي توفر

للأسرة وللمجتمع حياة الرفاهية السليمة . وحتى يحقق هذا المثل ، فقد عاش مع حوالي ثلاثمائة أسرة ، من أسر الطبقات العاملة في فرنسا وكانت طريقته المفضلة أن يعيش مع كل أسرة وقتاً معيناً ، وأن يعوّض الأسرة مادياً نظير هذه الإقامة ، وكان يدرس مصادر دخل الأسرة بصفة عامة ، وكيفية تناولهم لأموالهم المادية والمعيشية .

ونحن نلاحظ أن قيام ليبلاي بإدخال أسلوب الملاحظة المباشرة والتفصيلية ، لبعض الأسر الممثلة لقطاع معين ، يعتبر إسهاماً مبتكراً وجديداً في دراسة المشاكل الاجتماعية ، كما وضع أسس استخدام الخطة العامة المفصلة واستخدام المقابلات والاستبانات ، ومراجعة سجل الحسابات ، وغيرها من السجلات ، لتحقيق بياناته ، كما استخدم ليبلاي دراسة الحالة ، والوصف الموضوعي للتاريخ ، وأوضاع الأفراد والجماعات<sup>(١)</sup> .

٢ - تشارلز بوث (Charles - Booth) : كان أحد المصلحين الاجتماعيين ، وقد أوجد أسلوب الدراسة الشاملة لحياة المجتمع ، وقد استعان بوث بعدد من معاونيه المقربين ، واستأجر حجرة في الحي الذي يقوم بدراسته ، وذلك لملاحظة النشاطات المختلفة لسكانه ، في جميع ساعات الليل والنهار ، وكان يعمل معهم ، ويلبس مثلهم أيضاً ، ويسعى وراء المعلومات عن طريق المقابلة المطولة (تمكث أحياناً من ١٨ إلى ٢٠ ساعة) ، وإعداد السجلات المكتوبة . واستطاع بذلك أن يعدّ لمجموعة مذهشة من البيانات والإحصاءات المبوبة التي أظهر بها العلم الصلة الرقمية بين الفقر والبؤس والحرمان ، وبين دخل وراحة الطبقات العاملة

هذه أمثلة للمناهج الخاصة بالعلوم الاجتماعية ، ويجب أن نعترف بأنها أمثلة بدائية ولكنها تصلح أن تعطينا فكرة عامة عن هذه المناهج ، تمهيداً للخوض

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨٦ .

في تفاصيل المناهج فيما يلي ، وهي خمسة مناهج ، واحد منها مرتبط بالتاريخ - ولذلك نؤخره إلى الحديث عن التاريخ - وأما المناهج الأخرى فهي : المسح ، والإحصاء ، الوثائق الشخصية - ( ثم التاريخ الذي نحذفه حالياً ) ودراسة الحالة .

#### أ- المسح :

تعريفه : هو منهج يهتم بدراسة الظروف الاجتماعية والسياسية ، والإقتصادية ، وغيرها في مجتمع معين ، بقصد تجميع الحقائق واستخلاص النتائج اللازمة ، لحل مشاكل هذا المجتمع<sup>(١)</sup> .

وضرورة المسح آتية بسبب أن الدراسة العلمية السليمة ، ينبغي أن تكون شاملة لكافة الظواهر المحيطة بالظاهرة لعل واحدة منها أو أكثر ، تؤثر تأثيراً كبيراً في الظاهرة .

والمسح يعتمد على :

- تجميع الحقائق الوصفية الدقيقة حول الموضوع . فلو أردنا دراسة حالة مجتمع معين ، نجتمع كل الحقائق المتصلة به من وضع المعيشة ، البيئة الطبيعية ، النظام السياسي ، التقاليد المتبعة ، وهكذا .

- تحليل هذه الحقائق وربطها ببعضها ، أو لا أقل تسجيلها في بيانات منسقة مثلاً : في الموضوع السابق نربط بين النظام السياسي وبين التقاليد المتبعة ، كما نربط بين وضع المعيشة وبين البيئة الطبيعية . والمسح قد يشمل جميع أفراد المجتمع ، وقد نختار منهم طائفة متفرقة تمثل السكان كلهم ، فلو ابتغيانا دراسة سكان مدينة القاهرة ، وما يتصل بعاداتهم وطرق تفكيرهم ، وطبيعة عيشتهم ، كان من الصعب تحصيل الحقائق المتصلة بهم جميعاً ، فذلك نختار

---

(١) أصول البحث العلمي ومناهجه ، ص ٢٧٩ .

من كل منطقة من القاهرة طائفة من مختلف قطاعاتهم ، الأغنياء ، والفقراء ، الكبار والصغار ، الموظفون وأصحاب المهن الحرة ، المتعلمون وغيرهم ، حتى يمثل هؤلاء جميعاً أهل المنطقة .

### أقسام من المسح :

والمسح أقسام متنوعة لأنه يهدف دراسة مواضيع شتى فقد يهدف المسح توضيح طبيعة المجتمع بصورة عامة ، أو جانب منه أو توضيح حقل التربية والتعليم منه ، أو الجانب السياسي منه ، أو الجانب الاقتصادي منه. فمثلاً : دراسات الباحثين عن الجغرافيا الإنسانية تعتبر نوعاً متقدماً من المسح الاجتماعي العام ( إذ إن هذه الدراسات لا تهدف عادة وضع الفروض وتحليلها بقدر ما تحاول إعطاء قدر كبير من الحقائق الوصفية عن وضع مجتمعاتها ) .

وبعض أنواع المسح تهدف توضيح حقل معين من المجتمع ، وذلك كالأنواع التالية :

١ - هناك دراسات عن عادات المشاهدين الأطفال للتلفزيون ، وهي التي قام بها بول ويتني (Paul - Witny) ، وقد قام هذا الباحث بنشر تقارير سنوية عن دراساته تلك وذلك منذ عام ١٩٥٠ ، وقد أشار في هذه التقارير إلى الفترة التي يقضيها التلميذ أمام شاشة التلفزيون ، والبرامج المفضلة لديه في المرحلة الأولية والثانوية ، وكذلك بالنسبة لآباء التلاميذ ومعلميهم ، كما بذل هذا الباحث جهداً في إيجاد وتوضيح العلاقة بين مشاهدة التلفزيون ، والذكاء القرائية ، أو التحصيل العلمي ، وغير ذلك من العوامل<sup>(١)</sup> .

٢ - ومن بين الدراسات الشهيرة ( في المسح الهادف توضيح حقل من حقول المجتمع وهو هنا الحقل التعليمي ) ذلك المسح الذي استغرق ست

---

(١) المصدر ، ص ٢٩١ .

سنوات للتعرف على التحصيل العلمي المقارن للرياضيات في اثني عشر دولة واشترك في هذا المسح ١٣٢٠٠٠ طالب ، ١٣٠٠٠ مدرّس ، ٥٠٠٠ مدرسة .

٣- وهناك دراسات تقوم بها معاهد خاصة في العالم ، لمسح الحقل السياسي ، في المجتمع ، كتلك الدراسات الدورية التي يقوم بها معهد غالوب في الولايات المتحدة ، لتحديد اتجاهات الرأي السياسي في أميركا . ومنذ عام ١٩٦٠ بدأت الاستفتاءات الشعبية السياسية ( والمسح السياسي ) تتنبأ بدقة نسبية معقولة<sup>(١)</sup> . والمسح المتكرر خلال فترة طويلة ، يفيد في توضيح علاقة الظاهرة ، بالمتغيرات من حولها ، فلو كررنا مسح القدرة على القراءة السليمة ، عند طلاب الابتدائية عشر مرّات كل عام مرّة نعرف طبيعة المناهج الدراسية ومدى نموّها .

#### ب- الإحصاء :

لا فرق بين المسح والإحصاء ، إلا أن المسح يتميز بالجوانب الوصفية الكيفية من الأشياء ، وفيه جانب شمول وعموم إذ إنه يتناول عادة الظواهر الوصفية المرتبطة بالموضوع ، بينما الإحصاء يتركز على الجوانب الكمية العددية وفيه الاختصاص والتركيز . وأياً كان الفرق فإن الإحصاء سيبقى أداة فعّالة من أدوات المسح إذ إن الحقائق الوصفية تعتمد كثيراً على الإحصاءات الدقيقة ، بالرغم من أنها تمتلك أدوات أخرى غير الإحصاء والهدف من الإحصاء قد يكون مجرد معرفة طبيعة الظاهرة ، كما يهدف إحصاء عدد التلاميذ في المدرسة ، توزيعهم على الصفوف ، أو توزيع الكتب عليهم ، بينما قد يهدف الاستدلال بالظاهرة ، وبما فيها من أرقام وأعداد على كل الظواهر المحيطة كما إذا ابتغيّا من إحصاء عدد الطلاب معرفة مستوى المدرسة في البلاد ، ومدى دلالة ذلك على الوضع التعليمي العام ، ( إذا كان في الصف الواحد مثلاً ٣٠ نعرف تقدم البلاد تعليمياً

---

(١) المصدر ، ص ٢٨٣ .

بينما إذا كان ٦٠ طالباً نعرف تخلفها وهكذا ) . فالإحصاء إذاً قسمان :

١ - الإحصاء الوصفي : وهو الذي يهدف مجرد معرفة الظاهرة .

٢ - الإحصاء الاستدلالي : وهو الذي يهدف معرفة ظواهر مشابهة من خلال معرفة الظاهرة ، والإحصاء يجب ألا يتم عشوائياً ، إنما ضمن خطة يضعها الباحث وفق رؤيته إلى المشكلة ، والفرضية التي يريد أن يتأكد من صحتها .

والإحصاء يتم عبر ثلاث مراحل ، هي :

١ - جمع البيانات .

٢ - تجهيز البيانات .

٣ - تحليل البيانات .

**جمع البيانات الإحصائية :**

وعملية الجمع<sup>(١)</sup> لا بد أن تتم بتحديد المعلومات ، التي يريد الباحث أن يجمعها من تحديد المجال الإنساني ثم الحقل الخاص منه ، والذي يهدف الإحصاء التعرف عليه ( مثلاً : تحديد مجتمع الكويت وحقل التعليم منه بالذات ) ثم تحديد نوع الدراسة ، ومدى توسعها والهدف منها ( أي طبيعة الفروض التي يراد معرفة صحتها ) . . . وتشمل عملية تجميع البيانات جانبين : تصميم العينة وأدوات تجميع البيانات عنها :

**أولاً : تصميم العينة :**

لا بد أن يكون تصميم العينة بحيث تتوفر فيها عدة مميزات منها : أن تكون ممكنة البحث ، فلو اختار أحد الباحثين لعينته رجال الدولة الكبار ، الذين يصعب إعداد بيانات كافية عنهم فإنه لا ينجح .

---

(١) راجع بتفصيل الدكتور أحمد حيدر أصول البحث العلمي ومناهجه .



ولا بد أن تكون أدوات البحث المتوافرة لدى الباحث كافية لاستيعاب العينة ، فلا تكون العينة أكبر حجماً من قدرات الباحث ، وقبل البدء بعملية الإحصاء ، لا بد أن يوفر الباحث كافة الوسائل التي تعينه على دراسته ، ( ابتداءً من الأقلام والأوراق المتنوعة ، وانتهاءً بكل ما كتب حول موضوع بحثه من قبل الدارسين السابقين ) .

حتى إذا شرع في دراسته لا تقف أمامه بعض العقبات الصغيرة ، التي تمنعه عن المتابعة ، ومعلوم أن الرصيد المالي جانب هام من وسيلة البحث التي يجب توفيرها سلفاً .

وأخيراً ، وأهم من كل ما مضى ، يجب أن يكون اختيار العينة بشكل تمثلي للمجموعة التي نريد بحثها .

واختيار العينة متعرض لأخطاء معينة يجب الانتباه لها والتحصن ضدها ، وهي الأخطاء التالية :

١ - أخطاء ناتجة من التحيز في عملية الاختبار . فإذا كان الباحث يحب طائفة واختارها لحبه لها ، وكان يبغض طائفة ورفضها لكرهه لها ، أو إذا كان يسهل عليه أو يصعب عليه الإتصال بطائفة أو بأخرى ، فعاملها على أساس الصعوبة أو اليسر ، فإن العينة لا تكون أبداً ممثلة للمجتمع الذي يريد دراسته ، وهذا الخطأ ينتشر في تلك العينات التي يختارها الباحث بنفسه دون تلك العينات التي تختارها له القرعة مثلاً .

٢ - أخطاء الصدفة : كما إذا كانت العينة صغيرة الحجم ، بالنسبة إلى أصل الموضوع ، إذ هناك معادلة عكسية بين حجم العينة وبين أخطاء الصدفة ، فلو كانت العينة نصف المجموعة فإن أخطاء الصدفة قليلة جداً بينما إذا كانت العينة تمثل فقط واحد من مائة من الموضوع ، فإن احتمالات الخطأ بالصدفة ترتفع كثيراً ، وذلك لأن المحتمل أن تكون هذه العينة تتميز بأمور لا توجد (صدفة)

في الموضوع الاساسي الذي لابد أن تمثله العينة . وكيفية تجنب هذا الخطأ أن تكبر حجم العينة .

٣ - أخطاء الأداة : وهي تأتي ، عادة ، إذا كانت الوسيلة التي تستخدم في دراسة العينة غير مقبولة ، مثلاً : إذا كنت تجري أحاديث مع العينة بالهاتف وهم يتزعجون من ذلك فلا يمكن أن تجمع آراء صحيحة موضوعية ، لأن الآراء التي يكونها الأفراد في حالة الضجر غير موضوعية عادة .

وهذا صحيح أيضاً في اختيار لغة التفاهم ، والتعابير المستخدمة ، والهيئة الخارجية للباحث حين المقابلة وما أشبه . واختيار العينة قسمان ، فقسم يختار العينة عشوائياً ، وقسم يختار بسابق تصميم ، وعشوائية الاختيار ( مثلاً القرعة ) تتميز بأن خطأ التحيز لا يتدخل فيها . بينما تتميز طريقة الاختيار في تقليل نسبة الصدفة فيها<sup>(١)</sup> .

### ثانياً : أدوات تجميع البيانات :

هناك عدة وسائل لتجميع البيانات ، تتميز كل واحدة منها بميزة تتلائم مع طائفة من المواضيع أكثر من غيرها ، لذلك يجب على الباحث أن يلاحظ موضوعه ، ثم يختار الأداة المناسبة له ، ونوصيه باختيار أكثر من أداة واحدة في ذلك ، أما الأدوات فهي :

١ - طريقة جمع البيانات عن الأشخاص تحريراً ، بالإجابة على أسئلة مكتوبة ، ومعدة سلفاً بدقة وتسمى الاستبيان .

٢ - طريقة جمع البيانات عن الناس بالمقابلة الشخصية ، بغية الحصول على إجابات شفوية وتسمى المقابلة .

---

(١) راجع أقسام العينات بتفصيل المصدر السابق ، ص ٣٢٤ - ٣٣١ .

٣ - طريقة التعرف على أسلوب الناس على الطبيعة وفي الميدان وتسمى بالملاحظة .

هذا مجمل الطرق ، أما التفصيل ففيما يلي :

### الاستبيان :

ويعني إعداد مجموعة أسئلة وإرسالها إلى طائفة مختارة من المجتمع للإجابة عليها ، وكثيراً ما يقع الباحثون في أخطاء تؤثر على منهج الاستبيان . وهذه الأخطاء هي التالية :

- السؤال عن معلومات مبتذلة ، يمكن الحصول عليها من مصادر ثانية .

- عدم تحليل الاستبيان بشكل يشجع الناس على الإجابة ، فيجيب الواحد منهم تخلصاً من السؤال ، لا إخلاصاً للحقيقة .

- غموض الأسئلة مما يحير المجيب حول المفهوم من الكلمات ، وألفاظ الأسئلة ، ويشوش رؤيته حولها .

- عدم توضيح المطلوب كتابة من المسؤول ، فقد يقتضي أن يجيب الفرد إجابة مفصلة ، بينما يكتفي في أحيان ثانية الإجابة بالإيجاب أو السلب .

- تطويل الأسئلة مما يسبب ضجر المسؤول .

- إملاء الجواب سلفاً على الفرد ، وذلك في صياغة السؤال ، بشكل يوحي بإجابة معينة .

- عدم حساب احتمالات الإهمال إذ إن كثيراً من المسؤولين لا يجيبون عن الأسئلة رأساً ، فإذا أهملنا حساب هذه الطائفة فربما نقع في أخطاء ، وذلك أن نختار مائة شخص من مختلف القطاعات ، ليجيبوا على الأسئلة ، فإذا كانت المئة كلها تمثل المجتمع ، بحيث لو نقص العدد إلى تسعين لا يمثل المجتمع ، وقعنا في خطأ من جراء سكوت ٢٥ ٪ منهم عن الإجابة ، من هنا يجب أن نحسب

احتمالات الإهمال ، ونختار مائة وخمسين لتمثيل المجتمع بحيث لو لم يجب ٢٥ ٪ يبقى لدينا مائة شخص .

## المقابلة :

وهي تعني : تحديد مجموعة أسئلة ، وطرحها شفويّاً على طائفة مختارة من المجتمع ( تمثله تمثيلاً صحيحاً ) بهدف التعرف على الحقائق . وتتميز المقابلة عن الاستبيان الكتابي بما يلي :

- يمكن الحصول عن طريق المقابلة على المزيد من المعلومات ، التي قد يتردد الناس عن الإجابة عليها كتابة . بينما يستخرجها الذي يقوم بالمقابلة بطرق غير مباشرة .

- يمكن أن تكون الأسئلة المكتوبة غامضة ، فتشوش الحقائق كما سبق ، بينما طرف المقابلة يقوم عادة بتوضيح الأسئلة .

- كما أن التشجيع على التكلم لا يتم في الاستبيان ، بالقدر الذي يتم بالمقابلة ، خصوصاً إذا شرع المتحدث في جلب ثقة المستجوب قبل البدء بالمقابلة ، ولكن ومن طرف آخر تتميز طريقة الاستبيان بما يلي :

١ - إن عملية الاستبيان أسهل وأقل تكلفة بعكس المقابلة التي تستغرق وقتاً وجهداً كبيرين ، ويصرف أوقات الباحثين عبثاً .

٢ - كثير من الناس تزيد قدرتهم على الكتابة ، عن قدرتهم على الحديث ، وبالنسبة إلى هؤلاء تعتبر طريقة الاستبيان أفضل من طريقة المقابلة .

٣ - الاستحياء من السائل قد يتسبب ، في المقابلة ، في السكوت عن العيوب ، والجوانب السلبية لحياة المستجوب الخاصة ، بينما قد لا تكون طريقة الاستبيان كذلك .

والأفضل الجمع بين طريقتي المقابلة والاستبيان على أن نجعل المقابلة

متأخرة للتأكد من نتائج ودوافع الاستبيان .

وهناك عدّة أخطاء يجب أن يتجنبها الذي يقوم بالمقابلة وهي :

١ - ألا يوجه السؤال إلى الفرد ، في حشد من الناس ، الذين قد يؤثر وجودهم على طبيعة الأجوبة ومدى دقتها .

٢ - ألا تكون الأسئلة غامضة حتى يتشوش ذهن المستجوب ، فتكون إجابته كذلك غامضة ، أو خاطئة .

٣ - ألا يهمل الجوانب النفسية ، التي قد تعترض طريق الاسترسال في الجواب ، وبالعكس يجب أن يشعر المستجوب أنه مساهم بفعالية في الدراسة ، وذلك بتوضيح هدف المقابلة ، ومدى المنافع الانسانية التي تجتني من المقابلة .

٤ - ألا يملئ على المستجوب إجابة معينة ، من خلال طريقته في صياغة الأسئلة .

٥ - ألا يعتمد على ذاكرته في تسجيل الأجوبة وإنما يكتبها بموضوعية ، وإذا غمضت عليه إجابته عاد وسأل عنها مرة أخرى حتى لا يتسبب في الخطأ .

٦ - ألا يجعل الفرد يتهيب المقابلة ، وذلك بجعله يشعر أنه أمام عمل كبير ، وبالعكس يجعله يندفع إلى الحديث بعفوية وحب وصراحة .

### الملاحظة :

وهي تعني : ملاحظة طريقة الإنسان في الحياة - مثلاً ، أثناء مشاهدته للأفلام - أثناء قيامه بالنشاط الرياضي ، أثناء أدائه لوظائفه الإجتماعية وهكذا . . . وهذه الملاحظة تستهدف بالطبع التعرف على الإجابة عن ذات الأسئلة التي أردنا الحصول على الإجابة عنها - سلفاً - عن طريق الاستبيان والمقابلة . ولكن طريقة الملاحظة أصعب وأكثر شمولاً ، لأنها تتصل ببعض الجوانب التي لا يحب الأفراد الإفصاح عنها ، بل تتصل بجوانب ينتبه إليها الفرد

نفسه ، لأنه لا يعتني بها بعكس الباحث الذي يعتني بكل صغيرة وكبيرة من عادات الناس . ثم إن الملاحظة تتطلب أقل عدداً من المفحوصين بالقياس إلى سائر أدوات الاختبار لأنها أقرب إلى الحقيقة . وكما يقول الدكتور أحمد حيدر :

« ويمكن تسهيل عملية تحليل النشاطات المتعددة المتعلقة بالمفحوصين ، بواسطة وسيلة الملاحظة المنظمة عن طريق استخدام الأجهزة العلمية ، وأدوات التصوير الحديثة الدقيقة لآلات التصوير المتحركة ، وغيرها من الأدوات ، والوسائل السمعية والبصرية ، بالإضافة إلى المذكرات التفصيلية والخرائط ، التي تشير إلى علاقة البيئة الجغرافية بتوزيع السكان والموارد الطبيعية واستمارات البحث ( وهي التي تحتوي على قائمة بالمواد المطلوبة لملاحظاتها ، ويمكن التأشير عليها بكلمة نعم / أو لا مثلاً ، وتفيد هذه الاستمارات في إمكانية تحويل معلوماتها إلى بيانات رقمية ) .

هذا فضلاً عن الاستعانة بنظام الفئات ( وذلك لتصنيف السلوك في فئات تساعد الباحث على وصف المواقف الاجتماعية ، بطريقة كمية ) كما قد يستعان أيضاً بمقاييس التقدير ، وذلك لتسجيل درجة إسهام كل عضو من أعضاء الجماعة ، في المناقشة العامة .

فهو في هذه الحالة يستخدم ، مثلاً ، مقياساً للتقدير يقسمه من صفر إلى ١٠ ، أي يشمل من عدم المساهمة إطلاقاً في المناقشة إلى أقصى المقياس ، وهو المساهمة الكاملة في المناقشة وباقي النقاط تدل على درجات مختلفة من البعد الذي يمكن ملاحظته ومعنى ذلك : ترجمة المواقف الاجتماعية أو السياسية بطريقة كمية <sup>(١)</sup> .

هذا وينبغي أن يعتمد الباحث في كل هذه الظروف على فكره وفطنته ، حتى لا يصبح مجرد آلة التسجيل للملاحظة ، أو مجرد عبد خاضع للأرقام بل

---

(١) المصدر ، ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

يقوم هو أيضاً بدور المحلل والمتدبر ، حتى يوفر على نفسه كثيراً من الوقت والجهد واحتمالات الخطأ .

### أخطاء الملاحظة :

وهناك عدة أخطاء في الملاحظة ينبغي التحصن ضدها حتى تكون الملاحظة أقرب إلى الحقيقة ، وهي :

١ - ينبغي توفير العفوية في الملاحظة ، حتى لا يشعر الفرد بأنه تحت مظلة الملاحظة فيتكلف في السلوك ، على غير عاداته ، كما أن حضور أجهزة القياس المرتبطة بالملاحظة قد تقلل العفوية أيضاً .

٢ - ينبغي ألا يعتمد الملاحظ على ذاكرته كثيراً ، بل يسجل ما يلاحظه فور حصوله عليه ، وبالدقة التامة ، وبدون التفسير ، إذ كتابة التفسير في وقت تسجيل الملاحظة ، قد تسبب في أخطاء هي أولاً : التسرع ، وثانياً : الرؤية الجزئية للسلوك ، وثالثاً : لأن الملاحظ بشر يتأثر بالسلوك ، وينفعل بالتصرفات ، لذلك إذا أراد أن يفسر فإنما يفسر في ظروف الانفعال فتزيد عنده احتمالات الخطأ .

٣ - ينبغي أن يعرف الملاحظ أية معلومات مجهولة يريد دراستها ، من موضوع ملاحظته ، حتى لا يضيع وقته في ملاحظة أمور كان يمكن التعرف عليها بطرق أخرى ، كذلك يتفرغ للمعلومات الأساسية التي يجهلها .

٤ - وينبغي أن يعرف نوع الأجهزة والوسائل التي تنفعه في ملاحظته ، ففي كل حقل ينفع نوع خاص ومتميز من الأجهزة والوسائل دون غيرها ، كذلك يعتبر تحديد هذا النوع توفيراً للوقت والجهد والتردد ، حين تسجيل الملاحظة .

٥ - وينبغي أن يهيء قائمتين : قائمة تسجيل الملاحظة ذاتها ، وقائمة لتسجيل التفسيرات المرتبطة بها .

٦ - وينبغي أن يقسم البيانات التي يسجل عليها ملاحظاته إلى مراحل ،

ليكتب في كل مرحلة ، حالة الفرد ، موضوع ملاحظاته ، في تلك المرحلة ، وذلك لضمان تدرج البحث ومرحيته .

٧- يجب أن ينمي الباحث ، في نفسه ، القدرة على الملاحظة الدقيقة الشاملة بسرعة ، ذلك أن هذه القدرة يمكن تنميتها بالتركيز والانتباه والتجربة المكررة ، كما أن القدرة على استخدام الوسائل بسرعة ومهارة يجب أن تنمى - هي الأخرى - عند الباحث حتى تقل عنده احتمالات الخطأ أيضاً .

### عيوب الملاحظة :

هذا وللملاحظة عيوب ذاتية لذلك ينبغي ألا يقتصر الباحث عليها ، إنما يدعمها بالطرق الأخرى ، للاختبار والعيوب هي :

١ - لأن كثيراً من الأحداث الهامة - التي تقع في حياة الناس - تقع فجأة ودون سابق معرفة ، فالباحث الذي يهتم بهذه الأحداث ، لا يستطيع تسجيل ردود فعل الأفراد تجاهها ، عن طريق الملاحظة المباشرة . وإنما فقط عن طريق الاستبيان والمقابلة .

٢ - كما أن هناك أنواعاً من السلوك ، ذات طابع خاص ، لا يسمح - عادة - للملاحظ ، التعرف عليها مباشرة ، كالسلوك البيتي للأفراد فيجب أن يعتمد الباحث عليه بطرق أخرى .

٣ - ولأن الملاحظة محدودة ، بالوقت الذي تحدث فيه الأحداث ، ولأن كثيراً من الأحداث تقع خلال فترة عام أو أكثر ، فإن الملاحظة المباشرة تصبح شبه مستحيلة في مثل هذه الأحداث .

٤ - كما أن ظروف الطقس وما أشبه تؤثر في الملاحظة وتضعب على الباحث متابعة أحداث المفحوصين .



## تجهيز البيانات الاحصائية :

بعد جمع البيانات من مصادر متعددة ( الاستبيان - والمقابلة - والملاحظة المباشرة ) نشرع في تجهيز البيانات ، ويعني ذلك تهيئتها لغرض الدراسة والتحليل ، والتجهيز يتدرج في المراحل التالية :

### أ - المراجعة :

١ - في البداية لا بد أن نعرف ، هل أن القدر المتجمع من المعلومات كافٍ في الإيفاء بالغرض المطلوب ؟ وبالتالي ، هل ينفع في الإجابة على الأسئلة التي وضعناها قبل عملية الاحصاء أم لا ؟ فإذا كانت كافية قمنا بالمرحلة التالية ، وإلا كملنا نقصها عن طريق تكرار عملية جمع البيانات .

٢ - ثم ينبغي التعرف على معاني الألفاظ والكلمات التي استخدمت في البيانات ، حتى لا نفرسها تفسيراً عشوائياً متسرعاً .

### ب - التصنيف :

١ - الهدف من التصنيف ، هو تجميع البيانات المشابهة إلى بعضها فمثلاً : جعل ذوي الأعمار المتشابهة المتقاربة في فئة ، وذوي المهن الواحدة في فئة ، وهكذا .

٢ - ومن الطبيعي أن الباحث يصنف الناس حسب اختلافهم في موضوع بحثه ، أي بالقياس إلى الصفات التي قد تؤثر في نتيجة دراسته ، مثلاً : لا يهتم الباحث الذي يهدف معرفة ( مستوى التعليم في منطقته ) كثيراً بما يأكل الأفراد ، فلا يصنفهم على أساس من يأكل غالباً الرز ، ومن يأكل غالباً الخبز ، وهكذا فإن عملية التصنيف مرتبطة منذ البدء بموضوع دراسة الباحث ، والهدف من وراء هذه الدراسة .

٣- وهناك بعض التوجيهات التي تهمل الباحثين في عملية التصنيف ، فيما يلي نستعرض بعضاً منها ، وهي :

● ألا يضع الباحث الفرد الواحد في عدة فئات - حتى إذا اشترك في عدة صفات - فإذا أراد أن يبحث المستوى الدراسي لبلدٍ وصنف الناس إلى محامين ودكاترة طب ، وكان هناك دكتور طب يحمل شهادة الحقوق أيضاً لا يضعه في مكانين ، إذ الغرض من التصنيف هو فرز المعلومات ، والذي لا يحصل بإعادة ذكر الفرد في مقامين .

● أن يتبع الباحث نظاماً سهلاً للمراجعة ، مثلاً نظام الحروف الهجائية أو الأرقام المتتالية أو نظام العام والخاص ( مثلاً يكتب الدكاترة ، ثم يقسم إلى دكاترة طب ، وجراحة ، وطب أسنان ، والبيطرة ، والصيدلة ، و . و . ويقسم الطبيب إلى أخصائي ، وغيره ، وهكذا . . . ) أو نظام التفرع ( تماماً مثل الشجرة التي ترسم في بيان نسب القبائل ) وبالطبع تصنيف كل شيء يتناسب مع طريقته الخاصة في البيان .

● أن يضع تعريفاً مقتضباً عنده للفئات التي يصنف الناس إليها ، حتى لا يشبه عند التصنيف ، فيضع بعض الناس في فئة أخرى ، مثلاً : لا بد أن يعرف أن دكتور الطب هل يشمل الصيدلي أم لا ؟

● أن يضع رمزاً مناسباً لكل فئة لتنفيذه في العملية التالية .

ج - الترميز :

ويدعى أيضاً ( بتفريغ البيانات ) ويُقصد منه : أن يبدل الباحث البيانات التي حصل عليها إلى أرقام ورموز وصور ورسوم وخطوط بيانية ، ليسهل عليه مراجعتها ومقارنتها ببعضها وهكذا .

وهناك بعض الأدوات الحديثة ، التي تستخدم في عملية الترميز « تفريغ

البيانات « كالألة التي تعتمد على التنقيب <sup>(١)</sup> .

وينبغي استخدام الآلات والوسائل الحديثة لتقليل نسبة الخطأ ، ولتوفير الجهد خصوصاً في الإحصاءات الكبيرة .

#### د - محاسبة الاحتمالات :

يعتمد الإحصاء على حساب نسبة احتمالات الخطأ في العملية الإحصائية ، وكلما ارتفع عدد مرات الإحصاء ، كلما قلت نسبة الاحتمالات ، إذ ان عملية الإحصاء تعتمد على التعميم ، والتعميم قد ينطلق من عدد كبير فيكون أقل خطأ ، وقد يعتمد على عدد صغير فيكون بعكس ذلك ، فمثلاً : لو ألقينا على الأرض عملة معدنية ، فيحتمل أن يكون في الوجه الظاهر الصورة وفي الوجه الباطن هو الرقم ، وفي المرة الثانية ، يكون نفس الاحتمال ممكناً ، ونسبة ٥٠ ٪ ، أي من دون أن يكون جانب من الاحتمالين مقدماً على الجانب الثاني ، ولكن إذا ألقينا ألف مرة على الأرض ، فإن النتيجة ستكون في الأغلب الأكثر أن (٥٠٠) مرة وقعت العملة على الصورة و (٥٠٠) مرة على الرقم .

إذ إن نسبة المصادفة ( أو قانون الصدفة ) تقتضي أن تكون نسبة الصدفة ٥٠ ٪ . وهذه النسبة لا تظهر عادة ، في المرة الأولى والثانية ، ولكنها إذا ارتفعت إلى ألف مرة فإنها تنبئ ، والباحث يجب عليه أن يضع في حسابه أبداً نسبة الصدفة في عملية الإحصاء حتى يعرف مدى صحة تنبئه على وجه التقريب . وكمثل لحساب هذه النسبة ، نستطيع أن نذكر شركات التأمين على الحياة ، التي تقوم بتحليل سجلات وإحصاءات الوفاة حتى تكتشف أعمار الناس بحساب الصدف ، ولذلك يستطيع مستشار الشركة أن يحسب بشيء من الدقة ميعة موت

---

(١) راجع كتب « مبادئ الإحصاء » لمؤلفه عبد المنعم ناصر الشافعي ط : القاهرة ١٩٦٠ - ومقدمة في الإحصاء الاجتماعي ، ج ١ ، ص ١ ، ط القاهرة ١٩٦٣ ، وأصول البحث العلمي ومناهجه ، باب الإحصاء أحمد بدر ، الكويت ١٩٧٣ .

أكثر الزبائن لا على تحديد أشخاصهم وتقسط على أيام حياتهم المقدار الذي يجب عليها أن تدفعه لذويهم بعد الحياة .

ومن هنا ، نعرف أن الأحداث التي لا يمكن التنبؤ بها بالنسبة إلى شخص واحد يمكن التنبؤ بها بالنسبة إلى جماعة ، وكلما كبرت الجماعة كلما قلّت احتمالات الصدفة في حياتهم .

### المتوسط الحسابي :

ويستحسن في حساب الاحتمالات طريقة المتوسط الحسابي ، التي تجمع احتمال مجموع المفردات ثم تقسم المجموع على عدد المفردات .  
مثلاً ، إذا مات عدة أشخاص ، في هذه الأعوام ( ٣٠ - ٣٥ - ٤٠ - ٤٥ - ٥٠ - ٦٠ - ٧٠ - ٨٠ ) فما هو المتوسط الحسابي لهم ؟  
نعرف ذلك بجمع الأعداد ( ٣٠ + ٣٥ + ٤٠ + ٤٥ + ٥٠ + ٦٠ + ٧٠ + ٨٠ = ٤١٠ ) ثم نقوم بتقسيمها على عدد الأفراد (الموتى) وهو (٨) وهكذا  $410 \div 8 = 51,25$  ، والسؤال ، هل يكفي أن نعرف المتوسط الحسابي علمياً ؟ بالطبع (لا) وإنما لا بد أن نعرف قياس نسبة الصدفة ، التي يقع عليها هذا المتوسط أي أن نعرف كم رجلاً يموت عادة في العام ٥١,٢٥ من عمرهم وإذا مات في غير هذا العام ، فعادة كم هي المسافة بين المتوسط الحسابي وبين الواقع الخارجي ؟  
وبتعبير آخر :

« التعرف على الوسط الحسابي أو الوسيط ، والمناول لأي مجموعة من القياسات من شأنه أن يزود الباحث بمعلومات مفيدة تصف البيانات بالنسبة للتركعات المركزية ، ولكن الإحصائي لا يهتم بالتركعات المركزية وحدها ، ولكنه يهتم أيضاً بكيفية تشتت أو توزيع مختلف القياسات ، في علاقاتها ، بعضها ببعض . ومن أجل ذلك فإن الإحصائي يستفيد مما يعرف باسم المنحنى

---

(١) والرمز الرياضي الدال عليه هو المتوسط الحسابي « مجموع الكمية على عدد الكمية » .

## تحليل البيانات :

بعد أن ينهي الباحث عملية جمع ، ثم تجهيز البيانات ، يشرع في تحليلها علمياً ، وهذه أخطر مرحلة في العملية الإحصائية ، إذ إنها تخضع للتقدير السليم الذي لا بد أن يتحلى به الباحث ، حتى يعرف كيف ينتقل من الخاص ( وهو هنا الأعداد الصامتة ) إلى العام ( وهو هنا دلالة الأعداد على السنن والقوانين ) وكلما كانت الأعداد - التي تم حصرها وتجهيزها في العملية الإحصائية - أكبر وأكثر تنوعاً كلما كان التعميم أقرب إلى الحقيقة .

ذلك لأن كثيراً من الباحثين يتسرعون في إصدار الأحكام العامة ، بعد ملاحظة مجموعة من الأعداد . بينما الأفضل التريث حتى يتم الاطمئنان إلى عدم وجود أية علة للمظاهرة ، سوى ما توجد في الأعداد المحصورة بالإحصاء .

وأبسط مثل للتعميم ما قامت به جمعية السرطان الأميركية ، من أعداد البيانات لعادات التدخين لعدد من الأميركيين بلغ ( ١٨٨٠٠٠ ) فيما بين عامي ٥٠ - ٦٩ ، ثم بحثت الجمعية أسباب وفاة أعضاء هذه المجموعة ، وقد انتهت الجمعية بناءً على هذه الدراسة إلى وجود ارتباطات واضحة ، تؤيد بشدة التعميم ، الذي استخلصته ، بأن التدخين ليسبب كلاً من السرطان وأمراض القلب (٢) .

هذه الدراسة قامت بالتعميم ، حيث لم تقم بدراسة كل الذين أصيبوا بالسرطان من جراء التدخين ، إنما قامت بدراسة عينة منهم ، فكيف استطاعت الدراسة التعميم من عينة إلى المجموع .

---

(١) أصول البحث العلمي ومناهجه ، ص ٣٧٣ .

(٢) المصدر ، ص ٤٨٩ .

في الواقع عملية التعميم ذاتها عملية عقلية بحثة لا يمكن أن تعلق ، ولكن أهم عنصر فيها هو تقليل احتمالات الصدفة إلى أن تصل إلى قريب من مستوى الصفر ، أي تصل إلى ٠.٠١ ٪ ، مما لا يضع العقل أي حساب علمي لمثل هذا الاحتمال ، فمثلاً : لو مات شخص بعد إصابته بجلطة قلبية ، فإن احتمال أن يكون موته بهذا السبب أو لسبب وجود انسداد في دماغه في ذات الوقت هو ٥٠ ٪ ، ولكن هذا الاحتمال يهبط لو مات شخص آخر بجلطة قلبية إلى ٢٥ ٪ ، أما في الشخص الثالث والرابع ، فإن الاحتمال يهبط إلى درجة تقترب إلى الصفر ، مما لا يعتني به العقل . وهكذا يعتمد التعميم على تقليل احتمالات العكس (أو النفي) إلى أن تصل إلى حد لا يعتني به العقل .

وبالطبع لا يخضع اعتناء العقل وعدم اعتناؤه بالاحتمال ، ولا يخضع لحساب رياضي ، بل لمجموعة أحكام عقلية عفوية ، تشبه ومضات النور ، التي تطلقها الشهب في السماء ، لا تخضع للحسبان<sup>(١)</sup> .

ومع ذلك فقد وضع بعض الباحثين طريقة علمية لقياس التعميم السليم ، وهو ما يسمى بـ ( طريقة الغرض الصفري ) وقد شرح لنا العالم فيشر كيفية اختبار الغرض ، عن طريق استخدام الطريقة الإحصائية ، كما يلي :

فهو يحدثنا عن سيدة تؤكد أنها عندما تذوق كوباً من الشاي المخلوط باللبن ، فإنها تستطيع أن تحدد على وجه الدقة ، إذا كان اللبن ، أو الشاي ، هو الذي تم صبّه في الكوب أولاً ، وهناك على الأقل ثلاثة افتراضات مختلفة بناءً على تأكيد هذه السيدة ، هذه الافتراضات هي :

- أن لها هذه القدرة ، التي تدعيها ، وفي هذه الحالة فإنها تستطيع دائماً أن تميز ، ومجرد خطأ واحد سيبطل الغرض<sup>(٢)</sup> ، بينما نجاحها مئاة أو آلاف المرات

(١) راجع فصل ضمان الأعداد في القسم الخامس من هذا الكتاب . .

(٢) طبعاً هذا فيما لو افترضنا أن القدرة تنافي مع الخطأ ، وتساوي العصمة .

سوف لا يثبت أنها معصومة من الخطأ .

- أن لها بعض المواهب في هذا المضمار ، وأن عليها أن تبرهن ، وتظهر بعض النجاح في التمييز ، ولكن الفرض في هذه الحالة يعتبر غامضاً على الأرجح .

- ليس لهذه السيدة قدرة على التمييز بين النوعين من الشاي ، وإذا حدث أنها ميزت بينهما فإن ذلك سيكون محض مصادفة . وهذا هو الفرض الصفري .

ولوضع قدرات هذه السيدة . والفروض المبنية أعلاه موضع الاختبار ، فقد أعد (فيشر) ثمانية أكواب من الشاي ، وهذه الأكواب متشابهة على قدر الإمكان في كل شيء ، فيما عدا أن اللبن قد صب أولاً في أربعة أكواب ، والشاي قد صب أولاً في الأربعة الأخرى ، ثم طلب فيشر من السيدة أن تقسم الأكواب الثمانية إلى مجموعتين ، كل منهما أربعة أكواب ، بحيث يكون هذا التقسيم صحيحاً ومطابقاً لما قام به فعلاً . إن الفرض ضد نجاحها في هذا العمل لمجرد التخمين ، يمكن أن تحسب بنسبة ٧٠ إلى واحد ، وبمعنى آخر - للفرض الصفري - يتوقع أن تقسم الأكواب إلى مجموعتين ، بشكل صحيح ، مرة واحدة فقط في سبعين محاولة ونظراً لأن الفرص ضد نجاحها كبيرة جداً ، فإن إظهار قدرتها على التمييز الصحيح ، بفصل الأكواب في الجماعات الصحيحة من المحاولة الأولى سيكون برهاناً مقبولاً على موهبتها ، وحتى لو كانت الفرص ضد نجاحها ليست أكثر من ٢٠ إلى ١ ( ٥٪ من مستوى الثقة ) فإن فرص نجاحها تكون غير متوقعة ، وبالتالي ، فإن الفرض الصفري - إذا نجحت في المحاولة الأولى - يكون باطلاً في عرف كثير من الباحثين<sup>(١)</sup> . . .

حساب الاحتمالات في الاحصاء :

إن أي عملية إحصائية تتضمن نسبة من احتمالات الخطأ ، بسبب الأخطاء

---

(١) المصدر ، ص ٣٩٠ .

التي تتضمنها طبيعة الإجابات الغامضة ، وغير الموضوعية من قبل الأفراد ، أو بسبب التصنيف السيء من قبل الباحثين ، وإذا تراكمت الإحصاءات في مواضيع شتى ، واعتمد الباحث عليها اعتماداً كلياً ، تسبب ذلك في تراكم نسب الأخطاء ، وبالتالي في أن تكون النتيجة خاطئة .

وكمثل لهذه الحقيقة إن ما قامت به جمعية مكافحة السرطان الأميركية ، من إحصاء لأسباب الوفاة لـ ( ١٨٨٠٠٠ ) أميركي ، ممن يمارسون التدخين ، كان يحتوي على نسبة من الخطأ ناشئة من :

- أن أسباب الوفاة غامضة عادة ، والإجابة عليها من قبل ذوي الميت ، والجهات المختصة لا تكون مضبوطة بالمائة مائة .

- تصنيف الميت : إنه من المتعودين على التدخين ، أم لا ؟ يخضع هذا التصنيف لرؤية الباحث . وفيها نسبة محترمة من الخطأ .

- هذا ، إن لم نقل في وجود نسبة من الخطأ ، في طريقة جمع وفرز الاحصاءات ، وأخذ المعدل منها .

هذا في إحصائية واحدة ، فإذا كان لدينا بحث يعتمد على عشرين عملية إحصائية أو أكثر ، فكم تتراكم نسبة الخطأ ؟ من هنا ينبغي الالتفات إلى أن الاحصائية ليست حجة قاطعة ، ويجب ألا يعتمد عليها فقط ، إنما أيضاً يعتمد الباحث على عقله ورؤيته الدقيقة إلى المشاكل وإعتماده على عدة احصاءات متماثلة في موضوع واحد .

العينة :

أي عينة تمثل المجتمع ؟

إن استنتاج الباحث من عملية احصائية ، مرتبط بمدى صحة تمثيل العينة لذلك المجتمع ، وكلما كان المجتمع أكبر كانت العينة أكثر تمثيلاً لأنها تصبح



بالطبع أكبر حجماً ، فمثلاً : إذا كان في المجتمع مليون إنسان ، تكفي العينة التي تمثل ١٠ ٪ منه فقط ، وهو يعني مائة ألف بل يكفي ٢ ٪ أي عشرون ألفاً ، لأن اختيار عشرين ألفاً - موزعين على المجتمع - يمثل عادة اتجاه المجتمع أما في المجتمع الصغير ( الذي عدده مثلاً لا يتجاوز ألفاً ) فإنه لا يكفي قياس ١٠ ٪ إذ ان احتمالات الصدفة تزيد فيه ، بل لا بد أن نغطي في هذا المجتمع لا أقل من ٢٠ ٪ منه .

ولكي تكون العينة ممثلة للمجتمع ، ينبغي التوصل إما بالاختيار العشوائي ( مثلاً : نضع قصاصات ورق في كيس ثم نسحب منها فكلما صعد مع القصاصات - جربناه - وجعلناه جزءاً من العملية الاحصائية ) .

أو الاختيار الفئوي ، الذي يخضع لاختيار جماعات مختلفة مع بعضهم من المجتمع . . . ( نختار من الرجال والنساء والكبار والصغار وذوي الدخل المحدود والأغنياء ) .

كما سبق الحديث عنه في ( اختيار العينة ) وهكذا تتم عملية التحليل . وهي آخر عملية في الاحصائية . وبعد الإحصاء لا بد أن ندرس الوثائق الشخصية .

### الوثائق الشخصية :

هل الانسان يصنع الأحداث من حوله ، أم الأحداث هي التي تصنع الإنسان ؟ لا ريب أن الأحداث أيضاً ، تصنع شخصية الانسان ، فليس من فرد إلا وتنعكس على شخصيته طبيعة الأحداث ، شاء أم أبى ، ونحن نستطيع أن نكشف من الأحداث الواقعة ، طبيعة الأشخاص التي وراءها ، فإذا رأينا جريمة عرفنا أن صانعها مجرم ، وإذا رأينا مستشفى عرفنا أن صاحبه عامل خير ، وبالعكس أيضاً ممكن . أي من الممكن التعرف على الأحداث من خلال الأشخاص ، فإذا رأينا ازدياد المجرمين في بلد ، نعرف سوء الحالة الاقتصادية ، أو سوء التربية في

البلد . . . كيف عرفنا ذلك ؟ إنما من طبيعة الأشخاص الذي نجدهم في هذا البلد . ودراسة الوثائق الشخصية تهدف إلى التعرف على الأحداث والوقائع من خلال دراسة الأفراد والشخصيات .

وبالطبع ، في العلوم الإنسانية ، تعتبر الوثائق الشخصية ، من أهم الوسائل التي تفتح الطريق أمام الباحث إلى معرفة الحقائق ، ولكن بشرط أن تدعم نتائج البحث الوثائقي الشخصي ، بالطرق الاجتماعية الأخرى . وذلك لأن العواطف والأحكام ، غير الدقيقة ، تدخل في هذا المجال كثيراً .

وموضوع الوثائق الشخصية هو دراسة الفرد ، من حيث علاقته بالحدث ، وانعكاس الحدث عليه ، ودراسة الشخص يمكن أن تكون بالطرق التالية :

#### أ - المقابلة الشخصية :

والمقابلة تستخدم في عدة موارد . . . في الإحصاء ، وفي دراسة الحالة ، وفي دراسة الشخصية ، والهدف منها في كل مورد ، يختلف وفق اختلاف المورد ، والمقابلة في الدراسة الشخصية تهدف :

١ - معرفة الحدث من خلال رأي الفرد ، لكي يوضع هذا الرأي - المفسر - ضمن الآراء التي قد تساعد الباحث على تكوين رأي صحيح للحدث ، ( وهذا في الواقع نوع من الاستشارة التي تعتمد على الحكمة المأثورة وأعقل الناس من جمع عقل الناس إلى عقله ) .

٢ - معرفة الشخص من خلال رؤيته للحدث ، وذلك لأن رؤية الناس إلى الأحداث ، تختلف حسب تفاعلهم بها ، وتأثرهم منها ، وأبسط مثل لذلك المشاهدون لفيلم ، يختلفون ، حسب تأثير الفيلم عليهم .

وهذا أهم طريق وثائقي شخصي للتعرف على الحدث من خلال الأشخاص .

٣ - محاولة التعرف على الأشخاص ، من خلال فلتات الستهم ، وقسمات أوجههم وحركات نبضهم ، وما أشبه وأوضح مثال لذلك أجهزة كشف الكذب ، التي تسجل التغيرات الداخلية التي ترافق تحدث الفرد عن موضوعه ، للكشف عن مقدار الصدق في كلامه ، وقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام أمير المؤمنين (ع) : « المرء مخبوء تحت لسانه ، وما أضمر امرؤ شيئاً إلا وظهر في فلتات لسانه وقسمات وجهه » .

وهذا الطريق يستخدم في المحاكم وما أشبه .

وأفضل طريق للمقابلة الشخصية هي طريقة الحوار المفصل ، الذي يمنح الباحث فرصة الحصول على أكبر كمية ممكنة من الإنعكاسات ، التي تركتها الأحداث على نفسية المتحدث . كما أن المقابلة الشخصية في دراسة الحالة تكون أقرب إلى الحالة الطبيعية للشخص في عدم التقيد بالرسميات ، وربما كان ذلك ما يميزها عن المقابلة ، كوسيلة لتجميع البيانات ، والمعلومات في طريقة المسح<sup>(١)</sup> . وعلى الباحث أن يسجل ملاحظاته التي يستنتجها من خلال دراسته الشخص والمقابلة معه<sup>(٢)</sup> . . وإذا تعدد ذلك فيجب أن يكتب بعد المقابلة مباشرة ومن المفضل أن تكون هذه المذكرات بكلمات المتحدث نفسه ، ويمكن للباحث المدرب أن يدوّن خلال مقابله ومناقشته الحرة ما يريد كتابته ، دون أن يسبب قلقاً للشخص الآخر ، ولكن الشيء الذي يجب أن نؤكد هو : ضرورة اكتمال وصحة المذكرات ، بقدر الإمكان . ذلك نظراً لأن الباحث لا يعرف مقدماً في جميع الظروف أي البيانات ستنبت دلالتها ، وفائدتها ، بعد التحليل النهائي<sup>(٣)</sup> .

ب - الوثائق :

وتعني الوثائق كل ما يرتبط بالشخص من أشياء مكتوبة مثل دراسة مراحل

---

(١) المصدر ، ص ٣٠١ .

(٢) المصدر ، ص ٢٩٢ .

(٣) المصدر ، ص ٣٠١ .

الدراسة عند الفرد ، ودرجاته فيها ، ودراسة تقارير الرؤساء عليه في الدائرة ، ودراسة تقارير المباحث عنه في البلد ، وما أشبه . . . وهذه الوثائق تلقي ضوءاً على طبيعة الفرد ، ومدى تأثره بالأحداث ، وأبسط مثل لذلك دراسة درجات الأطفال اليتامى في المدارس ، لمعرفة مدى علاقة اليتيم في تخلف الطفل ، أو دراسة حالة أبناء المطلقات في التعليم وهكذا . والوثائق الشخصية قد تكون وثائق رسمية ( كما نجد في الأمثلة الماضية - درجات الامتحان في المدرسة - السلوك في الدائرة ) وقد تكون وثائق غير رسمية ( كالمؤلفات التي يكتبها الشخص ، وانطباع الصحف عنه ، حتى رسائله الخاصة إلى أقاربه والمفكرات وما أشبه ) وهناك بعض البحوث النافعة ، في مجال الوثائق الشخصية ترتبط - أساساً - ببحث الوثائق ككل وهي : مرتبطة بفصل التاريخ .

### دراسة الحالة :

هذه آخر مرحلة من مراحل البحث الاجتماعي . ودراسة الحالة تعني ، أننا بعد أن نجتمع كل المصادر الأساسية لمعرفة الواقع الاجتماعي الذي نحدده بدوره تحديداً علمياً دقيقاً نبدأ بدراسة الموضوع اعتماداً على الوثائق ، والمصادر التي جمعناها .

فدراسة الحالة هي دراسة جامعة شاملة لحالة أو موضوع معين ، بعد أن نجعل هذه الحالة ( أو هذا الموضوع ) ، مجال بحثنا ، ونجمع لها كل المصادر الممكنة للمعرفة ، ( ومنها المصادر الأربعة الماضية ابتداء من المسح ، فالاحصاء ، فالتاريخ ، وانتهاءً بالوثائق الشخصية ) .

وفي دراسة الحالة « يتم فحص واختبار الموقف المركب ، أو مجموعة العوامل ، التي تتصل بسلوك معين في هذه الوحدة وذلك بغرض الكشف عن العوامل ، التي تؤثر في الوحدة المحدودة أو الكشف عن العلاقات السببية بين أجزاء هذه الوحدة ، ثم الوصول إلى تعميمات علمية متعلقة بها ، وبغيرها من

وهذا يعني أن الفرق بين دراسة الحالة وبين الطرق المتقدمة هو أن دراسة الحالة ، أشمل من الطرق الماضية ، وأنها تعتبر الموضوع كوحدة متماسكة .

« ويرجع شيوع استعمال منهج دراسة الحالة - خلال نصف القرن الماضي في نظر البعض - إلى ظهور نظرية (الجشطلت) . التي لفتت الانتباه إلى ضرورة الانتباه للموقف الكلي ، الذي يتفاعل فيه الكائن الحي ، واعتبار هذا الكائن الحي ، جزء من الموقف لا ينفصل عنه ، إلا بقصد التحليل ( وبصفة مؤقتة ) فقط»<sup>(٢)</sup> .

وهذا المنهج يتكامل مع سائر المناهج تكاملاً حيوياً ، إذ إنه لا يعدو أن يكون معتمداً على سائر المناهج ، ورابطاً بينها ربطاً يجعل من موضوع الدراسة وحدة متماسكة ، وخطوات الحالة هي التالية :

١ - تحديد الظاهرة التي يريد الباحث دراستها ، وجعلها وحدة متماسكة ، بحيث تؤثر كل جهة فيها على الجهات الأخرى ، وهذا أهم جانب من جوانب دراسة الحالة ، كما سبق وأشرنا إليه .

٢ - تحديد الوسائل التي يمكن استخدامها في دراسة هذا الموضوع ، وهذه الوسائل هي الطرق السابقة التي استعرضناها في مجال البحث الإجتماعي ، مضافاً إليها كل وسيلة مفيدة للبحث في غيرها .

٣ - جمع كل المعلومات التي يجب توافرها للبحث ابتداءً من المسح والإحصاء ، والوثائق الشخصية ، وما أشبه ، حتى لا يحتاج الفرد حينما يدرس الموضوع دراسة شاملة ، إلى مراجعة الجزئيات ، وحتى لا يجد أمامه فجوات

---

(١) المصدر ، ص ٢٩٢ .

(٢) المصدر ، ص ٢٩٤ .

علمية تفصل بينه وبين الدراسة التي يريد .

٤ - استخلاص النتائج ، والتعميم من خلال ربط المعلومات المتوافرة بالطرق السابقة ، ربطها ببعضها واتخاذ صورة عامة عن الحالة ، باعتبارها وحدة موضوعية ، وهذه الخطوة تشبه مثلاً إتخاذنا صورة ذهنية عن التفاحة بعد أن نكون قد رأينا ، لونها ، ولمسنا حجمها ، وشممنا رائحتها ، وتذوقنا طعمها ، كل هذه الأحاسيس ، عرفناها من خلال ممارستنا الحسية لها ، ثم اتخذنا صورة ذهنية عنها ، فسمينا جميع الأحاسيس ( بالتفاحة ) ، وهكذا نستطيع أن نعرف - من خلال المسح والإحصاء - جوانب الشيء الكمية ومن التاريخ مواصفاته السابقة ، ومن الوثائق الشخصية ، خلفياته السلوكية ، فتأتي دراسة الحالة ، تجميعاً لهذه المعلومات المبعثرة ، كل ذلك بهدف معرفة العوامل الرئيسية ، التي تشترك في صنع هذه الحالة ، والمواصفات العامة التي تسببت في هذه العوامل فمثلاً : إذا افترضنا أن الحالة التي نود دراستها ، هي ( مستوى مستشفى ) فإننا نبدأ بالمسح والإحصاء ، وتجميع الوثائق الشخصية ، وتاريخ تطور المستشفى ، ثم نبدأ بدراسة الحالة ، لنعرف : هل هناك علاقة بين مستوى المستشفى الاقتصادي ، وبين الرعاية التمريضية فيه ؟ أم هناك علاقة بين إخلاص المشرفين وبين الرعاية التمريضية ( سلوك الممرضين والممرضات تجاه المرضى ) ؟ .. إن هذا الخط الأساسي ، الذي نتعرف عليه من خلال معرفة كافة جوانب الحالة ، من هنا فإن الباحث لا يهدف ، عادة ، من دراسة الحالة ، إلى الوصف الدقيق للشخص ، أو للجماعة ، المفحوصة ، ولكنه يهدف ، أيضاً ، إلى التعرف على الأسباب الرئيسية ، التي أدت بالفرد أو الجماعة إلى وضعها الحاضر <sup>(١)</sup> .

وهناك بعض الأخطاء التي قد يقع فيها الباحث عند دراسته الحالة أهمها :

أن التعميم الذي يصل إليه الباحث قد لا يكون تعميماً سليماً ، بل

---

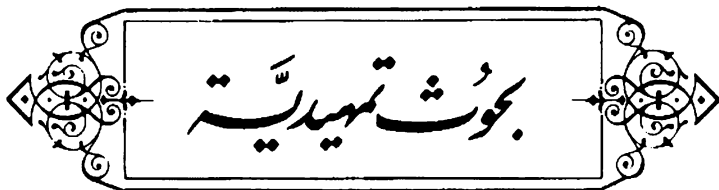
(١) المصدر ، ص ٢٩٩ .

متسرعاً ، أو ذاتياً ناتجاً من آراء سابقة اتخذها الباحث عن ضالته ، قبل أن يبدأ بدراستها . من هنا كان على الباحث التحلي بمزيد من اليقظة والصبر ، إذ إن المصادر العلمية التي يجمعها الباحث ، قد لا تكون كافية لدراسة الحالة . وفي هذه الحالة ، يجب على الباحث أن يشبع موضوعه بالمصادر العلمية ( المسح والاحصاء و . و . ) قبل البدء بدراسة الحالة ، والواقع أن أساليب دراسة الحالة ، لا تزال غير ناضجة ولكننا نستمر عليها ونصبر على علاقتها حتى يطور علم المناهج أساليبه في دراسة الحالة . والله الموفق .

القسم السادس  
عن مناهج التاريخ

دراسة مناهج التاريخ

البحث الاول



ما هو التاريخ ؟  
موضوع ، علم التاريخ ،  
الهدف من دراسة التاريخ ( الاعتبار - العلم  
بالماضي - معرفة سنن الحياة ) .  
التاريخ وفلسفة الحياة .





## ما هو التاريخ ؟

ليس التاريخ مجرد حوادث ماضية ، تتلاحق على مسار الزمن كقطر المطر ، إنما هو تنظيم هذه الحوادث ، وتعليلها وتفسيرها . وبالرغم من أن التاريخ قد استخدم في اللغة العربية ، للتعبير عن المعنى الأول فترانا نقول هذا موجود في التاريخ ، إلا أن المصطلح العلمي لهذا اللفظ أقرب إلى المعنى الثاني .

## موضوع علم التاريخ :

والحوادث التي وقعت في الماضي قد تتصل بالنشاط الإنساني ، اتصالاً وثيقاً ، وقد لا تتصل ، وفيما لو اتصلت ، تسمى علمها بالتاريخ ، ( كتاريخ الملوك ، والشعوب ، والغزوات والعقائد و . . . ) وإذا لم تتصل ، فإن للعلوم التي يعالجها أسماء أخرى ( الجيولوجيا ، الباليستولوجيا ، التاريخ الطبيعي ، الأنثروبولوجيا ، الأثنولوجيا ) .

وقد كانت موضوعات هذه العلوم تختلط بموضوع علم التاريخ كثيراً - بطبيعة اتصال النشاط البشري بكل العوامل المادية الأخرى - إلا أن الوقت آن

اليوم لفك ارتباط هذه الموضوعات عن بعضها ، وهكذا أصبح التاريخ ، اليوم محصوراً بدراسة النشاط البشري ، في الماضي ، « والواقع أنه ليس من تاريخ مضطراً أن يبدأ صفحاته بالحديث عن أصل الكون والوجود أو يعد نقصاً فيه أن يغفل طفرات أنواع النبات ، والحيوان ، منذ ظهرت الحياة على هذا الكوكب » <sup>(١)</sup> . ذلك لأن الوقت قد تغير الآن من يوم كان من دأب المؤرخين السابقين ، أن يبدأوا تأريخهم بالحديث عن تاريخ الطبيعة ، وكيفية خلق السماوات والأرض .

### الهدف من دراسة التاريخ :

هناك هدف سام لعلم التاريخ هو الوصول إلى معرفة الوقائع والأحداث التاريخية ، التي وقعت في الماضي معرفة صادقة والغاية المتوخاة من هذه المعرفة هي :

● الاعتبار بأن نشاط الإنسان محكوم برؤى لا يقدر الفرد على استيضاحها وبلورتها من دون معرفة التاريخ التي تعطيه تيارات ضوئية ، تكشف بطريقة أو بأخرى عواقب الأحداث التي يعانيتها . أساساً شخصية الإنسان لا تكونها الأحداث التي يعاصرها ، بقدر ما تكونها طريقة رد فعله تلقاء هذه الأحداث ، ونوعية رد الفعل محكومة بما يراه الفرد من عمل الآخرين ، سواء كان هؤلاء معاصرين له في الزمان ، ( الأفراد الآخرين ، الجماعات الأخرى ، والأمم المتحدة ) أو كانوا سابقين له في الزمان كما في التاريخ . إن كل فرد من أبناء عالمنا الواسع ، يحمل في شخصيته ، تراثاً حضارياً كبيراً من تجارب وخبرات وعبر ، وتتوارث أجيال الإنسان ، هذا التراث الحضاري بطرق شتى : اللغة ، التربية ، السلوك الاجتماعي ، والتاريخ طريق واحدة من هذه الطرق .

وهذا بالضبط معنى ما يقال بأن التاريخ عبء ، أي طريقة عبور من المجهول

---

(١) مجلة عالم الفكر الكويتية ص ١٧٧ ، المجلد الخامس العدد الأول ١٩٧٤ م .

إلى المعلوم ، إذ إن التجربة البشرية الماضية ، تعطي التجارب التالية : كثيراً من الوضوح والبلورة ، بالرغم من أنها لا تتكرر بالضبط .

ولا تعني العبرة أن التاريخ يفسّر لنا كامل العوامل والدوافع ، والأسباب التي تشترك في صنع أحداث الحياة بحيث لا نحتاج - بعدها - إلى أي من العلوم الاجتماعية البشرية ، كلا ! بل إنها تلقي ضوءاً على تجارب الإنسان المعاصر ، من خلال بيان التجارب المشابهة ، وتعطي الإنسان ، بالتالي ، بصيرة في الحياة ، حيث يفتح العقل على الخطوط العريضة التي تسير عليها حياة البشر ، بالرغم من أن الخطوط العريضة وحدها لا تكفي ، وعن هذا يقول و . هـ . وولش : « إن من وظائف التاريخ الكبرى هو أنه يعرف الناس بزمانهم ، عن طريق رؤيتهم مقارناً بزمان آخر » . ويقول ستراير : « إن دراسة التاريخ تعين الإنسان على مواجهة المواقف الجديدة ، لا لأنها تقدم له أساساً للتنبؤ بما سيكون ، ولكن لأن الفهم الكامل للسلوك الإنساني في الماضي ، يتيح الفرصة للعثور على عناصر مشتركة ، بين مشاكل الحاضر والمستقبل ، مما يجعل حلها حلاً ذكياً أمراً ممكناً »<sup>(١)</sup> . ورؤية الإسلام إلى التاريخ هي أنها عبرة وبصيرة وهدى ، وذلك يدعو الإنسان إلى النظر في التاريخ للإعتبار منه .

ويقول هيجل : إن تاريخ البشر كله ، يمكن أن يوصف بأنه عملية طويلة ، استطاعت البشرية خلالها أن تحرز تقدماً روحياً وأخلاقياً ، وهذا التقدم هو ما استطاع العقل البشري أن يحركه في طريق معرفته لنفسه<sup>(٢)</sup> . ومن هنا تأتي ضرورة دراسة التاريخ ، لأنها حاجة بشرية ملحة ، يقول عن ذلك آرثر مارفيك ، في كتابه الشهير « طبيعة التاريخ » ص ١٤ : « وإذن فالتبرير الأساسي للدراسة التاريخية ، هو أنها (ضرورية) فهي تسد حاجة غريزة إنسانية أساسية ، تفي بحاجة أصيلة من حاجات البشر ، الذين يعيشون في المجتمع » ، ثم يضيف قائلاً :

---

(١) المصدر ، ص ٦٣ .

(٢) عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الأول - ص ٥٠ .

فالتاريخ يقوم للإنسان والجماعة البشرية ، بوظيفة فعلية ، بمعنى أنه يسد حاجة المجتمع إلى معرفة نفسه ، ورغبته في أن يفهم علاقته بالماضي ، وعلاقته بالمجتمعات الأخرى وثقافتها<sup>(١)</sup> . والذين يناقضون هذا الرأي ، يقولون : « والحق أن الكثيرين يقرأون التاريخ ، ليتعلموا منه وليتعظوا به ، ولكنهم لا يتعلمون ولا يتعظون ، لأن الإنسان قد يعجب بما يقرأ ويجد فيه متعة ، ولكنه لا يتعظ به لأن الموعظة لا دخل لها في التجارب الإنسانية »<sup>(٢)</sup> .

إن هؤلاء يخلطون بين (العلم) بسنن الحياة ، وبين (تبصّر) المخطوط العريضة لهذه السنن ، في سبيل الإعتبار بها ، ثم بين الإنعاط كاملاً وبين عدم الإنعاط رأساً ، ولا ريب أن الإنسان يتنفع بدراسة أحوال الآخرين ، وإن لم يكن نفعاً كاملاً .

ومعرفة الحدث التاريخي بالضبط ، وهي واحدة من عدة أهداف يتوخاها التاريخ ، تنفع الإنسان في توفير (العبر) و(البصائر) له ، فمن شاء اعتبر وأستبصر ومن شاء كفر وأستكبر .

### العلم بالماضي :

وعندما تتوفر مجموعة من المعارف المرتبطة بالأحداث التاريخية ، يتهيأ للمؤرخ ، عمل جديد ، هو : التعرف على الأسباب الكامنة وراء هذه الأحداث ، والعلاقة السببية التي تربط حدثاً بآخر ، حيث إنه لا يمكن الوصول إلى هذه الغاية من دون تجميع معارف كثيفة ، تتكامل مع بعضها ، لتصل إلى هذه الغاية . ( كما سيأتي الحديث عنه إن شاء الله ) .

من هنا نعلم أن الغاية الأولى ، التي يتوخاها المؤرخ ، هي معرفة الحدث بالضبط حيث إن « المرحلة الأولى من عمل المؤرخ تتناول تنظيم الوقائع وكشف

---

(١) المصدر ، ص ٥٩ .

(٢) المصدر ، الدكتور حسين مؤنس .

تفاصيلها ، وتثبيت الحقائق المتصلة بها وبظروفها ، وهو عمل وصفي ولكنه ، في الوقت نفسه ، عمل علمي دقيق ، وعن هذا العمل بالذات تتكلم سلسلة المؤرخين العلميين<sup>(١)</sup> .

وهذا الأمر ، يتميز بكل ما تتميز به العلوم الأخرى ، إذ العلم ينبغي أن يحقق غاية نافعة ، عن طريق الفهم الليم ، والغاية هنا نافعة ، والطريق إليها علمي أيضاً ، إذ يتبع المؤرخون ذات المناهج العلمية ، التي يتبعها سائر العلماء للوصول إلى معرفة الحدث التاريخي ، بالضبط ، ابتداءً من الملاحظة والفرض والتثبت منه ، وانتهاءً بالبرهان . والذين يناقشون في أن تكون معرفة الحدث علماً ، ويقولون أن العلم الحقيقي ، هو الذي يكشف لنا عن علاقات وسنن ومبادئ عامة ، إنهم خاطئون في تفسير العلم ، إذ العلم ليس سوى كشف الحقائق عن طريق الوسائل الصحيحة ، والمناهج السليمة ، والواقع أن التاريخ بهذا المعنى وجه أصيل من وجوه التجربة البشرية ، ومن دونه لا تتكامل التجربة الحضارية للإنسان أبداً .

هذا مضافاً إلى أن معرفة الحدث خطوة في طريق معرفة السنن الكونية ، التي وراءها ، أيضاً ، كما سيأتي بإذن الله .

### معرفة سنن الحياة :

ويهدف التاريخ ، أيضاً ، التعرف على السنن الفطرية ، التي تحكم حياة الإنسان ، وذلك : بعد أن تتراكم معارف علمية ثابتة عن تسلسل الأحداث ، يقوم التاريخ بتحليلها وتركيبها ، وملاحظة علاقاتها ببعضها ، ومن ثم نكتشف ما وراءها من قوانين ثابتة ، ومبادئ عامة . والتاريخ بهذا المعنى علمٌ لا ريب فيه .

عن ذلك يقول آرثر مايفي : إن التاريخ يعني ، أيضاً محاولة الإنسان وصف

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٩٠ . الدكتور شاكر مصطفى .

الماضي وتفسيره ، وهو كما قال الأستاذ باراكلوف (Barraclouph) ، المحاولة التي تبذل للكشف عن الأشياء المهمة في الماضي ، على أساس من شواهد جزئية ماضية<sup>(١)</sup> .

إن دراسة العلوم الاجتماعية ( دراسة الاقتصاد ، الاجتماع ، التربية ، وسائر العلوم البشرية ) قد لا يمكن أن تتم بتجارب مصطنعة ، أو بملاحظة تجربة الإنسان خلال فترة معينة ، إذ إن أثر بعض الظواهر قد لا يتوضح خلال هذه الفترة ثم الإنسان لا يخضع بسهولة للتجربة كما تخضع المادة الطبيعية ، ولذلك يحاول الإنسان الاستفادة من التاريخ لدراسة أثر الظواهر على سلوك الإنسان ، وأثر سلوك الإنسان على الظواهر .

والتاريخ ، بهذا المعنى ، جزء مكمل من العلوم البشرية ، إذ إن كل علم منها يمكنه أن يغني بحوثه عن طريق دراسة حوادث الماضي . فمثلاً ، علم الاقتصاد يمكنه أن يستفيد كثيراً من طريقة تعامل الناس في بلدٍ خلال فترة معينة ، فلو استطاع الإقتصاديون ، تجميع كل الظواهر الإقتصادية التي برزت في أميركا ، من يوم استقلالها وحتى اليوم ، فإنهم يستطيعون معرفة الكثير الكثير من المبادئ الإقتصادية الهامة ، ولكن بالرغم من أن هذا الأمر ممكن بالنسبة إلى التاريخ الحديث ، لأنه قريب ومدون ضمن وثائق لا تحصى ، فإنه يبدو اليوم شبه مستحيل بالنسبة إلى التاريخ القديم ، إذ لم تنزل الظواهر التي وقعت في الماضي السحيق ، مجهولة ، تقريباً ، ولا يزال أماننا طريق طويل للكشف عنها تماماً ، ولكن بعد أن تكشف - كما يرجوها الإنسان ، ويسعى إليها - فإن كثيراً من العلوم والمعارف البشرية ، تستفيد استفادة كبيرة .

إن العمل العلمي للمؤرخ اليوم ، يتركز في الكشف عن أكبر كمية ممكنة من الحوادث ، ومن علاقاتها ببعضها ، حتى تتكامل في يوم وتكون تجربة حية

---

(١) المصدر السابق .

للإنسانية تعطينا علماً بمبادئ وقوانين كثيرة .

لكن المشكلة التي قد يتورط فيها المؤرخ ، هي أنه قد يسعى لحل جميع الألغاز مرة واحدة ، مما يحدوه إلى التسرع في الحكم ، شأنه شأن المؤرخين السابقين ، الذين جاؤوا بتفسيرات غريبة جداً لظواهر تاريخية ، وهناك ، بالطبع ، عدة أسباب لتعقد الألغاز ، ولكن أهمها جميعاً هي : أن الحوادث التاريخية ، التي نقلت إلينا عبر الزمن الطويل كانت نتيجة لتفاعل عدة عوامل ثقافية ، سلوكية ، إجتماعية ، نفسية ، اقتصادية وسياسية ، والمؤرخ لا يكون بالطبع ملماً بكل هذه العلوم ، فتأتي أحكامه مرتجلة في تفسير الحادثة تفسيراً علمياً .

من هنا كان على المؤرخ معرفة هذه الحقيقة البسيطة ، وهي : أن التاريخ يعني جميع العلوم البشرية : مضافاً إليها مرور الزمن . وكما أنه يجب ألا يعطي لنفسه الحق ، في تفسير ظاهرة اقتصادية ، أو سياسية أو ما أشبه ، وقعت الآن ، تفسيراً علمياً دون الرجوع إلى مبادئ العلم التي تخصه ، ووسائل بحثه ، كذلك لا يمكنه أن يفسر الظاهرة التاريخية ، التي تزيد غموضاً بسبب مرور الزمن على الظواهر الحاضرة .

وتوضح لنا هذه الحقيقة مدى ارتباط التاريخ العلمي بسائر العلوم البشرية ، ومدى الضرورة في الاستفادة المتبادلة بينها ، بأن ندرس الاقتصاد معتمدين على التغيرات التاريخية للإقتصاد البشري . كما ندرس التاريخ من المبادئ الاقتصادية التي توصلنا إليها حالياً ، وكما في الإقتصاد ، كذلك في السياسة والإجتماع ، والثقافة ، وسائر العلوم البشرية .

من هنا يقول الدكتور شاكراً مصطفى<sup>(١)</sup> : « وإنما ابتداء (المشكلة) على الطرف الآخر من المعرفة : طرف (الموضوع) الذي يسهل على كل فكر أن يدرك

---

(١) المصدر ، ص ١٩٢ .



أنه لاتصاله بالطبيعة ، والإنسان ، والحياة أعقد بكثير وأوسع بكثير ، وفي كل الاتجاهات ، من أن تلملمه أو تحيط به الوسائل العادية المتداولة حتى اليوم ، للمعرفة العلمية . ثم ينقل نصاً من ( سانتيانا ) جاء فيه : « إن العصب الحقيقي أو الأخرى الديناميكية الكاملة للأحداث ، ليست هي على نطاق إنساني ، إنها ليست رائعة ، ولا يمكن إدراكها بالتخمين ، أو بالتكهن المثير ، أو بالعبارات الأخلاقية ، إنها الحياة الخاملة المعقدة في الطبيعة ، تلك العقدة الكبرى لكل الأصول والمشتقات .

ولكن ، هل يعني تعقد الموضوع ، الإنكفاء كلياً عن التاريخ ؟ طبعاً لا ، إنما يعني المزيد من الجهود الرامية كشف حوادث التاريخ ، مضادة بمبادئ العلوم التي تقدمنا فيها ، ولكي نصل في يومٍ إلى مرحلة نستطيع فيها تكوين مبادئ عامة للتاريخ ، « وسياًتي يوم تنجلي فيه جميع الحقائق ، والوثائق القديمة ، وتترتب بفضل تنظيم العمل ، وتثبت الحوادث التي لم يعف أثرها ، عندئذ يتكون التاريخ . . . »<sup>(٢)</sup> .

ونعود فنقول إن التاريخ علم ، ولكنه علم حديث ناشئ بالنظر إلى سائر العلوم ، وسبب حدائته هو : أن التاريخ القديم لم يكن مبتتياً على الأسس العلمية الثابتة ولا هادفاً : معرفة المبادئ والقوانين التي تسير العالم .

### التاريخ وفلسفة الحياة :

ولكن هدف التاريخ قد لا يكون مجرد التعرف على الحدث التاريخي ، أو حتى مجرد التعرف على الأسباب ، والعلل التي وراءه بل أكثر من ذلك بكثير ، بل هو التعرف على فلسفة الحياة ككل . . . وهذا الهدف ليس معتمداً على تحقيق الهدفين الماضيين ، بل هو هدف بذاته ، إذ قد يتم ، مثلاً ، التعرف على الغاية ، وعلى ما فيها من روعة وجلال ، وما فيها من قدرات اقتصادية ، أو إجتماعية ، من

---

(٢) المصدر ، ص ١٨٩ نقلاً عن لانجلوا - وسينيوبوس .

دون معرفة عدد الأشجار التي فيها ، ولا طبيعتها ، وخصائص وجودها ، كذلك يمكن أن نتعرف على الخطوط العامة التي سارت عليها البشرية في الماضي ، من دون أن نعلم بالتفصيل جميع الحوادث ، التي وقعت والأسباب الجزئية التي كانت وراءها . إننا لا نحتاج إلى ذكاء عظيم ولا إلى سعة اطلاع ، لنعرف تقدم الرسالة الإسلامية في فجر بعثها ، لأن هذا التقدم ثابت بألف حادث تاريخي وحادث ، بالرغم من أن الحوادث ذاتها ليست علمية ولا ثابتة ، إذا لاحظناها بانفراد ، إذ إنها من حيث المجموع ثابتة ، وذات دلالة لا ريب فيها ، على أن الإسلام متقدم . كذلك لا نحتاج إلى ذكاء عظيم ، لو أردنا تحليل هذا التقدم بصفة مجملة ، من خلال حوادث ثابتة - هي الأخرى من حيث المجموع - بالرغم من تسرب الشك إلى كل واحدة منها ، إذا لوحظت بانفراد ، وفلسفة التاريخ لا تعتمد على الجزئيات ، بل على مجمل الدلالة العامة ، التي يمكننا أن نستفيد منها .

وتتناول فلسفة التاريخ هذه الأسئلة : هل للزمان بداية ونهاية ؟ وعند أية نقطة يبدأ الزمان ؟ هل عندما تهبط رسالات السماء ؟ أم عندما تقتضي التحولات الطبيعية في أشياء الكون فتنعكس بالطبع على الإنسان ؟ ثم هل التاريخ يتحرك باتجاه متقدم أبداً ؟ أم باتجاه دائري أبداً ؟ أم أنه يمضي كالحيّة ( خطوة إلى الوراء خطوتان إلى الأمام ) أم ماذا ؟

وما هي علاقة القيم بالحضارة والإجتماع بالتاريخ ؟ وما هي الديناميكية التاريخية ؟ وهل يمكننا وفق هذه الفلسفات أن نتنبأ بمستقبل الحياة البشرية ؟ فهل ، مثلاً ، بإمكان مؤرخ مثل توينبي ، أن يتنبأ بمستقبل حضارة الرجل الأبيض وأنها تسير باتجاه عكسي ؟ إن فلسفة التاريخ تهدف الإجابة على هذه الأسئلة ، من خلال الحوادث العامة ، التي يلاحظها المؤرخ ليرى فيها الخطوط العريضة التي تربط بعضها ببعض<sup>(١)</sup> .

(١) راجع المصدر ، ص ٢١٥ - ٢٤٤ .

والفلسفة لها علاقة متبادلة مع العلوم ، فمن جهة تنفع الفلسفة العلوم حيث تثير أمامها أسئلة جديدة ، وتضع أمامها نقطة لا بد للعلوم أن تسعى للوصول إليها ، ومن جهة ثانية تنفع العلوم الفلسفة حيث تعطيها الوسائل ، والأدوات التي تساعد على رؤية الواقع . وهكذا يتبادل العلم والفلسفة العون ، ولا يستغني أحدهما عن الآخر ، في كل الحقول ، وفي حقل التاريخ بالذات .

### علاقة المناهج بالأهداف :

حتى اللحظة عرفنا أن دراسة التاريخ تهدف ثلاثة أمور :

١ - العبرة والبصيرة العقلية .

٢ - العلم ومعرفة القوانين التفصيلية .

٣ - الفلسفة وفهم الخطوط العريضة لمسيرة البشرية . ولكل واحد من هذه الأهداف الثلاثة مناهج تخصه :

أ - فمنهج العبرة هو ربط الماضي بالحاضر ودراسة الحاضر على هدى الماضي . وهذا في الواقع منهج أخلاقي ، يعترض طريقه انطواء الفرد على ذاته ، ولا بد من التخلص منه عن طريق التعرف على العوامل النفسية التي تسبب الخطأ<sup>(١)</sup> .

ب - ومنهج الفلسفة ، هو توضيح البصيرة عن طريق المناهج العقلية<sup>(٢)</sup> .

ج - ومنهج العلم التاريخي ، يشبه في خطوطه العريضة ، المناهج العلمية الأنفة الذكر ( في هذا الفصل ) ولكنه يتميز ببعض السمات التي لا بد من استعراضها ، وهي : دراسة الوثائق التاريخية ، واستنباط الحوادث منها ، ثم

---

(١) راجع الفصل المختص بذلك فيما سبق عن الحديث عن عوامل الخطأ .

تحليلها وتركيبها ، وفق رؤية واضحة إلى التاريخ ، ومن هنا راح بحثنا القادم يسير بالتدرج عبر هذه المراحل ابتداءً من دراسة الوثائق التاريخية ، وانتهاءً بالرؤية التاريخية إن شاء الله .



القسم السادس  
عن مناهج التاريخ

دراسة مناهج التاريخ

البحث الثاني



كلمة البدء .

أنواع من الوثائق .

٣ عقبات في طريق الوثائق .

العلوم المساعدة .

نقد الوثائق .

نقد الوثيقة مادياً .

التزوير والتحريرف - انتساب الوثيقة الى صاحبها كيف نكتشف

التحريرف .

شخصية صاحب الوثيقة ( دواعي الكذب والسهو - الانتماء -

العقده والعقيدة الضالوية والتشاؤمية .

النقل غير المباشر .

كيف نفهم لغة الوثيقة .



## كلمة البدء :

الوثائق هي العناصر المتبقية من تجربة الإنسان الماضي ، سواءاً كانت مادية أو أدبية ، وذلك كالمعابد والمقابر ، والتماثيل ، ونوعية أثاث البيوت ، والنقوش التي عليها والأدوات والوسائل المستخدمة في حياتهم الخاصة ، وأيضاً كالفصوص والأساطير والآداب ودوائر المعارف والفلسفة والديانات والأخبار التي تشرح الماضي ، وبالتالي كل ما تبقى من السابقين من آثار مدونة على قرطاس أو ثابتة في الطبيعة .

وأهمية الوثائق آتية من أنها الخيط الوحيد المتبقي بأيدينا من الماضي ، ولا بد من الاعتناء بهذا الخيط لعلنا نستفيد منه أكبر فائدة ممكنة .

بالإضافة إلى أن الوثائق هي الطريق العلمي الوحيد في دراسة التاريخ ، بالرغم من أنها تنفع أيضاً في سائر الدراسات الحديثة . وقد سبق القول « بأن دراسة الوثائق واحدة من المناهج الخمسة النافعة في دراسة العلوم البشرية » ومن هنا أصبحت الدراسة الوثائقية من الدراسات الهامة ، التي يوليها علم المناهج الحديثة أهمية قصوى ، لأنها ذات فوائد في كافة الحقول ، وعلى سبيل المثال استطاع أخصائيو الشيفرة والكتابة السرية الأميركيون أن يستعينوا بطرق البحث الوثائقي لحل شيفرة العدو ، وبالتالي ، ترجمة رسائله العسكرية خلال الحرب



العالمية الثانية<sup>(١)</sup> . كما أن الدراسة الوثائقية يمكن أن تكون مفيدة في دراسة المسجلات غير الإنسانية ، ذات الأشكال المتعددة . ففي الجيولوجيا ، مثلاً ، يمكن دراسة تطور الأرض ، عن طرائق تجميع ودراسة الصخور ، والحفريات من الطبقات المختلفة<sup>(٢)</sup> .

وتهدف الدراسة الوثائقية توفير عدد ضخم من المعلومات الجزئية الخاصة بالأحداث . تمهيداً لتنظيمها في سجلات وملاحظتها مع بعضها ، لتكون بالتالي ، قادرة على إعطاء رؤية متكاملة إلى الماضي . من هنا نعرف : أن الدراسة الوثائقية هي الخطوة الأولى نحو فهم التاريخ ، فهماً علمياً سليماً .

**أنواع من الوثائق :**

والوثائق النافعة أقسام متدرجة سوف نستعرضها فيما يلي الأهم فالأهم ، وهي :

#### أ- السجلات الرسمية :

وهي كل كتابة تعتمد على جهة رسمية ، معترف بها قانونياً ، وذلك مثل قرارات المحاكم ومضابط الاجتماعات الرسمية والتقارير التي ترفعها اللجان في المنظمات والنوادي ، والشهادة الشرعية الخاصة بالأفراد مثل العقود والإيقاعات . والثقة بهذه الوثائق آتية من صعوبة التزوير فيها واللعب بها ، واهتمام الكاتب لها ، بالإضافة إلى الضبط والدقة فيها .

#### ب- التقارير الصحفية :

هي التي تنشر عادة نصوص الأخبار- مسجلة بذلك الأحداث تسجيلاً دقيقاً نسبياً ، والبلاد التي تقل الرقابة فيها ، تزداد الثقة بالتقارير الصحفية . ونشرت

---

(١) أصول البحث العلمي ومناهجه ، ص ٢٣٥ .

(٢) المصدر ، ص ٢٣٦ .

وكالات الأنباء ، تشبه التقارير الصحفية ، إلا أنها أكثر دقة وضبطاً .

#### ج - كتابات شهود عيان :

وهي تحدث في القضايا الهامة التي يتبرع الناس بالكتابة عن مشاهداتهم ، أو يتحدثون إلى من يكتبها ، وذلك مثل : الغزوات ، والحروب خصوصاً الداخلية منها ، والتظاهرات والأحداث الطبيعية ، التي تصبح فيها شهادة شهود عيان أقوى وأوثق لها .

#### د - الرسائل والمفكرات :

وعند تاريخ الأشخاص ، الذين تربطهم بالأحداث صلة وثيقة ، ( رؤساء ، مدراء ، قادة عسكريون و . و . ) لا بد لنا من مراجعة كتابات الأشخاص عن أنفسهم في الرسائل والمفكرات ، وما أشبه . وتشبه الرسائل والمفكرات التراجم ، والمذكرات ، في أنها أيضاً ، تكشف عن وقائع خلفية ، قد لا يهتم بها المراقب العادي ، في حين ينتفع بها المؤرخ كثيراً .

#### هـ - الدراسات التاريخية :

وهي الكتابات التي سجلها الأفراد بقصد التاريخ . وبالطبع تختلف هذه الكتابات - من ناحية الثقة بها - من شخص إلى آخر ، ومن عصر لآخر ، إلا أننا إذا استخدمنا طرق النقد القادمة ، فسوف نتخلص من بعض احتمالات الكذب ، وبالتالي نزداد ثقتنا بها ، وتعتبر الدراسات الوصفية ، التي تمت في الماضي ، أهم الدراسات التاريخية ، إذ أنها تتميز باهتمام الدارس وتبُّعه ، الذي يكون عادة أكثر من اهتمام المؤرخ ، وتتضمن الدراسات الوصفية بحوث الفقهاء السابقين حول المقادير ، والمكايل والنقود وطرق التعامل . و . و . كما تتضمن دراسات الباحثين السابقين في مسح منطقة جغرافية ، أو مسح حالة إجتماعية .

## و - الكتابات الأدبية :

كثير من التفاصيل التي لا يسجلها عادة المؤرخ ، يسجلها الشاعر والقصاص ، أو الموجه الاجتماعي ، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وذلك من خلال عرضه للحوادث ، وتشبيهه له بشيء .

صحيح أن الشعراء والكتّاب الموجهين ، لا يهدفون عادة تسجيل الوقائع ، ولذلك فهم لا يلتزمون بالدقة المطلوبة ، لفهم حدث تاريخي . إلا أنه بعد إسقاط المبالغات ، والتشبيهات غير الصحيحة ، وبعد فحص خلفية أفكار الشاعر ، أو الموجه الاجتماعي ، نستطيع أن نكتشف طبيعة العصر . فمثلاً : المتنبي أُرُخَ بأشعاره لحروب سيف الدولة ، لما كانت تثير هذه الحروب من حماس وعواطف في نفوس المسلمين ، كما أُرُخَ لمدى الترف الذي كان العصر قد تورط فيه .

ومن الطريف أن المؤرخين الجدد ، يعتمدون في تاريخهم للأمة الإسلامية على كتب الأدب والشعر ، أكثر من اعتمادهم على الكتب التاريخية لأنها - والحق يُقال - أكثر استيعاباً للوضع الاجتماعي من كتب التاريخ .

## ز - الآثار الباقية على الطبيعة ( الجيولوجيا ) :

الأدوات والوسائل ، التي استخدمها الإنسان في الماضي ، سواء أفي كسبه ومعيشته ، أم في تأثيث بيته أم في حربه مع عدوه . كل تلك آثار باقية من الماضي على الطبيعة ، وتعطينا فكرة عن آباءنا ، فمثلاً : لما كشف الإنسان عن أوراق البردي وعن آثار الفراعنة ، وعن سر الكتابات الهيروغليفية ، استطاع أن يعرف الكثير من عهود الفراعنة ، وعن تاريخ مصر القديم . كما أدت التنقيبات عن أرض بابل ، وما وجد فيها من كتابات وآثار إلى معلومات وافرة عن تاريخ العراق القديم .

يستخدم المؤرخ طرق البحث الوثائقي في دراسة الآثار الماضية ، بالرغم

من أنها أصعب وأكثر غموضاً من الكتابات التاريخية .

هذه الوثائق التاريخية ، التي تؤرخ في الأغلب عصرًا معيناً من عصور التاريخ ، وقبل كل شيء ينبغي أن يحصل عليها الباحث ، ويتأكد من توفير كل الكمية التي قد تنفعه في حقل بحثه ، إذ « من واجب هؤلاء الذين يريدون التخصص في البحوث التاريخية ، أن يعطوا مرحلة البحث عن الوثائق ، والرجوع إلى الفهارس حقها من الأهمية ، فلا يتسرعون في اختيار موضوعات بحثهم ، قبل التأكد من وجود الوثائق ، والمراجع ، التي تتصل بهذه الموضوعات »<sup>(١)</sup> .

### عقبات في طريق الوثائق :

والواقع أننا ، ولحسن الحظ ، أصبحنا في عصر يسهل على الباحث الحصول على الوثائق الكافية لبحثه ، وذلك بفضل المكتبات والمتاحف ، وبفضل جهود المتخصصين فيهما ، إلا أنه ما تزال بعض الصعوبات ، تعترض طريق الباحثين عن الوثائق ، وأهمها ما يلي :

١ - « لا يمكن أن نعثر على الوثائق ونخرجها من خزائنها لنودعها في المكتبات العامة ، إذ من الواجب أن تصنف وت فهرس ، وتبين خصائص كل وثيقة ، أو مخطوطة منها ، بحيث يمكن الاستفادة منها . وما زالت هناك للأسف مكتبات لم تصنف مخطوطاتها ووثائقها ، ولم توصف وصفاً دقيقاً »<sup>(٢)</sup> . وعلى الباحث أن يقوم بجهد مكثف في سبيل الحصول على فهارس ، بل يبادر إلى مضان الوثائق ، لعله يحصل على مزيد منها ، ولعل وثيقة واحدة تغني الباحث عن جهود كبيرة .

٢ - هناك مجموعات من الوثائق الميته ، التي يحتكرها أصحابها ويسامون عليها ، وفي بعض بلادنا الشرقية لا يزال كثير من الناس يحتفظون بكنوز هائلة ،

(١) المنطلق الحديث ومناهج البحث ، ص ٤٦٧ .

(٢) المصدر ، ص ٤٦٥ .

من الوثائق التاريخية ، التي لم تر النور . وفي هذا المجال ينبغي أن يسعى الباحث للاطلاع عليها بأي طريقة ممكنة ، لأن هذا الجهد قد يوفر عليه جهداً أكبر مما لو بقي من دون وثيقة ، وأراد كشف التاريخ بطرق أصعب كثيراً هي الأخرى .

٣ - إن الوثائق قد جمعت بشكل غير علمي ، إذ إنها جمعت عن طريق المشرفين على المكتبات ، ولأهداف ذاتية بحتة . بل إن كثيراً من الوثائق النافذة ، تكدست في المكتبة العربية على غير هدى من العلم والمناهج العلمية ، وعلى ذلك ، وجب على الباحث ألا يعتني بكل وثيقة مبنية ومطبوعة ، لأن الوثائق المطبوعة غير النافعة قد توصله إلى تكديس معلومات تافهة عن التاريخ . في ذلك يقول ( هالت كار ) : « البدعة الأساسية في القرن التاسع عشر ، هي أن اعتقد الناس أن التاريخ يتكون من التوفيق بين عدد كبير من الظواهر الموضوعية ، التي لا سبيل إلى الطعن فيها . إن كل من يدع نفسه تنزلق إلى هذه البدعة ، يجب عليه أن يترك التاريخ باعتبار إنه مهنة رديئة ، وعليه أن يتسرع في جمع طوابع البريد ، أو مجموعات من التحف القديمة ، أو ينتهي إلى إحدى المصححات العقلية »<sup>(١)</sup> .

إن هذه ثلاث عقبات تعترض طريق الفهم الصحيح للوثائق .

### العلوم المساعدة :

١ - لا ريب في أن كل علم يزيد في قدرة الإنسان على فهم موضوع العلوم الأخرى ، ولكن بعض العلوم ، ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً ، مما يجعلها وكأنها من تشكيلة واحدة ، من ذلك العلوم الإنسانية ، التي تعني : الاجتماع والسياسة والاقتصاد والنفس العام والتاريخ ، ذلك لأن هذه العلوم تهتم بدراسة خلفية السلوك الإنساني ، وتحاول فهم الإنسان من خلال نشاطاته ، أو بعض الظواهر المتأثرة به . ومن هنا يكون دارس التاريخ محتاجاً إلى دراسة العلوم الإنسانية الرديفة . فالاجتماع ، مثلاً ، ضروري في دراسة التاريخ ، لأن التاريخ ليس

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ٤٦٧ .

سوى دراسة الاجتماع في وقت ماضٍ ، فلو كان المؤرخ في نفس العصر الذي سجله وكتب تاريخه ، لكان يسمى موضوع دراسته ، بموضوع علم الاجتماع . وعلم السياسة يعتبر جزءاً هاماً من علم الاجتماع ، وكذلك الاقتصاد . أما علم النفس العام ، فهو دراسة دلالة التصرفات التي يقوم بها شخص ، أو جماعة ، على نوعية تفكيرهم ، ولا ريب أن المؤرخ يحاول فهم خلفية سلوك الإنسان ، في الماضي ، دون الاقتصاد على معرفة سلوكه فقط .

ودراسة الوثيقة التاريخية - كما سيأتي إن شاء الله - لا تهتم فقط بدراسة عناصرها الخارجية ، بل تحاول فهم عناصرها وتقييمها من الداخل أيضاً . ولذلك تكون معرفة العلوم الإنسانية ذات علاقة وثيقة بدراسة الوثائق .

ولذلك أوصى ابن خلدون ، المؤرخ : « بأن يحصل على ثقافة اجتماعية تعينه على فهم حوادث التاريخ » ، ونصح فريمان ، المؤرخ : « بأن يساهم في الحياة المعاصرة ، وأن يكتب عنها ، حتى يكون قادراً على فهم الماضي » .

كما « ينبغي للمؤرخ أن يلم بعلم الاقتصاد إلماماً ، يمكنه من الوقوف على مدى تأثير العوامل الاقتصادية ، على مسار التاريخ . فنحن نعرف أن السياسة الداخلية للدولة من الدول ، تعتمد اعتماداً كبيراً على مدى ثرائها الطبيعي ونشاطها التجاري ، وطريقة توزيع الثروة الطبيعية في بلد ما ، تحدد عادة نوع الحكم فيها ، ومستوى الرخاء العام بها ، وعلاقة طوائفها ببعضها »<sup>(١)</sup> .

٢ - ولأن أحداث التاريخ تقع على أرض معينة ، وفي مناخ طبيعي معين ، وتتأثر الأحداث البشرية بطبائع الأرض وتطورات المناخ ، سواء من ناحية ثروات الأرض الاقتصادية ، أو حدودها مع سائر الأراضي ذات التأثير على السلم والحرب ، أو حتى من جهة الحرارة واليبوسة فيها . . لأن أحداث التاريخ تقع على أرض معينة مما تؤثر فيها ، فإن دراسة علم الجغرافية ضرورية لفهم التاريخ ،

---

(١) عالم الفكر ، العدد الأول ، إبريل ١٩٧٤ ، الدكتور محمد عواد حسين ، ص ١٣٥ .

ودراسة اللغات التي كتبت بها الوثائق التاريخية ضرورية أيضاً ، وقد كشفت البحوث الحديثة عن اللغات القديمة ، والنقاب عن أسرار هذه اللغات ، مما أعطتنا فرصاً كبيرة لفهم التاريخ .

٣ - والمؤرخ بحاجة إلى معرفة فقه اللغة ، وهو علم يعتني ( بتطور المعاني التي عبرت عنها بالفاظ ) حتى أنك تجد الكلمة الواحدة تدل على عدة معاني تاريخية ، حسب العصور المتلاحقة .

وضع كلمة لتعبر عن مفهوم ، هذا الوضع ذاته ، يدل على تطور معين ، فاللغات التي لا نجد فيها كلمات تدل على المجردات ، أو على الكليات ، وحتى على معنى التناقض والوجود ، هذه اللغات تدل على مستوى هابط من التطور الحضاري . بينما اللغات الغنية بهذه المفاهيم ، تدل على تقدم في الحضارة . و ( فقه اللغة أو علم اللغة ) لم يزل في دور الطفولة ، ولكنه إذا تقدم ، نستطيع آنئذ كشف خلفيات فكرية وإجتماعية كثيرة ، من وثيقة واحدة .

٤ - ومعرفة الأدب هامة أيضاً بالنسبة إلى المؤرخ . إذ إن الأدب - كما اللغة - مرآة صادقة للحياة الإجتماعية السائدة ، وهو الذي يكشف عن تطلعات المجتمع ، وأمانيه . كما يكشف عن مستواه الفكري « وقد تكون مخلفات أديب واحد ، معيناً هائلاً للمؤرخ ، يستقي منه معلومات تاريخية هامة لم تكن لتتاح له ، لولا هذه المخلفات ، فالبابذة هوميروس و ( العمل والأيام ) لهيسبودس ، ومسرحيات ايسخولوس ، وسوفوكليس ، ويوربيدس ، عند الإغريق القدماء ، وآثار دانتى الأدبية ، التي ترجع إلى أواخر العصور الوسطى ، في إيطاليا ، ودراسة الأدب الغربي الحديث ، كلها تعتبر من المصادر التي لا غنى عنها ، لمن يريد التصدي للبحث في التاريخ السياسي والاقتصادي والإجتماعي لتلك الأزمان »<sup>(١)</sup> . وكذلك كتاب الأغاني ، وصبح الأعشى وما أشبه ، بالنسبة إلى

---

(١) المصدر ، ص ١٣٥ .

الأدب العربي . وكما الأدب كذلك معرفة الرسوم ، والآثار الفنية ، قد تكشف عن بعض جوانب المجتمع القديم .

٥ - وعلم الخطوط واحد من أهم الضرورات لفهم تاريخ بعض الوثائق . إذ إننا عن طريق الخطوط نستطيع أن نعرف عصر أية وثيقة فمثلاً سوف تبقى معلوماتنا ، بالنسبة إلى البلاد التي خضعت للعثمانيين ، قاصرة لولم نعرف الخطوط القديمة التي دونت بها وثائق النظم الإدارية ، والمالية ، في ظل الحكم العثماني لهذه البلاد<sup>(١)</sup> .

لا بد أن نضع ملاحظة في العلوم المساعدة لدراسة التاريخ ، وهي أن هذه العلوم تختلف ضرورتها حسب الموضوعات التاريخية ، التي يهدف الإنسان دراستها ، فمنها ما تحتاج إلى العلوم الإنسانية ، أكثر من حاجتها إلى الجغرافيا ، وعلم اللغات ، وعلم الخطوط ، - كالفترة الإسلامية الأولى - ، ومنها بالعكس تماماً ، كالمهود الفرعونية واليونانية القديمة . لذلك ينبغي أن يختار الباحث ( الموضوعات التاريخية ) ثم يفكر في العلوم المساعدة الأكثر ضرورة بالنسبة إليها ، ثم لا ينتظر تكميل تلك العلوم المساعدة ، بل يبدأ بحوثه جنباً إلى جنب ، مع دراسة تلك العلوم ، لتكون دراسة التاريخ مجالاً تطبيقياً ، بالنسبة إلى العلوم المساعدة التي يدرسها .

كما تختلف أهمية العلوم المساعدة بالنظر إلى نوع الدراسة التي يهدفها الباحث ، إذ من الباحثين من يوجه اهتمامه إلى دراسة الوثائق من الناحية اللغوية الخارجية ، بينما يعتني آخرون بفحص محتويات الوثيقة الداخلية ، ويحاول ربط معلومات الوثيقة ببعضها للاستنتاج منها .

وقد برع ، في كلا الجانبين ، المسلمون السابقون ، الذين درسوا بشكل مسهب أحوال الرواة للوثائق ، كما درسوا نصوص الأحاديث . ومنذ القرن الأول

---

(١) المصدر ، ص ١٣٤ .



من الهجرة ، اختص طائفة كبيرة من العلماء المسلمين ، يعلم الرجال ، الذي يفحص ( طرق نقل الحديث ) بأساليب علمية بالغة الدقة ، كما اختص آخرون بعلم الأصول ، الذي يبحث عن محتويات النصوص .

وعلى الباحث في الوثائق الإسلامية - خصوصاً الشرعية منها - أن يكون قادراً على مراجعة كتب الرجال وعلم الأصول ، وعارفاً بأسلوب الاستفادة منهما في مجال تقييم الحديث ونقله .

### نقد الوثائق :

هناك أربع مراحل تتصل ببعضها ، حتى يحصل الباحث على معرفة واضحة للمعصر التاريخي الذي يدرسه .

**المرحلة الأولى :** جمع الوثائق ودراستها من الناحية المادية . . وذلك باعتبار الوثيقة موضوعاً مادية وإجراء بحث عليها لمعرفة التطورات المادية التي تطرأ عليها . فمثلاً لو حصلنا على كتاب مخطوط من ألف سنة ، فلا بد أن نسأل أنفسنا ، وقبل كل شيء ، هل تلف من هذا الكتاب شيء ؟ هل تساقطت حروفه مما يؤثر على المعنى ؟ وهل هو كتاب من ألف عام بالنظر إلى ورقه ؟ وهكذا . .

**المرحلة الثانية :** دلالة لغة الوثيقة على المفاهيم التي خلفها قاصدها . فلنفترض أن الوثيقة بأيدينا لوحة مرسومة ، فما هي لغة هذه اللوحة وما هي دلالات رسومها على قصد الراسم منها ؟ أو إذا افترضنا الوثيقة نصاً تاريخياً فما هي دلالة كلماته على قصد المؤلف لها ؟ وهكذا نحاول في هذه المرحلة أن نفهم بالضبط المقصود منها .

**المرحلة الثالثة :** معرفة صاحب الوثيقة ومدى دلالة شهادته على الوضع الذي أراد تقييمه ، أو الحدث التاريخي الذي أراد تسجيله . في هذه المرحلة نحن ننصوّر كاتب الوثيقة أمامنا وهو يتحدث بلغة نفهمها بالضبط ، فنسأل ما هو مدى صحة كلامه من عدة نواحي من ناحية صدقه أو كذبه ، من ناحية قدرته على

فهم الحقيقة التاريخية وعدم قدرته ، ومن ناحية حدود الحقيقة التاريخية التي يسجلها ويشهد عليها .

المرحلة الرابعة : وبعد أن نفهم بالضبط الحقيقة التاريخية ، لا بد أن نركبها مع الحقائق التاريخية الأخرى لنعرف طبيعة الوضع التاريخي معرفة شاملة . وهناك تنتهي وظيفة المؤرخ .

هذه هي المراحل الأربع التي لا بد أن يتدرج عبرها الموضوع المؤرخ . إذاً دعنا نفصل هذه المراحل .

المرحلة الأولى : نقد الوثيقة مادياً :

تعرض الوثائق لعدة تغييرات من قبل الطبيعة ، أو من قبل الإنسان . فعمليات الحفر والتنقيب تدل على أن هناك آثاراً قديمة تعرضت لتلف كلي أو جزئي نتيجة تغييرات طبيعية . كما أن هناك آثاراً أخرى تعرضت للتغيير بسبب تزوير الناس لها .

كما أن الوثائق المكتوبة تتعرض أيضاً لتلف طبيعي أو بشري ، كما أن بعض الوثائق مزورة من أساسها .

من ذلك ما يذكره الدكتور أحمد بدر في كتابه ( أصول البحث العلمي ومناهجه ) ص ٢٤٥ :

« ومن أشهر قصص التزوير في التاريخ الغربي قصة التزوير المشهورة باسم هبة قسطنطين ، وقد حدثت في القرن الثامن - وعلى الأرجح - بواسطة أحد رجال الكنيسة ، وقد خولت الوثيقة المزورة للأمباطور السلطة السياسية على جميع قطاعات إيطاليا . هذه وغيرها كثير من الوثائق المزورة والتي عرفت باسم الأحكام البابوية الزائفة ، وقد كشف عن زيفها في القرن الخامس عشر عالم الإنسانيات الشهير لورنثيوس فاللا . . . » . وفي تاريخنا الإسلامي ، تعتبر أكبر عملية تزوير خلق ١٥٠ صحابياً لم يكن لهم وجود خارجي في التاريخ ، وإقحامهم في التاريخ

لأسباب سياسية ومذهبية ( راجع كتاب « خمسون ومائة صاحبي مختلق » لمؤلفه العلامة مرتضى العسكري ) .

من هنا ينبغي أن يجهد الباحث في الوثيقة نفسه ، ليعلم هل أن الأثر الباقي في يده سليم منذ أن خلفه صاحبه ، أم تعاقبت عليه الأيدي بالتغيير والتزوير ؟

وفي سبيل الوصول إلى هذه المعرفة لا بد أن يُقارن بين هذا الأثر الباقي من هذا العهد ، وبين آثار مشابهة من ذات الفترة التاريخية ومن فترات سابقة عليها ولاحقة لها .

كما يدرس نوع الأثر ( مثلاً الحجر المنقوش عليه النحت ، أو الورق المكتوب عليه الوثيقة أو الدواة المستخدمة في الكتابة ) ليعلم هل كان هذا النوع متداولاً في ذلك العصر أم لا ؟

« وفي كتاب مصطلح التاريخ للأستاذ أسدرستم ، مثال للمعاناة التي لاقاها حين كُلف بفحص إحدى الوثائق المكتوبة ، وكانت عبارة عن رسالة من عهد محمد علي ، للوقوف على مدى صحتها وكيف اضطر إلى فحص نوع الورق الذي دُوِّنت عليه الوثيقة وفحص نوع المداد ومقارنتها بمثيلاتها من الوثائق في أماكن مختلفة ، ودراسة عادات المراسلة والأسلوب واللغة وتاريخ ومكان الكتابة ، واتفاق ما جاء بها من الظروف التاريخية ، وذلك كله يبين لنا : مدى الصعوبة التي يجب على المؤرخ أن يواجهها ويتغلب عليها ليصل إلى الحقيقة »<sup>(١)</sup> . من هنا كان على الباحث أن يتأكد من صحة الوثيقة بعدة طرق ، هي التالية باختصار :

١ - المقارنة بين وثيقة مكتوبة بخط المؤلف وغيرها منقولة عنه ، ليعرف طبيعة تفكير الشخص ، وطريقة أسلوبه في عرض الموضوع في الوثيقة التي لا

---

(١) المصدر ، ص ١٤٥ .

شك من ارتباطها بالمؤلف ، لقياسها على الوثيقة المشكوكة .

٢ - التحليل الكيميائي للمادة التي كُتبت عليها الوثيقة لمعرفة زمان ومكان صناعة الورق والدواة والقلم المستخدمات في رسم الوثيقة لمعرفة تاريخها بالضبط .

٣ - الاستعانة لذلك أيضاً ، بالوسائل العلمية كالمعامل الكيميائية والعدسات المكبرة ، والأشعة فوق البنفسجية وما أشبه .

٤ - التحليل الداخلي للوثيقة حيث نستطيع عن طريق معرفة ما إذا كانت الوثيقة صحيحة النسبة إلى صاحبها المنسوب إليه أم لا ، وبهذه الطريقة كشف العلم عن زيف نسبة كتاب المضمون إلى الغزالي ، حيث يختلف في أسلوبه عن أسلوب الغزالي ، ويستخدم الكتاب بعض الكلمات التي لا يستعملها الغزالي في أي من كتبه ، مثل عبارة حقيقة ودقيقة وما أشبه ، كما أن العلم كشف عن زيف نسبة الرسائل الشخصية إلى لينكولن حيث ظهرت في الأسواق مليئة بالأخطاء ، ومن أبرزها : أن لينكولن كان قد أشار في بعضها إلى كانساس باعتبارها ولاية أميركية ، في تاريخ لم تكن هذه الولاية قد انضمت إلى الولايات المتحدة .

وفي تقييم النصوص الشرعية يستخدم الفقهاء هذا المقياس الداخلي كثيراً ، حيث يمكنهم أن يتعرفوا على ضعف حديث مروى أو ضعف كتاب منسوب إلى أحد العلماء السابقين بمجرد تحليل الكتاب داخلياً .

كما أنهم قد يستخدمون طريقة أخرى ، وهي أسلوب الحديث الأدبي ، ومقارنته بأساليب سائر الوثائق ، مثلاً : إن الأدب الإسلامي الأصيل لا يستخدم كلمة « واجب الوجود » أو كلمة الوصول . . والعشق والحلول وما أشبه ، من الكلمات التي أقحمت في الأدب العربي منذ تسرب الأفكار الصوفية . ولهذا يُعتبر وجود مثل هذه الكلمات في وثيقة معينة منسوبة إلى النبي (ص) أو إلى أئمة المسلمين (ع) دليلاً على أنها وثيقة مزورة .

٥ - نقد الاستعادة ، فيما إذا كانت الوثيقة التي نريد نقدها نسخة واحدة فقط . ولم تكن هذه النسخة بخط المؤلف ذاته . فهذا يحتمل وجود أخطاء كثيرة للاستنساخ ، منها أخطاء متعمدة ، ومنها أخطاء سهوية ، ومنها أخطاء فهم من قبلنا . ولذلك فلا بد من معرفة كاتب الوثيقة ومعرفة شخصيته لأنها تساعدنا على التعرف على أخطائه المتعمدة التي من الممكن أن يقحمها في النسخة ، لأنها تتنافى مع آرائه أو مع معتقداته الدينية ، علماً بأن كثيراً من كتاب النسخ ، كانوا يكتبونها لاستعمالاتهم الشخصية ، ولذلك فهم يستهينون ، عادة ، بتغيير بعض الألفاظ اعتماداً على أنهم يستذكرون الصحيح منها . والأخطاء التي تقع سهواً ، قد تكون بسبب محاولة إصلاح النص جهلاً بمعناه الحقيقي ، فإذا لم يعرف الناسخ معنى كلمة (عزر) غيّرَها إلى (غرر) اعتقاداً منه أنه يصلح النص ، وهو يفسده .

وقد تأتي بسبب تشتت باله ، وتوزع اهتمامه ، مما قد يكشفه بوضوح فسيولوجياً ، نظراً إلى الارتباط الوثيق بين الخط وبين تفكير صاحبه ، ويمكن إصلاح هذه الأخطاء عن طريق مقارنة النسخ من عدة وثائق وذلك للكشف عن الأخطاء العامة ، التي يقع فيها الناسخون عادة ، مثل تكرار الكلمات أو بعض المقاطع وهو ما يسمى بـ (Dittographie) أو ذكر مقطع من المقاطع المتكررة دون المقاطع الأخرى ، وهو ما يسمونه بـ (Hoplographie) والأخطاء في علامات الترقيم ووجود أخطاء عامة في استنساخ النصوص القديمة ، كان السبب في اهتمام بعض الباحثين بوضع جداول لهذه النوعية من الأخطاء مما يستعين به القارئ للأخطاء . ومنها ما وضعه مادفج (Madvig) ، فيما يرتبط بالوثائق اليونانية واللاتينية ، وسماه معجم (Ortica Adversaria) ، مما يؤسف له قلة اهتمام الباحثين في اللغة العربية بهذه النوعية من المعاجم ، مع أن استنساخ اللغة العربية مرُبَّاطاً بطوارٍ عديدة ، وفي بعض هذه الأطوار لم تكن الكلمات تكتب بنقطة أو أعجام ، ممَّا رُوِّج فيها أغلاطاً كبيرة من نوع واحد ، وتعد كل نسخة أو مجموعة نسخ كتبت عن الأصل - مباشرة أو مصدر قريب من الأصل الأقرب فالأقرب - أهم

من غيرها ، وبعد ذلك نقارن بين كل مجموعتين من النسخ ، لنعرف أقلهما خطأ وأضبطها كتابةً ، ونفضل واحدة على الأخرى بناءً على مجموعة القواعد التي تقدمت أو ستأتي إن شاء الله .

ولا بد من الحذر من اعتبار أول نسخة تصل ليد الباحث أنها النسخة الأصلية ، بل يجب اعتبارها واحدة من النسخ الخاضعة للشك والتثبت . كما أن أقدم النسخ قد لا تكون أفضل النسخ ، إذ المهم أن تكون النسخة قريبة إلى النسخة الأصلية ، وحينئذ تكون أفضل وأوثق .

كما أن الأغلبية لا تنفع هنا فإذا كانت أغلب النسخ ( من ناحية الكمية ) مكتوبة بشكلٍ ، فلا بد أن نلاحظ الأقرب منها إلى الحقيقة من جميع الوجوه ، وقد تكون مجموعة نسخ مكررة أي مأخوذة من نص واحد وحينئذ لا تحسب إلا واحدة نظراً لأصلها .

ويكون أفضل للباحث أن يُقارن بين نسختين أصليتين ، من أن يجلس أمام مجموعة من النسخ المكررة ويُقارن بينها .

وملاحظة أخيرة : يجب ألا يستهين الباحث في نقد الوثائق ومعرفة القراءة الصحيحة لها إذ إنها قد ترتبط بموضوع هام . وكما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي : « إن تصحيح النص له خطر ضخم فكثير من الأخطاء سواءً من الناحية التاريخية ، والمذهبية لم يكن له من مصدر إلا خطأ في النسخ ، وكثيراً ما أثارت هذه الأخطاء في النسخ أو عدم إمكان القراءة الصحيحة للفظ ما لا حصر له من المشاكل ، ولعل أبرز هذه المسائل في الفلسفة الإسلامية مشكلة قراءة فلسفة شرقية ، وعليها يتوقف حل مسألة خطيرة هي مسألة قيام فلسفة إسلامية أصيلة أو عدم قيامها »<sup>(١)</sup> .

---

(١) مناهج البحث العلمي ، ص ١٩٤ .

كما أن تعابير مختلفة في النصوص الفقهية تسببت في الجهل بأحكام كثيرة ، بسبب رداءة الخطوط القديمة .

٦- ترتيب الوثائق : فيما إذا كانت لدينا عدة نسخ من وثيقة واحدة ، فلا بد أن نسعى لترتيب النسخ حسب اقترابها إلى النسخة الأصلية ، أو ابتعادها عنها . من أجل ذلك ينبغي ، أولاً : تصنيف النسخ العديدة وفق مصادرها المكتوبة عليها ، وذلك بأن نتعرف على المجموعات التي تنسب إلى أصل واحد ، فنعتبرها نسخة واحدة ، ونستطيع أن نعرف ذلك بمقارنة الأخطاء التي وقعت في كل مجموعة ، فإذا كانت أغلاطاً متشابهة عرفنا أن النسخ هذه قد أخذت من نسخة واحدة .

بهذه العملية نقسم النسخ العديدة إلى مجموعات ، أخذت كل مجموعة من الأصل ، أو من مجموعة قريبة إلى الأصل . وكلما بعدنا عن الأصل تدريجياً ، كلما تعددت النسخ النوعية التي لا قيمة لها من الناحية النقدية .

#### المرحلة الثانية :

دراسة لغة الوثيقة وسوف نبحث ذلك في فصلٍ قادم إن شاء الله .

#### المرحلة الثالثة : التزوير والتحرif :

متى تمت معرفة لغة الوثيقة ، ندخل في المرحلة الثالثة من البحث ، لننتعرف على عدة أمور أهمها : دفع شبهة التزوير والتحرif من الوثيقة .

#### ١ - التزوير :

التزوير في الوثيقة يعني نسبة الكتاب إلى غير مؤلفه . وضرورة البحث عن المؤلف واضحة ، إذ يختلف المؤلفون ثقة وعلماً وصدقاً واستيعاباً للحدث عن بعضهم . فلا ريب أن الحادثة التي يرويها شاهداها ، تختلف درجة الصدق فيها عن الذي يرويها السامع عنها . كما أن وزير خارجية بلدٍ ، لو كتب مذكراته ،

يختلف من ناحية الثقة والاعتبار عن تلك المذكرات التي يكتبها رجل عادي . وهكذا وقد جرت - قديماً وحديثاً - عمليات تزوير وانتحال ، حيث كان المؤلف يكتب الكتاب وينسبه إلى غيره ، ولعدة أسباب ودواعٍ آتية . مما فرضت على الباحث أن يبدأ تحقيقه من نقطة الصفر ، فيشك في نسبة أية وثيقة إلى صاحبها ، ولا يعتقد بهذه النسبة من دون الثبوت العلمي .

ومن هنا ، كان علماء المسلمين يشككون في أية وثيقة تاريخية من دون مرورها بعمليات اثبات صعبة .

ودواعي التزوير هي :

أولاً : قد يكون المؤلف قليل الشهرة فينسب كتابه إلى رجلٍ عظيم لتداول أفكاره بسرعة ، اعتماداً على إسم المؤلف المنسوب إليه . كما نجد مثلاً لذلك الكتب التافهة التي نُسبت إلى أفلاطون من دون أن يكون قد كتبها .

وثانياً : من أجل رفع شأن الكاتب والإشادة بشخصيته . كما نسبت خطب كثيرة إلى الخلفاء الأمويين يعرف كذبها من أول نظرة .

ثالثاً : من أجل إثبات مبدأ أو نفي مبدأ ، كما ظهرت أحاديث وخطب منسوبة إلى الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، والتي سبق وأن أخبر عنها النبي (ص) بقوله : « ستكثر من بعدي القالة » .

انتساب الوثيقة إلى صاحبها :

والدليل على انتساب الوثيقة إلى صاحبها هو أحد المؤشرات التالية :

١ - شهادة المؤلفين السابقين ، بشرط أن يكونوا موثوقين ، أو تكون شهادتهم متواترة بشكل لا يدع للريب مكاناً في صحة الشهادة ، وذلك مثلما هو حادث مثلاً ، في نسبة كتاب الكافي في الحديث لصاحبه الكليني ، أو انتساب كتاب البخاري لصاحبه .



وقد تكون الشهادة مباشرة كما تحدث عادة بالنسبة إلى كثيرٍ من كتب الفقه ،  
والحديث والرجال والتفسير وسائر العلوم الإسلامية ، التي توافرت الدواعي عند  
غالبية العلماء على معرفة المؤلفين لها .

ومن حسن الحظ توافرت لدينا شهادات قطعية لصحة انتساب أكثر الكتب  
وأهمها إلى أصحابها ، وذلك بسبب انتباه علماء الفقه والحديث إلى هذه  
الطريقة ، بحيث لم يكونوا يقبلون بأي كتاب أو وثيقة من دون أن تدون عليها  
شهادات عديدة من ثقة . وتوجد الآن في المكتبة الإسلامية رسالة تُنسب إلى  
أستاذ البخاري ، وقد سجل عليها توقيع أكثر من ألف شاهد من كبار علماء  
الحديث والفقه .

وقد لا تتوافر الشهادة المباشرة ، ولكن توجد لدينا شهادة غير مباشرة مثل أن  
ينقل مؤلفون معاصرون أو شبه معاصرين ، من الكتاب نصوصاً مسهية وينسبونها  
إلى مؤلفه بصراحة . والنصوص تكون عادة دليلاً كافياً على الوثيقة ، إذ يستبعد أن  
يشارك مؤلفان في اختيار نفس الكلمات ونفس الوصف ، وفي روايته لحادثة  
معينة ، مما يدل على أن الناقل قد نقل من صاحب الوثيقة فعلاً . « إذا وجد عدة  
كتاب يصفون نفس الحوادث فإنهم لن يوجدوا في نفس الوضع لكي يصفونها على  
نمط واحد ، ولن يقولوا نفس الشيء وبنفس العبارات ، ونظراً لشدة تعقيد  
الأحداث التاريخية ، فمن المستبعد تماماً أن ملاحظتين مستقلتين تصفان هذه  
الأحداث بنفس الطريقة »<sup>(١)</sup> .

من هنا يمكن أن نعرف كيف يكون الاقتباس ، دليلاً على صحة انتساب  
الوثيقة إلى مؤلفها ، بالرغم من أن هذه الطريقة تخضع هي الأخرى لصعوبات  
جمة ، إذ قد نجد مثل ابن الراوندي ، الذي ينقل عن الحافظ أقوالاً كاذبة وغير  
موجودة في كتبه ، مما ينبغي أن نكون حذرين جداً في أخذ شهادة أي كان على

---

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ٤٨٥ .

صحة انتساب الوثيقة ، دون تحقيق في هوية هذا الشخص وفي مدى صدقه وكذبه .

٢ - الخصائص اللغوية التي تتميز بها الوثيقة ، ونوعية التعبيرات والأساليب الأدبية التي يستخدمها ، التي يستحيل عادة انتحالها أو اصطناعها ، مثل : التعبيرات والأساليب البلاغية المتوافرة في كتاب نهج البلاغة ، التي لا تكون بالضرورة ، من وضع رجلٍ أنى كان عظيماً لأنها فوق مستوى الأدباء ، ومعلوم انتسابه إلى الإمام علي (ع) ، بشهادة نوعية تعابيره ، وطريقة تفكيره مضافاً بالطبع إلى الشهادات التاريخية ، التي توافرت على صحة انتساب الخطب إليه<sup>(١)</sup> .

وقد استطاع الأدباء المعاصرون من استخدام هذا المنهج ، لمعرفة الشعر الجاهلي ، وكشف أشعار جديدة عديدة منسوبة غلطاً إلى الشعر الجاهلي ، مثل الأشعار التي اختلقها خلف بن الأحمر ، وأكثر الشعر المنسوب إلى الهذليين .

وهذا المنهج الذي استخدم في هذا المجال ، كان بمعرفة طريقة التراكيب النحوية ، واستخدامات حروف الجر والمسند والمسند إليه ، ونوعية التشبيهات الأدبية المستعملة عندهم ، وبالتالي طريقة سردهم للحوادث . ولا بد من التحذير الشديد في استخدام هذا المنهج إذ قد يكون المتحلل متنبهاً لبعض الخصائص فيقلدها أيضاً لذا ينبغي أن نتعرف على المزيد من الخصائص والسمات التي تتوافر في الوثيقة الأصلية ، ولا نكتفي ببعض قليل منها .

ولا ريب أن هذا المنهج هام جداً في حقل معرفة الأحاديث الموضوعية خصوصاً الأحاديث المطولة التي تتوافر فيها سمات عديدة من ميزات أدب المتحدث .

٣ - الخط المكتوب به الوثيقة ، باعتبار أن الخطوط اختلفت من عصرٍ لعصر . « فإذا وجدنا وثيقة من القرن الأول والثاني للإسلام ، مكتوبة بخط

---

(١) راجع كتاب مصادر نهج البلاغة ، للعلامة السيد عبد الزهراء .

فارسي ، أو نسخي عادي ، فيجب أن تُعد قطعاً منحولة ، وإذا وجدنا وثيقة في القرن الرابع مكتوبة بخط كوفي قديم ، قد خلا من النقط والاعجام ، فليس من شك ، أو على الأقل فمن المرجح جداً أن تكون منحولة <sup>(١)</sup> .

٤ - الخصائص الفكرية والمعارف المتوافرة في الوثيقة ، فلو كانت في وثيقة منسوبة إلى القرون الوسطى أفكار تعرف حدوثها في القرون المتأخرة ، أو الفاظ نعرف أنها لم تستخدم إلا في عصر متأخر فبال تأكيد نعرف أن النص منتحل . وبهذا عرفنا انتحال طائفة من الأشعار الجاهلية التي ضمت الأفكار الإسلامية وفيها كانت تشير الوثيقة ، إلى حادثة لم تكن قد وقعت في التاريخ المنتسب إليه الوثيقة ، كما نجد ذلك في الوثيقة المنسوبة إلى - لنكولن - بالنسبة إلى ولاية كانساس ، التي أشيرت إليها كولاية أميركية ، مع العلم أنه في زمان الوثيقة لم تكن قد أصبحت ولاية أميركية .

٥ - الاسم والتوقيع الموضوعين على الوثيقة : حيث أنه يعد علامة واحدة وليست وحيدة للدلالة على الاسم الحقيقي للمؤلف والمشكلة في هذا المجال أن المؤلفين القدامى لا يذكرون أسماءهم على الوثائق .

## ٢ - التحريف :

والتحريف قد يكون بالزيادة أو النقصان ، و ( تصحيح ) عبارات الوثيقة ، وفق ما تمليه أهواء الناسخ أو وفق ما يمليه جهله بالكلمة ، وقد يكون التحريف بالإكمال كما يكتب المؤلف الأصل للوثيقة جزء ثم يأتي الناس ، كل يزيد فصلاً عليه .

والتحريف بالمعنى الأول ( الحشو والتصحيح ) هو أصعب كشفاً من كل من التزوير والتكميل ، وهذا النوع موجود بكثرة في النصوص الشرعية إذ كان جهل الرواة حيناً ، وأهوائهم أحياناً تملّي عليهم تحريف الكلمات ، وقد كانوا يغيرون

---

(١) مناهج البحث العلمي ، ص ١٩٦ .

نقطة فقط في كلمة فيتبدل المعنى كلياً .

والطريقة السليمة للكشف عن التحريف هي البحث عن النسخة الأصلية ، حيث تبين التحريف فيها باختلاف الخط ، وإذا فقدت النسخة الأصلية فبالمقارنة بين النسخ التي قد تسلسلت من نسخة واحدة ، فلا يبقى أمامنا طريق إلا النقد الداخلي للوثيقة للنظر هل المحتوى متناقض أم أنه غير متناقض ؟ وهل الأدب العام للكتاب يتناسب مع هذه الفقرة المقحمة فيه أم لا ؟ .

بهذه الطريقة نستطيع أن نتعرف بوضوح ، وبسهولة على خرافة تحريف القرآن الحكيم ، حيث لا يوجد في آياته الكريمة ، تناقضاً في المحتوى ، أو في الأدب ، وقصة الغرائب التي حاول بعض المفرضين ، دسها في القرآن اكتشفت بسرعة ، لأنها كانت تدعو إلى عبادة الأصنام ، والقرآن كله يدعو إلى التوحيد ، وأدب تلك العبارات كان مختلفاً كلياً عن أدب القرآن الكريم .

### كيف نكشف التحريف ؟

ولأن الشريعة الإسلامية عانت من مشكلة التحريف كثيراً ، خصوصاً في أحاديث الرسول (ص) وأحاديث خلفائه المعصومين (ع) فقد وضعت عدة طرق للكشف عن التحريف منها :

١ - النقد الداخلي للنص لمعرفة صلته بالبصيرة العامة للشريعة ، ومدى موافقته للأصول الكلية فيها . وفي ذلك قال الرسول (ص) في حجة الوداع : قد كثرت عليّ الكذبة وستكثر ، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . فإذا آتاكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله وسنتي ، فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به ، وما خالف كتاب الله وسنتي ، فلا تأخذوا به<sup>(١)</sup> .

٢ - النقد الخارجي للنص لمعرفة الرواة كما لخص الإمام علي (ع) ذلك

---

(١) بحاء الأنوار للعلامة المجلسي ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

في حديثه الذي قسم الرواة عن الرسول (ص) إلى أربعة : منافق ، عرف من سلوكه العام اتباع أهوائه . وجاهل ، لا يستوعب فكره العلوم وناسك ، لا يسعه تذكر كل ما قيل له . ورايع ، تقي عالم ذاك . وأمر الناس بالأخذ من الأخير .

### شخصية صاحب الوثيقة :

بعد أن نتأكد من عدم وقوع تزوير أو تحريف في الوثيقة ، لا بد أن نتأكد من شخصية صاحب الوثيقة ، لنعرف عدة نواحي منها :

١ - لنعرف مستواه العلمي ، باعتبار أن ذلك يؤثر - مباشرة - على مدى اعتمادنا عليه إذ واضح ، أن شهادة الجاهل ناقصة ولو كان صدوقاً . وقد سبق أن الإسلام - حين يقسم الرواة إلى أربعة - ينصح بعدم اتباع الجاهل ، والناسي ، لأنهما قد يحذفان المهم ، ويساهما في غموض الحقيقة عناً ، من هنا يقول الحديث المأثور عن الإمام الرضا - عليه السلام - عندما يستعرض طوائف العلماء : « ... فإذا وجدتموه (العالم) يعف عن ذلك (الحرام) فريداً لا يفركم ، حتى تنظروا ما عقده بعقله ، فما أكثر من ترك ذلك (الحرام) جميعاً ، ثم لا يرجع إلى عقل متين ، فيكون ما يفسده بجعله ، أكثر مما يصلحه بعقله » (١) .

٢ - لنعرف مدى وثاقته إذ قد نجد بين المؤرخين من هو مولع بالكذب والتدجيل ، والإسلام يوجب رفض كلام الكذب ، ورفض كلام أولئك الذين يروون عن الكاذبين . وقد جاء في الحديث (السابق ذكره) فإذا وجدتم عقله متيناً ، فريداً لا يفرنكم ، حتى تنظروا ؛ أعم هواه يكون على عقله ، أو يكون مع عقله على هواه ؟؟ وكيف محبته للرئاسات الباطلة وزهده فيها ؟ (٢) .

٣ - لنعرف مدى الإلتزام الديني عنده ، فإنه قد يكون الشخص ثقة ولكنه فاسق

---

(١) المصدر ، ص ٨ .

(٢) المصدر ، ص ٨٤ .

حياته الشخصية ، وحديث هذا النوع من الناس ، لا يرد كلياً ، ولكنه يخضع لنقد شديد ، بإعتبار أن السلوك الشخصي ، قد يؤثر في البحوث العلمية . من هنا جاء في حديث ؛ أنظروا إلى ما في الأوعية (يقصد الرواة للأحاديث) فخذوها ثم صفّوها من الكدرة، تأخذوها بيضاء نقية صافية . وإياكم والأوعية فأنها وعاء سوء فتتخبّوها،<sup>(١)</sup> . وجاء في حديث آخر ؛ خذوا الحق من أهل الباطل . ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق ، وكونوا نقاد الكلام<sup>(٢)</sup> .

٤ - لنعرف التزاماته المذهبية ، وميوله السياسية ، لنعرف بذلك : دوافعه العامة التي ستلقي بضلالها على كتاباته ، لأنه قد يكون الكاتب ، يلتزم بعقيدة ، ويدافع عنها بإخلاص ويرى من واجبه تغيير الحقائق وتشويهها والزيادة فيها من أجل دعم مذهبه . وحتى اليوم لا تزال أكثر الدراسات موضوعية ، متورطة في دعم الآراء الشاذة - بسبب من الميول السياسية أو العقيدية - وعن طريق معرفة الشخص بميوله وعقائده ، نستطيع كشف الإتجاه العام في كتابه ، الذي قد يؤثر على موضوعيته .

والتعرف على شخصية كاتب الوثيقة مبدأ قديم لأنه أيسر وأفضل طريقة لفقد الوثائق ، وقد اهتم المسلمون بنقد الأحاديث عن طريق روايتها ، ونشأ - من ذلك - علم الرجال ، الذي يعني البحث عن رواة الحديث ، ومعرفة أحوالهم ووثائقهم . وقد برعوا في هذا الحقل ، حتى فاقوا كل الأمم الأخرى . ولدنيا اليوم ، كتب علمية دقيقة للغاية ، تُعنى بشؤون رواة الأحاديث ، وذلك منذ أكثر من (١٢) قرناً وربما تكون خصوصيات أحوال الرواي ، قد بحثت فيها ، بشكل يجعلنا وكأننا نعاصره . وعلى الباحث في التاريخ الإسلامي ، مراجعة كتب الرجال ، والإستناد عليها ، في تقييمه للكتب وللنصوص ، وإلا فسوف يكون بحثه ناقصاً بالمرّة .

---

(١) المصدر ، ص ٩٣ .

(٢) المصدر ، ص ٩٦ .

## دواعي الكذب والسهو :

بعد التعرف على شخصية صاحب الوثيقة ، لا بد أن نسأل : ما هي دواعي الكذب في كتاباته ؟ فإذا عرفناها ، استطعنا أن نكتشف مدى تواجد هذه الدواعي في الوثيقة تمهيداً لنقدها نقداً موضوعياً . إذاً لنلقي نظرة على هذه الدواعي :

### أولاً : دواعي الكذب :

بمراجعة الفصل الخاص بدواعي الخطأ من هذا الكتاب ، نعرف كثرة هذه الدواعي وتنوعها ، إلا أنها تنقسم إلى عدة مجموعات .

#### ١ - دواعي الحسد والمصلحة الشخصية :

فمن أجل النيل من شخصية يحسدها المؤلف ، يقوم بعض الكتاب بتشويه الحقائق ، فترى أحدهم يناصب شخصية علمية مرموقة العدا ، والخلاف ، والمنافسة ، والجدل ، وكأنه بُعث فرعوناً له يناقضه في كل شيء قاله ، ويسفه كل عمل يعمل به ، وقد يصبح العدا لشخصيته ، عقدة نفسية ، عند المؤلف ، فإذا به يخالفه لا شعورياً ، وعندئذ علينا عند دراسة وثيقة أن نسأل : هل كان لصاحب الوثيقة حساسية تجاه مؤلف سابق أو شخصية علمية معاصرة أو أصحاب رأي محدد أم لا ؟

ومن هذا النوع قيام أصحاب المدارس الفكرية بمخالفة بعضهم والتفتيش عن أي دليل يناقضهم حتى ولو كان على حساب الموضوعية . فينبغي للباحث أن يتهم أصحاب الوثائق ، إذا وصلوا عند حدود الحساسية بينهم وبين سائر العلماء ، خصوصاً وصفة الحسد والمغالبة هي أبرز صفات العلماء<sup>(١)</sup> الذميمة .

---

(١) جاء في حديث ماثور أن الله يعذب العلماء بالحسد المصدر ، ص ١٠٨

والدواعي المصلحية ترتبط أيضاً بالفوائد المادية ، التي قد يستفيدها الكاتب من تزييف الحقيقة ، مثل أن يكون الداعي إلى التأليف - أساساً - داعياً مادياً بحثاً ، لتأييد سلطة أو نظام أو يكون البحث ممولاً من قبل جهة خاصة من هذا النوع من التأليف أكثر دراسات المستشرقين الذين كتبوا دراساتهم من أجل نشر التحريفية في نفوس المسلمين . ومن الدواعي الشخصية : الغرور بذاته ، حيث أنه قد يجبره ذلك إلى ادعاء العلم ببعض الحقائق من أجل تعظيم نفسه وتصويرها بمظهر العبقريّة .

## ٢ - الإضطراب :

إذا كان المؤلف يعيش في عهد ظالم ، وكان شخصية مرموقة ، تراقب كتاباته فتعكس على حياته فإن دواعي الإضطراب قد تدفعه إلى اتّخاذ مواقف معينة ، أو تزييف حقائق كثيرة ، خشية الظالمين .

كما أنه قد يضطر من تزييف الحقائق أو نقلها ناقصة ، خشية الرأي العام ، كما يخشى الدارسون المخلصون ، في أميركا ، مقاومة التيار الصهيوني ، خشية انتقام الرأي العام المضلل منهم حتى أن أحدهم يصدر كتاباً ، أو يقوم ببحث علمي نزيه ، فلا يلبث أن يكتب رداً على نفسه ، استسلاماً لضغوط الرأي العام . وفي التاريخ - كما الآن - نجد كثيراً من المؤلفين ناقضوا أنفسهم ومبادئهم اتقاء شر السلطان الجائر .

من هنا أصبح من قواعد النقد التاريخي ، لمذاهب الفقه والحديث ، والفلسفة والكلام ، مراجعة رأي السلطان ، أو رأي الجمهور لمعرفة ما إذا كان يوافق رأي الكتاب أم لا ؟ فإذا كان يوافق تضعف شهادة الكتاب ، لأنه قد يكون نابعاً من التقية ، خشية السلطان . وهذا أظهر شيئاً فيما إذا كان المؤلف « ملحقاً » بحاشية ملك أو أمير ، فيضطر إلى تزييف الأخبار ، والوثائق لصالح الأمير الذي هو من بطانته وهو أظهر ما يكون في التواريخ التي تُكتب إبان الحملات مثل أخبار



### ٣ - الانتماء :

والإنتماء المذهبي ، والسياسي ، والحزبي ، ( يتسبب في تشويه الحقائق . إذ يحرص المؤلف على أن يؤيد مذهبه أو حزبه السياسي . وقد يندفع لا شعورياً إلى هذا الإتجاه ، لأن ثقافته موجهة فلا يستطيع رؤية الشيء من أبعاده المختلفة ، ويكثر هذا فيما إذا كان صاحب الوثيقة ، يشغل مركزاً هاماً - ضمن مجموعة معينة - كأن يكون رئيساً لحركة سياسية أو عضواً بارزاً في حكومة يكتب عنها ، ويحاول أن ينسب إليها كل مكرمة ، دون أن ينتقد أي صفة منها ، وتبدو هذه السمة ظاهرة ، في الوثائق التي يضيف عليها صاحبها طابعاً أدبياً منمقاً . ( يقول سنيوبوس : إن التشويه الخطابي ينحصر في أن ننسب إلى الأشخاص مواقف وأفعالاً وعواطف وكلمات نبيلة ، وهذا استعداد طبيعي يوجد أيضاً لدى الشبان الذين يبدأون في الكتابة ، ولدى الكتاب من أنصاف الهمج ، وهذا هو العيب المشترك بين أصحاب الحوليات في العصور الوسطى . . . وأياً كان الأمر ، فإن هناك قاعدة منهجية ذهبية ، يمكن استخدامها في مثل هذه الحالات وهي : ( كلما كان الرأي الذي يؤكده صاحب الوثيقة ملفتاً للنظر ، من الزاوية الفنية ، كان أكثر مدعاة إلى الشك ) (٢) .

### ثانياً : دواعي السهو :

ودواعي السهو عديدة ، إلا أنها جميعاً تندرج تحت الوقوع في الخطأ من دون سوء نية ، وتشترك دواعي السهو في تجنب الحق ، وتسجيل الباطل ! وعلى الباحث أن يضع إمكانية وقوع صاحب الوثيقة في السهو - يضعها - الاصل والقاعدة ، إلى أن يثبت العكس ، وخلافاً لما يُقال عن المتهم : إنه بريء حتى

(١) مناهج البحث العلمي ، ص ٢١٢ .

(٢) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ٥٠٢ - ٥٠٣ .

يثبت العكس . إن صاحب الوثيقة متهم إلى أن تثبت براءته وطريقة كشف دواعي السهو المزيد من التدبر ، والبحث . ودواعي السهو تجمعها الأصول التالية :

#### ١ - عدم الإمكانية :

إن بعضاً من الموضوعات التي يسجلها صاحب الوثيقة ، تتسم بصفة يستحيل - عادة - على الراوي أن يكون شاهداً مباشراً لها ، وحينئذ تسقط قيمة الشهادة المباشرة فيها ، حتى ولو صرح بذلك صاحبها ، وذلك مثل الأمور التالية :

أ - الحروب ، التي يستحيل أن يشاهدها فرد واحد .

ب - التطورات الاجتماعية التي تحتاج إلى أجيال ، لا يمكن أن يشهد عليها صاحب الوثيقة ، شهادة مباشرة ، لأنها أطول من عمر الشخص .

ج - « أن تكون الوقائع معقدة ، ومتشابكة ، أو موجودة في أمكنة متعددة ، أو تحتاج إلى معونة الكثير من المخبرين أو العيون ، والأرصاد ، وتكون روايتهم - في هذه الحالة - مشوبة بالكثير من النقص ، لأنه لم يستطيع أن يشاهد الحادث كله جملة »<sup>(١)</sup> .

د - أن يكون وقت تسجيل الحوادث بعيداً جداً ، عن وقت وقوعها ، مما يجعلنا نشك في قدرته على تجنب الخطأ . مثل أن يكون طفلاً حين شاهد الحوادث ، ثم كتبها حين أصبح كهلاً ، حيث إن الذاكرة تخون الإنسان - خلال هذه الفترة الطويلة - .

هـ - أن تكون طبيعة الحوادث سرية ، مما يصعب الإطلاع عليها ، كالإتفاقات السرية ، والاجتماعات الخاصة ، وما أشبه . وبالتالي يجب أن يكون السؤال الأول الذي نوجهه إلى أنفسنا أمام شهادة الفرد يكون عن إمكانية الفرد

---

(١) مناهج البحث العلمي ، ص ٢١٤ .

لمباشرة الرؤية للحادثة<sup>(١)</sup> .

## ٢ - العقيدة والعقيدة :

إذا كان الشخص معقداً تلقاء فكرة أو طائفة فإن تعلمه للحوادث المرتبطة بهم يكون مصطبغاً بمعقدته . كذلك لو كانت للفرد رؤية وعقيدة سابقة تجاه حدث ثم رآه فإنه يراه من خلال رؤيته . ولهذا نلاحظ مدى اختلاف الناس في نقل مشهد واحد كلهم أبصروه ولكن بعضهم نظر إليه من خلال عقدة سلبية تجاهه وبعضهم من خلال عقيدة إيجابية . وثالث نظر إليه نظرة موضوعية خالصة من العقدة أو العقيدة وقد سبق وأن تحدثنا عن تأثير الخلفية النفسية في مدى استيعاب الناصر للشئ<sup>(٢)</sup> . وهناك نقلنا تجربة الباحث الذي سأل عشرة أطفال عن منضدة كانوا يشاهدونها أمامهم فأشار إليها الباحث وسألهم ما هذا ؟

وكانت إجاباتهم متعددة ومختلفة حسب اختلاف الرؤية الخلفية ، من هنا يجب أن ندرس عقائد صاحب الوثيقة وحساسياته لكي تفهم احتمالات الخطأ السهوي المتوفرة عنده ودراسة آراء صاحب الوثيقة تفيدنا في تحديد الحالة العقلية التي رافقت صاحبها حين مشاهدة الحادث إذ إن الحالة العقلية تكون متأثرة عادة بالحالات النفسية .

## ٣ - التفاضلية والتشاؤمية :

نوع من العقيدة والعقدة . هي التفاضلية والتشاؤمية التي قد يتميز بها صاحب الوثيقة تجاه الأحداث التي ينقلها . فمن المؤرخين من هو سريع اليقين حسن الظن بالآخرين ، فلا يلبث إذا سمع حديثاً من رجل أن يصدقه ويزعم أنه صحيح لحسن ظنه بهذا الرجل ويقينه لكلامه .

---

(١) مناهج البحث العلمي ، ص ٢١٤ .

(٢) انظر قسم كيف نتجنب الخطأ القسم الثالث ، ص ١٨٣ .

ومن المؤرخين من هو شكاك . لا يعتقد بالأحداث . حتى إذا توافرت عنده أدلة كافية .

والرجل الأول لا يعتمد على ما يشته . والرجل الثاني لا يعتمد على ما ينفيه . لأن الأول إذا أثبت حادثه . نشك أن يكون قد توخى الدقة في نقله . . . ونحتمل أن يكون قد اعتمد على كذاب ولذلك يرفض الفقه الإسلامي الاعتماد على رواية كانوا ينقلون الأحاديث عن الكذابين لأن مجرد النقل عنهم أعطانا نظرة خاصة إليهم بأنهم كانوا يتساهلون في نقلهم ! والرجل الشكاك إذا نفى شيئاً لا نعتبر نفية شهادة ، إذ يمكن أن تكون الأدلة متوافرة إلا أنه ردها بطبيعة الشك وإذا أثبت الشكاك حادثه أو نفاها المتفائل ( الذي يسمى في عرف علم الأصول بالقطاع ) كان كلامهما شهادة قوية ويمكن أن نتعرف على صفة التفاضلية أو التساؤمية عند صاحب الوثيقة . بملاحظة مجمل أحاديثه وأخباره . . . ومقارنتها بما استطعنا كشفه من سائر الوثائق .

### النقل غير المباشر :

كان الحديث السابق كله حول النقل المباشر ، أي فيما إذا كان صاحب الوثيقة هو الشاهد على وقوع الحادثة ، ولكن ماذا إذا كان نقله عن آخرين ؟ وهو الذي يحدث عادة عند أكثر أصحاب الوثائق .

يهما في هذه الحالة : أن نفتش عن الناقل المباشر . . . فإذا وجدناه أجرينا عليه عملية النقد السابقة الذكر ، لأنه من نوع الناقل المباشر .

ولكن يبقى السؤال : كيف السبيل إلى معرفة الناقل المباشر ؟ هناك عدة طرق أهمها :

١ - الاعتماد على الرواية المتسلسلة ، وهذه هي الطريقة التي يعتمد عليها الفقه ، والسيرة ، والتفسير ، وبعض من التاريخ الإسلامي ، إذ يدرج الكتاب في نقلهم ، الروايات أو المشاهد - عبر سلسلة الرواة الموثوقين - ( عن فلان - عن

فلان - عن فلان و . و . ) حتى يصلوا إلى الناقل المباشر .

ولهذه الطريقة فيها الخاص . المسمى ( بعلم الدراية ) . . . وتعني دراية الرواية . . . ويعتمد أيضاً على علم الرجال حيث يقوم الباحث بالبحث عن سند الأحاديث في هذا العلم .

٢ - فيما إذا كان كاتب الوثيقة ينقل كتابه ، نصاً عن رجل آخر مجهول الهوية ، هو الذي لاحظ الأمور ملاحظة مباشرة فليس أماناً في هذه الحالة إلا أن نجري بعض عوامل النقد ، وهي التي تجري على كاتب الوثيقة من خلال وثيقته فقط ، هذا بالطبع إذا كان النقل كتابة ، ونقلًا موسعاً ، يسمح لنا بدراسة صاحب الملاحظة المباشرة من خلال حديثه المطول .

٣ - أما إذا كان حديثاً مقتضباً ، أو كان النقل شفوياً ، فليس أماناً إلا نقد الوثيقة من خلال أفكارها وذلك بالمقارنة مع وثائق أخرى عديدة ، فمثلاً : لو نقل صاحب وثيقة ، عن وقوع حادثة اغتيال خليفة بالسم نقلًا عن رجل مجهول ، ثم نقل - نفس الحادثة - مؤرخون آخرون منفصلون عن بعضهم - أيضاً - عن رجال مجهولين ، فإن هذه الحادثة - بالضبط - تصبح معلومة أماناً . إذ إنها نُقلت إلينا بطرق عديدة ، ولا يعني هذا أننا اعتمدنا على نقل المجهول ، بل على تناقل الرواية باستفاضة من قبل عدد من الناس ، يصعب - عادة - تصديق اتفاقهم على الكذب . ومن هنا يحرص الرواة على نقل الأحاديث جميعاً ، ضعيفها وموثوقها ، لأن تراكم الأحاديث الضعيفة يجعلنا نتق بالواقعة التاريخية أو بالنص الشرعي ، بالرغم من أنها - كأحاد - لا تعني شيئاً .

٤ - وإذا نقل صاحب الوثيقة ، عن رجل أو عن رجال عديدين ، حادثة يصعب الكذب فيها ، لأنها خارقة ، لو وقعت يعرفها الجميع - مثل وقوع زلزال ، أو قتل شخصية مرموقة في مشهد عام أو ما أنسبه - فتكون الحادثة قريبة إلى الصدق ، ولكن يجب الحذر من الحوادث ، التي ترتبط بنشرها ، جهة دينية أو

سياسية ، فيصدقها الجمهور ، وكل منهم يزعم أنه قد شاهدها ، بما يشبه أحلام اليقظة » . . . مما يمكن أن نسميه الهذيان الإجتماعي ، حيث يتفق لأهل عصر معين تسيطر عليهم ، حالة نفسية غير عادية : أن يقرروا ملاحظة أشياء ، يمكن وضعها موضع الشك . ومن ذلك ما قرره أهل العصور الوسطى ، في أثناء الحروب الصليبية ، من رؤية الملائكة تحمل الصليب ، متجهة إلى بيت المقدس ، وما كان يقرره عدد كبير من الباريسيين في أثناء الحروب الماضية ، من رؤية رجال المظلات يهبطون في سماء باريس<sup>(١)</sup> .

٥ - وإذا كان صاحب الوثيقة ، قد عُرف بالدقة المتناهية ، ونقل عن رجل أو عدة رجال ، وصفهم بأنهم ثقة ضابطون وعرفنا عن رأيه في التوثيق : أنه يلتزم المقاييس العقلية ، التي نعرف نحن بدورنا صحتها ، تصبح روايته - بذاتها - دليلاً على صحة نقله .

وهذا كثير الوقوع في الفقه الإسلامي<sup>(٢)</sup> .

٦ - وفي غير هذه الحالة ، تتحول الوثيقة إلى نوع من الحكاية أو الأسطورة ، والتي تُعتبر مستودع معلومات الشعوب عن الحوادث الماضية ، « وتكون - نوعاً من التاريخ - الذي كثيراً ما يكون ، صادقاً كل الصلح ، أكثر من التاريخ المكتوب ، وقد يكون معبراً أو دالاً - في أحيان كثيرة - أكثر مما يدل عليه التاريخ المسجل ، لأن فيها البساطة وبالتالي الصلح في التعبير »<sup>(٣)</sup> .

**كيف نفهم لغة الوثيقة :**

بعد أن تنتهي من نقد الوثائق ، سلبياً وخارجياً ، أي من خلال معرفة

(١) المنطق الحديث ومناهج البحث ، ص ٥٠٥ .

(٢) أنظر كتاب مستدرك الوسائل ، للعلامة النوري الجزء الثالث . باب من أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنهم .

(٣) مناهج البحث العلمي ، ص ٢١٧ .

الناقل ، نسبة الوثيقة إليه ، وشخصيته وهل نقل الحادثة مباشرة أو بصورة غير مباشرة ، بعد هذه العملية ، نبدأ بمحاولة فهم الوثيقة داخلياً وإيجابياً ، وذلك بمحاولة فهم لغة الوثيقة والكلمات التي استعملت فيها ( لكي نستعد لنقد عناصرها ، وترتيبها ، والاستدلال عليها ، لبناء فكرة متكاملة من التاريخ ) ذلك لأن اللغة تتبع المجتمع وتتبادل معه التأثير ، فتعكس تطورات المجتمعات ، كما أنها تؤثر فيه ، إلى حد جعل بعض الكتاب ، يعبرون عن اللغة بأنها كائن حيّ تتفاعل مع بعضها ومع ما حولها من أشياء ، ولذلك فإن كلمات كثيرة تطورت عبر العصور فمثلاً : تختلف اللغة اللاتينية الكلاسيكية اختلافاً يَبِينُ ، عن اللغة اللاتينية ، في العصور الوسطى ، فيلاحظ مثلاً : أن كلمة (Vel) كان معناها في اللغة اللاتينية الكلاسيكية (أو) ولكن معناها في العصور الوسطى هو (و) . وفي اللغة العربية ، نجد مثلاً كلمة الحائط ، تعني في العصور القديمة معنى البستان ، بينما تعني اليوم الجدار<sup>(١)</sup> .

واختلاف معاني اللغة لا تنحصر في المفردات ، بل وأيضاً في تركيبات الجمل ، وفي الرموز الأدبية ، وفي التورية والإيحاء !

لذلك يجب أن نفهم الوثيقة من خلال الأمور التالية حيث نتساءل :

١ - ماذا يعني اللفظ حرفياً ؟

٢ - ماذا تعني الكلمة الواقعة في هذه التركيبة باعتبار أن تركيبة معينة ، قد تؤثر في معنى اللفظ ؟

٣ - وهل هناك تورية أو إيحاء ، أو حتى دعاية في استخدام هذا اللفظ ؟ وهل هناك مبالغات كانت مشهورة آنذاك ؟ كما المبالغات التي كانت تشر في الألقاب .

ودليل فهم الوثيقة أمور :

---

(١) مناهج البحث العلمي ، ص ٢٠٧ .

١ - أن نستخدم المعاجم ، خصوصاً تلك التي تُعنى بتفسير اللغة ، وفق تطورها في العصور المختلفة ، وكذلك المعاجم التي كانت قد كُتبت في عصر قريب ، من عصر الوثيقة ، أو المعاجم الخاصة ، التي تُعنى بتفسير الكلمات ، التي تمت - بصلة - إلى الوثيقة ، مثل المعاجم الدينية ، أو تفاسير الكتاب الكريم ، فيما يخص وثيقة تاريخية متصلة بالعصور الأولى للدولة الإسلامية ، أو بالنسبة إلى وثيقة دينية . والمهم في مراجعة المعجم اللغوي ، ليس معرفة موارد استخدام الكلمة بل - وأيضاً - فهم المعنى الحقيقي للمادة اللغوية ، التي استقت سائر المعاني بلحاظها ، واعتماداً عليها ( ففي مثل مشتقات كلمات الجن والجنين والجنان والجنون و . . . لا بد أن نستوحي منها جميعاً ، معنى الستر ، الذي يُعتبر المعنى الأصل للمادة ، والذي اشتقت سائر الكلمات من أجلها وبلحاظها ) . وفهم المعنى الأصل ، مهم بالنسبة إلى العربي الأصل ، الذي لم يخالط ذهنيته الاستعمالات البعيدة عن المعنى الأصل .

## ٢ - السياق :

وقاعدة السياق قاعدة هامة في فهم المعاني ، وبهذه القاعدة تعلم كل واحد منّا لغة أمته ، حيث شاهد الناس من حوله ، يستخدمون ألفاظاً ، وكلمات في ظروف معينة ، فربط بين اللفظ ، وبين الحالة التي استخدم فيها ، فعرف بذلك المعنى . فمثلاً : شاهد أحداً يقول (ماء) ويشير إلى الماء ، وشاهد الثاني : أنه يشرب الماء ثم يقول (ارتويت) أو يقول : كنت (عطشان) فيعرف معنى الماء والارتواء والعطش .

ومن هنا كانت قاعدة السياق هي الوسيلة لتكوين حالة (التبادر) والذي يعني وجود علاقة شرطية في ذهن السامع بين اللفظ وبين معناه ، وهو - أي التبادر - أهم وسيلة لفهم وتحديد المعنى الحقيقي للفظ عند أهل اللغة .

وإذا كان السياق ذا أهمية في فهم اللغة الأم ، فإنه ذات أهمية مشابهة في فهم



النصوص الغامضة منها ، ولذلك استند العرب إلى السياق ، في فهم متشابهات القرآن الحكيم ، وجاء في بعض النصوص ما مضمونه « القرآن يفسر بعضه بعضاً » .

وقد سأل رجل الإمام علياً (ع) عن معنى كلمة (أباً) في الآية الكريمة سورة عبس رقم الآية ٣١ - ٣٢ ﴿ وفاقه وأباً ﴾ فقال له : معناها موجود في الآية ذاتها ، حيث يقول الله بعدئذ : ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ فالفاكهة - متاعاً لكم - والأب لأنعامكم .

والسياق لا يفيدنا فقط في مجال فهم معنى اللفظ ، بل وأيضاً في تحديد هذا المعنى ، إذ يجب أن لا نفهم عبارة أو كلمة إلا وفقاً للسياق الذي توجد به ، فكثيراً ما تختلف معاني العبارات وبالأحرى ، معاني الكلمات ، وفقاً لاختلاف الأماكن التي تستخدم فيها وتبعاً لاختلاف الإشارات ، إلى كل من الحالات <sup>(١)</sup> .

### ٣ - المقارنة :

والمقارنة هي نوع من السياق ، بفارق أن السياق قد يكون غامضاً ، مثل أن تكون الكلمة الغامضة هي عصب الجملة فليس لا تفهم الكلمة فقط ، بل وينسحب الغموض إلى الجملة كلها ! فنلجأ إلى المقارنة . وذلك بالبحث عن هذه الكلمة الغامضة في سائر أقسام الوثيقة ، وعن طريق السياق نحاول فهم معنى الكلمة هناك ، ثم نقيس المعنى المفهوم إلى الجملة الغامضة .

وهذه الطريقة قد تكشف عن تحديد المعنى الذي يقصده مؤلف الوثيقة من الكلمة إذ يختلف المؤلفون في مقصودهم من الكلمة فلكل من الشخصيات الخلاقة من الناحية الفكرية معجمها الخاص ، الذي يتميز عن المعجم العام ، لعامة الناس ، ونستطيع أن نكون هذا المعجم باستخلاص المواضيع المختلفة ،

---

(١) مناهج البحث العلمي ، ص ٢٠٧ .

التي استعمل فيها اللفظة الواحدة ، وعلى أساسها تحدد معاني الألفاظ العديدة .  
وبهذه المقارنة يستند الفقه الإسلامي في تفسير الحديث ، الذي يعتبر دليلاً  
من أربعة على الحكم الشرعي .

#### ٤ - القياس إلى لغة العصر :

يستخدم كل عصر لغة معبرة ، مختلفة عن العصور الأخرى لا نعني  
اختلاف اللغة من عربية إلى فارسية مثلاً ، بل اختلاف اللغة داخل إطار العربية  
ذاتها بأن تكون المصطلحات تركيب جمل والمقصود من التشبيهات ، مختلفة من  
عصر لآخر .

وهناك معاجم في اللغة الإنكليزية تبين تطوّر معاني اللغات من عهدٍ لعهد ،  
وبالرجوع إلى هذه المعاجم يقدر الباحث أن يعرف بسهولة ، معنى وثيقة كتبت من  
قبل قرن تقريباً ، ولكن لا يوجد لدينا قاموس هكذا .

إلا أننا يمكننا أن نتعرف على مصطلحات القرون الماضية ، بالمقارنة  
الطويلة بين مجموعة وثائق وصلت إلينا من ذلك العصر . فمثلاً : نستطيع أن  
نعرف المعاني المقصودة من كلمات القرآن الحكيم - الذي هبط باللسان العربي  
قبل أربعة عشر قرناً - بالعودة إلى شعر العرب يوم نزل القرآن وإلى خطب  
الرسول (ص) ، وإلى كلمات الأصحاب . إن هذه المراجعة الطويلة والشاقة ،  
هي التي جابها المفسرون في فهمهم لبعض الكلمات القرآنية ، كما أن الفقهاء  
- الذين يريدون استنباط أحكام الدين بالعودة إلى النصوص الشرعية التي كتبت في  
تاريخ قديم عليهم أن يراجعوا المزيد من النصوص ، ليعرفوا عن طريق المقارنة  
معنى الكلمات الدارجة يومئذ ومعانيها المحددة . من هنا جاء في الحديث : من  
فسّر القرآن بعضه ببعض توخى الحق ، ومن هنا قيل : القرآن يفسّر بعضه بعضاً .  
وجاء عن الأئمة المعصومين (ع) ما يفيد : الحديث يفسر بعضه بعضاً . . .

وفي عهود متأخرة بهون الخطب وجود قواميس لغوية في كل عصر تفسر - لا

أقل - الكلمات الدارجة في ذلك العهد فمثلاً القاموس المحيط ( للفيروز آبادي )  
يعرفنا بمعاني الكلمات في الوثائق التي كتبت في عهده ، أو في عهد قريب منه .

من هنا نعلم : أن دراسة الآثار المادية التي خلقها الإنسان كالعماثر  
والتماثيل وغيرها ، تكون عادة أيسر من دراسة الآثار المدونة ، أو المسجلة  
بالكتابة والسبب في ذلك واضح تماماً وهو أن العلاقة بين الآثار وأصحابها تكون  
دائماً ماثلة أمام المؤرخ ، فهذا المعبد قد أقيم لاجراء الطقوس الدينية وهذا  
المنزل قد شيد للسكنى وتلك المقبرة قد أعدت للحياة الأخرى وهكذا .  
أما الآثار المسجلة ، فأمرها مختلف أنها مجرد أثر عقلي ونفسي لكتابتها .

#### ٥ - لحن القول :

إذا قام شخص بعمل شاذ لا يتناسب وسائر أعماله التي نعهدها منه فأمامنا  
واحد من تفسيرين لعمله هذا :

١ - أنه ناشئ عن خلل عصبي تعرض له .

٢ - أنه نابع من حكمة بعيدة لما نبلغ نحن مداها ، وبالطبع يكون التفسير  
الثاني هو الذي نلجأ إليه من عهدنا منه الحكمة ، وبعد النظر في كل أعماله .

وكما في الأعمال كذلك في الأقوال فقد يتحدث الشخص بما يبدو أنه شذوذ  
لا يتناسب وسائر كلماته ، فإذا كان المتكلم بليغاً حكيماً وخبيراً بأدب الحديث  
وكان كلامه في مقام لا يحتمل السهو واللغو واللامبالاة فسوف لا نجد تفسيراً  
معقولاً لشذوذه سوى أنه يشير إلى حكمة بعيدة وفكرة عميقة لم يشأ المتحدث  
- لسبب من الأسباب - أن يفصح عنها وهذا يسمى بـ ( لحن القول ) .

وبالنسبة إلى الوثيقة فقد نستطيع أن نتعرف - عن طريق لحن القول - على  
بعض المعاني العميقة إذا رأينا في الوثيقة ( تغييراً متعمداً ) لا نجد تفسيراً ظاهراً له

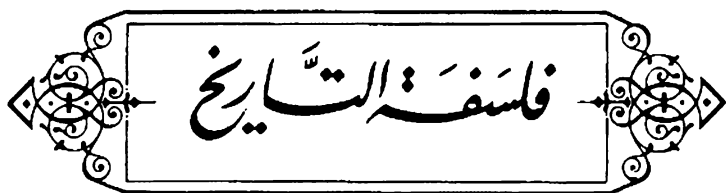
إلا الإشارة إلى موضوع معين لم يشأ المتحدث الإفصاح عنه (فكّنَى عنه كناية).  
وبالطبع لا يعني هذا أن كل تغيير يمكن تفسيره هكذا بل يعني أن تغيير دفة  
الحديث يشير فينا التساؤل بالغاية من ورائه .



القسم السادس  
عن مناهج التاريخ

دراسة مناهج التاريخ

البحث الثالث



آراء في فلسفة التاريخ .

الحنمية التاريخية ( حتمية دورية - حتمية مثالية غيبية - حتمية مادية طبيعية ) .

الحنمية التاريخية وإرادة التحدي .

هذه حتميات التاريخ ( حتمية الحرية البشرية - حتمية الكسب والجزاء - حدود

الحرية ) .

فصول الصراع .

الظلم الذاتي .



## كلمة البدء :

الحق هو فلسفة الإسلام في الحياة جميعاً ، وفي التاريخ خصوصاً .  
والحرية البشرية بعض الحق الذي يسود الحياة ، وفي محور الحق  
والحرية ، تسير حياة البشرية الآن وفي الماضي ومستقبلاً .  
والحق يعني :

أ - المادة بكل ما فيها من عناصر ، وضغوط وشهوات وأهواء . المادة بكل  
أنواعها .

ب - السنن التي تحكم المادة ، غرائز المادة ، طبائعها ، قوانينها ، ونظمها  
الشاملة والخاصة ، وبهذا المعنى الشامل تسع كلمة الحق - التي جاءت عنواناً  
لهذه الفلسفة - لكثير من الوقائع ، التي اكتشفها كثير من فلاسفة التاريخ . ( كما  
سيأتي إن شاء الله ) .

ولكن بعضاً من هؤلاء فقط ، استطاعوا أن يكتشفوا الحرية ، التي - بالرغم  
من أنها حق أيضاً - فإنها حقيقة مائزة في تاريخ الإنسان ، وفي كل الجوانب



المرتبطة به . الحرية البشرية التي تختار الحق ، أو تختار الباطل ، تسير باتجاه السنن ، أو اتجاه معاكس لها ، تلك الحرية التي تجعل تاريخ الإنسان مميزاً عن الطبيعة ، وتجعل العلوم البشرية غير العلوم الرياضية ، هذه الحرية هي المفقودة في أكثر فلسفات التاريخ .

بعد هذه المقدمة المختصرة ، دعنا نتحدث بشيء من التفصيل عن فلسفات التاريخ في آراء العلماء .

### آراء في فلسفة التاريخ :

هناك أسئلة مثارة في فلسفة التاريخ هي - في الواقع - تشكل موضوع هذا الحقل . والأسئلة هي<sup>(١)</sup> :

- 
- (١) حددنا الأسئلة ، وفق رؤيتنا في أولويات التدرج في المسائل التاريخية ، وهناك تسلسل آخر إتبعه الدكتور عبد الرحمن بدوي في كلمته عن « أحدث النظريات في فلسفة التاريخ » المنشورة في مجلة عالم الفكر ( المجلد الخامس العدد الأول ، ص ٢١٦ ) . ونحن إذ نذكر نص تقسيمه لا بد أن نلاحظ أنه راعى المسائل العلمية بينما راعينا الجانب الفلسفي في تقسيمنا الأنف الذكر . يقول الدكتور بدوي عن مشاكل التاريخ إنها التالية :
- ١ - مشكلة النسبية في التاريخ ، وبخاصة ما يتعلق منها بالقيم ، فأفضت إلى نظريات دلتاي في نقد العقل التاريخي سنة ١٨٣٩ / ١٩١١ - ويدلتاي تبدأ فلسفة التاريخ المعاصر ، ونظريات اشبنلجر في نسبية القيم إلى الحضارة المنبثقة فيها . وآراء ماكس فيبر ( سنة ١٨٦٤ - ١٩٢٠ ) في الربط بين التاريخ والاجتماع وما ذهبت إليه المادية التاريخية عند كارل ماركس سنة ١٨١٨ / ١٨٨٣ ، وفردريك انجلز ( ١٨٢٠ / ١٨٩٥ ) من الربط بين الاقتصاد المادي ، والتاريخي ، وما قال به ، ( كارل ماهيم ) من إجتماعية المعرفة ، وآراء بنتدوكر ووتشو ( ١٨٦٦ / ١٩٥٢ ) في التاريخية المطلقة .
  - ٢ - وثانيها : مشكلة العلوية المطلقة في التاريخ وتندرج تحتها الاشكالات ، والخواطر التي حفلت بها دراسات توينبي ( وُلد سنة ١٨٨٩ ) وكارل هوبر .
  - ٣ - وثالثها : مشكلة التقدم والتخلف في مجرى التاريخ هل هناك خط للتقدم يستمر قدماً ، أو ثم تقدم وتخلف ، دون قاعدة ، ولا قانون ، وما من فيلسوف في التاريخ إلا

١ - الحتمية التاريخية ، فهل هناك حتميات تاريخية تسير البشرية في اتجاه معين ؟

٢ - هل يمكن كشف هذه الحتمية والتنبؤ على أساسها بالمستقبل ؟

٣ - هل التاريخ البشري في تقدم مستمر . . . في خط صاعد . أو في طريق دائري ؟

### الحتمية التاريخية :

هناك نظرية ، الدورات التاريخية ، التي تُصوّر الجماعات البشرية - تماماً - كالكانائن الحية ، في أنها تخضع لدورة حياتية معينة ابتداءً من الصبا ، إلى عهد الشيخوخة ، ومروراً بعهد الشباب والفتوة ، وقد راقّت هذه النظرية كثيراً من الفلاسفة والمؤرخين القدماء والجدد . والحتميات التاريخية تختلف إلى :

أ - حتمية دورية حيث تقوم فلسفة التاريخ ( عند هيردر ) على القول بأننا لا بد أن ندرس الماضي ، لفهم مشاكل اليوم والغد . وقد شابه ابن خلدون ، في تشبيه الجماعات الإنسانية بال مخلوقات الحية ، وقال : بأن لها هي الأخرى أعماراً من الطفولة ، والفتوة والشيخوخة ، وقد حاول أن يثبت في كتابه المسمى « آراء عن فلسفة التاريخ الإنسانية » : أن التاريخ ، يخضع لقوانين كتلك التي تخضع لها الأشياء والطبيعة ، وقد قال : بأن التاريخ يسير في خط تقدمي واحد<sup>(١)</sup> .

---

وتعرض لهذه المشكلة إما إماماً وإما تفصيلاً .

٤ - ورابعها : إمكان التنبؤ ، بما سيكون عليه التاريخ ، وفي هذا ذهب البعض إلى التفاضلية والبعض الآخر إلى التشاؤم والبعض الثالث زعم أنه بمعزل عن كليهما وأنه تنبأ تنبؤات موضوعية غير تقويمية ، ومن الذين برزوا في هذا المجال توكفيل ( ١٨٥٩ / ١٨٥٥ ) ، ويعقوب بوركهيرت ( ١٨١٨ / ١٨٩٧ ) ، وفريدريك نيتشه ( ١٨٤٤ / ١٩٠٠ ) ، وأخيراً كارل سيرز ( ١٨٨٣ / ١٩٦٩ ) .

(١) عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الأول ، عن كلمة الدكتور حسين مؤنس ، ص ٧٦ .

ب - حتمية مثالية غيبية ، يقول هيجل ( الذي يُعتبر رائد الفلسفة المثالية الحديثة والحتمية الدينية التاريخية ) : إن التاريخ - على هذا الاعتبار - إن هو إلا عملية طويلة مقدرة بقدر يأخذ فيها كل حادث أو طرف مكانه ومبرراته ، على ضوء مسار التاريخ في مجموعه . وهنا يتفق هيجل مع (رانكة) الذي قال : إن الدول أفكار الله ، ويريد بذلك : أنها تقوم بتقدير الله سبحانه<sup>(١)</sup> .

ج - مادية طبيعية ، وأصحاب هذا الرأي : جعلوا رأيهم الحديث عن العوامل الداخلية ، التي تدفع الإنسان ، أو الجماعات البشرية ، إلى الحركة . وكلها - في نظرهم - عوامل مادية أي أنهم نظروا إلى التاريخ البشري وكأنه فرعٌ من فروع التاريخ الطبيعي<sup>(٢)</sup> . ومن هؤلاء الناس ( كارل ماركس ) صاحب الحتمية التاريخية الإقتصادية حيث ( يرى ماركس : أن التاريخ تحكمه قوانين يدركها العقل الإنساني ، وهذه القوانين حتمية أي أنها تفرض نفسها لأنها ناتجة عن حركة التاريخ نفسه ، وإذا أدرك الإنسان هذه القوانين استطاع أن يقرر صورة مستقبل الجماعة الإنسانية . . . ويقول : إن الأحوال والأوضاع الإقتصادية لأي جماعة هي التي تحدد صورة نظامها ، وكل مظاهر حضارتها ، فإذا أردنا أن نفهم نظام أي مجتمع ، ونظامه السياسي أو حتى عقيدته الدينية ، وإنتاجه الفني ، والفكري ، فلننظر أولاً إلى نظامه الإقتصادي ، وأساس النظام الإقتصادي هو الإنتاج ، ونوعه وأساليبه ، وطريقة استعمال أو توزيع ثمراته ، والإنتاج نفسه سواء كان يدوياً بدائياً أو آلياً متطوراً لا يظل - دائماً - على مستوى واحد ، وأسلوب واحد ، فهو يتطور دائماً .

### الحتمية التاريخية وإرادة التحدي :

وهناك حتميات تاريخية أخرى . إلا أنها بحاجة إلى وقفة نظر وملاحظة .

هي :

---

(١) المصدر ، ص ٨١ .

(٢) المصدر ، ص ٨٢ .

إننا تحدثنا في فصول سابقة ، عن مدى تأثير العوامل المادية ، والإجتماعية ، والشهوات ، والأهواء في تحديد مسير الإنسان . والإنسان ، هو الإنسان في الماضي ومستقبلاً وكما أن إنسان اليوم تتنازع تلك العوامل المادية والإجتماعية والنفسية ، ويؤثر كل واحد عليه تأثيراً متناسباً مع ظروفه ، وتركيبته الوراثية ، وقوة ذلك العامل ، ومدى استجابة الفرد له ، فكذلك إنسان الماضي والمجتمع البشري هو مجموعة أفراد ، والعوامل المؤثرة في كل فرد تؤثر بالطبع في الأفراد ككل ولا ريب أن من أهم العوامل المؤثرة في الفرد ، هو الإقتصاد ووسائل الإنتاج . وكيفية توزيع الثروة ، وروح المجتمع الذي يعيش فيه من صبا ، أو شباب أو شيخوخة<sup>(١)</sup> .

ولكن السؤال هو : هل هذا تأثير حتمي في حياة الإنسان ، مما يجعل الحياة البشرية ، كالطبيعة ذات وترٍ واحد تسير عليه أبداً ؟ وبالتالي ، هل هناك علل تاريخية ؟ هذا ما لا نقبل به . إذ إننا نعترف - يقيناً - وجود تحدٍ إرادي للإنسان ، يعلو على مقتضيات الإقتصاد ، ووسائل الإنتاج ، والإجتماع ، وروح العصر ، وإن وجود قدرة أعلى للفرد على تحدي العوامل المؤثرة فيه ، دليل على وجود ذات القدرة في البشرية أيضاً ، وبالتالي إن كل عصر تاريخي هو عصر فريد ، لأنه يتكون بالمزيج من تفاعل وتشابك العوامل ، ومن قدر غير مقدر - سلفاً - من إرادة البشرية الحرة التي تختار إما الخضوع للعوامل أو تحديها .

كيف تختار المجموعة البشرية طريقها باتجاه أو ضد العوامل ؟ هذا أمر مرتبط بدراسة المؤرخ لكل عصر ( وستحدث عنه إن شاء الله عند الحديث عن روح الحضارة ) ولكن الحرية موجودة دائماً وفي كل العصور وبهذا نعرف : أن القانون التاريخي ، يختلف عن القانون الطبيعي ، في أن الطبيعة لا تستطيع أن

---

(١) ستحدث إنشاء الله عن الروح الاجتماعية .

تغير من مسارها منذ خلقها الله ، بينما الإنسان بالعكس ، عن هذه الحقيقة . يقول كارل سيرز : إن الإنسان ليس تاريخاً إلا باعتباره موجوداً مزوداً بعقل ، لا بوصفه موجوداً طبعياً ، ونحن بوصفنا أناساً لا نكون مأسورين لأنفسنا إلا في التاريخ ، لكن فيما هو جوهري لنا ، لا بوصفنا موضوعاً للبحث ، إلا بوصفنا طبيعة ، وقانوناً عاماً وحقيقة واقعية تجريبية خاصة ، وفي التاريخ نحن نلقي أنفسنا بوصفنا ( حرية وجود وعقل ) وجادين في إتخاذ القرارات ، وذوي استقلال عن العالم ، وما يواجهها في التاريخ . لأن الطبيعة هو هذا السر المزدوج الانتقال ، المفاجيء إلى الحرية وانكشاف الوجود في الشعر الإنساني<sup>(١)</sup> .

وبسبب هذه الحرية الإنسانية ، التي تتجلى في التاريخ ، فنحن نحبه لأننا نحب الإبداع ، والتحدي ، والخلق ، وفي التاريخ ومضات من الإبداع والتحدي والخلق ، وهذه الومضات هي أحب الومضات إلى قلوبنا ، لأنها تعطي التاريخ ، الفردية التي هي لمسة إنسانية ، لمسة من الاختيار ، والصنع ، والذاتية ، لكن هذه الحرية لا تتنافى مع القانون التاريخي ، لأن القانون التاريخي هو في الواقع قانون اجتماعي إنساني ، والقانون الاجتماعي ليس فيه حتمية القانون الطبيعي ، بل فيه نسبة محتومة من احتمال التحدي ، من قبل الإنسان ، الذي يتميز بالحرية في تصرفاته . ولذلك فالقانون لا يبحث عن (العلة) ، بل عن (المقتضى) والذي يعني زيادة نسبة الإحتمالات في جانب ، ضد جانب آخر ، وبتعبير آخر : وجود ظروف ضاغطة تهىء في جانب ، ضد جانب آخر ، وبتعبير آخر فوجود طبقة في المجتمع تهىء الظروف لاختيار الطبقة المقهورة المستضعفة الثورة ضد الطبقة القاهرة الظالمة . . . لا أنها تحتم عليهم ، بل لأن الحتمية لا تصدق باستمرار .

من هنا نعلم أن علينا أن نفتش عن سنن التاريخ ولكن مع المحافظة على نسبة التحدي ، التي قد توجد في الإنسان باتجاه معاكس للمسة ، وهذا هو ما فعله

---

(١) المصدر ، ص ٢٣٧ .

كبار المؤرخين الجدد ، إذ أنهم لم يحاولوا - كما حاول بعض فلاسفة التاريخ في القرن السابق - أن يدرسوا التاريخ كأنه نموذج واحد فقط ، وخاضع لسنن حتمية قاهرة لا تتغير ، بل درسوه على أساس كتاب متعدد الأوجه . فمثلاً توينبي الذي درس إحدى وعشرين حضارة أصيلة ، درسها دراسة مستوفاة ، باحثاً في كل حضارة عن روحها ولبابها ، وميزاتها ، وسماتها ، ثم أدلى برأيه في الحضارة ، وهو رأي معتدل نوعاً ما ، إذ إنه لا ينسى التنويه بدور الإرادة البشرية ، إذ إنه استنبط من خلال دراسته : « أن تاريخ كل أمة من الأمم التي اختارها موضوعاً لدراسته ، إنما هو استجابة لتحدي الظروف التي وجدت فيها<sup>(١)</sup> . إن الإستجابة لا تقع بطريقة عشوائية أو حتمية ، بل بوعي وإرادة حرة » .

«وعند دراسة توينبي للحضارات التي اختارها ، تبين أن المجموعات البشرية التي تقودها جماعات من القادة وأصحاب الرأي وهؤلاء هم الذين يقودون الجماعة ، في استجابتها للتحدي ، ويحددون نوع هذه الإستجابة بحسب ملكاتهم فإذا كانت استجابتهم قائمة على ابتداع الوسائل التي تمكن الجماعة من التغلب على المصاعب التي تواجهها ، والسير إلى الأمام كانت هذه الجماعة موفقة وسار تاريخ الجماعة إلى الأمام لأن الإستجابة كانت ابتكارية ، أو ابتداعية ، ولا تزال الأمة في صعود وتقدم ما دام قادتها محتفظين بالقدرة على الاستجابة الابتداعية ، فإذا عجزوا عن ذلك أخذ سير الجماعة كلها يتلكأ ويتراخى وربما توقف » وبينما كان اشبلنجر - مثل ابن خلدون - يرى : « أن الإستجابة الابتداعية تصل إلى ذروتها ثم تتوقف » أي أن موت الحضارة لا مفر منه يرى توينبي : أنه من الممكن أن تستمر الحضارة في الاستجابة الابتداعية ولا تموت بذلك<sup>(٢)</sup> .

---

(١) المصدر ، ص ١٠٥ .

(٢) المصدر ، ص ١٠٦ .

من هنا نعلم ، أن حرية الإنسان هي التي تصنع التاريخ ، وإن ما يسمى بالحمية التاريخية ، الإقتصادية ، أو النفسية المثالية ، أو الحضارية الدورية ، إنما هي مقتضيات تهيم الجولقيام الإنسان ، باستثمار حريته ، واتخاذ قرار محدد . وإن قراره هو الذي يصنع التاريخ أخيراً . ولكن ، هل يعني هذا أن ليس هناك أية حتمية في مسار التاريخ ؟

حتميات التاريخ :

هناك عدة حتميات هي :

١ - حتمية الحرية البشرية . التي لا يمكن أن تموت رغم كل ضغوط التاريخ عليها ، وهذا ما تحدثنا عنه - سلفاً - والقرآن الحكيم يذكرنا في آياته ، بهذه الحرية في مناسبات ، مرة حين يتحدث عن أفراد تحدوا واقع أمتهم الفاسد ، وتطلعوا إلى الأمام ، أولئك الأبطال استثمروا حريتهم وخرجوا من قوقعة الظروف إلى رحاب الإنسانية .

فقد قال ربنا :

﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ﴾ [ ١١ / التحريم ] .

ولم يقبل ربنا تبرير الظالمين أنفسهم بأنهم كانوا مستضعفين ، بل قال لهم ( كما جاء في القرآن ) :

﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كتمت قالوا كُنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك ماواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ [ ٩٧ / النساء ] .

وقال القرآن للمسلمين بصراحة :

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كتمت مؤمنين \* إن يمسسكم قرح

فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴿

[ ١٣٩ - ١٤٠ / آل عمران ] .

ولولا الحرية لما تقدمت البشرية بوصة واحدة . ولما كانت ثورات تقدمية ولا إبداع ولا مبادأة .

إن ثورة الإنسان هي استثمار لحرية . ضد أفكار ونظم ( وحتميات سائدة !! ) وهي بذلك تحدّ لضغط الظروف . وهي دليل الحرية .

٢ - حتمية الكسب والجزاء . والكسب والجزاء هما معاً محور « الحق والحرية » في الحياة ، الحرية في أن تتخذ قراراً . والحق . هو أن تتلقى جزاء قرارك إن خيراً فخير وإن شراً فشر يقول الله تعالى : ﴿ أم لم يُنبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى ﴾ \* ألا تزو وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى ﴾ \* ثم يجزأه الجزاء الأوفى ﴿ [ ٣٦ - ٤١ / النجم ] .

كل شخص « حر » في أن يتخذ موقفاً ( وحتى لولم يتخذ موقفاً في الحياة فإن عدم اتخاذه الموقف هو بذاته موقف اختاره بحريته ) ، ولكن الحق هو أن يجرى بما قام به . وحين تتراكم أعمال الناس ، ومكاسبهم الخيرة ، فإن حتمية سنة الحق تقضي فيهم ، بتفجير حضارة تتناسب ومدى ما قدّموه من عمل خير . بينما يقتضي الحق ، سنة الحتمية في الحياة ، إنه إذا تراكمت مكتسبات الأفراد السيئة ، انفجرت فيهم بشكل مأسى مدمرة ، تنهي حضارتهم ، ويرثها الآخرون ، بجهودهم ، ومساعدتهم . وهذه الحتمية تقضي بعودة الإنسان ، إلى الحق مكرهاً إذا لم يعد إليه طوعاً . والتاريخ إنما هو مجموعة مسيرات من الحق إلى الباطل ، بحرية الإنسان وسوء اختياره ، من الباطل إلى الحق ، بحرية الإنسان وحسن اختياره ، أو رغماً عليه وكرهاً . ذلك أن الحق هو سنة الحياة ،



التي لن تجد لها تبديلاً ولن تجد لها تحويلاً .

٣ - حدود الحرية وإن كانت الحرية ممنوحة للإنسان ليختار طريقه ، فإن هذه الحرية محددة في إطار معين ، وضمن فترة محددة ولذلك :

حين تظلم فئة فئة أخرى ، وتسلب منها حقها ، وتسرق حريتها ، وتنتشر الطبقية في الأمة ، فإن الفئة المحرومة إنما سحقت بحريتها ، وعدم دفاعها عن ذاتها . ولكن الفئة الظالمة لن تبقى تستمر في استغلال حريتها المحدودة إذ الله لم يهملها بل إنه أمهلها فقط ، لذلك فإنه يتدخل غيبياً ، لينهي الباطل ويعيد الحق . يقول ربنا تعالى : ﴿ تَلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ \* إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين \* ونريد أن نمّن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين \* ونمكن لهم في الأرض وَنُرِيْ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴿ [ ٣ - ٦ / القصص ] .

هذه خلاصة القصة : هناك فرعون اختار طريق الباطل (والظلم) ولكن لم تستمر لفرعون حريته بل تدخلت سنة الله التي أرادت ( في مواجهة إردة فرعون ) أن تري فرعون أن الطائفة المستضعفة قادرة على استرجاع حقوقها .

هذه فلسفة صراع الطبقات ، حيث إن الفئة المغلوبة المستغلة تقاوم الفئة ( التي غالباً ما يمثلها فرد ) الظالمة المستغلة ، والنهاية ستكون انتصار تلك الفئة على هذه لأنها خالفت سنة الحق ، فأعيدت إليه كرهاً ، ولكن كيف تتم فصول هذا الصراع .

### فصول الصراع :

تجري فصول هذا الصراع أولاً - بطريقة واعية - حيث تبندى بوجود فكرة ثورية في الأمة ، بحيث تكون هذه الفكرة ، وسيلة يقظة ، وأداة تنظيم ، ومنظار

رؤية . ودون هذه الفكرة لا تستيقظ الأمة ، ولا تستطيع تكوين رؤية ، ولا أداة تنظيم .

ثانياً : تتبلور هذه الفكرة في روع قائد ، يقوم باستقطاب مأساة الطائفة المستضعفة ، ويفجرها ضد الطغاة ، وكما هو معروف أن مؤرخين كثيرين ، أكدوا على دور هذين الأمرين ، في توجيه التاريخ .

وعنهما يقول ربنا - وهو يصف لنا واقعة الصراع بين موسى وفرعون - وما وراءه من الصراع بين فئة ظالمة ، وأخرى مستضعفة . فيقول :

١ - ﴿ طسم ﴾ تلك آيات الكتاب المبين \* نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق ، لقوم يؤمنون ﴿ [ ١ - ٣ / القصص ] .

٢ - ﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحي نساءهم ، إنه كان من المفسدين ﴾ [ ٤ / القصص ] .

٣ - ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين \* ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما ، منهم ما كانوا يحذرون ﴾ [ ٥ - ٦ / القصص ] .

٤ - ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم . ولا تخافي ، ولا تحزني ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ فالتقطه آل فرعون ، ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين \* وقالت امرأة فرعون ، قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون ﴿ [ ٧ - ٩ / القصص ] . ﴿ وحرّمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ فرددناه إلى أمه كي تقرّ عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿ [ ١٢ - ١٣ / القصص ] .

٥ - ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدوٌ مضل مبين ﴾ [ ١٥ / القصص ] .

في بداية القصة يذكرنا القرآن بأن الحق ، هو عنوان القصة ، وخلاصة عبرتها . حين يقول سبحانه : ﴿ نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون (بالحق) لقوم يؤمنون ﴾ ، ثم تسرد القصة تاريخ حضارة من أعرق حضارات الأرض ، وعبر فصولها الخمس ، ( التي فرقناها للتوضيح ) .

١ - هناك دكتاتور علا في الأرض ، إن لهذا الفرد - الذي قاد طبقة المترفين ، ضد طبقة المستضعفين - أثره الحاسم ، في توجيه مسار التاريخ ، بالرغم من أن وزيره (هامان) وجنودهما ساهموا في صنع التاريخ أيضاً . . ولكن البصيرة القرآنية تذكرنا بدور الفرد القائد - هنا - كما تذكرنا بدوره ، في الطرف الآخر لإبراز دور القيادة ، وأيضاً دور المسؤولية الفردية ، التي يتحملها الإنسان تجاه قراراته ، فليس فرعون بعيداً عن المسؤولية لأن الجهاز الذي ركب هو على رأسه كان فاسداً . فقراراته - إذاً - كانت جبرية كلا . . . كما أن موسى (ع) ليس مجرد آلة في مركبة التاريخ ، بل هو إنسان حر أراد الثورة فثار .

٢ - ولكن إلى متى يظل الإنسان ( فرعون ) حراً في معاكسة نظام الحق في الحياة ؟ بالطبع ليس إلى ما لا نهاية ، كما كان يظن هو ووزيره وجنودهم . ولذلك كانوا خاطئين ، فهناك إرادة حرّة ، فوق إرادة فرعون الحرة ، هي إرادة الحق ، إرادة السنّة الإلهية ﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا ﴾ ، ولا يقول الضعفاء لأن الله لم يخلق البشر فريقاً ضعفاء ، وفريقاً أقوياء ، إنما الناس - بعملهم - يستضعفون بعضهم بعضاً . ولا يُستضعف أحد إلا بسوء اختياره ، إذ

إنه قد أوتي - هو أيضاً - قدرة على مقاومة الضعف متى ما شاء .

٣ - كيف تتحقق إرادة الحق في دحر المفسدين ؟ في البدء باصطناع إنسان يجد إنسانيته . ويستعيد حرته ، ويقاوم المستعبدين والعبيد معاً ، يقاوم أولئك لأنهم سلبوا حرية هؤلاء ، ويقاوم هؤلاء لأنهم سمحوا لهم بذلك ، ولم يستعيدوا حررتهم لذلك : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم . . . ﴾ وموسى الذي استعاد حرته ، رُبِّي في جو موبوء بالفساد ، في بيت الجريمة والإسراف ، في بيت فرعون بالذات ، ولم تكن له أية مصلحة في معاداة النظام ، إلا أنه كان ثائراً (بحرته) ، وضد مصالح أعدائه ، ومصالحة الوقتية أيضاً .

٤ - ولأن الممارسة النضالية تعطي الإنسان رؤية واضحة ، ولأن موسى كان محسناً فإن الله أعطاه حكماً وعلماً . . . الحكم لكي لا يحيد عن صراط الحق ، والعلم لكي يقود قيادة حسنة ، الحكم رؤية ثورية . والعلم ، قيادة علمية . . . وهذه هي الفكرة الحضارية ، التي تحتاجها الأمم ، في نهضتها ، وهي : النظرية الثورية التي لا بد منها في قيام الطبقة المستضعفة ، ضد أعدائها المستغلين ، وهي ضرورة لا تقل أهمية عن ضرورة القائد ، الحكيم العليم .

٥ - وبدأ ثورته باستخدام العنف ، ضد الطبقة المستغلة ، دفاعاً عن الطبقة المحرومة .

﴿ . . . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها . . . ﴾ إن العنف يبدأ مع الثورة بشكل بسيط ، ولكنه ينصاعد بسرعة هائلة وفي بعض الأوقات من دون إرادة من صاحبه .

الظلم الذاتي :

الظلم الاجتماعي ( الذي يعني توزيع الناس شيعاً وفئات متناحرة ) ليس السبب الوحيد لنهاية الأمم ، بل هناك أيضاً : الظلم الذاتي الذي ينهي حياة الأمم

أيضاً . فالابتعاد عن نهج الله في الحياة ، وعدم التفكير الجدي في الطريق السليم للعيش ، يتسبب في نهاية الحضارة . نهاية متدرجة أو صاعقة . فإذا انتشر الفساد ، سادت الميوعة ، وإذا سادت الميوعة ، فقدت الأمة التماسك الداخلي ، وتفسخت وانتهت ، وهذه الحالة هي التي يعبر عنها بعض المؤرخين بـ ( حالة الشيخوخة ) في الحضارة ، حيث يسترسل أفراد الأمة في الإسراف في الملذات الأنثى ، ناسين أهدافهم في الحياة ، ومن ذلك رأى أشينجلر : « تشابهاً بين قيام الحضارات ، ونموها ، ووصولها إلى القوة ، ثم انحدارها (في) عملية بيولوجية شبيهة بما يجري على الكائنات الحية في تطور طبيعي عضوي ، بالضبط كما قال ابن خلدون<sup>(١)</sup> . . ولكن أشينجلر ذهب في تشبيه دور الحضارات ، بدون حياة الكائن الحي إلى مدى مسرف في البعد ، فإن التطابق بين حياة الأمم - كما قلنا - غير موجود إلا في الظاهر فقط<sup>(٢)</sup> .

وقد استطاع توينبي - الذي أخذ من ابن خلدون ، ومن ملاحظاته لعشرين حضارة في التاريخ فكرة دور الحضارة - استطاع أن يستعدل نظريته ، بما يتناسب ووجدان الإنسان : إنه حر ، ومسؤول ، عن تصرفاته ، فقال : إن من الممكن أن تستمر الحضارة في الاستجابة الابتداعية ، ولا تموت بذلك<sup>(٣)</sup> .

والواقع أن الكائن الحي ، مضطر للتدرج وفق مراحل الحياة ، منذ الطفولة إلى الفتوة والشيخوخة ، ولكن الأمة لا تتحرك من دون إرادة أبنائها ، وتحركهم ووجود فكرة صالحة فيهم .

**الظلم الذاتي في القرآن :**

وقد ضرب الله لنا مثلاً بقوم لوط الذين انتشرت فيهم الميوعة وانتهت حياتهم

---

(١) المصدر ، ص ١٠٣ .

(٢) المصدر ، ص ١٠٤ .

(٣) المصدر ، ص ١٠٦ .

فقال سبحانه ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ﴾ [ ١٦٠ / الشعراء ] .

١ - ﴿ إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ﴾ \* إني لكم رسول أمين \* فاتقوا الله وأطيعون \* وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلا على رب العالمين ﴾ [ ١٦١ - ١٦٤ / الشعراء ] .

٢ - ﴿ أتأتون الذكران من العالمين ﴾ \* وتلدرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم !! بل أنتم قوم عادون ﴾ [ ١٦٥ - ١٦٦ / الشعراء ] .

٣ - ﴿ قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ﴾ \* قال إني لعملكم من القالين \* رب نجني وأهلي مما يعملون ﴾ [ ١٦٧ - ١٦٩ / الشعراء ] .

٤ - ﴿ فنجيناه وأهله أجمعين ﴾ \* إلا عجوزاً في الغابرين \* ثم دسرنا الآخرين \* وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ﴾ [ ١٧٠ - ١٧٣ / الشعراء ] .

ثم ضرب الله لنا مثلاً بأصحاب الأيكة ( الذين انتشر فيهم الفساد الإقتصادي والإجتماعي فأنهى حضارتهم أيضاً ) فقال ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴾ [ ١٦٧ / الشعراء ] .

١ - ﴿ إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ﴾ \* إني لكم رسول أمين \* فاتقوا الله وأطيعون \* وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلا على رب العالمين ﴾ [ ١٧٧ - ١٨٠ / الشعراء ] .

٢ - ﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ﴾ \* وزنوا بالقسطاس المستقيم \* ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين \* واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين ﴾ [ ١٨١ - ١٨٤ / الشعراء ] .

٣ - ﴿ قالوا إنما أنت من المسحورين ﴾ \* وما أنت إلا بشرٌ مثلكم وإن نظرنا لمن الكاذبين \* فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾

٤ - ﴿ قال ربي أعلم بما تعملون ﴾ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم ﴿ [ ١٨٨ - ١٨٩ / الشعراء ] .

وكانت نهاية حضارة أصحاب الأيكة صاعقة ، إذ أنهم نشروا الفساد ، وكان ذلك نوعاً من الظلم الذاتي ، الذي لا بد أن يقابل بعودة جبرية إلى الحق ، بإرادة فوقية لا تقهر . ومثل آخر ضربه الله لنا في واقع قوم هود (عاد) وحضارتهم انتهت في عز شبابها ، وكان الظلم الذاتي عندهم متمثلاً في التجبر على الناس ، والاعتداء على الشعوب المستضعفة . ويبدو أن قوم هود ، ما عانوا من طبقة داخلية ، تفتت وحدتهم ، ولا عانوا من فساد اجتماعي أو خلقي ، إنما كانت حضارتهم خالية من الهدف الرسالي وكانت عنصرية متعجرفة ، وقد انتهت حضارتهم نهاية صاعقة ، فقال عنها ربنا : ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ .

١ - ﴿ إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ﴾ إني لكم رسول أمين ﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ وما أسألكم عليه أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين ﴿ [ ١٢٧ / الشعراء ] .

٢ - ﴿ اتبنون بكل ريع آية تعبثون ﴾ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ﴾ أمدكم بإنعام وبنين ﴾ وجنات وعيون ﴾ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴿ [ ١٢٨ - ١٣٥ / الشعراء ] .

٣ - ﴿ قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ وما نحن بمعذبين ﴿ [ ١٣٦ - ١٣٨ / الشعراء ] .

٤ - ﴿ فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ [ ١٣٩ / الشعراء ] .

إن عاداً دون غيرهم كانوا مغرورين بقوتهم ، ودون غيرهم قالوا لرسولهم :

إن أفكارك رجعية ، ودون غيرهم بطشوا بطش الجبارين ، إنهم كانوا في عنفوان شبابهم . ولكنهم انتهوا .

هذه جميعاً نماذج من ظلم الإنسان لذاته ، التي مارسها بحريته التامة ، ولكن سنة الحق تدخلت ، بعد إنذار بالغ وناقد أنهت حضارتهم وأعادت الحياة إلى مجراها المستقيم .

### التنبؤ بالمستقبل :

بالطبع ضرورة دراسة التاريخ ، ودراسة فلسفته ، هي من أجل ضرورة توضيح الرؤية إلى المستقبل ، وليست لمجرد إشباع شهوة الإطلاع . ودون التنبؤ بالمستقبل ، بشكل من الأشكال ، لا يمكن الانتفاع بالتاريخ . ولكن هذا الهدف ، لا يتحقق بشكل مطلق ولا بشكل دائم . بل ويرتبط :

١ - بفهم جميع أو أهم العوامل الأساسية التي تؤثر في الإنسان .

٢ - بفهم الواقع الحاضر وموقع الإنسان من مراحل التاريخ . بعد فهم هذه الحقائق ، يستطيع المؤرخ ، أو الفيلسوف ، التنبؤ بالمستقبل ، مع وضع احتمالات واستخدامات الإنسان لحريته ، وتحديد مسيرته التاريخ .

من هنا فإن التشاؤم المطلق - كالتفاؤل المطلق - في حقل التنبؤ بالمستقبل غلط .

فالتاريخ ليس كتاباً واحداً . تعيد الأحداث طباعته إنما هي كتب عديدة ، وكل كتاب يطبع مرة واحدة ، وقد يؤلف من جديد ، ولكنه لا يطبع منه نسخة أخرى ، أبداً ، وفي حدود هذا المفهوم يصح القول « التاريخ يعيد نفسه » .

### مسار التاريخ :

لكل مجموعة أحداث تاريخية ، صبغة خاصة ، تجعلها وكأنها حدث واحد



فقط ، له بداية ونهاية ، ويمكن أن نشرحها بشكل خاص و متميز لها<sup>(١)</sup> .

وهذا يعني عدة أمور :

١ - أن لكل مجموعة أحداث تاريخية ، صلة داخلية تربطها ببعضها ، وعلينا أن نتوسع في دراسة هذه المجموعة ، حتى نصل إلى تلك الصلة الداخلية ، التي قد نسميها مجازاً بروح المجموعة . إنه - لكي نفهم تاريخ حضارة ما - علينا أولاً أن نقرأ عنها في توسع ، حتى نهتدي إلى روحها ، ولبابها وهذا هو مفتاح فهمها<sup>(٢)</sup> .

٢ - أهم شيء رابط بين أحداث هذه الفترة ، هي سيادة فكرة معينة لا تكون الرابطة - بين الأفراد والطبقات الموجودة - داخل الأمة فقط ، بل - وأيضاً - تكون المفتاح لفهم الأحداث التي تقع ضمن الفترة . يقول توينبي : إن النموذج العادي للتفكير الاجتماعي من الحضارات ، يأخذ صورة انشقاق في صفوف الجماعة ، وظهور الطبقة العاملة إلى الميدان ، وتحديها للقوة الحاكمة ، ويقترب ذلك بعجز هذه الطبقة (الحاكمة) عن الثبات ، لذلك التحدي ، بسبب التصدع في بنيانها ، وعجزها عن الاستجابة - ابداعياً - للتحدي ، وشيئاً فشيئاً ، تفقد القيادة سيادتها ، وتميل الأمور إلى الغموض<sup>(٣)</sup> .

ولكن هل ظهور الطبقة العاملة ، هي الميزة الوحيدة للتصدع الحضاري ،

---

(١) وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة حينما قسم التاريخ أمماً وجعل لكل أمة بداية ونهاية فجاء فيه مثلاً : « إلى أجلٍ مسمى ومتعناهم إلى حين » .

(٢) عن هذه الروح يقول اشبنلجر : إن الفترة الأولى من حياة ، أي حضارة ، تشبه العصور الوسطى ، الأوروبية ، وهي - في نظره - مرحلة طفولة أو صبوة لم تدخل في مرحلة الوعي لنفسها والتنبه إلى قواها ، ثم تبدأ - بعد ذلك - مرحلة الضعف والهبوط وإننا نستطيع أن نستشف روح كل حضارة في معاملات الناس في نطاق أي حضارة في كيانها من قوة ، وما تمر فيه من مراحل العمر ، عالم الفكر ، المجلد الخامس العدد الأول ص ١٠٤٠ .

(٣) المصدر ، ص ١٠٦ .

كما حدث في روسيا القيصرية ؟ أم أن هناك تصدعاً من نوع آخر ، يحدث بين فئات متناحرة ، لكل واحد منها مصالحها ، وحقوقها ، وطبقاتها ، وقيادتها ، كالتى حدثت في الأمة الإسلامية بعد أفول نجم حضارتها حيث أصبحت ، كما قال الشاعر :

وتفرقوا شيعاً ، فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر !

وقد تبقى الوحدة قائمة ، ولكن وحدة جمود فتأسن الأمة ويتفشى فيها اللامبالاة والميوعة و . و . حتى يأتيها - من الخارج - من يطلق عليها رصاصه الرحمة ، وتنتهي ، كما حدث في الامبراطورية الفارسية ، بعد ظهور الإسلام .

٣ - وهذه الروح الحضارية ، تبدأ من نقطة زمانية ومكانية معينة ، وتندفع في كل اتجاه - عمقاً وانتشاراً - ثم تبدأ بالتلاشي والضعف حتى تنطفئ شعلتها وتبرد حرارتها ، إلا إذا وجدت فكرة أخرى ، أو وجد من يجدد الفكرة الأولى .

والاندفاع الأولى تنطلق من أحد عاملين :

أ - من ظهور عامل فجائي غيبي . ( ظهور نبي مبعوث من الله ) .

ب - من تحدي أمة قوية لهذه الأمة . أو احتكاكها بها ، وبعد وجود أحد العاملين ، تنبعث في الأمة روح جديدة ، أهم ميزاتها : الثقة بالذات ، وبالقدرات والمواهب الكامنة في الإنسان كإنسان ، وهذه الثقة لا تحدث في الأمة إلا بعد القدرة على تحدي حواجز الخوف ، والتهيب ، وهذه القدرة مرتبطة - بدورها - بوجود تطلع في الأمة ( أو في الأفراد ) حيث إن هذا التطلع يجعل الإنسان ، يرتفع إلى مستوى رفيع ، فيكتشف عن طريق الممارسة الجهادية - من أجل الوصول إلى أهدافه التي يتطلع إليها - يكتشف مواهبه وقدراته . وقد أشار القرآن الحكيم إلى هذه الحقيقة ، حين أمر الله بالتوكل عليه . وقد تنبه إلى هذه الحقيقة ، المؤرخ والفيلسوف ابن خلدون ، حين أشار في تحليله إلى أن الأمم

في صعودها تتطلع نفوس أهلها إلى عظام الأمور ، وتستسهل الصعاب ، وفي أيام هبوطها تسقط همم أهلها ، وتصعب عليهم الصغائر <sup>(١)</sup> .

ودور الإيمان بالله - دور أساسي في بناء كبرى حضارات الأرض - لأنه كان يعطي الإنسان ، تطلعاً إلى أعلى كمال في الكون ، وهو الله .

بيد أن هذا التطلع لا يدوم في الأمة طويلاً ، إنه يبدأ في الضعف والانحلال إلى أن يخبو تماماً فتنتهي الأمة انتهاءً عملياً .

ولأن التطلع يعطي الأفراد أهدافاً محددة ، فهم يملكون بصيرة في الحياة ، يعرفون بالضبط ماذا عليهم أن يعملوا ؟ كما يعرفون من هم أعداءهم ؟ ومن هم أصدقاءهم ؟ وما هي مصالحهم ؟ وما هي ضدها ؟ ولكن ، حين يضعف تطلعهم تضعف بصيرتهم ، فيتخبطون خبط عشواء ، ويختلفون ويتناحرون ، ثم ينطوون على ذاتهم ، في غيبوبة تشبه غيبوبة الموت ، اللهم إلا إذا تحركت إرادتهم الحرة ، وأخذوا يقاومون ضعفهم ، بتجديد تطلعهم ، فتعتمد قدرتهم أو ضعفهم آنثى بمدى إرادتهم .

---

(١) المصدر ، ص ١٠٢ .

المنطق الإسلامي  
أصوله ومناهجه

القسم السابع .

مناهج القياس

- تعاريف لا بد منها .
- الاستدلال أقسامه وشروطه .
- المنطق الرياضي (الرمزي) .



## القسم السابع عن مناهج القياس

### البحث الاول

# تعاريف لا بد منها

كلمة البدء :

- ١ - التصور . ٢ - اللغة . ٣ - الكلي والجزئي . ٤ - اسم الذات واسم المعنى . ٥ - المفهوم والمصداق . ٦ - النفي والاثبات . ٧ - التقابل وأنواعه الثلاث . ٨ - التضايغ ومتطق العلاقات . ٩ - المفهوم والمصداق . ١٠ - بين المفهوم والمصداق . ١١ - ما هي المفاهيم . ١٢ - علاقة التصورات ببعضها . ١٣ - الكليات الخمس . ١٤ - التعريف أقسامه وشروطه ( أقسام التعريف شروط التعريف ) . ١٥ - بين القسمة والتصنيف . ١٦ - الأحكام والقضايا . ١٧ - الاستفراق . ١٨ - القضية الشرطية . ١٩ - الأحكام بين تحليلية وتركيبية . ٢٠ - تقابل القضايا .



## كلمة البدء :

عندما تحدثنا عن تطور الفكر المنطقي بيّنا شيئاً عن المنطق الاستنباطي ( القياس / الاستدلال ) وقلنا :

إن جوهر هذا المنطق هو أن خطأ الإنسان ينشأ من بلبلة العمليات الفكرية التي يجريها فإذا انتظمت هذه العمليات انتهت الأخطاء .

متى تنتهي بلبلة عمليات الفكر ؟

عندما نضع قواعد ثابتة للإستدلال ولكن هذه القواعد لا تفهم إلا إذا عرفنا - سلفاً - تعاريف أولية ومصطلحات دقيقة . . ( وهذا ما نتحدث عنه في هذا البحث ) ثم عرفنا شروط الاستدلال الصحيح ( وهذا ما نتحدث عنه في البحث القادم ) .

ولقد سبق الحديث مفصلاً عن المنطق الرمزي وقلنا - آنثذ - إنه التطور الطبيعي للمنطق الاستدلالي وإنه سوف يسهل عمليات الذهن الاستدلالية ( وهذا هو موضوع البحث الأخير من هذا القسم ) .



## ١ - التصور :

ما هي الوحدة الفكرية التي هي أصل كل فكرة وعلم ؟ ... قالوا :  
إنما هي التصورات ، والسؤال الثاني : من أين تأتي هذه التصورات ؟ قالوا :  
تأتي من الإحساس ، وفريق قال : الإحساس يلعب دوراً ثانوياً في ذلك ، إنما  
الأفكار السابقة التي يحملها معه الوليد ، هي التي تشكل ماهية التصورات  
الأولية ! من أنصار هذا القول حديثاً (ديكارت ، و كانت ) وقديماً (أفلاطون) بينما  
من أنصار القول الأول ( لوك و هيوم ) .

## ٢ - اللغة :

واللغة هي الظرف الطبيعي للتطورات البشرية ، لذلك يولي علم  
المنطق اهتماماً خاصاً باللغة ، وبتراكيب الألفاظ لا بما أنها حقائق ( كما يفعل  
المختصون بالقواعد اللغوية ) بل بما أنها كاشفات عن حقي .

## ٣ - الكلّي والجزئي :

وكل تصور قد يكون كلياً وقد يكون جزئياً . الكلّي شيء يصدق على  
كثيرين كالإنسان ، يصدق على أكثر من فرد واحد ، بينما الجزئي لا يصدق إلا  
على فرد واحد . مثل «علي» .

وتسمى أسماء الجموع مثل (قوم) أحياناً بالأسماء الكلية، وأحياناً بالأسماء  
الجزئية .

واسم الجمع هو الاسم الذي ينطبق على مجموعة من الأشياء المفردة ،  
ككل ، مميزاً لها عن غيرها من المجموعات ، بينما لا ينطبق على كل فرد من  
أفراد هذه المجموعة على حدة مثل الأمة والفرقة .

ولكن ، منعاً لللبس والخلط في تقسيمات الحدود ، يدعوا بعض المناطق ،  
وفي مقدمتهم كينز : إلى أن يكون الفيصل هو الإستعمال الجمعي ، أو الإستعمال

الاستقرائي العام ، ( الأول مثل دلالة قوم على الأفراد ، الثاني مثل دلالة الإنسان عليهم ) ولهذه التفرقة - بين الاستعمال الجمعي ، والإستعمال الاستقرائي - أهمية كبرى في ممارسة العمليات المنطقية ، فينبغي للباحث أن ينظر بعمق إلى حقيقة استعمال الحد المنطقي ، وألا يكتفي بالتسليم بالإيحاء العام للمعنى ، وهناك يستطيع أن يعرف سر المغالطة في عرض الحجج ، والسفسطة التي هي التلاعب في استخدام الكلمة ، بمعنيين مختلفين في آن واحد ، وهو ما يطلق عليه المدرسيون : أغلوطة التقسيم ومثالها الخمسة زوج وفرد ، فهذا لا يصدق مفترقاً لأن الخمسة ليست زوجاً بل فرداً فقط ولكنه يصدق مجتمعاً إذ ( الواو للجمع لا للتفصيل فهذا كقولنا : البيت لبن وجص ، وليس كما نقول : الكلمة اسم وفعل ) .

#### ٤ - اسم الذات واسم المعنى :

ما دل على شيء ثابت فهو اسم ذات ، وما دل على شيء مجرد فهو اسم معنى ، وبتعبير آخر التصور الذي يدل على شيء معين ( أي على عينة هذا الشيء ) فهو اسم ذات ، وما يدل على تجريد فهو اسم معنى ، وبالتالي : ما يدل على شيء ، فهو اسم ذات . وما يدل على صفة ، فهو اسم معنى . ونحن بحاجة إلى بعض الشرح لنوضح الفرق بين اسم الذات واسم المعنى وهو : أن نظر المتكلم قد يكون إلى الشيء بما هو ثابت ، وموضوع ، وأصل ، وأساس ، وقد يكون بما هو متحرك ، ومحمول ، وفرع وبناء ، مترتب على غيره فالأول يدعى باسم ذات ، والثاني يدعى باسم معنى .

في الوقت الذي قد يكون الشيء الواحد ، يدعى في جملة اسم ذات ، وفي جملة ثانية اسم معنى ، مثلاً الشجاعة في هاتين الجملتين الأولى « علي شجاع » الثانية « الشجاعة عظيمة » ففي الأولى كانت كلمة الشجاعة اسم معنى ، بينما تحولت إلى اسم ذات في الثانية والمعنى واحد إلا أنه في الأول قصد منه جانب الحركة والصفة أي الشجاعة بما أنها صفة متفرعة على شيء آخر ( هو

الإنسان ، وفي الثانية قصد منه جانب الثبوت والموضوعية ، أي الشجاعة بما أنها ذات يترتب عليها صفة العظمة .

#### ٥ - بين المفهوم والمصداق :

... واسم الذات هو المصداق بينما اسم المعنى هو المفهوم ، إذ إن الصفة التي تترتب على شيء ( المحمول ) أقرب إلى الإجمال منه إلى الوضوح بينما تتوضح فيما تتجسد في الواقع الخارجي أي في الذات .

والمفهوم هو المعنى بما هو في الذهن . بينما المصداق هو المعنى بما هو في الواقع الخارجي .

#### ٦ - بين النفي والإثبات :

الثبوت هو وجود صفة لشيء ، بينما النفي هو عدم ثبوتها فالحق ثبوت ، واللاحق نفي ، والحياة ثبوت شيء ، واللاحقة نفي ، وهكذا . . . واللاحقة واللاحق ليست حقائق مفهومية ، بينما قد تكون حقائق مصداقية ، فما هو مفهوم لا حق ؟ إنه بالتأكيد جانب اعتباري مستنبط من مفهوم الحق ، بينما في الواقع الخارجي يتجسد اللاحق في الباطل ، وهو شيء موجود وثابت .

واللغة العربية أقرب إلى الواقع حيث لا تستخدم كثيراً أدوات النفي ، بقدر ما تضع للمنفيات أسماء تخصها لتدل على الواقع الخارجي منها بوضوح تام فمثلاً لا نقول لا حق بل نقول باطل ، ونقول الموت ، بدل أن نقول لا حياة وهكذا . .

#### ٧ - التقابل وأنواعها الثلاثة :

يعني التقابل أن يكون تصور ما نفياً لتصور آخر ، بشكل من أشكال النفي ، وأنواعه ثلاثة : التناقض ، والتضاد ، والتضاييف .

أ - التناقض : وهو أن يكون أحدهما - اعتباراً - نفياً كاملاً للآخر بحيث لا يمكن أن يصدقاً معاً ، أو يكذباً معاً ، مثل الحق واللاحق ، الصدق واللا صدق ، والإنسان واللا إنسان .

ب - التضاد : وهو أن يكون أحد الشئيين منافياً للآخر ، وليس نفيًا له لذلك قد لا يوجد أحدهما ، ولكن لا يمكن أن يوجد معاً مثلاً : الأبيض والأسود ، فقد يكون الشيء أسوداً أو أبيضاً ، أو يكون بلون ثالث كالأحمر ، ولكن لا يمكن أن يكون الشيء أسوداً وأبيضاً معاً ومن جهة واحدة .

ج - التضاف : وهو أن يكون الشيء ليس نفيًا للشيء ولا منافيًا له ولكن علة لتصوره . وبذلك لا يمكن أن يجمع معه . كيف ذلك؟ مثل : الأب والابن . إذ إن تصور الابن ناشيء من تصور الأب ( والعكس صحيح أيضاً ) ولذلك لا يمكن أن يجتمعا فيكون الشخص الواحد أباً وابناً من جهة واحدة .

وكذلك فوق وتحت ، وما أشبه ، وتعريفه المنطقي هو : المتضايقان : هما اللذان لا غنى لتصور أحدهما عن الآخر .

## ٨ - التضاف والمنطق العلاقات :

لقد أولى المنطق الحديث اهتماماً كبيراً بعلاقة التضاف ، حيث أضاف إلى التضاف أقساماً جديدة وهي الأقسام التي تتصل ببعضها بأكثر من واسطة ، وهي التي تشكل مادة المنطق الرمزي الحديث ، وكمثل نستطيع أن نقول إن المنطق القديم كان يعرف في التضاف الأقسام التي تتصل ببعضها بعلاقة مباشرة مثل الأب والابن وفوق وتحت وما أشبه . . . بينما المنطق الحديث يضيف إلى هذه العلاقة بعض العلاقات الأخرى ، مثل علاقة الابن بالجد ، فيقول : إذا كان زيد أباً لعمر ، وعمر أباً لمحمد ، فإن زيداً جدٌ لمحمد ، وإذا كان هذا تحت هذا ، وهذا - بدوره - مساوٍ لسطح ذاك ، فإن هذا غير مساوٍ لسطح ذاك وهكذا . . . وفيما يلي نضرب بعض الأمثلة لمنطق العلاقات :

أ - علاقة التماثل . . كقولنا : زيد ذكي بمثل ذكاء مصطفى وهذا يمكن عكسه كأن نقول ومصطفى ذكي بمثل ذكاء زيد .

ب - علاقة اللاتماثل كقولنا : محمد ابن علي . إذ لا يمكن أن نعكسه

فنقول وعلي بن محمد .

ج - علاقة التعدي : وهي التوصل إلى حكم من خلال حكم آخر يتوسط بينهما مثل : عادل أذكى من مصطفى ومصطفى أذكى من علي وبالطبع تكون النتيجة : أن عادل أذكى من علي .

د - علاقة اللا تعدي : الذكاء صفة تعدي ، بينما الصداقة صفة لا تعدي . ففي المثل السابق لو استبدلنا صفة الصداقة مكان صفة الذكاء ، وقلنا عادل صديق مصطفى ، ومصطفى صديق علي لا يصح أن نستنتج ونقول : إذا عادل صديق علي .

#### ٩ - المفهوم والمصداق :

المفهوم هي الصفات التي تميز بعض الأشياء عن غيرها ، فإذا تجمعت هذه الصفات حول بعضها ، ودلت على شيء واحد أصبح لدينا مفهوماً ذهنياً عن هذا الشيء ، وعندما نترك الذهن ، لندخل الحياة الخارجية . وننظر إلى ما يهدي إليه هذا المفهوم ، نسميه مصداقاً . فالإنسان قد ننظر إليه على أنه مجموعة صفات ، وحدود ومميزات متجمعة فنسميه لذلك مفهوم الإنسان : بينما قد ننظر إليه على أنه اسم لزيد ، وعمر ومن أشبه ، فنسميه المصداق . والمفهوم قد يدخل فيه صفات جوهرية لها تأثير في أصل المفهوم ، كصفة النطق ، بالنسبة إلى الإنسان مثلاً . وقد يدخل فيه صفات خارجية لا ترتبط بأصل مفهوم الإنسان بحيث لو لم تكن هذه الصفة موجودة إذاً لكننا نسميه إنساناً أيضاً مثل صفحة الضحك مثلاً فهي صفات عرضية .

#### ١٠ - بين المفهوم والمصداق :

يعتقد المنطقيون أن الصلة بين المفهوم والمصداق علاقة عكسية فكلما زاد هذا نقص ذاك فلو قلنا في تحديد مفهوم ما موجود يمشي لكان يشمل كثيراً من الأشياء بينما لو قلنا موجود يمشي ويتكلم اقتصر على الإنسان أما إذا أضفنا إلى ذلك القول يمشي ويتكلم ويكتب لكان يشمل فقط

بعض أفراد الإنسان .

## ١١ - ما هي المفاهيم

والمفاهيم ، لا تختلف بالالفاظ والمعاني بقدر اختلافها بالإستعمال ، وقد ارتأى ( جون ستيوارت مل ) أنه يتعين علينا تقسيم الأسماء إلى أسماء ذات مفهوم ، وأسماء لا مفهوم لها ، فالأولى تدل على موضوعات ، وتحتوي صفات مميزة ، لتلك الموضوعات بينما الثانية ليست كذلك إنما تدل على الموضوعات أو تدل على الصفات فقط دون أن تحتوي على صفات مميزة . وطبقاً لتقسيم مل يكون الشيء إما له مفهوم أو لا .

(ألف) وما له مفهوم قسمان :

١ - التصورات والحدود الكلية كالحيوان والنبات والإنسان فإنها تدل على موضوعات وتنطوي على صفات مميزة لتلك الموضوعات .

٢ - الحدود الجزئية . كمقصف وفندق وحديقة ، فإنها تدل على موضوعاتها لاحتوائها على صفات مميزة لها ، ولا يفرق القسمان عن بعضهما إلا بالكلية والجزئية .

(باء) وما لا مفهوم لها هي كأسماء الأعلام التي هي أشبه بالإشارات مثل : زيد وعادل وما أشبه .

ملاحظة : الواقع أن الفرق بين النوعين السابقين غير صحيح إذ إنه إذا كان الفرق دلالة الاسم اللغوية على شيء ، فإن الاسم يدل على الشخص لا على مفهوم . وهذا رأينا في الحروف والكلمات أيضاً إنها جميعاً إشارات إلى المصاديق الخارجية لا المفاهيم فالكلية منها إشارة إلى المصاديق ، بعد اعتبار خصوصية الأفراد ملغاة وغير مقصودة ، بينما الجزئية تدل على الاسم الخاص بعد اعتبار أموره المشتركة ملغاة وأموره الخاصة معتبرة . فكما أننا - حين نقول الإنسان - نسقط من حسابنا : أن هذا الإنسان حيوان ، ونام ، وجسم ، وموجود ، ونركز نظرنا على الخصوصيات الإنسانية التي فيه - فإننا حين نقول الإنسان - نريد أن

نلغي عمومية الإنسان منه ونركز على خصوصية وجوده وحتى في ذلك الوقت نحن نضطر إلى إلغاء خصوصياته الأخرى مثلاً : إنه طفل أو كهل ، حتى أو ميت ، رئيس أو مؤوس ، وهكذا . .

والحقيقة أن هذا البحث يشكل زاوية مهمة من البحث ، إذ إننا نعلم أن التصورات تلعب دوراً بارزاً في تشكيل القضية الاستدلالية ، ونعلم من جهة ثانية أن التصورات لها جانبان : المفهوم والمصداق ، فيبقى السؤال : أي واحد من هذين الجانبين ذات أهمية كبرى في عمليات الاستدلال المفهوم أو المصداق . بهذا قال فريق وبذلك قال فريق والواقع أن حقيقة العلم هو الكشف عن الواقع الخارجي وهو الذي ينفعنا في الكشف عن أمور جديدة ، لذلك فالمصداق ذات قيمة أساسية في الوصول إلى الحكم الصحيح . ونوضح هذه الفكرة بنقاط هي أيضاً توضح العلاقة بين المفهوم والمصداق .

١ - المفاهيم مقتبسة من المصداق لا العكس فلو وجود فوارق مميزة بين مصداق الإنسان ( أي بين الإنسان الخارجي ) وبين مصداق القرد أصبحت لكل واحد منهما صفات مميزة وبالتالي مفهوماً محدداً مختلفاً عن مفهوم الآخر ولذلك حين نقول الإنسان ناطق لا نقصد مفهوم الإنسان إلا بقدر ما يعكس مصداقه الخارجي .

٢ - وصحيح أن كلمة الإنسان لم تصدق على الإنسان الخارجي إلا بعد أن تميز في أذهاننا عن القرد وبالتالي بعد أن حددناها اختراعاً لها مفهوماً محدداً . إلا أنه لم تصدق كلمة الإنسان - بعدئذ - على ذلك المفهوم الذهني ، بل على ما ورائه من مصداق خارجي ، ولم يكن المفهوم إلا طريقاً مؤدياً إليه .

وما دامت البشرية كانت مشغولة بالمفاهيم دون المصداق فإن علومها قد تجمدت والعلوم الطبيعية قد حققت التقدم في ميادينها المختلفة بفضل التفسير الكمي أي بعد أن قامت أبحاثها على أساس المصداق ، لا على أساس المفهوم الذي يسمى ، بالتفسير الكيفي . إلا أن التفسير الكمي لا ينحى تنحية تامة

## الجانب الكيفي<sup>(١)</sup> .

وقد صدق جان مارتيان حين قال : لا يعني نظرنا للتصور من جانب ما صدقه أننا نسلبه مفهومه أو نعتبره مجرد مجموعة من الأفراد .إننا لو فعلنا ذلك لفضينا عليه كتصور .

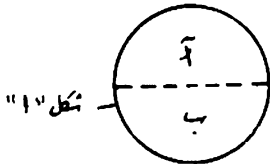
وأضيف إلى قوله إننا حين نفعل ذلك نجعل التصور في مكانه المناسب وهو أن يكون مجرد رمز يشير إلى واقع خارجي !

### ١٢ - علاقة التصورات ببعضها :

ما هي علاقة تصور بآخر ، وبالتالي ما هي علاقة مصداق بآخر ، قد يكون واحداً من خمس علاقات .

أ - التساوي ؛ ب - علاقة الكبير بالصغير ؛ ج - علاقة الكل بالجزء ؛ د - علاقة الفرد بالفرد ؛ هـ - علاقة الكلّي بالكلّي .

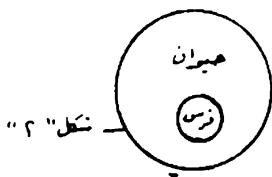
وقد وضع شوبنهاور دوائر لتوضيح هذه العلاقات ببعضها توضيحاً كاملاً ، والدوائر هي التالية :



الشكل ١١

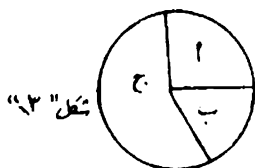
(١) اعتقد أن التفسير الكيفي هو التفسير الكمي ولكن في مرحلة غامضة منه كما أن التفسير الكمي لا يعدو أن يكون تفسيراً كيفياً واضحاً . فمثلاً : اختلاف نسبة الاحمرار في اللون قد تكون واضحة فنقول : أحمر بنسبة ٥٠ ٪ أو بنسبة ٥ ٪ ولكن قد تكون غير واضحة فنقول شديد الحمرة أو خفيف الحمرة ، فالشديد والخفيف هو تفسير كيفي بينما النسبة تفسير كمي ولا يفرقان إلا في أمر واحد هو وضوح النسبة وعدم وضوحها .





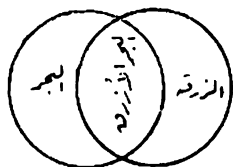
الشكل «٢»

الدائرة الصغيرة بعض الدائرة الكبيرة - الدائرة الصغيرة لا تشمل كل أفراد الدائرة الكبيرة ولا عكس .



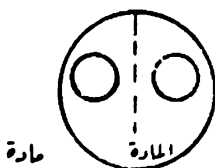
الشكل «٣»

إن علاقة أ ، مع ب ، علاقة الفرد بالفرد ولكنهما يندرجان بالنهاية في تصور واحد مشترك والزاوية الحادة والمنفرجة التي خلقها الخطوط ضمن هذه الدوائر هي التصور الواحد المشترك بينهما .



الشكل «٤»

علاقة التراب بالماء ، علاقة الضد بال ضد ولكن تجمعهما علاقة أكبر منهما تسمى بالمادة فكل واحد منهما جزء من المادة ، هذه العلاقات ذات أسماء أخرى في المنطق القديم ولكننا نعرض عنها إيجازاً .



الشكل ٥٥

### ١٣ - الكليات الخمس :

إذا اعتبرنا الحيوان بجميع أنواعه مادة لبحثنا وموضوعاً لحديثنا فلإن الإنسان الذي هو بعض أفراد بعض بحثنا . لا بد أن يكون بين الإنسان وبين سائر أقسام الحيوان فوارق مميزة ، هذه الفوارق قد تكون فوارق فاصلة حاسمة وأساسية . وقد تكون مجرد فوارق ظاهرية . هذه الفوارق تشبه إلى حد بعيد الفوارق التي توجد بين طوائف الإنسان الهندي والآسيوي والأوروبي والافريقي مثلاً . وهي أيضاً فوارق أساسية وغير أساسية هذه الفوارق تسمى إذا كانت أساسية ، فصلاً لأنها تفصل بين نوعين من الإنسان ، بينما إذا كانت تافهة تسمى عرضاً . لأنها لا تفصل بين نوعين بينما فوارق الإنسان الأساسية مع سائر الحيوانات تسمى « عرضاً عاماً » أما الإنسان ، فهو جنس ، يحتوي على نوعين ، أو أكثر ، من أنواع الأفراد ، بينما الحيوان أيضاً جنس ، ولكنه جنس عام ، لأنه أكبر من الإنسان ، وهذا أساس تقسيمات الكليات الخمس التي نشير إليها فيما يلي :

١ - الجنس ، وهو الشيء الذي يشمل عدة أشياء متنوعة كالإنسان الذي يشمل الإفريقي والآسيوي والأوروبي .

٢ - النوع وهو الشيء الذي يشمل عدة أفراد مثل الآسيوي ، ولكنه ، في

ذات الوقت ، لا يشمل الإفريقي والأوروبي .

٣ - الفصل ، وهو الفارق الأساسي الذي يفصل بين الأنواع ، مثل الأرض (آسيا) التي تفرق بين نوعين من البشر .

٤ - الخاصة ، وهو الفارق غير الأساسي الذي يميز بين نوعين مثل التحدث واللون .

٥ - العرض العام ، وهو الفارق الذي لا يميز أبداً نوعاً ، عن نوع ، لا من قريب ولا من بعيد ، فلو قلنا مثلاً : الإنسان الإفريقي يتكلم فهو بالطبع لا يميز الإفريقي عن غيره ، بل هو مجرد عرض عام أو صفة تلحق الإنسان ، والجنس كما سبق قد يكون جنساً عاماً مثل الحيوان ، نسبة إلى الآسيوي ، وقد يكون جنساً قريباً ، مثل الإنسان بالنسبة إلى الآسيوي<sup>(١)</sup> .

١٤ - التعريف ، أقسامه وشروطه :

ما هو التعريف ؟ إنه تعبير آخر عن المعرف وأوضح وأكثر تفصيلاً وأقرب معرفة ، والتعاريف تختلف قريباً وبعداً أكملها أكثرها فائدة وتحقيقاً للهدف منها وهو معرفة الإنسان .

والتعريف الحقيقي للأشياء غير ممكن إذ إن العلم بحقيقة الأشياء غير ممكن وإذا أمكن فلا يمكن التعبير عنه بوضوح كافٍ . إلا أن التعريف يهدف منه المساعدة في معرفة الأشياء ، والتعريف الذي يحقق هذا الهدف يعتبر أكثر كمالاً من غيره ، سواءً كان تعريفاً بالإشارة ، أو بالمرادف ، أو بالأقل ، إلا أن المناطق

---

(١) التفكير في وضع الكليات الخمس كان الزعم بأن الفوارق التي تفوق بين شيء وآخر فوارق ثانية وفاصلة ، وكان في هذا التفكير كثير من الجهل . والذي نعزفه اليوم هو : أن الأجناس تتعرض بالدوام للتطور والتعبير ، وأنه لا يفصل عن بعضها خطوط وهمية ، نسميها بالتعاريف ، مهما تكن دقيقة وعلمية ، وأنه لا يمكن أن ندعي أننا عرفنا أي شيء حتى نضع له تحديداً وتعريفاً تاماً ، كما كان يدعي منطق أرسطو الشكلي قديماً . ( لمزيد من الاطلاع راجع مقدمة كتابنا هذا ) .

قسموا التعريف أقساماً نجري عليها ، لأنها تمثل ، في الواقع ، شرحاً لغالبية التعاريف الناجحة ، وإن كنا نتنظر أن يتقدم العلم في هذا الحقل بالذات ليجد تعاريف أفضل وشروطاً أفضل .

### أقسام التعريف :

١ - الحد التام : وهو التعريف المشتمل على الجنس القريب ، والفصل القريب ، فعند تعريف الإنسان نقول : الإنسان حيوان عاقل ، أو مدني بالطبع ، أو ما أشبه .

٢ - الحد الناقص : وهو التعريف الشامل للفوارق المميزة بين الشيء ، وسائر الأشياء ، ولكن لا تشمل جميع الخصائص الذاتية فيه ، مثل تعريف الشيء بالفصل القريب ، والجنس البعيد ، كما نقول : الإنسان ، جسمٌ ناطق ، فإنه لا يشمل الخصائص الحيوانية الذاتية التي شملها التعريف السابق .

٣ - الرسم التام : وهو التعريف الذي يشمل بعض خصائصه ومميزاته مضافاً إلى الصفة الذاتية غير الفاصلة بينه وبين سائر الأنواع مثل أن نقول : الإنسان حيوان ضاحك ، إذ الحيوانية تستعمل خصائص الإنسان الذاتية ولكن الضحك ليس فصلاً ذاتياً للإنسان بل هو خاصة .

٤ - الرسم الناقص : يشبه الرسم التام في أنه يبين بعض خصائص الإنسان غير الذاتية ، وغير الفاصلة ، مثل الضحك ولكنه يفترق عنه في أن رسم الناقص لا يشمل خصائص الإنسان الذاتية مثل الحيوانية فهو كان يقول : الإنسان ضاحك أو جسم ضاحك ففي الرسم الناقص لا تبين حيوانية الإنسان وهي التي تشمل خصائصه الذاتية ولا بين نقطه وهو فارقه الفاصل . (فصل) .

٥ - التعريف بالإشارة : مثل أن نقول : الإنسان هو هذا ونشير إلى رجل يسمى بين أيدينا .

٦ - التعريف بالمثال : مثل أن نقول : الإنسان مثل زيد وعمر ومحمد .

و . و . . .

٧ - التعريف بالمرادف : مثل أن نقول : الإنسان بشر .

### شروط التعريف :

١ - أول الشروط ألا يكون المَعْرِفُ أضيق من المَعْرُف ، ففي تعريفنا للإنسان ، إذا قلنا إنه حيوان يقود السيارة فإن تعريفنا أضيق مما كان تعريفه ، فهو ناقص .

٢ - ألا يكون التعريف أوسع من المَعْرِف فإذا قلنا في تعريف الإنسان بأنه جسم حي كان ناقصاً . . . والتعريف الكامل هو القول بأنه حيوان ناطق لأنه لا أضيق من المَعْرِف ولا أوسع منه ، وإنما مساوٍ له تماماً ويعبر المناطقة عن هذين الشرطين بالقول أن التعريف يجب أن يكون جامعاً مانعاً أي جامعاً لأفراد الماهية ومانعاً من الأفراد التي ليس منها .

٣ - ألا يدخل في التعريف ذات المَعْرِف ، أو جزء أساسي منه ، فإذا عَرَفَ الإنسان : بأنه حيوان إنساني ، فقد أخطأت التعريف وهكذا لو قلت في الإجابة على هذا السؤال : ما هي العمارة ذات طوابق ؟ فعرفتُها أنها بناية ذات طوابق .

٤ - ألا تستخدم في التعاريف كلمات غامضة تكون هي بدورها بحاجة إلى مَعْرِفٍ آخر ففي تعريفك للنار لا تقل أنها اسطقس فوق الأسطقسات ( كما عرفها بعضهم ) .

٥ - ألا يكون التعريف سلبياً فلا تقل في تعريف النهار أنه ليس بليل ، اللهم إلا إذا كان المَعْرِفُ (بافتح) ذاته سلبياً فإذا أردت أن تعرف الظلام قلت أنه ليس بضياء ، وكذلك لو أردنا تعريف الإيمان للكافر وكذلك سائر الأشياء التي تعجز اللغة من استيعابها كالإحساس بالحب والقلق والكراهية .

### ١٥ - بين القسمة والتصنيف :

- حين تقول إن الإنسان إما آسيوي أو أفريقي ، فإنك تقوم بعملية

تقسيم ، بينما إذا قلت الآسيوي والافريقي من أنواع الإنسان فإنك قمت بعملية تصنيف والفرق أنك في الحالة الأولى ، فرقت بين أفراد أو أنواع فصيلة واحدة ، وفي الحالة الثانية جمعت صنفين تحت عنوان واحد ، والصعوبة الناشئة في هاتين العمليتين آتية من عدم معرفة خصائص الأنواع معرفة تجعلنا نضعها فيما يماثلها بالضبط فأنت لا تعرف خصائص سيارة مثلاً : فلا تعرف هل أنها من سيارات بيجو أو فيات أو فولكس فإذا عرفت خصائصها انتهت المشكلة .

ولقد ضرب أحد الباحثين مثلاً لذلك بعالم يملك مكتبة ضخمة ، يعرف بالضبط خصائص كل كتاب فيجعله مع ما يماثلها من الكتب ولكنه إذا أعطى الخادم فرصة تصنيف الكتب ، فلأنه يعجز عن معرفة خصائص الكتب ، فسوف يصنفها على أساس الأحجام أو الألوان أو أناقة الطبع ، أو أي شيء آخر غير الخصائص الطبيعية لها .

لذلك كان علينا أن نبحث طويلاً قبل أن نضع أي موجود ضمن أشباهه من النوع الواحد ، والتقسيم نوعان ، الأول العادي ، والثاني الثاني<sup>(١)</sup> .  
أ - وللتقسيم العادي قواعده الضرورية وهي :

١ - أن يكون أساس القسمة واحداً في كل خطوة فلو قلنا مثلاً : الإنسان إما آسيوي أو إفريقي لا نقول بعدئذٍ والآسيوي إما قاريء أو جاهل ، إذ إن أساس القسمة بعدئذٍ في البند الأول كانت الأرض ( آسيا وإفريقيا ) وفي الثانية لا يجوز أن يكون صفات الأفراد ( الجهل والعلم ) وهكذا . وهذا ما يتسبب في الأغلوطة المعروفة بأغلوطة التقسيم المعترض .

٢ - أن تستنفذ الأنواع الأعلى قبل أن تنزل إلى الأنواع الأدنى ، طبعاً هذا شرط غالبي .

---

(١) التقسيم العادي هو التقسيم حسب خصائص الأشياء حسبما مر معنا في الأمثلة المتقدمة بينما التقسيم الثاني غيره ويأتي الحديث عنه .

٣ - ألا نتجاهل خطوة في التقسيم ، بل نحاول الهبوط خطوة فخطوة ، حتى نصل إلى النتيجة السليمة .

#### ب - التقسيم الثاني :

التقسيم الثاني يعني التقسيم حسب جانب من الخصائص على أن يكون الجانب الثاني نفيًا لهذا الجانب وسلباً له . ومثاله : الإنسان إما آسيوي أو إفريقي وغير الآسيوي إما إفريقي أو غير إفريقي وهكذا . . . وهذا النوع من القسمة قليل الفائدة في الحقول العلمية إذ لا يحصل منه في نهاية الشوط إلا ما يعرف سلبياً ، أي نصل بالنهاية - مثلاً - إلى أن أنواعاً من الإنسان لا إفريقي ، وهذا التعريف ناقص كما سبق .

ويجب أن يكون التقسيم طريقاً لنا إلى سرعة الفهم ، أما إذا سبّب التقسيم مزيداً من التعقيد فهو مستهجن . لذلك يجب على الباحث أن يقتصر في التقسيم على الأنواع التي تنقسم وفق أسس معقولة ومفيدة علمياً .

#### ١٦ - الأحكام والقضايا :

أ - ما هو الحكم ؟ لا يعني الحكم العلم بحقيقة شيء إنما يعني : اعتبار القضية أنها قد انتهت عند حدّه ، وكأنها وصلت إلى شاطئ العلم ولذلك فإننا نحكم بأشياء مظنونة ، بل نحكم بأشياء خاطئة لأسباب فنية . كأن نريد أن نعرف إلى نتیجتها .

وهكذا يكون الحكم . هو نهاية مرحلة فكرية تعتبر ولأسباب ذاتية أو موضوعية ، وكأن القضية أصبحت معلومة ، ومنتية من البحث .

ويأتي الحكم مرتباً على نتيجة أحكام أخرى مهما كانت عناصر الحكم بسيطة ، فإذا قلنا مثلاً ، السكر حلو ، فهو حكم يأتي نتيجة تصورين لا أكثر ، ولكنه في الواقع ناشئ من أحكام أخرى هي ، مثلاً أن الحلو هو إحساس شيق

مصدره شيء خارجي وموقعه طرفي اللسان . إن السكر شيء أبيض يتخذ من قصب وهكذا .

كما يصبح الحكم تصوراً ، في أحكام جديدة ، ولهذا الارتباط الموجود بين التصورات لا يمكن أن نزع أن الأحكام كلها تامة وحقيقية بل ولا واحدة منها .

والقضية هي المرحلة النهائية التي تصلنا إلى الحكم .

فالقضية كأنها ترتيب للعناصر بحيث تورث اعتباراً حكماً .

ب - أقسام القضايا : يقسم المنطق الشكلي القضية إلى كلي وجزئي وسالب وموجب ويضع لكل واحد منهما اسماً ورمزاً . نستخدم عليهما أيضاً وهي حسب الترتيب :

١ - القضية الكلية الموجبة مثالها : كل إنسان فانٍ . ورمزها (ك) ورمزها باللغة اللاتينية A ، والكلمة المفصلة الدالة عليها غالباً (كل) .

٢ - القضية الكلية السالبة مثالها : ليس الإنسان بجماذ رمزها (ل) و (E) والكلمة الدالة عليها (لا) .

٣ - القضية الجزئية الموجبة مثالها : بعض الإنسان يكتب كانت رمزها (ب) و (P) والكلمة الدالة عليها (بعض) .

٤ - القضية الجزئية السالبة مثالها : ليس بعض الناس علماء ، ورمزها (س) و (O) والكلمة الدالة عليها (ليس بعض) .

وفيما وراء هذه الأقسام الأربع للقضايا ، يوجد قسمان آخران يندرجان بالتالي تحت واحدة منها وهما :

أ - القضية المهمة : وهي التي لم يصرح في عبارة القضية بطبيعتها مثل أن نقول : الإنسان مَيّت والإنسان يكتب . ومرد هذه القضية - في الواقع - إلى إحدى



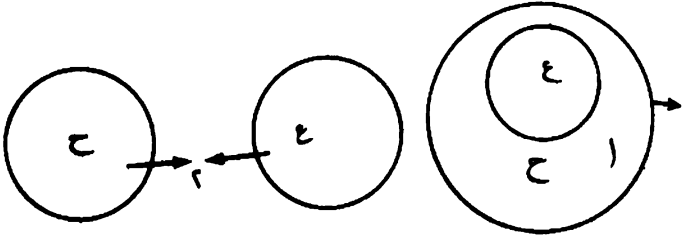
قضيتين أما الكلية ، أو الجزئية ، ففي الواقع كل إنسان يموت وبعض الإنسان يكتب .

ب- القضية الشخصية مثل : علي بن أبي طالب إمام ، وهذه قضية كلية في حدود الموضوع أي كل علي بن أبي طالب ( أي علي أقصده ) إمام . فليس هو إمام في بعض حالاته .

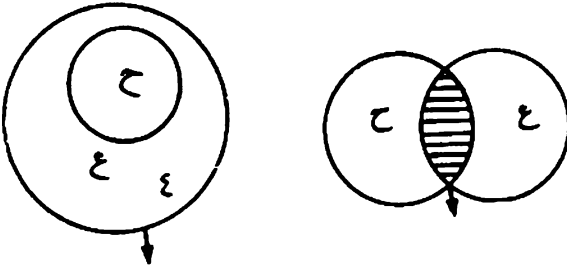
## ١٧- الانفراق :

استفراق التعريف في معناه : أن تشمل الكلمة كل أفرادها في المقصود . فمثلاً لو قلنا الإنسان فإن يجب أن يكون كل أفراد الإنسان داخلاً في حكم الفناء ، أما العكس أي : هل يجب أن يكون كل فأن هو إنسان ؟ فلا . إذ إن الاستفراق ، إنما هو في الموضوع ، وليس في المحمول ، فليست الجملة هكذا كل إنسان فإن . ومثل هذا نجده في القضية السالبة الكلية ففي القول : لا بحر عذب - نجد الاستفراق في كلتا الناحيتين ناحية الموضوع والمحمول معاً - إذ لا بحر عذب ولا عذب بحر فكل بحر مرّ . وكل عذب ماء . غير بحر وهكذا بينما في القضايا الجزئية الموجبة نجد العكس من هذا تماماً ، فلا الحكم ولا الموضوع مستفرقان في بعضهما فحين نقول بعض الناس ماتوا لا يعني شمول الموت ، للناس ( إذ بقي بعضهم أحياء ) كما لا يعني شمول الناس للموت إذ يشمل الموت غير الناس أيضاً ( إذ بعض الحيوانات أيضاً مات ) وفيما يخص القضية الجزئية السالبة (س) بعكس القضية الكلية الموجبة إذ أنها بحكم جزئيتها لا تستغرق في الموضوع وبحكم أنها سالبة تستغرق في المحمول ( إذ كل نفي مستغرق في ذاته ) وكمثل إذا قلنا : ليس بعض الناس كتاباً . وفيما يخص الناس ؛ لا يصدق بالطبع عليه الحكم كلياً - إذ بعض الناس أيضاً كتاب . أما فيما يخص الكتاب ، فالحكم النافي منسحب تماماً ، على هذا البعض بمعنى أننا ننفي كل نوع من الكتابة عن هؤلاء ، فإذا كان هذا البعض يعرف - مثلاً - نوعاً من الكتابة فهل تصح القضية ؟ طبعاً لا .

القضية الكلية  
السالبة  
E - J



القضية الجزئية  
الموجبة - ب - I



س - O  
القضية الجزئية السالبة

A - J  
القضية الكلية  
الموجبة

وقد قام ( أويلز ١٧٠٧ / ٨٣ ) برسم دوائر تمثل الاستغراق أو عدمه .  
الملاحظ، أن الموضوع مستغرق في الدائرة الأولى في المحمول، بينما المحمول  
يشمل على مساحات لا يصل إليها حدود الموضوع .

بينما في الدائرة الثانية كل منهما يستغرق في كل الدائرة، وفي الدائرة الثالثة  
لا يستغرق أي واحدٍ منهما الثانية بل يتحدان في جزء واحد فقط .

وفي الدائرة الأخيرة المحمول - يستغرق الموضوع بينما لا يستغرق المحمول بعكس الدائرة الأولى .

## ١٨ - القضية الشرطية :

١٨ - القضية الشرطية حين نربط موضوعاً بحكم ، نسمي العملية بقضية حملية ، بينما لوربطنا القضية بالقضية سميناهما قضية شرطية . فإذا قلنا : الشمس طالعة ، كانت قضية حملية . كذلك لو قلنا : النهار موجود ، كانت قضية حملية أخرى ، أما لو قلنا : إذا كانت الشمس طالعة فالنهار موجود كانت قضية شرطية . فالقضية الشرطية : قضية مركبة من قضيتين حمليتين - على الأقل - تكون إحداهما شرطاً لوجود الأخرى .

والقسم الأول ، من هذه القضية يسمى مقدماً ، والقسم الثاني يسمى تالياً .

والقضية الشرطية تنقسم بدورها إلى نوعين متصلة ومنفصلة :

أ - القضية الشرطية المتصلة : وهي التي يكون المقدم شرطاً في وجوب الثاني .

ب - القضية الشرطية المنفصلة : وهي التي يكون وجود المقدم سبباً لعدم وجود التالي مثلاً : العدد إما زوج أو فرد وصورة القضية في الأصل هكذا إذا كان العدد زوجاً فلا يكون فرداً ، وإذا كان فرداً فلا يكون زوجاً وهكذا .

## أقسام القضية المنفصلة :

ويقسم المناطق الشرطية المنفصلة ، إلى عدة أقسام هي التالية :

أ - انفصال النقيض ( ويسمى مانعة الجمع والخلو ) مثل : الناس إما مؤمنون أو كافرون .

فلا يمكن أن يوجد معاً ولا يمكن أن يعدما معاً .

ب - انفصال الضد ( ويسمى مانعة الجمع ) مثل أن نقول : ذهب فلان اليوم إما إلى بيروت أو إلى لندن ، فلا يمكن أن يوجد معاً ولكن يمكن ألا يوجد معاً مثل أن يكون فلان قد ذهب اليوم إلى باريس .

ج - انفصال الند ( ويسمى مانعة الخلو ) مثل : تعلم إما النحو أو الرياضيات فلا يمكن أن تتعلم واحداً منهما في الوقت الذي يمكن أن تتعلم الاثنين معاً .

## ١٩ - الأحكام بين تحليلية وتركيبية :

قسم بعض المناطق الأحكام إلى تحليلية وتركيبية وذلك :

أ - في المثل : الجسم يتمدد . هنا الحكم تحليلي ، لأنه لا يعطينا فكرة جديدة ، بل يوضح لنا طبيعة الموضوع ، وكذلك قولنا الواحد نصف الاثنين والإنسان يشبه الإنسان ، وهكذا .

ب - في المثل : الجسم ذوجاذبية . الحكم تركيبى ، لأن الجاذبية ليست من مفهومات الجسم ولا من موضحاته بل من الصفات التي لا بد أن نفهمها من الخارج ونحملها على الجسم .

والتعاريف ، وإن كانت بصيغة القضية ، فهي أحكام تحليلية ، وليست بذات قيمة علمية ، لأنها لا تزيدنا معرفة جديدة .

## ٢٠ - تقابل القضايا :

عرفنا فيما سبق أن القضايا على أنواع : سالبة وموجبة ، وكلية وجزئية . فما هو وجه الصدق والكذب بينهما ؟ ... بمعنى أنه إذا صدقت إحداهما ، فأى واحدة ، تصبح كاذبة وأيها تصبح مجهولة وأيها تصبح صادقة يقيناً ؟

لكي نعرف هذا التقابل ، لا بد أن نمثل له مثلاً واضحاً ومعروفاً .

المثل :

١ - ( كل إنسان ناطق ) : نحن نعلم أن هذه قضية كلية موجبة . ولكن يمكن أن نفترض وجوهاً أخرى لها بالضبط :

٢ - ونقول : بعض الإنسان - ناطق - ( موجبة جزئية / ب ) .

٣ - ونقول : ليس من الإنسان - بناطق - ( سالبة كلية / ل ) .

٤ - أو نقول : ليس بعض الإنسان - بناطق - ( سالبة جزئية / س ) .

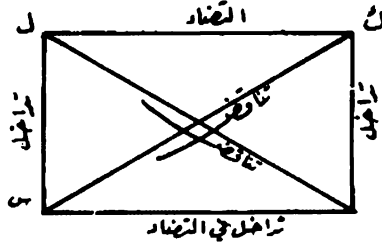
من هذه الأمثلة الأربع نستطيع أن نعرف درجة التقابل بينها . فحيث أن المثل الأول صحيح فالمثل الثاني صحيح أيضاً . إذ إن الكل يحتوي على الجزء ويزيد عليه فالموجبة الجزئية جزء من الموجبة الكلية .

ولكن ، هل العكس أيضاً صحيح ؟ أي هل الموجبة الكلية جزء من الموجبة الجزئية ؟ طبعاً لا . ولذلك ليس دائماً يتفقان في الحكم . فإذا قلنا مثلاً : بعض الناس مجانين ، فهل نستطيع أن نحكم أن كلهم مجانين ؟ طبعاً لا ، ولكن ، تبقى الأجزاء الباقية غير معروفة لنا ، ولذلك فإنه إذا أصبحت الموجبة الجزئية صحيحة تصبح الموجبة الكلية مجهولة وعندما نفترض جدلاً صحة هذا الفرض ، ليس من الإنسان بناطق فمن المؤكد أنه يتنافى مع قولنا كل إنسان ناطق ( أي أن السالبة الكلية تتنافى مع الموجبة الكلية ) والسؤال : هل أنها تتنافى أيضاً مع القول : بعض الإنسان ناطق ؟ الجواب : نعم إذ ليس من المعقول ألا يكون أي واحد من أفراد الإنسان بناطق ( كما هو مفهوم القضية السالبة الكلية ) . ثم يكون بعض الإنسان ناطقاً ، إذا السالبة الكلية تتنافى مع الموجبة الجزئية .

يبقى أن نعرف أنه إذا كان بعض الناس فقط ليس بناطق ، فماذا تكون النتيجة ؟ النتيجة أننا لا نعرف أنخذ حالة البقية من القضية أي أنه ، هل أن ( بعض الناس ناطق ) صحيح أم لا ؟ لا يفهم هذا من القضية ، وأيضاً : هل أن ( ليس من الإنسان بناطق ) صحيح أم لا ؟ أيضاً لا نعرف ، فتكون النتيجة إذا كانت السالبة الجزئية صحيحة ، فإن الموجبة الجزئية ، والسالبة الكلية ، قد تكونان صحيحتين

أيضاً ، وقد تكونان باطلتين .

ونذكر في المربع شكل تقابل القضايا .



والجدول التالي يبين بوضوح أكثر عناصر هذا الشكل :

١ - إذا كانت الكلية الموجبة (ك) في قضية صادقة مثل ( كل إنسان ناطق ) فإن السالبة الكلية (ل) فيها كاذبة مثل ( لا إنسان بناطق ) بينما الموجبة الجزئية (ب) صادقة مثل ( بعض الإنسان ناطق ) أما السالبة الجزئية (س) فهي كاذبة أيضاً مثل ( بعض الإنسان ليس بناطق ) . . .

إذاً ، ك ، صادقة ، ل كاذبة ، ب صادقة ، س كاذبة .

٢ - وإذا كانت الكلية السالبة (ل) في قضية صادقة مثل ( ليس من الإنسان بحمار ) فإن الكلية الموجبة (ك) كاذبة بالطبع مثل ( كل إنسان حمار ) وكذلك الموجبة الجزئية (ب) كاذبة ( بعض الإنسان حمار ) بينما السالبة الجزئية (س) صادقة مثل ( ليس بعض الإنسان بحمار ) .

إذاً : إذا كانت (ل) صادقة . . . (ك) كاذبة ، (ب) كاذبة ، (س) صادقة .

٣ - إذا كانت الجزئية الموجبة (ب) في قضية صادقة مثل ( بعض الناس أدباء ) فإن الكلية الموجبة (ك) مجهولة إذ لم يذكر في النص هل ( أن البعض

الأخر أدباء أم لا ) فلا نعلم بالتالي : هل صحيح كل الناس أدباء أم لا ، بينما بالتأكيد السالبة الكلية (ل) كاذبة مثل : ( ليس من الناس بأدب ) أما السالبة الجزئية (س) فلا نعلم أمرها كذلك فلا نعلم هل صحيح (بعض الناس ليسوا بأدباء ؟) .

إذاً ، (ب) صادقة ، (ك) مجهولة ، (ل) كاذبة ، (س) مجهولة .

٤ - إذا كانت الجزئية السالبة (ب س) صادقة مثل : ليس بعض الناس قادة ، فإن الكلية الموجبة (ك) كاذبة مثل : كل الناس قادة ، بينما الكلية السالبة (ل) مجهولة ، فلا نعلم هل صحيح ليس من الناس بقادة أم لا . . . ( وطبعاً لم يذكر ذلك في متن القضية ) وكذلك الجزئية الموجبة ، فهي مجهولة أيضاً فلا نعلم : هل أن بعض الناس قادة أم لا؟ إذاً (ب س) صادقة . (ك) كاذبة (ل) مجهولة (ب) مجهولة .

هذا عن القضايا الصادقة ويعرف منها القضايا الكاذبة وعلاقتها بالصادقة وغيرها والجدول التالي يختصر ذلك :

إذا كانت :

١ - (ك) ... كاذبة ، (ل) ... مجهولة ، (ب) ... مجهولة ، (س) ... صادقة .

٢ - (ل) ... كاذبة ، (ك) ... مجهولة ، (ب) ... صادقة ، (س) ... مجهولة .

٣ - (ب) ... كاذبة ، (ل) ... صادقة ، (ك) ... كاذبة ، (س) ... صادقة .

٤ - (س) ... كاذبة ، (ك) ... صادقة ، (ل) ... كاذبة ، (ب) ... صادقة .

القسم السابع  
عَنْ مَنَاهِجِ الْقِيَاسِ

البحث الثاني

الاستدلالُ أقسامه وشروطه

الاستدلال المباشر ( نقض المحمول - العكس المستوي - عكس النقيض ، مخالف أو موافق . النقيض التام ونقض الموضوع - الفائدة المتوخاة من الاستدلال المباشر . الاستدلال غير المباشر ( مصطلحات القياس - شروط القياس - كم الأقيسة ، شروط الكيف ) .

الأشكال الأربعة ( أنواع الأشكال الأربعة ، شروط الشكل الأول - شروط الشكل الثاني - شروط الشكل الثالث - شروط الشكل الرابع ) .





## أولاً : الاستدلال المباشر :

حين نستنتج من قضية واحدة فقط - قضية أخرى - نسمي العملية ( الاستدلال المباشر ) ، وحين نستنتجها من قضيتين أو أكثر نسميها ( الاستدلال غير المباشر ) .

### الاستدلال المباشر :

كشرط أساسي في أي استدلال ينبغي رعاية هذا الأمر ألا يكون في القضية المستدل إليها شيء زائد عن القضية المستدل منها ، وبالتالي : ( لا يكون المدعي أكثر من الدليل ) .

فإذا كان في القضية (أ) استغراق يمكن أن يكون في القضية (ب) استغراق كما يمكن بالطبع ألا يكون استغراق ، أما إذا كانت القضية (أ) مستغرقة فهل يمكن أن تكون القضية (ب) مستغرقة ؟ بالطبع لا .

وينقسم الاستدلال المباشر قسمين : نقض المحمول؛ العكس المستوي :

## أ - نقض المحمول :

مع مراعاة شروط ثلاثة . نستطيع الحصول على نقض المحمول وهي :

١ - أن تكون القضية قضيتين متحدتي الموضوع والمحمول .

٢ - أن يكون محمول الثانية نقيض المحمول في الأولى ( إضافة لا مثلاً إلى المحمول في الثانية أو حذف لا هذه ) .

٣ - أن ينعكس كيف القضية من الأولى إلى الثانية ففي الأولى إذا كانت إيجابية تكون الثانية سالبة ، والمثل يأتي آنثذ كالتالي وبالترتيب :

أ - الإنسان ناطق .

ب - ( ليس من الإنسان ) ( لا ) ناطق .

والتعريف المنطقي لهذه العملية هو : النقض في المحمول وهو :  
الإستدلال المباشر نتوصل به من قضية إلى قضية أخرى محمولها نقيض المحمول الأصلي .

والأمثلة التالية توضيح لهذه العملية :

١ - كل مجتهد مثاب (ك) لا مجتهد غير مثاب (ل) .

٢ - لا مجرم هارب (ل) كل محرم غير هارب (ك) .

٣ - بعض الناس أدباء (ب) ليس بعض الناس غير أدباء (س) .

٤ - ليس بعض الناس أدباء (س) بعض الناس غير أدباء (ب) .

إن الشروط الأنفة الذكر قد توفرت جميعاً في هذه القضايا ، فالموضوع والمحمول متحدان في الشرطين ، والمحمول في الثانية ، منقوض ( غير مثاب

- غير هارب - غير أدباء - غير أدباء ) ( وكيف القضية )<sup>(١)</sup> متحول مع الاحتفاظ بشرط الاستغراق أي إذا أمعنت النظر رأيت أن القضية الثانية من ناحية الأفراد الذين تشملهم كالقضية الأولى تماماً ! فالكلية تقابل الكلية . والجزئية تعاكس الجزئية وهكذا .

## ب - العكس المستوي :

التعريف المنطقي لهذه العملية هو : العكس ، الاستدلال المباشر ، تستدل فيه من قضية على أخرى ، بشرط أن يكون موضوع الثانية محمول الأولى ، فالموضوع يكون - وفق هذا التعريف - محمولاً في القضية الثانية ويكون المحمول موضوعاً والشرط الأساسي هو أن نلاحظ الاستغراق في القضية الأولى في الموضوع والمحمول معاً ، فلا بأس بالعكس وبدون أي تغيير في (كم) <sup>(٢)</sup> القضية مثلاً : لا راهب متزوج . لماذا لأن القضية الأولى (ل) مستغرقة في الموضوع والمحمول معاً . إذ إن النفي استغراق والقضية بذاتها (ل) قضية سالبة .

أما لو لم يكن كذلك ، بل كان الموضوع فقط مستغرقاً . . . في المحمول دون العكس فلا نستطيع أن نعكس إلا إذا غيرنا (كم) القضية أي بدلنا الكلية إلى جزئية وكمثل كل إنسان حيوان لا يكون عكسها إلا ( بعض الحيوان إنسان ) .

والموجبة الجزئية غير مستغرقة لا في الموضوع ولا في المحمول ، فيمكن عكسها كذلك - بدون الاستغراق - مثلاً : بعض أفراد الإنسان ، أبيض نعكسها بعض ما هو أبيض إنسان .

تبقى السالبة الجزئية لا يمكن أن نعكسها إذ إن المحمول حين يأتي مكان الموضوع ويدخل عليه النفي يصبح مستغرقاً في الموضوع الذي يصبح آنثى محمولاً له ، فيكون العكس أوسع استغراقاً من أصل القضية وبالتالي يكون

(١) كيف القضية يعني كيفيتها من ناحية النفي أو الاثبات يعني أنها نافية أم مثبتة .

(٢) كم القضية يعني ناحية الاستغراق وعدم الاستغراق أي الجزئية والكلية في القضية .

الاستدلال المباشر فاقداً لشرط المطابقة في الاستغراق .

مثاله : ليس بعض الناس أدباء ، عكسه . . . ليس بعض الأدباء أناساً ؟  
فهل هذا صحيح ؟ كلا .

لذلك قالت المناطقة : ليس للسالبة الجزئية عكس .

## أثلة العكس المستوي

القضية الأصلية :

- ١ - كل عالم مثابر في عمله (ك) .
- ٢ - لا مؤمن متكبر (ل) .
- ٣ - بعض العلماء فقراء (ب) .
- ٤ - ليس بعض العلماء قادة (س) .

القضية المعكوسة :

- بعض المثابرين في أعمالهم علماء (ب) ...  
لا متكبر مؤمن (ل) ...  
بعض الفقراء علماء (ب) ...  
لا عكس لها ...

عكس النقيض مخالف أو موافق :

في القضايا السابقة ، وجدنا شيئين : عكساً ونقضاً ، فهل نستطيع أن

نجمع بينهما لنحصل على العكس النقيض ؟ إن ذلك يستوجب منا عمليتين متلاحقتين الأولى : النقض ، الثانية العكس . وكمثل إذا كانت قضيتنا هذه ( لا جبان جريء ) فكيف يمكن نقضها ؟

( راجع القاعدة السابقة : ننقض المحمول ونغير كيف القضية ) فكيف تصبح ؟ كل الجبناء غير جريئين . هذا مجرد نقض للقضية الأولى ثم إذا أردنا عكس هذه القضية فكيف تصبح ؟ ( راجع قاعدة العكس : اجعل المحمول موضوعاً . . . ولاحظ استغراق القضية ) أليس تصبح : بعض غير الجريئين جبناء ( باعتبار أن الكلية الموجبة تعكس بجزئية موجبة ) . ثم إذا أردنا أن ننقض هذه القضية الأخيرة مرة أخرى ، فكيف تصبح ؟ ( راجع مرة أخرى قاعدة النقض ) . تصبح : ليس بعض غير الجريئين غير جبناء .

ماذا كانت القضية الأولى ؟ ألم تكن : لا جبان وجريء ، وماذا أصبحت لدينا بعد عمليات العكس والنقض المتكررة ؟ أليس ( بعض غير الجريئين غير جبناء ) لاحظ أنهما متوافقتان من حيث السلب والإيجاب ، بينما القضية المعكوسة بالنقض كانت إيجابية . والقضية الأصلية سلبية . إذاً : هناك مخالفة بينهما .

فالعكس بالنقض قسمان مخالف وموافق .

إذاً : يمكننا أن نعكس القضية ، منقوضة المحمول ، وأن ننقض محمول القضية ، المعكوسة ، فنعكس ثم ننقض ، أو ننقض ثم نعكس ، وذلك لكي نحصل على أشكال جديدة من الاستدلال المباشر ، والجدول التالي يزودنا ببعض الأمثلة الموضحة .

**عكس النقض :**

القضية الأصلية

(ك) كل إنسان ناطق (ح) .

(ل) لا إنسان قرد .

(س) ليس بعض المرضى أدياء .

(ب) بعض المرضى أدياء .

عكس النقض المخالف :

(ل) لا غير ناطق إنسان (ك) .

(ب) بعض غير القرد إنسان .

(ب) بعض غير الأدياء مرضى .

عكس النقض الموافق :

(ك) كل غير ناطق غير إنسان .

(س) ليس بعض غير القرد غير إنسان .

(س) ليس بعض غير الأدياء بغير مرضى .

والسؤال : لماذا لا ينقض عكس القضية الأخيرة ؟ للإجابة يجب أن نعرف أنه حين نقض هذه القضية نحصل على هذا الشكل ( ليس بعض المرضى غير أدياء ) . وهذه جزئية سالبة وقد سبقت قاعدة تقول إن الجزئية السالبة لا عكس لها .

النقض التام ونقض الموضوع :

بسبب عمليات النقض والعكس المتكررة ، قد نصل أي قضية نرى أن موضوعها هو نقيض موضوع القضية الأصلية أو حتى أن موضوعها ومحمولها نقيض لموضوع ومحمول القضية الأصلية . والأول يسمى بنقض الموضوع . والثاني يسمى بنقض تام . والطريق إلى ذلك العكس والنقض المتكررين . لا فرق . إنما بعض القضايا لا يمكن نقض موضوعها وليس لها نقض تام . كيف



ذلك ؟ لأنه نصل فيها في بعض الطرق إلى السالبة الجزئية وحيث إنها لا عكس لها . نقف عندها . وقبل أن نمثل لهذه القضية ، لا بد أن نضرب مثلاً لنقض الموضوع ولنقض التام .

١ - القضية الأصلية (ل) .

٢ - حين نعكس هذه نحصل على (ل) أيضاً .

٣ - وإذا نقضنا المحمول فالنتيجة هي (ك) .

٤ - ثم إذا عكسنا عكساً مستوياً تصبح (ب) .

وهذه نقض الموضوع إذ إن موضوع القضية الأصلية هو إنسان بينما موضوع القضية الرابعة هو ( غير إنسان ) وهو بالطبع نقيضه . والآن فلنستمر :

٥ - وإذا نقضنا القضية الرابعة تأتي (س) .

(ع) - (ح) .

لا إنسان بقرد .

لا قرد بإنسان (ح) + (ع) .

كل قرد غير إنسان (ح) + (ع) .

بعض غير الإنسان قرد (ع) (ح) .

ليس بعض غير الإنسان غير قرد (ح) (ع) .

وذلك يعني أننا حصلنا في الخامسة على قضية موضوعها ومحمولها نقيض موضوع ومحمول القضية الأصلية ، إذأ حصلنا على النقض التام . . . والسؤال : هل أننا نستطيع أن نتقدم خطوة أخرى ؟ والجواب ، لا . إذ إن آخر قضية حصلنا عليها كانت قضية سالبة جزئية وهي لا عكس لها ؟

وهكذا نصل إلى هذه القاعدة وهي : إذا أردنا الحصول على نقض الموضوع أو النقض التام ( ونقض الموضوع والمحمول معاً ) فلا بد أن نبدأ بعمليات عكس ونقض متكررة ومتلاحقة ، وذلك بأن نبدأ بالعكس ثم ننقضه أو نبدأ بالنقض ثم نعكسه متبعين في كل ذلك قواعد العكس والنقض السابقة والتي من بينها عدم عكس القضية الجزئية السالبة فإذا وصلنا في طريقنا إلى قضية سالبة جزئية وقفنا عندها ، ولا نعكس ونقول - بأسف - ان قضيتنا الأصلية لا تملك نقض الموضوع أو النقض التام . وفيما يلي نثبت جدولاً بالنقض والعكس المتلاحقين بدون ذكر المحتويات بل نكتفي بذكر (ع) رمزاً للموضوع ؛ و (ح) رمزاً للمحمول ؛ و (ع) يعني الموضوع المنقوض و (ح) يعني المحمول المنقوض .

القضية الأصلية	(ك) ع ح	(ل) ع ح	(ب) ع ح	(س) ع ح
العكس المستوي	(ب) ح ع	(ل) ح ع	(ب) ح ع	(ب) ح ع
نقض المحمول	(ل) ع ح	(ك) ع ع	(س) ع ح	(ب) ع ح
نقيض العكس المستوي	(س) ح ع	(ك) ح ع	(س) ح ع	(س) ح ع
عكس النقيض المخالف	(ل) ح ع	(ب) ح ع	(ب) ح ع	(ب) ح ع
عكس النقيض الموافق	(ك) ح ع	(س) ح ع	(س) ح ع	(س) ع ح
نقض الموضوع	(س) ع ح	ع ح		
النقض التام	(ب) ع ح	(س) ع ح		

الفائدة المتوخاة من الاستدلال المباشر :

الفائدة المتوخاة من الاستدلال المباشر ليست الحصول على فكرة جديدة إذ ان الفكرة الجديدة لا نجددها في مطلق أقسام المنطق القياسي . إنما الفائدة الأهم والأعظم من هذا النوع من المنطق هي توضيح علاقة الأفكار ببعضها كما سبقت الإشارة إليها ، فهي ليست إلا مجرد بحث في ربط الأفكار ، وتبحث عن الأشكال والقوالب وليس المحتويات والمعاني ، وعلى ذلك فإن الاستدلال المباشر يحتوي أيضاً على تعميق نظرنا إلى علاقة الفكرة بما يشابهها كالعكس والنقض في

المحمول وما أشبه !

ثانياً - الاستدلال ( غير المباشر ) القياسي :

بعد الحديث عن الاستدلال المباشر ، ينبغي إلقاء نظرة على الاستدلال غير المباشر ، والذي يسمى بالاستدلال القياسي ويمثل جوهر المنطق القديم ، والذي كان طريقاً إلى المنطق الرياضي الحديث .

وهذا الاستدلال بقدر ما هو هام ، فهو بسيط إذ ان كل شخص أوتي قدرأ من الإدراك يقوم يومياً بمئات التطبيقات لأنواع الاستدلال غير المباشر ، فكل منا حين يقوم من نومه ويلاحظ الساعة ، وانها تشير إلى الساعة صباحاً مثلاً يفكر هذه هي الساعة السابعة صباحاً ، وفي كل ساعة ساعة صباحاً يجب أن أقوم .

طبعاً هذا التفكير لا يجري بهذه الطريقة البطيئة بل بسرعة الضوء ، لذلك بمجرد أن يعرف الشخص أن الساعة تشير إلى الساعة يقفز من فراشه .

لذلك تذوب الأشكال الاستدلالية في التفكير السريع ، وكأنها لم تكن ، والنقد الصريح الذي وجهه ديكرات وأنصاره على المنطق الشكلي لم يكن بسبب بطلان هذا المنطق بل بسبب بداهته وأنه لا يحتاج إلى بيان لأن الإنسان يمارسه عملياً ويومياً .

مصطلحات القياس :

في البدء نلقي نظرة على مصطلحات المنطق في القياس . وقبلئذ نستعرض بعض الأمثلة :

١ - كل مسلم حسن الأخلاق ، فعلي حسن الأخلاق وعلي مسلم .

٢ - ليس بمسلم من يغش المسلمين ، كل من يعامل بالزنا ليس بمسلم  
كل من يعامل بالربا يغش المسلمين .

٣ - كل مسلم تقى . بعض المسلمين تجار . بعض التجار أتقياء .

٤ - كل مسلم صادق ، ليس بصادق من يخلف الوعد ، ليس من يخلف الوعد بمسلم .

هذه الأمثلة الأربعة ، تشترك في عدة أشياء بالرغم من اختلافها في أشياء أخرى ، فتشترك في أن لكل واحد منها كلمات مكررة في الجملتين الأولى والثانية ، والنتيجة التي سوف نرمز إليها بـ (ف) هي بدورها تكرار لبعض ما في الجملتين . . . وترتيب هذه العبارات المكررة هو الذي يتغير من جملة لأخرى وبسبب هذا التغير يختلف اسمها ويجعلنا نحصل على أشكال القياس الأربعة ، أما أسماء هذه الجمل تفصيلاً فهي :

١ - كل جملة تحتوي على فقرتين ( موضوع ومحمول ) ويرمز عادة للأول بـ (ع) وللثاني بـ (ح) ، والاسم الذي يطلق على الموضوع والمحمول بالتناوب هو (الحد) فالحد هي الكلمة في الجملة سواء كان الموضوع أو المحمول .

٢ - والنتيجة هي أيضاً مركبة من حدين ( أو من الموضوع والمحمول ) ولكل واحد من هذين الحدين ، في النتيجة ، اسم ، فالموضوع اسمه ( الحد الأصغر ) والمحمول اسمه ( الحد الأكبر ) .

٣ - وإذا لاحظت في الأمثلة الماضية ترى أن النتيجة هي تكرار لبعض ما في الجمل السابقة ، وحسب ترتيب محمول النتيجة أو موضوعها - ترتيبهما - في المقدمتين ، تختلف أسماؤهما ، والمقدمة التي تحتوي على محمول النتيجة تسمى ( المقدمة الكبرى ) بينما التي تحتوي على موضوع النتيجة تسمى ( المقدمة الصغرى ) .

٤ - بقي أن نعرف أن هناك كلمة أو (حد) تتكرر في المقدمتين معاً ولكنها تختفي في النتيجة إن تلك الكلمة تسمى ( الحد الأوسط ) .

## الحد الأوسط :

القضية مركبة من ثلاث جمل ولها أسماء ، الجملة الأولى اسمها ( المقدمة الأولى ) ، الجملة الثانية اسمها ( المقدمة الثانية ) ، والجملة الثالثة اسمها ( النتيجة ) .

دعنا نطبق هذه المصطلحات على المثال الأول من أمثلتنا السابقة .

١ - المقدمة الكبرى ، الجملة الأولى ( الحد الأكبر )  $A = C$  - كل مسلم - حسن الخلق . ( الحد الأوسط ) ( الحد الأكبر ) .

٢ - المقدمة الصغرى ، الجملة الثانية ( الحد الأصغر )  $E = A$  وعلي مسلم ( الحد الأصغر ) ( الحد الأوسط ) .

٣ - النتيجة ، الجملة الثالثة  $C = E$  ، علي حسن الأخلاق . ( الحد الأصغر ) ( ع ) ( الحد الأكبر ) ( ح ) .

## شروط القياس :

وللقيام بثلاثة أنواع من الشروط : نوع يرتبط بأصل القياس ونوع يرتبط بكم القياس ( الاستغراق وعدمه ) ونوع ثالث يرتبط بكيف القياس ( الإيجاب والنفي ) .

## أ - بناء الأقيسة :

يشترط في أصل بناء الأقيسة ما يلي :

- ١ - يجب أن يشتمل كل قياس على ثلاث قضايا لا أقل ولا أكثر . إذ اثنان مرتبطتان ببعضهما (مقدمتان) والثالثة تأتي نتيجة عنهما !  
أما الأكثر ، فإنه إذا كانت فهي إما أغلوطة وإما أكثر من قياس مثلاً :

الواحد ، نصف الإثنين ، والإثنين ، نصف الأربعة . وكل نصف النصف نصف ، فالواحد نصف الأربعة ، هذه أغلوطة .

ومثلاً : الأربعة ، زائداً أربعة تساوي ٨ والاثنين زائداً ستة يساوي ٨ .  
فالاثنتين زائداً ستة يساوي أربعة زائداً أربعة هكذا :

$$. \quad ٤ + ٤ = ٦ + ٢ , ٨ = ٦ + ٢ , ٨ = ٤ + ٤$$

هذه ليست أغلوطة ، ولكنها قياسان في قياس إذ نحن بحاجة إلى رابطة فكرية لنعرف أن مساو المساوي ، مساو لنصنع قياساً هكذا :

$٨ = ٤ + ٤ , ٨ = ٦ + ٢$  ، وكل مساو المساوي مساو ، وهذا مساو المساوي والنتيجة أن  $(٤ + ٤ = ٦ + ٢)$  .

لاحظ أننا بدون هذه القاعدة لا نستطيع أخذ هذه النتيجة إذ يمكن أن نتورط في الأغلوطة السابقة التي تكتب هكذا :

$$١ / ٢ و ٢ / ٤ إذا ١ / ٤$$

٢ - يجب أن تكون كل قضية داخلية في بناء القياس مسورة بإحدى الأنماط السابقة (ك ل ب س) .

فالقضايا غير المسورة لا تنتج شيئاً مثلاً :

إنسان فاني .

وفاني هالك لا ينتج : إنسان هالك .

إذ قد يكون سور المقدمتين بعض فتكون المقدمتان جزئيتين فلا تتجان شيئاً  
إذ تكون صورة القياس حينئذ هكذا .

بعض أفراد الإنسان فانون . وبعض الفانين هالكون .

وليست لهذه القضية نتيجة إذ قد يكون بعض الفانين غير بعض الناس .

ب - كم الأقيسة :

بالنظر إلى الكم يجب :

٣ - أن يكون الحد الأوسط مستغرقاً ، في إحدى المقدمتين . فلو كانت المقدمتان جزئية موجبة مثلاً ، لا يمكن أخذ النتيجة منها . كما سبق آنفاً . إلا أن بعض المناطق (هاملتون) يقول : إنه لا داعي لاشتراط استغراق الحد الأوسط استغراقاً تاماً ، بل يكفي أن يكون الاستغراق أكثر من نصف الأفراد كي يصح القياس . ولهذا يعدل هذا الشرط على النحو التالي : « يجب أن يكون كم الحد مقدراً في وظيفته ( في الكبرى والصغرى ) أكبر من كم الحد نفسه مستغرقاً ، ويضرب مثلاً :

١ - معظم الناس مرتكبون للخطايا .

٢ - نصف الناس ناجون من العقاب الإلهي .

٣ - بعض مرتكبي الخطايا سينجون من العقاب الإلهي <sup>(١)</sup> .

إلا أن الحقيقة أن هذه كلها قضايا كلية ، إذ القضية الكلية ليست فقط القضية المسورة بكل ، بل بأي سور يشمل جميع الأفراد الداخلين تحته ، فأغلب الناس سور كما أن نصف الناس ، أو ربع الناس سور .

٤ - ألا يستغرق حد في النتيجة ، ما لم يكن مستغرقاً في إحدى المقدمتين ، ولتوضيح هذا الشرط لا بد أن نقول : إن النتيجة - كما نعلم - هي موجودة في المقدمات ولكنها خافية بعض الشيء هناك وتظهر - جلية - في النهاية ، وهي قد تكون . جزئية وقد تكون كلية وفي الكلية ، تنقسم إلى كلية في كلية ، وكلية في جزئية ، أي أنه قد يكون كل من المحمول والموضوع مستغرقين

---

(١) د. بدوي المنطق الصوري والرياضي ، ص ١٦٧ .

في بعضهما وقد لا يكون . مثلاً قد نقول : كل إنسان كل ناطق .

وقد نقول : كل إنسان حيوان ( أي بعض أنواع الحيوان ) .

بعد هذه التقدمة الواضحة قد تكون النتيجة أكبر من حجم المقدمات في أحد حديها فلا تصح وكمثل :

أ - إذا قلنا : بعض الرجال فقراء .

وليس من الفقراء سعداء .

إذن فليس من الرجال سعداء .

فهو قياس باطل ليس فقط لأن الذوق السليم يلفظه رأساً بل لأنه أيضاً يفقد هذا الشرط الهام كيف ذلك ؟ إن النتيجة السالبة مستغرقة في المحمول ( فلو كان بعض السعداء رجالاً لم تصح جملة : فليس من الرجال سعداء ) بينما المحمول سعداء لم يحظ بالاستغراق في المقدمة الأولى ( التي تسمى بالمقدمة الكبرى ) فكانت النتيجة أكبر من المقدمة . . . إذ المحمول لم يستغرق في المقدمة واستغرق في النتيجة .

لذلك قالوا : إذا كانت النتيجة سالبة . يجب أن يكون الأكبر (المحمول) مستغرقاً في المقدمة .

ولذلك أيضاً لم يصح تركيب السالبة مع الجزئية الموجبة لانتاج القياس (كما يأتي) .

ب - وإذا قلنا : بعض الأغنياء سعداء .

وكل السعداء أصحاء .

إذن فكل الأغنياء أصحاء .

فهذا القياس غير صحيح . لماذا ؟ لأنه من الممكن أن يوجد غني غير سعيد



وبالتالي غير صحيح فكيف تحكم بأن كل غني صحيح ؟ وتطبيق القاعدة : الأغنياء (الأصغر) غير مستغرق في المقدمة (الصغرى) فلا يكون مستغرقاً في النتيجة لهذا قالوا : إذا كان الأصغر موضوعاً في جزئية صغرى لا يمكن أن تكون النتيجة كلية .

كذلك لا يصح القياس لو كان الأصغر محمولاً في المقدمة (الجزئية) .

ج - مثل ما إذا قلنا : بعض السعداء أغنياء .

وكل السعداء أصحاء .

إذا فكل الأغنياء أصحاء .

شروط الكيف :

الشرط الأول :

٥ - يجب أن تكون إحدى المقدمتين موجبة ، فلا نتيجة صحيحة مع المقدمتين السالبتين .

والسبب بسيط هو أن السالبة تنفي الموضوع عن الحكم (الرابط) ومع نفي الموضوع عن الحكم لا يرتبط الموضوعان ببعضهما (برابط) إذ الرابط انفصل عنهما جميعاً ، فمثلاً : لو قلنا : ليس العاقل حماراً .

نفينا العقل عن الحمار ، ثم لو قلنا : وليس البقر عاقلاً نفينا - مرة أخرى - العقل عن البقر ، فالعقل لا يكون رابطاً بين الحمار والبقر لأنه لا يوجد في أي منهما فكيف يكون رابطاً بينهما .

ولكن هذا الشرط إنما هو في النفي الحقيقي ، أما النفي الذي يتحول إلى

إيجاب مثل المقاييس فقد تكون السالبتان منتجة ، مثاله : ليس زيد أكبر من عمر ، وليس خالد أكبر من زيد ، فليس خالد أكبر من عمر .

النتيجة معقولة ، مع أن القضيتين سالتان ولكن لا تناقض هذه القاعدة إذا ان مآل هذه القضية إلى قضيتين والمحذوف منهما : هو المعقول ، وكل من ليس أكبر من شخص ليس أكبر منه فهو ليس أكبر .

ومثال آخر له : ليست مثذنة الأزهر أطول من برج القاهرة ، وليس برج القاهرة أطول من الأهرام ، فليست مثذنة الأزهر أطول من الأهرام وبساطة نكتشف أن كيف نؤول هذين النفيين إلى إثبات .

### الشرط الثاني :

٦ - إذا كانت إحدى المقدمتين سالبة جاءت النتيجة مثلها سالبة فلا نتيجة إيجابية مع مقدمة سالبة والسبب أن الموضوع قد انفصل عن المحمول في إحدى المقدمتين . فلا يمكن أن نوصلهما ببعضهما . ومثاله : كل إنسان عاقل ، وليس كل عاقل عالماً ، فليس كل إنسان عالماً .

### الشرط الثالث :

٧ - إذا كانت المقدمتان موجبتين جاءت النتيجة موجبة أيضاً مثلاً : إذا قلنا كل إنسان عاقل وكل عاقل ناطق ، لا يمكن أن نقول : فليس كل إنسان ناطق . لأنه كذب .

### ثالثاً - الأشكال الأربعة :

قلنا سابقاً إن للقياس حدّاً أوسط يظهر في المقدمتين معاً ، ثم يختفي في النتيجة ، ويمثل دور الرابط بين المقدمة الأولى والثانية ، ولنضع له رمزاً (أ) . وإذا كان القياس مركباً من مقدمتين ، في كل مقدمة موضوع ، ومحمول ، فإن المقدمتين فيهما موضوعان ومحمولان ، ( المجموع أربعة ) والحد الأوسط

(أ) يوضع مكان اثنين من هذه الأربع بالطبع وحسب ترتيبه يختلف شكل القياس .  
وفيما يلي نذكر رموزاً لذلك ، ثم نبدلها إلى أقيسة حقيقية ، وهي التالية : نرمرز  
للحد الأوسط بـ (أ) ، وللموضوع في النتيجة الذي يسمى بالحد الأصغر بـ (ع)  
وبالمحمول في النتيجة ، ويسمى بالأكبر بـ (ح) .

١ - (أ - ح) و (ع - أ - ع - ح) .

٢ - (ح - أ) و (ع - أ - ع - ح) .

٣ - (أ - ح) و (أ - ع - ع - ح) .

٤ - (ح - أ) و (أ - ع - ع - ح) .

تري أن الفرق بين هذه الأشكال ليس إلا واقع (أ) و (ح) و (ع) فالشكل  
الأول نرى الكبرى فيه (وهي المقدمة التي تحتوي على محمول النتيجة) في  
المقدمة الأولى . والصغرى في المقدمة الثانية ونرى الحد الأوسط أنه موضوع في  
الكبرى ، ومحمول في الصغرى ، مثاله :

كل إنسان ناطق ، وزيد إنسان . فزيد ناطق .

وفي الشكل الثاني : وضع الحد الأوسط ، محمولاً في المقدمتين معاً  
ومثاله :

لا جبان بصادق ، وكل مؤمن صادق ، فلا مؤمن بجبان .

وفي الشكل الثالث : وضع الحد الأوسط موضوعاً في المقدمتين ،  
ومثاله :

كل إنسان ناطق ، كل إنسان حي ، بعض الأحياء ناطقون .

وفي الشكل الرابع : وضع الحد الأوسط في المقدمة الأولى محمولاً وفي  
المقدمة الثانية موضوعاً (بعكس الشكل الأول) ومثاله : كل فدائي شجاع ، ولا

شجاع غدار ، فلا فدائي غدار .

## أنواع الأشكال الأربعة :

يمكن لنا تقسيم الأشكال الأربعة للمنطق نظرياً ستة عشر قسمًا أما عملياً فلا تصح منها سوى ثمانية أقسام ، الأقسام النظرية ناتجة من أن كل واحد من المقدمة الأولى والثانية ( الكبرى والصغرى ) قد تكون من ناحية الكم جزئية أو كلية ومن حيث الكيف موجبة أو سالبة ، فنأتي النتيجة ١٦ هكذا ( الرمز الأول للمقدمة الأولى . والثاني للمقدمة الثانية ) .

ك أ - ك ل - ك ب - ك س - ل ك - ل ل - ل ب - ل س .

ب ك - ب ل - ب ب - ب س - س ك - س ل - س ب - س س .

وأما الأقسام الثمانية الصحيحة من هذه الأنواع ، فهي ناتجة من حذف ما لا يجتمع فيها الشروط المتقدمة ، وهي ثمانية كالتالي :

أ - ما يفقد إشتراط ألا تكون المقدمتان سالبتين : وهي ل ل - ل س - س ل (س س مكرر) .

ب - ما يفقد شرط أن تكون إحدى المقدمتين على الأقل كلية ، وهي : ب ب - س ب - ب س - س س .

د - ما يفقد شرطاً مفاده إذا كانت المقدمة الأولى جزئية لا يمكن أن تكون المقدمة الثانية سالبة وهو ( ب ل ) .

وتبقى بعدئذ ثمانية أقسام صحيحة ومستوفاة للشروط السابقة وهي التالية :

( ك ك ) ( ك ل ) ( ك ب ) ( ك س ) .

( ل ك ) ( ل ب ) ( ب ك ) ( س ك ) .

## تطبيق الشروط في الشكل الأول :

تلك الشروط السابقة التي سبق القول فيها حين تطبق على الأشكال الأربعة للقياس . نعرف أن بعض هذه الأشكال الأربعة للقياس غير سليمة ، وهذه المعرفة هي الغاية ، المتوخاة ، من وراء ذكر تلك الشروط ونبدأ بعرض كل واحد من الأشكال ، الصحيح منها والغلط :

### الشكل الأول :

صورته : ع - أ = أ ح . . . إذن ع ح ومثاله : « محمد إنسان وكل إنسان فان محمد فان » في هذا الشكل تشترط شروط :

أ - أن تكون المقدمة الصغرى موجبة وهي التي فيها ع (وهي أولى المقدمتين في المثل ) والسبب أنها لو جاءت سالبة افتقدت شرط الاستغراق ، إذ ان النتيجة تأتي سالبة حسب القاعدة التي قلنا فيها : انه لو كانت إحدى المقدمتين سالبة جاءت النتيجة ( أيضاً سالبة ) - وإذا جاءت النتيجة سالبة ، فبحكم أن السالبة بطبيعتها استغرافية يكون المحمول مستغرقاً في الموضوع في النتيجة بينما ليست مستغرقة في المقدمة إذ المفروض أن المقدمة الكبرى تستغرق موضوعها في المحمول ولا يعني ذلك حصر المحمول بالموضوع واستغراقه فيه وهذا خرقٌ للقاعدة الثالثة السابقة ولتوضيح هذا الشرط نضرب مثلاً :

محمد عالم وكل عالم كاتب إذن فمحمد كاتب . هذه صحيحة لأن المقدمة الصغرى (الأولى) موجبة . ولكن لو حولناها سالبة ، فهل هي صحيحة ؟ لننظر : ليس محمد بعالم ، كل عالم كاتب ، فليس محمد بكاتب . هل هذا صحيح ؟ كلا ، إذ اننا لا ندري ، فقد يكون هناك كاتب غير عالم ، إذ هذا لم يذكر في القياس ، وإذاً نستطيع أن نستنتج من هذا القياس أن محمداً ليس بكاتب .

ب - يجب أن تكون المقدمة الكبرى كلية ، والسبب أن المقدمة الصغرى

ما دامت موجبة كان الحد الأوسط الذي يعتبر محمولها لا يكون مستغرقاً إذ الموجبة إذا كانت كلية تفيد استغراق الموضوع في المحمول لا المحمول في الموضوع ( فكل محمد إنسان يدل على أن محمداً لا يكون إلا إنساناً ولا يدل على أن الإنسان لا يكون إلا محمداً ) .

فإذا كانت الكبرى جزئية فلا يكون فيها أي نوع من الاستغراق ، وحينئذ تفقد شرطاً أساسياً هو ( القاعدة الثالثة ) التي قلنا فيها الحد الأوسط يجب أن تستغرق في إحدى المقدمتين ، إذ هو في الصغرى محمول وبالتالي غير مستغرق ، وفي الكبرى على فرض أن تكون جزئية موضوع غير مستغرق .

نعرف من نتيجة كل ذلك أن الضروب المحتملة من الشكل الأول هي ستة اثنتان منها ضعيفتان وأربعة قويتان .

أ - الضروب القوية هي :

ك ك ك - ك ب ب - ل ل ل - ل ب ب س .

ب - الضربان الضعيفان هما :

ك ك ب - ل ك س .

والسبب في ضعفهما أنهما يتداخلان مع الشكليين بالترتيب ك ك ك - ل ك ل - فمثلاً : نستطيع أن نقول : (ك كل محمد إنسان ) ( ك وكل إنسان فان ) ، ( ب فمحمد فان ) فيكون الشكل ك ك ب ، بينما نستطيع أيضاً أن نقول كل محمد إنسان وكل إنسان فان ، فتكون النتيجة ك ك ك . وهي أقوى من ك ك ب . وأيضاً كما نستطيع أن نقول : ( ك كل إنسان ناطق ) ( ل وليس من الإنسان بقرد ) ( س فبعض الإنسان ليس بقرد ) ( لكي تكون القضية ك ل س ) يمكن أن نأتي بالنتيجة فليس من الإنسان بقرد ( لتكون القضية - ك ل ل ) .

وواضح أن النتيجة الكلية خيرٌ من النتيجة الجزئية لذلك كان هذان النوعان ضعيفين .

## شروط الشكل الثاني :

صورة هذا الشكل هكذا  $ح = أ = ع$  .

$ع = ح$  .

ومثاله : لا جبان بمتصر ، وكل مؤمن متصر ، لا مؤمن بجبان ،  
وشروطه :

١ - يجب أن تكون إحدى المقدمتين سالبة وإلا لم يستغرق الحد الأوسط في أي واحدة من المقدمتين . وذلك لأنه من جهة لا يفهم من الموجبة استغراق المحمول في الموضوع كما سبق ومن جهة ثانية حيث أن الحد الأوسط محمول في كلتا المقدمتين ، فإذا كانت المقدمتان موجبتين لم يستغرق ولا في واحدة وهذا منافٍ للقاعدة ( الثالثة ) فلا يصح إذن أن نقول : كل عنصري فاسق ، وكل زانٍ فاسق ، ونأخذ هذه النتيجة ، كل عنصري زانٍ .

٢ - المقدمة الكبرى : لا بد أن تأتي كلية لأنه ما دامت الصغرى سالبة ، تأتي النتيجة سالبة ، والنتيجة السالبة تعني استغراق الموضوع في المحمول ( بطبيعة السلب ) ، فإذا كانت الكبرى جزئية لم يكن الموضوع فيها ( الذي هو المحمول في النتيجة أي الحد الأكبر ) مستغرقاً فيها وهذا ينافي القاعدة الرابعة .

مثال ذلك لو قلنا : لا جبان بمتصر = وبعض المؤمنين متصرون ، لا ينتج لا جبان بمؤمن ، لأنه يمكن أن يكون بعض المؤمنين - وهم غير المتصرين - جبناء ، فكيف نقول لا جبان بمؤمن ؟ .

وبسبب هذين الشرطين ، لا بد أن نستبعد طائفة من قياسات الشكل الثاني . وهي : ( ك ك ) و ( ك ب ) و ( ب ك ) كلها ( طبقاً للقاعدة الأولى ) ونستبعد ( س ك ) ( طبقاً للقاعدة الثانية ) ، وتبقى لدينا ستة ضروب ، اثنتان منهما متداخلتان كما سبق ، وتبقى أربع نذكرها مع ذكر الاثنتين بين قوسين

وهي : ك ل ل - ( ك ل س ) - ل ك ل ( ل ك س ) - ل ب س - ك س س .

### شروط الشكل الثالث :

صورته : ( أ = ح ) و ( أ = ع ) إذن ( ع = ح ) ومثاله : كل مسلم تقي ، بعض المسلمين تجار ، بعض التجار أتقياء ، وعندما نطبق الشروط الماضية نستخلص في هذا الشكل شرطين :

١ - أن تكون المقدمة الصغرى (الثانية) موجبة لأنها لو جاءت سالبة فهل تأتي المقدمة الكبرى (الأولى) سالبة أيضاً ؟ وإذا ينافي قاعدتنا السابقة ، وأن لا إنتاج بين السالبتين أو تأتي موجبة ، وإذا ، فهل تأتي النتيجة موجبة ( وهذا لا يمكن إذ القاعدة السابقة توجب أن تكون نتيجتها سالبة ) وإذا جاءت النتيجة سالبة ، فمعناها : أن الموضوع يستغرق في المحمول ، وهذا يستلزم بالتالي أن يكون منافياً للقاعدة ( إن الحد لا يستغرق في النتيجة إلا إذا كان مستغرقاً في إحدى المقدمتين ) وذلك لأن المحمول في المقدمتين الكبرى والصغرى غير مستغرق لأنها من الشكل الأول .

٢ - يجب أن تكون النتيجة جزئية والسبب ذات السبب الأنف الذكر ، إذ انها لو كانت كلية ، لكان الموضوع مستغرقاً في محمول ، النتيجة وهو في جملة موجبة والموجبة لا تستغرق في المحمول .

إذاً لا يمكن تشكيل قياس من الشكل الثالث من ( ك ل ) و ( ك س ) ، ( لأنهما سالبتان ) ولا العكس ( ل ك ) ( س ك ) وتبقى الصور التالية : ك ك ب - ك ب ب - ب ك ب - ل ك س - ل ب س - س ك س .

### شروط الشكل الرابع :

صورته : ( ح = أ ) و ( أ = ع ) . ع = ح .

مثاله : كل مسلم صادق ، ليس بصادق من يخلف الوعد ، إذن ليس من



يخلف الوعد بمسلم . أما الشروط فثلاثة كالتالية :

١ - إذا كانت إحدى المقدمتين سالبة فلا يمكن أن تأتي المقدمة الكبرى ( التي تحتوي على محمول النتيجة ) جزئية والسبب كما سبق ( في الشكليين الثالث والأول ) أن المحمول في النتيجة مستغرق بينما ليس مستغرقاً في المقدمة الكبرى لأنها جزئية والجزئية لا تستغرق . نعم إذا كانت كلية استغرقت ، لأن المحمول موضوع في تلك المقدمة .

٢ - إذا كانت المقدمة الكبرى موجبة فإن موضوعها لا يستغرق في المحمول ( والمحمول هنا هو الحد الأوسط ) فلا يمكن أن تكون المقدمة الصغرى - جزئية - وإذا لا ينتج ( لقاعدة ضرورة استغراق الحد الأوسط في إحدى المقدمتين ) .

٣ - وإذا كانت المقدمة الصغرى موجبة ، فإن النتيجة تكون جزئية ، والسبب أن الحد الأصغر يأتي محمولاً في المقدمة الصغرى ، وإذا كانت موجبة ، فإن الموجبة لا تستغرق المحمول ، وحيث إن ذات الكلمة موضوع في النتيجة ، فلا يمكن أن تكون كلية ، إذ الكلية تستوجب الاستغراق وهو غير موجود في المقدمة ، فتأتي القاعدة الرابعة ووفقاً لهذه الشروط تستبعد عدة صور من هذا الشكل هي : ( ك س - س ك - ك ب - ك ل ك ) . . .

والصور الصحيحة هي :

ك ك ب - ك ل ل - ل ك س - ل ب س - ب ك ب - أما الضعيف فهو ( ك ل س ) .

هذه هي الأشكال الأربعة وهذه شروطها .

القسم السابع  
عن مناهج القياس

البحث الثالث

المنطق الرياضي

كلمة البدء .

تحديد المحمول .

بين الكلمات والرموز ( رموز الاضافات - اضافة التماثل - اضافة التعدّي - التضايف المشترك - التضايف المترابط ) .

دور الاضافات في القضايا .

الحساب المنطقي ( الاضافات المنطقية حساب الأصناف ) .

الرموز في القضايا الحملية - الجبر المنطقي .

قواعد تجربة فن في حساب القضايا - القضايا والدوال ( عن القضية - عن الدوال القضائية ) .



## كلمة البدء :

عندما تحدثنا عن المنطق الصوري استعرضنا المراحل التي تطور عبرها هذا المنطق حتى وصل إلى شكله الرياضي المتقدم حالياً ، وذلك بفضل مجموعة كبيرة من العلماء ابتداءً من ليبيتس وانتهاءً برسل .

يبقى الآن أن نعيد بعض ما ذكرنا تذكراً وتوضيحاً لما بين أيدينا من المنطق الرياضي .

قلنا إن الفكر الحديث يميل إلى تفسير الأشياء كمياً عددياً بينما كان الفكر القديم يفسرها كيفياً . وتدخّل العدد في كل العلوم الحديثة حتى كاد يدخل مجالات إنسانية مثل علم النفس .

وشعار العلم في هذا الاتجاه كان قول جاليلو : الطبيعة مكتوبة بلغة رياضية .

وكان بين المنطق الصوري القديم والرياضيات العددية أخوة قديمة ولعدة أسباب أهمها : أن كلا العلمين يميل نحو الصورية والتجريد ولا يعني بالأشياء كأشياء واقعية بل كرموز لا بد أن نكتشف ما بينها من نسب ، وعلاقات ، والهدف

الذي تؤخّاه كل من العلمين المنطق والرياضيات - هو الربط الصحيح - بين الأشياء ، عن طريق عمليات فكرية بسيطة ، تخضع لقواعد ثابتة وتتم بالطرق الآلية ، بعيدة عن حقائق الأشياء في الواقع الخارجي ، لكن يجب أن لا ينسبنا هذا أن بين المنطق الصوري والرياضي فوارق عديدة ، ولهذا لا نستطيع الاستغناء بواحد عن الآخر ، فالمنطق الحديث :

١ - أوغل في التجريد والصورية .

٢ - وسع ميادين البحث إلى آفاق جديدة .

٣ - عنى بتجديد مناهجه ، وجعلها أدق من المنطق الصوري .

بينما المنطق القديم :

١ - كان مقصوراً على نوع واحد من الاستدلال ، وهو الإستدلال القياسي ، بينما المنطق الحديث اكتشف أنواعاً جديدة من الإستدلال مثل اضافة الموصول والعطف وحروف الجر والحال ، واكتشف العلاقة بين القضايا ، بينما المنطق القديم يعني فقط بعلاقة الحدود ( لتركيب قضية واحدة ) .

٢ - استطاع المنطق الحديث التخلص من ثقل اللفظ ، فاستغنى عنه بالرمز ، ووضع سلسلة مطولة من الرموز ، تعبر عن الآفاق الجديدة في الاستدلال ، ووضع لغة رمزية ، يمكن أن تتحول إلى لغة العلم .

٣ - بحث عن بعض المشاكل التي عجز عن حلها المنطق القديم . مثل ، نظرية كم المحمول الثانية .

ولذلك يحاول كثير من أنصار المنطق الرياضي توسعة أفقه إلى حدّ يصبح معه لغة العلوم كلها ، وهذا إلى جانب وجود دراسة منتظمة للمنطق الصوري الذي يميز بطبيعة هذا الوضع عن المنطق الرياضي لأنه بقي وافياً لمجال محدود بل ولمرحلة بدائية محدودة

## تحديد المحمول :

لأن نظرية تحديد المحمول كانت تاريخياً الخطوة الأولى على درب المنطق الرياضي والتي استتبعت سائر الخطوات آلياً فإن البحث عنها في البداية يبدو تدرجاً معقولاً .

تبدأ هذه النظرية من عدة مسلّمات ، هي التالية :

١ - لو حللنا عملية الفكر في أثناء الحكم ، الذي يعبر عنه بالقضية ، لوجدنا أننا لا بد أن نعرف قبل أن نحكم على شيء بشيء أن هناك صنفاً يدخل ضمنه موضوع معين ، فمثلاً قبل أن نحكم بأن الإنسان حيوان ، لا بد أن نعرف أمرين ، الأول : أن هناك صنفاً يسمى بالحيوان ، والثاني : أن الإنسان داخل ضمن هذا الصنف .

إذاً معرفة الصنف جزء من الحكم ، والسؤال عن الحيوان يدخل ضمن السؤال عن الإنسان لأنه صنفه . وفي قولنا : الإنسان حيوان ، لا يكفي أن نعرف كم إنسان هو حيوان ؟ بل لا بد أيضاً أن نعرف كم حيوان هو إنسان ؟ فهل كل إنسان هو كل حيوان ؟ أم أن كل حيوان هو بعض الإنسان ؟ أم العكس هو الصحيح ؟

٢ - والقضية - في المنطق القديم - تحدد كمية الموضوع ، دون كمية المحمول ، فمثلاً : هاتان القضيتان متشابهتان في المنطق القديم من ناحية التعبير ، بالرغم من اختلافهما من ناحية كمية المحمول ، وهما :

الإنسان حيوان ، والمثلث ذو ثلاثة أضلاع بينما القضية الأولى تعني أن كل إنسان هو بعض أصناف الحيوان ، وتعني القضية الثانية : أن كل مثلث هو ذو ثلاثة أضلاع ، وكل ذي ثلاثة أضلاع هو - بالمقابل - مثلث أيضاً ، والتعبير واحد .

٣ - ولكن حين عجز المنطق القديم عن تحديد كمية المحمول ، فهل أن

هذه الكمية زالت عن الفكر أيضاً ؟ كلا بل إنها - كما يزعم هاملتون - موجودة أبداً في الفكر ، وتسأل إذا كانت تلك موجودة في الفكر فلماذا لا تعبر عنها اللغة العادية ؟ والجواب : أن اللغة العادية ( كما يزعم تلميذ هاملتون بينز ) كثيرة الإيجاز ، ولكن يجب علينا - كما يضيف بينز - أن نميز بين الأغراض التي تهدف إليها كل من اللغة العادية والمنطقية على التوالي ، فبينما الأولى لا تقصد غير عرض مضمون الفكرة بوضوح ، تقصد الثانية عرض مضمون الفكرة بدقة ، ولهذا كان من الضروري أن نعبر عن كمية المحمول في المنطق دون اللغة العادية<sup>(١)</sup> .

اعتماداً على هذه النقاط ، وضع المنطق الحديث نظرية كم المحمول ، التي استهدفت تحديد كمية المحمول ومدى شمول الموضوع له ، وبذلك قسمت القضايا من أربع إلى ثمانٍ . بينما كان المنطق القديم يقسم القضايا إلى موجبة وسالبة وكلاً منها إلى جزئية وكلية .

يقسم هذا المنطق كل واحد من هذه الأربع ، إلى جزئي المحمول وكلّي المحمول فتتحول القضايا الأربع الماضية إلى ما يلي :

١ - الموجبة الكلية ، كلية المحمول : وفيها يكون الموضوع مستغرقاً في المحمول ، والمحمول مستغرقاً في الموضوع ، مثل : كل مثلث ذو أضلاع ثلاث ورمزها (٧) (ك)<sup>(٢)</sup> .

٢ - الموجبة الكلية جزئية المحمول : وفيها يستغرق الموضوع في المحمول بلا عكس ، مثل : كل إنسان حيوان ورمزها (A) (ك) .

٣ - الموجبة الجزئية ، كلية المحمول : وفيها لا يستغرق الموضوع في المحمول بينما يستغرق المحمول في الموضوع مثل : بعض الأشكال الهندسية ،

---

(١) نعتمد في كتابة هذا الفصل في الأكثر على كتاب ( المنطق الصوري والرياضي ) للدكتور عبد الرحمن بدوي .

(٢) الرموز العربية من المؤلف .

مثلث ، ورمزها (Y) (ك) .

٤ - الموجبة الجزئية ، جزئية المحمول : وفيها لا يستغرق واحد من المحمول أو الموضوع في بعضها ، مثل : بعض الأشكال المتساوية الأضلاع هي مثلثات . ( بعضها أيضاً غير مثلثات ، وبعض المثلثات ليست متساوية الأضلاع ) ويرمز إليه (أ) (ب) .

٥ - السالبة الكلية ، كلية المحمول : وهي تسلب الموضوع عن أفراد المحمول جميعاً . بحيث لا يكون فرد من الموضوع مرتبطاً بأي فرد من المحمول مثل : لا مثلث مربع ، ويرمز إليه بـ (E) (ل) .

٦ - السالبة الكلية ، جزئية المحمول : وهي التي تسلب كل الموضوع عن المحمول ككل دون أن تسلبه عن أفرادها جميعاً مثل : ليست كل المثلثات متساويات الأضلاع ويرمز إليها بـ (N) (ل) .

٧ - السالبة الجزئية ، كلية المحمول : وهي التي تسلب بعض الموضوع عن جميع أفراد المحمول مثل : ليست بعض الثدييات ذوات الأربع ، ويرمز إليها بـ (O) (لا) .

٨ - السالبة الجزئية ، جزئية المحمول : وفيها يكون جزءاً من الموضوع مسلوباً عن المحمول ككل وليس عن كل أفراد المحمول مثل : ليس بعض ذوات الأربع كل الثدييات . ويرمز إليها بـ (W) (س) .

وقد انتقد بعض المناطق نظرية تحديد كمية المحمول وقالوا : إن هذه النظرية تخلط بين قضية واحدة - وبين قضيتين - فقولنا كل أ = كل ح هو في الواقع تعبير موجز عن قضيتين هما : كل أ = ح وكل ح = أ ، وذلك لأن سياق الحكم هو بيان نسبة الموضوع إلى المحمول ، وليس أبدأ بيان نسبة المحمول إلى الموضوع ، وفي هذا الاعتراض الأخير يقول (مل) : أكرر النداء إلى ضمير كل قارئ ، هل حين يحكم بأن كل الثيران مجترّة يلقى أدنى انتباه إلى مسألة أن هناك



شيئاً آخر يجترّ؟ وهل هذا الاعتبار موجود في ذهنه على وجه الإطلاق؟ أو أي اعتبار آخر غير اعتبار الموضوع الذي يحكم عليه حين الحكم؟ .

والواقع أن هذا الاعتراض صحيح إذا كان الهدف من المنطق شيئاً يساوي - الأدب - ويعني بشؤون التعابير اللفظية أما إذا كان الهدف من المنطق معرفة النسبة بين موضوعين - بل معرفة العلاقة بين رمزين عن موضوعين - كما هو الإتجاه الرياضي في المنطق ، فإنه مما لا ريب فيه أن بيان كم المحمول هو المتناسب معه وهو الأدق تعبيراً من التعابير العرفية . وكفى به فخراً أنه يدمج قضيتين في قضية واحدة ( كما قال المعترض الأول ) .

## بين الكلمات والرموز

الكلمات تعني بحقيقة الأشياء ، وواقعها الخارجي ، بينما الرموز تعني بماهيتها وصورها ، وبالتالي علاقاتها ، فلا يمكن أن نستغني عن الواحدة بالأخرى ، بل لكي نفهم الكلمات بدقة ، ونفهم الرموز بعمق ، فلنا نحتاج إلى فهم الجانب الرمزي من الكلمات والجانب التجسدي من الرموز .

نماذج من الرموز / وإليك طائفة من الرموز الأكثر شياعاً :

### في الأصناف

أ ب ، > . د . صنف أ . > . ب المتضمنة في ب .

أ ، نفي الصنف أ .

أ + ب حاصل الجمع . (٠) صفر الصنف

المنطقي للصنفين أ - ب . بغير أفراد .

أ = ب أفراد صنف هم . (١) الصنف الحاوي

أفراد صنف آخر . لجميع الأفراد .

## في القضايا

ق ، ت ، ص أي قضية .	ق ، ت أي ق تستلزم ت .
ق ، نقيض القضية ت .	(٥) صفر القضية الكاذبة .
ق + ت حاصل الجمع المنطقي	١ .. القضية الصادقة .
لقضيّين أو القول بهما انفصلاً .	ق = ت القضيتان ق ، ت .
ق : ت حاصل الضرب المنطقي	صادقتان معاً أو كاذبتان معاً .
أو القول بهما معاً .	أوق مكافئة للقضية ت .

## رموز الإضافات :

### ما هي الإضافة :

أشياء هذا الكون ذات علاقة ببعضها ، واللغات تعبر عن هذه العلاقات ، ببعض الكلمات التي تبين لنا نوع هذه العلاقة ، فمثلاً هناك علاقة بين زيد وعمر ، وهي أنهما من أب واحد . وأن زيدا أكبر سنّاً من أخيه بينما أخوه أصبح وجهاً منه . هذه العلاقات تعبّر عنها اللغة بالقول : زيد (أخ) لعمر - وزيد أكبر من عمر - وعمر أجمّل من زيد .

هذه تسمى (الإضافة) التي يمكن تعريفها : بأنها التعبير عن علاقة شيئين ببعضهما ، مما يكون فيه إشارة إلى شيء آخر مثلاً : حين نقول أخ نعرف أن هناك شخصاً آخر ، هو أخوه ، وحين نقول أكبر نعرف أن هناك أصغر .

بفارق أنه حين نقول : أخ فالثاني أيضاً أخ بينما إذا قلنا أكبر فالثاني لا يكون أكبر أيضاً بل أصغر . فالأول متماثل والثاني غير متماثل ، ومثل الأول إضافات

« صديق - مصاحب - شريك و . و . وهي : إضافات متعددة ومثل الثاني أب - محب - أحسن » . وهكذا . . .

وقد تكون الإضافة بين شيئين بينما قد تكون بين عدة أشياء مثل أن نقول زيد أعطى الفقير ديناراً ، فهنا نجد إضافة ( أو علاقة ) بين ثلاثة أشياء زيد / فقير / دينار . . . وهي علاقة العطاء . وهذه الإضافة هي بعض ما تسمى في المنطق القديم بالرابطة إذ الرابطة هي بدورها نوع من إضافة شيء إلى شيء .

والإضافات أنواع : ولكل نوع منها رمز ، وهي :  
التماثل / والتعدي / والتضاييف .

## ١ - إضافة التماثل :

هذه الإضافة هي التي تكون نسبة كل واحد منهما إلى الآخر واحدة حيث تستطيع أن تنسب العلاقة إلى هذا الطرف أو ذاك الطرف بنفس التعبير . فتقول مثلاً : زيد أخ لعمرو - وعمرو أخ لزيد - ، زيد شبيه عمرو خلقاً . وبتعبير آخر ، لو عكست الإضافة التماثلية رأيت المعكوسة صحيحة أيضاً . بينما العلاقة اللا تماثلية ليست كذلك ، بل علاقة أحدهما ليست عين علاقة الثانية ، بل قد تكون عكسها ، مثل : زيد أبو خالد ، فليس من الصحيح أن تعكس وتقول : فخالد أبو زيد ( بل ابنه ) ومثل آخر : زيد يحب خالداً ، لا يصح دائماً العكس ( خالد يحب زيداً ) إذ قد لا يحبه خالد ، وقد يحبه ، فالإضافة هنا أيضاً لا تماثلية .

## ٢ - إضافة التعدي :

إضافة التعدي ، هي الإضافة التي إذا وجدت بين أول وثاني ثم وجدت بين ثاني وثالث ، فإنها توجد بين الأول والثالث . فمثلاً : إذا قلنا : زيد أكبر من أخيه عمرو ، ثم قلنا : وعمرو أكبر من أخيه خالد ، فيكون من الصحيح الاستنتاج بأن زيداً أكبر من خالد . لأن إضافتها متعددة .

### ٣ - التضافيف المشترك :

التضافيف المشترك هو وجود علاقة بين شيئين من جهة وبين واحد منهما وطرف ثالث من جهة أخرى مثلاً ، نقول : زيد صديق علي هذه الصداقة الموجودة بين علي وزيد قد توجد أيضاً بين علي ورجل آخر ولأن الإضافة تتحقق بين شيئين ، وكل واحد منهما قد تكون له ذات العلاقة مع شيء آخر ، وقد لا تكون ، فإن هذه الإضافة تنقسم من هذه الناحية إلى أقسام ثلاثة :

١ - الإشتراك من جانبين كالمثال الماضي ، إذ كل من زيد وعلي يمكن أن يصادقا رجلاً آخرين .

٢ - الإشتراك من جانب واحد فقط مثل هذا المثل : زيد ابن عمرو ، فقد يكون عمرو أباً لزيد ، ولكن ، هل يمكن أن يكون زيداً ابناً لغير عمرو ؟ كلا ، ويسمى هذا القسم بإضافة الواحد والكثير ولعكسه يقال إضافة الكثير والواحد .

٣ - عدم الإشتراك أبداً في التضافيف مثل : عشرة أكبر بواحد من تسعة حيث ان العشرة لا يمكن أن تكون أكبر باثنين من تسعة ، ولا التسعة يمكن أن تكون ناقصة من عشرة باثنين ، وتسمى هذه الإضافة بإضافة الواحد ، واحد .

### ٤ - التضافيف المترابط :

الواحد أصغر من العشرة ، والعشرة إذاً أكبر من الواحد ، وكل عدد إما أكبر أو أصغر من العدد الآخر ، ولكن ليس هذا التضافيف موجود دائماً بين كل شيئين فليس مثلاً يجب أن تكون الأشياء إما أصغر أو أكبر من الثاني بل قد تكون متساوية .

### دور الاضافات في القضايا :

لأن الرابط الذي تدور عليه صحة الاستنتاج هو نوع من هذه الاضافة فعلينا

أن نعرف نوع الاضافة ، فقد تكون عقيمة وغير قادرة على الإنتاج فيبطل الاستدلال  
فمثلاً :

١ - في الاستدلال المباشر ، لا يمكن أن نعكس عكساً بسيطاً إلا إذا كانت  
الإضافة تماثلية فلا نقدر أن نقول : زيد أب لعمر - وعمر أب لزيد . لأن الأبوة  
إضافة لا تماثلية . وكذلك لا نستطيع أن نقول في عكس كل الشعراء فنانون . كل  
الفنانون شعراء إذ الاضافة لا تماثلية ، والسبب واضح . إذ العلاقة بين أن يكون  
كل أفراد نوع ، من صنف معين لا يستوجب أن يكون كل أفراد الصنف في النوع  
أيضاً .

بينما نستطيع أن نقول في عكس بعض الشعراء فنانون ، بعض الفنانين  
شعراء ، إذ علاقة البعضية تماثلية فإذا كان بعض أنواع الإنسان حيوان فبعض  
الحيوان إنسان أيضاً .

٢ - وفي الاستدلال غير المباشر يجب أن تكون الرابطة من نوع التعدي  
فمثلاً : لا يمكن أن نقول : زيد أب لعمر - وعمر أب لخالد - فزيد أب لخالد .  
كلا ، إنه جدّه لا أبوه ، وموضع بطلان القياس ، أنه غير متعدّي . بينما يصح أن  
نقول : زيد أكبر (سناً) من عمرو ، وعمر أكبر من خالد ، إذ زيد أكبر من خالد ،  
وسبب الصحة : أن الإضافة متعدية .

٣ - وكذلك يصح الاستدلال في الإضافات المتعدية بشكل متسلسل  
( مفصولة النتيجة ) مثل أن نقول : الغدر كذب - والكذب إثم - والإثم في النار .  
إذن ، فالغدر في النار .  
الحساب المنطقي :

لا يمكن فصل المفهوم عن المصادق كما سبق ، إنما يمكن تركيز النظر  
إلى أحدهما مؤقتاً دون الآخر ، فمثلاً : لو قلنا إنسان فتارة نتوجه إلى جانب  
الصفات الإنسانية الموجودة بالطبع في الأفراد ، فنكون قد ركّزنا النظر في

المفهوم ، أكثر من تركيزنا في المصداق ، وتارة نقصد بكلمة الإنسان الأفراد المتصفين بالصفات الإنسانية فنكون تركيزنا على المصداق . والمنطق الحديث يبني أساسه على الجانب الثاني . فلذلك يصنف المفاهيم ، على أساس أفرادها ، فيسمي الإنسان ، صنفاً من أصناف الحيوان ، يقصد بذلك أن الإنسان هو مجموعة أفراد مشتركين في صفات الإنسانية ، بينما الحيوان مجموعة أفراد مشتركين في الصفات الحيوانية .

وعلى هذا يبني أساسه فيقول :

( العمليات المنطقية ) ١ - حين نوضح علاقة أي صنف بالآخر فهناك عدة علاقات يمكن أن نحصلها - منها علاقة (و) - فنقول مثلاً : الشعراء والخطباء ، وهذا يعني الشعراء الخطباء والذي يعني بدوره ، وجود صنف مركب فيه صفات الشعراء والخطباء ، وبالطبع لا يوجد من هذا الصنف - الذي يجمع خصائص الشعراء والخطباء معاً - أفراد كثيرون .

بينما لو قلنا الشعراء أو الخطباء ، فإن هناك عدداً هائلاً من هذين الصنفين ، والقسم الأول يسمى الضرب المنطقي بينما يسمى القسم الثاني الجمع المنطقي . والقسم الأول يقلل من عدد الأفراد ، بينما القسم الثاني يضاعف منه لذلك قالوا : حاصل الضرب المنطقي أصغر صنف يتضمن كلا من الصنفين المجموعين كما أن حاصل الجمع المنطقي هو أكبر صنف يتضمن واحداً منهما ويرمز للضرب المنطقي هكذا  $A \times B$  ويختصر أ ب ، ويرمز للجمع ( أ + ب ) وقد يؤدي الضرب المنطقي إلى صنف لا أفراد له - في الواقع الخارجي أو لا أفراد له عقلياً ، فمثلاً : لو قلنا : جاء فقهاء المسلمين المسيحيون لم يكن له أفراد : إذ لا يكون شخص فقيهاً مسلماً ومسيحياً في لحظة واحدة - ولو قلنا : الدائرة المربعة كان لا أفراد له أيضاً إذ لا يجتمعان عقلياً بالرغم من أنه حاصل الضرب المنطقي ، ولأن هذا الصنف لا أفراد له أساساً نسميه بصنف الصفر - فيكون نتيجة ضرب الدائرة (أ) في المربع (ب) هو الصفر هكذا ( أ  $\times$  ب = ٠ ) .

## الصفن ومسلوبه :

نقيض كل صنف . يسمى مسلوب الصنف ، فنقيض الذكور وهو الذي نقرأه لا ذكور يسمى مسلوب صنف الذكور وهذا المسلوب يكون إناثاً . لأنه ليس في صنف البشر غير الذكور والإناث فحين نفينا الذكور جاء الإناث . وهكذا العكس .

ويرمز للصنف بـ (أ) مثلاً ويرمز لمسلوبه بـ (أ') بفتحة على الحرف ، ويقراً (لا - أ) وبالتأكيد أن لا أ هو صنف آخر إذاً هناك ثلاث عمليات منطقية تشبه العمليات الحسابية الضرب والجمع والسلب ، والنتيجة التي نتوخاها بين هذه العمليات هو تحصيل صنف جديد بجمع أو ضرب أو سلب صنف من الأصناف .

### الإضافات المنطقية :

والإضافات المنطقية هي ملاحظة العلاقة بين صنف وآخر والنتيجة المتوخاة منها ، تحصيل قضية من القضايا إذ القضية هي التعبير عن علاقة شيء بشيء وهي أقسام كثيرة منها وأهمها :

## الاندراج :

إذا كان كل فرد من صنف مندرجاً تماماً في صنف آخر ، حدثت بين الصنفين إضافة الاندراج ، فمثلاً : كل فرد من أبناء البشر مندرج في صنف الحيوان فالإضافة بين البشر والحيوان إضافة اندراجية ويعبر عنها بالجملة : البشر حيوان ، ويعبر عن هذه الإضافة منطقياً بالرمز ( > ) فيقال البشر > حيوان ولدى تبديل الكلمات أيضاً إلى رموز يصبح أ > ب والإضافة هذه متعددة . إذ كل صنف في شيء ضمن صنف ذلك الشيء . فالإنسان الحيوان - هو الإنسان باعتبار أنه حيوان والتعبير عنه هكذا أ > ب وب > ح - إذاً أ > ح - ( الإنسان حيوان - الحيوان نام - فالإنسان نام ) ولكن ليست هذه الإضافة تماثلية فليس كل إنسان



حيوان يمكن عكسه ، كل حيوان إنسان .

### إضافة التساوي :

بينما هناك إضافات اندراجية متساوية وتمثالية . مثلاً : الإنسان ناطق  
عكسه صحيح أيضاً ، الناطق إنسان ، وهذه الإضافة يرمز إليها بـ ( = ) هكذا  
(  $a = b$  ) وهذا يعني أن كل ألف باء (  $a > b$  ) وكل باء ألف (  $b > a$  ) ورمز  
التساوي بين صنفين هو (=) بينما رمز التساوي بين القضيتين هو = مثلاً نقول :  
ق (  $a = b$  ) = ق (  $a > b$  ) ق . (  $b > a$  ) .

والملاحظ أننا وضعنا ( . ) بين القضيتين الأخيرتين فهي تعني جمع  
القضيتين .

هذا حديث عن العمليات والإضافات المنطقية يبقى أن نعرف المبادئ  
التي يعتمد عليها الحساب المنطقي . وكما قلنا سلفاً . الحساب المنطقي  
قسمان حساب الاصناف وحساب القضايا .  
**حساب الاصناف :**

من المبادئ الأساسية التي يعتمد عليها هذا الحساب هو عشر مبادئ  
ثابتة وأساسية ، ولكل منها رمز معين :  
١ - مبدأ الذاتية :

ويعني أن كل شيء هو نفسه ، أو بالآخرى مساو لنفسه . ويرمز بالطبع  
برمز = هكذا (  $a = a$  ) .  
٢ - مبدأ التناقض :

ويعني أنه لا يمكن جمع شيء ولا شيء في مكان واحد ، أو بالآخرى  
نتيجة هذا الجمع هو صفر . هكذا (  $a \wedge a = 0$  ) .

### ٣ - مبدأ الثالث المرفوع :

كل شيء إما هو في صنف أو في نقيضة - فألف اما ب أو لا ب - هكذا  
( $\bar{A} = 1$ ) .

### ٤ - مبدأ التعويض :

ويعني أن كل شيء تساوي كل شيء يمكن تبديله عنه وتعويضه به .  
فالإنسان ناطق . يمكن تعويضه بالناطق إنسان ويرمز اليه ( $ا + ب = ب + ا$ ) .

### ٥ - مبدأ التجميع :

وهو المبدأ الذي تجمع فيه بين حد وآخر برابطة ، مثلا : (إنسان وفنان)  
- ورمزها (أ ب) والحد (فنان عالم) ورمزها (ب ح) تجمعهما رابطة هي (عالم  
إنسان) ورمزها ع = أ فتكون النتيجة (أ ب) ح = أ (ب ح) ومثل آخر في عملية  
الجمع المنطقي (أما أحمر وأما أخضر) أو أصفر = أحمر أو (أما أخضر أو  
أصفر) ورمزها (ا + ب) ح = ا + (ب + ح) .

### ٦ - مبدأ الاستفراق :

بمعنى أن حداً يستغرق في حد آخر - مثلا : (إنسان أو فرس) وحيوان ،  
يستغرق في حد آخر هو (إنسان وحيوان - أو فرس وحيوان) ورمزها هكذا :  
(ا + ب) ح = ا ح + ب ح .

## ٧ - مبدأ تحصيل الحاصل :

وهو المبدأ الذي يشير إلى أن محتوى كلمة هو ، محتوى كلمة أخرى مثالها : إنسان وإنسان = إنسان ورمزها .

$$(A = A)$$

## ٨ - مبدأ الاستنفاد :

وهو المبدأ الذي يعني أن الشيء يساوي أفراده مثلاً : إنسان أو إنسان مهندس ، يساوي إنسان ورمزها :  $(A = A + B)$  .

## ٩ - مبدأ التبسيط :

وهو يعني أن الشيء يساوي بعض أفراده ، مثلاً : إنسان فنان بعض من إنسان إذاً فهو يساوي إنسان ، ورمزها :  $(A > B)$  .

## ١٠ - مبدأ التركيب :

ويقوم بتركيب حدين أو عمليتين . مثلاً : الحيوان بعض الأجسام والإنسان بعض الفنانين . إذاً الحيوان الإنسان بعض من الأجسام الفنانين .

( باعتبار أن الحيوان بعض من جسم . وباعتبار الإنسان بعض من فنان ) ورمزها :  $(A > B)$  .  $(C > D)$  .  $(A \cup B > C)$  .

## ١١ - مبدأ القاس :

هذا المبدأ يشير إلى أن المتضمن في شيء يساوي المتضمن منه ، فمثلاً : إذا كان الإنسان متضمناً في حيوان ، وكان الحيوان متضمناً في جسم ، فالإنسان إذاً ، متضمن في الجسم . ورمزها :  $(A > B)$  .  $(B > C)$  .  $(A > C)$  .

## الرموز في القضايا الحملية :

القضايا الحملية الأربع التي سبقت في المنطق الشكلي القديم . يمكن أن نعبر عنها بتعبير أرمزي وذلك اعتماداً على نظام الرموز الماضي . فلنبدأ بهذه القضايا واحدة واحدة :

١ - كل (أ هي ب) هذه القضية نرسم إليها بعدة طرق ، فنستطيع أن نقول : (أ > ب) ، كذلك يمكن أن نقول (أ ب = أ) باعتبار أن كل أفراد أ مندرجة في ب ، كما يمكن أن نقول :  $\bar{A} \bar{B} = 0$  ، إذن (أ) يساوي (ب) ولا يساوي لا ب ( $\bar{B}$ ) إذ ليس من أفراد (أ) ألا وهو (ب) وليس لا ب وعليه :

$$\text{كل (أ هي ب)} \equiv (A > B) \equiv (\bar{A} \bar{B}) .$$

٢ - القضية (لا أ هي ب) يمكن أن نرسم إليها هكذا :  $A > \bar{B}$  إذ ليس من الألف باء . إذاً كل ألف يساوي لا ب ويرمز إليه هكذا : ( $\bar{B} = A$ ) وأيضاً يرمز إليه هكذا : ( $A \bar{B} = 0$ ) .

فعليه :

$$(\text{لا أ هي ب}) \equiv (A > \bar{B}) \equiv (A \bar{B} = 0) .$$

٣ - القضية : بعض أ هي ب) قضية جزئية تنفي كلية متناقضة فهي تنفي القضية (لا أ هي ب) وهذه نرسم إليها هكذا : (أ)  $> B$  (ب) لهذا فالقضية الجزئية (بعض أ هي ب) ترمز إليها هكذا :

$$(A) > B \text{ أو هكذا : } (A \bar{B} \neq 0) .$$

٤ - أما القضية الجزئية السالبة (ليس بعض أ هي ب) يجب أن تنفي هذه القضية الموجبة الكلية التي ترمي إليها (أ > ب) ولهذا فيمكن أن نرسم للقضية الجزئية السالبة هكذا : (أ > ب) أو ( $A \bar{B} \neq 0$ ) .

## الجبر المنطقي :

إذا كان من الممكن تحويل الكلمات إلى رموز وتحويل القضايا إلى حسابات ، فإن من الممكن - أيضاً - الاستنتاج من القضايا بمعادلات جبرية وذلك وفقاً لواحدة من المعادلتين التاليتين :

١ - عبّر عن موضوعك في صيغة معادلات أو لا معادلات أحد طرفيها العدد صفر ، وهذا ممكن لأنه نستطيع عملياً تحويل أي معادلة إلى أن تكون نتیجتها الصفر ، وذلك بضرب كل طرف من طرفي المعادلة في مسلوب الطرف الآخر ، ثم نجمع حاصل الضرب ، ونجعل الناتج صفراً .

ومثال ذلك :

ألف - ١ = ب ، يعادل  $أب + أب = ٠$  .

باء - ١ # ب تعادل  $أب + أب #$  .

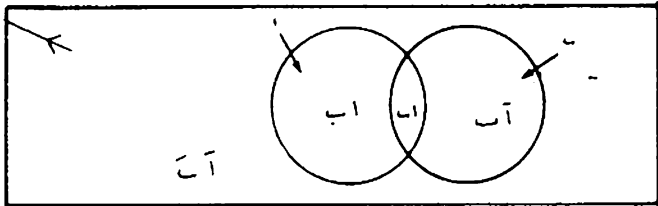
٢ - وفي تركيب المعادلات التي يكون أحد طرفيها العدد صفر ، اجمع دائماً ، ذلك لأن  $أ + ب =$  صفر تعادل الزوج :  $١ =$  صفر ، وب  $=$  صفر - أي ( لا أ هي ب ) - و ( لا ب هي أ ) فإذا يمكن جمع كل معادلة نتیجة العدد صفر مع معادلة أخرى مثلها ، وذلك دون أن نفقد شيئاً ، وذلك بعكس الضرب إذ معناه - لدى التدبر - هو اختيار الفرد المشترك بينهما ، وهو لا يوجد في كل واحد ، فالعلماء والشعراء لا يوجد في العلماء فقط ، ولا في الشعراء فقط ، بينما العلماء والشعراء يوجد في كل طائفة من طائفتي العلماء أو الشعراء .

## قواعد التجربة (فن) :

١ - نرسم دائرة أو مستطيل يمثل الوجود كله . لنجعله إطاراً لسائر الأشكال التي نرسمها للدلالة على سائر المصاديق وعلاقاتها ببعضها .

وأهمية رسم دائرة كبرى تمثل العالم أو الوجود والتي نرمز إليها بـ (أ) . هي إيضاح علاقة المصاديق ببعضها ، وبما يحوط بها من العالم .

ثم نرسم دوائر تبين علاقة المصاديق ببعضها . فمثلاً : في موضوع علاقة البحر بالزرق ، والتي هي علاقة قد توجد في البحر الأزرق ، وقد تنعدم في السماء الزرقاء أو البحر غير الأزرق . ( تتفق مرة وتنفك مرتين ) والتي نرمز إليها بـ (أ) و (ب) نرسمها هكذا :



الشكل المستطيل هو العالم ، الدائرة الأولى تمثل رمز الزرق (ب) والثانية رمز البحر (أ) . وهما مجتمعان في جزء هو (أ ب) ويفترقان في جزءين (أ ب) ، ويقرا لا أ - ب ، وأيضاً في (أ ب) ويقرا (أ ولا ب) . وبتعبير آخر يفترقان في الأزرق غير البحر وفي البحر غير الأزرق .

أما وراء الدائرتين فهو يعني الشيء الذي لا هو بحر ولا هو أزرق .

( الصحراء ) وهو الذي نرسم إليه  $\bar{A} \bar{B}$  .

إذاً الشكل السابق يمثل :

$$A = \bar{A}B + A\bar{B} + \bar{A}\bar{B} .$$

بعد هذا نبدأ برسم دوائر على ثلاثة صور بيضاء ومعلّمة وذات نجمة ، وكل صورة من هذه الثلاثة ذات مدلول .

١ - الدائرة البيضاء ، أو المساحة البيضاء من الدائرة ، تدل على السكوت عن محتواها . هل هي موجودة أم لا ؟

٢ - الدائرة المعلّمة ، ( أو مخطّطة ) أو المساحة المعلّمة من الدائرة ، تدل على أنها غير موجودة ، ( منفية / سالبة ) .

٣ - الدائرة ذات النجمة ، أو المساحة الموضوعية فيها النجمة ، تدل على أنها موجودة .

وكمثل إذا قلنا : « كل إنسان حيوان » فهذا يدل على أن لا إنسان غير حيوان ، كما أن القضية ساكنة : ( منفية / سالبة ) عما إذا كان كل حيوان إنسان أم لا .

ولدى الرسم : نرسم مساحة بيضاء للدلالة على السكوت عن أن كل حيوان إنسان أم لا .

ونرسم مساحة معلّمة للدلالة على أنه ليس هناك إنسان غير حيوان .

ونرسم مساحة ذات نجمة للدلالة على أن بعض الإنسان حيوان .

وإذا أردنا أن نرسم كل القضايا الأربع (  $A$  /  $B$  /  $D$  /  $S$  ) والتي رموزها هي التالية :

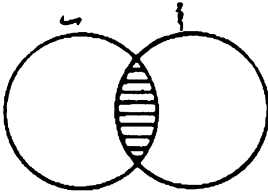
ك كل  $A$  هي  $B$  /  $\bar{A}\bar{B}$  = صفر .

ل لا اهي ب / ا ب = ٠ .

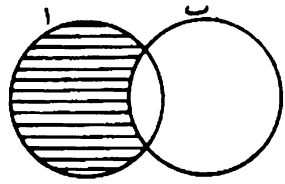
ب بعض اهي ب / ا ب # صفر .

س بعض اليست ب / ا ب # .

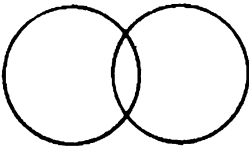
إذا أردنا أن نرسمها وفق المقياس السابق فسوف تكون الأشكال هكذا :



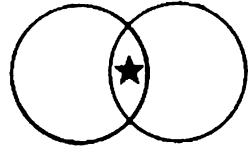
ل لا اهي ب / ا ب = صفر .



كل اهي ب / ا ب = صفر .



بعض اليست ب / ا ب = صفر .



بعض اهي ب / ا ب = صفر .



بهذه الطريقة نستطيع أن نكتشف مقدار المعلوم ومقدار المجهول من القضايا الأربع .

وبهذه الطريقة نكتشف مدى صحة الاستدلال المباشر ، ويمكن سد الثغرة التي كانت موجودة في الاستدلال المباشر في المنطق القديم . كيف ذلك ؟ نحن بحاجة إلى معرفة عدة حقائق ، قبل أن نكتشف هذه الثغرة .

١ - المنطق القديم لم يكن يتحدث عن الأشكال بعيدة عن الواقع ، إذ مع حذف الواقع ، لا يبقى أي سبب لإستحالة اجتماع المتناقضين وارتفاعهما ، أو اجتماع المتضادين ، أتري ، ما هي العلة في استحالة اجتماع العمليتين التاليتين ؟ كل عنقاء حيوان ، ليس من العنقاء بحيوان ، إذا كانت العنقاء أساساً لا وجود لها ولم يمكن افتراض وجودها .

٢ - ولا يتحدث المنطق القديم عن القضايا وما أشبه بشرط الوجود الخارجي ، لها أيضاً . فليس من الضروري وجود الحكومة الديمقراطية ، خارجاً حين نقول : كل حكومة ديمقراطية ، تؤمن بمبدأ الإنتخاب .

٣ - فما هي إذاً علاقة الصور والأشكال والقضايا و . و . بالواقع الخارجي . . ؟

إنها علاقة افتراض وجوده ، أي على أساس وجود عنقاء لا يمكن أن تكون وإلا تكون من صنف الحيوان .

ولذلك لا تحتاج القضايا في المنطق القديم إلى الاستقراء التجريبي . بل يجوز أن يخلق المنطقي على نفسه الأبواب ، ويضع أشكالاً منطقية تنبع أشكالاً .

٤ - إلا أن افتراض الوجود قد يورطنا في مطب منطقي . وذلك في المثل التالي :

إذا قلنا : ( لا رياضي اكتشف طريقة تربيع الدائرة ) فهل هذه القضية

صحيحة أم لا ؟ بالطبع صحيحة . ولكنها تصبح أغلوطة إذا أجرينا عليها عدة عمليات من الاستدلال المباشر ، فقلنا :

( عند العكس المستوي ) لا واحد من الذين اكتشفوا طريقة لتربيع الدائرة هو لا رياضي .

( عند العكس المستوي ) بعض اللا رياضيين اكتشف طريقة لتربيع الدائرة .

هنا بالطبع نصل إلى الأغلوطة ، فهل اكتشف بعض الناس طريقة لتربيع الدائرة ( أي جعل الدائرة مربعة ) ؟ .

ويبقى سؤال : هل تجنب المنطق الرمزي هذه المغالطة ؟ يجيب أنصار هذا المنطق بـ (نعم) والسبب ، يقولون : إن المنطق الرمزي يلاحظ جانب الوجود في العكس . فلا يعكس مطلقاً ، بل فقط إذا كان العكس في ذات القضية . موجوداً . وفي مثلنا السابق ، لا يعكس المنطق الرمزي قضية لا رياضي اكتشف طريقة لتربيع الدائرة . إذ أن هذه القضية لا تحمل في ذاتها مفهوم عكسها بل تنطلق فقط بظاهاها ، وهو لا رياضي اكتشف طريقة لتربيع الدائرة بعكس القضية ليس من الحمار بإنسان . فإنها تحمل في ذاتها عكسها وهو ليس من الإنسان بحمار وبتفصيل أكثر :

١ - هناك قضايا لا تضمن الوجود الخارجي مثل قضية (ك)  $A \neq B$  . إذ لا تعني هذه القضية إلا شيئاً واحداً هو أنه لا يوجد أي شيء ينتسب إلى الصنف (أ) ولا ينتسب إلى الصنف (ب) ، وتسكت القضية عن وجود موضوعات تنتسب إلى كلا الصنفين .

ومثل آخر : القضية (ل)  $A \neq B$  ، تعني أنه لا يوجد أي موضوع ينتسب إلى  $A$  ب معاً دون أن يقول بالطبع ، هل هناك موضوعات تنتسب إلى واحدة منهما .

٢ - وهناك قضايا تتضمن الناحية الوجودية فمثلاً القضية (ب) أ ب # صفر ، تحدثت عن «وجود» صنف ينتسب إلى : أ ب معاً . وبالضبط تحدثت عن «عدم» فراغ الصنف الذي ينتسب إلى أ ب معاً .

كذلك قضية (س) أ ب # صفر ، نقول بوجود موضوعات تنتسب إلى أ دون أن تنتسب إلى ب .

بعد هذا التقسيم نقول : الاستدلالات أقسام منها صحيحة ، ومنها غير صحيحة .

أ - الاستدلال المتقابل بالتناقض صحيح فمثلاً : إذا صَحَّت القضية أ ب = صفر ، فلا بد أن تكون القضية المتناقضة معها كاذبة ، وهي قضية أ ب # صفر . كما أن القضية أ ب # إذا كانت صحيحة القضية أ ب = صفر كاذبة ، لماذا ؟ لأن هاتين القضيتين متعارضتين في الوجود والعدم الأولى نقول : ليس من فئة تنتسب إلى أ ب ، والثانية نقول : كل فئة تنتسب إلى أ تنتسب إلى ب .

وكذلك القضية أ ب = صفر ، تتناقض مع قضية أ ب = صفر . فإذا صدقت إحداهما كذبت الأخرى ، وعليه فيمكننا أن نستدل استدلالاً مباشراً من قضية على عكسها المتناقض معها .

ب - أما الاستدلال بالتضاد ، فهو غير صحيح ، إذ يمكن أن يجتمع الضدان في العدم . فلا يكون أحدهما موجوداً أبداً .

فيمكن أن يكون الشيء أحمر أو أزرق ، كما يمكن أن يكون أصفر ، أي لا أحمر ولا أزرق . فإذا لم يكن الشيء أحمر لا يعني أنه سيكون أزرق .  
وبتعبير رمزي :

إذا كانت أ = صفر ، فإن ب # صفر .

∴ ب = صفر ∴ ا ب = صفر<sup>(١)</sup> .

ج - أما العكس البسيط فهو سيكون صحيحاً ، لأنه ليس إلا تعبيراً آخر عن القضية المعكوسة . وكذلك نقض المحمول . الذي ليس هو الآخر إلا تعبيراً آخر عن ذات الفكرة .

### حساب القضايا :

حساب القضايا هو نوع من حساب الأصناف . إذ يمكن أن نجري عليه ذات القواعد ، والرموز ، التي أجريناها على حساب الأصناف ، مع فارق أن الرمز في حساب الأفراد يدل على صنف ، بينما في حساب القضايا يدل على القضية .

فمثلاً كنّا سابقاً نقول : أ ، ب ، ج ، ونعني صنف الإنسان والحيوان . ولكنّا إذا استخدمنا ذات الرموز في حساب القضايا ، فإننا سنعني بها أصناف أنواع القضايا .

فلو قلنا : (أ) يساوي الإنسان . و (آ) يساوي لا إنسان ففي القضايا : (أ) يساوي القضية صادقة و (آ) يساوي القضية كاذبة . إلا أن هناك بعض القواعد الإضافية والرموز الإضافية جعلت حسب القضية فصلاً بذاته . وقبل أن نبين هذه القواعد والرموز نحتاج إلى :

---

(١) هذا في حالة أن يكون ١ = صفر ، إذ آنثذ يكون . ا ب = صفر و ا ب = صفر أما إذا كنا نعلم بوجود صنف ١ بمعنى إذا كان ١ - صفر فإن المعادلة تتغير ويمكن الاستدلال آنثذ إذ يكون ا ب = صفر متضمناً ا ب = صفر ، ويكون ا ب - صفر تتضمن ا ب - صفر . ومن هنا نستنتج أنه إذا كانت ا ب ت صفر وكانت ١ = صفر فإن ا ت - صفر وذلك لأنه إذا كانت ا ب = صفر ( - ٤ - ) وكانت ١ - صفر فإن ت - صفر إذ ا ت - صفر ا - ت - صفر - صفر ا ت - صفر .

## القضايا والدوال القضائية :

١ - إذا كان الإنسان فاني ، فإن الحياة تنقرض .

إذا كان الله فاني ، فإن الحياة تنقرض .

إذا كان العدد ٧ فاني فإن الحياة تنقرض .

هذه ثلاث قضايا نرزم إليها جميعاً بهذه الرموز :

« إذا كانت أ هي ب ، فإن ح هي د » ، إنك ترى أن رمزي (أ) و (ب) هما رمزان متغيران ، فقد يكونان صادقين كالمثل الأول ، إذ الإنسان يفنى ، وقد يكونان غير ذلك كالمثل الثاني والثالث .

إلا أن علاقة الرموز ببعضها ، ستظل ذات العلاقة ، إنما مفهوم الرمز . أو مدلول الرمز يتغير ، وتبعاً لهذا التغير : تصبح القضية صادقة أو كاذبة .

والتعبير التي تدل على الأشياء ، وهي بدورها قد تصدق وقد تكذب ، هذه التعبيرات تسمى بـ (الدوال) لأن وراءها مدلولات ، أو قيم متغيرة ، وغير ثابتة ، وتسمى هذه النوعية من القضايا بالدوال القضائية .

٢ - في مقابل هذا النوع من القضايا نوع آخر ، تسمى بـ ( القضية ) بالمعنى الضيق ، وهي ليست سوى علاقات لا بد أن تصدق دائماً أو تكذب دائماً ، مع قطع النظر عما تدل عليها هذه العلاقات من أشياء وراءها .

تماماً كعلاقة الكل بالجزء ، والنقيض بالنقيض ، والضد بالضد ، وحيث أن هناك « قوانين جبرية » تحكم هذه العلاقة مع قطع النظر عن طبيعة الكل والجزء . . . كان إنسان أم حيوان أم حجر ، وتسمى هذه القضية بـ ( الجبر ذو القيمتين ) .

وسوف نستعرض بعض قوانين هذا الجبر . لأهميته .

## عن القضية :

الجبر الذي يحكم هذا النوع من القضايا هو أن (أ أما = صفر ، أو = ١)  
( أي صنف ألف أما صفر أو موجود ) وكل الأنظمة الرمزية التي سبق وأن قلناها في  
حساب الأصناف تأتي هنا ، اللهم إلا في طبيعة الرموز ، التي لا بد أن نستخدم  
عليها بعض الرموز لنفرق بين حساب الأصناف ، وحساب القضايا . وهذه هي  
التالية :

١ - في حساب الأصناف كنا نستخدم أ ب ج ، أما هنا ، فنقول :  
ق ت ص .

٢ - وهناك كنا نستخدم أ ٠ للدلالة على سالب ١ ، وكنا نقرأ لا أ أما هنا  
فنستخدم - ونقرأه لا قضية .

٣ - وللدلالة على أن صنفاً هو داخل في صنف آخر ، كنا نرمز هكذا  
 $A > B$  .

أما هنا نرمز للدلالة على علاقة قضية بأخرى في الصدق والكذب ، وإنها إن  
كانت صادقة تلك ، كانت هذه صادقة ، وإذا كانت كاذبة ، كانت هذه أيضاً  
كاذبة ، فنكتب هكذا (ق) ت (ق) ت .

٤ - وفي مكان أ + ب ، التي تدل على معنى نكتب ق ٧ ت ، للدلالة على  
أن إحدى القضيتين صادقة إما ق أو ت .

٥ - وبدلاً من العلامة  $A = B$  ، الدالة على التساوي ، نضيف إلى رمز  
التساوي خطأً قصيراً هكذا  $\equiv$  وترمز إلى أن (ق) تكافئ (ت) في الصدق  
والكذب .

## الدوال القضائية :

أما القسم الأول من نوعي القضية فإن فيها كما سبق ، جزءان . جزء ثابت وهو الجزء الذي يبين علاقة الرمز بالرمز ، وجزء متغير وهو الذي يدل على القيم التي وراءها . وللدلالة على الجزء الثابت من الدالة القضائية يستخدم الرمز (F Y Q) أو (د . د . ر) ، كما يستخدم للدلالة على الجزء المتغير من الدالة القضائية رمز : (X. Y. Z.) أو (س . ص . ع) .

وتبعاً لجزئي القضية « الثابت » و « المتغير » ، يمكن أن توصف القضية بالصدق أو الكذب . فبالنسبة إلى الجزء الثابت ، تصبح حالة الدالة القضائية ، كحالة الجبر ذو قيمتين ( النوع السابق ) ، حيث تتصف الدالة القضائية بالصدق دائماً أو الكذب دائماً . فمثلاً : لا يمكن أن تكون القضيتان التاليتان إلا كاذبة دائماً ، أو صادقة دائماً .

إذا كانت الشمس طالعة فالنهار موجود ، إذا كانت الشمس طالعة ، فالنهار غير موجود . لأن إحداهما ضد الأخرى . أما بالنسبة إلى الجزء المتغير من الدالة القضائية ، فإن اتصافها بالصدق أو الكذب ، مرتبط بقيم القضية ، فأحياناً تكون صادقة ، وأحياناً كاذبة ، ونرمز إليها آنشيد ب (س . د . س دائماً ، أو د . س أحياناً) بالنسبة إلى الصدق . أو نقول : (س . د . س دائماً . أو د . س أحياناً) ، بالنسبة إلى الكذب . يعني كاذبة دائماً أو أحياناً . ولا فرق في الدالة القضائية بأن تكون الرموز فيها دالة على أسماء أو أوصاف ، إذ إنها هي الأخرى قد تكون صادقة أو كاذبة .

وقد وضع رسل (Ruessll) رمزين لحاصل الضرب المنطقي . وهما (X Q X) .

١ - لحاصل الضرب المنطقي ، ويمكن ترجمته ب ( «س» . د . س ) أي

صادقة بالنسبة إلى كل قيم (س د س) .

٢ -  $X Q X E$  ، لحاصل الجمع المنطقي ويمكن ترجمته بـ  
( «م س» . د س ) يعني أن د س ، صادقة بالنسبة إلى أشياء كاذبة بالنسبة إلى  
أشياء أخرى .

فمثلاً : إذا كانت قيمة الدالة القضائية : هو الناطق ( يرمز إليه بـ «د» في الدالة  
القضائية » .

فإن الدالة القضائية «(س) . د س ، تعني أن كل شيء هو ناطق . بينما  
( م س ) . د س» تدل على أن هناك أشياء ناطقة ( أي الإنسان ) .

وكل القوانين والأنظمة الرمزية التي تحدثنا عنها سابقاً ، بالنسبة إلى  
الأصناف ، صالحة للدالة القضائية ، لأنها يمكن اعتبارها صنفاً من الأصناف .





## المصادر الجينية

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - بحار الأنوار ، للعلامة محمد باقر المجلسي : الجزء الأول ، الطبعة الثانية .
- ٣ - بحار الأنوار ، للعلامة محمد باقر المجلسي : الجزء الثاني ، الطبعة الثانية .
- ٤ - بحار الأنوار ، للعلامة محمد باقر المجلسي : الجزء الخامس ، الطبعة الثانية .
- ٥ - بحار الأنوار ، للعلامة محمد باقر المجلسي : الجزء الرابع عشر ، الطبعة الثانية .
- ٦ - بحار الأنوار ، للعلامة محمد باقر المجلسي : الجزء الخامس عشر ، الطبعة الثانية .
- ٧ - بحار الأنوار ، للعلامة محمد باقر المجلسي : الجزء السابع عشر ، الطبعة الأولى .
- ٨ - بحار الأنوار ، للعلامة محمد باقر المجلسي : الجزء السابع والسبعين ، الطبعة الثانية .

- ٩ - ميزان المطالب ج طهراني ، الجزء الأول والثاني ، الطبعة الثانية .  
 ١٠ - بحوث في العلم ، العلامة محمد كاظم المدرسي ، مخطوط .  
 ١١ - بحوث في القرآن الحكيم والفكر الاسلامي ، مواجهة حضارية  
 للمؤلف .

- ١٢ - الكافي ، للعلامة الكليني .  
 ١٣ - غرر الحكم .  
 ١٤ - الجعفریات .  
 ١٥ - لثالي الاخيار .  
 ١٦ - مكارم الأخلاق .  
 ١٧ - مستدرک وسائل الشيعة ، للعلامة النوري ، الجزء الثالث .  
 ١٨ - المستطرف .  
 ١٩ - وسائل الشيعة ، للعلامة العاملي ، الجزء الخامس .  
 ٢٠ - خصائص التصور الإسلامي ، للسيد قطب .  
 ٢١ - منية المريد ، للشهيد الشيخ زين الدين العاملي .  
 ٢٢ - سفينة البحار ، للعلامة الشيخ عباس القمي ، الجزء ان .  
 ٢٣ - الطفل بين الوراثة والتربية ، للعلامة محمد تقي الفلسفي .  
 ٢٤ - مصادر نهج البلاغة ، للسيد عبد الزهراء .

## المصادر العلمية

- ٢٥ - علم الاجتماع والفلسفة ، الدكتور قباري محمد اسماعيل ، ثلاثة  
 أجزاء .  
 ٢٦ - المنطق الصوري ، منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة ، د .  
 علي سامي النشار .  
 ٢٧ - المنطق نظرية البحث ، جون دبوي ، ترجمة د . زكي نجيب  
 محمود .

- ٢٨ - نشأة الفلسفة العلمية ، هانز ريشنباخ .
- ٢٩ - المنطق الحديث ومناهج البحث ، د . قاسم .
- ٣٠ - مبادئ علم النفس العام ، د . يوسف مراد .
- ٣١ - أصول البحث العلمي ومناهجه ، د . أحمد حيدر .
- ٣٢ - مناهج البحث العلمي ، د . عبد الرحمن بدوي .
- ٣٣ - عصر الإيديولوجيات ، هنري أيكين .
- ٣٤ - الإنسان ذلك المجهول ، الكسيس كاريل .
- ٣٥ - مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي .
- ٣٦ - ديمقراطية القومية العربية ، د . محمد عبد الله العربي .
- ٣٧ - رينه ديكرارت .
- ٣٨ - غسل الدماغ ، د . فخري الدبّاغ .
- ٣٩ - اللا متاعي ولسن .
- ٤٠ - الثائرون يريان كروزير .
- ٤١ - المادية الجدلية والمثالية البرجوازية ، برتراند رسل وآخرون .
- ٤٢ - العمل والمخ .
- ٤٣ - مغامرات العقل ، س . أهاباكاوا استاذ فنون اللغة في جامعة سان فرانسيسكو .
- ٤٤ - لمن ترهقهم الحياة ، هارولد فينك .
- ٤٥ - صفة العلم .
- ٤٦ - التفكير ، د . سيد أحمد عثمان ، ود . فؤاد عبد اللطيف .
- ٤٧ - نظريات الشخصية - المقدمة - للمؤلفين : د . هول ، وج .
- لندزي .
- ٨٤ - مبادئ الإحصاء عبد المنعم ناصر الشافعي .

٤٩ - مقدمة في الاحصاء الاجتماعي .

٥٠ - مجلة عالم الفكر - الكويتية - ١٩٧٤ ، المجلد الخامس ، العدد

الأول .

٥١ - المنطق الصوري والرياضي ، د . عبد الرحمن بدوي .

## مقدمات الكتاب



العنوان .....	الصفحة
المقدمة .....	٥ - ٢٢
كلمة الى رجال الدين .....	٨
الحدود الغامضة بين الاصاله والتقليد .....	٨
الغلو في الدين حرام .....	١٠
الاسلام دين التطور .....	١١
مسؤولية رجال العلم .....	١٥
هل العقل في اجازة ؟ .....	١٦
من اجل شخصيتنا الضائعة .....	١٩
المنطق وسيلة التقييم السليم .....	٢٠
بحوث تمهيدية .....	٢٥ - ٣٩
السؤال الحائر .....	٢٥
المنطق تعريف الكلمة وتعريف العلم .....	٢٩
تعريف أرسطو .....	٣٢
نقد التعريف .....	٣٣
تعريف مناطقة بورت رويال .....	٣٣
تعريف ديوي .....	٣٤
نقد التعريف .....	٣٦



٣٦	علم المناهج
٣٧	العلاقة بين الفلسفة والمنطق
٤١	فصول الكتاب ومنهجه العام
٤٩ - ٤٥	القسم الأول - تطور البحث المنطقي
٤٧	كلمة البدء
٦٤ - ٥١	البحث الأول - المنطق الاغريقي
٥٣	كلمة البدء
٥٤	سقراط
٥٥	افلاطون وارسطو
٥٧	تعريف الجنس
٥٨	المنطق بعد ارسطو
٥٩	المنطق الرمزي
٦٠	تقييم منطق ارسطو
٦٣	المسلمون والمنطق الاغريقي
١١٠ - ٦٥	البحث الثاني - المنطق الحديث
٦٧	كلمة البدء
٦٨	عوامل تطور المنطق
٦٨	بماذا عاد المنهزمون ؟
٦٩	حين استقر الفاتحون
٦٩	سقوط قسطنطينيه
٧٠	يكون
٧١	اخطاء الفلسفة القديمة
٧٣	المذهب الديكارتي في المنطق
٧٤	منهج ديكارت
٧٥	التحليل
٧٥	التدرج
٧٦	الاستقراء

٧٦	اختلاف المناهج في العلوم
٧٩	المنهج الديكارتي في الفكر الاوربي
٨٠	الصفات والرغبات النفسية
٨١	ديكارت يدخل في الفكر الاوربي
٨٣	معرفة العلم بالعلم - اسبينوزا
٨٤	ملاحظات على منهج - اسبينوزا
٨٥	لا بيتس
٨٧	لوك والقيمة الحسية
٨٨	اهمية التقسيم
٨٨	دور اللغة
٩٣	كانت وبرمجة التفكير البشري
٩٩	اخطاء كانت
١٠١	فيخته
١٠٣	شبلنك
١٠٥	نظرية هيغل
١٣٧ - ١١١	( البحث الثالث ) اتجاهات المنطق الحديث
١١٣	كلمة البدء
١١٣	اسئلة تبحث عن جواب - عن السؤال الأول
١١٥	عن السؤال الثاني
١١٦	عن السؤال الثالث
١١٧	المنطق الاستنباطي
١٢٢	المنهج التجريبي
١٢٧	الجمع بين التجربة والاستنباط
١٣١	المنطق الاجتماعي
١٣٧	وكلمة اخيرة
١٣٩	آراء في المنطق الحديث
١٨٢ - ١٤٥	( القسم الثاني ) اصول المنطق الاسلامي

١٤٧	( البحث الأول ) هل للإسلام منطق ؟
١٥٠	( البحث الثاني ) والمنطق الاسلامي
١٥٢	( البحث الثالث ) ميزات المنطق الاسلامي ١ - الارضية الصلبة
١٥٣	٢ - الشمول / العقل
١٥٤	النص - التجارب
١٥٩	( البحث الرابع ) ركائز المنطق الاسلامي
١٥٩	ما هو العقل
١٥٩	تعريف العقل - ما هي الشهوة المفارقة بين العقل والشهوات
١٦١	الدليل الى العقل
١٦٢	كيف يعرف العقل ؟
١٦٥	التنبيه سبيل العقل
١٦٩	قبسات من حديث الرسول عن العقل
١٧٠	العقل والشخصية المتكاملة - بين العقل والعلم
١٧١	بين الحلم والعلم
١٧٢	بين العلم والرشد - بين الرشد والعفاف
١٧٣	بين العفاف والصيانة - بين الصيانة والحياء
١٧٤	بين الحياء والرزانة - بين الرزانة والمداومة على الخير
١٧٥	بين المداومة على الخير وكراهية الشر - بين كراهية الشر وطاعة الناصح
١٧٥	سؤال اخير
١٧٧	( البحث الخامس ) الثقة مفتاح العقل
١٧٩	التوكل ثقة لا تحد
١٨١	نصوص اسلامية في التوكل
١٨٣ - ١٩٥	( البحث السادس ) بين العلم والهوى
١٨٥	بين العلم والهوى
١٨٦	بين العلم والشهوات
١٨٦	أهمية الحق والعدل
١٨٨	الانسان بين العلم والهوى - مفارقة الهوى عن العلم

١٩٠	شعوات الهوى .....
١٩٢	لا .. لاحتجابات الهوى .....
١٩٢	بين العلم والقطع .....
٢١٤ - ١٩٧	( القسم الثالث ) كيف نتجنب الخطأ .....
١٩٨	( البحث الأول ) العوامل النفسية للخطأ .....
٢٠١	كلمة البدء .....
٢٠٣	بين الغرائز والهوى .....
٢٠٥	الجنور النفسية للخطأ .....
	ألف - الحب
٢٠٧	النتائج ١ - حب الذات .....
٢٠٧	٢ - أسلوب العرض - ٣ - حب الفكرة .....
٢١٠	٤ - حب الآباء .....
٢١٠	٥ - حب البيئة - ٦ - حب السلف .....
	باء - فقد الثقة
٢١١	النتائج = الانغلاق .....
٢١٢	٢ - الذوبان في الشخصية .....
	جيم - التسرع
٢١٣	٣ / الأفكار الجاهزة .....
٢٣١ - ٢١٥	( البحث الثاني ) وراثة الأفكار .....
٢١٧	وراثة الأفكار .....
٢١٩	التربية ووراثة الأفكار - تاريخ الأسر التبني وأهمية التربية .....
٢٢١	التربية والتصرفات المؤثرة .....
٢٢٩	بماذا يستمر تأثير الوالدين .....
٢٢٩	الإسلام واتباع الآباء .....
٢٦٢ - ٢٣٣	( البحث الثالث ) التوافق الاجتماعي .....
٢٣٦	كلمة البدء - لا .. للحتمية الاجتماعية .....
٢٣٩	عوامل تأثير الاجتماع .....

٢٤٠	التجمع .. الحشد .....
٢٤١	قوة التجمع .....
٢٤٢	مصدر قوة التجمع .....
٢٤٣	التوافق والحياة .....
٢٤٥	الانتهاء .....
٢٤٨	المجتمع .....
٢٥١	الموى = جذر الغريزة الاجتماعية .....
٢٥٥	عملية غسل الدماغ .....
٢٥٦	نظرية عامة الى غسل الدماغ .....
٢٥٩	عملية غسل الدماغ واسلحة التأثير .....
٢٩١ - ٢٦٣	( البحث الرابع ) بين الخطأ والانحرافات النفسية .....
٢٦٥	ما هي الغرائز .....
٢٧١	بين الغرائز والصفات السيئة .....
٢٧٢	الاحساس بالضعف .....
٢٧٦	بين الرذائل والاحساس بالضعف .....
٢٨٠	بين شذوذ النفس واطعائه التفكير .....
٢٨٦	الغرور العلمي .....
٢٨٩	العامل الاقتصادي .....
٣١٠ - ٢٩٣	( البحث الخامس ) بين الخطأ والعوامل المادية « البيولوجية » .....
٢٩٥	كلمة البدء .....
٢٩٦	لماذا نذكر بالعوامل المادية .....
٢٩٧	ما هي العوامل المادية كيف تؤثر العوامل المادية .....
٢٩٩	الغدة الدرقية واثرها في الفكر .....
٣٠٠	هل تتحول الفلسفة الى فيزياء .....
٣٠١	اثر المناخ الطبيعي على الفكر - اثر الوراثة على الفكر .....
٣٠٤	الفوارق العرقية .....

٣٠٤	.....	اثر مرحلة الانجاب على الفكر
٣٠٥	.....	الغباء الطبيعي
٣٠٦	.....	النصوص الدينية والعوامل المادية
٣٠٨	.....	وضع الجسم اثناء البحث
٣١١ - ٣٦٦	.....	( القسم الرابع ) كيف نختار المنهج السليم ؟
٣١٣	.....	كلمة البدء
٣١٥	.....	اخطاء المنهج
٣١٧	.....	تحويل المناهج لصالح النظرية
٣٢٥	.....	البحث بلا هدف
٣٣١	.....	البحث عن حقيقة واضحة
٣٣٤	.....	البحث عن المستحيل
٣٣٦	.....	الحذر من الخطأ
٣٣٧	.....	القصد بين التركيب والتحليل
٣٤٠	.....	المنهج المناسب وقاية عن الخطأ
٣٤٢	.....	عندما نكفر بمنهج ؟
٣٤٥	.....	بين الذكاء والتفكير - ما هو الذكاء
٣٥١	.....	الذكاء وحده لا يغني
٣٥٤	.....	لكي لا تخدعك الفاظك
٣٥٩	.....	الخطأ اللفظي
٣٦٣	.....	ظروف الباحث
٣٦٥	.....	نشئت الفكر
٣٦٧ - ٣٦٨	.....	القسم الرابع ( مناهج الاستقراء
٣٦٩ - ٣٨٦	.....	( البحث الأول ) بحوث تمهيدية
٣٧١	.....	كلمتان في البدء
٣٧٢	.....	تعاريف اولية
٣٧٣	.....	عن المناهج - المحمول
٣٧٤	.....	الرابطه

٣٧٦	تقسيمات مناهج الاستقراء
٣٧٩	مراحل التفكير
٣٨٠	ما هو الاستقراء
٣٨٢	الاستقراء بين الذوق والعقل
٣٨٤	الاستقراء الفطري كيف ولماذا ؟؟
٣٨٧ - ٣٩٤	( البحث الثاني ) الملاحظة
٣٨٩	ما هي الملاحظة
٣٩١	الملاحظة العلمية
٣٩٢	الملاحظة بين الكم والكيف
٣٩٣	الاسلام والملاحظة
٣٩٥ - ٤١٦	( البحث الثالث ) الفرض
٣٩٧	ما هو الفرض ؟
٣٩٨	الهدف من الفرض
٣٩٩	حقيقة الفرض
٤٠٢	الفرض تاريخيا
٤٠٤	وظيفة الفروض
٤٠٦	انواع الفروض
٤٠٩	الصياغة العلمية للفروض - الاقتصاد في وضع الفروض
٤١٠	الفروض وبصيرة التناسب
٤١٢	بين النظرية والفروض - الف تعريف النظرية بآء تركيبة النظرية
٤١٤	جيم = وظائف النظرية
٤١٧ - ٤٣٨	( البحث الرابع التجربة )
٤١٩	كلمة في البدء
٤٢٠	التجربة والعقل - أسس التجربة
٤٢٢	بين التجربة والملاحظة
٤٢٤	التجربة بين التحديد والاحتمال
٤٢٤	التجربة السلبية

٤٢٦	التجربة الموضوعية
٤٢٧	مفارقات التجربة
٤٢٨	طرق التجربة
٤٢٩	الطرق الاستقرائية
٤٣٠	لوائح «يكون» و«منهج» و«مل»
٤٣٠	منهج الاتفاق
٤٣٣	منهج الاختلاف
٤٣٥	طريقة التلازم في التغيير
٤٣٧	طريقة البواقي
٤٣٩ - ٤٦١	( البحث الخامس ) القانون
٤٤١	التجربة وضمان الاطراد
٤٤٥	نظرية « السنة الالهية »
٤٤٨	بين السبب والقانون
٤٥٦	القانون
٤٥٧	القوانين الوظيفية
٤٥٨	القوانين المقترنة
٤٥٨	صياغة القوانين
٤٦٣ - ٤٦٤	( القسم الخامس ) مناهج العلوم الانسانية
٤٦٥ - ٤٧٤	( المناهج الاجتماعية ) البحث الأول
	بحوث تمهيدية
٤٦٧	بماذا تميزت هذه المناهج ؟
٤٦٨؟	علم الاجتماع ما هو ؟
٤٧٠	ما هي مناهج علم الاجتماع - دوركايم والمنهج الاجتماعي
٤٧١	مناهج دوركايم - منهج المقارنة
٤٧٢	منهج التغييرات المتساوية
٤٧٣	طريقة البواقي
٤٧٥ - ٥٠٦	( المناهج الاجتماعية - البحث الثاني ) تفصيل المناهج الاجتماعية



٤٧٧	.....	كلمة البدء
٤٨٠	.....	الف المسح
٤٨١	.....	أقسام المسح
٤٨٢	.....	باء « الاحصاء »
٤٨٣	.....	جمع البيانات الاحصائية
٤٨٣	.....	أول تصميم العينة
٤٨٥	.....	ثانياً أدوات تجميع البيانات
٤٨٦	.....	الاستبيان
٤٨٧	.....	المقابلة
٤٨٨	.....	الملاحظة
٤٩٠	.....	اخطاء الملاحظة
٤٩١	.....	عيوب الملاحظة - تجهيز البيانات الاحصائية
٤٩٢	.....	الف « المراجعة » باء « التصنيف » جيم الترميز
٤٩٤	.....	دال محصلة الاحتمالات
٤٩٥	.....	المتوسط الحسابي
٤٩٦	.....	تحليل البيانات
٤٩٨	.....	حساب الاحتمالات في الاحصاء
٤٩٩	.....	العينة - الوثائق الشخصية
٥٠٢	.....	الوثائق - دراسة الحالة
		( القسم السادس ) عن مناهج التاريخ
٥١٩ - ٥٠٧	.....	( دراسة مناهج التاريخ - البحث الأول ) بحوث تمهيدية
٥٠٩	.....	ما هو التاريخ - موضوع على التاريخ
٥١٠	.....	الهدف من دراسة التاريخ
٥١٢	.....	العلم بالماضي
٥١٦	.....	التاريخ وفلسفة الحياة
٥١٨	.....	علاقة المناهج بالاحداث
٥٥٩ - ٥٢١	.....	( البحث الثاني ) دراسة الوثائق التاريخية

٥٢٣	.....	كلمة البدء
٥٢٤	.....	انواع من الوثائق
٥٢٧	.....	عقبات في طريق الوثائق
٥٢٨	.....	العلوم المساعدة
٥٣٢	.....	نقد الوثائق
٥٣٣	.....	المرحلة الأولى نقد الوثيقة مادياً
٥٣٨	.....	المرحلة الثانية دراسة لغة الوثيقة
٥٣٨	.....	المرحلة الثالثة
		التزوير والتحريف
٥٣٩	.....	انتساب الوثيقة الى اصحابها
٥٤٢	.....	التحريف
٥٤٣	.....	كيف نكتشف التحريف
٥٤٤	.....	شخصية صاحب الوثيقة
٥٤٦	.....	دواعي الكذب والسهو دواعي الحسد والمصلحة الشخصية
٥٤٧	.....	٢ - الاضطراب
٥٤٨	.....	٣ - الانتهاء ثانياً دواعي السهو
٥٤٩	.....	١ - عدم الامكانية
٥٥٠	.....	٢ - العقدة والعقيدة
٥٥٠	.....	٣ - التفاوضية والتشاورية - ٤ - النقل غير المباشر
٥٥٣	.....	كيف نفهم لغة الوثيقة ؟ ١ - المعاجم
٥٥٥	.....	٢ - السياق
٥٥٦	.....	٣ - المقارنة
٥٥٧	.....	٤ - القياس الى لغة العصر
٥٥٨	.....	٥ - لحن القول
٥٦١ - ٥٨٢	.....	( دراسة مناهج التاريخ - البحث الثالث ) فلسفة التاريخ
٥٦٣	.....	كلمة البدء
٥٦٤	.....	آراء في فلسفة التاريخ

٥٦٥	..... الحتمية التاريخية
٥٦٦	..... الحتمية التاريخية وإرادة التحدي
٥٧٠	..... هذه حتميات التاريخ
٥٧٢	..... فصول الصراع
٥٧٥	..... الظلم الذاتي
٥٧٩	..... التنبؤ بالمستقبل
٥٧٩	..... مسار التاريخ
٥٨٤ - ٥٨٣	..... ( القسم السابع - مناهج القياس )
٦١١ - ٥٨٥	..... ( البحث الأول )
	تعريف لا بد منها
٥٨٧	..... كلمة البدء - التصور
٥٨٨	..... اللغة - الكلي والجزئي
٥٩١	..... التضاييف ومنطق العلاقات
٥٩٩	..... اقسام التعرف
٦٠٠	..... شروط التعريف
٦٠٠	..... بين القسمة والتصنيف
٦٠٦	..... القضية الشرطية - اقسام الشرطية المنفصلة
٦٣٦ - ٦١٣	..... ( البحث الثاني ) الاستدلال اقسامه وشروطه
٦١٣	..... الاستدلال المباشر
٦١٥	..... العكس المستوي
٦١٧	..... أمثلة العكس المستوي - عكس النقض مخالف أو موافق
٦١٨	..... عكس النقض
٦٢١	..... النقض التام ونقض الموضوع
٦٢٢	..... الفائدة المتوخاة من الاستدلال المباشر
	الاستدلال ( غير المباشر ) القياسي
٦٢٢	..... مصطلحات القياس
٦٢٤	..... شروط القياس

٦٢٨	شروط الكيف
٦٢٩	الاشكال الاربعة
٦٣١	انواع الاشكال الاربعة
٦٣٢	تطبيق الشروط في الشكل الاول
٦٣٤	شروط الشكل الثاني
٦٣٥	شروط الشكل الثالث - شروط الشكل الرابع
٦٦٧ - ٦٣٧	( البحث الثالث ) المنطق الرياضي
٦٣٩	كلمة البدء
٦٤١	تحديد المحمول
٦٤٥	بين الكلمات والرموز
٦٤٦	رموز الاضافات
٦٤٧	إضافة التماثل
٦٤٧	اضافة التمدي - التضايف المشترك
٦٤٨	التضايف المترابط - دور الاضافات في القضايا
٦٤٩	الحساب المنطقي
٦٥١	الصنف ومسلوبه - الاضافات المنطقية
٦٥٢	اضافة التساوي
٦٥٣	حساب الاصناف
٦٥٥	الرموز في القضايا الحملية
٦٥٦	الجبر المنطقي
٦٥٧	قواعد تجربة فن
٦٦٣	حساب القضايا
٦٦٤	القضايا والدوال القضائية
٦٦٦	الدوال القضائية
٦٦٩ - ٦٧٦	المصادر
٦٦٩	المصادر الدينية
٦٧٠	المصادر العلمية

